الأدب في العصر المملوكي

الجزء الرابع

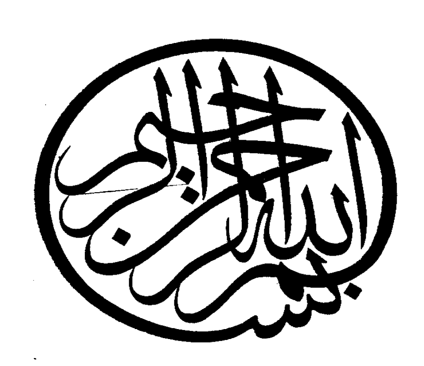
دراسة في المجتمع والثقافة والأدب

زمن الدولة الثانية

دكتور / محمد زغلول سلام

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه

الناشـــر : **منشأة المعارف**
٤٤ ش سعد زغلول ـــ محطة الرمـــل ـــ ت / ف : ٤٨٣٣٣٠٣ الأسكندرية
٣٢ ش دكتور مصطفى مشرفة ـــ سوتـــير ـــ ت : ٤٨٤٣٦٦٢ الأسكندرية
اسم الكتـــاب : الادب في العصر المملوكى "جزء رابع"
اسم المؤلـــــف :محمد زغلول سلام
رقـــم الايـــداع : ٩٨/١٣٤٥٨
الترقيم الـــدولى :977-03-0517-0
الطبعـــة : الاولى فبراير ١٩٩٩
التجهيزات الفنيـــــة : سلطان كمبيوتر
الطبـــــــع : مطبعة رمضان و اولادة



مقدمة الطبعة الأولي

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام علي سيدنا محمد خاتم النبيين

وبعد فهذا هو الجزء الثالث من الأدب في العصر المملوكي ويتعرض لحال الأدب في دولة المماليك الثانية أو دولة مماليك الجراكسة

وقد سرت فيه علي النهج السابق في الجزئين الأول والثاني محاولاً فيه أن أعرض لحال الأدب في هذه المرحلة الدقيقة من حياة الأمة المصرية وهي تضم تراث العروبة والإسلام، وتعمل جاهدة علي الحفاظ علي الأرض العربية والإسلامية في هذه البقعة المقدسة من الأرض لتظل جذوة الإسلام متقدة حتي تسلمها للأجيال.

وقد عنيت بإبراز الإطار السياسي والاجتماعي لهذا الأدب، كما لم أعرض لحال الأدب في صورته المعروفة شعراً ونثراً، بل تجاوزت هذا إلي مفهوم أعم فعرضت للفكر العربي والإسلامي كله مظهراً لأنجازاته الهامة ومنبهاً إلي أهم العلماء في كل مجال من مجالات ذلك الفكر العربي والإسلامي ممن كان لهم أعمال خالدة يشار إليها بالبنان، وظلت إلي الآن معالم في تاريخ الفكر العربي والإسلامي، بل والفكر العالمي كله من أمثال ابن خلدون وابن حجر العسقلاني والمقريزي، والسيوطي والسخاوي.

ولم أغفل الجانب الشعبي في حديثي عن الأدب والفن، فقد أبرزت ألواناً من فنون الشعب وآدابه ظهرت وطفت علي سطح الحياة الأدبية وكانت لها آثارها علي كبار الأدباء والشعراء ممن يكتبون بالفصحي.

ولاعتقادي أن الفكر والفن والأدب من عطاء المجتمع، وهي كلها صورة للنشاط الإنساني تعكس أفراحه وأتراحه، وتختزن آماله ومآسيه، فقد ربطت بينها جميعاً وقدمت بمقدمه عن الحياة والناس محاولاً الاقتراب من عامة الشعب ومن هموم أيامهم ولياليهم في دروب العيش في عصر اضطربت فيه الأحوال واهتزت المقاييس، وكان غنياً فقيراً فيما وهب وأعطي، وفيما عجز عنه وقصر فيه.

وبعد فلعلي أن أكون قد جلَّيتُ جوانب هذا العصر الذي أهمله التاريخ ولم يعطه حقه، وهو بعد في حاجة إلي كثير من الجهود لأنه ماضينا القريب.

والله الموفق والمعين.

محمد زغلول سلام- القاهرة ١٩٨٥



مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

وبعد فهذه الطبعة الثانية من الجزء الثالث من كتاب «الأدب في العصر المملوكي» وتتناول الحياة الفكرية والفنية والأدبية في عصر الدولة المملوكية الثانية، وتزيد هذه الطبعة عن سابقتها بعض جوانب في البابين الأول والثاني، كما تضيف كثيراً من النصوص والترجمات لرجال العصر من المفكرين والعلماء والأدباء للباب الرابع، ولشرح بعض ماأوجز مما اضطر إليه السياق ودعت إليه الحاجة.

وأفادت هذه الطبعة من كثير من المصادر الأصلية التي صدرت بعد ظهور الطبعة الأولي، كما أفادت من الدراسات المتصلة بالعصر مما استجد، أو لم يتح الإطلاع عليها قبل صدور الطبعة الأولي، وهكذا أستطيع أن أقول إن هذه الطبعة أضافت كثيراً من المادة العلمية والأدبية مما زادها وفاء بالغرض المستهدف من الكتاب، ولاأدعي أنني بلغت بها درجة الكمال، فالكمال لله وحده، ولايزال الباحث يسعي للوصول إلي تمام المعرفة، وأني له، وعلي قدر الجهد تكون الحصيلة.

والله الموفق إلي سواء السبيل

محمد زغلول سلام

مصر الجديدة في ١٠ / ١٠ / ١٩٩١



مقدمة الطبعة الثالثة

العصر المملوكى الثانى وسيرة التاريخ

مصر وأوروبا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين العلاقات بين الشرق والغرب بعد الحروب الصليبية.

عصر النهضة وعصور التنوير والتغيرات الإجتماعية والعلمية والثقافية حركة الطبقة الوسطى البرجوازية واختفاء سيطرة البابوات والأقطاع وحكم الأسرات الأرستقراطية – وظهور النزعات الشعبية والديمقراطية الاتجاه إلى التوسع والتطلع إلى الاستعمار – بدء حركة الأستكشاف فاسكودى جاما ، ماجلان ، اميركو ، وكولومبس .

إنتقال الحركة الأقتصادية من مدن إيطاليا إلى الدول الأوروبية، الصراع الأوروبى بين فرنسا وإنجلترا ، وأسبانيا ، وألمانيا.

ظهور فنون الزخرفة الركوكو والباروك.

تحول الفن من الدين والكنيسة إلى الملوك والحكام وتسجيل أعمالهم وظهور فنون البورتريه لأشخاص الملوك والقادة وأمراء الأقطاع الإهتمام بالشرق وظهور الأثار المشرقية فى الفنون والآداب.

علاقات مصر بدول البحر والمتوسط والتحول من العلاقات بيزنطية والدولة الرومانية إلى جمهوريات المدن الإيطالية – القبارصة ، والبندقية ، وجنوة ، وبيزا ثراء المدن الإيطالية بالتجارة مع الشرق.

قناصل البندقية وجنوة بمصر :

مكانة مصر فى محيط الأقاليم المحيطه ونمو علاقاتها الأفريقية

العلاقة بمملكة النوبة والحبشة وممالك شرق أفريقيا . مالى وغانا العلاقات بالمغرب العربى .

العلاقات بالمشرق بالدولة العثمانية فى آسيا الصغرى - فتح العثمانين للقسطنطينية وتوسع العثمانين فى بلاد أوروبا والبلقان السلطان محمد الفاتح وخلفاؤهم.

الدول الإسلامية فى العراق وفارس الصفوية والمشرق والهند وظهور المغول المسلمين الأزدهار الإقتصادى والحضارى لمصر فى القرن الثامن الهجرى(الرابع عشر الميلادى) القاهرة مركز العالم المتحضر - المبانى السلطانية والمملوكية - وروعة فنون العمارة والزخرفة اليدوية، مساجد قلاوون، والسلطان الناصر محمد والسلطان حسن بن محمد الخانقاه، والمدارس، والحمامات، والوكالات التجارية.

إنشاءات قايتباى والغورى فى الدولة الثانية فى القرن التاسع (والخامس عشر الميلادى).

لقد كانت دولة المماليك الجراكسة نهاية مرحلة حضارية سادتها الحضارة الإسلامية، وأعطت عطاءها، وكانت الحضارة العربية الإسلامية قد بلغت الذروة فى القرن الرابع ، العاشر الميلادى ، وكان هذا الأزدهار الحضارى بداية لتطلع قوى جديدة إلى أرض هذه الحضارة وعلى وجه خاص القوة الغربية الأوروبية ممثلة فى حركة الحروب الصليبية التى كان الصدام بينها وبين الحضارة العربية الاسلامية على أرض الشام ومصر وهى سرة الدولة .

وكان لهذا الصدام الذى استمر ما يقرب من مائتى عام آثاره الكبرى على حضارة الاسلام التى أذنت بغياب هذا اللقاء والصدام تلاحق الحضارتين وإنتقال بذور النبت الجديد من شجرة الحضارة الإسلامية إلى أرض الحضارة الغربية النائية.

وقد تجمعت فى دولة المماليك خلاصات الحضارة العربية الاسلامية من المشرق والمغرب لتعطى آخر ما ادخرته فى هذه الدولة، وشاءت سيرة التاريخ أن تتوهج فى هذه الدولة جمرة الحضارة العربية الاسلامية توهجها الأخير قبل خمودها منذ القرن العاشر الهجرى السادس عشر للهجرة.

وكان عصر الدولة الثانية عصراً فاصلاً بين مراحل التاريخ الإنسانى فقد إنتقلت الإنسانية إلى عصور النهضة والعلم والتنوير، وأدت لإكتشافات العلمية الخطيرة التى أسرعت بمسيرة الإنسانية من جغرافية كأكتشاف كروية الأرض والطرق الجديدة حول رأس الرجاء الصالح، واكتشاف قارة أمريكا. واكتشاف البارود الذى كان بين أسباب زوال دولة المماليك الثانية وبزوغ شمس أوروبا العسكرية وقوتها المادية والمعنوية ، فضلاً عن الكشوف الأخرى فى ميادين العلم والفكر والمجتمع عامة.

ومن هنا كان تسليط الضوء على دولة الجراكسة آخر قوة اسلامية عربية فاعلة ومؤثرة فى نظرنا أمراً هاماً ليطلعنا علي دور مصر فى مسيرة التاريخ منذ العصورالوسطي وحتى الآن ليضاف إلى دورها الحضارى فى التاريخ القديم.

دكتور محمد زغلول سلام

القاهرة في ١٨/١٠/١٩٩٨



الباب الأول

صورة العصر
المكان والبشر

الباب الأول
صـــورة العصـــر

الفصل الأول
أرض السلطـنة

ورث سـلاطين الجـراكسـة أرض الدولة التي ملكهـا ملوك مـصـر وخلفـاؤها أوسيطروا عليها منذ إستقلالهم بمصر ذاتياً في عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية أو تاماً في عصـر الفاطمـيين والأيوبيين والمماليك . وكانت الأرض التي تسـيطر عليـها هذه الدول تزداد رقعتـها أو تنقص بقوة الدولة أوضعفهـا ، وبخروج بعض الأقاليم عليـها جزئيـاً أوكلياً ، وإنفصـال أجزاء منها . بقوة حكامها من الأمراء قسراً أو رضـا واتفـاقـاً مع بقائـها في دائرة نفوذ وإن لـم تخضع خضـوعـاً مبـاشـراً وظلت الممالك كما سماها الكتّاب الدولة في عصر المماليك - الرئيسية في الدولة هي : المملكة المصرية ، أي إقليم مـصر بحدوده الجغرافيـة المعروفـة والمملكة الشـاميـة ، وأضيف ، إليهما في أزمان متفاوتة بعض أقاليم من جزيرة الفرات ، وأرمينيا ، وشرق أقليم آسيـا الصغرى ، ثم المملكة الحجازية وتضم أرض الحجاز في شرقي الجزيرة العربية من أقصى الشمال على حدود الشام إلى أقصى الجنوب على حدود اليـمن ، وتنضم إليـها في بعض العصور بلاد اليـمن ، أو أطراف منهـا ، وبعض مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية.

وتضـاف أحيـانا بعض أجزاء إلى المملكة المصرية من الغرب ، كما تضـاف إليها أطراف في الجنوب من شمالي السودان والنوبة.

لقد أصبحت مصر في عصر المماليك "أم الدنيا" لأنها عادت أقوى دولة بالمنطقة كلها ، وفي هذا المحيط الإقليمي بين القارات الثلاث وعرفت دولة السلطنة المملوكية بممالكها الثلاث بدولة « البرين والبحرين ، لأنها سيطرت على برى الشام ومصر ، وامتلكت بحري «القلزم» الأحمر والروم «الأبيض المتوسط».

وبلغت من الحضارة والغنى والقوة والعلم ، والفن مبلغاً عظيماً حتى توافد إليـها الناس من بلاد العالم مشرقه ومغربه عرباً ومسلمين وغير عرب ومسلمين لينهلو من موارد الحضارة ، وليفيدوا من تجارتها المزدهرة الرائجة.

المملكة المصرية

كانت مصر قاعدة السلطنة، وبها القاهرة عاصمتها، ومجتمع حضارتها ومحلى رقيها، ومعرض ثقافتها وفنونها، وقد بلغت أقصى إتساعها فى هذا العصر، إذ ورث المماليك ملك الأيوبيين فى مصر والشام والمشرق بالجزيرة الفراتية وأرمينيا واليمن والحجاز والنوبة شمال السودان.

وبلغت دولتهم من الإتساع والقوة، أقصى مابلغته مملكة مصر منذ العصر الفرعونى فى الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

وورثت القاهرة الفاطمية، الفسطاط العربية منذ حل الفاطميون بمصر وأقاموا دولتهم المستقلة التى ناوأت الدولة العباسية فصارت القاهرة عاصمة الدولة المستقلة بعد أن كانت الفساط عاصمة الولاية المصرية طوال عصر الدولة الاسلامية، والأموية والعباسية حتى منتصف القرن الرابع الهجرى أو ٣٦٠ هـ.

قال القلقشندى :

« ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتها، وتتجدد معالمها خصوصاً بعد خراب الفسطاط، فى آخر العصر الفاطمى وبداية العصر الأيوبى، وإنتقال أهلها إليها، فقد صارت على ماهى عليه فى زماننا (القرن التاسع الهجرى) من القصور العلية والدور الضخمة والمنازل الرحيبة، والأسواق الممتدة، والمناظر النزهة، والجوامع البهجة والمدارس الرائقة، والحدائق الفاخرة مالم يُسمَعْ بمثله فى قطر من الأقطار ولا عهد بنظيره فى مصر من الأمصار.

وغالب مبانيها من الآجر، وجوامعها ومدارسها وبيوتَ رؤسائها مبنيةً بالحجر المنحوت، مفروشة الأرض بالرخام، مؤزرة الحيطان به، وغالب أعاليها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة، وكلُّها أو أكثرها مبيضة الجُدرِ بالكلْس الناصع البياض.

ولأهلها القوة العظيمة فى تعلية بعض المساكن على بعض حتى إن الدار تكون من طبقتين إلى أربع طبقات، بعضها على بعض، فى كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها وأسطحةُ مقطعةُ بأعلاها بهندسةٍ مختلفة وصنائع عجيبة ».(١)

---

(١) صبح الأعشى ٣ / ٤١٩

وكان إهتمام الناس بمساكنهم، وبأناقة مظهرها، وجميل مخبرها، ماصار حديث بعض الكتاب، حتى إننا نقرأ لمن كتب عن السكن وخصه بكتاب يصف هيأته، وتنسيقه، وما ينبغى أن يتوفر فيه من وسائل الراحة وموجبات المتعة والسعادة .

ونعرض فى حديثنا عن الأدب بعضاً مما جاء فى الموضوع من مثل كتاب

« مطالع البدور من منازل السرور » للغزولى.

وقد برع صنَّاع مصر وحرفيوها المهرة فى تشييد، وتجميل مساكن القاهرة قال ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار « لاترى مثل صناع مصر فى هذا الباب وبظاهرها (أى المساكن) البساتين الحسان، والمناظر النزهة، وبالقاهرة الآن المطلة على النيل، والخلجان الممتدة منه ومن مّده، وفيها المنتزهات المستطابة خصوصاً زمن الربيع لغُدرانها الممتدة من مقطعات النيلَ وما حولها من الزروع المختلفة، وأزهارها المائسة اَلتى تسرُ الناظر وتبهج الخاطر » (١)

وصف ابن خلدون القاهرة عندما شاهدها لأول مرة بعد مجيئة من المغرب وقد هالته عظمة مبانيها وروعة عمرانها وكثرة سكانها، فقال :

« .. رأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرح الذَّر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسىُّ المُلْك. تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهو الخوانق والمدارس، والمواكب، بأفنائه، وتضئ البدور والكواكب من عليائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيه العَلَلَ والنَّهل من سَيْحه، ويُجَنَىَ إليهم الثمرات والخيرات ثَجُّه. واسواقها تَزخرُ بالنعم » (٢)

ويصف المقريزى القاهرة فى العصر نفسه فيقول :

« واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصارا بلداً واحداً، يشتمل على البساتين والمناظر والقصور، والدور، والرّباع والقياسر، والأسواق، والفنادق، والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط، والحارات، والأحكار، والمساجد الجوامع، والزوايا والربط، والمشاهد والمدارس والتُّرب والحوانيت والمطابخ والشُون،

---

(١) القلقشندى نقلاً عن المسالك صبح الأعشى ٣/ ٤١٩

(٢) التعريف بأبن خلدون ص ٤٦ .

والبرك، والخلجان والجزائر، والرياض والمتنزهات، متصلاً جميع ذلك بعضه ببعض» قال : «ومازالت هذه العمائر والأماكن فى كثرة العمارة وزيادة العدد تضيق بأهلها لكثرتهم، وتختال عُجبا بهم لما بلغوا فى تحسينها، وتأنقوا فى جودتها وتنميقها إلى أن حدث الفنا، الكبير سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فَفَنِيَ كثير من هذه المواضع، وبقى كثيرٌ أدركناه» (١)

قلعة القاهرة :

وأهتم المماليك بالقلعة بأعتبارها مقر الحكم، وسكن السلاطين فتوسعوا فى إنشاءاتهم بها من القصور والقاعات، والجوامع، حتى جعلوا منها مدينة ملكية بالإضافة إلى ما جاورها من الميادين والحدائق والمتنزهات التى اعتبرت مكملة لها.

وبنى الأمراء وكبار رجال الدولة قصورهم، ودورهم فى الأماكن المحيطة.

أعمال مصر المستقِرَّة (محافظاتها وولاياتها)

ويذكر القلقشندى أن أعمالها بالوجه القبلى كانت تسعة هى : الجيزية (محافظة الجيزة)، وقاعدتها مدينة الجيزة، والأطفيحية، والبهنساوية (محافظة بنى سويف الآن). وعاصمتها البهنسا والفيومية، ويقول القلقشندى إن عدد قرأها قل فى عصره لركوب مياه بركة قارون عليها وإجتياحها، وكانت مدينة الفيوم مدينة حسنة على بحر يوسف، زاهية المعالم، وبها الجوامع والرُبط والمدارس، ويخترق بحر يوسف وسطها. وعمل الأشمونين (محافظة المنيا). يقول القلقشندى إنه عمل واسع، كثير الزرع، واسع الفضاء، متقارب القرى، ومقر الولاية به الأشمونين، والمنفلوطية (وتتقسم بلاده الآن محافظتا المنيا وأسيوط). يقول القلقشندى : وهو من أخص خاص السلطان الجارى فى ديوان وزارته، ومنه يحمل أكثر الغلال إلى الأهراء السلطانية بالفسطاط، وعاصمة العمل مدينة منفلوط وهى مدينة لطيفة بالبر الغربى من النيل بالقرب من شطِّه. والسيوطية. قال القلقشندى : وهو عمل جليل ومقر الولاية مدينة أسيوط وتكتب بغير ألف (٢)، قال القلقشندى، وإثبات الألف فيها

---

(١) الخطط ١/٣٦٥ .

(٢) وهو الاسم القديم «سى أوط». .

هو الجارى على السنة العامة بالديار المصرية، والثابت فى الدواوين حذفها (أى الألف). قال : وهى مدينة فى البر الغربى من النيل، على مرحلة من منفلوط. وبها مساجد ومدارس وأسواق وقياسر وحمامات، ويفصل بينها وبين النيل جسر تحفة الحقول والبساتين الزاهرة.

والإخميمية (وتضم معظم محافظة سوهاج). قال القلقشندى : وهو عمل ليس بالكبير، وبلاده أكثرها بالبر الغربى عن النيل وحاضرته مدينة إضميم وهى مدينة لطيفة بالبر الشرقى على النيل على مرحلتين من أسيوط، وبها كانت البرابى (المعابد الفرعونية) العظام. ويقال إن ذا النون المصرى العابد الزاهد منها، وولايتها مضافة إلى قوص.

والقوصية ، وتضم بلاداً من محافظتى سوهاج وقنا وأسوان الآن. قال القلقشندى: وهو عمل متسع الفضاء، بعيد ما بين القرى ينتهى آخره إلى أسوان آخر الديار المصرية فى البر الشرقى والغربى. وهى بلاد التمر، ومنها يجلب إلى سائر البلاد المصرية ومقر الولاية قوص، وهى مدينة جليلة فى البر الشرقى من النيل، ذات ديار فائقة ورباع أنيقة، ومدارس وربط وحمامات، يسكنها العلماء والتجار وذوو الأموال وبها البساتين والحدائق المستحسنة.

وكانت ولاية قوص والمدينة نفسها من أهم أعمال الوجه القبلى وأكثر مدنه أزدهاراً وحياة لموقعها الخاص فى طريق التجارة والحج، من عيذاب على البحر الأحمر.

وأما أعمال الوجه البحرى كما ذكر القلقشندى فكانت أربعة أعمال شرقى النيل هى : الضواحى أو ضواحى القاهرة ومنها عين شمس. وعمل القليوبية قال القلقشندى : وهو مضاف للضواحى. ووصفها بأنها عمل جليل حسن القرى كثير البساتين، غزير الفواكه، ومقر الولاية به مدينة قليوب.

قال : ومن بلاده بلدتنا (قلقشنده) وهى بلدة حسنة المنظر، غزيرة الفواكه وإليها ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير.

والعمل الثالث شرقى النيل : الشرقية (محافظة الشرقية الآن) قال القلقشندى : وهو مصاقب للضواحى من شماليها مما يلى جهة المقطم والقليوبية من جهة الشمال

أيضاً وهو من أعظم الأعمال وأوسعها إلا أن البساتين فيه قليلة، بل تكاد تكون معدومة لإتصاله بالسباخ، وبداوة غالب أهله. وآخر العمران فيه من جهة الشمال الصالحية وما وراء ذلك منقطع رمال. ومقر ولايته مدينة بلبيس «وهى مدينة متوسطة بها المساجد والمدارس والأسواق، وهى محط رحال الدرب الشامى. وفى الركن الغربى الجنوبى من هذا العمل (على النيل) بنها. قال : وهى البلدة التى أهدى المقوقس إلى النبى من عسلها.

والعمل الرابع من أعمال شرقى فرع دمياط الدقهلية والمرتاحية، قال وهو مصاقب لعمل الشرقية من جهة الشمال، وأواخره تنتهى إلى السباخ وإلى بحيرة تنيس المتصلة بالطينة (سهل الطينة بسيناء الآن). ومقر الولاية مدينة أشموم وهى مدينة صغيرة على ضفة فرع دمياط. وبآخر هذا العمل مدينة دمياط. قال : وهى مدينة حسنة عند مصب الفرع الشرقى للنيل فى بحر الروم. ذات أسواق وحمامات.

وأماغربى الفرع الغربى للنيل (فرع رشيد) فيقع عمل البحيرة، ومزاحمتين ويلى هذين العملين شمالاً بغرب مدينة الاسكندرية.

فأما عمل البحيرة فيقول إنه عمل واسع كثير القرى، فسيح الأرضين، ومقر ولايته مدينة دمنهور، وتعرف بدمنهور الوحش، وهى مدينة متوسطة ذات مساجد ومدارس وأسواق وحمامات، وعمل المزاحمتين، شمال خليج الاسكندرية (الآخذ من نيل رشيد) وعاصمته (فُوَّه) وهى مدينة متوسطة شرقى النيل فرع رشيد وليس بها ولاية، وإنما يكون بها شادّ للخاص.

وأما الإسكندرية، فهى عمل قائم بذاته أصبح متوليها نائباً للسلطان فى عصر دولة الجراكسة. يقول المقريزى وهى الآن بالنسبة إلى ما تشهدبه التواريخ من بنائها القديم جزءٌ من كل. وهى مع ذلك مدينة رائقة المنظر، حسنة التوصيف، مبنيةٌ بالحجر والكلس، مبيضة البيوت ظاهراً، وباطناً كأنها حمامةٌ بيضاء، ذاتُ شوارع مشرعة، كلُّ خط قائم بذاته كأنها رقعة الشطرنج، يستدير بها سوران منيعان، يدور عليهما خارجهما خندق فى جوانب البلد المتصلة بالبر ويتصل البحر بظاهرها من الجانب الغربى مما يلى الشمال إلى الشرق حيث دار النيابة، وبهما أبراج حصينة عليها الستائر المشفرة والمجانيق المنصوبة.

قال : وقد أحصيت مساجدها فى وقت من الأوقات فكانت عشرين ألف مسجد وبها الجوامع والأسواق الممتدة، والخوانق والرُبط والزوايا والحمامات والديار الجليلة. وفيها ينسج القماش الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا، وإليها تهدى ركائب التجار فى البر والبحر وتُميزُ من قماشها جميع أقطار الأرض، وهى فرضة بلاد المغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم والشام. وشرب أهلها من ماء النيل من صهاريج تملأ من الخليج الواصل إلى داخل دورها، وإستعمال الماء لعامة الأمر من آبارها، وبجنبات تلك الآبار والصهاريج بالوعات تصرف فيها مياه الأمطار ونحوها. وبها البساتين الأنيقة، والمنتزهات الفائقة، ولهم بها القصور والجواسق الدقيقة البناء المحكمةُ الجدر والأبواب.

وبها من الفواكه والثمار ما يفوق فواكه غيرها من الديار المصرية حسناً مع رخص الثمن. وليس بها مزارع، وليس لها عمل واسع، وإن كان متحصلها يعدل أعمالاً من واصل البحر وغيره. وهى أجل ثغور الديار المصرية. لا يزال أهلها على يقظة من أمور البحر والأحتراز من العدو الطارق. وبها عسكر مستخدم لحفظها.

وأما وسط الدلتا بين فرعى النيل فكان به عملان الأول المنوفية، ومقر ولايته مدينة منوف، قال القلقشندى : وهى مدينة إسلامية بنيت بدلاً من مدينة قديمة كانت هناك ثم خربت الآن، وبقيت آثارها كيماناً. وولايتها من أنفس الولايات.

والعمل الثانى الغربية (محافظة الغربية الآن) وهو مصامت للمنوفية من جهة الشمال قال : وهو عمل جليل القدر، عظيم الخطر، به البلاد الحسنة والقرى الزاهرة والبساتين المتراكبة، وفى آخره مما يلى بحر الروم موقع ثغر البرلس.

ويندرج فيه ثلاثة أعمال وهى القويسنية نسبة إلى بلد قويسنا، والسمنودية والمحلة وتعرف بالمحلة الكبرى. وهى مدينة عظيمة الشأن، جليلة القرار، رائقة المنظر، حسنة البناء، كثيرة المساكن، ذات جوامع ومدارس، وأسواق وحمامات، وهى تعادل قوص من الوجه القبلى فى جلالة قدرها، ورياسة أهلها.

تلك صورة موجزة لأرض المملكة المصرية كما عرضها القلقشندى فى هذا العصر. وهى صورة ترسم للقارئ موقع مصر وعمرانها وثرواتها، وتمهد له ما نعرض له فى الحديث عن بقية ممالك السلطنة، وما يدور على أرضها من أنشطة بشرية، تمهد لها

طبيعتها السخية والعلاقة الحميمة بين الأرض والبشر مما مكنها من أن تكون أرض مبعث الحضارة، ومحل التقدم والقيادة.

وأما مملكة الشام.

المملكة الشامية وما يتصل بها من بلاد الأرمن والروم وبلاد الجزيرة من الفرات والدّجلة مما هو مضاف إلى هذه المملكة.

وحدود هذه المملكة كما ذكرها القلقشندى جنوباً من تيه بنى اسرائيل وبر الحجاز والسماوة إلى مرمى الفرات بالعراق شرقاً. وهذه المحاذاة كلها من جزيرة العرب.

وأما من الشرق فطرف السماوة والفرات، وحده من الشمال البلاد التى بين الفرات إلى البحر الرومى وحّده من الغرب حدُّ مصر والبحر الرومى (الأبيض) من طرسوسى إلى رفح.

ويتصل بالحد الشمالى بلاد الأرمن المتصلة بآخر منطقة حلب، وتدخل فى جملة أعمال حلب.

يقول فى عاصمتها دمشق : وهى على كل حال مدينة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية ذات حواجز بنيت من جهاتها الأربع. وغوطتها أحد منتزهات الدنيا العجيبة المفضلة على سائر متنزهات الأرض، وكذلك الربوة وهى كهف فى فم واديها الغربى عنده تنقسم مياهها.

وبها الجوامع والمدارس والخوانق والرُّبط والزوايا والأسواق المرتبة والديار الجليلة المذهبة السقْف المفروشة بالرخام المنوع ذات البرك والماء الجارى، وربما جرى الماء فى الدار الواحدة فى أماكن منها، والماء محكم عليها من جميع نواحيها بأتقان محكم.

قال : ودورها غالب بنائها بالحجر وهى أصغر مقادير من دور مصر لكنها أكثر زخرفة منها وإن كان الرخام بها أقل، وإنما هو أحسن أنواعاً.

ويقارن بينها وبين دور حلب فيقول، وإن كانت حلب أجلَّ بناء لعنايتهم بالحجر فدمشق أزين وأكثر رونقاً لتحكم الماء على مدينتها وتسلطه على جميع نواحيها، ويستعمل فى عمارتها خشب شجر الحور بدلاً من خشب النخل، إلا أنه لا يغشَّى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهرة.

واشرف دورها ما غرب، وأجلُّ حاضرتها ما هو فى جانبيها الغربى والشمالى، ويقول : فأما جانبها الغربى ففيه قلعتها، وهى قلعة حسنة، مرحلة على الأرض، تحيط بها وبالمدينة جميعاً أسوار عالية، يحيط بها خندق يطوف الماءُ منه إلى القلعة.

وتحت القلعة ساحة فسيحة بها سوق الخيل على جانب واد ينتهى فيه مما يلى القلعة إلى شرفين محيطين به فى جهتى القبلة والشمال. فى ذيل كل منهما ميدان مُرَّجٌ بالنجيل الأخضر، والوادى يشق بينهما وفى الميدان القبلى منهما القصر الأبلق، وهو قصر عظيم مبنى من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر بتأليف غريب، وإحكام عجيب، بناه الظاهر بيبرس البند قدارى فى سلطنته. وعلى مثاله بنى محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر.

والوادى كامل المنافع بالبيوت الملوكية والأصطبلات السلطانية والحمامات وغير ذلك من سائر ما يحتاج إليه.

وعلى الشرفين أبنية جليلة من بيوت ومناظر ومساجد ومدارس وربط وخوانق وزوايا وحمامات ممتدة على جانبين ممتدين على طول الوادى.

وللقلعة نائب بمفردها غير نائب دمشق يحفظها للسلطان، ولا يمكن أحداً من طلوعها من النائب وغيره، وإذا دخل السلطان دمشق نزل بها. وبها تختُ مُلكَ لغيرها من ديار الملك.

ويدخل فى نيابة دمشق معظم بلاد الشام من غزة جنوباً حتى حماة شمالاً حيث تبدأ نيابة حلب.

وقد فصَّل القلقشندى الحديث عنها تفصيلاً (١)

وأما نيابة حلب فهى حامية الحدود الشمالية، وقاعدتها مدينة حلب وقلعتها الشهيرة.

وحلب مدينة عظيمة من قواعد الشام القديمة، وهى فى وطأة حمراء ممتدة، مبنية بالحجر الأصفر الذى ليس له نظير فى الآفاق. والمنازل الأنيقة، والأسواق الواسعة

---

(١) صبح الأعشى ٤/ ١٠٠ وما بعدها .

والقياسر الحسنة، والحمامات البهجة، ذات جوامع ومساجد ومدارس وخوانق وزوايا وغير ذلك.

وبها نهران أحدهما يعرف بنهر قُويق، وهو نهرها القديم، والثانى يعرف بالساجور، وهو نهر مستحدث ساقه إليها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وبظاهرها المروج الفيحُ، والبرّ الممتد حاضره وبادية، وبها عسكر كثيف وأمم من طوائف العرب والأكراد والتركمان.

وهى الآن فى غاية ما تكون من العمارة وحسن الرونق والبهجة، ولعلها قد قامت أيام بنى حمدان، ولم يزل نائبها من أكابر الأمراء المتقدمين من الدولة الناصرية فما قبلها إلى الآن.

(عصر القلقشندى فى أوائل القرن التاسع الهجرى). وهى ثانية دمشق فى الرتبة.

ويتبع نيابة حلب ما يتصل بها من بلاد الأرمن، وما يقع بالجزيرة الفراتية وهى ثلاثة أعمال

وأما المملكة الحجازية (١)

فأول قواعدها مكة المشرفة، وبها الكعبة والحرم، ومشاعر الحج الخارجة عن مكة والقرى والبلاد والوديان المحيطة، وعليها أمير مكة، وهو عربى يمشى أميرها فى إمرته على قاعدة أمراد العرب - على خلاف الحال فى مملكتي الشام ومصر، وهو من بنى الحسن أشراف مكة والقاعدة الثانية فى المملكة الحجازية المدينة، ويتبعها جملة من القرى والبلاد المحيطة مثل قُباء، وخيبر، وفدك ووادى القرى، وتيماء ودومة الجندل بالشمال وحتى مدين على ساحل البحر الأحمر فى أقصى الشمال الغربى للحجاز.

وإمارتها أعرابية كما فى مكة من غير فرق، وهو من الحسينين غالباً .

(١) صبح الأعشى ١٤٩/٤.

الفصل الثانى
المؤسسة العسكرية
السلطنة
سلاطين المماليك الجراكسة

بعد سقوط اخر مماليك الدولة الأولى، الأتراك تولى مماليك الشراكسة أو الجراكسة، ويعرفون كذلك بالمماليك البرجية مقابل المماليك البحرية ملوك وسلاطين الدولة الأولى، لأن هؤلاء الجراكسة كانوا يقيمون بالقلعة قلعة الجبل.

وقد بدأ بشراء هذه الفئة المنصور قلاوون، واقتنى منهم أعداداً كبيرة اسكنهم قلعة الجبل، بلغ عددهم أول الأمر من سبعة آلاف إلى أثنى عشر ألف مملوك.

قال ابن إياس عن قلاوون : « وهو أول من أسكن المماليك فى أبراج القلعة وسماهم المماليك البرجية »(١). وهم من جنس الجراكسة الذين يستوطنون شرقى البحر الأسود ، بينه وبين بحر الخزر وهى بلاد أرمينيا الآن. وقد أكثر منهم بعد ذلك أول سلاطينهم الظاهر برقوق، وتعصب لهم. ولم يكن ما أشتراه من خاصة مماليكه قاصراً عليهم بل اشترى بعضاً من الروم والبلغار كما قال صاحب نزهة النفوس (٢) قال : وقيل وصل جميع ما اشتراه من المماليك أيامه بدفعات متفرقة إلى أكثر من عشرين ألف مملوك. ، ولم يمت حتى عمل منهم نواب البلاد وغالب أمرائها ، وغالب الولاة والكشاف.

وحكم دولة المماليك التى امتدت من سنة ٧٨٤ هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ خمسة وعشرون سلطاناً، وبدأوا بالسلطان الظاهر سيف الدين برقوق الذى قام بإنقلابه على المماليك البحرية واستولى على السلطة سنة ٧٨٤ هـ، وإنتهوا بالسلطان الأشرف طومان بك باى الذى قتل على أيدى العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ.

---

(١) تاريخ ابن إياس ص ١٢٠ .

(٢) نزهة النفوس ٤٩٩/١ .

واختلفت سنوات حكمهم بين الطول والقصر، ولم يتجاوز أحدهم فى حكمه خمسة وثلاثين يوماً، وكان أطولهم حكماً هو السلطان برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) ١٧ عاماً، والأشرف إينال، ١٨ عاماً (٨٥٧ - ٨٦٥ هـ)، والأشرف قايتباى حوالى ٢٧ عاماً (من سنة ٨٧٣ هـ إلى سنة ٩٠١هـ)، والأشرف قنصوه الغورى ١٦ عاماً (من سنة ٩٠٦ هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ)، والظاهر سيف الدين قطز ١٥ عاماً (من سنة ٨٤٢ هـ إلي سنة ٨٥٧ هـ)، والناصر فرج ١٣ عاماً فى فترتين (من ٨٠١ - ٨٠٨ هـ ومن ٨٠٩ - ٨١٥ هـ).

واختلفوا فى مقدرتهم على الحكم، وقدراتهم من حيث الشخصية والعلم، أو الجهل والدهاء والسذاجة، والظلم أو العدل.

الظاهر برقوق
ت ٨٠١ سنة هـ

أول سلاطين الچراكسة، ومؤسس دولتهم. وصفه ابن تغرى بردى(١) فقال :

« وكان ملكاً جليلاً حازماً، شهماً، شجاعاً، مقداماً، صارماً، فطناً ، عارفاً بالأمور والوقائع والحروب .. وكان سيوساً عاقلاً، ثبتاً، وعنده شهامة عظيمة، ورأى جيد، ومكر شديد، وحْدس صائب، وكان يتروّى فى الشئ المدة الطويلة حتى يفعله، ويتأنى فى أموره، مع طمع كان فيه وشره فى جمع المال.

وكان يحب الاستكثار من المماليك، ويقدم جنس المماليك الچراكسة على غيره، ثم ندم على ذلك فى أواخر عمره بعد فتنة على باى.

واستمر فى السلطنة إحدى وعشرين سنة. وكان يحب اقتناء الخيول والجمال. وكان يتصدى للأحكام بنفسه، ويباشر أحكام المملكة برأيه وتدبيره، فيصيبُ فى غالب أموره. على أنه كان كثير المشورة لأرباب التجارب.

وكان يحب أهل الخير والصلاح، وله اعتقاد جيد فى الفقراء - يعنى الصوفيه والصلحاء. وكان يقوم للفقراء والصلحاء إذا دخل عليه أحدٌ منهم. ولم يكن يعهد هذا من ملك كان قبله من ملوك مصر.

ويبدو أنه بعد عزله عن السلطنة، وعودته إليها فى سلطنته الثانية تغيرت نظرته للناس. فأصبح يشك فيمن إقتناهم من خاصة مماليكه، وفي رجال دولته حتى الفقهاء والعلماء ساءت نظرته إليهم لتعاون بعضهم مع من انقلبوا عليه وعزلوه من امراء المماليك.

قال ابن تغرى بردى : على أنه صارَ يَغُضُّ من الفقهاء فى سلطنته الثانية من أجل أنهم افتوا فى قتاله وقتله».

ومال فى هذه السلطنة الثانية إلى تأييد عامة الناس فرفع بعضهم وقدمهم على الرؤساء حتى قال عنه المقريزى(٢) : « وكان مولعاً بتقديم الأسافل، وحط قدْر ذوى

(١) النجوم الزاهرة ٧/١٢ .
(٢) السلوك .

البيوتات. وغيَّر ما كان للناس من الترتيب، وعادى أكابر التركمان والعربان والحجازيين ببلاد مصر والشام ».

وتقرب إلى الرعية ببعض الأعمال التى تخفف عنهم أعباء الحياة فأبطل كثيراً من المكوس، وما كان يفرض على الأهالى من الأيقار على عمل الجسور .

وربما كان يهدف من وراء ذلك إلى أن يكسب مويدين لرغبته فى أن يورث السلطنة فى أبنائه كما فعل المنصور قلاوون، والظاهر بيبرس من قبل، وكما حاول أن يفعله غيره ممن جاء بعده من سلاطين الجراكسة.

واختلطت فى سيرته الأعمال الخيرة بالسيئة، واختلط العدل بالظلم، والأستبداد والقسوة بالعطف والرحمة.

فمما فعله من أعمال الخير أنه كان كثير الأنفاق على الفقراء فى المواسم، ويبعث فى كل سنة إلى بلاد الحجاز بثلاثة آلاف أردب قمحاً تفرَّق فى الحرمين. وفرَّق فى مدة الغلاء كل يوم أربعين أردباً.

كذلك انشأ مدرسة بين القصرين، ورتب لها الصوفية بعد العصر كل يوم، وجعل بها سبعة دروس لأهل العلم من المذاهب الأربعة فى الفقه، ودرساً فى التفسير والقراءات.

وتظاهر بالعدل مع ما كان يرتكب من المظالم، فقد روى صاحب نزهة النفوس أنه كان ينزل إلى الأصطبل السلطانى ويحكم بين الناس يومى السبت والثلاثاء من كل أسبوع يقول (١) « وكان ينصف المظلومين بنفسه ، وكان يصل إليه أدنى الناس، وينتصف عنده وكان يحكم بين الجندى وغلامه، وبين الأمير وعلاَّفيه، وبين المولى وعبده، وبين الشريف والوضيع، والجليل والحقير، والمسلم والذمى ».

على أنه أحياناً ما كان يراوغ الرعية فيرفع عنهم المكوس (الضرائب) ثم يعود إلى فرضها فى الخفاء إذ يأمر وزيره بتحصيلها حتى قال العوام : « السُلطان من وكُسُه عاد فى مكسه » (٢)

---

(١) نزهة النفوس ص ٤٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٨ .

ومن أفعاله السيئة كثرة مصادراته وإستيلائه على الأموال بالباطل : وذكر صاحب نزهة النفوس أنه كان يقترض من أموال اليتامى التى تحت يد قاضى القضاة خمسمائة ألف وستون ألف درهم. (١)

واقترض من تجار الكارمية ألف ألف درهم وتمنع عليهم فى السداد. (٢)

وجمع من الأموال من هذه الطرق غير الشرعية ومن مصادرات الأمراء والوزراء والولاة والكشاف وأرباب الوظائف.

وكان كثير النفقة على ملاذه وملاهيه، وخاصة رحلات صيده ولعبه.

وقال المقريزى : « واشتهر فى أيامه ثلاثة أشياء قبيحة : إتيان الذكور، واشتهاره بتقديم المماليك الحسان وتظاهر البرطيل (أى الرشاوى) يأخذها على التعيين فى الوظائف.

وقد اقتدى به السلاطين فى هذه العادة القبيحة من بعده حتى صار أخذ الرشوة عرفاً منكراً.

واسمه برقوق الچركسى العثمانى نسبة إلى جالبه من چركس الخواجا عثمان أحد النخاسين فى العصر، وابتاعه منه يلبغا الكبير أحد أمراء المماليك سنة ٧٦٤هـ وسماه برقوقاً لنتؤ عينيه.

وفى سنة ٧٨٤ هـ تآمر مع بعض الأمراد للاطاحة بالسلطان القائم وتولى السلطنة متخذاً لقب الظاهر، وبايعه الخليفة والقضاة والأمراء.

إلاً أن بعضاً من كبار أمراء الدولة لم يرتضوه سلطاناً فخرجوا عليه وعلى رأسهم الأميران الكبيران الناصرى ومنطاش. وتمكن الناصرى من خلعه ونفى إلى الكرك سنة ٧٩١ هـ وبقى بها حتى سنة ٧٩٢ هـ، ولم يلبث أن استعاد السلطنة مرة أخرى بعد أحداث ومعارك مع الأميرين الكبيرين فتسلطن للمرة الثانية سنة ٧٩٢ هـ. وخضعت له الشام بعد التغلب على منطاش بها سنة ٧٩٤ هـ وبذلك استقرت له الأمور وعاد إلى عاصمته بالقاهرة وظل كذلك حتى توفي سنة ٨٠٢ هـ.

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٨٥ .
(٢) المصدر نفسه ٣٨٦ .

وبلغ زمن تحكمه فى مصر أميراً كبيراً وسلطاناً واحداً وعشرين عاماً قضى منها بالسلطنة ستة عشر عاماً ونيفاً.

وحدث فى عصره أن تقدم تيمور لنك إلى الشام للإستيلاء عليها، وبعث بخطاب يتهدد برقوقاً إلا أن السلطان بعث إليه يهزأ من تهديده، وأعد لقتاله جيشاً فلما سمع تيمور لنك بذلك انسحب إلى بلاده بالمشرق.

وترك من عمائره بالقاهرة مدرسته البرقوقية بين القصرين، كما أقام بعض الجسور، ورمَّم سور مجرى العيون الذى يحمل الماء إلى القلعة.

الناصر فرج
(تولى سنة ٨٠٢ وتوفي سنة ٨١٥ هـ)

ابن برقوق تولي بعد وفاة أبيه وكان صبياً فى الثانية عشرة من عمره، تحقيقاً لوصية أبيه، وتعهد كبار أمرائه، وكان فرج أبيض اللون يميل إلى الصفرة، أشهل العينين، وافر الأنف، نحيف الجسد، معتدل القامة، عربى الوجه، مستدير اللحية، أشقر الذقن، مهيب الشكل. وكانت أمه رومية وكان كل من يراه يرعد لشدة بأسه وعظم سطوانه.

ابتلى زمن سلطنته بأحداث عظام من بينها عودة ابن السلطان الأشرف شعبان بمساعدة مماليك أبية إلى السلطنة، وعزلة، ثم عودته مرة أخرى.

وتآمر عليه مماليك والده برقوق، فاضطر إلى الإنتقام منهم بوحشية بأن ذبح بعضهم بيده.

وكان شجاعاً بطلاً، سفاكاً للدماء مسرفاً على نفسه، منهمكاً فى شرب الخمر، وسماع المزمور عند كثرة الجهلة مع قلة الدين .

خربت فى عهده بعض البلاد فى أحداث تيمور لنك بعد عودته مرة أخرى إلى الشام وإحتلاله حلب ودمشق وتهديده بإحتلال مصر.

وإنتهت حياته على يد بعض الفداوية الذين تسللوا إليه بقلعة حلب فى أثناء وجوده بها فقتلوه والقوا بجثته خارج القلعة سنة ٨١٥ هـ.

وقد اتهمه ابن اياس بالتهاون فى الدفاع عن الشام عند تهديد تيمورلنك لها مرة ثانية فقال : « كان الملك الناصر فرج كلما طرقته هذه الأخبار يتغافل عنها بشرب الراح وحب الملاح حتى تمكن تيمورلنك من البلاد ، وعم فعله من الفساد ».

المؤيد شيخ المحمودى

(٨١٥هـ -   )

وهو ثالث سلاطين الچراكسة، ويوصف بأنه كان معتدل القامة متركن الوجه دُرّىّ اللون، كبير الأنف، واسع العينين، أكث اللحية، غير مقبول الشكل كبير الكرشى، وكان جهورىّ الصوت، وقال المقريزى إنه كان سفيها فى كلامه.

كان فى بدايته مملوكاً للظاهر برقوق، وترقى فى الخدمة السلطانية، والإمارة حتى صار نائب طرابلسى الشام، ثم نائب حلب فى عهد السلطان فرج. وقع فى أسر تيمور عند استيلائه على حلب. ووقعت له مع الناصر فرج وقائع إذ قبض عليه وحبسه بخزانة شمايل.

وخرج من سجنه فاتجه إلى الشام وإنضم إلى الأمراء المعارضين للناصر فرج وبعد مقتل فرج بقلعة حلب أختلف الأمراء حول من يتولى السلطنة، وإتفقوا على أن يولوا الخليفة العباسى المستعين بالله حلاً للنزاع بين الأمراء، وعلى رأسهم نوروز، وربما كانت هذه مكيدة من المؤيد ليبعد منافسه نوروز ويتفرد هو بعد ذلك بالسلطة بعد أن ينحى الخليفة. وهذا ما حدث وبعد توليه رحب الناس به لإختلاف طباعه عن سابقة الناصر فرج، فقد كان محباً لعامة الناس على عكس الناصر وقال فيه أحد الشعراء وهو الشيخ ناصر الدين ابن كميل :

تسلطن الشيخ وزال العنا ... فالناس فى بشرٍ وتيهٍ وفيْخ

فلا تقاتلْ بصبىٍّ ولا ... تَلْقَ به جيشاً وقاتِلْ بشيْخ

وكان المؤيد ميالاً للهو، والطرب، يشرب الراح، ويميل إلى الملاح، ويستعمل الأشياء المخورة على حد قول بعض مؤرخى العصر من المصطلات، ويقرب أرباب الفنون من الموسيقى والعازفين والمغنين، وكانوا يتباهون فى أيامه فى فنونهم لجودة فهمه، وحسن معرفته، وكان يغنى. ويعزف فن الموسيقى، وينظم الشعر. ومن نظمه قوله :

فَتَنَتْنا سوالفٌ وخُدُودُ ... وعُيونٌ نواعسٌ وقُدُودُ

أسَرَتْنَا الظِّبا وهـنَّ نعـاسٌ   وخضعنـالها ونحن أسـودُ

وهذا النظم متأثر بمأثور من الشعر القديم فى معانية، مما يشير إلى معرفته بالتراث الشعرى وحفظه لكثير منه أو لبعضه. ويقول ابن إياس « إنه كان يصنع الشعر للمغنين، وله أشياء كثيرة من الفن دائرة بين المغنين».

وكان من أحب ندمائه وأقربهم إليه واحد من أشهر موسيقى العصر، وأحذقهم فى العزف على العود، وهو إبراهيم بن بَابَى. قال عنه السخاوى(١) «إليه المنتهى فى جودة الضرب بالعود (ت ٨٢١ هـ) أحد ندماء المؤيد ومغنيه . كان أعجوبة زمانه فى ضرب العود والغناء، ولم يكن جيد الصوت، بل كان رأساً فى العود، وفى فن الموسيقى ، إنتهت إليه الرياسة فى ذلك».

وكان المؤيد لحبه الغناء والأصوات النَّديّة قد إختار لقراءة القرآن فى مجلسه، وأن يؤم به الصلاة « الخجندى» وهو من الشيوخ المتقنين للقراءة. قال عنه السخاوى « وكان جيد القراءة فى المحراب إلى الغاية، ندىَّ الصّوت بحيث كان يشارك فى الموسيقى». (٢)

وكان المؤيد يفخر بشعره الذى يصنعه للغناء فيقول :

وأنا الخاصكىّ شيخ المؤيّد   نظـم شعـرى جواهـر وعقـودُ

ويجمع مجلس سمره بين الفن والغناء والأدب فيضم من أدباء العصر الكاتب الأديب ابن حجة الحموى، فصار جليسه المفضل، وشاعره المقدم، تعرف عليه فى الشام أيام كان نائباً بحلب، واصطحبه إلى القاهرة، وظل ملازماً له بعد سلطته وكان ابن حجه شاعر المؤيد الذى سجل فى شعره كثيراً معاركه وصراعاته مع الأمراء المنافسين، ومع السلطان السابق الناصر فرج. كما أشاد به وبأعماله، وكان يوالى نظم القصائد فى كل مناسبة هامة.

وتقول المصادر أن المؤيد كان منقاداً لأهل الشريعة، ويحب أهل العلم، ويقرب الفقهاء والعلماء ، الصلحاء وغيرهم.

---

(١) الضوء اللامع ٢/٣٢ .
(٢) ذيل السلوك ١٨٨ .

وكان فى الوقت نفسه شديداً على الأمراء والمماليك. قتل منهم جماعة.

وقالوا : كان ملكاً جليلاً كفأ، عارفاً بأحوال المملكة، وافر العقل، مقداماً فى الحرب. وكان كريماً على من يستحق الكرم، شحيحاً على من يستحق الشُح.

ومن آثاره أنه بنى كثيراً من العمائر، وأهمها مسجده الكبير (مسجد المؤيد، وبه مدرسته، وهو القائم الآن عند باب زويله أو بوابة المتولى، بمئذنتيه الشهيرتين فوق برجى الباب وعلى جانبيه. ويطلق اسم المويد على الحى الذى يقع به هذا المسجد. وهو من أحياء القاهرة الشعبية الشهيرة، المؤيد».

كما عمَّر بالشام كثيراً من الأماكن.

ويقول المؤرخون إن معظم أيامه كانت أمناً ورخاء.

الأشرف برسباى

٨٢٥ - ٨٤١ هـ

ثامن ملوك الجراكسة، تولى بعد السلطان ططر وابنه ويصفه المؤرخون بقولهم إنه كان عربى الوجه، طويل القامة أبيض اللون، مستدير اللحية، شائب الذقن، حسن الشكل، صبيح الوجه، عليه سكينة ووقار ومهابة، وكان سنه يوم تولى تسعاً وخمسين أي قريباً من الستين.

ويصفونه بلين الجانب، والمعرفة بأحوال السلطنة، وكفاءة القيادة والحكم، كما يقال إنه كان كثير البر والصدقات. وكان فى موكبه متبجلاً.

وكان فى الأصل من مماليك برقوق، وناصر المؤيد شيخ ونوروز فى خروجهم على الناصر فرج . وعن علاقته بالعلماء، وأهل الشريعة، قالوا إنه كان منقادا لأهل الشريعة يحب أهل العلم ويقربهم.

وكانت علاقته بالمؤيد حسنة فى بادئ الأمر حيث ترقى إلى أمير عشرة، وتولى بعض المناصب والولايات حتى عين فى نيابة طرابلس بالشام. إلا أن المؤيد غضب عليه، وقبضه وسجنه مدة.

وأطلق سراحه، وعاد إلى الأمارة، وتولى فى عهد ططر داودارا كبيراً وبعد وفاته، تمكن من مقاليد السلطنة، وسيطر على الحكم ثم ازاح ابن ططر ليتولى هو. وتخلص من معارضية بالسجن كالعادة

وقرب جماعة من حاشية المؤيد ليقوى بهم نفوذه ويدعم سلطانه، وإتخذ من بعضهم أعواناً.

وانشأ من العمائر مدرسته بسوق الورّاقين، ومدرسته ومقبرته بصحراء المماليك، وبنى مدرسة فى خانقاه سرياقوس، وعمَّر الوكالة التى بالصليبة والرَّبعين اللذين بها. وبعض المنشآت الأخرى بالديار المصرية.

وكانت البلاد فى عهده بصفة عامة آمنة من الحروب والفتن، وازدهرت التجارة،

وسكَّ عملة ذهبية دنانير باسمه عرفت بالبرسبيَّة الأشرفية من الذهب الخالص.

ولولا الطاعون الذى اجتاح البلاد فى عهده، وفتك بكثير من الناس، لكان عهده من أزهى عصور هذه الدولة.

وقد عمّر حتى بلغ الخامسة والسبعين، ويبدو أنه خَرِف فى آخر حياته، وصدرت عنه بعض الأعمال الشاذة، أو التى بدت كذلك فى عيون بعضهم كأمره بنفى الكلاب إلى بر الجزيرة، ومنعه النساء من الخروج إلى الأسواق (حتى إن القابلة إذا أرادت التوجه إلى مَيتَة تأخذ ورقة من المحتسب، وتحملها فى رأسها حتى تمشى فى السوق».

وقد رماه بعضهم لذلك بالجنون. وتوفى سنة ٨٤١ هـ بعد أن تسلطن قريباً من السبع عشرة سنة.

الظاهر چقمق

٨٤٢ - ٨٥٧هـ

أبو سعيد العلائي الظاهري، العاشر من الچراكسة وأولادهم .

وأصله من مماليك الظاهر برقوق. وتدرج في مناصب الأمارة حتى صار أتابك العسكر، وكان كما يقول ابن إياس - معتدل القامة، غليظ الجسد، درّي اللون، مستدير الوجه، مستدير اللحية. عليه وقار وسكينة، حسن الشكل، مهيباً في العيون فصيح اللسان بالعربية، متفقهاً، وله مسائل في الفقه عويصه ترجع إليه العلماء فيها. وكان فارساً ماهراً في الرماية بالرمح.

ويبدو أنه كان محافظاً، متزمتاً في آرائه ومواقفه الدينية، وقد عادى بسببها بعض العلماء ممن يخالفونه الرأي. وتشدد في الأخذ على يد العابثين والخارجين على حدود الدين والسلوك القويم، إذ منع السكر، ومنع خيال الظل لما يجري فيه من عبث أحياناً، وحجر على النبيذ، وشدد على النصارى واليهود أن لا يعصروا خمراً. وكبس البيوت والحارات بسبب ذلك، وأراق من الخمور شيئاً كثيراً.

ووصفه ابن إياس بالخرَق في حق العلماء إذ سجن كثيراً منهم، وصادر بعضهم وأخذ أمواله. وجمع كغيره من السلاطين والناس بين الحسن والقبيح من الخلال والتصرفات.

فما وصفه به إبن إياس من الصفات الطيبة أنه كان جليلاً ديِّناً، خيِّراً متواضعاً، كريما، يحب فعل الخير، وكان عنده لين جانب يحب العلماء وينقاد للشريعة ويقوم للعلماء إذا دخلوا عليه. قرأ بعض القرآن، وسمع الصحيحين البخاري ومسلم(١).

وكان يحب الأيتام، ويكتب لهم الجوامك، أي يجري عليهم الرزق والعطاء.

وكانت الدنيا في أيامه هادئة من الفتن والتجاريد. وكان يحسن إلى الأمراء التراكمة (الأتراك) ويعطيهم العطايا، ولعل ذلك كان ليتقوي بهم ضد مماليك برسباي الذين كانوا يقفون في معارضته. ولم يوافقوا على سلطنته في بادئ الأمر.

(١) نزهة النفوس ١/٤٩٨ .

وحدثت فى عهده بعض الأحداث التى عرفت بين المماليك بعضهم مع بعض طمعاً فى كرسى الملك. فقد تآمر عليه بعض نواب الشام لكنه تمكن من التغلب عليهم، وحدثت فتنة بعض العبيد السود بالجزيرة، فأخمدها وقبض على جماعة منهم وبيعوا رقيقاً بالأسواق.

ويصفه ابن إياس بأنه كان طاهر الذيل عفيفاً من الزنا واللواط، وكان متشدداً فى الحدّ على المنكرات كالسكر وغيره.

ولكنه يعود فيذكر من مساوئه أنه كان أذنا يسمع لمن يتقرب إليه بذم أعدائه.

وقد تسلط عليه القاضى زين الدين ابن أبى الخير ابن النحاس، وصار صاحب الحل والعقد عنده ، واستمع له فى حق القاضى المحدث ابن حجر العسقلانى من إتهام بالرشوة، فأمر بعزله مع تبرئه منها وعين البلقينى قاضياً وبدر الدين العينى فى الحسبة وكان منافساً لأبن حجر ، إلا أنه تبين الحق فأعاد ابن حجر إلى القضاء ومن أحداث عصره إنخفاض النيل وما تبعه من الغلاء سنة ٨٥٣ هـ. وغزو قبرص ورودس

وتوفى فى عهده بعض المشاهير كبدر الدين العينى صاحب التاريخ وولد السيوطى جلال الدين سنة ٨٤٩ هـ وابن إياس المؤرخ سنة ٨٥٢ هـ.

وأعيد الأحتفال بمولد السيد البدوى بعد أن أبطل زمناً فى أيام أسلافه.

وتوفى چقمق سنة ٨٥٧ هـ وقد بلغ من العمر إحدى وثمانين عاماً، ومدة سلطنته بالديار المصرية والشامية أربع عشرة سنة.

الأشرف إينال

٨٥٧ - ٨٦٥ هـ

تولى سنة ٨٥٧ هـ بعد أن خلع المماليك ابن چقمق وصادف فى يوم توليه العيد الجمعة، وخطب فيه خطبتان، فلج كثيرٌ من الناس بزوال السلطان، ولم يصح ذلك. والعجيب أن هذه العقيدة ظلت إلى الآن يعتقدها كثير من عوام الشعب فى بعض البلدان الإسلامية.

وكان يوم توليه كهلا كسابقيه المؤيد وبرسباى وچقمق فقد كان سنه فى حدود الثلاث والسبعين.

وكان طويل القامة درّى اللون، عربى الوجه، خفيف العوارض، وكان بسبب ذلك يعرف بإينال الأجرود، أى قليل شعر الذقن، ولم يتزوج سوى امرأة واحدة، وكانت فيما يبدو سيدة ذات شخصية قوية، إذ عرفت بين نساء المماليك بالحفاظ على سمات ومظهر زوجة السلطان، وربما رغبت فى الظهور بمظهر السلطانة المشاركة لزوجها.

ويحكي ابن إياس اهتمام الناس بشخصها، وعلى وجه الخصوص يوم خروجها وأولادها للحج، وعند عودتها عُملَ لها إحتفالا كبيراً. وكان يوماً إجتمع فيه الناس ليشاهدوها. قال ابن إياس: « وكان لهم يوم حافل، ولاقتهم السلطانة وإبناؤها – الأمراء وأرباب الدولة وسارت الأمراء مشاة قدامها ثم طلعت هى وأولادها إلى القلعة، وحمل الأمير فيروز الزّمام على رأسها القبة والطير (ولاترفع إلا للسلاطين)، وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارةّ إلى أن جلست على المرتبة بقاعة العواميد. ونثر على رأسها حفائف الذهب والفضة، ثم دخل عليها الأمراء للتهنئةَ، ومعهم الهدايا لها ولأولادها ».

وكان إينال أميا لايحسن القراءة والكتابة حتى قيل إن كاتب السرّ كان يخط على المراسم اسمه حتى يمشى عليه بالقلم ويتبع المرسوم. (١) وكان كذلك خالياً من

(١) صفحات لم تنشر من ابن إياس ٨٥ .

العلم، وقراءة القرآن، وربما أنه ما كان يحسن قراءة الفاتحة، والغالب عليه العجمة، وذكر ابن إياس أنه كان عاريا من الفضائل فى أمور الدين على عكس سلفه چقمق الذى كان متعمقاً فيها على ماذكرنا.

ولكن هذا الفقر فى العلم المكتوب والمحفوظ لم يحرمه من علم الخبرة والحياة فقد عركته الحياة وعركها طوال السنوات التى عاشها قبل تولية السلطنة. فأكسبه هذا العلم من الحياة قدراً من الذكاء الفطرى، وحسن التصريف للأمور مما انعكس على حياته الخاصة فى أسرته إذ يقول ابن إياس إنه عاش بأرغد عيش بين أولاده وأمرأته، ويبدو أن أمرأته (السلطانة) كان لها دور فى حياته . تساعده على سداد خطواته وتوفيقه فيما تولى من الأمور. حتى إن أمراءه والعساكر قاطبه خضعوا له، وصفا له الوقت مدة سلطنته. (١)

وساعده على ذلك ما غرس فيه من لين الجانب. قال ابن رياس : وكان هيناً ليناً، قليل الأذى. ولولا خوض مماليكه فى حق الناس لكان خير ملوك الچراكسة فقد كان قليل المصادرة لأرباب الدولة بالنسبة إلى غيره من السلاطين السابقين كذلك لم يضيق على الناس تضييق چقمق ، ولم يتزمت فى أخذهم بحدود الشرع وكذلك كانت أيامه، كما روى ابن إياسُ كلها لهو وانشراح مع أنه كان أمياً».

وكان عاقلاً سيوساً حليماً، عارفاً بأمور المملكة، يُنزلُ الناس منازلهم . غير سفاك للدماء، حتى إنه لم يسفك دما قط فى أيام سلطنته بغير وجه شرعى. قال ابن إياس وهذه النوادر الغريبة ، كما كان ينقاد للشريعة ، ويحب العلماء ، وقليل العزل للقضاة وأرباب الوظائف.

وعلى العموم كما قال ابن إياس كان من خيار ملوك الچراكسة فى الحلم ولين الجانب وكثرة الإحتمال، وقلة الغضب، وعدم البطش، ولا الجبروت والتكبُّر.

ومن فضائله كذلك أنه أحسن صك النقود الفضية بعد أن كثر فيها الغش فى زمن بعض من سبقوه.

وربما أخذ عليه الإمساك والبخل أحياناً فى الإنفاق على الأعوان من المماليك والموظفين.

---

(١) صفحات لم تنشر ٨٤ .

قال ابن إياس : لكنه كان عنده شحٌ زائد ومسك يد، وشاب زمن حكمه بعض الشوائب بكثرة ثورات صغار المماليك من الجلبان واعتدائهم على الناس، ونهبهم للتجار، كما حدث اضطراب فى الأموال والتجارة ولجوء بعضهم إلى غش العملة والمضاربة عليها.

كما أن بعض الولايات بالقطر الشامى، وعلى حدوده الشمالية الشرقية وفى أرمينيا خرجت على الدولة، كما خرج بعض الأعراب فى بوادى مصر والشام بأحداث شغب وإعتداء على أملاك الدولة والناس، وظهرت بعض عصابات اللصوص تسطو على المتاجر والمنازل. وربما يرجع هذا إلى لين جانب السلطان والناس يخشون ذا السطوة من الحاكمين. وصادف فى أول حكمه فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح العثمانى سنة ,٨٥٧ وهكذا حكم إينال مدة ثمانى سنوات شعر الناس من الرعية فيها بالراحة النسبية وتوفي سنة ٨٦٥ هـ ليتولى بعده سلطان جديد.

الظاهر خشقدم

(٨٦٥ - ٨٧٢ هـ)

تولى بعد إينال، وكان أتابكا للعسكر، وهو من أصل رومى، اشتراه المؤيد شيخ ثم أعتقه وجعله جمدارا - أى ساقياً خاصاً للسلطان - ثم صار أميراً فى عهد جقمق، وترقي فى مراتب الإمارة حتى أصبح صاحب الحجّاب سنة ٨٥٤ هـ ، وأمير السلاح فى عهد إينال ثم أتابكا للعسكر أو قائداً للجيش.

وقد إختاره أمراء المماليك للسلطة بدلاً من أحمد ابن إينال وصفه ابن إياس فقال : كان خشقدم حسن الهيأة، جميل الصورة، أحمر اللون.

ولما كبرت سنه صار لونه أبيض تعلوه صفرةٌ ذهبية، مدوَّر الوجه، شائب اللحية طويل القامة، ضخم الجسم، فصيح اللسان بالعربى، يقرأ القرآن. وله بعض إشتغال بالقلم وكان رومبا من الأرنووط.

وكان تَرِفاً فى ملبسه، صنع له مهاميز وركاباً من الذهب، وكان يلبس السُّمور الفاخر، والأَقبية الصوف الخضر، ويبطنها بالمخمَّل الأحمر، ويلبس القمصان الحرير فى الشتاء.

واشتهر برقة الحاشية، وحب الفنون، والرغبة فى سماع الغناء. وكان محباً للعلم والعلماء، مقرباً للفقراء من الصوفية، ويَعقدُ مجالس للسمر يمازح فيها جلساءه، ولم يعرف عنه العبوس، وكان مقتصداً لم يعرف بالإسراف ولا الكرم الزائد، كما لم يكن ممسكاً بخيلاً.

ويحرص على الإحتفال بوفاء النيل وكسر السدّ، على عادة استاذه المؤيد - والذى يبدو أنه كان قدوة له فى بعض خصاله وسلوكياته.

وكان حريصاً كذلك علي الركوب فى المواكب الحافلة عند خروجه من القلعة للقاهرة أو عند نزوله إلى الميدان لمشاهدة المحمل ووداعه. ويحتفل به إحتفالاً جليلاً. يقول ابن إياس : « كانت أيامه كلها لهو وإنشراح، ولم يقع بأيامه فى مصر الطاعون ولا الغلاء ».

ولا يقتصر ابن إياس فى الحديث عن خشقدم على ذكر حسناته وفضائله، فلابد له كعادته أن يذكر جانباً من سيئاته، والإنسان على كل حال ليس كامل الصفات، ولا معصوماً من الأخطاء.

فمما يذكره من سوءاته غدره ببعض رجاله المقربين من الأمراء المماليك إذا خشى منهم الإنتقاض عليه. وهذا أمر طبيعى فى مثل حياة هؤلاء الذين لا يؤمن جانبهم لطمعهم فى السلطة، واعتقادهم بأن واحداً منهم يمكنه من بلوغ مأربه إذا أحسن التدبير وراوغ وإنتهز الفرصة للإنقضاض.

كذلك اتهمه ابن إياس بقبول الرشاوى للتعيين فى مناصب الدولة الكبرى.

ويتهمه بتقريب الأراذل والأوباش، وتوليتهم الوظائف السنية، كما أتهم المقريزى السلطان برقوق بذلك من قبل.

ويتهمه بالمصادرة لأموال بعض رجال الدولة، وكانت هذه كذلك صفة لأكثر سلاطين المماليك بطبعهم فى الأموال للآتفاق على مظهريتهم ومايتعمون فيه من الرفاهية، ولاعتقادهم كذلك بأن أموال بعض كبار رجال الدولة لم يحصلوا عليها من مصادر شرعية، بل كانت من مصادر أغتصاب، وسرقة من أموال الدولة والناس.

ومما أخذه عليه تضييقه على الخليفة العباسى وأمره بعدم النزول من القلعة زمناً، وربما انس من بعض المماليك أو رجال الدولة محاولة للالتفاف حول الخليفة والتآمر ضده.

وفيما يتصل بعلاقاته الخارجية فقد جافى سلاطين العثمانيين، وإستمرت الجفوة من عهده إلى من أعقبه.

وجمع أموالاً طائلة من حلال وحرام ومصادرات ورشاوى وبنى جامعه المشهور باسمه.

ودام حكمه ست سنوات، ومات فى الخامسة والسبعين

ودفن بمقبرته بصحراء المماليك، وقبته معروفة هناك.

الأشرف قايتباى

٨٧٣ - ٩٠١هـ

من أشهر سلاطين السلاجقة

تولى وهو فى نحو الخامْسة والخمسين، وقد وخط الشيب رأسه وكان چركسياً من مماليك برسباي، وكان أول من اشتراه، ثم ملكه چقمق من بعده واعتقه، وأصبح أميرا وترقى فى الإمارات حتى أصبح أتايكا للجيش قبل توليه.

وكان طويل القامة، عربى الوجه، مصفر اللون، نحيف الجسد شائب اللحية، وكان موصوفاً بالشجاعة، عارفاً بأنواع الفروسية لا سيما فى فن لعب الرمح.

أحبَّ التنزه بالأماكن الخلوية خارج القلعة، وكثيراً ما كان يذهب إلى سرياقوس بالشرقية، أو طره، أو تنيس، فتنصبُ له الخيام، ويبسط السماط ويجتمع حوله الأمراء ورجال الدولة، ويقضى أياماً على تلك الحال.

كما كان يحتفى كسالفه خشقدم بالمواسم والأعياد الدينية والشعبية كعيد المولد النبوى، ودورة المحمل، والإحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج إلى غير ذلك.

وكان يجمع فى أخلاقه بعض الفضائل كالتواضع ومجاملة الناس وفقراء الصوفية خاصة.

وكان بعض أعوانه يستغلون اعتقاده فى رجال الصوفية ليقضوا مآربهم

مدحه الشهاب المنصورى يقول له :

سلطاننا الأشرف فى بذله　　وعدله قد جمع الفضلاً

تقبل الله الذى عزَّهُ　　بالنصر منه الصَّرفَ والبذلا

وكان يبذل المال فى ترفه ومظاهر السلطنة، ويلبس الأسود المحَّلى بالذهب وقبل أن تنزل به أزمة المال لكثرة النفقة على الحملات العسكرية كان يبذل المال، والطعام، ويجلس بنفسه لتفريق الجامكيات من الطعام واللحم وغيره على المماليك وسائر المستحقين.

وقيل إنه كان ينزل من القلعة لابساً زى المغاربة، فيأتى إلى الجامع الأزهر ويصلى به، وكان يسأل الناس فى بعض الطرقات أثناء سيره عن سيرة نفسه ويقول ابن إياس (١) إنه وقع له بين الناس فى هذا الأمر أشياء غريبة يطول شرحها. «وقد كان بعضهم يحط عليه فى أفعاله، وهو يسمع كلامه بأذنه ممن يسئ إليه».

قال ابن إياس: «وكان متقياً فى نفسه لم يشرب قط خمراً، ولاكان يستعمل شيئاً من الأشياء المخدرة وكان له إشتغال بالعلم، كثير المطالعات فى الكتب، وله أذكار وأوراد جليلة، وكان له اعتقاد فى الفقراء الصوفيه، وإنتصر لابن القارض».

وكثرت نفقاته فى تجهيز الحملات ضد شاه سوار بالشام والمناطق شرقيها وكان شاه سوار يقوم بالسطو على بعض بلاد المملكة هناك، ويحدث بها كثيراً من المتاعب.

كذلك أنفق على حملاته ضد العثمانيين فى الشمال الغربى من مملكة الشام وكانوا قد بدأوا يثيرون المتاعب هناك على الحدود.

كذلك أنفق كثيراً من الأموال على إنشاءاته وعمائره الكبرى والباقية إلى الآن ومن أعظمها قلعة قايتباى المشهورة بالإسكندرية.

والسبيل الذى أقامه بخط تحت الربع، فجاء والمكتب فوقه نهاية فى الحسن، كذلك قبته المشهورة بصحراء المماليك وقد الحق بها جامعا بخطبه، وقرر بها صوفية وحوضاً وصهريجاً وأشياء كثيرة وعرفت تلك المنشآت بمجموعة قايتباى.

كما جدد عمارة المسجد النبوى بالمدينة المنورة، وأنشأ قبة على المقام النبوى وأنشأ مدرسة بمكة المكرمة.

ونتيجة لهذه النفقات اضطر إلى زيادة الضرائب، وترشيد الإنفاق مما أدى إلى شعور الناس بالضيق للتضييق عليهم. وحرم بعض الناس من اعطياتهم وحرم جماعة من الشيوخ المعمرين، ومنها مرتبات اللحم التى كانت للفقهاء.

قال ابن إياس: «وحصل للفقهاء والمتعممين فى هذه الحركة غاية الضرر والبهدلة».

---

(١) ابن إياس ص ٤٦٧.

قال : وهذا أول فتح باب المظالم. قال : وصار اللحم يصرف للماليك فقط.

ولاقى قايتباى بعض المتاعب الداخلية بالإضافة إلى المتاعب الخارجية ومنها ثورات بعض الأعراب.

وكانت مدة حكمه أطول مدة لحكام المماليك إذ بلغت ثمانية وعشرين تماماً وتوفى سنة ٩٠١ هـ وعمره أربع وثمانون عاماً.

الأشراف قانصوه الغورى

٩٠٦ - ٩٢٢هـ

تولى السلطنة بعد أربعة من السلاطين الذين جاءوا بعد قايتباى ولم ترد مدة حكمه جميعاً عن خمس سنين.

وهو قانصوه بن بيردى الأشرفى الچركسى. تسلطن فى عيد الفطر ومن صفته أنه كان طويل القامة، غليظ الجسد ذا كرش كبير، أبيض اللون مدوَّر الوجه مشحم العينين، جهورى الصوت، مستدير اللحية، خط الشيب لحيته.

وكان ملكاً مهاباً جليلاً، مبجلاً فى المواكب، ملء العيون فى النظر ولم يكن كثير الزوجات، وكان محباً للترف، والحياة المترفة، من لباس وشراب وطعام، ومسكن، ونزهة، ولهو .فقد كان متأنقاً في ملبسه، يفضل فاخر الثياب الموشاة بالذهب ، يقول ابن إياس إنه يشد فى وسطه حياصة (طوق) ذهب. وكان يلبس فى أصابعه الخواتم بالياقوت الأحمر والفيروز والزمرد ، والماس وعين الهر وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود ، والبخور ، وكان ترفاً فى مأكله ومشربه».

وكان محباً للمناظر الجميلة، يكثر من الجلوس فى الحدائق والبساتين ليستمتع بجمال الطبيعة. قال ابن إياس : كان يوضع له فى البساتين دكة مطعمة بالعاج والآبنوس، ويفرش فوقها مقعد مخمل بنطع، يجلس عليه، وتظله فروع الياسمين.وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشّون عليه، وتُعلَّقُ فى الأشجار أقفاص فيها طيور مسموع، ما بين هزارات ومطّوق وبلابل وشحارير، وقمارى، وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع، ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى، وبطٌ صينى، وحجلٌ، وغير ذلك من الطيور المختلفة وتارة يجلس على البحيرة التى طولها أربعون ذراعاً، وتمتلئ كلَّ يوم من ماء النيل بسواق نقالة من المجراة. ولا يدخل عليه من الأمراء أحد إلا من يختاره. وكثيراً ما كان يقيم المآدب والحفلات يجمع بها صنوف الطعام والشراب والزينة يدعو إليها الأمراء وكبار رجال الدولة من القضاة والأعيان.

وكان يتردد على قاعة المقياس بالروضة للإستمتاع بالنظر إلى النيل، والمراكب تشقه، وقد احاطت به الزينات.

وحافظ على إقامة الحفلات الحافلة فى الأعياد والمواسم ويحرص فى تلك الحفلات على سماع الموسيقى والغناء.

وكانت له مجالس سمرٍ، وعلم، فكان فى مجالس سمره ولهوه يجمع المضحكين والراقصين، والمطربين.

يقول ابن إياس إنه فى يوم عاشوراء من عام ٩٠٨ نزل السلطان إلى قصره بالمقياس عند الغروب، ومعه بعض الأمراء والمباشرين، فأقام مدة، وإستقدم إليه المغنين والآلاتية يطربونه، ورقص مضحكه على باى، ومثَّل عفريتاً. ونثر غلمان السلطان الورود والأزاهير والرياحين على الحاضرين.

وكان يحب الخروج للتنزه فى صحراء الأهرام حيث تنصب له الخيام للإقامة ويزاول ألعاب الفروسية من رمى الرمح وغيرها، ويحب مشاهدة مماليكه وهم يمارسون رياضات الفروسية من لعبة «القبق» والرّماية»، والرمى بالسهام، وصراع الكباش والثيران وغيرها.

وجمع إلى هذا الحب للترف ومظاهر الجمال حباً للعلم والعلماء. وكان ذا حظ من العلوم الدينية والأدبية، مولعاً بقراءة كتب التاريخ والسير والقصص ودواوين الأشعار على قول ابن إياس.

وكان يعقد مجالس للعلم، يجمع فيها العلماء من فنون العلم والأدب والدين فيحاورهم ويحاورونه، وقد جمع هذه المجالس فى كتاب. (١)

وكان حاكماً محنكاً يتابع شئون الحكم ويراقب عمل الأمراء والقضاه، وقد يتدخل فى بعض الأحكام فيرى غير ما يحكم به القضاة.

وبنى سياسته الداخلية على زيادة دخل البلاد من الزراعة، والتجارة والصناعات. وأغرم بالإنشاءات، فأكثر من العمائر، وبذل الكثير من المال على تزيين القاهرة والقلعة بالبساتين والحدائق التى جلب لها الأشجار والغروس والأزهار من اقطار شتى.

(١) تولى الدكتور عبد الوهاب عزام نشره بعنوان « مجالس السلطان الغورى» سنة ١٩٤١ م

وكان له غرام خاص بالبناء فأكثر من المنشآت بالقاهرة والشام والحجاز ومن أشهر منشآته مسجده المعروف بالغورية أحد أحياء القاهرة المملوكية.

ووفر لمسجده هذا كلّ ما نالت يداه من الرخام والزينة، واضطر للإنفاق عليه.إلى مصادرة بعض أصحاب الأموال حتى أطلق بعض الظرفاء على المسجد لكثرة ما أنفق عليه من أموال الناس (المسجد الحرام). قال ابن إياس : «شنعت عليه الناس لأن مصروف عمارة المدرسة كان من وجوه المظالم ومصادرات الناس».

وبنى مدرسة فى مواجهة المسجد ومدفناً له وقبة وصهريجاً ومكتباً لتعليم الصغار وأظلت المدفن قبة عظيمة غلفت بالقيشانى الأزرق.

وأهتم بالقلعة، فأنشأ ميداناً وفر له كل أسباب الجمال فجعل منه جنة فسيحة عامرة بالأشجار والرياحين والزهور. وأقام على الميدان قصراً مطلاً على الرملة.

وانشأ مجراة للماء لسقيا البساتين الجديدة . قال ابن إياس : فكانت هذه المجراه من العجائب والغرائب. ولكن صرف على بنائها ما لا يحصى من الأموال».

وأهتم بإصلاح قاعات القلعة وتجديدها. وجدَّد خان الخليلى، وبنى به مخازن وحوانيت.

وشيد قصراً عظيماً قرب مقياس النيل بالروضة، وأقام مسجداً بجواره .

إلى غير ذلك من المنشآت التى لازالت تذكر بأيامه، ويطلق عليها أسمه. ولم يفت الغورى الأهتمام بالمنشآت العسكرية من أبراج وحصون. وأهتم بالأسطول فأمر بتزويده بالسفن الحربية.

وأولى النشاط التجارى اهتماماً على الرغم من فقدان مصر لبعض أسواقها الخارجية لتحول طريق التجارة من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح بعد اكتشاف البرتغاليين لهذا الطريق البحري الجديد.

وكانت سياسة الغورى الخارجية سياسة سلام لإنصرافه إلى الأعمال الداخلية، وكان يستقبل سفراء الدول بمقره بالقلعة. ولاقى فى عصره كثيراً من المتاعب على

الجبهة الشامية، وبخاصة من الدولة العثمانية حتى إنتهى الأمر بالصدام فى المعركة الكبرى بمرج دابق التى هزم فيها على يد سليم الأول وإنتهت بإحتلال مصر.

رسوم المماليك ونظمهم عامة

تعتبر دولة المماليك دولة عسكرية أقامت قواعدها على نظام عسكرى متقن يمسك بزمام الإدارة، ومقدرات الحياة عسكريون من المماليك على نظام الأقطاع العسكرى يتولى فيه الجنود والقادة من الأمراء، ولاية الولايات بأقاليم الدولة المختلفة. ويسمى هؤلاء وذوو الرتب العالية منهم خاصة بالكشاف أحياناً. ويرأس هذا النظام العسكرى الهرمى كلّه السلطان على القمة وتؤول إليه السلطات جميعاً.

وترسم شخوص السلاطين وأحوالهم ملامح هذا النظام وتجسده، ومن هنا كان هذا العرض لهم، والذى تكشفت منه سمات غريبة للعصر، فضلا عن سمات الحكام المتباينة لهذه الفترة من التاريخ الحافلة بالغرائب والأعاجيب، والمليئة بالمتناقضات.

واشتهر عن سلاطين المماليك الإستبداد والقسوة، وغلظ القلب وعلى الرغم من ذلك فقد كان بعضهم مسلوبى الإرادة أو كما قال ابن إياس : «كانوا مثل بابات خيال الظل، فشئ يروح وشيء يجي ، كما قد قيل فى المعنى :

رأيت خيال الظل أعجب منظراً ... لمن هو فى علم الحقيقة راقى

تَمرُّ وتمضـــى بابـــة بعد بابـــة ... وتفنى جميعاً والمحرِّكُ باقى (١)

ومن هؤلاء السلطان «بلباى» الذى كانت كلمته المشهورة : «إيش كنت أنا ؟ قل له» فسماه العامة بذلك.

والسلطان الظاهر قنصوه سمته العامة بَخْش لأنه كان مهماً يَقُل له الأمراء يقول: «بخش».

وشعر السلاطين بضعف سلطانهم، وقلق كراسيهم من تحتهم ، فصاروا فى خوف دائم، وكان الواحد منهم يعمل جاهداً منذ توليه السلطنة على أن يُمَكِّنَ لنفسه، فيعد الأعوان من المماليك، ويتحصّن فى قلعة الجبل.

وسَنّ لهم هذه السنة رأسهم قلاوون. الذى اقتنى ما بين سبعة آلاف إلى اثنى

(١) ابن إياس ص ٤٦٧ .

عشر ألف مملوك أسكنهم قلعة الجبل وجرى على سنته الظاهر برقوق في دولة الچراكسة. وكانوا كثيراً ما يثورون ويحدثون القلاقل والأضطرابات التى يصلى نارها الناس.

وكان السلطان يتحصن بالقلعة إذا أحسَّ بالفتنة فينقل إليها الزاد من البقسماط والجبن، ويملأ الصهاريج بالماء ويفرق السلاح على خاصة مماليكه.

وكان يهتم بأعداد حرسه الخاص من غلمان المماليك وشبابهم، ويعرضهم من حين لآخر ليعرف منهم من يجيد إستخدام ألة الحرب من الرمح والنشاب وغيرها بين يديه، ويمتحنهم فى ذلك ويقرر لهم عليه رواتبهم.

ولم يقتصر شراؤهم للمماليك على الچراكسة والروم، بل اتجهوا إلى اقتياد السود من الحبش والسودان، وارتفع بعض أولئك المماليك إلى مرتبة الإمارة، وإن لم يبلغ درجة أعلا كقيادة الجيش أو السلطنة.

مظاهر حياتهم الرسمية :

عرضنا فيما عرضنا له من حديث عن سلاطين المماليك لكثير من مظاهر حياتهم الرسمية فى ملابسهم وحياتهم ومواكبهم. ونعود لنجمع ما تفرق لنعطى صورة عامة لهم قد تختلف من واحد إلى آخر بعض الأختلاف لكنهم حافظوا وأعوانهم على الأبهة وجلال المظهر، فى اللباس والمسكن والمجلس، والموكب فكان لباسهم من فاخر الثياب يختلف على فصول السنة فيلبسون الصوف طوال الشتاء ويبدأ فىَ أول شهر بابه أو هاتور عند بدء البرد.

واللباس الشتوى الرسمى الجبة السوداء الموشاة بالذهب «الزركشى»، والعمامة السوداء، والسيف البداوى.

وفى الصيف يلبسون الملابس البيضاء ابتداء من شهر بشنس القبطى، وكان جُبَّة بيضاء (١). وكان السلطان يحتفظ معه بمنديل أبيض يعطيه لمن يؤمنه ليضعه حول عنقه.

---

(١) ظلت هذه العادة مأخوذاً بها فى مصر الحديثة منذ عصر محمد على.

وكانت مجالسهم من فاخر الرياش والطنافس، فى قاعات تحليها النقوش العربية المذهبة أو المطعمة، والثريات والشمعدانات الفاخرة، والمباخر والمدافئ، والفرش والبسط الثمينة.

ومواكبهم حافلة رائعة عند تولى السلطة، يركب السلطان فرساً فارهة مموهة باللباس المزركش والمركب المُحلى بأجمل الحلى، ترفع على رأسه القبة والطير، ويمشى قدامه الأمراء والخليفة عن يمينه حتى يدخل القلعة، وينزل عن فرسه، ويجلس على سرير الملك، فيبوس له الأمراء الأرض وتدق البشائر بالقلعة وسائر القاهرة.

وتطلق بالليل الصواريخ بالنفط، ويحرقون الحراقات العظيمة.

يصف ابن اياس موكباً للسلطان قايتباى عند عودته من السفر بالشام إلى مصر فيقول (١) :

« .. ثم نودى فى القاهرة بالزينة، فزينت زينة حافلة، فلما كان يوم الخميس تاسع عشر الشهر المذكور دخل القاهرة من باب النصر فى موكب حافل، وقد حمل القبة والطيرَ على رأسه المعزُّ السيفى برقوق أحد المقدمين - ومشت قدامه الجنائب بالأرقاب الزركشى، ولاقاه الأوزان والشعراء والشبابة السلطانية، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير من عند مدرسة أم السلطان التى بالتَّبَّانة إلى القلعة، ونثر على رأسه خفائف الذهب والفضة إلى القلعة واصطفت له المغانى من النساء فى الدكاكين، واستمر ذلك اليوم في موكب حافل حتى طلع إلى القلعة».

وتعددت مظاهر أبهة المماليك، فى مجالسهم وملاهيهم، وكانت تقدم إليهم الهدايا فى المناسبات، وتسمى التقادم، (واحدتها تقدمه أى هدية). وكلٌ حسب مقدرته، وتكاد أن تكون هدايا كبار الأمراء ورجال الدولة إلى السلطان إجبارية دورية. فى كل مناسبة.

وكان من عادتهم أن يعقدوا مجالس رسمية مع كبار الأمراء ورجال الدولة يعرضون فيها الشئون الهامة، ويناقشون بعض القضايا ويعرضون شكاوى الناس، وما يحكمون به على من خالف، ومايصادقون به على من قدم حسناً فيكافأ

---

(١) راجع السيف المهند ص ٢٧٤ .

بالمنصب أو المال، كذلك قد تقرر فى هذه المجالس بعض الوظائف فيعزل من يعزل ويولى من يولى.

وكان للسلطان المؤيد شيخ مجلسان يومى الأحد والأربعاء من كل أسبوع يجتمع فيها مع مستشاريه وجماعة العلماء وطائفة من الصلحاء، وهو فيما بينهم كأحدهم من قبل العصر بساعة إلى قرب المغرب فى القصر، يتباحثون بالعلوم الشرعية ويتذاكرون فى المسائل العويصة، وهو يسمعهم، وربما يشاركهم بلطف وأدب.

ثم إذا فرغوا يأمر بأن يُسقوا من السّكر المكرر المعدّ لنفسه فى سلطانيات كبار، فى كل سلطانية قطعة كبيرة من الثلج فى أيام الصيف والهواجر(١)

واشتهرت كذلك مجالس چقمق، والغورى على ما بينا.

وكان من مظاهر السلطنة الرسمية التى حرص عليها السلاطين بناء المساجد والمدارس، والأسبلة والكتاتيب تدعيماً لمكانتهم بين الناس، وكسباً لرضا الشعب وعامة الرعية. وكذلك إهتمامهم الكبير بالمظاهر الدينية، والمواسم فى الأعياد والموالد وغيرها.

ومن هنا كان حرصهم على قراءة القرآن بالقلعة، كما أثر عن المؤيد من حرصه على أن يجتمع عنده بالقلعة فى غالب ليالى الجمع جماعة من الفقهاء وطائفة من القراء، والوعاظ، فيقعد معهم إلى أنصاف الليالى، فالقراء يقرأون كتاب الله، والعلماء يتباحثون بالعلوم، والوعاظ ينشدون القصائد والموشحات.

ومن ذلك حرصهم على ختم القرآن وختم البخارى فى إحتفال كبير واسباغ الهدايا والعطايا على الشيوخ ورجال الدين.

ومنها تقريب رجال الصوفية والصلحاء، وافراد أماكن لهم فى مجالسهم والأعتقاد فيما يقولون، وفيما يدعون من كرامات.

ومنها الحرص على أداء فريضة الحج، والإحتفال لذلك إحتفالاً كبيراً وحشد إمكانيات السلطنة، وإغداق الأموال بهذه المناسبة.

---

(١) راجع السيف المهند ص ٢٧٤.

ومنها الحرص على عمل كسوة الكعبة كل عام، والمحمل، والإحتفال لهما بصحراء العباسية أو الريدانية كما كانت تعرف على عهدهم والحرص على ترميم الكعبة وصيانتها وتوسعة الحرم، وتوفير الخدمات للحجاج، وكذلك تجديد المسجد النبوى بالمدينة والعناية به وعمل المقصورة للمقام وبناء القبة. واتخذ بعضهم لهذا لقب «خادم الحرمين».

كما احتفظوا بالشكل العام لشرعية الحكم من الناحية الدينية بأداء القسم أمام الخليفة، ورسم الخليفة له بتولى السلطنة كذلك محاولة التدخل أحياناً فى الأحكام الشرعية، لإظهار ميله إلى العدل والإنصاف.

والتظاهر أحياناً أمام الرعية بالرغبة فى رفع الأعباء عنهم، وهو فى الحقيقة يخادعهم بفرض الضرائب والمكوس بطريق غير مباشر على ما بينا فى سيرة السلطان برقوق.

حياة المماليك الخاصة :

تلك مظاهر حياة المماليك الرسمية

وأما حياتهم الخاصة فقد تختلف بعض الأختلاف أو تتناقض أحياناً عند بعضهم

عن حياتهم الخاصة فقد تختلف بعض الأختلاف أو تتناقض أحياناً عند بعضهم عن حياتهم الظاهرة للناس، ومع ذلك فلم ينخدع الناس بهذا فأطلقوا فى بعضهم ألسنتهم تنتقد بعض تصرفاتهم الخاصة.

وكان البذخ فى العيش والسكن واللهو مظهراً من أبرز مظاهرهم، وتتمثل فيما تعودوه من رحلات الصيد، والأفراح والمناسبات مما يعكس ما كانوا يألفون فيه من نعيم العيش وزخرف الحياة.

حياتهم الخاصة .

كان السلطان يركب من قلعة الجبل قاصداً البحر (النيل) على قناطر السباع ويعَدى من النيل ببولاق إلى الجيزة لأجل صيد الكراكى.

وقد يذهب إلى صحراء البحيرة لصيد الغزلان.

والسلطان برقوق كان يهوى الصيد بأنواعه، صيد الكراكى والغزلان وغيرها ويخرج إلى البحيرة وبر الجزيرة وبركة الحاج، وسرياقوس والمرج لهذا الغرض.

وتلك كانت أماكن الصيد المعتادة فى العصر.

وكان يحلو لبعض السلاطين ممارسة ألعاب العوام باللعب بالعصا والتى لا تزال معروفة إلى الآن وخاصة فى صعيد مصر.

وممن عرف بذلك منهم السلطان المظفر حاجى، فقد كان يلعب مع العوام بالعصا وكان إذا لعب مع الأوباش يتعرى، ويلبس تّبانه جلد ويصارع معهم، ويلعب بالرمح والكرة ويظل نهاره مع الغلمان والعبيد فى الدهيشة بالقلعة.

وذكر ابن تغرى بردى أنه رأى السلطان كان يتفرج على لعب العصا ويحضر مضحكه، وبعض حظاياه ليقلد اللعب فيسخرون منه. (١)

وكانت حظيته الأثيرة تحضر معه هذه الملاهى والألعاب، وينثر الذهب واللآلئ فى المجلس ليسعد بتخاطف العامة لها.

كذلك كان يفرق المال على لُعَّاب الحمام. (٢)

وكان اللعب بالحمام من الألعاب المفضلة يتسلون بها هم وأمراؤهم، وكان السلطان يقف بين مطيِّرى الحمام ويراهن على الطير الفلانى والطيرة العلانية، ومن المفارقات التى حدثت لأحد سلاطينهم أنه أثناء تطييره الحمام أذّنَ للعصر بالقلعة والقرافة فوجل الحمام وتطاير عن مقاصيره، فغضب السلطان وبعث إلى المؤذنين يأمرهم بأنهم إذا رأوا الحمام لا يرفعون أصواتهم.

وكان السلاطين كثيراً ما يحضرون المصارعين، والعدَّائين ليشهدوا مصارعاتهم وسباقاتهم، كما كانوا يشهدون نطاح الكباش ومناقرة الديوك.

---

(١) النجوم الزاهرة ١٠/١٥٨.
(٢) المصدر نفسه ١٠/١٧٠.

ومن عادة السلطان أن يجلس لمشاهدة الألعاب والفروسية فى أحد الميادين الكبيرة بالقاهرة. يلعب أمامهم فيها الرمَّاحة وغيرهم السَّلاح، لابسين الألبسة الحريرية الزاهية الألوان، والحمراء خاصة.

وقد أغرم السلطان المؤيد شيخ المحمودى بمشاهدة ألعاب الرمَّاحة فى ميدان القلعة وأشتهر هذا السلطان باللهو. قال ابن أياس : ولم يمش أحد من الملوك على طريقته فى اللهو والقصف». (١)

وقال ابن إياس : «كان المؤيد شيخ المحمودى رجلاً كثير التنزه لا يقيم بالقلعة إلا قليلاً وأكثر أيامه ببولاق. وكان فى بولاق يعمل المواكب، وتجتمع عنده الأمراء والمقدمون، وينزل يعوم فى بعض الأوقات فى البحر وحوله الأمراء والخاصكية». (٢)

« وكان يميل إلى اللهو والطرب، ويستعمل الراح ويميل إلى الملاح، وكان يستعمل الأشياء المخدرة من المصطلاحات. وكان يقرب أرباب الفنون، وكانت أرباب الفنون تتباهى فى أيامه فى فنونهم لجودة فهمه وحسن معرفته، وكان يفتى فى فن الموسيقى، وينظم الشعر ويغنى به المغنون».

قال ابن إياس : «وله أشياء كثيرة من الفن دائرة بين المغنيين». (٣)

ويعدّ هذا السلطان نادرة بين سلاطين هذا العصر فى ولعه بالفنون ونظمه للشعر. وكثيراً ما يشارك السلاطين فى الألعاب والفنون واللهو. وأشهر ألعابهم لعبة الكرة والصولجان. وكانوا يلاعبون كبار الأمراء ويوقعون عليهم الغرامات إذا غلبوا. قال ابن إياس عن السلطان المؤيد شيخ :

وقد تشارك نساء المماليك فى بعض تلك الملاهى والألعاب، والنزه ويصحبن أزواجهن، وأربابهنَّ فى رحلات الصيد فقد روى ابن تغرى بردى أن النساء كن

(١) ابن إياس : ص ٣٠٦ .
(٢) ابن إياس : ص ٣١٥ .
(٣) يقصد أن له ألحاناً اصطنعها وأغانى نظمها .

يتهيأن فى النزه والصيد، ولعب الكرة بالهيئات الجميلة وركوب الخيل المسوَّمة مع عدم الأحتشام من غير حجاب من الأمير أخورية والغلمان، وكان السلطان شعبان يعجبه ذلك من تهتكهن على الرجال». (١)

وكان للسلاطين مهرجون ومحبظون يضحكونهم ويدخلون السرور على نسائهم وحظاياهم، وقد يستخدمهم السلطان جواسيس لينقلوا له أخبار الأمراء والناس قال ابن تغرى بردى عن أحدهم وكان يفعل ذلك : «فخافه الأمراء وغيرهم خشية لسانه وصانعوه بالمال». (٢)

وكانت بعض الألعاب أثيرة لدى السلاطين، فقد كان خشقدم يحب الرماية، والعاب الفروسية، وكان قايتباى كذلك يلعب بالكرة والصولجان فى ملعبه قرب بركة الحبش.

ووصف لنا ابن إياس لعب السلطان مع أحد أمرائه فقال :

«فضرب خيمة كبيرة مدورة وعدة صواوين فى الميدان الذى تحت القلعة، وأرسل خلف سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر، ورسم للوزير وناظره الخاص بأن يتكلفوا بأمر ذلك المهم، فعمل فيه من اللحم الضأن عشرين الف رطل ومن الأوز مائتى زوج ومن الدجاج الف طير، ومن الخيول للذبح عشرين فرساً، ومن السكر ثلاثين قنطاراً ومن الفاكهة ومن الحلوى.. وكل هذا من أجل الإحتفال بفوز السلطان على منافسة الأمير فى اللعب. (٣)

وكان السلطان برقوق يهوى اللعب بالشطرنج ويبالغ فى النفقة عليه.

واهتموا بالبساتين والحدائق يجملون بها قصورهم، ويبثونها فى أماكن نزهتهم، وفى حدائقهم وروضاتهم لم يبخلوا بالنفقة فى التنسيق، وجلب النباتات والزهور من كل مكان لتبدو رائعة وباهرة، عامرة بألوان الزرع والشجر، والرياحين والنور المختلف الألوان والأشكال.

---

(١) النجوم الزاهرة ١٤١/١٠ .
(٢) المصدر نفسه ١٩١/١٠ .
(٣) راجع نزهة النفوس ص ٣٨٧ .

كانوا يستوردون لبساتينهم أشجار الفاكهة بطينها ما بين تفاح شامى وكمثرى وسفرجل وقراصية وكروم عنب وأشجار مزهرة وزهور ما بين ورد أبيض وسوسان وزنبق وغير ذلك من الأزهار الشامية حتى جوز الهند، فيغرس ذلك كله فى قصورهم بالقلعة.

وقد أحضر الغورى منها أيام سلطنته نحواً من مائة وخمسين حملاً وغرساً بالميدان الذى تحت القلعة.

وكانوا لا يبخلون بالصرف والنفقة على ملاذّهم ومحافلهم مهما كانت حتى ليعد ما ورد عنهم فى عرفنا اليوم سفهاً أو خروجاً عن حد المعقول. خاصة وأنهم اقتطعوه من قوت الشعب.

عاداتهم فى الأفراح والأتراح :

وبالغوا فى الأعراس، وأسرفوا فى الصرف على مظاهر البذخ، بمناسبات الزواج. وصف الصيرفى (١) جهاز الأميرة أخت السلطان المنصور حاجى عند زفافها إلى أحد الأمراء المماليك (منطاش) فقال :

«كان جهازاً قليل المثْل لعظيم ما فيه من الجواهر والفصوص والذهب والقماش المختلف الألوان وعدّ الحمالون فبلغت عدتهم خمسمائة حمّال خارجاً عن عشرة قطر بغال، والحجاب قد مشوا بين يديه، وغالب العسكر والأعيان، فأخلع عليهم وأحسن إليهم».

وكان منطاش (العريس) قد قام بأمر مُهِمّ العرس، وصنع أشياء كثيرة من الأغنام والأبقار والخيول والسكر والأعسال، وهيأ لها عبوة من الذهب لأجل نقوط المغانى والمواشط وما أشبه ذلك، صنع لها أموراً زائدة على الحد، وبنى بها فى ليلته، وعندما زُفَت إليه قام إليها وعلق فى شربوشها ديناراً زنته مائتا مثقال، ثم آخر زنته مائة مثقال. (٢)

وكان من تمام أبهة السلطان مماليكه أو خاصكيته، وذكرنا أن معظم سلاطين هذه

(١) نزهة النفوس ١/٢٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٥ .

الدولة أكثروا من شراء المماليك من سائر الأصناف، وأنفقوا في سبيل ذلك المال العظيم، وكان رائدهم في ذلك السلطان برقوق، كما أسلفنا، فقد جمع المماليك من سائر الأصناف من الترك والجركس والروم والبلقان، وغير ذلك

ومن عاداتهم في الأفراح أن يوقدوا المشاعل والقناديل وأن يطلقوا العاب النفط وأن يطاف بجهاز العروس يتقدمه المنشدون والعازفون.

ويتنافس الأمراء في تقديم الهدايا للعروسين.

على أن هدايا السلاطين لم تكن قاصرة على الأفراح والأيام الملاح، بل كانت العادة أن يقدم لهم الأمراء ورجال الدولة هدايا دورية ثمينة تسمى تقدمات، قيمتها تناسب مقدمها.

وهذا غير هدايا أخرى هي البراطيل والرشاوى من الأموال والأشياء الثمينة.

وكانت لهم في أحزانهم عادات لازال بعضها شائعاً في الأوساط الشعبية.

من ذلك ما كان يفعله نساء القصر عند موت ابن السلطان أو السلطان إذ يخرجن في المناحات نافشات شعورهن ويضربن مع النائحات بالدفوف. نقل ابن إياس أنه عند وفاة ابن السلطان برقوق «أظهرت أخته خوند شقرا عليه غاية الحزن، وعملت له نعياً بالمغاني تعزف بالطارات نحو سبعة أيام».

كذلك لهم بعض عادات في المرض والشفاء فقد روى ابن إياس عن خروج زوجة السلطان إينال من القلعة بعد مرضها وشفائها حيث «نزلت من القلعة إلى بولاق على شاطئ النيل ونزلت لترى البحر حتى يذهب عنها الوخم، ونزل إليها السلطان وأعادها، فلما حصل لها الشفاء أحرقوا في بولاق حراقة نفط هائلة حافلة، وخرجت البنت من خدرها لأجل الفرجة، فلما عوفيت طلعت إلى القلعة في محفة وحولها الخوندات - من سيدات القصر والستات، وأعيان نساء الأمراء والمعاشرين حتى طلعت إلى القلعة وكان لها مهمة حافلة».

واعتقد السلاطين ببركة الصوفية والصلحاء من رجال الدين حتى إن السلطان برقوق طلب أن يدفن تحت أقدام أحد هؤلاء في مدفنه، وكذلك كان إينال يعتقد فيمن يعرف «بسيدى أحمد المغربي» المجذوب . فلما مات هذا الشيخ أخذه السلطان ودفنه في تربته لينال بركته . بعد موته.

وكان من عادة قايتباى أن ينزل إلى القرافة لزيارة قُبور الصالحين والأئمة كالإمام الشافعى والإمام الليث وغيرهما.

ظلم المماليك :

اشتهر عن المماليك الظلم ، وشاع ذلك على ألسنة الخواص والعوام وما من كتاب يؤرخ للعصر من أهله إلا ويتحدث عن هذا الظلم، وكأنه كان سمة غالبة عليهم ، أوكأن حياتهم كلها كانت تتسم بذلك. ولم يكن فيهم عدل، ولارحمة ولااعتدال فى معاملة الرعية ، ولكن الناس هكذا يعممون ويطلقون الصفات التى ينفرد بها علي الجميع ، أو ماقد يتصف بها إنسان فى موقف ما، فإذا بها تلتصق به.

وإنصافاً لهولاء الذين حكموا دولة كبرى على مدى قرون ثلاثة نقول إن صفة الظلم لا ينبغى أن تعمم، صحيح إن بعضهم ظلم وتجبر وعتا، وكان قاسياً، لكن هذا الظلم، وهذه القسوة كانت عملاً فردياً، أو لضرورة أملتها أحوالٌ وظروف لم يكن مفرمنها، أو كانت موقفاً اتخذه أحد السلاطين لرؤية أرتأها ورأى فيها ظلماً لواحد أو جماعة محدودة، وهى فى الوقت نفسه لمصلحة المجموع أو قد ترتكب مظلمة هى فى رؤية بعض الناس كذلك ورؤية بعضهم الآخر على العكس.

فعلى سبيل المثال قد يختلف مؤرخان كالمقريزى وابن تغرى بردى فى النظر إلى بعض تصرفات أحد السلاطين، فيراها أحدهما ظلماً، ويرى فيها الآخر فائدة وعملاً لصالح الجماعة. كما قد يحكم مؤرخ كابن إياس على أحد السلاطين مرة بالعدل والرحمة بالرعبة مرة ثم يعود فيحكم عليه بالعسف والجور.

وهذه الدولة العظيمة بمنجزاتها الضخمة التى لا تنكر، وشواهدها إلى الآن باقية تدل عليها، لا يمكن أن تقوم على الظلم، وإلا ما أمكن استقرارها، وثراؤها هذا الثراد الذى مكنها من أن تصد عاتي الهجمات، وتواجه أشد الكوارث من الطواعين والغلاء ، وقصور فيضان النيل.

ربما كان للنظام العسكرى المحكم فى إدارة البلاد، وجباية الأموال، وعمل

الجسور والترع والقناطر لضبط الأعمال الزراعية ، وتنمية الزراعة لأنها العماد والأساس لإقتصاد الدولة ربما كان هذا الإنضباط الصارم والتحصيل لموارد الدولة ربما كان هذا الإنضباط الصارم والتحصيل لموارد الدولة من الغلال والأموال دون تراخ سبباً في الإتهام بالظلم.

والناس في كل العصور تشكو من الضرائب ومن محصلي الضرائب على الممولين من الظلم في تقدير الأموال. ولا يمكن أن تقيم الدولة مشروعاتها دون نفقات تقع بالضرورة على كاهل الناس في تمويلها، ومن هنا كانت الشكوى دائماً من السلاطين في تحصيل الأموال لاعداد الجيوش وبناء المدارس والجوامع، وإقامة الجسور وتجميل المدينة ومدن المملكة بالبساتين والحدائق ، وجر المياه في النزاع ، وبناء الحصون ، و اعداد الأساطيل .

وقد أوردنا في حديثنا عن السلاطين أمثلة كما يقال عن ظلمهم ، ونورد مثالاً آخر مما قيل عن ظلم السلطان الغوري . قال ابن إياس إنه كان يتجر بأقوات الناس ، فقد كان يأخذ القمح والشعير من المحصول الجديد ويبيعه في الشام ليربح مالاً كثيراً، وينزل الناس في مصر يشكون الجوع . قال : فكان يشتري القمح من مصر ويرسله إلى البلاد الشامية فانشحطت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك ، وكادت أن تكون ممنوعة مع وجودالقمح الجديد، فلما شق السلطان من القاهرة تسَّيبت عليه العوام بالكلام المنكر وقالوا له جهاراً : الله يهلك من يقصد الغلاء بالمسلمين » .

والرواية على هذه الصورة تبدو ناقصة لأنها لا تذكر الدواعي وراء عمل السلطان ولا نشك في انهما لم يكن لدواعي التربّح بقدر ما كانت لفائدة ، فقد تلجأ بعض الدول وحتى في زمتنا الحالي إلى شراء بعض السلع من المواطنين لتبيعها خارج البلاد بسعر أكثر لتكسب لخزانة الدولة فرق السعر لحاجة ميزانيتها إلى المال وقد حدث هذا في مصر بالنسبة للقطن مثلاً في أوقات عجز ميزانية الدولة كما حدثت بعض التصرفات الأخرى التي رأى فيها المواطنون تضييقا عليهم ، وكانت الضرورة تقتضي ذلك وأن يتحمل الناس بعض الأعباء للصالح العام.

على أن الغوري لم يكن بالسلطان الغاشم، فقد عمل لمصلحة مصر وقام

بأصلاحات داخلية كثيرة باشرها بنفسه على ما يروى فى سيرته.

ونحن لا نقول هذا دفاعاً عن المماليك، ولكنا نقوله إحقاقاً للحق ودفعا لبعض الشبه والإتهامات التى قد يرسلها بعض المورخين إرسالاً دون تدقيق فى الدوافع وراء ما يظنونه من أعمال الظلم .

وصحيح كذلك أن حياة المماليك لم تكن نقيَّة تماماً من الظلم وأن السلاطين لم يكونوا جميعاً على مستوى من العدل والإنصاف والرحمة والعمل لصالح الرعية . بل نجد أعمالاً من أفراد كما قلنا تتسم بالظلم والطيش وعدم تقدير للمسئولية . وغالباً ما تكون هذه الأعمال من بعض السلاطين الذين تولوا صبياناً بهم طيش الصبا أو الشباب ، والجهل وعدم الحنكة .

كذلك قد يحدث بعض الفساد من أمراء يعتدون على أموال الناس وحرماتهم وينهبون ممتلكاتهم وتجاراتهم . وكل هذه الأعمال إذا أحصيت على طول تاريخ المماليك ووضعت جنباً إلى جنب مع ماقاموا به من أعمال جليلة وحافظوا على حرمة الأوطان ، وصيانة الأرض والكرامة ضد شراذم المغيرين والطامعين لرجحت كفتهم دون شك .

وينبغى لنا أن نعيد النظر إلى كتب التاريخ لنقوم ماجاء بها وننفى ما قد يكون لصق بها أو تعمده أصحابها من زيف أو زيغ ، أو تحامل لأمور لا تخلو منها نفوس البشر.

وربما كانت مثل هذه الأخبار مما يلتقط سماعاً دون تحليل أو تدقيق، ولا ينبغى أن تحكم على أعمال الناس فرادى ، مستقلة بعضها عن بعض ، بل ينبغى الحكم عليها بملابساتها وظروفها والأهداف الخفه علينا كذلك . وضرب الله لنا مثلاً بقصة العبد الصالح مع نبى الله موسى .

الفصل الثالث

نظام الدوله والحياة والمجتمع

اقام المماليك دولتهم علي أساس نظام إقطاعي عسكري ، يتولي فيه السلطان السلطه العليا العسكريه ، فهوالقائد الاعلي للجيش والمدنية فهو الحاكم المطلق . وأما الدينية فيتولاها شكلا الخليفة ، وفعلا السلطان .

وتنقسم الدولة في كل اقليم من اقاليمها الي ولايات مستقرة ، يراس كل ولاية امير أوكاشف مقدم مائة ، ويليه بلدان الولايات وقراها ويتولاها أمراء أقل رتبة .

ويتولي بعض الولايات الكبري نائب للسلطان ، كما هو الحال في دمشق وحلب ، والقدس ، والاسكندرية علي ماأشرنا في حديثنا عن الاقاليم والممالك التي تضمها الدولة .

وهناك مناصب الدولة الكبري العسكرية منها والادارية ، قسمت إلي أصحاب السيف وأصحاب القلم . وفصل في ذكرها أمثال المقريزي والقلقشندي ويلي السلطان نائب السلطان أو النائب الأول ، أو أتابك العسكر . وللمؤسسة السلطانية بالقلعة رتبها ورسومها ونظمها. تلك وظائف أرباب السيف ، أما أرباب القلم فاولهم الوزير ، ووقد كان للوزارة شأنها في الدولة الأولي ، ولكن قل ذلك الشأن في دولة الشراكسة ونقدم عليها كاتب السر ورئيس ديوان الا نشاء .

قال ابو شامه : كانت الوزارة علي عهد الخلفاء الفاطميين وظيفة عظيمه جليله ، وكان الوزير يجلس بحضرة الخلفاء علي مقدار خمسة أذرع ، وكان هو المتصرف في أمر المملكة بما يختار ، فلما جاءت دولة الأتراك قدموا نيابة السلطنة علي الوزارة فتلاشي أمر الوزارة من يومئذ ، وصارت الوزارة تنقسم الي أربع جهات ، منها كتابة السر ، الأستادارية ، ونظر الخاص ، وشاد الدواوين. وكانت خلعة الوزارة في قديم الزمان عمامة بيضاء برقمات ذهب شغل تَنِّيس ، وطيلسان أبيض برقمات ذهب ، وجبة صوف بيضاء بطرز ذهب ، وفي عنق الوزير عقد جوهر بعشرة آلاف دينار ، وسيف مقلد به مسقط ذهب . ويركب حجرةً بخمسمائة دينار وفي قوائمها أربع

جوهرات وفي عنقها جوهرة كبيرة بألف دينار ، وترفع علي رأسه أعلام بيض ، ويحمل علي رأسه منشور الولايه . وفي عهد الجراكسة ذهب هذا كله وصغر شأن الوزارة وتراجعت عن مناصب النائب وكبار الامراء ، بل بعدمنصب كاتب السر، واصبح الوزير مجرد كاتب يتولي الشئون الادارية والماليه أحيانا . وتوالي علي الوزارة في هذه الدوله بعض المسالمة أو الاقباط المسيحيون الذين آسلموا لنمرسهم بأعمال المالية والإدارة ، واستحدث في موكب الوزير زامر يزعق بين يديه . قال : صاحب نزهمة النغوس : " وهذا لم يعهد قط بمصر "(١)

وهان شأنها حتي كان يعين فيها بعض عوام الناس . قال ابن اياس : " واخلع السلطان علي شخص من صيارف اللحم يقال له قاسم شغيته وقرره في الوزارة . عوض سابقة فازدادت الوزارة بهدلة بولاية قاسم هذا " (٢)

وعين السلطان خشقدم شخصا نكرة في الوزارة هو من ذكرنا فغضب الناس لذلك ، وعد هذا من مساوئه قال ابي اياس : وكان أصله طباخا من معاملين اللحم ، وكان أميا لايقرأ ولايكتب . وفي كلامه لجلجة وعنده عترسه ، فلما رآه السلطان سدأداً قرره في نظر الدوله بالوزاره . وقد هجاه بعض الشعراء قائلا :

قالوا البباوي قد وزر فقلت : كلا لاوَزرْ
الدهر كالدِّولاب لاَ يدور الأَّ بالبَقَرْ (٣)

على ان بعض السلاطين كانوا يختارون من بين الشيوخ أصحاب العمائم والقلم من يأنسون فيهم خيرا ، ويطمئنون إليهم فيكلون إليهم بعض الاعمال الهامه ، ويعطونهم سلطات كبيره تفوق سلطة الوزارة ، ومن هؤلاء الذين بلغوا مكانة كبيرة في دولة الجراكسة شرف الدين أحمد ين العيني فقد بلغ أعلا المراتب حتي سمي عزيز مصر وملك الأموال والقصور .

والمنزلة التالية بعد الوزير بل تضارعها بين أصحاب القلم هي منزلة قاضي القضاة والقضاة ونواب الأحكام ، والعلماء والمدرسون ، وكانت رتبة المحتسب من

---

(١) نزهة النفوس ٢٣٤
(٢) صفحات لم تنشر من تاريخ ابن اياس ١٦٠
(٣) المصدر نفسه ١٣٦

الرتب المميزه ذات السلطه تولاها بعض الشيوح كالمغريزي . وكان المحتسب مسئولاً عن مراقبة الأسواق ، والبائعين ، ونظافة دكاكينهم وجودة بضائعهم ، وعدم مغالآتهم في الأسعار أو احتكار السلع واخفائها . والحفاظ علي الآداب العامة في الشارع والسوق وعدم الاخلال بالنظام والشرع . ، فكان يجمع بين سلطات وزير التموين والداخليه في عصرنا اليوم .

السلطة الدينية

بدا نظام الحكم في الدولة الاسلاميه بحاكم هو الخليفه أو الامام يجمع بين السلطتين الدينيه والزمنيه ، وأخذت السلطة الزمنيه تنسلخ عن الخلفاء منذ تولي البُويهيين هذه السلطة وحجب الخلفاء عن التصرف فى أمور الحرب والادارة .

وتم فصل السلطتين رسميا في دولة المماليك ، فكان السلطان هو الحاكم الفعلي للدولة ، ولايمثل السلطة الدينيه بل السلطة العسكريه والاداريه فهو الذي يقود الجيوش ، وكان يقودها الخليفه في عصر قوة الدولة العباسية والفاطميه . وكان دور الخليفه في دولة المماليك قاصرا علي اصدار مرسوم تعيين السلطان ليكتسب الشرعية شكلاً . فالسلطان يكتسب الشرعية بالغلبة وبالسيف وليس بمرسوم الخليفه . وهكذا أصبح الخليفه رمز السلطة الدينيه في دولة المماليك كخيال الظل موجود ، وليس له وجود حقيقي ، ولايملك شيئاً حتي ماوكل اليه من الأمور والوظائف المتعلقة بالدين وأموره ، ومايتصل بالشرع وتنفيذ أوامر الشريعة وتوقيع الحدود أو العقوبات ، فكان تَعْيين قاضي القضاه من سلطات السلطان مع أنه وظيفة دينيه وكذلك كان عزله ،

وكان الخليفه نفسه عرضة للعزل ، بل والسجن او النفي من السلطان وقد تكرر ذلك وكان آخر حادث معروف بين الخليفه والسلطان ماحدث بين المؤيد شيخ والخليفه الذي اتفق الأمراء بعد عزل احد السلأطين وقيام النزاع بين اثنين من كبار الأمراء علي السلطنه فاتفقوا علي حل المشكله بأن يتولي الخليفه ، ولكن سرعان ماانقلب احدهما عليه وهو المؤيد شيخ فعزله وسجنه . هكذا كان منصب الخلافه في دولة المماليك ، وهو رمز الحاكم الإسلامي الذي كانت له في عنفوان الدولة العربية الاسلامية ، فلما تخلي العرب عن دورهم القيادي وتولاه الفرس والأتراك والأكراد ثم المماليك تضعضع مركز الخليفة وصغر شأنه وتلاعب به هؤلاء وكانهم وهم يتلاعبون بهذا الرمز ، يتلاعبون بقيم كبيرة كانت تمثلها الخلافة . لقد دان المماليك بالاسلام في صورة معدلة ، فقد دخل علي أصوله وجوهره عناصر متعددة ، ابتعدت به عن ذلك الجوهر ، واصبح ماران عليه من مستحدثات ألصق بصورة

الاسلام في العصر ومظهره من حقيقته ومن هنا تري علي سبيل المثال تكريم السلاطين لجهلة الدجاليهن، وادعياء الصوفيه والاعتقاد فيما يدعون من كرامات ، والاجلال والاحترام لهم اكثر من الاحترام للخليفه نفسه . كذلك نري هؤلاء يأخذون بالمظاهر الاسلاميه كبناء المساجد وخوانق الصوفية ، وتفريق جوامك اللحم علي الفقراء وهذا في عرفهم هو الاسلام ويقيمون الموالد ويصنعون الكسوة للكعبة ، ويعملون احتفالا للمولد النبوي ويحرصون علي ختم القرآن ، وختم البخْاري ويحتفلون لذلك ويهتمون ويقيمون المادب ، وهذه كلها قشور ، فالمهم ليس مجرد تلاوة القرآن بقدر العمل بما جاء به من تعاليم واخلاق وقيم وعلم صحيح ، وفكر مبهر وكذلك بالنسبة إلي الحديث النبوي ليس المهم الاحتفال بختم البخاري وقراءاته والتزود بالاحاديث دون النظر في مضمونها وما تدعو إليه ، ومايمكن أن يكون قد دخل إليها من وضع ، ودخيل مبتدع كثير .

ولقد زكي هذا بعض العلماء المحدثين الذين كثروا في هذا الزمان ، وكان غايتهم جمع الحديث ، لانقده ، ويتفاخر الواحد منهم بأنه حافظ ، سامع راوية للقريب الشارد النادر ولايهمه بعد هذا قيمة ماروي . لقد غلبت علي شيوخ الدين في هذا العصر أوهام ، اعتقدوها حقائق لاريب فيها ، من امثلتها ماروه السخاوي في سيرة ابن حجر من أن الدعاء عند الشرب من زمزم ثلاث مرات يتحقق .

وقيل إنه سمع ابن حجر يقول : شربت ماء زمزم لثلاث أحداهما أن أنال رتبة الحافظ الذهبي ، فوجدت بحمد الله أثر ذلك ، وأن ييسر لي الكتابة علي الفتاوي كشيحنا السراج البُلقيني فيسر الله لي ذلك . وقال : ولم يذكر الثالث (١)

هكذا كان يفكر ابن حجر شيخ العصر وقاضيه ، وعالمه وشاعره وأديبه فليس غريباً أن نقرأ الغرايب ونسمع بالعجائب ، وكلها تنطوي تحت عباءة الاسلام الذي ظلمه أهله .

وقد استغل المماليك السلطة الدينيه ورجالها ممثلين في الخليفه والشيوخ من القضاه والفقهاء والوعاظ والخطباء والأئمه في تنفيذ خططهم ، والتأثير علي عامة

---

(٢) الجواهر والدور ص ١٠٧

الناس من خلالهم . وقد امسكوا بايديهم مصادر الرزق حتي يمكن لهم التحكم.

وكان طبيعيا أن يهرول هؤلاء إلي القلعة طالبين الرضا أو التعيين في المناصب ويبذلون في سبيل ذلك ما يستطيعون حتي مالا يرضي عنه الدين من الزلفي والنفاق والرشوه .

ولم يكن السلام سائدا بين الشيوخ أنفسهم فقد تنافسو علي المناصب وحرصوا علي تحصيل الأموال ، واتهم بعضهم بعضا بأخذ أموال الناس في التقاضي وتعادوا وتخاصموا حول المنافع من التدريس بالمدارس والمساجد الكبري ، وكاد بعضهم لبعض .

ونقرأ كثيرا عن الخصام بين كبار الشيوخ والعلماء كالخصومة بين ابن حجر والعيني ، وبين السيوطي والسخاوي ، وبين السيوطي والبقاعي إلي غير ذلك مما سود صفحات كثيرة من سير هؤلاء الأعلام . واستهان السلاطين أحيانا بأحكام الشريعة التي تصدر عن القضاة ، فنقضوها وقضوا بما يرون ، وما تقضي به أهواؤهم .

لقد كانت السلطة الدينيه أو المؤسسة الدينيه اذن هزيلة ، مع ماكان لها من المظهر القوي الي جانب سلطة المماليك ، وكانت غالبا ماتسير وراءهم أوفي ركابهم علي ماكان يتصف به بعض هؤلاء السلاطين من جهل وأمية أحيانا ، ومايتصف به أولئك من علم ومعرفة ، ولكنه علم مختلط لايمنح صاحبه عزة العلماء وهو علم تقليد واتباع ينشئ صاحبه علي التبعيه والاستسلام لآراء الآخرين .

الأحوال الداخليه

ورغم ان نظام المماليك كان نظاماً عسكرياً صارماً إلا أن الأمور الداخليه كانت كثيراً ماتفلت من ايديهم فتضطرب اضطرابا شديداً قد يودي بالسلاطين ، أو يؤرقهم ويهددهم .

ولقد لاقي المماليك في هذه الدولة الثانية الأمرّين من صغار الجند ومن الجلبان أو العناصر الجديدة من المماليك ، وكثيرا مانسمع من ابن اياس وغيره من مؤرخى العصر عن ثورات هؤلاء الجلبان ، يهاجمون الأسواق ، ويصادرون المتاجر ، وينهبون التجار ويهاجمون الوزراء والقادة ،

يقول في حوادث سنة ٨٦٠ هـ : " وفي صفر ثار المماليك الجلبان بناظر الخاص يوسف ، وضربوه ، وأخذوا عمامته من فوق رأسه وصار مكشوف الرأس ولولا أنه هرب لقتلوه لامحالة ، وكانت الماليك تزايد شرهم جدا " .

ويقول : " وفيه – أي عام ٨٦٠ هـ ثارت الغلمان والعبيد علي الوزير ، ونزلوا من القلعة وتوجهوا الي بيت الوزير ، وصاروا ينهبون بعض دكاكين القاهرة وخطفوا عمائم الناس " {١}

وكانت ثورة هؤلاء غالبًا بسبب مطالبتهم بزيادة الرواتب .. وقد اشتدت في عهد السلطان إينال خاصة " ووقعت منهم أمور لم تقع من مماليك السلاطين قبلهم قط " يذكر منها أنه فى سنة ٨٦١ ثارت منهم فتنة كبيرة في القلعة ، فهجموا علي السلطان ورجموه بالحجارة واضطر الي الفرار ، فوقعت إحدي نعليه من رجله فلم يلتفت اليها وفر حافيًا . ويقال إنه أصابته طوبة من الرجم في ظهره " وعاني الجراكسة كذلك من ثورة العرب في صعيد مصر وفي الشرقيه والبحيرة . واضطروا إلي تجريد الحملات العسكريه لتأديب العربان ومعاملتهم أحيانًا معاملة قاسية لردعهم وكبح جماح غلوائهم . وكان الكنوزقد ثاروا بأسوان عدة مرات بدأت ٨٤٨ هـ وامتدت ثورتهم الي النوبة .

---

(١) نزهة النفوس :ص ٢٣٤

ففي عهد السلطان قايتباي ذهب الأمير يشبك دوادار إلي الصعيد لتأديب العرب فنالهم بقسوة . وظل بالصعيد سبعة أشهر تعقب شيوخ العربان بالتعذيب . قال : " ففعل ببلاد الصعيد من المظالم ما لايسمع بمثله حتي أنه شوي بالنار محمودا شيخ بني عدي ، وخوزق من العربان جماعة وسلخ جلد جماعة ودفن في التراب جماعة وهم أحياء وفعل بالعربان من أنواع هذا العذاب مالم يفعله أحد قبله فدخل الرعب قلوبهم" (١)

وأما الشرقية فقد فسدت أحوال العرب فيها وثار بنو حرام وبنو وائل فسَيَّرَ لهم السلطان تجريدة . وهجموا علي مدينة القاهرة حتي وصلوا إلي حي الحسينسة ونهبوا الدكاكين وسلبوا أثواب الناس واستمر الحال علي ذلك من بعد صلاة العصر إلى المغرب ، فرجعوا من حيث جاءوا ، فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم بعض الأمراء فخرجوا من يومهم سريعا (٢).

ثورة عرب هوارة بالصعيد

علي أن أكبر ثورات المصريين ضد الحكم المملوكي في هذه الدولة كانت ثورة عرب الهوارة في الصعيد الأعلي والأوسط ، فقد أعلنوا العصيان علي سلأطين الجراكسة ، ونادوا بسلطان عربي عليهم خضع له جزء كبير من الصعيد من أقصي الجنوب وحتي المنيا شمالاوقد زحفت بعض قبائلهم شمالاً ، في محاذاة الضفة ، واحتلوا بعض القري والنجوع . قال صاحب نزهة النفوس في حوادث ٨٤٢هـ في عهد السلطان جقمق إن ثورة هوارة استفحلت فاضطر السلطان أن يبعث اليهم تجريدة بقيادة الأمير يشبك السوداني الأتابكي ، وكان قد سبق له الذهاب علي راس قوة لاخضاع هوارة ، ولكنهم عاودوا للثورة ، فعاد اليهم بجيش كثيف ، واقام بأسيوط ، وتقدمت كتائب فرسانة إلي أبوتيج لتلتقي هناك بجموع هوارة ، فقاتلهم وقاتلوه ، ولم تصمد قوة الأعراب والفلاحين أمام فرسان المماليك المدربين والمدجحين بالسلاح فاتهزمت جموع هوارة بعد أن قتل منهم مائة وستون رجلا ، وأخذ لهم مائة فرس ، وأرسل من رءوس أعيانهم ستة عشر رأسا قال ابن الصيرفي " فحصل في هذه السفرة شدائد عظيمة ، منها خراب الديار ، ورعي الزرع قبل

(٢) ابن اياس : ً ٤٣٥
(٣) المصدر نفسه

أوانه ، والشراقى ، وآكل الفأر الزرع الذي تأخر فلم يبق منه شيئا ، فلا حول ولاقوة الا بالله " (١)

وقد أعقبت أحداث هوارة والمماليك آثار خراب كبيرة بالصعيد ظل أهله يعانون فيها زمنناً ، وقد أوجز ابن الصير في الحال في العبارة السابقة وكانت أرض الصعيد تغل مالاً ، وغلة وفيرة ، .كان للسلطان بها اقطاع تمتلئ منه حواصله ، من أرض منفلوط واسيوط خاصة ، واستقر الامر فى النهايه بين عرب هوارة والمماليك ، وقبل الاميرالمملوكي بتعيين اميرلهم وفد علي السلطان ٨٥٠هـ - كما ذكر السخاوي {٢} - وكان اسمه اسماعيل ابن عمر الهواري ، فطلع إلى السلطان ومعه جماعة من الصلحاء بالصعيد ، فاكرمهم السلطان وخلع على الأمير خلعة هائلة. واضطربت الأسواق بشغب المماليك الدين يسمون " الجلبان " وقد عم فسادهم وطم في هذا العصر ، وصاروا أذي للناس في كل مكان ، وغطت مساوئهم أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر حتى سقطت دولتهم علي أيدي العثمانيين

يقول ابن اياس في أحداث سنة ٨٧٨ هـ :

ثار جماعة من المماليك الجلبان ونزلوا إلي جهة بولاق ، فنهبوا مافيها ثم قصدوا شونة الأمير يشبك الدوادار ، فنهبوا مافيها ، وصاروا يأخذون جمال السقايين ويحملونها مانهبوه من الشعير ، فلما تزايد الأمر منهم نزل السلطان وهو سائق ومعه مقدم المماليك ، ولكن مانزل إلا بعد فوات الأمر ،

وحصل منهم في ذلك اليوم غاية الضرر للناس ، من نهب وخطف بضائع الناس وغير ذلك ؛ {٣} ..

وروي ابن اياس حادثة بشعة تصور أبلغ تصوير مدي عبث أولئك الصغار بالناس واستهتارهم بالرعية ، وقال ابن اياس فى أحداث سنة ٩٠٣ هـ : " وفيها تزايد شر المماليك وجاروا علي الناس بخطف القماش من الدكاكين والبضائع من الأسواق . وصاروا يستخفون بالسلطان والأمراء ، وقيل أن أحد المماليك كان راكبا علي فرس حرون فصادف جنازة في وجهه فجفل فرس ذلك المملوك ووقع علي

---

(١) نزهة النفوس ٩٧/٤
(٢) ذيل السلوك
(٣) ابن اياس : ص ٦٣٨

الأرض ، فقام وهاش ، وضرب الحمالين الذين كانو يحملون الميت ، فلما هال ذلك الحمالين ألقوا الميت علي الأرض وهربوا فلما هربوا وقع المملوك في الميت وضربه بالدبوس حتي استشفي ، وصار الميت ملقي علي الأرض إلي أخر النهار ، وقد جرت هده الواقعة في سويقة صفية " {١}

واشتهر عصرهم هذا بالمؤامرات وكثرة الدسائس التي تحاك في الظلام ضد أعدائهم وعاني الناس أشد المعاناه من مظالم المماليك وعمالهم وكشافهم في البلاد ، حتي صار اسم الكاشف يعني في ريف مصر وقراها الظلم والعسف بألوانه . فقد كان كما عبرأحد مؤرخي العصر أولئك الكشاف " تنزل علي البلاد وتكبس علي الفلاحين ويستخرجون منهم الآموال بالضرب . والذي يهرب يقبضون علي نسائه وأولاده ، فخرب غالب البلاد ورحلت عنه الفلاحون، فصار الذي تخرب بلاده من المقطعين ياخذون جامكيته في نظير الحماية والشياخة " {٢} وألف العوام زمن قانصوه الغوري آخر سلاطينهم رقصة وأغنية تصور هذا الجور يقولون فيها :

" اهرب ياتعيس ... وإلا يحمّلوكَ الدّريس "

يصورون بها أعمال السخرة التي أرغموا عليها الناس ، ومنها حمل الدريس لمخازن السلطان وأدت الكوارث والنكبات المتتابعة التي توالت في النصف الثاني من القرن الثامن وطوال القرن التاسع وآوائل العاشر الي حدوث الغلاء ، وشح الأموال والأقوات ، والتي أدت بالضرورة إلي تضرر الناس وشكواهم ، وثورتهم ثورات محدودة أو عامة . كما أدَّت الي أن يلجأ السلاطين إلي تحديد الإنفاق وقطع رواتب بعض صغار المماليك مما إدي إلي ثورتهم أكثر من مرة ، وفي كل مرة يفعلون بالناس من أنواع الجرائم ، قتلا ونهبا ، واغتصابا مما حفلت به كتب التاريخ من ذلك زيادة علي مادكرنا عبث صفار مماليك الجلبان في ٨٥٩ هـ علي مايروي ابن اياس زمن السلطان اينال بممتلكات الناس واموالهم ، وتجارتهم بممتلكات بقول دد .... وفي جمادي الأول تزايد شر المماليك الجلبان ، وتوجهوا الي بولاق ونهبوا شون الأمراء لأجل الشعير لأنه كان شحيحاً ، وصاروا ينزلون الفقهاء والمباشرين عن

(١) ابن اياس :ص ٤٤٩
(٢) ابن اياس: ص ٦٣٢

خيولهم وبغالهم وياخذونها من تحتهم ، وحصل منهم في حق الناس غاية الضرر ولاسيما التجار في الأسواق ، فكان المماليك يخطفون القماش من الدكاكين وسائر البضائع ، فاستمروا علي ذلك حتي وقع فيهم الطاعون " فأراح منهم الناس . وروي ابن اباس ثورة أخري لهؤلاء الجلبان ٨٧٨ هـ ، وقال إنهم نزلوا إلي بولاق فنهبوا مافيها من شون بعض الأمراء ، وصاروا يأخذون جمال السقايين ويحملونها مانهبوه من الشعير . فلما تزايد الأمر نزل السلطان اليهم في ذلك اليوم . قال ابن اباس {١} : ولكن ما نزل إلا بعد فوات الآوان وحصل منهم في ذلك اليوم غاية الضرر للناس من ذهب وخطف بضائع الناس ."

وكانت هذه الثورات متتابعة من هؤلاء المماليك المشترين حديثا ، وكانوا سببا من اسباب الاضطرابات بالقاهرة ، وأسواقها ، واختلال الأمن وخوف الناس علي اموالهم وأعراضهم .

ولم يتوقف الأمر علي هؤلاء المماليك في الاخلال بالأمن ، بل إن عصابات اللصوص أو المناسر بدأت تسطو علي البيوت والدكاكين .

كل تلك الأمور تعطي صورة لما حدث من تشويش لأحوال الناس ، وما أصاب البلاد من خروج علي القانون و النظام فى أوقات كثيرة ، مما أساء إلي النظام المملوكي علي الرغم مما عرفوا به من قوة الردع ، وشدة الأحكام التي قد تخرج عن حدود الشرع الي التوسيط ، والسلخ ، والصلب ، و الإشهارّ بالجرائم بين الناس.

الأحوال الخارجيه
وعلاقات المماليك بالعالم من حولهم

كانت علاقات المماليك بثلاث قوي هامة في العالم الخارجي بين آسيا وأوروبا، وكانت تلك العلاقات تتغير من حين لحين بين العدواة الصريحة والصدام العسكري، وبين المهانة ، أو التعاون في السلام وتبادل المصالح السياسية والتجارية .

وأول هذه القوي المغول والتتار من المشرق ، تلك القوة التي اجتاحت دول المشرق الاسلامي والعربي منذ القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وحدث الصدام بنيهم وبين المماليك في أول دولة المماليك البحرية وانتصرهؤلاء وأمنوا مصر من احتياجتهم لأرضها ، كما اجتاحوا كثيرا من دول المشرق الإسلامي والعربي .

وفي عصر الجراكسه ظهرت قوة المغول من جديد بالزحف الكبير الذي قاده تيمورلنك علي منطقة الشرق الأوسط حتي بلغ مملكة الشام وحدود الدولة المملوكية في عهد اول سلاطين الجراكسة برقوق الاً أن برقوق استطاع أن يحشد قوي الدولة ويعد جيشا قوياً للزحف إلي الشام لصد تيمورلنك ، فلما سمع الغازي المغولي بذلك انسحب الي الشرق في سلام .

الا أن تيمور أعاد الكرَّة مرة أخري فأغار علي شمالي الشام ، وهاجم بلاد العثمانيين في الأناضول ، ثم أعاد مهاجمة حلب ودمشق حتي تمكن من احتلالهما.

وحاول العثمانيون أن يعقدوا حلفا مع الجراكسة ضد تيمورلنك ، إلا أن المماليك وكانوا في وضع لايسمح في عهد الناصرفرج ابن برقوق ، لم يمدوا يدهم الي بايزيد السلطان العثماني مما قوَّي تيمورلنك وأطمعة في الدولتين وكانت مأساة غزو تيمورلنك واحتلاله جزءاً من الشام وتهديده مصر أمرا مقلقا للسلطان فرج وكبار المماليك ، وقد ثار الشعب في مصر والشام في وجه السلطان وأمرائه لعجزهم عن صد المغول . وأنقذت ظروف خاصة في بلاد تيمور الشرقيه مصر من غزوة مرتقبه لايعلم الا الله نتايجها .

ولم تنته متاعب الجراكسة بانسحاب تيمورلنك وفك حصار دمشق فقد تركت

آثارها البالغة في نفوسهم ونفوس الشعب في مصر والشام حتي ان الناس سخروا من سلطانهم وآمرائه لتخاذلهم :قال بن أياس : وقد انتهكت حُرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم ، حتي إن الفلاحين طمعوا في الترك ، وتبهدلوا عندهم بسبب ماجري عليهم ... وكادت أن تخرج المملكة من الجراكسة {١}. وكانت بلاد المملكة قد أرجفت بتهديدات تيمورلنك ، قال ابن حجر : " وبدأ النداء في مصر إذ نودي بأمر السلطان بمصر والقاهرة أن يتجهز الناس إلي قتال تيمورلنك وطرده من بلاد الإسلام ، فإنه قتل العباد وضرب البلاد ، وهتك الحرم وقتل الأطفال وخرّب الديار ، فركب سودون النائب وجماعة معه ، ومعهم ورقة يقرأ فيها من ذكر مساوئه وسيرته القبيحة و الأمور الفظيعة ، فاشتد خوف الناس ، وعظم ضجيجهم وبكاؤهم، وكان يوما مَهُولاً "{٢}

قال ابن اياس : " إن تيمورلنك قال : ماأرجع حتي أدخل مصر وأفعل بها ما فعلت بدمشق . فأخذه الله تعالي وكفي الناس شره . وقد قال القائل :

مات تيمرلنك وجاءت لنا أخباره فيما تأتي إليه

وقد كفانا ربنا شره والله كاف من توكل عليه {٣}

علاقتهم بالعثمانين : (آل عثمان)

وكانت علاقة الجراكسة بالعثمانين جيرانهم في شمال الشرقي متذبذبة يغلب عليها الحذر والتوجس ، وإن بدا حسن الجوار . والمجاملة أحيانا . وكانت قوة العثمانين متنامية ، ويخشاها الجراكسة لانها القوة الإسلاميه المنافسة لهم بالمنطقة .

قال ابن حجر : كان الظاهر برقوق يخاف من عائلة مراد سلطان العثمانين في عهده ويقول : لا أخاف من الملك " تيمور" لأن كل واحد يساعدني عليه ، وانما

---

(١) ابن ايس : ص ٤٣٩
(٢) ابن حجر في إنباء الغمر بأنباء العمر : ٤٥٦/١ - ٤٥٧
(٣) ابن ايس : ٣٢

أخاف من ابن عثمان " وعبارته واضحة الدلالة علي ماقلنا . كذلك قال ابن حجر نقلاً عن ابن خلدون : سمعت ابن خلدون مراراً يقول : مايُخْشَى عليي ملك مصر إلاَّ من ابن عثمان "

وسبقت إشارتنا إلي طلب العثمانين مساعدة سلطان مصر ضد تيمورلنك ، فتقاعس عن ذلك . وقد تذبذبت العلاقه كما قلنا ، فكانت فترات يتقارب فيها الاثنان ومحاولات الارتباط بالزواج ، وربما شهد عهد جقمق اكثرها ازدهارا وتقارباً فقد تزوج إحدى بنات السلطان العثماني ، وبعد موته تزوجها برسباي .

وأرسل السلطان جقمق إلي السلطان مراد العثماتي رسالة تهنئة بمناسبة انتصاره علي بني الآصغر { الآوروبيين من المجر انتصارا عظيما ، وأرسل مراد رسالة بشارة ، مع وفد عثماني يضم بعض الاسري ، قال الجوهري ابن الصيرفي في حوادث ٨٤٨ هـ " وأرسل مراد بك بن عثمان مع أمير من أمرائه صاحب الروم الأوروبيين و جماعة من الأمراء وهم متلبسون علي هيئة بلادهم ، وعدتهم ستة عشر نفرا ، ملبوسهم حتي زنودهم غائصين في الحديد والفولاذ { وهي هيئة فرسان أوروبا في العصور الوسطي } وخوذهم الطشوت علي رؤوسهم ، وهم علي ظهور الخيل ، فخرج أهل مصر للقائهم . وكان يوماً أعظم من يوم المحمل ، وأرسل مراد بك بن عثمان هؤلاء لينظر المسلمون والأتراك شجاعته وشجاعة عسكره " {١}

هكذ كانت الدولتان تتناولان الرسائل والهدايا ، وحدث في عهد السلطان مراد كذلك ٨٤٩هـ عقب انتصاره علي الأوروبين أن بعث مبعوثا إلي القاهرة ومعه هدايا كثيرة ليبلغ السلطان المملوكي بأقامة ولده محمد سلطانا من بعده ، والتمس أن يكون الولد مشمولا بالنظر من السلطان >" {٢}

وفي عهد السلطان إينال تم فتح السلطان محمد الفاتح بن مراد العثماني لمدينة القسطنطينية الحصينه . وكان ذلك في جمادي الأولي ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م ووصل قاصد من السلطان محمد يخبر سلطان مصر بفتح القسطنطينية العظمي ، وقد صنع المكايد في فتحها ، فلما وصل وافد العثماني إلي القاهرة وأبلغ السلطان المملوكي

---

(١) نزهة النفوس ٣٠٨/٣

(٢) ذيل السلوك للسخاوي ص ١٢٣

دقت البشائر بالقلعة ، ونودي في القاهرة بالزينة .

ووالي محمد الفاتح انتصاراته بأوروبا فبعث إلي إينال فى ٨٦٠هـ /١٤٥٦ م وفداً " وعلي يده مكاتبة تتضمن مافتحه من الفتوحات السنِّية ، فاكرمه السلطان غاية الإكرام . وعند عودة الرسول أرسل معه موفدا للزيارة والتهنية ."

وهكذا استمرت العلاقات علي هذا المنوال حتي عصر السلطان الغوري ، فقد توترت للمنافسة علي بعض مناطق الحدود ، وعلي السيطرة علي طرق التجارة وبعض جزر البحر المتوسط ، وهو أمر طبيعي حتي انتهت هذه العلاقة بالواقعة الفاصلة في مرج دابق وانتصار سليم العثماني وقتل الغوري واحتلال العثمانين لمصر واستيلائهم علي دولة المماليك .

ومن القوي التي ازعجت مماليك الجراكسة بالمشرق شاد سوار الذي كثرت إغاراته علي الشام في عهد قايتباي ، وتمكن من كسر الجيش المملوكي علي حلب مرتين ، وخشيه الناس خشيتهم من تيمورلنك ، قال ابن إياس : " فلما شاع بين الناس بأسه وذكر من قتل من الأمراء والعسكر صار بالقاهرة في كل حارة نعي ليلاً ونهارا مثل أيام الوباء ، فزاد قلق الناس من سوار ، ودخل الوهن في قلوب العسكر مثل أيام تيمورلنك ، وصاروا يرعدون من ذكره ، وفي هذه الوقعة يقول بعض الشعراء :

يــــارب إن ســـــوار قد بَغَـــي ، وبه قد أصبح الناس في ضيق وفي قَلَقِ
فاكسر سواراً ودعه في السلاسل في خواتــم الأمرّ يَستعْطـــي من الحَـلقِ

وقال آخر :

إن سوارا قد غـــدا مخلخلاً عَسْكره قد حَلَّ في دار البَوارْ
يارَبِّ شتت شمله حتي نري خواتــم الأمـــر له كسْرْ سَوارْ "

ويلاحظ تلاعب الشاعرين بالتورية باسم سوار علي طريقتهم آنذاك .

وهكذا تبدلت الأيام فأصبحت المخافة من العثمانين ، وسوار ، وعاد خلفاء تيمورلنك يطلبون ود المماليك ،ففي ٨٤٤ هـ وصل رسل" شاه رخ " ابن تيمورلنك الي مصر ومعهم هدايا للسلطان فاستقبلتهم القاهرة بالزينات ، وقال الجوهري :" والبلد غاية ما تكون من الزينة والشموع والمغاني بالدفوف . وقد اجتمع أهل

القاهرة بمصر وضواحيها لينتظروهم وقدمت الهدية إلي السلطان فكانت صحناً فيه مائتا فصً فيروزج ، ومن القماش الحرير إحدي وثمانون قطعة ، وجملة ثياب وفراء وقماش كثير ما بين سّمور ووشق وسنجاب ، وغير ذلك من المسك الأذفر، وثلاثون جملا . (١)

علاقتهم بدول البحر المتوسط وأوروبا :

ولما كانت علاقات الجراكسة المشرقية مذبذبة بين حرب وسلم فقد كانت كذلك علاقاتهم بدول البحر المتوسط وأوروبا ، وقد كانت دولة المماليك البحرية بعد قضائهم علي آخر جيوب الصلبيين في الشام وثغوره القوة الكبيرة في البحر المتوسط والتي تسيطر علي شرقية ، بواسطة الأسطول القوي الذي يحمي مراكب التجارة ، ويبسط الجراكسة نفوذهم هم علي الجزر الكبري في المنطقة مثل قبرص ورودس .

ففي ٨٢٩ في عهد السلطان برسباي أرسلت تجريدة إلي قبرص لاعادة النظام والسيطرة عليها ، وفتحت الجزيرة وأسر ملكها وجئ به الي القاهرة أسيراً ، وكان يوم دخوله – كما يقول ابن إياس – يوماً مشهودا ، وزينت المدينه سبعة أيام ، ودخل عسكر الفرنج وهم في زناجير ، وملكهم راكب وعليه آلة الحرب. قال ابن اياس : وكانت هذه النصرة علي غير القياس !! وفي عام ٨٤٧ هـ قام جيش الجراكسة بغزوة لقبرص ورودس ، وقام بغزوة ثالثة ٨٤٨ هـ برودس ، قال السخاوي {١} وهي الغزوة الثالثة إليها في أيام السلطان جقمق ولم يوفق العسكر المصري هذه المرة في الاستيلاء علي قلعتها ، ورجع بعد أن تكبد خسائر في السلاح والمراكب والرجال " وكانت بعض ممالك البحر المتوسط من الفرنجة وغيرهم يحرضون أصحاب تلك الجزر للخزوج عن طاعة الجراكسة وسيطرتهم ، ليخلو لهم البحر من نفوذ المماليك وسيطرتهم البحرية والتجارية . وخاصة لأن بعض الدول التجارية ، ذات الاساطيل البحرية القوية مثل البندقية في شرق ايطاليا كانت تشعر بقوة

---

(١) ذيل السلوك ص ٨٧

المماليك وتحسب لهم كل حساب فتهادنهم ، وتصادقهم طلبا للقرب ، وحرصا علي مصالحها التجارية ، وقد تنتهز فرصة ضعف أو غفلة فتثير المتاعب ولتكسب علي حسابهم .

ففي عام ٨٤٤ هـ حدث نشاط بحري للفرنجة بالبحر المتوسط ، واعترضوا السفن المصرية واستولوا علي بضاعة التجار ، وأغاروا علي الثغور المصرية مما دفع السلطان جقمق الي صدهم بجملة بخرية "

وكانت أكثر علاقات الجراكسة أهمية في البحر المتوسط مع البندقية إذكانت أقوي قوة بحرية في ذلك الوقت " حتي إن حاكمها الدوج " أصبح الحاكم المطلق علي أربعة بحار هي : بحر إيجه أو الإيجى ، وبحر مرمره ، والبحر الأسود ، فضلا عن أن سفنها كانت ترتع في البحر المتوسط " {١}

وكانت البندقية تحتل مكانة كبيرة بين دول أوروبا النصرانية لثرائها وقوة أسطولها ، وقد قامت «بواسطته بدور اساسي ، في نقل الحملات الصليبية من أوروبا الي المشرق ، كما ساعدت في حملة لويس التاسع علي دمياط في آخر عهد الدولة الايوبية آول الدولة المملوكية . وظل للبنادقة والجنويين والبيزيين من مدن ايطاليا جاليات تجارية قوية في بعض ثغور الشام ومصر الي القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي . وفي ١٣٦٥ م سار اسطول بندقي من جزيرة رودس إلي الاسكندرية ، ونزلت قوات من البندقيه الي المدينة ، ولكن السلطان ردها في الحال ، وأمر بمصادرة متاجر البندقيه بالمدينة، والقبض علي التجار الباندقه ، وسجنهم مصقدين بالحديد ، وخشي حكام البندقيه نتائج هذه الهجمة ، فاضطروا الي مصالحة سلطان مصر بسفارة مصالحة وهدايا فخمة واعتذروا عن فعلتهم ، وأعادوا التفاهم بين البلدين . (٢)

واحتفظت البندقية بقنصل لها بمدينة الاسكندرية ، فضلا عن الوكالات التجارية المنتشرة بالاسكندرية ودمياط والقاهرة .

---

(١) د . جوزيف نسيم في بحث بعنوان " علاقات مصر بالمماليك التجارية الايطاليه من مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية سنة ١٩٧١ م

(٢) راجع مصر الاسلاميه لمحمد عبد الله عنان طبع الخانجي بالقاهرة ١٩٦٩ ص ١٦٤

وقد غدت البندقية بعد الحروب الصليبية إحدي الدول االعظمي بثرائها واتساع تجارتها ، وقوة أستطولها الحربي والتجاري . وقد حرصت علي توثيق علاقاتها بمصر لمكانتها التجارية ولكونها معبرا لتجارة الشرق من النوابل التي احتكرها تجار الكارميه إلي بلاد أوروبا ، عن طريق البنادقة وتجار جنوه وبيزا . وكانت للدنانير البندقية مكانتها في المعاملات بالاسواق المصرية ، وظلت سمعة الذهب البندقي معروفة ذائعة بين المصريين إلي وقت قريب .

وكان لأهل البندقيه وأساطيلهم البحرية دور في محاربة قراصنة البحر المتوسط وتامين طرق التجارة به .

وقد احتفظ لنا القلقشندي في صبح الأعشي بوثائق تكشف عن حجم العلاقات بين سلاطين الجراكسة ووكالات البندقية . فقدظلت هذه العلاقات قوية حتي ظهر البرتغاليون علي المسرح باكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح الذي أدي إلي تحول في تجارة أوروبا مع المشرق إلي ذلك الطريق.

وكان لمصر كذلك علاقات هامة بمدن ايطاليا التجارية الأحري مثل جنوة وبيزا امتدادا للعلاقات التي كانت قائمة منذ عهد الفاطميين . (١) وكانت سفن البندقية وجنوة وبيزا تأتي محملة بالسلع من الغرب لتفريغها في ثغري الاسكندريه ودمياط ، ويقوم التجار من الجانبين بعمليات البيع والشراء ، ثم تقلع بعد تحميلها بالبضائع الواردة من الشرق ومصر والجنوب . ومن أهم البضائع التي كانت تحملها سفنهم كما دكر القلشندي المماليك أو الرقيق من الغلمان والجواري ، والأخشاب والمعادن كالفضة والذهب والحديد والنحاس واشتهر بالذات الحديد البيزاني(نسبة الي بيرة ، والجوخ البندقي الذي يفوق كل أنواع الجوخ . (٢)

وكان القماش من نسيج الاسكندزيه الفاخر علي رأس صادرات مصر إلي البندقيه والمدن الايطاليه ، وكانت له سمعة فائقه في كل الدنيا ، ،كذلك المرجان والسكر ، والزمرد الذي اشتهرت به أسوان والبلسان أو البلسم الذي كان يستخرج من شجر يعينه في بعض المواضع بمصر كالمطريه وعين شمس . وكان ملوك أوروبا

---

(١) د . جوزيف نسيم - البحث المذكور ص ٨٠

(٢) د . جوزيف نسيم ص ٩٥

يقبلون علي شرائه لعظم فائدته في شفاء بعض الامراض ، كما اشتهر في كثير من البلاد ، وكثر عليه الطلب من مصر ، وذلك فضلا عن الأحجار والمعادن الأخري كاللازورد والنطرون والشب والملح الذي كان عليه إقبال من بلاد الفرنج . هذا بالإضافة الي التجارة العابزة - من التوابل وغيرها والتي كانت ترد الي مصر من الهند والشام والصومال وبعض سواحل شرق أفريقيا وكانت لهذه التجارة الواسعة مع المدن الايطاليه أثرها فيما بلغته مصر من الثراء الذي أدي إلي رخاء البلاد ، واتعكس ذلك علي مانعمت به من انتعاش حضاري في كل جوانب الحياة ، علي ما أشرنا إلي بعضه في مواضع مما سبق من الحديث .

ويبدو أن العلاقات بين مصر وأسبانيا والبرتغال لم تكن علي مايرام ، وكان للدور الذي يقومان به في اضطهاد المسلمين والاستيلاء علي أرضهم دور في فتور تلك العلاقات فقد ورد إلي سلطان مصر كتاب ابن ملك غرناطه ابن الأحمر آخرملوك الاندلس المسلمين وذلك ٨٤٤ هـ مضمونه أن المسلمين في همّ وغمٍّ وشدة فادحة بغرناطة مع النصاري من الإفرنج الذين بقرطبه وأشبيلية ، ويسأله النجدة لينتصر علي أعداء الدين . ولم تكن الظروف مساعدة لسلطان مصر لتلبية رغبة ملك غرطانة وإغاثته للضغوط التي كانت عليه من الداخل ومن قراصنة البحر ، وبعض ممالك الأفرنج الذين كانوا ينتهزون الفرص للإغارة علي الثغور المصرية كالاسكندرية .

وظل نصاري الآندلس يضغطون علي مملكة غزطانه حتي سقطت آخر لآمر عام ٨٩٥هـ في أيديهم ، ولم يتمكن سلطان المماليك من نجدتهم في عهد قايتباي . وقد عبث البرتغاليون بالسفن الحاملة للتجارة في البحار الدافئة في شرق أفريقيا والبحر الأحمر ، فالحقوا بالتجارة المصرية اضرارا بالغة ، واستمر ذلك حتي آخر سلاطين الجراكسة الغوري وحتي انتهاء دولتهم .

وفي الجنوب لاقت دولة الجراكسة المتاعب مع دول النوبة المسيحية بالسودان وكانت الحبشة تؤيدهم ، ومافتئ السلاطين يبعثون اليهم بالحملات التأديبيه ، كما كانوا يهددونهم دائما بما كان للكنيسة المصرية من سلطان علي كنيسة الحبشة وكان بعض ملوك النوبة المسيحية قد عبروا الحدود الجنوبيه لمصر حتي بلغوا أسوان وعاثوا

بها فسادا ، فخافهم أهلها ، فطالبوا السلطان برقوق بنجدتهم ، فأرسل إلي بطريرك النصاري اليعاقبة - متي بن سمعان - يتهدده ، ويطلب اليه بما له من نفوذ ديني علي مسيحيي الحبشة والنوبه أن بأمرهم بأن يكفوا أذاهم عن البلاد ،فأرسل البطريرك من جهته من يكشف الخبر ، ثم كتب ألي ملك الحبشة ينكر عليه ، ويأمره ألا يحدث حدثا .

الأحوال الأقتصاديه

تعد الزراعة أساس الأقتصاد المصري منذ اقدم العصور ، لانها أرض زراعيه يرويها النيل . ونظامها الزراعي مستقر ، والزراع أو الفلاحون هم دعامة هذا النظام بما اكتسبوا من الخبرة علي مدي التاريخ المصري منذ العصر الفرعوني

وخضعت الارض الزراعيه لقوانين مختلفة تحدد ملكيتها أو الانتفاع بها وزراعتها ، سواء منها مايخضع لملكية الأفراد ، أو مايخضع للملكية العامة ، أي ملكية الدولة .

وتوزعت الارض الزراعيه علي القري والمدن في التقسيمات الادارية لمصر ، التي احتفظت بحدودها الاقليميه في نظمها مند العصر الفزعوني فيما عدا بعض الأقاليم بالصعيد والوجه البحري التي تغيرت تبعية بعض القري والمدن فيها وفق تغير التقاسيم الادارية فيما عرف بالولايات أو الأعمال

وكان آحر التغيرات الادارية لاقاليم مصر في الحصر الذي أجراه الملك الناصر محمد بن قلاوون فيما عرف بالروك الناصري في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي ، والدي اقيم علي أساس نظام الاقطاع العسكري بحيث يحكم الامراء الاقاليم ويكونون مسئولين عن جمع المحاصيل الزراعيه من الفلآحين ، وإجراء مايلزم من الاصلاحات للأرض الزراعيه ، وما يختاج للجسور بين الأحواض في نظام الري الموسمي أو رى الحياض الذي كان سائدا ، ويعتمد علي الفيضان .

وكان ضبط الجسور واصلاحها كل عام من الأمورالضروريه كالحفاظ علي الأرض الزراعيه ، وغلتها بحسن ريها عن طريق الحياض في الفيضان وظلت الأرض الزراعيه فى زمام القري تتبع هذه الحياض الممتدة علي طول أرض مصر شمالا وجنوباً ، وتعرف به الي الآن عندكل مسح لأراضى القرى وهذا النظام الدقيق لضبط الأرض ساعد في التحكم في زراعتها وجمع محاصيلها . ومتابعة ماروته مياه النيل و ومالم تغمره فصار من الشراقي الذي لايزرع عند انخفاض النيل

وكانت سنوات ارتفاع أو انخفاض الفيضان تمثل كوارث زراعيه ، واقتصاديه

بالضروره ومن هنا كان اهتمام المصريين في كل عصر باعتبار أحوال الفيضان وترقب ارتفاعه وانخفاضه بمقياس الروضة ، فيكون وفاء النيل يوم عيد وفرحة في كل مصر ، ويوم انخفاضه يوم حزن وفزع ويرفع الناس فيه اياديهم ابتهالا الي الله أن يجرية اليهم لري الزرع .

وكانت محاصيل مصر الزراعيه هي المحاصيل التقليديه المعروفة من القمح والشعير والعدس والفول والقرط والأدرة والكتان ، فضلا عن الخضراوات المختلفه من البصل والثوم والباقلاء ،

وكان القمح المصري من المحاصيل الأساسيه في الزراعة ، فهو قوام الغذاء للشعب ، فإذا كان المخصول وافرا رخص السعر ، وتوفر الرغيف ، واذا نقص اشتكي الناس من الغلاء ، رارتفاع سعر الرغيف ، فقاسي المحتاجون والفقراء الذين كان الرغيف عماد غذائهم ومن هنا أطلق علي الخبز اسم " العيش " لأنه أساس عيشهم .

ومحصول القمح يسمي البر ، والغلة وكان الفائض يصدر للحصول علي المال للخزانة ، وليغيث مايحتاج إلي الغوث من الأقاليم الخاضعة للسلطنه . وحدث أن شح القمح بمصر بسبب انخفاض النيل سنة ٨٥٤ فاضطر السلطان الي استيراده من قبرص(١) ويأتي الشعير قي المرتبة الثانية ، وذلك لحاجة الدواب وخيل المماليك عدة القتال ، وعماد الفرسان في الجيش ، واهتم المماليك بزراعة الشعير وحميه في المخازن وحواصل بالقاهرة وغيرها من عواصم الآقاليم ، وكان الكتان من الزراعات التي تعتمد عليها صناعة النسيج والذي اشتهرت بعض البلاد المصرية بانتاجه بدرجات فائقة من الجودة منذ اقدم العصور وقد اشتهرت القباطي المصرية الرقيقه المصنوعة من النيل والكتان ، المصري قي أسواق العالم ، وأشتهرت مدن مثل تنيس والاسكندريه والبهنسا بمصانع النسيج الفاخر الذي يصدر إلي كل الانحاء في المشرق والمغرب والشمال والجنوب . وكانت القري ولاتزال عماد الانتاج الزراعي بالصعيد والريف ، وآزدهارها أو خرابها يدلُّ علي نمو أو تراجع الزراعة ، وبرصد أحوال القري في العصر المملوكي بدولتيه تبين آزدهار الزراعه ، وانتعاش القري في الدوله الأولي (٢) وأن الخراب بدأ يدب اليه في الدولة الثانيه ، لما ساد

(١) ذيل السلوك للسخاوي ٣١٣
(٢) بلغ عدد القري في الروك الناصرس ٢٣١٦ قرية منها ١٦٣٧ قرية بالوجه البحري و ٦٧٩ قرية بالوجه القبلي ، وفي عهد الجراكسة كما ذكر كان ٢٣٩٥ قرية وتناقض بعد ذلك الي ٢٣٨٣ قريه

البلاد من اضطراب ، وفوضي لقصور الادارة ، وفسادها و تعاقب الكوارث كانخفاض النيل ، وتعاقب الطواعين الذي حصد كثيرا من الأرواح ،فكثر شراقي .

الأراضي الزراعيه لعدم وجود من يزرعها ، أو لأن مياه النيل لم تطلها ، وكانت المدن مراكز للصناعات والحرف ، والتجارة بما ينتشر فيها من الأسواق وكانت عواصم الأقاليم أو الأعمال المستقرة مراكز هامة لتلك الصناعات والتجارة وكانت الفسطاط مرفأ الصعيد ، اليها تصل محاصيله ، وصناعاته وتجارته وبها مركز إدارته ، بينما اختصت القاهرة بتجارة الوجه البحري وإدراته . وعرقت العاصمتان في العصر المملوكي بسعة تعاملاتها التجارية ، وازدهار أسواقها وعلي الرغم من أن مصر عاشت مرحلة حرجة في عصر المماليك لكثرة الحروب التي خاضتها ضد كثير من الأعداء ، إلا أن الرخاء كان يعمها بصفة عامة وخاصة في الدولة الأولي وطوال القرن الثامن ، وبعد قيام الدولة الثانية ، في عهد الجراكسة أخذت الحالة الأقتصادية في التدهور شيئاً فشيئاً ، وكان لهذا التدهور أسبابه ، كما كانت مظاهره متعددة .

أما أسباب تدهور حال الأقتصاد ، فكثرة الحروب والنفقات علي الجيوش والعسكر والرواتب ، ومظاهر السلطة ومخصصات السلطان والأمراء ومعاملة الناس بالبأس والتشدد في تحصيل الأموال والمكوس علي التجارة وعلي الفلاحين وكان دخل الدوله يعتمد علي عدة مصادر هي :

١ - ضريبة الارض والزكاة ، وخمس ماتنجمه المناجم ، والجزية علي أهل الذمة والمكوس علي التجارة . والملح وصيد السمك ، والمكوس علي المحال التجاريه والمصانع ، والمكوس علي بعض جوانب النشاط الأخري كالخمور والملاهي .

وقد بلغ ماأنفقه قايتباي علي الحملات العسكريه منذ تولية إلي سنة ٨٩٣ هـ سبعة ملايين وخمسة وستين ألف دينار(٧٠٦٥٠٠٠) وفرض بسبب ذلك وبسبب مطالبة المماليك الجلبان بالنفقة أموالاً جديدة علي الناس فضجوا واشتكوا من كثرة الاموال وتعسف الجُباة في جمع المال حتي دعا الناس عليه في كل مكان وتذمروا من ظلمه . واحتكر السلطان بعض السلع وكانت له تجارة خاصة يقوم عليها جماعة من كبار التجار الكارمية بالقاهرة وبالاسكندريه . وقد بلغ احتكار السلطان السلع

غايته في عهد السلطان برسباي الذي احتكر التوابل ، وخاصة الفلفل .

وضربت عملة جديدة كانت سببا في ضيق الناس واضطراب أحوالهم المالية .

يقول ابن اياس : " صك الأشرف إينال دراهم جديدة ، كل دينار أشرفي ذهباً بثلاثمائة درهم قائم ، والدراهم الجديدة كل درهم خمسة وعشرون ونصف من خالص الفضة ، وابطلت سائر المعاملات المغشوشة والتي كانت وصل الدينار فيها إلي ٤٦٠ ردهماً ، فخسر الناس فى هذه الحركة ثلث اموالهم ، ولكن صلح أمر المعاملة بعدما كانت فسدت ، ففرح طائفة من الناس بذلك وأغتم آخرون "(١)

وظل الاضطراب في العملة سائداً ، فحصل للناس غاية المشقة ، وثاروا علي السلطان قايتباي ، فتجنب النزول إلي وسط القاهرة بسبب " الفلوس الجدد" حتي لايشكو له الناس من ذلك " (٢)

وقد كثر الغش في الدينار والدرهم .

رددعلماء العصر أنباء الضيق الاقتصدي في هذه المرحلة بعد عصر الرخاء في عهد الدولة الأولي فى مطلع القرن الثامن وحتي منتصفه . ويقول المقريزي :

" أعلم تولي الله أمرك بالحياطة والهداية ، ولاأخلاك من الكفاية والعناية - أن الغلاء الذي حل بالخلق منذ كانت الخليفه فيما نُقل من أخبارها بسائر البلاد في قديم الزمان وحديثه علي ماعرف من أحوال الوجود وطبيعة العمران . وعلم من أخبار البشر ، إنما حدث من آفاق سماوية في غالب الأمر ، كقصور جري النيل بمصر ، وعدم نزول المطر بالشام والعراق والحجاز وغيره . أو آفه تصبب الغلال من سمائم تحرقها أو رياح تنسفها ، أو جراد يأكلها وما شابه ذلك . هذه عادة الله في الخلق إذا خالفوا أمره ، أو أتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء ما كسبت ايديهم .

وأما هدا الأمر الذي حل بمصر فإنه بخلاف ماقدمناه ، وبيانه أن النيل قصر جرية في سنة ست وتسعين وسبعماية فشرق أكثر الأراضي ، وتعطلت الزراعة فارتفعت الأسعار حتي بلغ سعر القمح إلي سبيعين درهماً الأردب . ثم أغاث الله سبحانه

---

(١) ابن اياس : ص ٣٦٧

(٢) ابن اياس : ص ٤٦٦

وتعالي الخلق بكثرة ماء النيل حتي عم الأقليم كله ، فأحب الناس لذلك الكثير من البذر ، وكانت بأيديهم قليلة لعدم زراعة أكثر البلاد سنة ست وتسعين وسبعمائة كما مرلا جرم أن تزايدت الأسعار حتي بلغ سعر كل أردب من القمح إلي نحو مائتي درهم والشعير بمائة وخمسين درهماً.

وهذه عادة بلاد مصر من الزمن القديم إذا تأخر جري النيل بها أن يمتد الغلاء سنتين " .

فلما جاء أوان الغلال الجديدة سنة ثمان وتسعين أنحلت الأسعار إلي أن رجعت إلي نحو ماكانت عليه قبل حدوث الغلاء أو قريبا منه > واستمر الأمر حتي مات الظاهر برقوق سنة ٨٠١ هـ ولم يكن حينئذ بالقاهرة قمح يبلغ ثلاثين درهما الأردب . فبيع في اليوم التالي لموته كل أردب من القمح بأربعين درهما وتزايد حتي بيع سنة ٨٠٢هـ ببضع وسبعين درهماً . وسري ذلك في كل مايباع من مأكول ومشروب وملبوس ، وتزايدت أجر الأجراء كالبناة والفعلة وأرباب الصنائع والمهن تزايداً لم يسمع بمثله فيما قبل من هذا الزمان ، حتي جاء الغوث من عند الله ، فكثرت زيادة النيل وعم النفع به الإقليم ".

ويرجع أسباب بقاء الغلاء علي حالة سنة ٨٠٨ هـ مع تلك الزيادة في النيل إلي ثلاثة أسباب هي :

السبب الأول : أصل هذا الفساد ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينييه بالرشوة ، كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة . وسائر الأعمال بحيث لايمكن التوصل إلي شئ منها الا بالمال الجزيل فتخطي بذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلي مالم يكن يؤهله من الاعمال الجليلة والولايات العظيمة لتوصله إلي أحد حواشي السلطان . ووعده بمال للسلطان علي مايريده من الأعمال ، فلم يكن بأسرع به من تقلده ذلك العمل وتسليمه إياه ، وليس معه مما وعده به شئ أقَل ولا أجَل ، ولايجد سبيلاً إلي أداء ماوعد إلا باستادنته بنحو النصف مما وعد به مع مايحتاج إليه من شارة وزيّ وخيول وغيره ، فتتضاعف من أجل ذلك عليه الديون ، ويلازمه أربابها ، لاجرم أنه يغمص عينيه ولايبالي بما أخذ من أنواع الاموال ولاعليه بما يتلفه في مقابل ذلك من الأنفس ، ولابما يريقه من الدماء ، لا بما

يسترقه من الحرائر ويحتاج إالي أن يقرر عليه وعلي حواشيه وأعوانه ضرائب ، ويتعجل منهم أموالاً ، فيمدون هم أيضا أيديهم إلي أموال الرعايا ، ويشرئبون لأخذها بحيث لايعفون ولايكفون " .

ويقول : "فلما دهي أهل الريف بكثرة المغارم وتضعضَعت أحوالهم ، وتمزقوا كل ممزق ، أو جلوا عن أوطانهم ، فقلّتْ مجابي البلاد ومتحصلاتها لقلة مايزرع بها ولخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم وعلي من بقي منهم . وكان هذا الأمر كما قلنا مدة أيام الظاهر برقوق إلي أن حدث غلاء سنة ٧٩٦ هـ كما مر دكره ، فظهر بعض الخلل لاكله في أحوال الناس لأمرين .

أحدهما : البقية التي كانت بأيدي الناس فاحتملوا الغلاء لأجلها .

والثـــاني : كثرة صلات الظاهر وتوالي بره مدة الغلاء في سنتي سبع وثمان وتسعين وسبعمائة بحيث لم يمت أحد بالجوع فيما نعلم .

والسـبب الثـاني : غلاء الأطيان (إيجارها) ودلك أن العمال زادوا إيجار الأطيان ، وأحضروا مستأجريها من الفلاحين وزادوا في مقادير الأجر فثقلت لذلك متحصلات مواليهم من الأمراء ،فجعلوا الزيادة ديدنهم في كل عام حتي بلغ الفدان لهذا العهد نحوا من عشر أمثاله قبل هذه الحوادث لاجرم أنه تضاعفت أجرة الفدان من الطين إلي ماذكرنا ، وبلغت قيمة الأردب من القمح المحتاج إلي بذرة ماتقدم ذكره ، وتزايدت كلفة الحرث والبذر والحصاد وغيره ، وعظمت نكاية الولاة والعمال واشتدت وطأنهم علي أهل الفلح وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها ، وكانت الغلة التي تتحصل من ذلك عظيمة القدر وزائدة الثمن علي أرباب الزراعة سيما في الأرض منذ كثرت هذه المظالم منعت الأرض زكاتها ولم تؤت ماعهد من أكلها > والخسارة يأباها كل واحد طبعا ولايأتيها طوعا. ومع أن الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغبتهم ، وعظمت في احتجاز أسباب الرفه نهمتهم استمر السعر مرتفعا لايكاد يرجي انحطاطه ، فخرب بما ذكرنا معظم القري ، وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعة فقلّتْ الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب ، ولعجز الكثير من أرباب الأراضي عن زراعتها لغلو البذور وقلة المزارعين . وقد أشرف الإقليم لأجل هذا الدي قلنا علي البوار والدمار .

والسبب الثالث : رواج " الفلوس " فلما ضربت الفلوس في أيام الكامل تتابع الملوك في ضربها حتي كثرت في الأيدي ، ومازالت العامة تتعنت فيها لما يداخلها من القطع المخالفة للقطع التي يأمر السلطان بالتعامل بها فتقدم الولاه بصلاح ذلك .

وكانت الفلوس أولاً تُعدْ في الدرهم الكاملي ثمانية وأربعين فلساً ، ويقسم الفلس أربع قطع تقام كل قطعة مقام الفلس ، يُشتْري بها ما يُشْتَزي بالفلوس ، فيحصل بذلك من الرَّنَق لذوي الحاجات مالا يكاد يوصف ".

ويقول المقريزي : " إن الدرهم بعد ذلك صار يساوي أربعة وعشرين فلساً فصار يشتري بنصف درهم ، فثقل ذلك علي الناس ، وظل مايشتري بالدراهم كما هو لم يتغير وذلك في الدولة المملوكية بعد سنة ٦٥٠ هـ ".

قال : " وكانت الفلوس بعد ذلك لأيشْتري بها شئ من الأمور الجليلة وإنما هي لنفقات البيوت ، والأغراض ما يحتاج إليه من البقول والخضر ونحوها " .

وقال : " إنه في عهد السلطان برقوق راجت الفلوس رواجاً شديدا ، وكثرت في أيدي الناس وقلت الدزاهم لأن الأمراء سبكوا من فضتها حلّيهم ، ولعدم ضربها البتة . وبهذا صارت الفلوس التقد الغالب الرائج ،والثاني الذهب وهو أقل تواجداً من الفلوس ، وأما الفضة فقلت حتي بطل التعامل بها لعزتها

وقال إنه بسبب اضطراب قيم تلك الفلوس بالنسبة للدرهم والدينار دهي الناس دهية كبيرة أذهبت المال وأوجبت قلة الأقوات وتعذر وجود المطلوبات لاختلاف النقود " (١)

وذكر المقريزي في الخطط أحوال البلآدوخاصة بلآد الصعيد بعد الازدهار الذي لقيته أيام الدولة الأولي وفي عهد السلطان محمد الناصر ومن بعده حتي سنة الشراقي ٧٧٦ هـ في عهد السلطان الأشرف شعبان ، واستمرار التدهور في أحوال البلاد في أيام الظاهر برقوق لجور الولاة ، "ولم يزل الأمر في إدبار إلي أن كانت سنة ٨٠٦ هـ وشرقت مصر بقصور مد النيل فدهي أهل الصعيد من ذلك مالا يوصف حتي أنه مات بمدينة قوص سبعة عشر ألف إنسان ومات من مدينة أسيوط

(١) إغاثة الأمة : ص ٧٢

أحد عشر ألف إنسان ممن غسل وكفن ، ومن مدينة هُوّ حمسة عشر ألف إنسان . وذلك سوي المرمي علي الطرقات ومن لايعرف من الغرباء ونحوهم . ثم دمر في أيام المؤيد شيخ فلم يبق منه الا رسم تبذل الولاه الجهد في محوها . نسأل الله حسن الخاتمة " (١)

ومع هذا الفقر الذي أصاب عامة الناس ، وسوء الحال الذي انتاب المجتمع المصري من جرّاء اضطراب الأحوال وانخفاض النيل وسوء السياسة المالية لسلاطين المماليك ، مع هذا كله فقد لوحظ وجود طبقات في المجتمع تزداد غني علي حساب الفقراء . أولئك هم التجار لتراكم ثرواتهم من التجارة المزدهرة النامية مع الدول المحيطة في الشمال والجنوب والشرق والمغرب . وكان يضرب المثل في كتب تاريخ العصر بثراء بعض التجار كناصر الدين محمد بن مسلم البالسي .

قال ابن حجر : " أحد كبار التجار > وأعجوبة عصره في كثرة المال حتي يقال إنه لايعلم قدر ماله ، وذكر أن ماله صرَّره فجاء عشرة آلاف ألف دينار . ويقال إنه خاصم بدر الدين بن الخروبي فقال له ابن مسلم : إيتِ بمالك في شكاير وأحضرها أملاها لك مالاً " . (٢)

أضيف إلي تلك الأسباب في سوء الحالة الاقتصادية كثرة النفقات العسكرية ، ورواتب العسكر من المماليك ، وقد ذكر السلطان قايتباي في مجلس له إن مجموع ماأنفقه علي الحملات العسكريه منذ ولايته إلي سنة ٨٩٣ هـ سبعة ملايين دينار وخمسة وستين ألف دينار وأدي ذلك بالضرورة إلي فرض الضرائب والتعسف في جمع المال .

يقول ابن اياس في احداث سنة ٨٩٦ هـ

" وتوجهت رسل السلطان الغلاظ الشداد ولم يراعوا الوداد ، وأكثر الناس صاروا رسلاً ، وطلبوا أعيان الناس ، وانقطع الرجاء باليأس فصار الإنسان يخرج من داره فيري أربعة من الرسل في انتظاره فيكون نهاره أغبر ، ويخرج وهو في

---

(١) خطط المقريزي : ١/ ١٩٠ .

(٢) أنباء الغمر لابن حجر : ١/ ٢٦٥

أذياله يتعثر فيقدموا فيه الزناد ، ولايري له من اعتماد " (١)

وكان يطلب السلطان من التجار أموالاً إذا ضاق به الأمر ، وافتنوا في المكوس : من ذلك ما ذكره ابن حجر : ماكان أحد يقدر يعمل عرساً حتي يغرم قدر عشرين إلي ثلاثين مثقال ذهب " .

أدي هذا كله إلي الجوع وإلي الفساد الاجتماعي ، ومظاهر الجوع والحاجة كانت متعددة في الاسواق منها ماذكره صاحب نزهة النفوس قال : " كان يحدث أن تقصر الغلال فيندر القمح فيشح الخبز ويتخاطفه الناس من رءوس الحمالين أو من الأفران " (٢)

---

(١) ابن اياس : ٢٦٨/٢

(٢) نزهة النفوس ص ٤٠ م

المجتمع وأحواله وحياه الناس

تتصل الاحوال الاقتصادية بالأحوال الأجتماعية ، وطبقات المجتمع بأسباب كثيرة ، فالمجتمع ينقسم إلي طبقة عليا ، ووسطي ودنيا تتوزع الثروة ، والمكاسب الاقتصادية وفق تدرج هذه الطبقات ، ووضعها في المجتمع وماتملكه من أدوات التحكم في مصادر الثراء ، واكتساب الأموال ويتصور بعض الكتاب الاسلاميين المعاصرين في القرن التاسع بناء المجتمع الاسلامي أو مملكة الإسلام علي أسس عشرة ، وهي الدولة المثلي ، أو المجتمع المثالي علي الرغم مما يطرأ عليها من بعض العوارض والآفات الاجتماعية من الفساد الذي ينبغي أن يتصدي له رجال الدين والحكام الصالحون .

يقول الأسدي في كتابه التيسير : " الدولة الاسلامية – نصر الله سلطانها وايد أركانها ، وشيد بتيانها ، رفيعة العماد ، عاليه الذكر في سائر الأرض والبلاد مالكة لأوسط الآقاليم وأحسن الأماكن المعمورة > وأكمل الأرض .. وهي مؤيدة بالله تعالي ، ثم رسوله وملائكته وصالحي العباد ، منصورة في الغالب علي أهل الشرك والكفر والتمرد والعناد ، ومشمولة بعناية الله تعالي وهدايته إلي سبيل الرشاد ".

ويري الدولة قايمة علي عشرة أصول أولها النوع الإنساني . وهو أساس العمران والاجتماع ، وأشرف أطوار النوع الأنسانى الأنبياء وختمت دائرة الانبياء بمحمد صلي الله عليه وسلم ثم الآولياء وأن وجودهم رحمة من الله ، وبركة عامة لبلاده وعباده . ومنهم يستجاب الدعاء لحصول الخير والافادة والسعادة ، ويعرفون بما يظهر علي أيديهم من تحقيق العلوم والكرامات ، وبما يخصهم من التقاليد ومحاسن الصفات ، وبهم السداد الوقتي والفيض الإلهي ، ويلهمهم الله سبحانه وتعالي من حقائق العلم اللّدني مابه يسلكون وبنوره يستأنسون " (١)

ومن بعد الأولياء العلماء الحافظون للقرآن والسنة والعاملون علي الأخذ باسباب الشرع ، ومن بعدهم الملوك والسلاطين . وهم سبب التمدين والاجتماع ، وقمع

(١) التيسير والاعتبار ص ٤٠

عـادية التسـلط والأذي ، ومايوجبّ الخصـام والنزاع ، وبوجـودهم حصـول الرغبـة والرهبة والطاعة والإذعان .

وهذه الرؤية في بناء الدولة قائمة علس أساس " ان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن " وهي الرؤية التي مكنت المماليك من الحكم علي أساس أنهم أهل السلطان والأوليـاء ، والعلماء أهل القرآن ، والسلطان هو السلطة التنفيـذيه لإرادة الله في خلقه بشرعه وقرآنه . والأنبياء ليبلغوا رسالاته وقد انتهوا بخاتمهم محمد بن عبد الله ، ولكن الله أبقي بهذا المفهوم كما صوره الأسدي جماعة من أهل الله هم أولياؤه ، لاينقطع عنهم علم الله اللّدني ، فوجودهم كما قال رحمة وبركة عامه لبلاده وعباده . وبهم السداد الوقتي والفيض الالهي .

فيلجا اليهم السلطان والناس إذا حزبهم أمر أو عجزوا عن سداذه ، وقصرت قدراتهم عن عمله . وحقلت أخبار العصر المملوكي بمماراسات عدة لهذا الاعتقاد ، وفيما يقع بمصر من الكوارث والمحن كانخفاض النيل ، فكثيرا مانجد السلطان ، أو العلماء والمشيرون ينصحون باستفتاء أحد الأولياء الصالحين من رجال الصوفية دائما ليدلهم علي مايفعلون لرفع البلاء بالدعاء إلى الله أو بعمل يقترحه أحدهم لايخرج عن أعمال السحر والشعوذة. وغالبا مايخفق ، فتكون سخرية الناس كما روي إياس فى غير موقف .

ومع أن الأسدى يعتقد في مثل هذه الغيبيات لثقافته التي استفاد من ثقافة العصر إلا أنهّ يورد رأيا في قيام العمران ربما استفاده من ابن خلدون اذ يقول : " فصار الإنسان محتاجا إلي غيره لتحصيل المنافع ، لانه عاجز بنفسه أن يوفر كل مايحتاجه كي يعيش ، ويقول : " ولما كان الانسان عاجزا بذاته عن تحصيل كل لوازمه من وجوه اسبابها ، ويعسر عليه أن يباشر كل الأحوال من كل أبوابها ، وصرّف الله سبحانه وتعالي كل جماعة من أشخاص نوعه في سبب من الأسباب ليحصل التعاون والتعاضد من ابناء النوع علي سداد الخلة من كل وجه ."(١)

وبمعني آخر هو تحقيق لمقولة أن الانسان مدني أو اجتماعي بالطبع أي انه يعيش في مجتمع يرقي نوعه الانساني بحاجة كل فرد في المجتمع الي الآخرين ، فهم

(١) التيسير ص ٤٢

يحققون ماقال به علماء الاجتماع من العقد الاجتماعي بين كل جماعة في مجتمع ما .

ولما كانت مصر كما أسلفنا بلدا زراعيا ، فإن . قاعدته البشرية العريضة من الفلاحين ، وعمال الزراعة ، وسكن هؤلاء القري والنجوع المنتشرة في أرجاء مصر صعيدها ، وشمالها . ولم تختلف طبيعة الفلاحين كثيرا ، وإن تغيرت ملامح حياتهم اليوميه وممارساتها بعض الاختلاف في الصعيد عنها في الشمال لطبيعة الأرض والمناخ ، ولتوارث بعض العادات والتقاليد من اختلاط الحضارات الوافدة بالقديمة واختلاط الدماء البشرية من سلالات متعددة تختلف في الجنوب عنها في الشمال ، إلاً أن الدارسين حاولوا أن يجدوا صفات جماعية يتصف بها عامة المصريين وينطبق هذا بالضرورة علي الفلاحين بصفة اساسية لانهم كما قلنا يمثلون الغالبية العظمي . ومنهم نسل من سكنوا المدن وعملوا بأعمال أخري غير فلاحة الأرض .

قال محمد بن عبد الله عنان : (١) .. أما الحياة الخاصة والمظاهر الفكرية والاجتماعية فهي أشد غرابة وطرافة ، وهي صورة قوية مما عرف به المجتمع المصري علي كسَّر العصور من بساطة في فهم الحياة ومهامها ومن ميل إلي اللهو ، ومن تساهل في تقدير الواجبات والمسئوليات . وهذه الخلال المنحلة ترجع الي انحلال النظم العامة ذاتها وبخاصة إلي انحلال أخلاق الطبقات الخاصة التي كانت تعتبر اثناء هذه العصور - القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي - قدوة لمثل الحياة . وقد لفتت هذه الظاهرة نظر مفكر اجتماعي مسلم كبير هو ابن خلدون، فحمل في مقدمته علي خلال المجتمع المصري في قوله : " واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر ، فإنها في مثل عرض الباد الجزيرية أو قريبا منها ، كيف غلب الفرح عليهم ، والخفة والغفلة عن العواقب حتي إنهم لايدّخرون أقوات سنتهم ولاشهرهم ، وعامة مأكلهم من أسواقهم ."

ويعلق محمد عبد الله عنان علي قول ابن خلدون الذي يري أنه محل نظر ويحتاج إلي مناقشة فيقول عنان : " وسواء أصح مايقوله عن أثر الإقليم في أهل

(١) مصر الاسلاميه ص ١٩٠.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩١

مصر أم كانَ مبالغاً فيه ، فإن الذي لاريب فيه هو أن العصر الذي وقد فيه المفكر علي مصر بالنسبة إليها عصر إنحلال فكري وأخلاقي ، وأدي هذا الانحلال في كثير من وجوهه إلي انحلال النظم العامة ، وإلي فساد المجتمعات و الطبقات الخاصة ."

ويقول عنان (١) :لفتت هذه الظاهرة نظر مؤرخ مصر الكبير تقي الدين المقريزي فقدم إلينا في " الخطط " صوراً لاحصرلها مما شهده ولاحظه في عصره – أعني أوائل القرن التاسع البحري – من عوامل الفساد ، ومظاهر الانحلال التي سرت إلي المجتمع المصري سواء في كلامه عن الخاصة من أمراء وحكام وكبراء أم عن طبقات الدهماء والعامة "

وتعليقا علي قول عنان فيما ذكره من صفات ساق عليها قولي ابن خلدون والمقريزي شاهدا إنما كان يتعلق بالمجتمع المدني ، وبمجتمع القاهرة والعواصم الكبري خاصة . ولاشان له بالمجتع القروي الريف الذي ظل مجتمعا محافظا ، ولم يكن أهله يميلون إلي اللهو ، فلم يملكوا أدواته من المال والفراغ ، والفلاحون المصريون يغلب علي حياتهم طابع الاسي ونري ذلك في ملبسهم فهم دائما أميل إلي ليس الملابس السوداء أو القريبة منها ، فالمراة الريفيه منذ تلك العصور تتزين بالسواد ، والرجل كذلك يلبس الأسود أو الازرق الغامق منذ تلك العصور السحيقة والعمل في الحقل ديدنه من بكرة إلي غروب الشمس لايملك وقتا للهو إلا في أوقات " الدميرة " أو الفيضان ، فيعقد أعراسه في هذا الوقت أو يذهب الي البندر والمدن ليفرج عن نفسه ويَتفَّرج في الموالد والمواسم.

ولم يترك القهر الذي وقع علي فلاح عصر المماليك مكاناً في قلبه للفرح والمتعة . وهو يبادل ببعض ماتنتج أرضه ، أو حيوانه ليوفر نقداً ينفقه علي بغض حاجاته أو تطلعاته .

ذلك هو مجتمع القرية المصرية ، أما مجتمع المدينه فهو شئ آخر ففيه تتباين الاقدار ، وتتعايش المتناقضات بين طبقات المجتمع من السلاطين والامراء من المماليك المختلفين في طبائعهم ، وان عاشوا بين المصريين عن طبائع أهل مصر

(١) المصدر نفسه ص ١٩١

الأصليين . ومعلوم أن مجتمع القاهرة والفسطاط والجيزة ودمياط والأسكندريه وغيرها من مدن الوجه البحري كانت مجتمعات مختلطة الاجناس ، مختلطة الحضارات ، والثقافات ، والعادات والتقاليد ، مختلفة اللباس والشراب والطعام .

وفي مثل هذه المجتمعات المَدنيّة التي تتفاوت فيها الثروة ، والسلوكيات ، تظهر دائما مظاهر من الانحرافات ، والمفاسد .

لقد رصد بعض الوافدين إلي مصر جوانب من مظاهر الحياة فيها ، فوجدوا بها مغايرة ، وربما تعارضا مع ما اعتادوه في بلادهم ، وظهر ذلك بوضوح في كتابات بعض المغاربة . ومن بين هذه المظاهر ماشاهدوه في مصر من التسامح الديني بين المسلمين وغيرهم من اتباع الديانات المسيحية واليهودية ، فأبدوا دهشتهم ، وأظهروا انتقاداتهم ، وكذلك رأوه من عادات المصريين من لين وحسن معاملة أملاها عليهم تراثهم الحضاري رأي فيه أولئك ضعفاً في الشخصية ، ونَعتَهُ بعضهم بالتخنث ، واعتبروا ما رأوه من المصريين من المجاملة والرفق بالضيوف نفاقا وهكذا . تشهد بذلك الرسالة المصرية لأمية إبن أبي الصلت الأندلسي ، وماجاء من أقوال لأبي حيان المفسر الأندلسي كذلك خول حرية نصاري مصر وركوبهم مايركب المسلمون ، ولبسهم دون تمييز ، فثار وحض السلطان علي ضرورة التمييز بين أهل الذمة والمسلمين في دولته كما يحدث عندهم في المغرب،

ومثله ما كان من بعض المغاربه عندما رأي حرية المرأة المصرية في التنقل في الأسواق ، ومالها من الحقوق التي لايجدها في بلده ، فأبدي استنكاره لذلك .. ويمكن أن يكون من هذا القبيل مالاحظه وحكم به ابن خلدون علي المصريين كما جاء في العبارة التي نقلها عنان .

أما ماجاء علي لسان بعض المؤرخين المصريين أمثال المقريزي ، والجوهري ابن الصيرفي والعيني وابن حجر والسخاوي وابن إياس من انتقادات لبعض التصرفات غير اللائقة في أسواق القاهرة وشوارعها ، أو لاخلاق وسلوكيات بعض الناس من الخاصة أو العامة ، فمرجعه إلي اختلاف المواقف والرؤي أحيانا ، وإلي المبالغة أحيانا والي أن تلك الملاحظات كانت سلوكا فردياً ولم تكن ظاهرة يحكم بها علي الجميع .

ومن هذا ماجاء علي لسان المقريزي في خططه : تقلص ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور عن أنيابه ، وقلت المبالاه ، وذهب الحياء ، والخشية من الناس حتي فعل من شاء ماشاء ، وتعددت المحن التي كانت سنة ست وثمانمائة ، وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكما خفي معه نور الهدي ، وتسلطوا علي الناس - بعين المماليك - مَقْتاً من الله لأهل مصر ، وعقوبة لهم بما كسبت أيديهم ، ليذقيهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون "(١).

فلم يكن موقف المقريزي من المماليك دائما موقف التأييد ، فهو معروف بتشيعه ، وحبه للفاطميين وحرصه دائما علي المقارنة بعهدهم وعهد من بعدهم ليثبت أن عهد الفاطميين كان اكثر انضباطا وعدالة ، ومراعاة لحق الله والدين ، وحرصا علي مصالح الدَّعيَّة.

ولكن المجتمع المصري مع هذا لم يخل من هذه المفاسد كغيره من مجتمعات البشر في كل العصور ، ومجتمع القاهرة والفسطاط له خصائصه التي أشرنا إليها ، والتي تمهد لمثل هذه الظواهر الشاذة ، والمفاسد التي كانت حالات طارئة أدت إليها بعض الأحداث والنكبات التي حلت بالبلاد ، فاضطربت أحوال الناس المعيشيه والآقتصادية.

وأدي اضطراب أحوال الناس الاقتصادية إالي ظهور بعض الفاسد الاجتماعيه .

ومن مظاهر المفاسد الاجتماعيه كثرة الرشاوي ، حتي نزلت الي الدرك الأدني فكان رجال الضرايب يرتشون ، ومنهم من يرتشي من الساقطات < قال ابن حجر : وكانوا بمصر والقاهرة لاتغيب مغنية عن بيتها - ولو إلي زيارة أهلها - إلا أن يأخذ منها الضامن لها رشوة " .

واستشرت بيوت الفسق في البلاد " ففي بلاد الريف كان للمغاني حارة مفرودة يعمل فيها من الفساد جهرا مايقبح ذكره .. ومن اجتاز بها غلطاَ ألزم بأن يزني بخاطئة ، فإن لم يفعل فدي نفسه بشئ" (٢)

وقد شاركت النكبات والكوارث سوء الأحوال الاقتصاديه في هز المجتمع

(١) الخطط ٢٢١

(٢) الدرة المضيئة : ص ١٣٧

المملوكي وخلخلة كيانه . ويرصد المؤرخون مجموعة من تلك النكبات بين مجاعات وأوبئة وكوارث طبيعيه تأكل الحرث والنسل .

ففي أخريات القرن الثامن حدث فى شمال السلطنة في حلب ببلاد الشام وباء عظيم أدي إلي فناء عظيم وأحصي من مات فيه بثلاثمائة ألف نسمة وستين ألفاً ، وكان أكثرهم من الأطفال ، مات منهم داخل المدينه وحدها مائة وخمسون ألفاً ومات الباقي خارجها (١) .

وقد أدت كثرة ما أصاب البلاد من الخراب بسبب فتك الطواعين والكوارث .

إلي اهتمام الأدباء والعلماء بالتأليف فيها كالسبكي والمقريزي وابن حجرالعسقلاني (٢)

وفي سنة ٨٠٧ هـ " وقع الوباء بالذيار المصرية وكثر الموت فجأة ، وتحركت دموية الناس وكان ذلك في قوة البرد ، و الشمس في برج الدلو ، وكثر بالناس السعال والأنحدار فمات في مدة سبعة عشر يوما ، وقيل في دون الشهر كثير من الناس ، وصاروا يتساقطون في الطرقات موتي وأقام مدة يسيرة ثم انقشع " (٣)

وكان هذا في عهد السلطان فرج بن برقوق . وفي سنة ٨١٩ هـ حل الطاعون وفتك غاية الفتك بالبرية (٤)

وفي سنة ٨٢١ هوقع بالديار المصريه طاعون واستمر يسلسل حتي دخلت سنة ٨٢٢ هـ فكان تارة يزيد وتارة ينقص . ومما زاد وقعه علي الناس وقوع الشراقي لشح النيل واستمرار الغلاء فعزَّت الأقوات . وظل هذا كله عاما كاملا . وفي سنة ٨٣٣ هـ وقع في الشتاء طاعون استمر أربعة أشهر مات فيه أناسٌ كثيرون ، وقيل إنه مات في أحد الأيام أربعة وعشرون أالفا ، وقال أحدهم في ذلك :

قد نقص الطاعون نصف الوري	وأهلك الوالد والوالدة
كم منزل كالشمع سكَّانه	أطفاهُم في نفخة واحدَة

(١) ابن حجر في أنباء الغمر : ١٢٧/١
(٢) لابن حجر كتاب " بذل الماعون في أخبار الطاعون " تاريخ ابن اياس : ص ٣٠٣
(٣) ابن اياس : ص ٣١٢
(٤) ابن اياس : ص ٣١٦

ووقع سنة ٨٤١ هـ طاعون ، وكذلك في سنة ٨٤٩ هـ .

وفي سنة ٨٥٣ هـ وفعت مجاعة لاشتداد البلاء بسبب انخفاض النيل ، فشح القمح وغلا الخبز ، ورثا بعض الناس الخبز لما عز وشحط بقوله :

قسما بلـوح الخبز عـند خروجـه	من فرنـه وله الغـداة فوار
ورغائـف منه تروقـك وهي فـي	سحب الثقال كأنها أقمـار
من كل مصقول السوالف أحمر الـ	خدين للشونـيز فيه عـذار
كالفضـة البيضـاء لكن يغتـدي	ذهباً إذا قويت عليه النار (١)

ويقول ابن اياس : " وفي سنة ٨٧٥هـ كانت الأسعار غالية في جميع الماكولات من الحبوب وغيرها ، وعَزَّ وجود الأوز والدجاج في مصر جداً ، وتشحَّط الخبز ، في الأسواق وصار الناس يستعملون خبز الذرة والدخن . وهذا خطر ما وقع ولا في الغلاء الذي جاء في دولة الظاهر جقمق . وتناهي سعر القمح الي سبعة أشرفية للأردب . ولم ياكل الناس الذرة ولا الدخن الا في تلك الأيام " (٢)

وفي سنة ٨٦٤ هـ اشتهر الطاعون " وتعطلت أحوال الناس بسبب كثرة الموت في الناس من كبير وصغير ، وصارت الجنائز تمر في الشوارع والطرقات كالقطارات ، وتصفُّ النعوش في المصلات علي بعضها وقت الصلاة " (٣)

وكان بدء هذا الطاعون بالشام . وكان الطاعون عظيماً جداً مات فيه ثلث المماليك والأطفال والجواري والعبيد والغرباء واستمر حوالي ستة اشهر . وقد التهم الوباء في كل يوم الي اثنتي عشر إلف جنازة " (٤)

وكان أخر الطواعين في القرن التاسع طاعون سنة ٨٩٧ هـ في عهد قايتباي .

وفي بداية القرن العاشر سنة ٩٠٣ هـ ظهر وباء آحر فتك بالناس وهو وباء " الزهري " . وقال ابن اياس في السنة المذكورة عاني الناس من أمر عظيم ، ووقع بها البلاء والفناء والمصادرات ، وجور السلطان في حق الناس ، وأذي المماليك في

---

(١) ابن اياس : ص ٣٢٩ (٢) ابن اياس : ص ٣٢٠
(٣) صفحات لم تنشر : ص ٧٣ (٤) ابن اياس : ص ٣٧٠

حق الرعية . وقد كان الناس في غاية الاضطراب . وما كَفَّ هذا كله حتي فشا في الناس داء يقال له الحب الإفرنجي (الزهري) وقد أعيى الأطباء أمره ولم يظهر هذا بمصر قط الا في أوائل هذا القرن . ومات به من الناس مالايحصي " .

ولعب النيل دوراً مؤثرا في حياة الناس ، فكما أسعدهم بوفائه ، لتوفير الماء لزروعهم ومشاربهم ، فقد كان مصدرا لتعاستهم اذا نقص ماؤه وقل وفاؤه وسجل المؤرخون في هذه الفترة من تاريخ الجراكسة عدة مرات لنقص النيل ، وما أدي إليه من غلاء ومعاناة .

ورصد المؤرخون أهم انخفاضات النيل منذ أواخر الدولة التركية وطوال دولة الجراكسة . فمما قال ابن حجر عن انخفاضه ٧٧٥ هـ :" ففي هذه السنة توقف النيل عن الزيادة وأبطا الوفاء إلي أن دخل توت أول السنة القبطية ، ووقع الناروز قبل كسر الخليج حتي قال بدر الدين ابن الصاحب :

نيروز مصر بلا وفاءٍ يُعَدُّ صَفْعًا بغير ماء

واستمر التوقف إلي تاسع توت ، فاجتمع العلماء والصلحاء بجامع عمروبن العاص واستسقوا ، وكسر ذاك اليوم الخليج عن نقص أربعة أصابع عن العادة ، ثم توجهوا الي الآثار النبوية آخذوها إلي المقياس ، فاقاموا من قبل العصر إلي آخر النهار يتوسلون إلي الله تعالي ، ويبتهلون ويستسقون ، فلم يزد الأمر الأ شدة ، ثم تودي بصلاة ثلاث أيام ، وخرجوا في ثالث ربيع الآخر الي الصحراء مُشَاةً ، وحضر غالب الأعيان ، ومعظم العوام ، وصبيان المكاتب ، ونصب المنبر – في الصحراء – وخطب عليه شهاب الدين القسطلاني خطيب جامع عمرو وصلي صلاة الاستسقاء ، ودعا وابتهل وكشف رأسه ، وحول رداءه . واستغاث الناس وتضرعوا ، وكان يوما مشهوداً .

وفي صبح هذا اليوم اجتمع العوام بالمصاحف ، وسألوا أن يعزل علاء الدين ابن عزب عن الحسبة ، فعزل .. واتفق وقوع أمطار كثيرة بحيث زرع الناس عليها البرسيم . وكان قي الصعيد أيضا مطر غزير " وزرع الناس عليه بعض الحبوب

هذا حدث قد يعزوه بعض من لم يعرف المصريين وظروف حياتهم ومدي علاقتهم بالنيل إلي الغفلة والسذاجه والجهل . لكن الحقيقة أنهم متدينون بالفطرة وأنهم

يربطون بين النيل والله منذ الأزل، ويرونه نهرا ينبع من الجنة ، وقد امتزجت هذه العقائد كلها بالعقيدة الاسلاميه ، وبنظرة التبجيل الرسول صلي الله عليه وسلم، ولكل آثاره ، والتوسل به ، وبها إلي الله في كل مطلب.

وحدث في ٨٠٦هـ زمن هذه الدولة انخفاض آخر شديد حتي شرقت البلاد ، واشتد الجوع والغلاء والفقر ، فدَّب الخراب وفي ٨٥٣ انخفض النيل وقال إبن إياس(١) : فاضطربت أحوال الديار المصريه ، وماجت الناس علي بعضها ، وحصل الضرر الشامل ، وشرقت البلاد وعزت الاقوات ، وشحط السعر في القمح والشعير ، والفول وسائر الحبوب وتزايد سعر كل شى من البضائع حتي روايا الماء ، وعم الغلاء سائر البلاد .وشرقت غالب البساتين ، وماتت الأشجار ، وماتت البهائم ، واستمر الغلاء سنتين ."

ولا نستبعد في مثل هذه الظروف أن تحدث انحرافات ومفاسد للحصول علي لقمة العيش ، والحفاظ علي الحياة . وفي سبيل الحياة يفعل الانسان كل محرم وممنوع .

علي أن القاهرة مع ذلك ، كانت تصمد لهذه الازمات وسرعان ما تستعيد عافيتها ، ويستعيد الناس أنشطتهم وسعيهم في الحياة ، مقبلين عليها مستبشرين غير قنوطين ، فالمصريون حريصون دائما في تاريخهم الطويل علي التغلب علي النكبات والمصاعب ، يتخذون منها حافزا للصمود والصعود وبناء الحياة من جديد . وهم أقدم من آمن بالخلود ، وبنوا من أجله مايعدً من عجائب الدنيا ، وأقاموا ما أقاموا من حضارة تجاويت أصداؤها في المعمورة .

وقدكانت القاهرة مدينة زاهرة عامرة حافلة بجوانب النشاط الاجتماعي في مباهجه وملاهيه وفي جوانبه المظلمه والمشرقه .

قال ابن خلدون : " فانتقلت إلي القاهرة أول ذي القعدة ، فرأيت حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذَرّ من البشر ، وايوان الإسلام وكرسي الملك ، تلوح القصور والدواوين في جوها وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقها ، وتضئ البدور والكواكب من علمائها ، وقد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه

(١) التعريف بابن خلدون : ص ٢٦٥

السماء ، يسقيهم النهل والعلل سْيحُة ، ويجني اليهم الثمرات والخيرات ثجُّه .

ومررت في سكة المدينه وهي تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم وما نزلنا نُحَّدثُ عن هذا البلد وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال . ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجُهم وتاجرهم بالحديث عنه" (١) .

وكان للناس عادتهم في مسراتهم ، ولهم جوانب لهوهم وأفراحهم < واكثر ما يفرح الإنسان فرحه أو زواجه وزفافه ، فهو يوم عمره ، وفرحة دهره . وكان المماليك يهتمون لأفراحهم .

ويصف ابن اياس حفل زفاف أحدهم فيقول :

" زينت له القاهرة بالمصابيح والشموع ، وعلقت ليلة زفاف عرسه التنانير بها القناديل من سويقة العزي إلي مابين القصرين ، ومشي أمامه المقدمون.

وكان الامير يشبك ماسكا عناق فرسه من جهة الميسرة ، وبقية الأمراء مشاه قدامه بالشموع من وسويقة العزّي إالي بيت العلائي علي ابن خاص بك ، ،كان المهم (الحفل) هناك فزف وزفت له العروس " (٢)

وتلك صورة لما كان يجري في حفلات الزفاف . ولعل كثيرا منها ظل إلي يومنا في أحيائنا الشعبيه فالموكب نفسه قائم ، يشاهده الناس فى أحياء القاهرة القديمه وغيرها من مدن مصر .

كان النيل - ولايزال مناط آمال الناس ومصدر رزقهم - يسوؤهم انخفاضهويسعدهم وفاؤه . فقد احتفلوا بوفائه علي مدي العصور . وشهدت عهود السلاطين المؤيد شيخ وططر وبرسباى وفاء وزيادة فعم الناس الخير والخصب وقال أحد الشعراء لماَ وفي النيل ٨٢٦هـ

لماَ وفي النيل المبارك عاجلا	عمَّ البلادَ وللّروابى طفَّفاَ
نشروا القلوع ، وبشَّروا بوفائه	فالراية البيضا عليه بالوفا

(١) التعريف بابن خلدون : ص ٢٦٥
(٢) ابن اياس : ص ٤٨٧

ومن مباهج الناس في القاهرة أعياد وفاء النيل ، وكان يعمل لها شأن كبير ويهتم بها السلطان والأمراء والناس جميعاً . فتكتسى القاهرة حلّةً بهية وتزدان بأجمل الزينات .

ويصف ابن اياس يوم كسر الخليج ووفاء النيل في عهد المؤيد / فيقول : " وكان المؤيد شيخ يتباهي في كسر سد النيل المبارك ويلزم الأمراء المقدمين بأن كل واحد منهم يزين له حراقة ويجعل فيها السناجق والكوسات فإذا وفي النيل يحضرون له بالذهبية إلي بولاق ويتوجه إلي المقياس يخلق العمود ويكسر السداد والأمراء المقدمون حوله في الحراريق المزينة حتي يسدوا البحر من كثرة المراكب ، ويكون له يوم مشهود لم يسمع بمثله فيما تقدم ، وقد فاق في ذلك ما كان يصنعه في ذلك اليوم استاذه الملك الظاهر برقوق . وكان يتباهي في المواكب الجليلة إلي الغاية "(١)

وفي الاعياد الدينيه كان المماليك يحتفلون ويخرجون للناس في المواكب للصلاة ، وتزدان قصورهم وتتوافد عليهم الوفود بالقلعة للتهنئة .

" وكان من عادة السلطان برقوق أن يصلي عيد الأضحي بميدان القلعة ، وأن يذبح الأضحية بنفسه ، ويحضز الخوان بالإيوان يوم العيد "(٢)

" واشتهرت في القاهرة أماكن يجتمع بها الناس لمسراتهم وملاهيهم ، ومنها أرض الطبالة قرب النيل ، تمر بها أيام فيضان النيل المراكب مشحونة بالناس ، " فتمر للناس هناك أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف . ويتظاهر الناس بأنواع المنكرات ، من شراب المسكرات ، وتتبرج النساء الفاجرات ويختلطن بالرجال من غير انكار ، فإذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرطم وغيره فيجتمع فيها من الناس في يومي الأحد والجمعة عالم لايحصي لهم عدد . قال المقريزي : " وأدركت بهذه البركة بعد سنة سبعين وسبعمائة إلي سنة ثمانمائة أوقاتاً انكفَّت فيها عمن كان بها أيدي الغير ، ورقدت عن أهليها عين لحوادث ، وساعدهم الوقت . اذ الناس ناسٌ والزمان زمان . ثم لما تكدر جو المسرأت ، تقلص ظل الرَّفاهة ، وانهلت سحائب المحن من سنة ست وثمانمائة (٨٠٦)هـ وتلاشي أمرها . وفيها الآن بقية

(١) ابن اياس : ٥/٥ ، ٣٥١

(٢) نزهة النفوس : ص ٤٧

صبابة ومعالم أنس وآثار تنبئ عن حسن عهد ولله در القائل :

في أرض طبالتـــنا بركـةُ   مدهشــةُ للعــين والعقل
ترجح في ميزان عقلي علي   كل حي الأرض بالرَّطْلى (١)

وأرض بولاق كذلك كانت ملاذاً لاأهين ، وكان يفد إاليها لناس رجالاً ونساءاً فيقيمون هناك في خيام علي أتم زينة حتي يسعدوا برؤية البحر .

ويصف ابن اياس ليلة بها فيقول ك " نزلت خوند زينب الخاصكه زوجة السلطان الي بولاق ، فأقمت فى القطينية التي ببولاق ، وكان قد حصل لها توعك شديد في جسدها فنزلت لتري البحر حتي يذهب عنها الوخم ، فنزل اليها السلطان وعادها ، فلما حصل لها الشفاء أحرقوا في بولاق حراقة نفط حافلة ، وخرجت السنّ من خدرها بسبب الفرحة ، وكانت تلك اللياة ببولاق من الليالي المشهودة " (٢)

ويقول في موضوع آخر : " .. وكان الناس خرجوا عن الحد في الفتك والقصف بسبب الفرجة ونصبوا هناك الخيام حتي سدوا رؤية البحر ، وصاروا يقيمون في الرمل ليلاً ونهاراً من نساء ورجال وهم في غاية التزخرف " (٣)

وآل أمر بولاق إلي النهاية سنة ٨٦٢ هـ بسبب موقع بها من الحريق . ويقول ابن اياس : " وكان قد كثر الفسق والفساد ببولاق جداً حتي خرج الناس قي ذلك عن الحد . ومن يومئذ تلاشي أمر بولاق وانحط قدرها - وكانت من أجمل متفرجات الديار المصرية بسبب الحريق . وكان ابتداء الحريق الذي وقع فيها بداية الحريق القاهرة وصار في كل ليلة يقع حريق بمصر والقاهرة قي أماكن شتي" (٤)

ومن أماكن اللهو في العصر الأزبيكية نسبة إلي الأمير علي بن أزيك الأتابكي الظاهرى ، عمرها ٨٨٢ هـ (١٤٧٥ م) في عهد قايتباي ، وجعلها بركة جر فيها. الماء من الخليج الناصري . وأقام حولها العمائر، وأحاطها بالباستين ، وبني علي الخليج الذي يصل البركة بالخليج الناري قنطرة وضع عليها دكة لجلوس المتفرجين . يقول فيها إبراهيم الممار :

---

(١) خطط المقريزى : ١٦٣/٢   (٢) صفحات لم تنشر : ص ٢٦
(٣) صفحات لم تنشر : ص ٥   (٤) صفحات لم تنشر : ص ٥٦

ياطالب التكة نلت المني	وفزت منها ببلوغ لوطر
قنطرت من فوقها تكة	ونخلها يلُقي خليج يكز

وكان عند فتح سد بركة الأزبكية يجتمع الأمراء لمقدمون بقصر الأمير أزبك

وتأتي الناس إليها للفرجة أفوجا ويكون لها يوم مشهود . وكان يصنع في كل سنة وقدة هائلة لم يسمع بمثلها ، وينفق بها في تلك الليلة أموالاً جمَّة بسبب الفرج يضرب حول البركة عدة خيام ، يقع بها من القصف ولفرجة أشياء غريبة ، لتكون ليلة حفلة .

ومنها بركة الرطلي ظلت زمناً مكاناً للهو والقصف في عصور المماليك ، وأبطل التنزه فيها في عصر السلطان الغوري " وكتب الشاعر الشيخ بدر الدين الزيتوني يرثي ذلك المكان النزه فقال

سألت سس إله العرش ينعُ بالنَّصْر	لسلطننا الغوري فهو أبو النصّـــز
مَليـــكٌ عزيـــز أشــرف ومظفـــر	مؤيد دين ، ظافـر كامل الـقـــدز
لغيبته أضحي علي الكون وحشـة	فها بركة الرطليَّ مدُمعها يجـــري
يحق لنا نرثــي المقاصـــف بالبكا	خصوصاً مع " المسُطاح" مع لذة الجسر
لقد كــان فيه للخليـــع تواصـــل	لعمركإن الوصل خير من الهجـــر
وكان بـها جميـزة طـاب ظلهـــا	متاح عليها الطير ولوحس في القفـر
علي ماجري للجسر ساقية بكـت	وصاحَتْ بقلب صار في غاية الكسرْ
ودوحتـه تبكـــي بجامعـة دمــاً	وقد أصبح الشامي يبكي علي الحكر
وأضحت بيوت الجسر خالية فــلا	لصاحبها تكفي ولا أحد يكْـــري
وقد أصبحت تلك القصور خواليـاً	فيا وحشة المكان من كل ذي قصـر
علي بركة الرطليَّ نوحوا وعـددوا	لما حلَّ فيها من نكال ومن حُســر
فكان بها " للقادسيَّ " حـــلاوة	شبكا يشدو من المسك والعطـــر
وكان بها " الفكاءُ يسعي بمركب	بخوخ ورمان يبشر بالبشـــــــر

وزهر ونسريـــــن وآسٍ ونوفـــر بها بهجة للمرء طيبـــة النشـــر
وكان بها الجُبَّنُ يقلي بمركــــب فيجمع بين النار والماد في البحــر

وكان بها للآكلين قطائـــــــف بها عطش يسقي من الغيث بالقطر
لها ونق في الصحن من فستق بهـــا وسكرها يحكي حديـــث أبي ذر
وكان بها الحشاش يسري بهمــــة فمذ قطفوا لذاته صار في فكـــر
وكان بها الحشائش يسري بهمــــة مذ قطفوا لذاته صار في فكـــر
وكان بها السَكَّارُ في غاية الهنـــا يدير كئوس الراح في ليلة البـــدر
وكان بها للراكيبـــين مراكــــب مسترة فيها وأخري بلا ستــــر
وكم داخل فيها مغنٍ ومنشــــدٍ بنغمه بم من خفيف ومن شعـــر

وكم له للمطربــــين عهدتهـــا وجنك وأعواد تغرد - كالمقـــري
وقد درست تلك المعاهد كلهـــا وناخت بها الغربان والبوم في الوكر
وشقَّ شقيق الروض فيها ثيابـــه وألقي غصين الدوح مافيه من ذكـر
وقد لبس الشحور سود ثيابـــه وأبدي خرير الماء لطماً من النهـــر
وسالت دموع الحب من أعين السمـا وصار ضياء الصبح كالليل إذ يسري
وقد كسفت شمس الضحي في سمائها وأظلم نور البدر بالخسف للفجر"(١)

عبَّر هذا الناظم في قول منظوم ركيك عن بعض مشاهد بركة الرطلي التي كان يؤمها المتفرجون ، والمتنهزون من أبناء القاهرة بين سادة ومماليك وغيرهم من عامة الشعب فيقضون فيها أوقاتاً سعيدة ، ينعمون بالنزهة في المراكب وهى تجوب بهم مشعلين المشاعل ، فتنعكس علي صفحة الماء ، وتسمع أنغام العازفين وأصوات المغنيين تتجاوب هنا وهنا: ، ويمرح الناس وينتشون بالمرأي الجميل وبالشراب ، ويسرح الباعة بأنواع الطعام والشراب .

وكان يختلط الناس بالدال أحياناً في تلك المنازه ، وربما عاينهم الرفيف

فأغضي ، وقد يزجرهم الشرطة إذا أخَلُّوا الآداب ، أو نتهكوا الحرمات

يقول ابن اياس في حوادث سنة ٩٠٨ هـ : أنه في السابع عشر من شعبان أقبل الوالي علي أربعة أنفار من لعوم وجدهم في بستان ومعهم إمراة وهم يأكلون ملوحة بالنهار، وربما قيل كانوا سكارى فلما قبض عليهم هربت تلك المرأة فقبض على الرجال، وضربهم بالمقارع وشهرهم فى القاهرة ، ثم سحبهم بالمقشرة فأقاموا مدة طويلة "(١)

وكانوا فى ماكلهم ومشاربهم يتخذون الواناً من الطعام والشراب . فقد عرفوا الشراب « البوزة » وكانت تصنع من الدقيق وتوضع فى أوزان ، كما صنعوا نوعاً آخر كان يسمى " الشيش " .

هذا فضلا عن الخمرة بأنواعها يتخذونه من العنب وغيره .

وأفتنوا فى أنواع الماكل والحلوى، وذكر الزيتونى فى منظومته السابقة بعضاً مما كان شائعاً آنذاك ، ولايزال معروفاً فى ماكلنا إلى اليوم " كالمشبك " الذى يقطر عسلاً ، والطيب ، والقطايف التى تقلى وتشرب بالقطر من السكر، ويلقى عليها الفستق :

ومن الماكل الجبن المقلى ، وكان من ماكل القوم آنذاك، ولهم به ولع، فقد أكثروا من ذكره .

ولهم فى مآدبهم عادات وتقاليد بقى الكثير منها معروفا فى البيوتات العريقة بالقاهرة ، ومدن مصر الكبرى .

ويتخذون من الخبز أشكالاً ، ومنها الأرغفة المعروفة اليوم والمتخذه من دقيق القمح " الشمسى " يضعون عليه حبة البركة، ويتأنقون فى عمله .

---

(١) ابن اياس : ص ٣٨

وعرفت فى المجتمع المملوكى جماعات فى أوساط الشعب والطبقات الفقيرة، كانت غريبة فى تَصرُفاتها تخرج أحياناً عن حدود المألوف . وتجعل لنفسها تقاليد تعمل بها ومن تلك الجماعات الشعبيه فئة الحرافيش .

وهم فئة أقرب إلى الصعاليك جعلوا لهم سلطانهم بمصر سنة ٨٩٥ هـ يسمى ابن شعبان ، وذهب إلى دمشق ودخلها . قال صاحب مفاكهة الخلان (١) " دخل إلى دمشق ابن شعبان سلطان الحرافيش هو والأوباش وحوله الصفاقات والطبول تضرب بين يديه والأعلام الصفر عليه، ثم أوصلوه إلى بيته، ثم رجعوا إلى تلقى زوجة أيضاً بالصفاقات والطبول، وخرج إليها نحو مائتى امرأة بخرق صفر ملفوفةِ على عصائبهن وهن ركوب حولها إلى أن وصلت إلى بيتها » .

وقريب من جماعات الحرافيش ولكنها جماعات إيذاء واضرار بالمجتمع ، جماعات اللصوص وعصاباتهم . وكانت تسمى كل جماعة " بالمنسر " وشيخ المنسر هو شيخ اللصوص . وكانوا يهاجمون الأسواق جماعات ويكسرون الحوانيت وينهبون ما فيها . وقد يبلغ عددهم نحواً من مائة نفر تقريبا مابين مشاة وركاب ومعهم قسيّ ونشاب .

«وكان فى ذى الحجة ٧٨٣هـ شاع أن شيخ منسر اللصوص اسمه قبيط قد فعل مالا يحصى وجاء تائباً إلى زاوية الشيخ اسماعيل الإنبابى فبلغ برقوق فأرسل حسين الكوارنى إليه فقبض عليه وعلى اثنين من اتباعه فسلخوا وحشوا تبناً وعلقوا بباب زويله»(٢)

وإذا كان للناس انذاك ملاهيهم ومسراتهم فكذلك نجد لهم مآسيهم ومهامهم، ولهم عاداتهم وتقاليدهم فى مآتمهم وأحزانهم .

فمما كانوا يتبعونه فى المآتم الضرب بالطارات مع نوح النساء ، «فأمر السلطان الغورى سنة ٩٠٦ بإبطال ذلك ، وأن لايعمل عزاء بالطارات ولانائحة تنوح على ميت ، كما نادى والى القاهرة بأن النساء لايخرجن فى نصف الليل» (٣)

---

(١) مفاكه الخلان لشمس الدين بن طولون : ص ١١٤
(٢) أنباء الغمر بأنباء العمر : ص ٧٨٣
(٣) ابن اياس : ص ٧٣٠

وقد كان من عادة الناس تزيين النعوش بالورد . قال ابن اياس (١) : «وصار الناس يعملون فوق النعوش قواصر جريد ويغرزوا فيها الورد».

وكان من عاداتهم اذا مات عظيم أن تخرج فى جنازته خيوله وقد قصصت أذنابها وقد قُلبت عليها سروجها ، وتوضع عمامته على نعشة وتكسر أقواسه وتوضع على نعشه وهى على طريقة الأتراك العثمانين (٢).

وعند وفاة السلطان برقوق سنة ٧٩٧ هـ عمل له كفارة عظيمة ، وقرر عند قبره القراء سبعة أيام ، وعملت عنده المآتم ، وذُبحت الذبائح وفرقت فى الصوفية والمقرئين (٣) .

المرأة والمجتمع :

ووضع المرأة فى المجتمع المملوكى كان غرلباً لا يختلف، بين التحرر والتقييد تبعا لرغبة السلطان أو الوالى إذا أمر بالتقييد ، وإذا شاء تغاضى فتحررت النساء وأسرفن حتى يعود آخر إلى فرض القيود والحجر على حريتهن وهكذا .

وتدخلت الدولة فى لباس النساء . قال صاحب نزهة النفوس : «أشهر النداء بالقاهرة ومصر : أى امرأة لاتلبس قميصاً واسعاً وأن لاتزيد على تفصيل القميص عن أربعة عشر ذراعا، . فأنهن كن يبالغن فى سعة القميص حتى أن الواحدة منهن تفصل القميص من اثنين وتسعين ذراعا من البندقى الذى عرضه ثلاثة أو أربعة أذْرُع ونصف وتشمر أكمامها فيصير جميع بدنها الداخليّ مرئيا وفى ٢ ذى القعدة من السنة نفسها أمر الأمير نائب الغيبة جماعة من أعوانه أن يتوجهوا إلى أسواق المدينة ، وأى امرأة وجدوا أكمامها واسعة فليقطعوها ، فقطعوا أكماماً كثيرة . فامتنع النساء من ثمَّ وعدن إلى ما كن عليه .

---

(١) صفحات لم تنشر ص : ٧٣ ، ولازالت هذه العادة تشاهد فى بعض نواحى مصر
(٢) ابن اياس : ٣٠٣/٤
(٣) نزهة النفوس : ص ٤١٨

قال ابن تغرى بردى : «فَمَشي دلك - أى نفذ الأمر .. وفصلوا قمصانا سموها كشبغاوية على اسم نائب السلطنة كشبغا حينئذ . قال : ورأيت القمصان الكشغاوية المذكورة وكانت أكمامها مثل أكمام قمصان الغلمان .

وكانت النساء يَلبسْن زياً خاصا على رُءوسهن ، وتدخل فيه السلطان كذلك وحدد لهن مايلبس وما يتركن . قال صاحب نزهة النفوس : «كان النساء يلبسون الشاش على روءسهن وهو عصبة أخذتها النساء من نحو ٧٨٠ هـ فصرن شبهاً بأسنمة البخاتى ، وتسميتها بالشاش لأن أوله على جبين المرأة وأخره على ظهرها ، فمنه مايبلغ طوله ممتدا نحو الذراع فى ارتفاع ربع ذراع " (١).

ويبدو أن هذا الزى كان مأخوذا من النصارى أو الفرنجة واتخذته المسلمات لباساً.

وفى عهد قايتباى رسم لمحتسب القاهرة بأن ينادى فى القاهرة بأن المرأة لاتلبس عصابة مقنزعة ، ولا شربوش حرير ، وأن تكون العصابة طولها ثلث ذراع وختم بختم السلطان من الجانبين ، وكتب بذلك قسائم على من سيبيع عصائب النساء. وصارت رسل المحتسب يطوفون فى الأسواق، فإن وجدوا امرأة بعصابة مقنزعة أو "شربوش " يضربونها ويجرسونها معلقة فى رقبتها ففرق النساء من ذلك وكن يلبسن العصائب المقنزعة فى بيوتهن وقال الشاعر زين الدين النحاس فى ذلك :

أمر الإمام مليكنا بعصائب ... فى لبسها عسر علي النسوان

فقلقن ثم أطعنه فى لبسها ... ودَخَلْنَ تحت عصائب السلطان

واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة ثم رجعن إلى ماكن عليه من لبس العصائب المقنزعة «والشربوش» ولم يلتفتن إلى تحجر السلطان فى ذلك» (٢) .

وكانت عادة النساء أن يخرجن إلى المقابر (القرافة) أيام العيد، فمنع السلطان هذه العادة سنة ٧٩٣ هـ قال صاحب نزهة النفوس :

وفى ١٩ رمضان سنة ٧٩٣ هـ أُشْهِرَ النداء بالقاهرة ومصر بمنع النساء يوم العيد

---

(٢) نزهة النفوس : ص ٣٣٥ والنجوم ١٢/ ٣٠.

(١) نزهة النفوس : ص ١٢٠.

من الذهاب إلى القرافة وغيرها من الترب ، وأى مكارى أركب امرأة وُسُّط بلا معاودة ، وأى امرأة وجدت ماشية وسطت ، وأن لايركب أحد من النساء والرجال فى مركب للفرجة ، وهددوا من فَعَلَ ذلك بأهوال فظيعة ، فلم يتجاسر أحد على القدوم عليه "(١) .

وقال ابن حجر : «أمر نائبا الغيبة بالقاهرة أن لاتخرج النساء إلى الترب بالقرافة وغيرها ، وشدد فى ذلك ومنع المتفرجين فى الشخاتير وهدد على ذلك بالتفريق والتوسيط، فحصل لأهل الخير بذلك فرح ولأهل الشر ترح » (٢)

---

(١) ابن اياس : ص ٤٣٢
(٢) نزهة النفوس ص والنجوم الزاهرة ٣/١٢

الحياه الدينيه والمجتمع

فى الدولة المملوكيه كان البناء الاجتماعى والسياسى والفكرى للدولة يعتمد على السلطة الدينيه وكانت ثانية السَّلَطَة ، وقد ذكرنا من قبل أن المماليك استحدثوا هذه الثنائية فى السلطة بعد أن سقطت بغداد وجئ بأحد العباسيين ونصب خليفه له السلطة الدينيه وأمور العلم والثقافة إلى جانب السلطان المملوكى الذى كان له السلطان الزمنى والحكم (١).

وكان بعض المناصب الدينيه لاتخلو من الخلل ، مثلها مثل مناصب الدولة الإدراية ، وحتى القيادات الدينيه أصابها مثل هذا ، فكان القضاة يولون بالرشوة ، والنقباء كذلك ، بل ابن حجر ذكر أنه كان ينتحل النَّسَبُ بالرشوة فدخل نقابة الأشراف من ليس شريفاً فى الأشراف ، وليس العمامة الخضراء بالرشوة (٢)

وكان للمناصب الدينيه شرفها واحترامها عند السلطان والأمراء غالباً وكذلك الناس ، وكان للقضاة والفقهاء تقاليدهم فى مجالسهم فمن عادتهم أن القضاة إن أرادوا أن ينصرف الحضور عن المجلس أغلقوا الدواة (٣)

وكان الفقهاء يفتون للمماليك ويشرعون ، يجيزون لهم ما يفعلون مما يبدو مخالفاً أو بدعاً . مع ذلك كان النزاع يثور بين الفقهاء والأمراء على اقتسام المال. ضَيَّقَ أحد قادة المماليك وهو الجاى اليوسفى فى دولة الأشرف قايتباى على الفقهاء عندما ولى الأوقاف الشافعية . فقام الفقيه الهندى وأغلظ لألجاى القول حتى قال له : اقطاعك يبلغ ألف ألف درهم وتستكثر على الفقية المسكين هذا القدر !

فقال ألجاى : أنا آخذ هذا الإقطاع لحفظ بلاد المسلمين ؟

فقال الهندى : ومن علمكم الجهاد الا الفقهاء !

---

(١) ابن اياس : ص ٣٧٠
(٢) أنباء الغمر : ص ٣٥
(٣) النواجى : ص ٢٦

فسكت وترك كل أحد على حاله (١) ؟

وكانت للدين مظاهره البادية فى المواسم والاعياد ، وكان شهر رمضان موسماً سنويا ً يحتفى به أشد الأحتفاء ، فالسلطان يقيم فى الليلة الأولى حفل إفطار يحضره العدد الغفير من رجال الدين والدولة من الأمراء والقضاة والفقهاء .

ويأمر السلطان بأن يفرق على القضاة والعلماء توسعة لعيالهم . واستمر ذلك معمولا به مدة الأشرف قايتباى ثم تناقص بعده (٢) .

وفى المولد النبوى كان يعمل المولد السلطانى للنبى صلى الله عليه وسلم بالقصر وكانت قراءة القرآن تتم فيه بالأجواق ، ثم أبطلت هذه الطريقة ، وأحييت ليلة المولد بترتيل القرآن وبالسماع (الغناء) . قال صاحب نزهة النفوس : «وفى شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ هـ عمل المولد السلطانى للنبى صلى الله عليه وسلم بالقصر السلطانى ، والعجيب ثم العجيب أنهم أبطلوا قراءة القرآن بالأجواق لأجل التهتيك .. وعملوا المولد فى ليلة الأربعاء بالسماع بإبراهيم الجمالى وأخيه شبيب وأعوانه بالدف» (٣) .

وكانت تعمل دورة المحمل يشهدها السلطان وأعوانه . فقد كان السلطان الغورى يجلس فى الخرجَاة المطلة على الرملة ، ثم يطوفون بالكسوة الشريفة والمحمل على العادة مرتين، باكر النهار وبعد الظهر. وكانت تحرق بالليل حراقات النفط .

وصنف العوام رقصة وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة

بيع لى لحاف زى المخمل حتى أرى شكل المحمل (٤)

وكان الغورى قد اعاد دورة المحمل ، أعادها بعد أن كان المماليك قد أبطلوها من أيام السلطان خشقدم ، وخاصة لعب الرماحة فى موكب المحمل .

---

(١) أنباء الغمر : ص ٢٨

(٢) تاريخ ابن اياس : ص ٤٣٣

(٣) نزهة النفوس : ص ١٦٨

(٤) ابن ايلس : ص ٧٢١

وظلت هذه العادة الدينيه معمولاً بها فى عصرنا حتى أبطلت أخيراً بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وكان الاحتفال بالمولد النبوى في موعده من شهر ربيع وكان يجمع أشياء لم تكن موجودة من قبل ، فقد وصف لنا ابن تغرى بردى دورة المحمل قبل السلطان الغورى فقال (١) : " جلس السلطان بخيمة بالحوش السلطانى وحضر القضاة والأمراء والفقهاء ومشايخ العلم والفقراء الصوفية ، وجلس كبار الدولة حول السلطان فى مراتبهم ، فقرأت القراء . فلما فرغ القراء ، وكانوا عدة جومة كثيرة قام الوعاظ واحداً بعد واحد ، وهو يدفع لكل منهم صّرزّة فيها أربعمائة درهم ، .. وأنعم على قراء كُلَّ جوقة . ثم مُدَّ سماط جليل فيه من الأطعمه الفاخرة مايُستحى من ذكره كثرة . ولما انتهى السماط مُدّت أسمطة الحلوى ."

ويحدثنا السخاوى عن حفل بالمولد أقامه السلطان فى حياته فقال " فى شهر ربيع كان المولد السلطانى على العادة . ولازال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده صلى الله عليه وسلم ، ويعملون الولائم لذلك ، ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات ، ويظهرون السرور ، ويزيدون فى المسرّات ويعتنون بقراءة مولده الكريم . ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم ."

ويظهر من قول ابى تغرى بردى والسخاوى أن هؤلاء القراء للمولد كانوا منشدين ينشدون المولد والسيرة فى منظومات يصنعها بعض الناظمين والوشاحين وقد بقيت هذه الموالد والأناشيد إلى الآن تحيتى بها ليالى مولده الكريم .

ويغزو السخاوى اهتمام المسلمين بالاحتفال بمولد النبى إلى رغبتهم فى أن يتفوقوا على النصارى فى الاحتفال بميلاد المسيح ، يقول. :

ولو لم يكن فى ذلك الإ أرغام للشيطان وسرور أهل الإيمان من المسلمين . واذا كان أهل الصليب اتخذوا من ليلة مولد نبيهم عيداً أكبر ، فأهل الإسلام أولى بتكريم نبيهم وأجدر ، فرحم الله امرءاً اتخذ ليالى شهر ربيع هذا الشهر المبارك وأيامه أعيادا ، لتكون أشد علةً على من فى قلبه مرضٌ ."

---
(١)

ويفهم من كلام السخاوى أن المسلمين احتفلوا بالمولد النبوى فى مصر تقليدا للنصارى فى احتفالهم بمولد المسيح ، ورغبة منهم فى إظهار محبتهم لنبيهم واجلالهم له .

واتخذت هذه المنافسة بين المسلمين والنصارى فى احتفاء كل منهم بنبيه صوراً عدة . وظهرت آثارها فى ممارسات المسلمين الدينيه وفى المدائح النبوية التى أضاف فيها الشعراء إلى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم الثابتة والمحققة معجزات أخرى تضارع معجزات المسيح عليه السلام على مابيّنا فى حديثنا عن المدائح النبوية فى الجزء الثالث من الكتاب .

وكانت احتفالات المولد النبوى ، ودورة المحمل والكسوة نموذجا لاحتفالات أخرى دينيه فى موالد الأولياء من الصوفية والصالحين . وقدكانت قبابهم والمساجد التى توجدبها مقاماتهم تزين وتُحليّ ، ويجتمع الناس قبل الليلة الكبيرة والمفروض أنها ليلة المولد – وإن كان كثير ممن يحتفل بمولده منهم لايُعرف تاريخ ميلاده . الاّ أنه كان يختار غالبا لظروف خاصة بالمكان الموجود به .

وكان يطاف بقسوة المقام يتبعه الخليفه ورجال الصوفيه كما يطاف بالمحمل وكانت تنصب الزينات طوال أيام المولد ، ويؤتى بأنواع الملاهى والألعاب وتقام حلقات الذكر للصوفيه .

وينتهز بعض الناس هذا كله للعبث والخروج على حدود الدين كما يروى صاحب نزهة النفوس عن مولد الانبابى بانبابة تجاه ساحل بولاق فى الضفة الغربية من النيل . ويقول :

" واتفق فيه من المفاسد والقبائح مالايمكن شرحه ، حتى إن الناس وجدوا من الغد فى المزارع وفى أجْنَاب البحر (النيل) من جرار الخمر عدة كثيرة تزيد على ألف جرة سوى ماشربوه فى الخيم ، وأما ما حكى من الزنا واللياطة فكثير حتى أرسل الله عليهم فى تلك الليلة ريحاً كادت تقتلع الأرض بمن عليها ، ولم يجرؤ أحد على التعدية فى النيل ، فأقاموا بذلك البر أياما حتى سكتت الريح " (١).

---

(١) نزهة النفوس : ص ٦٩

وقال ابن حجر : «إنه وجد فى صبيحة يوم المولد مئة وخمسون جرة من جرار الخمر فارغات ، وهذا إلى ماكان فى تلك الليلة من الفساد والزنا واللُّواط والتجاهر بذلك» (١).

عادات دينيه شائعة :

ومما شاع فى العصر من العادات الدينيه الاهتمام بالمصاحف وكتابة الربعات بماء الذهب ، فقد نقل السلطان الغورى منها لمدرسته التى بناها وعرفت باسمه . كذلك نقل إلى هذه المدرسة الاثار النبوية الشريفه من مكانها الذى أعد لها من قبل على شاطى النيل . قال ابن اياس : «وكما نقل الأثر الشريف والمصحف العثمانى إلى مدرسته . . ».

وكان العلماء يختمون البخارى بالقلعة كل عام ويحتفلون بذلك احتفالا عظيماً وكان العلماء والقضاة يطلعون إلى القلعة غُرَّة كل شهر عربى للتهنئة به وخاصة فى رمضان .

واستحدث السلاطين الجراكسة بدعة حلف الأمراء على المصحف العثمانى كلما أحسوا بوقوع فتنة حتى يكفوا عن المخامرة على السلطان أو التآمر عليه فى الخفاء ، وكذلك كان يفعل الأمراء أنفسهم للسلطان فيطلبون إليه أن يحلف على المصحف العثمانى أن لايمسهم بسوء .

وكانت لهم رسوم خاصة بالصلاة والآذان . قال صاحب نزهة النفوس : " وفى أول شعبان ٧٩١ هـ طلبوا المؤذنين بالقاهرة ومصر ورسم لهم أن يقولوا بعد فراغ الآذان لكل صلاة الصلاة والسلام عليك يارسول الله عدة مرات وسبب هذا أن شخصاً من الصالحين المتقدمين سمع فى ليلة الجمعة بعد آذان العشاء الآخرة صلاة وسلاماً على النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ بمجامع قلبه وأعجبه فقال لأصحابه اعملو مثل هذا فى كل آذان ، فقالوا سمعاً وطاعة (٢) .

(١) أنباء الغمر : ص ٣٥
(٢) : نزهة النفوس : ص ٣٢٣

وكانت لهم عادة فى أن يصعد العلماء ليلبسهم السلطان الخلعة عند ختم البخارى ، وفى تجهيز المحمل للحرمين يصعدون إلي السلطان لإعلامه بذلك .
كذلك كانوا إذا قل النيل أو تأخر عن موعده يذهبون إلى المقياس بالروضة يدعون إلى الله تعالى " (١) .

ومن العادات الدينيه ما حدث سنة ٨٦٦هـ حين انخفض النيل فدعا السلطان خشقدم القضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا فيه ويتلون هناك القرآن والحديث الشريف ، ويدعون بزيادة النيل ، فتوجهوا ولم يزد النيل شيئاً ، فأرسل السلطان يستفتى أحد الشيوخ فأرسل يُفتيه بأن اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء من صغارهم لكبارهم ثم يضعون فى أفواههم شيئاً من الماء ويمجونه فى إناء ثم يصبونه فى فسقيه المقياس .

قال ابن اياس : «ففعلوا ذلك فكانت فيه البركة» (٢)

وفشت فى الناس كثير من الخزعبلات الدينيه وابتدع السلاطين ضروباً من المظاهر وأنواع السلوك فرضوها على رجال الدين ، ففي سنة ٧٩٢ هـ منع السلطان من يلبس العمامة والقضاة من ركوب الخيل وكاتب السر وناظر الخاص ، وأذن لهم فى ركوب البغال ، ونودى أن الطحانين لايستعملون الخيل الصحاح وكذلك الحمَّارة

وربما كان فى هذا الفعل أزدراء برجال الدين أو محاولة للتقليل من شأنهم أو و التفرقة بينهم وبين رجال السيف، فخص رجال السيف من المماليك والأمراء بركوب الخيل وجعل للآخرين ركوب البغال والحمير .

وكثر الدجالون والمدَّعون المضللون ، إذ زعم واحد من الفقراء أنه النبى محمد والتف حوله الناس وظهر أنه مجنون ، وشاع بين الناس أن شخصاً يتكلم من وراء حائط فافتن الناس به ، واستمر ذلك شهرين واعتقدوا أن المتكلم من الجن أو الملائكة . وقال قائلهم : " يارب سلم الحيطة تتكلم " .

وقال ابن العطار :

ياناطقاً من جدار وهو ليس يرى ... اظهرو إلا فهذا الفعل فتَانُ

---

(١) المصدر نفسه : ص ٢٣٣
(٢) تاريخ ابن اياس : ص ٣٧٩

لم يسمع الناس للحيطان ألسنةٌ وإنما قيـل للحيطـان آذان !

وبعد التحقيق ظهر أن امرأة وزوجها ورجلاً اصطنعوا هذا الفعل. نقل هذا ابن حجر (١) ، وزعم آخر أنه رأى جماعة من الجن شاكى السلاح فى حارات القاهرة فقارعهم وجرح منهم .

وإن دلّ هذا على شئ فانما يدلُّ على عقلية جماعية تؤمن بالغيبيات والمحجبات ، والخرافات لم ينرها العلم ، ولم يأخذ بقيادها العقل فى طريق الرشد . ولقد كانت هذه العقليه الغيبيه ميداناً لهوى السلاطين والشيوح يتلاعبون فيها كما يشاءون ويبثون ماأراد لهم الاستبداد. وساعد على رسوخ تلك الخرافات ميل فطرى لدى العامة إليها لموروثاتهم القديمة التى انحدرت إليهم عبر الأجيال واستقرت فى وجدانهم .

ومن العادات المستقرة فى نفوس المصريين ولها عندهم مبررات عقدية من قديم الأزل زيارة القبور فى المناسبات والأعياد ، والأحتفاظ ببناء المقابر كبيوت الأحياء . وأشار المقريزى إلى القرافة والترب بها كالقصور (٢)

وكان النساء يذهبن إلى الترب لزيارة الموتى فى الأعياد وغيرها من المناسبات ، وكان بعضهن بتبرجن بما يغرى بعض ضعاف النفوس بالتعرض لهن ، كما يبدو أن بعض النسوة ممن خرجن على حدود الحشمة والحياء كن يمارسن بعض الأعمال الفاضحة مما دفع نائب السلطان بتحريم زيارة النساء للترب .

قال ابن تغرى بردى (٣) " وفى ٧٩٢ هـ أمر نائب السلطنة بالقاهرة بأن ينادى بمنع النساء يوم العيد من الخروج إلى الترب، ومن خرجت وسطت هى والمكارى».

---

(١) إبناء الغمر ١/١٩٨ - ١٩٩
(٢) خطط المقريزى ١/٣٦٩
(٣) النجوم الزاهرة ١٢/٣٠

التسامح الدينى :

ونعايشت الديانات والملل فى سلام ، وواصل الأقباط توليهم الدواوين والوزارات مسلمين أو مبقين على عقائدهم ، وفى القرن الثامن كان أشهر من ولى الوزارة من أصل قبطى الصاحب أمين الدين بن الهيثم الذى وليها أكثر من مرة وقيل عنه إنه كان نادرة فى آبناء جنسه ، وسدَّ أمر الوزارة فى الغلاء الذى ساد أيام الظاهر جقمق لما شرقت البلاد (١) كما تولي غيره على ماأشرنا عند الحديث عن الوزارة .

وعرف المجتمع المصرى فى عهد المماليك بالتسامح الدينى والتعايش السلمى بين الأديان ، فكثيرا ماتولى الوظائف الكبرى رجال من الأقباط ، وتولى الوزارة عدد منهم كالوزير الصاحب شمس الدين إبراهيم الكاتب (توفى سنة ٧٨٩ هـ قال صاحب نزهة النفوس : " وكان نصرانيا من قبط مصر، وأظهر الإسلام فخدم الأمراء والأعيان إلى أن أتصل به السلطان الظاهر برقوق وفوض إليه الوزارة فباشرها مباشرة حسنة وسار فيها سيرة محمودة وبلغت ثروته خمسمائة ألف دينار " (٢) .

وتولى ابن مكانس الوزارة أكثر من مرة .كما تولى غيره من النصارى المصريين وظائف إداريه مرموقه مما كان مدعاة لانتقاد بعض الوافدين من المغاربه .

وتولى جمال الدين ميخائيل الأسلمى نظر الاسكندرية . وكان ميخائيل قد أسلم وعمل ناظر الخاص السلطانى (٣) .

وشارك المسلمون فى أعياد نصارى الاقباط من مثل عيد النيروز وهو عيد رأس السنة القبطيه ، وعيد الشهيد ومارجرجس والعذراء وغيرها .

وعدد المقريزى هذه الأعياد بأربعة عشر عيداً، فيها سبع صغار وأخرى كبار

وكانت الكنيسة القبطيه شبه مستقلة فى اشرافها على النصارى فى مصر والحبشة ، وادارة الشئون الكنسية ، وتعيين الكهان والبطاركة فى كل من مصر والحبشة . الا أنه فى عهد السلطان إينال أمر بطريك الأقباط بعدم تعيين أحد من

---

(١)
(٢) نزهة النفوس ص ١٦١
(٣) المصدر نفسه ١٥٠

رجال الكنيسة بالحبشة الا بامره . قال السخاوى (١) " كـتب السلطان إلى البطريرك بألا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولابوكيل لا ظاهراً ولاباطنا ، ولا يولىّ أحداً فى بلاد الحبشة ، لا قسيساً ولا أعلى منه ولا دونه الاً بإذن من السلطان ."

كذلك كان يعامل اليهود بكثير من التسامح بالقياس إلى ماكانوا يعاملون به فى بعض الدول الأخرى ، فقد أمر السلطان قايتباى بإعادة بناء كنيس لليهود هدم بالقدس رغم معارضة بعض العلماء ٨٧٨ هـ

(١) ذيل السلوك ص ٢١٠



الباب الثانى

الثقافة

الفصل الأول

الحركة الفكرية

الدين والثقافة :

يعتبر الدين الركيزة للثقافة فى كل مجتمع متدين ، لانه يعطى التفسير للعلاقة بين الانسان والله ، والله والكون ، والأنسان والكون ، كما يعطى التفسير لكثير من التساؤلات الإنسانيه فى حياته ومماته وبعد الموت

وكان الدين فى المجتمعات البدائية بديلاً عن العلم فى المجتمعات الحديثة وكان رجاله يقومون بدور العلماء المفسرين والموجهين لحقائق الحياة والناس وسلوكياتهم . كما يقدم التفسير لكثير من الظواهر الكونية والمرضيه ، ومن هنا كان جمع رجال الدين بين علوم التديّن، وطقوس الديانه، وعباداتها وشرعها وعلوم الدين .

وينطبق هذا المفهوم على موقع الدين الإسلامى ورجاله فى ثقافة دولة المماليك إلى حد بعيد.

وللإسلام أصوله : القرآن ، والحديث والسنة ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته رضوان الله عليهم ، واجتهادات الأئمة والفقهاء ،.

وهناك علوم مساعدة ينبغى لكل مسلم أن يلم بها حتى يمكنه فهم القرآن والحديث ، تلك هى علوم اللغة والنحو والبلاغة والتاريخ والتفسير. وعلم التاريخ علم هام بالنسبة إلى التفسير لأنه يفسر أحوال الأمم الماضيه التى جاء ذكرها فى القرآن ، ويفصل الحديث فى أخبار الأنبياء والأمم التى بعثوا إليها .

والقرآن نصاً ، كما هو معروف متواتر، محفوظ لاخلاف فيه ، وماجاء حول القراءات المتعددة ، فصله علماء القرآن ، وبينوا أحكامها وأصولها ، وكذلك الموقف فى الناسخ والمنسوخ ، وضروب اللغات التى نزل بها ، وبعضهم يرى أنها عربية لم تحو ألفاظا أعجمية ، وبعض " يقول بوجود ألفاظ فارسية ورومية ومصرية قديمة وعبرية وردت فى لغة القرآن العربية ووحدت بها قبل نزوله ، فمن الطبيعى أن تصبح جزءاً من قاموسها . وقد نزل القرآن باللغة العربية التى يتحدث بها الناس فى زمان نزوله وبها تلك الألفاظ الدخيلة .

واختلف الناس فى تفسير بعض آياته وسوره باختلاف توجهاتهم ومحصولهم الثقافى، واتجاههم الفكرى والعقدى .

ومن هنا كانت تفاسير القرآ ن مجالاً رحباً لعرض ثقافات المسلمين من المفسرين وثقافات عصورهم ، وبلادهم التى نشأوا فيها أو انتموا إليها .

ولهذا كانت التفاسير القرآنيه وعاء ثقافياً متعدد الجوانب والتوجهات ، كما أنها كانت مجالا للحجاج باختلاف تناول المفسرين للنص ، ومن الأخذ بظاهر النص، أو تأويله تأويلأت تنطوى على رؤى بعينها ، تحاول أن تجذب النص القرآنى إلى موافقتها أو التوافق معها .

كل هذه التوجهات كانت محاولات من العلماء والمفسرين لمعايشة النص الدينى المقدس ، واستلهامه فى أمور الفكر والعقيدة ، والعلم ، والتشريع والاستناد اليه فى توثيق اللغة، وتقويم الاساليب من حيث الفصاحة والبلاغة ، أو سلامة التراكيب وصحة الدلالة .

وهذه كلها توجهات علمية مشروعة، إلاَّ أن توجهات خارجة عن هذه بدأت فى العصر المملوكى تخرج بالكتاب عن حكمة نزوله فى هداية الناس وتبصيرهم ودعوتهم إلى الآخذ بأسباب العلم والتفكير فى أمور الخلق والحياة للإيمان بوجود الخالق ، والتطلع إلى التعمير، والتقدم بالابداع والتطوير .

تلك التوجهات التى خرجت عن حكمة نزول القرآن بآعتباره كتاب دعوة إلى الحق ، والمعرفة السليمة والخروج عن الجهالة هى التى تأخذ بالقشور وتدع اللباب وتهتم بالشكل دون المضمون .

ومن بين هذه التوجهات على سبيل المثال ماساد العصر من اتخاذ القرآن مادة للآنشاد ، أو القراءة الملحنة، (المجودة) والتى كانت تصاحب أحيانا ببعض الألات الموسيقية .

منها اتخاذ القرآن تعويذة تقرأ على المقياس لزيادة النيل ، فيما نقل ابن اياس عن عهد السلطان خشقدم وفى ٨٦٦هـ . قال (١) " ومن الحوادث أن النيل توقف عن الزيادة ، وحصل للناس الضرر الشامل ، فلما استقر الأمر على ذلك رسم السلطان للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ، ويبيتوا هناك

(١) تاريخ ابن اياس س

ويتلون القرآن والحديث الشريف ، ويدعون الله بزيادة النيل ." ومنها اتخاذه رقى . وعلاجات لبعض الأمراض .

وهذه كلها أعمال تخرج بالكتاب المقدس عن غايته ، وهو كتاب هداية كما جاء فى نصه أول سورة البقرة : (ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) ، وهو نور ، يخرج الناس من ظُلمات الجهالة إلي بَلجِ العلم ، وصبح اليقين ، ويضعهم على الطريق المستقيم .

وكان موقف الناس من الحديث موقفهم من القرآن ، بل أشد ابتعاداً عن السنن، لما يحيط بالحديث من ملابسات يبرأ النص القرآنى منها . ذلك أنه لم يدوَّن، ولم يحفظ ، ولم يرو بنصه رواية متواترة ، وتحرج كبار الصحابة من روايته ، تحفظا، وتحرزا من أن يَقَولوا على النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أن ينسبوا إليه قولا لم يقله.

وكان الحديث منذ القرون الأسلاميه الأولى مجالاً للجدل حول سلامة الأخذ به مصدرا من مصادر العلم لما شاب بعض مايروى منه من أشياء تبدو متعارضة أحياناً مع ماجاء فى كتاب الله أو ما يقبله العقل ، ولا يتفق مع حقيقة ثابتة، بيقين المشاهدة أو البرهان .

ومن غريب الأوضاع فى ثقافة العصر الدينية الاهتمام الزائد بالحديث، وانتشار ظاهرة الحفّاظ، والتباهى بحفظ أو جمع أو سماع أكبر عدد منه ولأن للحديث هذه المكانة فى عصر المماليك عامة والجراكسة خاصة ، فقد كان مصدرا محققا للمعرفة، يؤخذ كل ماجاء به بالتسليم ، أخذ اليقين الذى لاياتيه الباطل . مع أن كثيرا من الحديث كان من الموضوع والضعيف باعتراف أهل الحديث أنفسهم.

وزادت هذه الأحاديث المشكوك فى صحتها زيادة ملحوظة فى العصر، وكانت عدة كثير من العلماء ، ومادة للمعرفة ، وموردا يردونه على كدره . وكدر مورد الحديث راجع إلي مايلجأ إليه الرواة من حشد مروياتهم الشعبيه ومأثوراتهم الأسطورية والخرافية متعددة المصادر والثقافات فيما يصنعون من الأحاديث ،وقد يلجأ بعضهم إلى تعديل نصوص الاساطير والخرافات عن أصولها القديمة فيما يتصل بالمعبودات والآلهة الاسطورية إلى مايوافق فهمهم للإسلام ، وتصورهم لما

تعنيه بعض الآيات ، والسور وتلعب خيالاتهم فى هذا التلفيق والتوفيق دورها . لكن لا يخفى على الباحثين المدققين أصول تلك المرويات ، ولايفوتهم مابها من تناقض مع حقائق التاريخ ، وحقائق الكون ، وطبائع الأشياء والمخلوقات .

ودخلت الأحاديث الموضوعة بعض « الإسرائيليات» المروية إن صدقًا وإن كذباً عن بعض الصحابة ذوى الأصول اليهودية ، مثل كعب الأحبار واستغلها بعض المفسرين الكبار مما شوش الوعى الإسلامى الصحيح ، ودخل بين المفهومات الإسرائيلية ، والعقيدة الصحيحة، وأرسى فى وجدان المسلم السلفى أو الإتباعى تقديراً وتقديساً لمقدسات يهودية أسطورية مما عّد اختراقاً للعقل الإسلامى بما يخدم تلك المقدسات .

ولم يترك المنهج السلفى أو الاتباعى الذى يسيطر على الفكر الإسلامى فى مصر وغيرها من البلاد الاسلامية فى هذه لمرحلة مجالا للتفكير ، والتعقل ومراجعة الرأى، لانه نهَّج يأخُذُ بمبدأ التسليم ، والسمع والطاعة لكل مقوله مروية عن مصدر يقولون بأنه ثقةٌ .

وساعد على هذا مااعتقده هؤلاء من التمسك بالثبات للنص القرآنى بصورة لفظه ، وعضّد هذا التوجه ، من أخذوا بمذهب أهل الظاهر الذى شاع فى بعض البلاد الاسلامية ، وكرّسة الاندلسيون والمغاربة باتباع أكثرهم لرأى ابن حزم الظاهرى .

ومعلوم أن كثيرا من المغاربة قد وفدوا إلى مصر ، وأثروا فى علمائها وأفكارهم ، ولايستبعد تأثرهم بهم فى هذا الاتجاه من حيث الأخذ بظاهر النص القرآنى دون محاولة للتأويل أو معايشة النص بما يتفق مع معطيات المعرفة الصحيحة ، ومنطق العقل السليم .

وربما كان مستند كثير من هؤلاء الظاهرية ، مانادوا به من قدم القرآن بنصه ولفظه ، وأنه غير مخلوق ، وأن كلام الله قديم بقدمه ، فلا يجوز تأويله ولا الادعاء فيه بالمجاز ، وافتراض زيادة فى اللفظ أو حذف وماإلى ذلك مما تقرآ من شواهد كثيرة لهم فى هذا المجال .

وكان منهج التسليم بما هو قائم يخدم بالضرورة القول بالتسليم بقول الامام أياً كان فى العلم ، والسياسة ، وعليه فهو يكرَس ضرورة الطاعة واسلام الزمام للغير

دون سماح بالمعارضة ، أو الخروج على الرأى المتفق عليه أو الإجماع حتى لو كان هذا الإجماع على ضلالة فى منهج العقل والعلم الصحيح وحتى لو كانت هذه الطاعة لإمام ظالم فاسد كما شاع فى ذلك الأوان ....

ومهَّد هذا التوجه الفكرى السائد لقبول كثير من الخرافات والأباطيل والاعتقاد فى عالم غَيْبي تسكنه العفاريت والجن والمخلوقات غير المرئية للإنسان والتى تتدخل فى مصائره ، وترسم له طريق حياته .

ورجع الناس فى ظل الإسلام الذى خرج بهم من ظلمات الجهل إلى عقائد الانسان الأول الذى اعتقد فى قوى الطبيعة ، ومن ذلك مارواه الجوهرى عن حدوث ريح شديدة عاصفة فى عصر السلطان جقمق سنة ٨٤٢ فأثارتْ غيارا ملأ الجو حتى الشمس اختفت . قال الجوهرى : فحصل عند الناس من ذلك تطيّر وتفاؤل . وزعم من له خبرة بعلم النجوم والأفلاك أن هبوب هذه الريح يدل على فتن ومحن .

وكذلك روى فى أحداث ٧٤٢ هـ عن كسوف الشمس ، أنه قدزعم من له معرفة بعلم الحدثان أن ذلك يدل على خروج أهل الشام وأهل صعيد مصر عن طاعة ملكهم .

وروى السخاوى فى ذيل السلوك أنه اشيع ٨٤٨ هـ فى ذى الحجة أن العيد لو صادف يوم الجمعه ، فإنه يحدث للحاكم سوء .

ويقول ابن إياس فى حوادث ٨٥٩هـ / ١٤٥٥م فى شهر جمادى من السنة : وفى هذا الشهر (جمادى) ظهر فى السماء نجم بذنب طويل جداً ، وكان يظهر من جهة الشرق ، ودام يطلع نحواً من شهرين . وكان من نوادر الكواكب ، فتكلم الناس فيما يدل عليه من الأمر وزاد الكلام بسببه ، ثم اختفى ذلك النجم .... وأقام مدة طويلة نحواً من ثلاث سنين حتى وقع بمصر الطاعون ، ووقع بمصر أيضا الحريق . قال صاحب مرآة الزمان : إن أول ماظهر نجم الذنب عندما قتل قابيل آخاه هابيل ، وظهر عند وقوع الطوفان وعند وقود نار إبراهيم الخليل عليه السلام ، وظهر عند هلاك قوم عاد ، وثمود وظهر عند هلاك فرعون وظهر عند مقتل الإمام عثمان بن عفان ، وظهر عند مقتل الإمام على - كرم الله وجهه - وظهر عند مقتل جماعة كثيرة من الخلفاء ."

ومارواه ابى اياس لايحتاج إإلى تعليق على مايكشفه النص من عقائد الناس ، وتعليقهم الأحداث الكبار ومصائر العباد بمثل هذه الظواهر الطبيعيه والفلكيه ، التى يعرف العلماء أن لهاأسبابها العلمية ، ولا ارتباط بينها وبين مايحدث للبشر على الارض . وانما هى أوهام ، وبقايا عقائد ظلت متوارثة فى المرويات الشعبيه ، وتسللت بصورة أو بأخرى فى المأثورات الدينيه والتى نقرأ كثيرا منها فى الكتب المتداولة عن ذلك العصر على ماسيأتى ببيانه .

وفى ظل هذا الفكر الغيبى انتشر التصوف والمتصوفة ، وكثرت الطرق الصوفيه ، والمدعون للصوفيه ، وشاع ذكر الولاية والأولياء والكرامات والأعمال الخارقة، أو الوسيلة والدعاء المستجاب منهم لكشف البلاء عن البشر، وشاعت الأدعية والأوراد بين الخواص والعوام ، والمتعلمين والجهَّال . واعتقد فيها وفى الرجال المبروكين السلاطين ، ورجال الدولة من الآمراء وشيوخا قضاة ووعاظا وخطباء مساجد ويروى مؤرخو العصر حوادث كثيرة للصوفيه والصلحاء ، ممن لجأ إليهم السلطان لكشف الضرّ ، أو الاغاثة من بلاء وقع على الناس، وكرب ضيق الحياة على العباد.

ويقول ابن اياس فى حوادث ٨٦٦ هـ زمن سلطنة خشقدم من أن النيل توقف فأستعان السلطان بالقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ، ويبيتوا هناك يتلون القرآن والحديث الشريف ويدعون الله تعالى بزيادة النيل . فأقاموا هناك أياما ورجعوا ولم يزد النيل شيئا . « فأرسل السلطان إلى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى (وهو أحد الصالحين من الأولياء الصوفية) وفيه معتقد للأستجابة) يستفتيه فى ذلك فقال الشيخ أمين الدين : اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء ،من صغارهم لكبارهم ، ثم يضعون فى أفواههم شيئا من الماء ، ويمجونه ثم يصبونه فى فسقيه المقياس ففعلوا ذلك ، فكانت فيه البركة " على حد قول ابن إياس .

وطبيعى أن تظهر فى مثل هذه الظروف ،من العقائد السائدة ، والتى تمهد لكثير من البدع والغرائب ، ومنها هذه الواقعة التى رواها السخاوى عن ظهور فرقة تسمى " المطاوعة " يقول (١) :

"وفى ٨٤٨ هـ كانت واقعة الطائفة المسماه " بالمطاوعة " وهم جمع كثيرون

(١) التبر المسبوك ص ١٠٣

يبيحون النظر إلى الأمرد الجميل ، بحيث أنهم يشترونه من أهله بمبلغ كبير ، ويعطى من عرب الشرقيه الثمن لمشايخهم ، ويأذنون فى اختلاء الأجنبى به ، فمنهم من يدسُّه تحت ثيابه ، ومنهم من يدسه معه فى ثوبه ، ويشرشحه الأجنبى ، فيجعل صدر الأمرد على صدره ، ويهزه ، فيركض قلبه كما يركض طائر الحمام .

ويرون الرقص فى المساجد وغيرها ، والتصفيق قربة عظيمة ، ويعتقدون جُلَّ ذلك .

وأذا استضافوا غريباً أمروه بغسل يديه قبل وضعها فى الإناء ، فان هو مسحها بأثوابه فرُّوا بأجمعهم عنه ، وإن وقعت منه لقمة على السفرة قالوا له : قد صارت نجسه ، ولايصلّون خلف إمام غريب ولوكان إمام أحد المساجد الثلاثة : الحرم ، والنبوى ، والمقدس ولايسلمون ، ولايقتدون بأفعاله ، ولا يصلّون على جنازة غريب . ولايعتقدون قتل من يقول بقبول توبة من سب الشيخين رضى الله عنهما . ولايزوجون أحداً من غير جنسهم ومن فعل أمر الشيخ أتباعه باعتزاله، بل ويمنعون أولاده عنه إلا برضاهم. وهذه الجماعة مثال للجماعات الدينية المنشقة والتي تجمع في معتقدها خليطا غير متجانس.

ونلاحظ فيما نقل السخاوي عن عقائدهم تحللا وانحرافا ، وبحثاً عن مبرر ديني لممارسة رغباتهم الشاذة . وكأن الدين قد أصبح مورداً لكل من يكن في نفسه رغبات غير سوية ليجعل منه غطاء لتلك الرغبات . كذلك نلاحظ مايفرضه الشيخ ، وكأنه أمير الجماعة في بعض الجماعات الدينيه المنتشرة هذا الزمان والتي تتبني بعض هذه الامور غير السوية التي قد تستهوي بعض مراض النفوس، والجهلة الذين لايدركون ماهو الدين ، وماهو دوره في صلاح المجتمع والحياة .

وعلي ذكر هذه الطوائف والجماعات التي تتخذ من الدين غطاء لها ينبغي أن نؤكد مرة أخري علي ماتتبناه بعضُها من خليط غير متجانس من عقائد ومن مذاهب ، وفرق وثقافات عديدة

ونعلم أن بعض الصوفية تبنوا بعض عقائد الشيعة . وكان كثير من أولياء الصوفية وأئمتهم ورجالهم ، ومريديهم من الشيعة ، والعلويين الذين ينتسبون ، أو يدعون النسب إلي علي ابن أبي طالب ، وقد يعلنون ذلك أو يسرّونه إلي أوليائهم ومريديهم .

وشاعت فكرة المهدي المنتظر استناداً إلي أحاديث مروية في هذ الشأن ، وقد أغري حديث المهدي المنتظر العلامة ابن خلدون بالحديث عن هذا الموضوع ، وحاول ربطه بالفكر الشّيعي وبين مدي العلاقة التي تربط المتصوفة به .

قال ابن خلدون في مقدمته (١) :

" وأما المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شئ من هذا- يعني حديث المهدي المنتظر - وأنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال ومايحصل عنها من نتائج المواجد والأحوال . وكان كلام الإماميّ والمرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله عنه والقول بإمامته ، وادّعاء الوصّية له بذلك من النبي صلي الله عليه وسلم ، والتبري من الشيخين ، كما ذكرناه في مذاهبهم ، ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم ، وكثرت التآليف في مذاهبهم ، وجاء الإسماعيلية منهم يدّعون الآلوهية للإمام بنوع من الحلول ، وآخرون يّدعون رَجْعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ ، وآخرون ينتظرون مجئ من يقطع بموته منهم ، وآخرون ينتظرون عود الأمر لأهل البيت ، مستدلين علي ذلك بما قد مناه من الأحاديث في المهدي ، وغيرها . ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفيه الكلام في الكشف ، وفيما وراء الحسي ، وظهر من كثير منهم القول علي الإطلاق بالحلول ، والوحدة . فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة ، وحلول الاله فيهم : وظهر منهم أيضا القول بالقطب والأبدال، وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام ، والنقباء . وأشربوا أقوال الشيعة ، وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم ، وحتي جعلوا مستند طريقهم في لُبْس الحرقة أنَّ عليًا رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري ، وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة .واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم . ولايعلم هذا عن عليٍّ من وجه صحيح . ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه ، بل الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدي . وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيُّع قويَّة ، يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم في التشيَّع ، وانخراطهم في سلكة . وظهر منهم ايضا القول بالقطب . وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضه وكتب المتاخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر ".

---

(١) مقدمة ابن خلدون طبع بولاق ص ٢٨١

ويحاول ابن خلدون السنّي البرهنة علي عدم ظهور الفاطمي الاّ بعصبية . ونلاحظ نَعْتَهُ المهدي المُنتَصر بالفاطمي . ولهذا أسبابه وعلاته ، فيما نال الدولة الفاطمية علي أيدي الدولة الأيوبية السنية ، واضطرار الشيعة الفاطميين بمصر إلي التَّخفِّي والتَّسترّ والظهور في عقائد أخري كالتصوف والقول بالمهدية كما لاحظ ابن خلدون بعينه البصيرة وعقليته النافذة في أحوال مجتمعه . يقول ابن خلدون معارضا ظهور المهدي الفاطمي والبرهنة علي ذلك :

«فإن صح ظهور هذا المهدي ، فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم، من أبناء علي حَسنيِّين ، وحسينيين في الحجاز ، ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباع المهدي منهم حتي تتم له شوكة ، وعصبية وافية بإظهار كلمته، وحمل الناس عليها ، وأما علي غير هذا الوجه ، مثل أن يدعو فاطمي منهم إلي مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية، ولاشوكة ، إلا مجرد نسبه في آل البيت، فلا يتم ذلك. ولايمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة .

«وأما ماتدَّعيه العامة والأغُمارُ من الدهماء، ممن لايرجع في ذلك إلي عقل يهديه ولاعلم يفيده، فيجيزون ذلك علي غير نسبة. وفي غير مكان، تقليداً لما اشتهر من ظهور فاطمي ، ولايعلمون حقيقة الأمر كما بيناه » .

وابن خلدون بعقليته الموضوعية العلمية لايقر قيام هذا المهدي واتباع الناس له إلاّ بعصبية تُمكِّنُ له ، ووفق آرائه في قيام الدّول لايري أن ذلك يمكن أن يتحقق للفاطميين أو العلويين عامة إلاّ باتحاد كلمة الحسنيين بمكة والحسينيين بالمدينة. وكانوا بالحجاز في عصره علي خلاف وتنافس فيمن يتولي إمارة الحجاز. وكأنه يتساءل كيف يمكن أن تقوم لهم دولة وهم علي هذا الخلاف . أما مايتردد علي ألسنة العوام، من أوهام دولة للمهدي المنتظر يملأ الدنيا فيها عدلاً بعد أن ملئت جوراً، فهي مجرد أحلام لاتستند إلي واقع.

وقد مسَّ ابن خلدون ماأشرنا إليه من ظاهرة محاولات بعض الشيعة المتخفّين في ثياب أخري لانكشف حقائقهم كثياب الصوفية محاولاتهم الدعوة من خلالهم لامام أو مهدي منتظر يعيدون به دولة الفاطميين المنقضية.

ولايخفي عن باحث في العصر وقاريء لكتب بعض العلماء والمؤلفين ممن كانت لهم ميول فاطمية او ينتسبون الي التشيع بسبب أو أسباب كالمقريزي مثلا،

كان يبثه من خلال كتاباته من تمجيد للفاطميين وعصرهم ودولتهم ، وزراية بمن بعدهم من الدولْ كالايوبية والمملوكية ومحاولة النيل من ملوكهم وسلاطينهم لتشكيك الناس في احقيتهم في الملك . وهكذا نجد الدّين يتلون بالصراعات المذهبية والسياسية او ان الصراعات تلك كانت تتشكل بانماط دينية متعددة وكان من آثار التشيع واختلاطه بالتصوف في هذا العصر لغة الرمز فيما عرف "بالَجفرُ " يقول ابن خلدون : (١).

" ووقفت بالمشرق أيضا علي ملحمة من حدثان دولة الترك منسوبة الي رجل من الصوفية يسمي الباجريقي " وكلها ألغاز بالحروف ، وهي مايستعمل فيه حساب الجفر، ضرب من الرمز الذي نشأ في العصور المتأخرة امتدادا للقول السرّي الذي ابتدعه الصوفية والشيعة ليبتعدوا عن شبهة التأثيم والخلاف ، واخذهم بالعقاب من الدولة السّنّية المعادية ويعتمد لغة هذه الملاحم الرمزية فنا عرف في لغة الشعر وشاع استخدامه في العصور المتأخرة .

واما ما فعله الباجريقي صاحب هذه الملحمة الرمزية فيقول عنها ابن خلدون :(٢)

ولقد سألت شيخ الحنفية بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب اليه في الصوفية وهو الباجريقي وكان عارفا بطرائقهم فقال كان من القلندرية المبدعه في حلق اللحية وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف ويومئ إلي رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف يعّينها في ضمنها لمن يراه منهم، وربما يُظهِرَ نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه، وولع الناس بها وحيلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخَّراصون من ذلك الجنس في كل مصر وشغل العامة بفك رموزها ." ولم يغفل لحق الفقهاء ولا القضاه عن هذا العبث الذي رأوا فيها اضراراً وافسادا لعقيدة العوام واستهواء لهم فابلغوا السلطان فقبض عليه وشددت عليه العقوبة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٧

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٨ - ٢٩٩

ثقافة الأساطير والمرويات الشعبية :

وثقافة الأساطير ، والخرافات ، والأوهام الخارجة على حدود القوانين والسنن الطبيعية والعلمية كانت تصبغ كثيرا من عناصر المعرفة الدينية والتاريخية والحيوية المتصلة بالأحياء من نبات وحيوان وإنسان . وشاع ورودها في كتب العصر سواء منها الدينية أو التاريخية ، أو الأدبية .

وقد أورد القلقشندي في صبح الأعشى عداً منها نشير إلى أمثلة لها تجمع بين مصادر وأصول متعددة ، فمنها ما ينتمي إلى ثقافة الجاهلية في الجزيرة العربية ، ومنها ما ينتمي إلى ثقافات مشرقية هندية وفارسية . أو بابلية،

وآشورية ، ومنها ما له أصول عبرية أو ما يمت بأسباب إلى بعض الأساطير المصرية القديمة ، والمرويات المنقولة عن بعض شعوب البحر المتوسط كاليونان والرومان ممن اختلطوا بالمصريين في فترات العصور اليونانية الرومانية .

ومما جاء من ثقافات الجاهلية ، وعدّ من أو ابد العرب ودياناتهم القديمة ، وعقائدهم وعاداتهم كثير. فمنها عقد الرتم ، ومنه رمى الغلام سنه نحو عين الشمس لتبدله سناً أخرى أحسن وأجمل ، ومنها الاعتقاد في غراب البين أنه داعية فراق لأسطورة تربطه بالنبي نوح . وما جاء عنه وعن الهدهد في القرآن الكريم وفي بعض المرويات كذلك طير الخضيرى عصفور الجنة الذى يألف البيوت ، وسكانها ، ويحرم صيده .

كذلك ما نقله من أساطير حول صوت الرعد ، وكان يعتقد بعض الجاهلين أنه زمجرة الاله أه الآلهة وانتقل إلي الاسلام فصار صوت الملائكة . والربط بين الزوابع والجن أو العفاريت ، وعلاقتها كذلك بمعتقدات قديمة . والنار المقدسة التى لم تحرق ابراهيم الخليل عليه السلام والربط بينها وبين عقائد قديمة في النار.

كل هذه العقائد والمرويات التى كثر ذكرها ، وتسللت إلى بعض الأحاديث كالحديث المروى عن الديك الأبيض ، فقد جاء في الصبح (١) : « قد ورد في معجم الطبراني وغيره أن لله سبحانه وتعالى ديكاً أبيض جناحاه موَشيان بالزبرجد

---

(١) صبح الأعشى ٢/ ٧٢ - ٧٣

والياقوت واللؤلؤ له جناحٌ بالمشرق وجناح بالمغرب ، رأسه تحت العرش ، وقوائمه في الهواء ، يوذّن كلّ سحر ، فيسمع تلك الصيحة أهل السماوات وأهل الأرض إلاّ الثقلين : الجن والإنس ، فعند ذلك تجيبه ديرك الأرض ، وحينئذ فيكون الديك في ذلك تابعا . وقد ورد عدة أحاديث في النهي عن سبٍّ الديك ، ومدح الديك الأبيض ، والحث على اتخاذه ،» .

واورد الدميري في الحيوان (١) الحديث نفسه إلى جملة أخرى من الأحاديث حول هذا الديك الأبيض .. ومما رواه قوله : « وفي الصحيحين وسنن أبي داود الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكا ، واذا سمعتم نهاق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً . وبعد هذا الحديث عن أبي هريرة روى الحديث السابق عن الديك الأبيض والمرويّ بالصبح قال : وفي معجم الطبراني وتاريخ أصبهان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن لله سبحانه ديكاً أبيض جناحاه موشيان ...إلخ وأكمل قوله بعدما ذكره القلقشندي بقوله : فإذا دنا يوم القيامة بقول الله تعالى ضمَّ جناحيك ، وغضَّ صوتك ، فيعلم أهل السماوات وأهل الأرض إلا الثقلين أن الساعة قد اقتربت . » وقال الدميري ما جاء في هذا الديك من الأحاديث ... وروي الطبراني والبيهقي.. عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن لله ديكاً رجلاه في التخوم ، وعنقه تحت العرش منطوية ، فإذا كان هتة من الليل صاح سُبُوحُ قدوس فتصيح الديكة . »

ولا تحتاج هذه الأحاديث المروية إلى التعليق ، فهي تقع في دائرة ما نحن فيه من الحديث عن الأساطير ، وما أخذه الجاحظ من قبل على أهل الحديث ، وما اتهمهم به هو وأصحاب منهجه من أنه ضرب من التجسيم ، الذي لا يقله عقل في حق الخالق سبحانه وقد نعت الجاحظ والزمخشري من يحشون قولهم بمثل هذه الأحاديث بالحشوية .

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ٣١٢/١

الفصل الثاني

الفنــون

تنوعت الفنون وتطورت أشكالها ، من تطبيقية ، وتشكيلية وزخرفية ومعمارية ، وجميلة ، وموسيقية وغنائية . وكان بعضها شعبيامن فنون العوام ، وبعضها الآخرمن فنون الخاصة والطبقات العليا في المجتمع تخدم حياتهم المترفة في منشآتهم وقصورهم وملابسهم ، ومأكلهم ومشاربهم ، وزينتهم في فراشهم وأثاث بيوتهم . وفي المساجد ، والمدارس ، والحمامات والأسبلة . وفي المدافن والقبور وما تزخرف به المصاحف ، والكتب .

كان الإنسان منذ وجد يبحث عن المتعة ، وكان الفن من بين ما يحقق له ذلك على اختلاف درجاته ، كما أن الفن كان يعبر دائما عن مكنون نفسه ، ويجد فيه تنقية أو تطهيراً للسخائم التى تعتمل في أعماقه كما قال الفلاسفة . والفن المَلوكى بمختلف أنواعه كان امتداداً للفن الإسلامي ، وإن ظلت له خصوصياته التى تميزه .

وأول ما يميز فن التصوير عند المسلمين البعد أو التحرج من رسم الصور الأدمية والحيوانية ، والاستعاضة عنها بالعناصر النباتية ، والخطوط الهندسية ، وأخيرا بالكتابة الزخرفية . لدوافع دينية ، ومأثورات تكرّه التصوير الآدمي وإن كان هذا الاتجاه غير مطرد على مدى عصور الحضارة الأسلامية ، دلك لأن بعض فنون الإسلام في عصور مختلفة واقطار متباعدة على اتساع رقعة العالم الإسلامى لم تخل من رسم البشر ، والحيوان فى أوضاع مختلفة وعلى حوائط القصور ، أو آنية الشراب ، والصحاف وأوراق الكتب ، كما يتضح ذلك فى فنون فارس والعراق ، ومصر الفاطمية .

وورث العصر المملوكي فن الرسم الذى يشمل بعض العناصر الحيوانية والبشرية لتأثر الفنون المملوكية بالفنون الفارسية والفاطمية والمغولية لهجرة بعض فناني المشرق الإسلامى إلى القاهرة ، ووراثة بعض الأثار الفاطمية الباقية في هذا اللون من الرسم .

ويقول الدكتور حسن الباشا (١): « ولم يصلنا من عصر الأيوبيين والمماليك

(١) من مقال له بجريدة الأهرام عدد ٦٩/١/٢١

صور جدارية ، غير أن المصادر الأدبية أشارت إلى استخدامهم للتصوير فى زخرفة القصور والعمائر المدنية ، كما وصلنا أسماء بعض النقاشين الذين كانوا يزاولون فن التصوير على الجدران فى ذلك العصر . وبالإضافة إلى الدهانين والنقاشين أشارت المؤلفات أيضا إلى أسماء بعض مزوّقى المخطوطات بالتصاوير ، مثل أحمد بن على المصرى الرسام المتوفى سنة ٨١٧ هـ (١٤١٤م) و محمد بن محمد بن أحمد المعروف بشمس الدين الرسام الذى كان يزاول نشاطه بالقاهرة فى سنة ٨٨٥هـ (١٤٨٠م) . وقد وصلنا مجموعة من المخطوطات المزوَّقة بالتصاوير ، يستدل منها على أن هذا النوع من التصوير قد ازدهر فى مدينة القاهرة .

ويمثل التصوير في المخطوطات بالقاهرة فى عصر المماليك فرعاً مهما من أفرع مدرسة التصوير العربية التى تعتبر أقدم مدارس التصوير الإسلامية ، والتى ظهرت فى العالم الإسلامى فيما بين القرن السابع ، والقرن التاسع بعد الهجرة . »

ويقول :« ولقد انفرد التصوير بالقاهرة بخصائص تميزه عن سائر أساليب التصوير العربية في العراق وايران . ومن أهم هذه الخصائص المبالغة فى اتخاذ الأسلوب الزخرفى المتأنق ، وطابع العظمة ، وفخامة التصميم ، وقوة التأثير ، وتبسيط العناصر ، والتقليل من عددها ، وتكبير حجم الأشخاص ، والمبالغة فى تحويرهم ، والتقييد من حركاتهم ، والبعد عن الركاكة . »

وارتقت الزخارف الكتابية ، والمشكلة من الآيات القرآنية ، زينوا بها جدران المساجد والمنشآت الدينية ، والكتب ، والمشكاوات ، وبعض الآنية الخزفية والزجاجية . وأبدع فنانو العصر المملوكي فى تصميم هذه الزخارف الكتابية ، مستخدمين خط الثلث بتنويعاته وإمكاناته المختلفة . والخط الكوفي المزخرف مشمولاً بلواحق نباتية متأثرة فى بعض نماذجها بالكتابات الصينية . وقد بقيت هذه الزخارف الكتابية على الآثار المملوكية شاهدة بمقدرة الفنان المصرى المسلم فى تشكيل مادته من الآيات القرآنية ، التى تبدو على الجدران أو المشكاوات بروعة جمالها على ما يحمله الفنان من علاقة وجدانية ، وروحية .

وقد أشرنا من قبل إلى اهتمام الشاعر الفنان باستخدام عناصر الكتابة العربية ، من حروف ، أو علامات إعراب فى تشكيل معانيه وصوره . مما يدل علي أن الذوق

الفنى العام متأثر بالكتاب المقدس فى مضموناته ، وكتاباته ، وحروفه العربية التى مكنت الخط العربى من أن يكون مادة زخرفية رائعة الجمال . ونبغ في القاهرة جماعة من الخطاطين من أشهرهم ابن الصائغ ، فقد نسخ عدة كتب ومصاحف وصار شيخ الكتاب .(١)

وتجاوب فن العمارة مع سائر المنظومة الإسلامية فى الفن ، حيث بدا فيه هذا الشموخ والروعة بقبابة ومآذنة الصاعدة إلى السماء ، وكأنها ترفع مع المؤذن دعاء السماء إلى رب السماء .

الموسيقى والغناء

وفى دولة المماليك الثانية ، ومنذ أخريات القرن الثامن الهجرى حتى وائل العاشر استمر عطاء المجتمع المملوكى فى مصر والشام في الفنون والأدب الشعبى .

وظل الأهتمام بالموسيقى ، وبالغناء ، والرقص ، وسائر وسائل اللهو والفن . وكان بعض السلاطين يحبون السماع ، فشجعوا المغنين ونظم لهم بعضهم شعراً يتغنون فيه .

وكانت احتفالات السلاطين والأمراء ، والاحتفالات الشعبية فى المناسبات والأعياد مواسم حافلة بضروب الفن ، تملأها البهجة . وكان السلاطين والأمراء يدعون المغنين والمغنيات ، والموسيقيين ، واللاعبين لاحياء تلك المواسم والأفراح.

ويمثل ذلك ما يرويه ابن اياس اذ يقول :

«عمل الأمير جانى بك قبة مشهورة وأقام حفلاً عظيماً ، وعمل هناك وقدة عظيمة وأحضر سواري طوالاً على البر وعلّق فيها قناديل ، وعزم على جماعة من الأمراء ومد مدة عظيمة ، وكانت ليلة لم يسمع بمثلها . وحضر هناك ابن رحاب المغنى ، وإبراهيم بن الجندى وجمع من قراء البلد والوعاظ »(٢) .

(١) قال فيه أحد الشعراء :

أيا شيخ كتاب الزمان وزينهم   ويا من يزيدُ الطرسَ نُوراً إذا كتبْ

(٢) تاريخ ابن إياس ص ٣٨١

وقد تكون المناسبة شفاء من مرض . قال ابن اياس إنه بعد شفاء ناظر الخاص السلطاني في عهد السلطان إينال زينت له القاهرة من داره إلى القلعة ، وقعدت له جوق المغانى على الدكاكين ، وتحلقت الناس بالزعفران ، وأوقدوا له الشموع على الدكاكين »(١) .

ويقـــول :

«كان أحد أمراء المماليك واسمه ماماى يقيم حفلاً عظيماً في بركة الرطلى زمن الشتاء ، وصار يوقد فى كل ليلة هناك وقدة حافلة ، وهرعت الناس إلى هناك بسبب الفرجة ، وعمل الجسر ، وسكن به الناس أياماً في قلب الشتاء حتى عد ذلك من النوادر .

وكان يعمل هناك فى كل ليلة خيال الظل ، ومغانى عرب أو ابن رحاب المغنى ، أو جوق المحبظين . وكانت ليالى مشهورة فى القصف والفرجة »(٢) .

وقد أشرنا إلى أن القاهرة وغيرها من المدن الكبرى كانت تحظي بمشاهد كثيرة من تلك الفنون ، من الموسيقى والغناء والرقص والألعاب وغيرها .

وأشرنا إلى أن تلك الفنون كانت على مدار العام ينعم بها الشعب ويحبها . ويفد إليها من كل مكان سواء أكان على شاطىء النيل أو فى المنازة المشهورة ، مثل بركة الرطلى ببولاق ، وأرض الطبالة ، وبركة الأزبكية ، أو فى أماكن موالد الأولياء ، حيث تقام حلقات الغناء والرقص ، ويكون عرض فنون التمثيل الشعبي وخيال الظل .

ولم تكن كل مظاهر الغناء والتمثيل فى عرض خيال الظل مجرد وسائل لإدخال المسرة علي قلوب الرواد وطالبى المتعة واللهو ، بل أن بعض المغنيين كانوا ينتهزون الفرصة كي ينشدوا أناشيد فيها تجريح لنظام المماليك وإداراتهم ، وسوء معاملتهم للناس ، بل وانتقاد أفعال بعض السلاطين وما يرتكبون من مظالم . ومن بين هؤلاء اشتهر ابن رحاب المغنى الذي ذاع صيته ولقى شهرة شعبية واسعة . ولأنه كان يتعرض للمماليك فقد قبضوا عليه وشهروه ، وهم لا ينكرون فضله وتقدمه .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٦٢

(٢) المصدر نفسه ٥٧٧

وكان اهتمام المماليك بمجالس اللهو والغناء مدعاة إلى كثير من المآخذ من بعض حكام الدول الإسلامية . فقد وصل إلى مصر في عهد السلطان الغورى قاضى اسماعيل شاه الصوفى حاملاً رسالة من الشاه إلى الغورى يعيره فيها بتغافله عن الجهاد واهتمامه بالترف والقصف وحياة الدعة واللهو ويقول له مشيراً إلى مجاهدته للتتار وقتله لملكهم أزبك خان ، بينما الغورى مهتم ببستانه ورياحينه ومجالسه النضرة :

السيف والخنجر ريحاننا   أف على النرجس والآس
مدامنا من دم أعدائنـــا   وكأسنا جمجمة الــراس

يشير إلى أنه جعل من جمجمة رأس عدوه أزبك خان كأساً لشرابه ، قال ابن اياس:

« وقد أشيع في بلاد الصوفى بأن السلطان قد اشتغل بما أنشأه فى الميدان من غرس الأشجار وشتول أنواع الأزهار والرياحين فقصدوا ينكتوا عليه بذلك وهو من نوع التهكم على السلطان » .

قال ابن اياس : وقدعمل فى ذلك جماعة كثيرة من الشعراء عدة مقاطيع على أنواع مختلفة من تلك الإجابات . منها قول الأشموني :

يراعنا الرمح وقرطاسنا   صَدْرُ عدو مُنكّسِ الراس

وقال الشربيني :

مغارسُ السُّنة بستاننـــا   تقطع فيه هامة الرأس
والدم لا يشربُ فى شرعنا   لكنَّ فينا قوة الباسِ

وكانت الآلات الموسيقية المستخدمة آنذاك هى التى شاعت فى العصر الأول وهى الدفوف والطبول ، والشبابات والمزامير ، والجنك أو العود الفارسى .

وكان لبعض المغنين «تخت» من عازفى الآلات الموسيقية ويطلقون على من يفعل هذا مغني «الدكة» . وبعض المنشدين يستخدمون «الكورس» أو فريق المنشدين يردون على المغنى على مانرى فى كثير من الأناشيد الدينية أو الشعبية.

وكانوا ينشدون الأناشيد الدينية بالأجواق والدفوف ، بل إن بعضهم غالى فكان يقرأ القرآن بالأجواق (١) في مولد النبى صلي الله عليه وسلم .

وكان من سمات حفلات المماليك وأفراحهم أجواق المغنين والمغنيات والموسيقين وخيال الظل ، والمنشدين والمحبظين وجوق مغاني العرب ويبدو أنها فرق بدوية كان يهوي سماعها المماليك ولا تخلومنها محافلهم .

أما جوق المحبظين فيبدو أنها جوق من المهرجين ، الذين ينشدون الأغاني الساخرة المضحكة ويأتون بالحركات المثيرة للضحك والتسلية والفرجة ، وقد أشتهر في هذا العصر جوق برابرة المحبظين(٢) ، واشتهر في عهد الملك الناصر محمد بن قايتباى سنة ٩٠٤ هـ (٣) .

وكان المنشدون ينشدون القصائد فى المديح النبوى ويشتركون في إقامة مولد النبى صلي الله عليه وسلم فى قصور السلاطين أو فى الحفلات العامة . وكثيراً ما يصاحب المنشد الضاربون بالدف ، والنافخون في الشبابة (٤) .

وتوافد علي مصر الموسيقيون والمغنون من المشرق والمغرب ، ومن بلاد العرب يحملون معهم فنون بلادهم فى الغناء ، ويغنون بالموسيقى المصرية وينوعونها ومن بين مشاهير فنانى المشارقة حيدر بن أحمد الشيرازي ، قدم القاهرة سنة ٨٢٤هـ فأكرمه السلطان الأشرف قايتباى ، وأنعم عليه بعشرين فداناً إلى أن أخرجه السلطان جقمق ، قال السخاوى : انتهت إليه الرياسة في فنى الموسيقى والألحان وصنف فيهما (٥) .

ومنهم الموسيقى محمد المعروف ببرقوق التونسى ، وكان بارعاً فى الغناء والإنشاد وله شهرة طائلة ، قدم من المغرب يروم الحج فتوفى بالقاهرة سنة ٨٧٥ هـ (٦) .

---

(١) ذكر ذلك صاحب نزهة النفوس : ١٦٨ .
(٢) ابن إياس : ٣١٧/٢ .
(٣) ابن إياس : ٣٤٧/٢ .
(٤) الضوء اللامع : ١٦٩/٣ .
(٥) ابن إياس ٧٦٥ .
(٦) المصدر نفسه ٤٢٨ .

مشاهيير المغنيين :

وقد اشتهر فى هذا العصر جماعة من المغنيين والموسيقيين منهم :

إبراهيم بن الجمّال :

كان من مشاهير المنشدين ، وكان السلطان برقوق يستعين به فى إقامة المولد النبوى فى القصر ، وكان يصاحبه أخوه المشبِّب وأعوان له يضربون الدف . روى المقريزى من انشاده فى السماع :

تفننت فى حبكـــــمُ ولا فادني منه فَـن
وخضتُ بحار الهَـوى وجبتُ بوادى محـــن
وقالوا به جنـــــــةٌ ومثلى بكم من يُجنَ
فؤادى بكم هائِـــمُ وعقلى بكم مفُتتَـــن
أغنى ولى فيكـــم فؤاد كثيرُ الشَّجَـــنْ

والمازوني : ناصر الدين محمد المازونى القاهرى المتوفى سنة ٨٦٢ هـ (١)

الأستاذ فى فن النشيد ، فريد عصره ، ووحيد دهره . وكان بارعاً في الغناء ، وكان يُضرب به المثل فى حسن النغم ، ومعرفة الفن ، ولم يجيء بعده من هو في صنعته إلى يومنا هذا . وقد رثاه الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

يأنْزهةَ السَّمْع سكَنْتَ الثَّرى فللملاهى أيُما لهْفــى
كم لطمةٍ من قدم أو يــــــدٍ في خَدَّى الدكَة والدُفّ

وقال فيه :

كانت به لذَّاتُنا موصولَـــــةً فانقطعَتْ بموته اللَّذاتُ

---

(١) ابن إياس : ٧٦٥ .

وكانتَ الأصواتُ تزهو بهجةً   فارتفَعتْ لموتِه الأصْواتُ

وكان حصل له فالج ، فأقام به مدة طويلة حتى مات ، فكان يقول : ارحموا من سكت حسه ، وبطل نصفه (١) .

اسماعيل بن عبد العظيم البوتيجي :

قال السخاوى (٢) : من أولى النغمات الطرية ، ممن له نوبة مع المنشدين الذين يماشون الملك فى تلك التلحينات . تعاني الأنغام وذاق الفن ، ووزن الشعر.

قال السخاوى : وكثرت مخالطته لى حين كان مجاوراً سنة ٨٩٧ هـ .

ابن رحاب علي ، توفي سنة ٩٠٥هـ :-

الريِّس نور الدين على بن رحاب المغنى المنشد المادح ، فريد عصره ووحيد دهره . كان من نوادر زمانه . ينظم الشعر ويلحن الخفائف بألحان غريبة . وكان آخر «مغانى الدكة» في الدخول والطرب . ولم يجيء بعده أحد في الدخول مثله . وعاصر من السلاطين خشقدم وقايتباي .

وكانت بينه وبين زميله ابراهيم الجندي منافسة ، وقد بدأت شهرته فى عهد السلطان خشقدم سنة ٨٦٨ هـ . وكان الأمير جانى بك قد أقام حفلاً دعا إليه إبراهيم الجندي وابن رحاب . قال ابن إياس : «فتعصب الأمير جانى بك في تلك الليلة لابن رحاب علي إبراهيم الجندي ، وكان هذا أول شهرة ابن رحاب بالغناء من يومئذ » (٣). وكان الحفل بمناسبة الإنتهاء من قبة جاني بك بمنشية المهرانى ، وقد عزم فيها جماعة من الأمراء . ومدَّ مدّة عظيمة . وكانت ليلة لم يسمع بمثلها .

وقد نفى وحبس ، قال ابن اياس : (٤) ومن الحوادث أن على بن رحاب المغنى

---

(١) ابن اياس : ٤٢٨ .

(٢) نزهة النفوس : ١٦٨ .

(٣) صفحات لم تنشر : ص ١٢٨

(٤) صفحات لم تنشر : ص ١٦٦ .

عمل سماعاً في باب الوزير في التبانة . فقامت فى تلك الليلة هرجة هناك فقتل فيها قتيل . فلما بلغ السلطان ذلك رسم بنفي ابن رحاب إلي البلاد الشامية فخرج وهو في الحديد ، فلما وصل إلي غزة شفع فيه عند السلطان القاضي أبو الفضل ابن جلود كاتب المماليك ، فرسم بعودته إلى مصر فعاد .

وكان السلطان يميز إبراهيم بن الجندي المغنى على عليّ بن رحاب في الغناء وفي سنة ٩٠٤ هـ قبض عليه الأمير طومان باى أيام سلطنة الظاهر قنصوه الغوري وضربه بالمقارع وشهره بالقاهرة وهو عريان مكشوف الرأس على حمار . قال ابن إياس «وكان عليّ بن رحاب طالما أدخل نفسه فيما لايعنيه لتغري بردي الدوادار ، وصار يسب الأمراء سباً قبيحاً في المجالس جهاراً ، ويهجوهم الهجو الفاحش ، ويصرح بذلك في السماعات وهو على الدكة .

وكان قرنباي الأحمر قبض عليه قبل ذلك ، وأراد ضربه ، ثم وبخه بالكلام وعفا عنه ، فلما زاد في هذا الأمر ضربه طومان باي وشهره في القاهرة والمشاعلي ينادي عليه : هذا جزاء من يكثر كلامه ويدخل نفسه فيما لا يعنيه (١) .

وبعد وفاته رثاه ابن إياس بقوله :

توفيّ نزهة الأسماع طـــــــراً   وصار العيش منا في ذهـــاب
وناحت بعده الآلات حزنــــــاً   وأظهرت الصراخ مع انتحاب
وأضحي الناس في قلق ولم لا   وقد ضاق الوجود بلا رحـاب (٢).

ابن بَابَي (ت سنة ٨٢١ هـ)

ابراهيم .. العواد المغني (٣) .

كان مقربا من السلطان الملك المؤيد شيخ . ويقول السخاوي : «إليه المنتهى فى الضرب بالعود . وكان يسكن بستان الحلّي الذى استأجره مطلاً على النيل.» وهو أحد ندماء المؤيد شيخ الذي عشق الموسيقى والغناء . ومع أن ابن بابى لم يكن جيد

(١) تاريخ ابن اياس : ص ٦٤٤ .
(٢) ابن اياس : ص ٦٥٨ ، ٢/ ١٢٤ .
(٣) الضوء اللامع ٢/ ٣٢ .

الصوت ، فقد كان بارع الصنعة ، ورأساً في العود وفن الموسيقي إنتهت إليه الرياسة في ذلك علي عصره .

ويقول السخاوي : إنه لم يكن عربي النّجار ، بل كان رومياً ، وفي حديثه باللغة العربية عجمة ، وقد خلّف مالاً جزيلاً .

وعبد القادر بن محمد الوفائى :

المادحُ الواجد المنشد . قال عنه الصيرفي (١): «كان آية من آيات الله ، وعجيبة من عجائبه في شبيبته من حسن الصوت والنغمة ، حتى يضرب بحسن صوته المثل ، وشاع ذكره بذلك شرقاً وغرباً».

على بن غانم (توفى سنة ٩١٣ هـ) :

قال عنه ابن اياس : كان علامة في ضرب الطنبورة ومعرفة الأنغام وهو الذي أظهر الخفائف النجدية بمصر ولحنها في التلاحين الغريبة حتى أبطل بها فن الموسيقى . وكان علي عهد السلطان قنصوه الغوري (٢) .

أحمد حزينات . توفى سنة ٩٠٠ (٣) :

وكان استاذاً في فن الموسيقى وعنده فكاهة وحسن محاضرة . وممن ذكر من المغنين والموسيقيين في هذا العصر بالإضافة إلى السابقين : محمد بن عوينة العوّاد ، وجلال السنطيري ، والبوالقة وابن الليموني (٤) وعلم الدين سليمان المادح بن يوسف (توفي سنة ٧٩٠ هـ) وعلي بن الشاطر والمعلم اسماعيل الدحيجاني .

---

(١) إنباء الهصر ٨٧ ، وراجع الضوء اللامع ٤/٧٨٧ .
(٢) ابن اياس : ٢/٧٦٥ .
(٣) ابن اياس : ٥٨٣ ، ٢/٨٧ .
(٤) بدائع الزهور لمحمد محمد مصطفى : ص ٢٩٠ .

وابن القرادح : شهاب الدين أحمد المنشد (١) .

ومن شهيرات النساء المغنيات

دُنيا بنت الأقباعى الدمشقية :

اشتهرت بالتقدم في صناعتها فاستدعاها الملك الناصر حسن بالبريد ، فأكرمها ثم وفدت على الملك الأشرف فحظيت عنده ، وهي كانت من أعظم الأسباب في اسقاط مكسب الأغاني . سألت السلطان ذلك فأجاب إليه »(٢).

خديجة الرحابية (٣) :

كانت من أعيان مغنيات مصر ، ولها انشاد لطيف ، وكان أصلها من مغنيات العرب ثم عظم أمرها جداً ، وحظيت عند أرباب الدولة ورؤساء مصر . وكانت جميلة حسنة الغناء ، فافتتن بها الكثير من الناس . وقد قال بعض الشعراء :

رحابيـة يخفى الشـموسَ جمالُها ... لها حسن انشادٍ يزين مقالهـــا

وقد قَابلتُها بالبدر ليلة تمــــه ... فما زال في قلبي وعيني خيالُها

وذكر ابن إياس أن والي القاهرة قبض عليها سنة ٨٨٦ هـ فلما قبض عليها قال لها : أنت أفسدت عقول الناس ، ثم أمر بضربها بين يديه نحواً من خمسين عصا ، وقررعليها مبلغاً له صورة وكتب عليها مبلغاً له صورة وكتب عليها قسامة بأنها لاتغني ولا تحضر مقام . وماتت بعد ذلك ولها من العمر ثلاثون عاماً.

وربما كانت هي التي ذكرت بالريسة خديجة «أم خوخة» (توفيت ٩١٨ هـ) وعاشت في عصر السلطان الغوري كذلك .فكانت من أعيان مغاني الدكة ، ولها في الفن اليد الطولى .

---

(٦) الضوء اللامع : ٢/٤٠٧ .

(١) أنباء الغمر :١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) ابن اياس : ٢/٢٠٦ .

هيفة اللذيذة (١) :

كانت رئيسة المغاني أيام السلطان الغوري . وقبض عليها السلطان لأخذ مال منها ، وعدّ ابن اياس هذا العمل مصادرة للمغنيات ونساء الملاهي وضرباً من السفه والصغر .

عزيزة بنت السطحي (توفيت سنة ٩٠٦ هـ في أوائل ذي القعدة) (٢) :

وكانت من أعيان مغاني مصر ، فريدة عصرها في النشيد مع حسن الصوت وفصاحة بإعراب الشعر ، فلم يخلفها من بعدها أحد من النساء المغاني . ورأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية العز والعظمة ما لا رآه غيرها من أرباب هذا الفن . وماتت وهي في عز الثمانين . وكانت لها بمصر شهرة زائدة .

قال فيها الشهاب المنصوري :

وفتاة نزهت طرفي فيها ... شنفت مسمعي بجوهر فيها

منذ زَارَت محبها وتغنَّتْ ... كاد يرمي بنفسه من أبيها

ومن عصر الغوري كذلك اشتهرت المغنية الرَّيِّسة بدرية بنت جريعة ، كانت من أعيان المغاني على حد قول ابن اياس (٣) وخاصة أغاني الدكة ، ولها شهرة بين المغاني بذلك .

وكان المغنون يحيون الموالد ، وممن اشتهروا بالغناء فيها إبراهيم بن الجمَّال . ولم يقتصر الغناء علي غناءالطرب ، بل وجد المنشدون الدينيون الذين يستخدمون بعض الآلات ، ومنه السماع الصوفي ، وممن اشتهر من منشدى الصوفية في الوقت المنشد عبد القادر بن محمد الوفائي كما قال ابن اياس (٤) .

---

(١) بدائع الزهور : ٢٥٨/٤ .
(٢) بدائع الزهور : ٢٥٨/٤ .
(٣) تاريخ ابن اياس : ص ٦٨٨٧ .
(٤) بدائع الزهور تحقيق محمد مصطفي : ٢٥٨/٤ .

الفصل الثالث
الأدب الشعبي

وظلت الأنماط المعروفة من النظم العامّي متداولة بين الناس ، وعظم أمرها في هذه الدولة ، فنافست القريض ، واشتهر من النظامين في الزجل جماعة قربوا من السلطان ، وتناقل الناس أزجالهم كالقيم خلف الغباري أيام السلطان فرج وكان بارعاً في الزجل ، ومحمد بن الزيتوني أيام الأشرف قايتباي وفي الموال أبو ذر الحلبي ، وابن النحال ، وحطيبة ، وابن حجة الحموي ، ومنصور الموّال .

وفي البلاليق نظم جماعة منهم الشيخ عثمان الحكري .

وفي الدوبيت جماعات كثيرة .

وبرع المصريون في هذه الألوان من النظم الشعبي ، وسجل ذلك ابن خلدون في مقدمته . فقال : «برع أهل مصر والقاهرة وأتوا فيها بالغرائب وتبحروا فيها في أساليب البلاغة كمقتضى لغتهم الحضرية فجاءوا بالعجائب» .

وكانت أشهر أنواع النظم الشعبي سبعة ، سميت الفنون السبعة قال بعض الموّالة يذكرها مادحاً للقاضي بدر الدين محمود العيني :

قوما لدوبيت قاض قد زجل شيني

بكان وكان امتدح بين الورى زيني

وانقل موشح مواليّا بلا مِيني

فأبحر الشعر مجراها من العيني

فهي القُوما والدوبيت والزجل والكان وكان والموشح والمواليا والشعر . وهو قول موزون على صورة الشعر الفصيح إلا أنه باللغة العامية وهو غير القريض الذي اختص بالفصحى والأوزان التقليدية .

الزجـل

ففي الزجل نظم الناس في موضوعات شتى ، منها الأحداث الجارية كزجل نظمه أحدهم في ظهور جزيرة في ببولاق ، واتخاذها منتزهاً وملهى .

في جزيرة بولاق لقينا العجـب
أسد ساروا معهم ظِبا شارديـن
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح
أذهلونا ، خضنا مع الخايضـين

وقال آخر :

امض لبولاق تري بجزيـــرة
حور وولدان لها تأنيـــــق
بي من تحايي وردها نشرها
ولها بقلبي هزّة عُلُــــوقْ

وقال آخر في فيل أرسله تيمور لنك هدية لبرقوق ووقع في القنطرة (١) :

تعا اسمعوا يا ناس اللي جري — الفيـل وقع يوم الأثنين في القنطـرة
لما أفلسوا غلمان الفيــــل — رامـــوا الجـــــزاف
خذوه وراحوا صوب بــــولاق — يجيبــــوا الطــــاف
رأوا شويخ من أهل اللـــــه — ما فيـــــه خــــلاف
وجو أخذوا شاشه منه بالزنطـره — دعا على الفيل اتقنطر في القنطرة

وشارك الزجالون في تسجيل المؤامرات والأحداث بين أمراء المماليك في صراعهم على السلطنه ، ومنها الأحداث التي جرت قبل استيلاء برقوق على الحكم في نهاية

(١) بدائع الزهور : ٢٩٨ .

عهد آخر سلاطين الأتراك . وكان أحد كبار الأمراء المشتركين في الصراع وهو الأمير بركة قد هرب . قال ابى إياس :

وقيل : لما هرب الأمير بركة اختفي فى بستان حتى دخل الليل - وكان معه شخص من الأمراء العشروات يقال لهم أقبغا ميوان - فتوجه الأمير بركة الى شخص من الصالحين يقال له الشيخ محمد المقدسى ، وكان مقيما فى جامع المقس الذى في باب البحر ، فاختفى بركة عنده ، فلما طلع النهار أرسل الأمير بركة يعرف الأتابكى برقوق بأنه فى جامع المقس عند الشيخ محمد المقدسى ، فأرسل الأتابكى برقوق فى ساعته الأمير الطنبغا الجوبانى . والشرفى يونس دوادار الأتابكي برقوق . فلما دخلا عليه أخذاه وأركباه على فرس وطلعا به الى القلعة ، فلما طلع قيدوه وأرسلوه إلى السجن بثغر الاسكندرية . وفى ذلك يقول ابن حبيب الحلبى :

يا ويحها من حالة　　وشؤمها من حركه
وقبحها من فتنة　　فيها أزالت بركه

وقال القيم خلف الغبارى :

مصر صارت بعد انقباض فى انشراح
وقلعها مزخرف والقصور
ياالهى احفظ لنا برقوق
واحرس الجند وانصر المنصور
جعل الله لكل وقعة سبب
ونقول لك سبب هذه الوقعه
بركة راد يعمل على أيتمش
والى الشام يسيروا سرعه
طلب الصلح بينهم برقوق

فأرسلوا لـــــه اخلع عليــه خلعـــــه

وبقى بعض مـا بقى فـــــى النفـوس
والعليل مـــا اشتفى بغـــل الصـدور
وقـــــد أمـــسوا علي حذر بايتـــين
وايش يفيـــــد الحذر مع المقــــدور

أصلحـوا بينهـــم نهـــار جمعـــــه
وصفـــى ودهـــم وطــابوا الجميـــــع
جا أيتمش عصبة الأمير برقـوق
وبقى كل أحد لأمرو مطيـــــــع
فمسك في نهار الاثنين طيـــح
ودمرداش الدوادار سريــــــــع

بركه حين سمع بذلك طلـــــب
قبة النصر خوف من المقـــدور
كان حذور حتى وقع فى الشرك
والمثل قال ما يقع ألا الحـــذور

ومنه في الأحداث السياسية ماقاله الزيتوني في مديح المماليك ورثائهم ، وفي وقائهم وحروبهم : قال الزيتوني في مناسبة عودة السلطان قايتباي من الشام :

سلطاننا الأشرف خرج في الأربعـــين   من العسـاكر حين سافر حمـــــاه
ومن حلب عداً يروم الفـــــــــراتْ   فاسقى الخيـول من ماه وربُّو حَمَاه

في أرض مصر فرسان أربعين بالعَددْ لدورة المحمل يسوقوا الجيـــــاد
ورعبهم ساكن قلوب الملـــــــوك يردّوا اللـــي خارج وأهل العنـــادْ

في دا العدد راح الملك وافتخـــــر بيهـــم علـى سائر ملوك البـــلاد (١)

وقال في نصرة الأتراك بقيادة طومان باي على عرب غزالة :

نحمد الله ونشكـــــره خالق الجسم والعَصَــبْ
اذ نصرنا عل العـــرب بالــدوادار والعَصَـــبْ

والعرب أكثروا الفســاد من عزاله وعزّلـــوا
جو وعدُّوا وعرّفُـــوا وعلى الحرب عوّلــوا
وأهلكوا الحرْث والنسل في الضواحي وحملّوا (٢)

وقال في مرج دابق بين سليم الأول العثماني والسلطان الغوري :

غربت شمس دولـــة الغـــــوري
وابـــن عثمان نجمو طلع سايــــرْ
وبهذا رب السمـــاء قد حكـــــم
والفـــلك دار ولم يزل دايــــــر
ابن عثمـــان باداه بأخذ القلـــــع
ويمنع التَاجِـــر مَعَ الجـــــلاَّب
أن يجيبُوا إلى مصر مملـــــوكْ
ولا فردة سَمُّورْ ولا سنجـــــابْ

(١) تاريخ ابن اياس : ص ٤٧٧ .
(٢) ابن اياس : ص ٦٤٩ .

ولا وشق ولا ثعلب يجلبُـــــــوا
ومن الصوف ما عاد يجينا ثيــابْ
على الصوف ياما قعدنا سنـــــين
مـا يجي من عند دولاً تاجـــــــر

والإمـارة جو للملك قَالـــــــُوا
ابـن عثمان بالمنّ عليك جايـــــرْ
الأمـــير الكبير سُمي ســــودون
للعجم بنتو خـــلاف لِقْيـــــاسْ
والمقر الأشـــرف العَالـــــــي
هو أمير ســـلاح شمس أركُمـــاسْ

وبســــودون راس نوبة النـــوّابْ
لُهْ رياضة مع ســـائر الاجنـــاسْ
وتبعهم مـن الامــــارة كثيـــــر
طبلخانـاه بالـــنصر تتباشـــــر
والعســــاكر معهم كثير فرســــان
عشـــروات من الترك تتكاثـــــر
ضرب الكـــل بينهم مشـــــورة
قالـوا : مَلْتْ منا القـلوب والنفوس

وقال الغبارى في نصرة المماليك على أعراب البحيرة وعودتهم غانمين إلى القاهرة زناجير ، والنساء فى حبال وهن حاملات أولادهن مشاة ، فلما حصل ذلك خرج أهل مصر جميعا للفرجة عليهم ، فكان لهم يوم عظيم فى القصفه والفرجه عليهم .

وفي هذه الواقعة يقول القيم خلف الغبارى هذه القطعة الزجل :

باسم رب السما أبتدى فارج الهم والكرب
ويفيد للذى حضر قصة الترك والعرب

جاء الخبر يوم الأربعا بأن فى ليلة الأحد
جا دمنهور عرب خذوا سوقها وأخرجوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذى للجميع حشد

فبرز أيتمش سريع بمماليك وروس نوب
وعدد ما لها عدد ويطلبوا لهم طلب

والأماري المعينين كل واحد بجيش بدا
عدا بعد الصلا وراح وغدا قصد للعدا
فى المعادى رأيت لهم يوم زحام فايش غدا

لتروجا تروحوا واستراحوا من التعب
ونصب كل أحد خيام ولصيد العدا انتصب
حضروا ما التقوا أحد من جميع العرب حضر

وابن عـــرام أتـــى لهـــم	بعـشـوه يكشف الخبـــر
مـا عـرف للعـرب طريـــق	بعـد وجـا عـبـدوا فى الأثر

لأيـتـمش حـدثوا الصـحـيح	قـام سـريع أيـتـمش ركـب
مـاترك تركي فى الوطـــاق	والخـيـام حل قـد نصـب

راحت التـــرك من مكـــان	وأتـى بدر من مكـــان
وتفـرعن وجـا الوطـــاق	ولهم قـال أنا فـــلان
ولموسى بن خـضـر صـاح	مـات بطعنة م السنـــان

ورأى التـرك داركـــوه	في طلوع النهـــار هـرب
شـحـتـوا أيتـمش سـريـــع	ورقـاب من مـعـو ضـرب

واقـعـة حـــرب ذى العـرب	لا غنـا مـالهـا نبـــأ
بـــدر فـــى الليـــل بعـاديات	جـا البلد والنسـا سبـا
طلبـــوا النصـر جـالهـــم	مـالهم في القـصـص سبـا

فى القتـال كـان لهـــم نهـار	لـو تراه سـاعـة اقـتـــرب
يوم قـيـامـه وكـــم عــــرب	جـاثيـة فـيـه على الركـب

جس ذى النوب بالسمـــاع	قـد فـهـمنا من الأصـــول
في الخـــروج تابت العـــرب	فـــازت التـــرك بالدخـــول

والسهام شبت علي — جس الأوتار بالغضب
غنت البيض علي الخلود — رقصوا الخيل من الطرب

وابن سلام مع الأجل — فاز بنفسو علي فرس
والأمير أيتمش رحل — لتروجا سريع كبس
في البيوت حارت النفوس — ما لتقي حد لو نفس

نبشوهم من الشون — قببوهم من القبب
وخدوا فضة الجميع — وجميع مالهم ذهب

وقع القتل في الرجال — وقد انهتك الحريم
والذي كان مقيم رحل — ما عليها أحد مقيم
وكم انسان بسيف وقوس — ما عرف له هناك غريم

جبد السيف من الجفير — ولراس من لقيه ضَربْ
وان حماه مشتري النفاد — سرعا بالقوس عليه عقب

لما تروا السيوف دما — ساعة النحر في النحور
اعتقدت أنها تحيض — صرت تعجب لذي الأمور
قال فتى بابلى اللحاظ — كيف يحيضو وهم ذكور

ألاذا ساحـــر القتـــــال   أيتمش للسيوف كتـــب
باب لزيف نزت الدمــــــا   من مماليكه الجلـــــب

البحيرة من الفـــــتن   سعدها زال واختـــــفى
وبقى فرحهـــا حـــزن   وقد تكدر الصفـــــا
والناس قالت ايش جـــرا   والذى قد جرى كفـــى

قالوا من تحت راس بديـــره   مالو بتقلو قد انتهـــب
وبنان الخدور سبـــــوا   قلت سبوه فهو السبب

جا ابن علاَّم معو رجـال   كل حـد شهوتو رغيـف
ذا على قُبتّو تفــــال   وذا فى رقبتو شليـــف
وذا لو درع سيسَبـــان   وذا لـــودرع خوص وليف
والقسى قِسِى من نخيل   وخرائطهم الجعـــب
وصواريهم الجريـــد   وخودهم قصع خشـب

فاعل النحسْ فى القيـاس   ماعرف صنعة البنـــا
جابَنَى شى بلا أســاس   هدت الترك مـا بنـــى
وتروجـــا امــــره   خربت حين لهـا دنــا

قلعــوا أبوابهــا لجـمـيـــــع	والسكفــات مع العـتـــب
يمسكوا بد ر مـعـتـبـــوه	وعليـه يوقع العـتــــــب

بدر تبت يـــد أبـــــــاه	لصــلاح النسـا فســـــد
كم مليحـــــــة أتوفـــى	جـيدها حبل من مســــد
ولى قــال شــخص منـيــن	بـدر فى ذى الذى قـصـــد

أبـــــــو جـهـــــل تَادِيهْ	الا قلبـو أبـو لهـــــــب
قـال لى وامـراتُـــــــو تكـون	قـلـت حمـالة الحطــــب

حـــــسن غــلب مانِجِـــى	وانكسر كسـر ما انجـــبر
قـــالت أقـــوام سَـبُـــــوه	أنت قـــيم ديار مـــصـــر
جـــا الحكـــــم ، وقـــــال	يـا غــبــارى جـرى خـيـر

لديار مــخـيـمــــــــين	فـي الزجل ذا يكن عـجب
قلــــــت ذا السفـــــــه	وأنـــــــا قيـــم الأدب

وقيل كذلك في مناسبة الطاعون الذى فتك بأهل مصر عام سبع وتسعين وثمانمائة (٨٩٧ هـ) :

وحّـدوا ومن قـد حكم بالمـــوتْ	ونفـذْ حكمـه بما يـختـارْ
وأحتجب عن العيـون سبحانـــه	جـلّ من لاتدركوا الأبصـار

بالممات ربّ البشـــر لَمـــــا قد حكم في الكائنات بأجمَعْ
اختفـوا في ذا الوجود وأوضحـوا مـالهم في ذا الفضـا مدْفَـــعْ
جا أخذْ منهم ملاحْ كانــــــوا شبـه أقـمار السّما طلّــــعْ

وهو زجل طويل (١).

وقال الزجالون فى أغراض الشعر القريضى كالمديح والرثاء ، فمن ذلك رثاء الزيتونى للأشرف قايتباى : (٣)

يرحمْ اللّـــــه سُلطانَنـا الأشْرفْ كان مؤيد على العِدَا ظاهـره
وكـذا ابْنُـــهْ المظفَّــر المنصـور بنصْـر اللّهْ العـادلْ النَاصـــرْ
لما زاد الضــعف بقـايتـبــاى والدوادار فى غـاية الإمكانْ
وتْوافقْ مــــع الأميـــر تمـــراز وطلع قانصوه إلى الميــدانْ
وأتى القلعـة مع كُــــره تبـاىْ والأمـاره وهدمـوا البنيـــانْ

وقد يتخذ الزّجال رثاء السلطان مناسبة لتاريخ لحياته أو نظم سيرته ، وذكر أهم ما بهـا مــن أحـداث . كما فعــل الغبـــارى في رثائه للأيشرف شعبان .قال ابن إياس :-

ولما مات الأشرف شعبان رثاه القيم خلف الغبارى بهذه القطعة الزجل فقال :

عن منازل طالع القلعة
كوكب السعد اختفى حين بان
اقتران زحل مع المريخ
كسوف شمس انتقل شعبان
صار محرما يوما لمــا
صفر المنزل من الأشرف

(١) ابن اياس
(٢) المصور نفسه ٤٩٤ .

وادخر منار بيعى عيش

وجمادين فتكهم أسرف

ورجب فيه الملك شعبان

دور المحمل ولا أشرف

رمضان صاموا وفى شوال

شال وذى القعدة بدا الحرمان

فيه جرت سيره لذى الحجة

ما جرت فى سائر الأزمان

قد فهمنا أصل ذى النوبه

بسماع ما جا من الأخبار

فى حصار شعبان وفى ضربوا

نوبتين والخنق بالأوتار

ولذا صار قلبنا موصول

بالهموم والعقل منا طار

وخروج السهم ولو تشبيب

فى القصب من داخل الأبدان

والسيوف غنت لرقص الخيل

والأنامل هزت العيدان

للحجاز لما نوى الأشرف

ورحل مع جملة العشـــــاق

خامرت فيه من العسكر

ولرصد الغدر جــو أجــواق

قتلوه شركه وتاريخـــــو

للعراق والأصبهــان انســاق

وقد أضحى في الرمال مدفون

والذى بيه فى طرب فرحـان

صار محير والحمام في الدوح

ناح لفقدو باختلاف ألحــان

الذخائر ذاهبة حين صـــــــار

واسطة عقد الجيوش غايب

والعقيق كنواقد اتخضـــــب

بالدما حين هربو كــــارب

وسلوك الدر والياقـــــوت

عقدها اتفرط من التيجان

وأصبح الجوهر يتيم بعدو

ودموع العين عليه مرجان

ذى الذى كان الملك ايدو

وايدهمَ في فرد زبديـــه

جوه بعملة غدر مدفونـه

وخيول فى السر مخيفـه

وقلوب بالغلب مغمومـه

وكبود بالغِلّ مشويـــه

المـــوال

واشتهر الموال ونظم به أكثر شعراء عوام مصر ، واتخذ مادة للغناء ، وبدت فيه أنماط من البديع ، وخاصة الكناية والجناس . واشتهر من الموّالين عبد الله بن أحمد التونسي (توفي في صعيد مصر سنة ٧٨٧ هـ) ومن قوله :

ركبتْ في جاريـــة	لم ير فيها عـــــــــين
وصحبتني جاريـــة	تسوى جمل من عـــين
إلى المرج جاريـــة	وأنا عليها عـــــــين
من كايْنَـةْ جارية	أو من حَسدْ أو عـــــين

ومنهم أبو ذرّ الحلبي (توفي سنة ٨٨٤ هـ) أحمد بن إبراهيم بن محمد قال :

عارضكّ والخـــال	دا مسكي ودا نـــدى
واللحظ والقـــد	دا خطى ودا هِنْـــدِي
والشعر والفـــرق	دا وصلي ودا صَـــدّي
والخد والثغـــر	دا حَرِّى ودا بــــردي

وقال :

عَنِّي تسلَّيـــتْ	وأسياف الجفا خليـــتْ
مِنِّي تخلَّيـــتْ	وفي قلبي الجوَى خليت
قَتْلِي استحليت	فيه النحر ما خَلَّيــت
في القلب حليت	ومُرى بالوصال حليــت

ومن هذا الضرب الغزلي كذلك قوله البدر المغربي المعروف بابن النحال (توفي سنة ٨٤٧ هـ) (١) .

(١) الضوء اللامع : ١٥٤/٣٠ .

بالله أعذروني في المصري وعشقي فيه
على ما جَنَاهْ وما أحلى الجنى من فيـــه
غزال أهيف حريري مطربي أفديـــــــه
من ظبي أهل الكلابي فاتَني في التيــه

ومن قول حطيبه الدمياطي المجذوب (١).

سرِّي فضحتــــــــه وأنتم سركم قد صُنْت
قصْدِي رضاكم وأنتم تطلبـــون العـــــنت
ذليت بعد عــــــزٍّ وفي هواكم هنـــــت
بالبيت في الخلـــق لكنتم ولاأنا كنـــت

وضُمِّن الموَّال بعض أغراض الحياة العامة ، وأحداث العصر أوالنقد الاجتماعي والسياسي ، لسيرورته وتداوله على الألسنة والتغني به في المناسبات .

فقد قال بعض المواله في عسف السلطان قايتباي ومصادرته أموال الناس (٢)

غرمت شهرين عن أجرة مكاني أمـــــس
وأصبحت مغموس في بحر المغارمْ غَمْسْ
أقسم برب الخلايقْ والقمر والشمـــــس
ما طقت شهرين كيف أطيق الخمـــــس

وفي فوضى مماليك الجلْبان روى ابن اياس :

يا مالك الملك يا من بالعباد ألطـــــف
دَبَرْ عبيدك وأصلح دولة الأشـــــــرف
كم من أقاطيع أخرجها وما أنصَـــــفْ

(١) الضوء اللامع : ٣/١٦١ .
(٢) ابن اياس : ٢/٢٦٨ .

وأطغَى المماليك ذَا يهجم وذَا يخطــــفْ

وقال أحد الموَّالة على لسان أحد فتيان المماليك (١) :

نحنا الذين في القَوْم نحيا لهدْم العُمْــر

بالبيضِ ننقطْ ونشكل بالرشاق السُّمْــر

وبيضنا عندما تركعْ فترفع حُمـــــــــرْ

تُسجد لها الهَامْ فوق الباديات الضمّــرْ

ويصف أحد الموَّالة لصاً ماهراً في لصوصيته فيقول (٢) :

أفدي اللص غداً بين الورى يازيــــــن

همام في الليل شاطر مايخاف الحِـينْ

ينشل ببطء حقيقة صدق ماهو مــــين

ويمسح الكحل بسرعة من سواد العين

وقال منصور الموال : في الأمير بالناصري (٣) :

لي كل ما سنت الأعدا أسنّتهــا   واشتدت الخيل وأرخت لي أعنتها

حملات منها الحبالى في أكنتها   حَنَّتْ ومن هولها شابت أجِنّتْــــها

وقال ابن حجة من موّال :

يوم القتال يفتح السدّ نــلقى السَّعْـــد

والناس في الحشر تحت الواقعة بالوَعد

(١) الدرة المضيئة : ص ٨ .
(٢) الدرة المضيئة : ص ٩٧ .
(٣) الدرة المضيئة : ص ١١ .

ألم تري زلزلة خرباتنا ياسَعْـــــــد
وهم زعر يستغيثوا هل أتانا الرعـــد

وقال أحدهم في الأمير منطاش في وقعة المماليك بدمشق (١) :

لك في مقام الوغـــى في شرقها والغرب
سماع تِطْرَبْ منو المسامع و يُنْفَى الكرب
هـذا ولك كلما جـالت خيول الحـــــرب
كَفْ يِكْفِي الأعــــادي عند وقع الضرب

وقال أحدهم :

هذا جرحي طَريًا والدّما تنْضـــــــحْ
وقاتلي ياأخيا في الفلا يَمـــــــرْحْ
قالوا م تاخذ تبارك قلت : دا أقبــحْ

وينقسم الموّال من حيث الشكل إلي نوعين .

الموال المربع وهو العادي وقد جرت أمثلته السابقة ويتكون من أربعة أجزاء مقفّاة كلها بقافية واحدة ، غالباً ما تكون من كلمات متجانسة فهو شبيه بالشعر المجانسي .

ومنه النوع الثاني وهو المثمن ، كقول أحدهم (٢) :

يوم الهِيَاجْ ظفرتوا بالعدا لا مـــيْنْ
فعلت فيهم فعال الضيغم الغاضـــبْ

(١) الدرة المضيئة : ص ١١ (٢) الدرة المضيئة : ص ٦٦ .

رامُوا الفرار فولوا وأعتراهم شـــــين

من خطواتى ماحجبهم في الفلا حاجب

نقطوا بالدف أظهرهم لنقط الزيـــــن

وأشكلت فيهم بحد السيف في الواجب

فكل نقطة تجرِّي الدمِّ تحكي العـــين

وكل شكله حكت من فوقها حاجـــب

فهذا الموّال مكون من ثماني شطرات متبادلة القافية كالمزدوج ولكن مع الحفاظ على قافيتين طوال الشطرات الثمان كلها .

ونقل الغزولى من هذا النـــوع لشمس الديـــن الواسطى فى(سنه ٧٨٠ هـ) قوله (١) :

ما مُتَ حتى جفَانى كلْ من فى الحَـــىْ

وملّنى وقَلَدنِى كلْ من لَو شَـــــــىْ

وانت ما فى العربَ والعَجمْ كمثلَكَ حَىْ

يا مَنْ بالمكارم ذكرنا حاتِمْ طَـــــىْ

ونلاحظ أن الموال جمع عناصر «القريض» أو الشعر التقليدى

فهذا الموال على أنه من أربعة أبيات مقفاة بدأ بالنسيب ثم انتقل إلى المديح ، واستخدم معانى المديح العربى بضرب المثل بحاتم فى الكرم .

(١) مطالع البدور ١/١٤ .

البلاليـــق

ومنه في هذا العصر بلّيق الشيــخ عثمــان الحــكري في برد نزل بالشام يقول فيه (١) :

الشتاء هجم عَليِّـــــــه	كنت غارق في منامـــــي
قمت قَايِمْ عليه ثَايِـــــــرْ	إستخبَّ في عظامِـــــــي
الشتا طَبْ وجانـــــــــي	في غدهِ بوجه عابِــــسْ
دقْ كوسْ الرعد برقـــــــو	وحمل راجلْ وفـــــارسْ
لحقتني منه زمعـــــــــة	صرت واقف قَرْن يابـــس
بقيت اسناني تطقطـــــــقْ	صرت غتمي في كلامــــي
وقوامي كان مقـــــــــوم	اتعوج مني قوامـــــــي
حين لقيت وجهو تَعبَّــــسْ	رحت من خوفي استخبيت
والرّياحْ والزَّمْهَرِيــــــــرْ	فتشوا وجوني البيـــــتْ
وبقي الربي يشعَـــــــث	بنشاف الغرب جَنَيــــتْ
قلت لاتنْخشْ منــــــــه	قمت لو يجمد حامـــــي
انطفا جمَري بنفخـــــــه	وصرعني في مقامـــــي
الشتا بِشده وسْطَـــــــوُه	لا يطق ولا يعانــــــــد

(١) الدرة المضيئة ٧٣ .

اقتصد حربي وجانـــــــي   قلت له حينْ جَانِي قاصـــد
يا صقَيعْ إيش دي الصَّقَاعة   جيتني يا بارد وبـــــارد
ما أنا يا برد قـــــدك   لا يغرك من لثامـــــي
أنا قد أرميت سلاحـــي   جيرني وارعي لِي ذمامـــي
يا شتاء لِيه قويتْ علينـــا   ما تروح تقْوي على أصحاب
القماش الثُّقَل والجـــوخ   وفرا ألوان وسنجـــــابْ

دخلوا جوّ البشاخـــين   صرت حاير في الظـــلام
في الرقاق علي الريـــح   كني في الظلمة حرامـــي
قالْ لِي زُحْت أقوى عليهم   كركبونُي من وراء البَـــابْ

يا شتا عريت الأغصـــان   من حلي أوراق الأغصـــان
قال : صحيح كسيـــت   الرّياض ديباج على ألــوان
وأيادي سحبت عينِـــي   جارية بكل إحســـــان

وتقول عني معبّـــس   ما ترى البرق ابتسامـــي
وثغور الأرض تضحـــك   عندما يبكي غمامـــي

ونلاحظ في هذا البُلّيق استخدام بعض صور الشعر العربي في تعبيراته .

وكثيراً ما استخدم نظام الشعر «القريض» هذا النظم «البليق» فيما عرض لهم من المعاني أو المواقف التى أرادوا التعبير عنها فى هذا الشكل الشعبي ليكتب لها السيرورة بين طبقات الناس ، فلا تقتصر على المتعلمين :

من مثل قول أحدهم المعروف بالميقاني (ت ٨٩٧ هـ) :

كلُّ من طَبْعـــــه الأذيّةْ	مـــا يموت إلا مـقـهَّـرْ
شامتَهْ فيه الأعـــــادي	وعــلى نفسه محسَّـــرْ
لا تكون يا صاحبي مغتاب	لا ولا تكون صاحب نميمة
واترك المزح ودعـــــه	مع الألفاظ الذميمـــة
والزم التقوى ففيهـــا	كل ساعة منها غنيمـة
لا تروم عَنْهاَ سواهـــا	تنـــدم الآن وتخسْـــرْ
وتصير بين الخلايـــق	أخـــملْ الناس وتُقْهَـــرْ

الدوبيت

ومن الدوبيت أورد ابن خلدون مختارات . منها قول أحدهم :

طرقت باب الخبا قالت من الطارق   فقلت : مفتون لا ناهب ولا سارق
تبسمت لاح لي من ثغرها بارق   رجعت حيران في بحر أدمُعي غارق

ولغيره :

عهدي بها لا تأمن عليّ البين   وإن شكيت الهوا قالت فدْتك العينْ
لما تغني لها غيري غلّيِم زين   ذكّرتها العهد قالت لك عليِّ دَينْ

ومعظم الدوبيت في الشكوى والوجد والغزل ، لكنه قد ينظم في بعض الموضوعات الجارية كالزجل والموال والبليق .

كقول أحدهم في وصف الحشيش :

دي خمر صرْف اللي عهدي بها باقي   تغني عن الخمر والخمَّار والسَّاقِي
قَحْبَهْ ومن قُحْبَها تعمل على حراقي   خَبِّيتْهَا في الحشا طلت من أحداقي

وقال آخر متظرفاً بلغة الأطفال :

يا من وصالوا لأطفال المحبة رِبحْ   كم توجع القلب بالهجران أوه وأح
أودعت قلبي حُوحُو والتصبر بح   كل الورى كخ في عيني وشخصك دح

وقال آخر في التغزل :

ناديتها وشيبي قد طواني طي   جودي عليَّ بقبلة في الهوى يا مي
قالت : وقولتْها كوت داخل فؤادي   كي ما هكذا القطن يحشى فمّ من هو حي

وقال آخر متغزلاً :

رآني ابتسمْ سبقت أدمعي برْقُــــــــه ماط اللثاه فتبدى بدر في شرَّقُــه

أسبل دجى الشعر تاه القلب في طرقــه رجـع هدانا بخيط الصبح من فرقه

وقال آخر :

يا حادي العِيْس ازجر بالمطايا زجــــر وَقّفْ علـى منزل أحبابي قبيل الفجر

وصيْح في حيّهم يا من يريد الأجــــــر ينهض يصلي على ميْت قَتيل الهجر

وقال آخر :

عـيني اللي كنت ارعاكم بهــــا باتت ترعى النجوم وبالتشهيد اقتاتَتْ

وأســـهم البينْ صـابتني ولا فـاتــت وسَلْوتي عظم الله أجـركم مـاتت

وقال آخر :

هويت في دَيعــكُمْ يا ملاح الحِكْـــر غـزال برْدِي الأسـود الضارية بالفكر

غصن إذا مشي يسبي البنات البـــكر وإن يهـل علينا البدر ما لو ذكـ ـر

وجاءوا في نظم الدوبيت بكل معني طريف ورقيق ، واستخدموه كثيراً كما رأينا في الغـزل ، والحكم والمواعظ . وقال ابن خلدون « وابتكروا فيـه أساليب للبلاغة بمقتضى لغتهم المصرية فجاءوا بالأعاجيب » .

ومن ذلك قول أحدهم متغزلاً وقد رق وعذب :

هذا جـرحي طرى والدّما تنـضَــــــحْ

وقـاتلي يـا أخى فى الفـلا يَمـــــــرحْ

قـالوا : مـاتاخُذْ تبـاركْ قلت دا أقبـحْ

وقول الآخر :

قد أقسم مَنْ أحِبُّه بالبارى   انه يبعث طيفُه مع الأسحارْ

يَا نار أشواقى به اتوقّدى   ليلاً عَساه يهتدي بالنارْ

فانظر كيف أبدع في البيت الثاني باستخدام نار الشوق ، والنار التي يهتدي بها الساري بالليل في منظومة الشعر التقليدي المستمدة معانيه من بيئته الصحراوية وكيف لاءَم بين النارين ، وفي عمق المعنى ما استقر في وجدانه من معاني النار في القرآن ، التي تحرق ، وتكون برداً وسلاماً وتكون هدى (لعلى أجد على النار هدى).

ونظم في الدوبيت كثير من الشعراء والنظّامين في العصر ، كما استخدمه بعض العلماء في توصيل بعض المعارف إلى بسطاء الناس ، أو حصنّهم عن طريق الموعظة والعبرة على الامتناع عن المحرم ، والمكروه من كل شر ، والتحصّنَ بالتقوى وفعل الخير .

كــان وكــان

وهو من الأوزان المشرقية الشعبية التي وفدت إلى مصر في العصور المتأخرة كالموال والدوبيت . وتفعيلاته تجمع بين تفعيلات الرجز والمجتث ، ويتكون المفرد منه من أربع شطرات كل شطرة من تفعيلتين ويغلب على الأولى والثالثة أن تكون أطول من الثانية والرابعة ، وغالباً ما تنتهي الشطرة الرابعة على وزن «مستفعلن فعلان» . وإن كان هذا الوزن يتغير كثيراً ويتصرف فيه الناظمون . فتتنوع بحوره ، لكنها لاتخرج كثيراً عن تفعيلات الرجز والمجتث ، يمزج الناظم فيما بينها بتصرف . (١)

وممن نظم فيه برهان الدين القيراطي (٧٨١ هـ) قال :

أجي بألف مدبــدَبْ	لنحو خدّ معذَبــــــي
ويَقتل النفس منِّــي	في رُقعتُه شامــــــات

ويقول :

يذنبُ ويأتي عنْبـــرُه	خاله ودينارُ وجْنتُـــه
لنا وكافور جسْمـــهُ	بألف ألف شفيــــــعْ

ويقول :

مشي فقلت كأنّـــكْ	ريّان أغصان النَّقَـــــا
دنَا فقلت كأنّــــــكْ	فينا غزال عطشـــــان

وللقيم خلف الغباري (ت بعد ٧٨٤ هـ) :

---

(١) راجع الدكتور كامل الشيبي في كتاب : ديوان الكان وكان . طبع بغداد سنة ١٩٨٨ م .

بالزَّهر زاد انشراحـــــي	إن ردت تزداد انشـــــراح
قالُوا ندى الورْد قابِـــلْ	في روضته الإقبــــــال
وفي جميع النَّواحـــــي	تلقى الحمايم في نـــــواحْ
وفي الغصون البلابـــــلْ	كم هيَّجتْ بلبـــــــالْ
بالخمرْ ما يزَلْ صباحـــي	لَمَّا اصطبح بيه في الصباحْ
نظم حبابو سلاســـــلْ	بالدرّ في سلْسَـــــــالْ
باكرت في صرفِ راحِـي	جاني الفرح والحـــزن راحْ
وأصبحت بالسكر مايـل	وصرفت كلّ المــــــالْ
تدري من أفسد صلاحـي	في العشق محبوبي صلاحْ
في الحسن مالو مماثِـــلْ	بيه تضربْ الأمثـــــال
فيه قد عَصيتْ كلَّ لاحي	يحكي قمر في غُصُنٍ لاحْ
كم بيه نقص بدْر كامِـلْ	في ليلةِ الإكمـــــــالْ

وينظم أحد حرافيش صوفية القلندرية في وزن الكان وكان وعظيَّة يقول فيها :

ما كُل واصِلْ مواصِـــلْ	ولا العَنَا يدْني المُنَــــى
هذي سوابق لواحــــقْ	لمن يشَا الوهَّـــــابْ
كم قد رأينا عاشِــــقْ	صادق ، وآخر يدّعـــي
هذا مجالس مؤانِـــسْ	وذلك براً البــــــابْ
لا تدّعي الحبّ فينـــا	وفي فؤادك غيرنــــا
يخاف عليك من ينـادي	يا مدّعي كـــــدّ ابْ
لكن إذا شئت فاصبـــرْ	على مرارات الشَّقَــــا
واخضع إذا شئت تُحسبْ	من جملة الأحبـــــابْ

قل لي إذا لمْ تصبـرْ وتحتمل إيش لك عَمَلْ

تقدر بقوة عزمَـــكْ تغالبْ الغــــلاَّبْ

سلَّم قيادكْ تِسلَـــمْ واخضع لمالك مهجتَكْ

إذا عنى بك أتى بـكْ من أقربْ الأبـــواب .

الباب الثالث

العلم والعلماء

الفصل الأول

العلوم الدينية وعلماء الدين

القرآن - الحديث - التفسير - أصول الدين

الحياة الفكرية

العلماء واتجاهاتهم :

استمر تيار أصحاب السنة ، والأهتمام بالعلوم الدينية . وخاصة القرآن والحديث ، وواصل المماليك تشجيع العلم والعلوم وبناء المدارس .

وكان العلماء يعقدون مجالسهم في المساجد والمدارس ودور العلم ، وكثيراً ما كانوا يعقدونها في قصور السلاطين والأمراء ، وربما عقدوها كذلك في الأسواق ، فقد ذكر السخاوي أنه كانت لبعض علماء الشافعية مجالس بحانوت الزجاجيين (١) .

وكان السلطان يتدخل أحياناً للحض على العلم وخاصة الديني كالقرآن والحديث. يقول صاحب نزهة النفوس : «أمر المحتسب حنظة القرآن أن يعلموا الناس ما لابد منه من قراءة القرآن لأجل الصلاة ، فاستمر ذلك ، وقرر لكل معلم على كل حانوت فلس في كل يوم . وفي شهر ربيع الأول رسم بمنع القراءة بالأجواق لأجل التهتيك ، وأن يكون عوض ذلك الصلاة علي النبي صل الله عليه وسلم »(٢) .

ويتدخل السلطان أحياناً لرد من ينكر التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم مثلاً

. فقد كتب السلطان برقوق سنة ٧٨٤ هـ مرسوماً جاء فيه :

«بلغنا أن جماعة بدمشق ينتحلون مذهب ابن حزم وابن داود ويدعون إليه ، فيتقدم بطلبهم .. فإن ثبت عليهم منه شيء عمل بمقتضاه من ضرب ونفي وقطع معلوم ، ويقرر في وظائفهم غيرهم من آهل السنة والجماعة» (٣).

ودخل حلبة العلماء كثير من الأدعياء ، قال ابن حجر عن الشيخ تاج الدين الرومي الحنفي : «كان أعجوبة في قلة العلم والتلبيس على الترك في ذلك !. وكان

---

(١) ذيل رفع الأصدار للسخاوي : ص ٩٥ .
(٢) نزهة النفوس : ٢ ١٦٨ .
(٣) إنباء الغمر : ٢٥٩/١ .

في دروسه لا ينطق في شيء من العلم بكلمة ، بل إذا قرأ القاريء شيئاً استحسنه ، وربما تكلم بكلام لا يفهم منه شيء»(١) .

وكان التسامح الديني يؤدي إلى أن تعبر كل طائفة عما تريد . بل كان التناظر بين المسلمين والمسيحيين في أمور الدين يقع أحياناً . يذكر ابن حجر أنه «اجتمع في سنة ٧٩٥ هـ في عهد السلطان برقوق بالقدس أربعة أنفس من الرهبان ودعوا الفقهاء إلى مناظرتهم ، فلما اجتمعوا جهروا بالسوء من القول ، وصرحوا بذم الإسلام »(٢).

وزاد عدد المدارس ، فقد بنى الظاهر برقوق مدرسة في شارع بين القصرين سنة ٧٨٨ هـ وبها سبعة مدرسين ، أربعة في الفقه على المذاهب الأربعة ، ومدرسان للتفسير ومدرس للغة ومدرس للحديث (٣) .قال ابن تغري بردي : «ولم يعمر داخل القاهرة مثلها » (٤) . ومنها الشيخونية والأشرفية ، ومدرسة الأمام الشافعي . وجاء السلطان الغوري فبنى مدرسة عظيمة سنة ٩٠٨هـ قالوا : وقد ارتكب الغوري في بنائها مظالم كثيرة كما فعل السلطان حسن في بناء مسجده ومدرسته الكبيرة.وأطلق بعض الظرفاء على مدرسة الغوري اسم «المسجد الحرام » قال ابن اياس : « وأهل مصر لا يطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها في حق الناس»(٥) .

وقد عرفت بعض هذه المدارس مكانتها كالشيخونية ، وكانت أكثر مدارس القاهرة معلوماً ، ولهذا كان التنافس بين العلماء للتدريس بها أو تولي مشيختها ، وهي منسوبة إلى الأمير سيف الدين شيخون العمري الذي كان يتولى زمام الملك بيده واستبد بأمور السلطنة زمن السلطان حسن .

وجعل بها درسان أحدهما للحديث والآخر لإقراء القرآن بالروايات السبع .

---

(١) أبناء الغمر : ١/ ٤٥٥ .
(٢) أبناء الغمر : ١/ ٤٥٧ .
(٣) نزهة النفوس : ١٤١ ، الدرر الكامنة : ص ٣٧٠ وشذرات الذهب : ٦/٢٩٩ .
(٤) النجوم الزاهرة : ١١/٢٩١ .
(٥) ابن اياس : ٧/٧١٦ .

العلوم الدينية وعلماء الدين

أشرنا في حديثنا عن الحياة الدينية في هذا العصر والعصر السابق إلى الاهتمام الشديد من العلماء بعلوم الدين وما يتصل منها بالقرآن والحديث خاصة ، لأنهما لب الشريعة ولب العلم ، ومناط البحث والمعرفة . وقد ساعد على الاهتمام بعلوم القرآن والحديث ظروف التاريخ وما عاناه المجتمع الإسلامي من انقسامات وخلافات مذهبية أدت إلى صور من الصراع السياسي والعسكري بين الدويلات الإسلامية التي اتخذت نحلاً مختلفة مدعية أنها على الطريق الأقوم وغيرها على طريق الضلال .

وكان الصراع الشديد في تاريخ الأمة الإسلامية بين ثلاثة اتجاهات متباينة ، هي : اتجاه أهل السنة أو ما يسمون به أنفسهم غالباً بأهل الجماعة وهم متمسكون بعلوم القرآن والحديث ويعتبرون السنة وعلوم الحديث مكملين للقرآن .فلابد من الاعتناء بهما كالإهتمام بالقرآن الكريم .

والاتجاه الثاني هو اتجاه المعتزلة وقد غربت شمسه منذ القرن الرابع تقريباً إلا بقايا تظهر حيناً وتختفي تحت ضغط مذهب أهل السنة .

ثم الاتجاه الثالث وهواتجاه الشيعة أو مذهب أهل البيت أو العلوية وقد غلب على القرن الرابع إذ أيدته دولتان قويتان هما دولة البويهيين في المشرق ودولة الفاطميين في المغرب ومصر . ولم يلبث أن ضعف هذا الاتجاه كذلك بتغلب السلاجقة علي المشرق وهم من أنصار السنة المتحمسين ، ثم دولة صلاح الدين والأيوبيين فالمماليك في الشام ومصر وهي دولة سنية كذلك .

وهناك اتجاه رابع بدأ ينتشر منذ القرن الخامس ويؤثر في الفكر الإسلامي ، وارتبط بالتشيع ، ونعني به الاتجاه الصوفي ، أو التصوف ، وإن حاول بعد القرن السابع التقرب إلي أهل السنة . فجمع بعض أئمته وبخاصة شيوخ الطرق بين التصوف والشريعة على طريقة المذاهب السنية الأربعة .

وعليه فقد حافظت دولة المماليك على الاتجاه السني ، لم تسمح بظهور أي أثر

شيعي أو اعتزالي في الفكر الإسلامي في عصرها . ومن ثَمَّ كان الاهتمام الشديد بالدراسات القرآنية ودراسات الحديث والفقه ، والتشجيع علي التبحر فيها .

وظهر جماعة من الفقهاء يجمعون بين علوم القرآن والحديث ، وقل منهم من اختص بفرع واحد منها إلا من نبغ وندر ففاق في فرع واحد على حساب الفرع الآخر. وهناك أمثلة كثيرة لكبار العلماء ممن نبغوا في علم وأكثر من علوم الدين كالحافظ ابن حجر ، فهو وإن عد حجة في الحديث لكنه كان مؤرخا بارزاً وأديباً شاعراً ، والسيوطي محدث لغوي ، مفسر مؤرخ ، والسخاوي كذلك محدث فقيه مؤرخ . وعليه فستجد في الفصل بين العلماء في ضروب العلم صعوبة ، ومن هنا تجد تراجم كثير منهم تجمع بين ضروب العلم المختلفة ، ولكل منهم في كل علم باع ، ويضرب فيه بسهم .

وظل الاتجاه في التأليف كما كان في العصر السابق ، فقد تركزت جهود العلماء في مؤلفاتهم في ثلاث صور .

المختصرات ، وتشمل تأليف مختصرات للعلوم ، أو فنون موجزة للعلوم المختلفة أو الكتب الجامعة التى سبقت في العلم ، ومنهم من يختار النظم ، على صورة الألفية في النحو ، والبديعيات في علم البديع ، والأراجيز المختلفة في التاريخ ، ومنظومات علوم القرآن والحديث .

ومنهم من يختار الاختصار غير المنظوم لكتب سابقيه أو لكتبه هو لتيسير الدرس على التلاميذ ، ونحظي في هذا العصر بكثير من المختصرات في علوم القرآن والقراءات والحديث والتاريخ وعلوم البلاغة .

والصورة الثانية صورة الشروح للمختصرات ، وهي شروح لكتب مطوله ، ومتون لغير المصنف ، على ما رأينا من شروح في اللغة أو في النحو للألفية كشرح ابن عقيل ، وشرح الأشموني مثلاً ، أو شروح للمصنف على كتاب اختصره كما فعل الخطيب القزويني في مختصره والشرح عليه في علوم البلاغة والمسمى «بالإيضاح».

ويتصل بالشروح والتعليقات والحواشي ، التذييلات ، ونجد في تراث العصر كثيراً من هذه الأمثلة على ما يرد في تراجم العلماء .

أما الصورة الثالثة فهي التأليف الجامع ، أو مانسميه نحن الآن بالكتب الجامعة Text Books في العلوم المختلفة ، ففي علوم اللغة . على سبيل المثال نجد المعاجم الجامعة مثل اللسان لابن منظور أو المعجم المحيط للفيروزبادي ، وفي علوم اللغة المزهر للسيوطي وفي علوم القرآن «البرهان » للزركشي و«الاتقان» للسيوطي . وفي التاريخ كتب التاريخ الجامعة مثل كتب ابن كثير ، وابن خلدون ، والمقريزي ، والنويري ، وابن فضل الله العمَّري ، والسيوطي والسخاوي .

ومهما يكن من أمر فإن الحركة العلمية في هذا العصر رغم ما شابه من اضطراب قد واصلت عطاءها ، وخلفت لنا ذخيرة وافرة من الكتب العديدة مختلفة الألوان والمناهج .

ولا نقول بطبيعة الحال أن كل ما جاءنا من هذا العصر مفيد وقيم ، بل نقول إنه يحوي فكر العصر ، وثمرة اجتهاده وبذله في شتى جوانب الفكر والمعرفة والأدب التأليفي والإنشائي . ولايخلو تراث العصر من بعض جوانب القصور ، والمآخذ ، فلم يكن كل المؤلفين ولا العلماء ممن يحرصون على روح العلم والنقد والتدقيق أو تحري الصدق والبعد عن الهوى ، بل كان بعضهم حاطب ليل ، وبعضهم من يميل الميل كُلَّه أو بعرضه ، يضمن بعض مصنفاته أهواءاً خاصة أو مذهبية عامة ، ويخفي أو يختلق ، وهذا كله يتضح لكل ذي بصيرة ومعرفة .

وإنما نعرض للعصر في جملته بما حملته لنا كتب التراث ، وعلينا بعد غربلته ، لنتعرف على الطيب فيه من الخبيث . وما هو أهل للعطاء واثراء المعرفة ، وما هو ليس كذلك فننبذه .

العلماء واتجاهاتهم

واشتهر كثير من العلماء في ضروب العلم المختلفة وخاصة في العلوم الإسلامية . ومن علماء القرآن والتفسير ابن الجزري .

محمد بن محمد بن الجزري (ت٨٣٣) عالم القراءات

نسبة إلى جزيرة ابن عمر قرب الموصل . درس القراءات على جماعة بدمشق ، ثم رحل إلي القاهرة فسمع عن جماعة كالأسنوي ، والبلقيني ، والبهاء السبكي ثم ذهب إلى الأسكندرية فقرأ على بعض أهلها كابن الدماميني .

واختص بالقراءات حتي جمع العشر ثم الثلاث عشرة ، وتصدر بجامع بني أمية ، ثم رحل إلى بلاد الروم ، فاتصل بملوك آل عثمان ، وقربه بايزيد خان وأكرمه فنشر بتركيا علم القراءات والحديث وانتفعوا به ، ثم دخل تيمورلنك بلاد الروم والتقى به ابن الجزري فصحبه إلى سمرقند ، فأقام بها منذ سنة ٨٠٥ هـ . وبعد وفاة تيمورلنك خرج إلى بعض بلاد خراسان ، وهراة ، واصبهان ، وشيراز ، وألزمه سلطانها بأن يلي القضاء ، ثم خرج إلى البصرة ، وجاور بمكة والمدينة سنة ٨٢٣ هـ وقدم دمشق سنة ٨٢٧ هـ وعاد إلى القاهرة واجتمع بالسلطان الأشرف فأكرمه .
وتصدى للأقراء والتحديث ، ثم غادر القاهرة إلى مكة واليمن وطاف مرة أخرى ببلاد المشرق ثم عاد إلى القاهرة .

وله تصانيف كثيرة نافعة منها : «النشر في القراءات العشر» في مجلدين و«التمهيد في التجويد» في ألف بيت ، ونظم «المقدمة فيما على قارية أن يعلمه» و«التوضيح في شرح المصابيح» و«البداية في علوم الرواية والهداية» في فنون الحديث و«طبقات القراء» في مجلد ضخم و«غايات النهايات في أسماء رجال القراءات» و«الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين» و«التعريف بالمولد الشريف» و«عقد اللآلي في الأحاديث المسلسلة الغوالي» و«المسند الأحمد فيما يتعلق بمسند أحمد» و «القصد الأحمد فيما يتعلق بمسند أحمد» و«القصد الأحمد في رجال

مسند أحمد » ، و« القصد الأحمد في ختم مسند أحمد » ، و« أسنى المناقب في فضل علي بن أبي طالب » ، و« الجوهرة في النحو » .

قال الشوكاني : « وقد تفرد بعلم القراءات في جميع الدنيا ونشره في كثير من البلاد ، وكان أعظم فنونه وأجل ما عنده » .

ومات بشيراز يوم الجمعة خامس ربيع الأول عام ٨٣٣ هـ (١).

ومن المفسرين :

ابن الديري سعد بن محمد بن عبد الله (٧٦٨ هـ)

وهو شيخ السخاوي . قال عنه : شيخنا القاضي سعد الدين شيخ المذهب وطراز علماء المذهب ، العالم الكبير ، وحامل لواء التفسير: النابلسي الأصل ، المقدسي الحنفي ، نزيل القاهرة .

تولى قضاء الحنفية بالقاهرة سنة ٨٤٢ هـ مباشرة بمهابة وصرامة وعفة ، وأحبه الناس .

وكان ذا عناية تامة بالتفسير ، لاسيما معاني التنزيل .

ولم يشغل نفسه بالتصنيف مع كثرة اطلاعه وحفظه ، ولذلك كانت مؤلفاته قليلة .

جلال الدين المحلي (٧٨٨ هـ - ٨٥٢ هـ أو ٨٦٤ هـ)(٢)

محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الشافعي .

اشتغل وبرع في الفنون فقهاً وكلاماً وأصولاً ونحواً ومنطقاً وغيرها .

قال السيوطي : وكان غرة هذا العصر في سلوك طريق السلف .

---

(١) البدر الطالع للشوكاني : ٢/٢٥٩ .

(٢) راجع ترجمته في البدر اللامع : ٤/٥٦ ، وصفحات لم تنشر لابن اياس : ص ٦٨ ، والضوء اللامع : ٧/٣٩ - ٤١ ، والنجوم الزاهرة : ٦٢٨ - ٦٣٨ ، وحسن المحاضرة : ١/٢٠٤ - ٢٠٥ .

ولي تدريس الفقه وبالمؤيدية والبرقوقية ، والشافعية ، والجامع المؤيدي وقرأ عليه جماعة ، وكان قليل الأقراء يغلب عليه الملل والسآمة .

وقال عنه السخاوي : «وتوجه لاستجداء من شاء الله من الرؤساء ونحوهم بحكايات ينمقها ويسردها بفصاحة عندهم ، مع ظرف ولطف واكثار لإدارة لسانه أوشفته ، وربما تستر باظهار ما يشبه الجنون مع كونه من العقلاء بحيث كان يقال : هما اثنان عاقل يتمجن ، ومجنون يتعقل ، ويعني هذا والبدر بن الشريدار .

وكانت له مع الشيخ ابن حجر العسقلاني مواقف .

قال السيوطي : «وكان متقشفاً في ملبسه ومركوبه ، ويتكسب بالتجارة ، ألف كتباً تشدُّ إليها الرحال . في غاية الأختصار والتحرير ، والتنقيح ، وسلاسة العبارة ، وحسن المزج والحل» ومنها : «شرح جمع الجوامع» في الأصول و«شرح بردة المديح» .

قال السيوطي: «وأجل كتبه التي لم تكمل (تفسير القرآن) كتب منه من أول سورة الكهف إلى آخر القرآن في أربعة عشر كراساً في قطع نصف البلدي . وهو ممزوج محررٌ في غاية الحسن . وكتب على الفاتحة وآيات يسيرة من البقرة . قال السيوطي : وقد أكملته على نمطه من أول البقرة إلى آخر الإسراء .

---

(١) راجع ترجمته في شذرات الذهب : ٦/ ٣٣٥ ، وأبناء الغمر : ١/ ٤٤٦ .

ومن علماء الدراسات القرانية

بدر الدين الزركشي
(٧٤٥ - ٧٩٤ هـ)

الإمام بدرالدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي - ولد بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ في عصر الدولة المملوكية الأولى ، وفي أوج ازدهار الدولة ، وعاصمتها القاهرة ، وعمرانها بكثير من العلماء ، والمدارس ودور الكتب ، ودكاكين الوراقة ، والورّاقين ، الذين ينسخون كتب العلماء ، والأدباء .

ونشأ نور الدين نشأة دينية ، كغيره من ناشئة العصر ممن دفع بهم آباؤهم إلي الكتاتيب ومساجد القاهرة التى تُعقد بها حلقات الدرس .

وهكذا انتظم بدر الدين في دروسه ، وتفقه علي مذهب الشافعي ، وحفظ بعض كتب أصول المذهب ، وكان في مقدمة ما حفظ ، وأكثر من العمل به كتاب المناهج للعلامة النووي ، ولهذا عرف بالمناهجي ، كعادة الناس مع أمثاله من العلماء ممن يكثرون القول والتعلق بكتاب بعينه حفظاً وتدريساً ، فينسبون إليه كالكافيجي مثلاً الذي نسب إلى كتاب الكافية لابي الحاجب لغرامه به .

وقد لزم بعض مشاهير عصره في الحديث كالشيخ جمال الدين الإسنوي مدرس الكاملية ، وتخرج على الشيخ سراج الدين البلقيني . وطمحت نفسه إلي أن يستزيد من العلم بالرحلة إلى الأعلام خارج القاهرة ومصر . فرحل إلى الشام ، والتقى بالحافظ ابن كثير بدمشق ، وبشهاب الدين الأذرعي بحلب .

وعاد إلي القاهرة بعد أن تزود بالعلم وتألق فيه ، وتأهل للتدريس ، والتأليف والفتيا . وألف من الكتب عديداً في مختلف الفروع التي تعلق بها وأتقنها من علوم القرآن والحديث والفقه ، والتاريخ والأدب .

ولم يتح له تأليف ذلك العدد الوفير من الكتب إلا ميله إلى الاعتكاف وتحصيل

العلم ، فقد ذكر ابن حجر في ترجمته : «وكان منقطعاً في منزله لايتردد إلى سوق الكتب ، وإذا حضر إليها لا يشتري شيئا ، وإنما يطالع في حانوت الكتبي طوال نهاره ، ومعه ظهور أوراق يعلق فيها ما يعجبه ، ثم يرجع فينقله إلى تصانيفه. »(١)

وهذا دليل على أنه لم يحصل من دنياه على ما يكفيه شراء ما يريد من الكتب . وقد ذكر أحد تلاميذه «أنه كان منقطعاً إلي الاشتغال بالعلم لا يشتغل عنه بشيء ، وله أقارب يكفونه أمر دنياه . »

وكان يكتب مصنفاته بنفسه ،ولم يكن خطه بالجيد مما صعّب مهمة قارئيها وناسخيها .وتولى من المناصب مشيخة خانقاه كريم الدين بالقرافة الصغرى .

وذكر مؤرخوه أنه كان رضيٍّ الخلق ، محمود الخصال ، عذب الشمائل متواضعاً ، رقيقاً، يلبس الخلق من الثياب ، ويرضى بالقليل من الزاد ، لا يشغله عن العلم شيء من مطالب الدنيا .

وله من الكتب ما يبلغ ثلاثة وثلاثين كتاباً ، بعضها مطبوع ، وبعضٌ لا يزال مخطوطاً ، وبعضه الآخر ذكره المؤرخون ولم يعرف مكانه ومن أشهر مؤلفاته المطبوعة :

كتاب البرهان في علوم القرآن وهو الذي شهر به ، وطبع محققاً (٢)

والإجابة لإيراد ما استدركته عائشه على الصحابة (٣)

وتشنيف السامع بجمع الجوامع (٤)

التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح (٥)

لقطة العجلان وبلة الظمآن في أصول الفقه والحكمة والمنطق (٦)

(١) الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة
(٢) قام بعمل تحقيقه وطبعه محمد أبو الفضل ابراهيم
(٣) طبع بدمشق بتحقيق سعيد الأفغاني
(٤) طبع في مجموع شروح جمع الجوامع بمصر سنة ١٣٢٢ هـ
(٥) طبع بالمطبعة المصرية بمصر سنة ١٩٣٣ م
(٦) طبع بمصر سنة ١٣٣٦ هـ مع تعليقات للشيخ جمال الدين القاسي .

وأما كتاب البرهان ،

فهو من الكتب العامة في علوم القرآن ، فقد جمع خلاصة ما قاله المتقدمون من كبار العلماء فيما يتصل بالكتاب الكريم ، وقسمه إلى سبعة وأربعين باباً يتناول كل ما يدور حول القرآن ومباحثه ، من أسباب التنزول ، ومناسبة الآيات والسور ، والفواصل ، والوجوه والنظائر ، والمتشابه ، والمُبهمات وأسرار الفواتح وخواتم السور ، ومعرفة المكي والمدني ، وأول ما نزل ، وعلى كم لغه نزل وكيفية إنزاله ، وحجمه ، ومن حفظه من الصحابة ، ومعرفة تقسيمه وأسمائه وما وقعُ فيه من غير لغة الحجاز ، وما فيه من لغة العرب ، وغريبه . ومعرفة التصريف والأحكام ، وتوجيه القراءات ، والوقف والأبتذاء ، ورسوم الخط ، وفضائله وخواصه ، وآداب تلاوته ، وهل يجوز في التصانيف والرسائل والخطب استعمال بعض آيات القرآن ، ومعرفة الأمثال الكائنة فيه ، ومعرفة أحكامه وناسخه ومنسوخه والمحكم والمتشابه ، وإعجازه ، وتواتره ، وبيان ..معاضدة السنة للكتاب، ومعرفة تفسيره ، وحقيقته ومجازه .. إلخ .

ويقول في ختام تعداده لهذه الأبواب :«وأعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لاستفرغ فيه عمره ، ثم لم يحكم أمره».

وأسلوبه جزل ، وعبارته عربية صحيحة . ومثاله ما قدم به لكتابه إذ يقول :

«الحمدُ لله الذى نوَّر بكتابه القلوب ، وأنَزلَهُ في أوجز لفظٍ وأعجز أُسلوب فأعيتْ بلاغتُه البلغاءَ ، وأعجزتّ حكمتُه الحكماءَ ، وأبْكَمَتْ فصاحته الخطباء. أحمدُه أن جَعَل الحمدَ فاتحة أسراره ، وخاتمة تصاريفه وأقداره .

وأشهد أن لاإله إلاالله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبُده ورسولُه المصطفى ونبيُّه المرتَضى ، الظافر من المحامد بالخصْل ، والظاهرُ بفضله على ذوى الفَضْل. معلِّمُ الحكمة ، وهادى الأمة ، أرسلَهُ بالنور الساطع ، والضياء اللامع صلى الله عليه وعلى آله الأبرار ، وصحبه الأخيار .

أمَا بعدُ ، فإنَّ أولَى ما أعْمِلَتْ فيه القرائح ، وعلقت به الأفكار اللواقح الفحص عن أسرار التنزيل ، والكشف عن حقائق التأويل الذى تقوم به المعالم ، وتثبتُ الدعائم . فهو العصمة الواقية ، والنعمة الباقية والحجة البالغة ، والدلالة الدامغة.

وهو شفاءُ الصدور ، والحكم العدْل عند مشتبهات الأمور . وهو الكلام الجزلُ ، وهوالفصل الذي ليس بالهزل . سراج لا يخبو ضياؤه ، وشهَابٌ لايخمدُ نورُه وسناؤه ، وبحرٌ لايدركُ غوره . بهرتْ بلاغتُه العقول ، وظهرتْ فصاحتُه على كلِّ مقول ، وتظافر إيجازهُ وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه . وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطبه ، وحوت كلَّ البيان جوامعه وبدائعه . قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه وقسم لفظه ومعناه إلى ما ينشط السامع ، ويقرّط المسامع من تجنيس أنيسٍ وتطبيق لبيق ، وتشبيه نبيه ، وتقسيم وسيم ، وتفصيل أصيل ، وتبليغ بليغ وتصدير بالحسن جدير ، وترديد ماله مزيد ؛ إلى غير ذلك مما أجرى من الصياغة البديعة ، والصناعة الرفيعة . فالآذان بأقراطه جالية ، والأذهان من أسماطه غير خالية ، فهو من تناسب ألفاظه ، وتناسق أغراضه قلادةَ . ذاتُ اتساق ومن تبتسُّم زهره ، وتنسُّم نشره حديقةٌ مبهَجَةٌ للنفوس والأسماع والأحداق كل كلمة منه لها من نفسها طرب ، ومن ذاتها عجب ،ومن طلْعتها غُرة ، ومن بهجتها درَّة ، لاحت عليه بهجة القدرة . ونزل ممن له الأمر ، فله على كل كلام سلطانٌ وإمرة يهُز تمكن فواصله ، وحسن تواصل أواخره وأوائله ، وبديع إشاراته ، وعجيب انتقالاته من قصص باهرة إلى مواعظ زاجرة وأمثالٍ سائرة ، وحكم زاهرةٍ وأدلة على التوحيد ظاهرة ، وأمثال بالتنزيه والتحْميد سائرة ، ومواقع تعجُّبٍ واعتبار ، ومواطن تنزيهٍ واستغفارٍ ، إن كان سياق الكلام تزجية بسَطْ . وإن كان تخويفاً قبضٌ ، وإن كان وعداً أبهج ، وإن كان وعيداً أزعج ، وإن كان دعوةَ جذب ، وإن كان زجرةً أرْهب . وإن كان موعظة أقلق ، وإن كان ترغيبا شوّق :-

هذا وكم فيـــه من مـزايـــا	وفي زواياه من خبـايـــا
ويطبع الحبر في التقـــاضي	فيكشف الخبر عن قضايا

فسبحان من ملّكه ينابيع القلوب ، وحرّفه أبدع معنى ، وأغرب أسلوب لا يُسْتقصى معانيه فهمُ الخلق ، ولا يحيطُ بوصفه على الإطلاق ذو اللسانِ الطَلْق ، فالسعيد من صرف همته إليه ، ووقف فكره وعزمه عليه ، والموفق من وفقه الله لتدبُّره ، واصطفاه للتذكير به وتذكُره ، فهو يرتع منه في رياض ، ويكرم منه في حياض :

أندى على الأكبادِ من بُردِ النَّدى   وألذُّ في الأجفانِ من مَنية الكرى

يملأ القلوب بشْراً ، ويبعث بالقرائح عبيراً ونشْرًا ، يحيى القلوبَ بأوراده ، ولهذا سمَّاهُ الله روحًا فقال : (يُلْقى الرَّوح من أمره على من يشاءُ من عباده) فسماهُ روحاً لأنه يؤدي إلي حياة الأبد ، ولولا الروح لمات الجَسَد . فجعل هذا الروح سبَبا للاقتدار ، وعَلماً على الاعتبار .

يزيدُ على طول التأمّل بهجــــةً   كأنَّ العُيُونَ النَّاظِرات صيَاقِــــلُ

وإنما يفهم بعض معانيه ، ويطَّلع علي أسراره ومبانيه من قوى نظره ، واتسع مجاله فى الفكر وتدبّرهُ ، وامتدَّ باعه ، ورقت طباعه . وامتدَّ في فنون الأدب وأحاط بلغة العرب . »

زين الدين العراقي

الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين (المتوفي سنة ٨٠٦ هـ)

ولد سنة ٧٢٥ بمنشأة المهراني بين مصر والقاهرة علي شاطيء النيل .

توفي أبوه وهو في الثالثة من عمره وكان جميل الصورة وعاش يتيماً ولكنه أحب العلم فأقبل عليه وحفظ القرآن صبياً في الثالثة من عمره ، ثم طلب الحديث وجالس الشيوخ وتفقه في العلم وأتقن القراءات والعربية (النحو) وانصرف إلى الحديث اتباعاً لنصيحة عز الدين ابن جماعة .

وتتلمذ علي أيدي جماعة من كبار العلماء في مصر والشام والحجاز .

وظل منصرفاً إلى العلم والتأليف طيلة عمره لايمل .

قال عنه السيوطي : «وعني بفن الحديث فبرع فيه وتقدم بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة كالسبكي والعلائي وابن كثير .

وشرع في إملاء الحديث من سنة ٧٩٦ هـ فأحيى الله به سنة الإملاء بعد أن كانت دائرة فأملى أكثر من أربعمائة مجلس .

وقد عده العلماء مجدد المائة الثامنة . وسجل ذلك السيوطي في أرجوزته «تحفة المهتدين بأسماء المجددين» وقد ألحقها برسالة «التنبئة فيمن يبعث الله على رأس المائة » قال (١) :

والثامن الحبر هو البلقيني أو حافظ الأنام زين الدين

ولي بعض الوظائف من تدريس وخطابة وقضاء في القاهرة والمدينة المنورة ، وقد رتبت له وظيفة مهمة وهي أنه عمل قارئاً يقرأ البخاري بحضرة السلطان بالقلعة(٢) .

---

(١) راجع مقدمة محمد الصباغ لكتاب «الباعث علي الخلاص من حوادث القصاص » مجلة أضواء الشريعة (كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود » العدد الرابع . جمادي ١٣٩٣ هـ .

(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٢ .

وحمل العراقي على المتصوفة وأخذهم ببعض أعمالهم وأقوالهم ، وألف في قصاصيهم كتاباً ينبه فيه إلى أكاذيبهم وضلالاتهم سماه : (الباحث علي الخلاص من حوادث القصاص) (١) مما دعا واحداً من أئمة الصوفية إلى الرد عليه وهو على بن وفا الشاذلي السكندري المتوفي سنة ٨٠٧ هـ في كتاب سماه : (الباعث على الخلاص من سوء الظن بالخواص) .

ومما قاله العراقي في مواجهة قصاص الصوفية :

« .. وليت شعري ماذا يلقون في هذه الأزمان على العوام ،يتكلمون في كلام الله بغير علم ، أو ما سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم من غير معرفة بالصحيح والسقيم أم في اختلاف العلماء ، فعمن أخذوا هذا العلم ؟!

ويدعي أحدهم أن الله علمه ما لا يعلمه غيره ، أيدَّعون وراثة الخضر ؟ ذاك الذي نص الله على علمه بقوله : ﴿ وعلمناه من لَدُنَّا علماً ﴾ (٢) . وقال هو : ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ (٣) . ولذلك يغلب علي الظن أنه نبي . وبه جزم ابن الصلاح في فتاويه فقال : وهو نبي ، فقد اختلف في رسالته ، وتبعه النووي على ذلك .

وإذا كان كذلك فالعلماء هم ورثة الأنبياء كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لا من يدعي دعاوي باطلة ، فيفسر أحدهم كلام الله على غير تأويله كما فعلت اليهود ، ويقول أحدهم علي النبي صلي الله عليه وسلم ما لم يقل .

وإن اتفق أنه نقل حديثاً صحيحاً كان آثماً في ذلك ، لأنه ينقل ما لا علم له به وإن صادف الواقع كان آثماً بإقدامه على ما لايعلم » (٤) .

العراقي يهاجم من الصوفية من ادَّعي علِماً لدُنِّيا بغير تعلم :

قال : «فلو امسكوا عن الكلام وآفاقه لكان خيراً لهم ، ولو علم الناس عندهم علماً شرعياً لقصدوهم له ، ولكنهم يدعون علماً بلا تعلم ، وإنما العِلْمُ بالتعلم».

---

(١) نشرة الأستاذ محمد الصباغ بمجلة أضواء الشريعة - العدد الرابع - ١٣٧٣بالرياض .
(٢) سورة الكهف الآية ٦٥ .
(٣) سورة الكهف الأية ٨٢ .
(٤) الاعث علي الأخلاص : ص ١٤٦ ، مجلة أضواء الشريعة .

وقال : «وإنما الاعتماد في هذا علي الاستقراء ، ما رأينا ولا أخبَرَنا مشايخنا ولا من قبلهم أحد أحداً ظهر له علم بغير تعلم».

وقد حارب العراقي بعض البدع التي سادت في العصر كالرؤي والمنامات وخاصة ما اتصل منها بالرسول (صلي) وأنه يجئ للشخص في النوم فيأمره وينهاه.

قال العراقي : «فإذا كانت الرؤيا مخالفة لما أمر به أو نهي عنه ، أو لما كان معهوداً في زمانه استدللنا بذلك علي أن الرؤيا فيها اختلال أو أنها تخيل ، قال الإمام أبو عبد الله المارزي : أنه لو رآه يأمر بقتل من يَحرُم قتله كان هذا من الصفات المتخيلة لا المرئية .

وأيضاً فلابد من اشتراط كون الرائي له من أهل الدين والعدالة ليميز بين الحق والباطل . فلو كان غير ثقة أو مجهول الحال لم نثق بقوله ، فإنه لو روي حديثاً في اليقظة من غير نوم لا يقبل قوله في هذه الحالة ، فكيف يقبل مع عدم الثقة به ، وانضم إلي ذلك أنه ليس من أهل التكليف في حالة نومه ، فلا يجب حينئذ عليه ما أدَّعي أنه أمره به ، ولا يحرم عليه ما أحل له» (١) .

واستعان في هجومه علي الصوفية بآراء بعض أعدائهم من العلماء أمثال : أبي حيان الأندلسي صاحب البحر المحيط في التفسير :

قال العراقي:

«وقد تعرض لذلك الامام العلامة أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي في تفسيره المسمي (البحر المحيط) في سورة الأعراف فقال :

وقد ظهر في هذا الزمان العجيب ناس يتسمون بالمشايخ يلبسون لباس شهرة عند العامة بالصلاح ويتركون الاكتساب ، ويرتبون لهم أذكاراً لم ترد في الشريعة يجهرون بها في المساجد ، ويجمعون لهم خداماً يجلبون الناس إليهم لاستخدامهم وجمع أموالهم . ويذيعون عنهم كرامات ، ويَرْوونَ لهم منامات يدونونها في أسفار ويحضون علي ترك العلم والاشتغال بالسنة ، ويرون أن الوصول إلي الله تعالي بأمور يقررونها من خلوات وأذكار لم يأت بها كتاب منزل ، ولا نبي مرسل ،

(١) المصدر نفسه : ص ٥٦ .

ويتعاظمون علي الناس بالإنفراد علي سجادة ونصب أيديهم للتقبيل ، وقلة الكلام ، وإطراق الرأس وتعيين خادم يقول : الشيخ مشغول في الخلوة . رسم الشيخ . قال الشيخ . الشيخ نظر إليك . الشيخ كان البارحة يذكرك . إلي نحو هذا اللغط الذي يخشون به علي العامة ، ويخلبون به عقول الجهلة .

هذا إن سلم الشيخ وخدامه من الاعتقاد الذي غلب الآن علي متصوفة هذا الزمان من القول بالحلول أو القول بالوحدة . فإذ ذاك يكون منسلخاً عن شريعة الإسلام بالكلية .

قال : والعجب لمثل هؤلاء كيف ترتب لهم الرواتب ؟ وتبني لهم الربط وتوقف عليهم الأوقاف ، ويخدمهم الناس مع عروهم عن سائر الفضائل . ولكن الناس أقرب إلي أشباهمم منهم إلي غير أشباههم .

قال العراقي : وقد أطلنا في هذا رجاء أن يقف عليه مسلم فينتفع به .

وقال الإمام أبو حيان في تفسيره في سورة الأنعام :

«لقد يظهر من هؤلاء المنتسبة إلي الصوفية أشياء من ادّعاء علم المغيبات والإطلاع علي علم عواقب أتباعهم ، وأنهم معهم في الجنة مقطوع لهم بذلك . يذكرون ذلك علي المنابر ولاينكره عليهم أحد ، هذا مع خلوهم عن جميع العلوم يدَّعون علم الغيب !

وقد كثرت بديار مصر هذه الخرافات ، وقام بها ناس صبيان العقول يُسَمَّون بالشيوخ . ثم أنشد خمسة أبيات من قصيدة له وهي :

عجزوا عن مدارك العقل والنقل	وأعْياهُمُ طِلابُ العُلُومِ
فارقموا يَّدعون أمراً عظيماً	لم يكن للخليل ول ولا الكليم
بينما المرء منهم في السَّفَالِ	أبصر اللوح ما به من رقومِ
فجني العلم منه غضاً طرياً	ودري ما يكون قبل الهجومِ
إن عقلي لَفِي عقالٍ إذا ما	أنا صدَّقْتُ بافتراءٍ عظيم

وفيما أشرنا إليه في ذلك كفاية . فيجب علي ولاة أمور المسلمين منع هؤلاء من

الكلام علي الناس حتي تتبيَّن أهليتهم لذلك عند العلماء الراسخين . فذلك من النصيحة لله ولرسوله ولولاة أمور المسلمين . والله يعصمنا من اللغو في القول والعمل أجمعين . والحمد لله رب العالمين».

وللعراقي بعض الآراء الجيدة في التفسير والمفسرين منها قوله :

« .. ولو نظر أحدهم في بعض التفاسير المصنفة لايحل له النقل منها ، لأن كتب التفسير فيها الأقوال المنكرة والصحيحة ، ومن لا يميز منكرها من صحيحها لا يحل له الاعتماد علي الكتب».

ويقول : «وأيضاً فكثيرمن المفسرين ضعفاء كمقاتل بن سليمان ، والكلبي والضحاك بن مزاحم ، وكذا كثير من التفاسير المنقولة عن ابن عباس لاتصح عنه لضعف من رواتها ».

ويقول «وليت شعري كيف يقدم من هذا حاله علي تفسير كتاب الله ، وأحسن أحواله أنه لا يعرف سقيمة من صحيحه ، بل يزيد أحدهم فيحدث نفسه أقوالاً لو نقلت عن المجانين لاستقبحت منهم».

وأخذ عليه وتخرج به كثيرون من علماء القرن التاسع علي رأسهم ابنه ولي الدين بن أبي زُرعة والحافظ ابن حجر العسقلاني».

اهتم بتخريج أحاديث «إحياء علوم الدين» للغزالي فألف فيه ثلاثاً من كتبه: مطولاً ، ومتوسطاً ومختصراً اسمه «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار» وبقي المختصر . قال في مقدمته :

«فلما وفق الله تعالي لإكمال الكلام علي أحاديث أحياء علوم الدين في سنة احدي وخمسين (٧٥١ هـ) تعذر الوقوف علي بعض أحاديثه فأخرت تبييضه إلي سنة ستين وسبعمائه (٧٦٠ هـ) فظفرت بكثير مما عزب عني علمه ، ثم شرعت في تبييضه في مصنف متوسط حجمه ، وأنا مع ذلك متباطئ في إكماله غير متعرض لتركه وإهماله بأكثر ما كنت لم أقف عليه ، وتكرر السؤال من جماعة في إكماله ، فأجبت وبادرت إليه ، ولكنني اختصرته في غاية الاختصار ، ليسهل تحصيله وحمله في الاسفار ، فاقتصرت علي ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه .. إلخ» .

٢- ومنها كتاب تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد في أحاديث الأحكام(١)

٣- الذيل علي الميزان.

٤- الذيل علي العبر للذهبي من سنة ٤١ هـ إلي سنة ٧٦٣ هـ وذيل عليه إبنه أبو زرعة.

٥- الأحاديث المخرجة في الصحيحين التي تكلم فيها بضعف وانقطاع.

٦- إحياء القلب الميت بدخول البيت .

٧- المورد الهني في المولد السني.

٨- محجة القرب إلي محبة العرب.

٩- أنفع القرب في بيان فضل العرب (٢) .

١٠- الانصاف وهو كتاب في المراسيل ، وهو من آخر ما صنف .

١١- قرة العين بوفاء الدين . وهو آخر مؤلفاته . وقد حدّث به مراراً .

١٢ - قرة العين بالمبرة لوفاء الوالدين.

١٣- الاستعاذة بالواحد من إقامة جمعتين في مكان واحد.

١٤- ترجمة الأسناني.

١٥- تفضيل زمزم.

١٦- مسألة الشرب قائماً.

١٧- الجواب عن سؤال يتضمن تاريخ تحريم الربا .

١٨- معجم مشتمل علي تراجم جماعة من أهل القرن الثامن.

١٩- الألفية في أصول الحديث وتسمي «التبصرة والتذكرة في علم الحديث» وقد يدعونها ألفية مصطلح الحديث . فرغ منها سنة ٧٦٨ هـ .

---

(١) طبع الكتاب بعناية محمود ربيع بمطبعة جمعية النشر والتأليف والترجمة الأزهرية بمصر سنة ١٣٥٢ هـ في ١٧٦ صفحة .

(٢) مطبوع بالهند .

٢٠- «الباعث علي الخلاص من حوادث القصاص».

٢١- ذيل الذيل لوفيات الأعيان لابن خلكان.

٢٢- شرح التقريب . شرح فيه الأحاديث التي جمعها في «تقريب الأسانيد».

٢٣- العدد المعتبر في الأوجه التي بين السور.

٢٤- فتح المغيث بشرح ألفية مصطلح الحديث . فرغ من هذا الكتاب سنة ٧٧١ هـ (١)

٢٥ - ألفية العراقي في غريب القرآن (٢).

٢٦ - ومجموعة أعمال له في الأربعين النووية ، وغلاء السعر وتغيير السكة وغيرها من الموضوعات (٣).

وبعد وفاته رثاه الحافظ ابن حجر.

قال السيوطي إنه أنجب إبنه أبا زرعة ولي الدين أحمد ، وقد اشتهر مثله وبرع في الفنون ، وألف الكتب المشهورة ، وأملي أكثر من ستمائه مجلس وولي قضاء الديار المصرية وتوفي سنة ٨٢٦ هـ (٤).

والقسطلاني : أحمد بن محمد بن أبي بكر (٥)

ولد سنة ٨٥١ هـ وتوفي سنة ٩٢٣ هـ.

المصري الشافعي . ولد بمصر ونشأ ، فحفظ القرآن والشاطبيتين ، وصنف الطَّيِّبة (طيِّبة للنشر) والجزرية ، والوردية في النحو ، وتلا بالسبع علي السراج عمر بن قاسم الأنصاري الساوي .

---

(١) طبع مع شرح آخر للألفية للسخاوي في كلكتا بالهند سنة ١٣٠٣ هـ وطبع بمصر في أربعة أجزاء بتحقيق للأستاذ محمود ربيع .

(٢) طبعت بهامش التيسير في علم التفسير للديريني .

(٣) راجع مجلة أضواء الشريعة : ص ١٠٤

(٤) حسن المحاضرة : ١٥١ - ١٥٣ .

(٥) البدر الطالع : ١/٩٠ - ٩١ ، ١٠٣ .

وذهب إلي الحجاز فجاور بمكة سنة ٨٨٤ هـ وسنة ٨٩٤ هـ وسمع بها عن جماعة وجلس للوعظ بالجامع العمري . ألف مجموعة من الكتب في القراءات بينها :

العقود السنية في شرح المقدمة الجزرية ، وشرح الشاطبية ، ومشارق الأنوار المضية في مدح خير البرية ، وتحفة السامع والقارئ بختم البخاري.

واشتهر له كتاب «إرشاد الساري علي صحيح البخاري» في أربعة مجلدات . وشرح صحيح مسلم له . أوله ولم يكمل .

وبعث إليه بعض الملوك في طلب شرحه علي البخاري . وبعث إليه سلطان المغرب أبو فارس عبد العزيز الحفصي يستدعيه ، فجهز له ما كمل من كتابه ، وكان السلطان يجزل العطاء للعلماء.

وقضي القسطلاني زمناً في تكملة شرحه الكبير علي البخاري ، وكان يوالي قراءاته ، وبعد انتهائه من تأليفه وشرحه وقراءاته وإملائه أو لم وليمة عظيمة بالمكان الذي بناه المؤيد خارج القاهرة زمن الظاهر جقمق يوم السبت ثامن شعبان سنة ٨٤٢ هـ وقرأ المجلس الأخير هناك .

قال الشوكاني : وكان للمترجم له يد طولي في الشعر ، وقد أورد منه جماعة من المصنفين أشياء حسنة جداً كابن حجة في شرح البديعية وغيره .

وهم معترفون بعلو درجته بعد ذلك .

ابن قدامة المقدسي : محمد بن أحمد بن ابراهيم:

(ولد سنة ٦٨٤ وتوفي سنة ٧٨٠ هـ)

قال عنه ابن حجر في أنباء الغمر (١) : مسند الدنيا في عصره.

أسمع الحديث أكثر من خمسين سنة . وقد أجاز لأهل مصر خصوصاً من عموم. قال ابن حجر : فدَخلْنا في ذلك».

(١) أنباء الغمر : ١٨٦/١ .

ومن فقهاء العصر

الدميــــري : شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الدميري ثم الفوّي المالكي . ولد بقوة سنة ٧٨٥ هـ وتوفي سنة ٨٤٢ هـ .

تولي قضاء المالكية وناب عنه ابن خلدون في الحكم سنة ٨٠٤ هـ وتولي التدريس بعدد من مساجد القاهرة ومدارسها كالمدرسة الشيخونية وجامع الحاكم ، والمدرسة الفاضلية ، وأعاد بالحسنيَة (مسجد السلطان حسن) . ولم يشغل نفسه بالتصنيف.

وأقرأ في الشيخونية وشرح الألفية لابن عقيل ، وكان بين تلاميذه كمال الدين السيوطي .

وكان سريع الحفظ ، كبير الاهتمام بالعربية والمعاني والبيان ، يقول الشعر ، ويحفظ كثيراً من الأدب والتاريخ والشعر والنوادر .

وكان حلو النادرة فكه المحاضرة ، سريع الجواب . بليغ القول ، جيد الاستحضار لما يرويه (١).

ابن خلـــدون :

من فقهاء المالكية جاء في عصر الظاهر برقوق سنة ٧٨٧ هـ وتولي القضاء أكثر من مرة ثم عزل ، وعرف بالتاريخ أكثر من شهرته في مجال الفقه والقضاء (٢).

ابن رجب البغدادي الحنبلـــي :

عبد الرحمن بن أحمد بن رجب توفي سنة ٧٩٥ هـ من فقهاء الحنابلة ، كان صاحب عبادة وتهجد ، ناظر بمقالات ابن تيمية ثم أظهر الرجوع عن ذلك فنافره

---

(١) الذيل علي رفع الإصر : ٨٩ - ٩٤ .

(٢) أبناء الغمر : ١/ ٣٠٠ وما بعدها .

التيميون ، فلم يكن مع هؤلاء ، و،كان قد ترك الإفتاء بآخره . وعاش بدمشق وعلّم بها .

قال ابن حجر : وتخرج به غالب أصحابنا الحنابلة بدمشق .

صنف طبقات الحنابلة الذي ذيل به طبقات أبي يعلي .

وصنف شرح الترمذي في نحو عشرين مجلدة ، وشرح قطعة كبيرة من البخاري وشرح الأربعين حديثاً للنووي في مجلدة ، و«وظائف الإمام» وسماه «اللطائف».

القونوي :

شمس الدين محمد بن يوسف بن إلياس الحنفي (١) . ولد سنة ٧١٥ هـ وتوفي سنة ٧٨٨ هـ . أخذ عن التبريزي . وأقام بالمزة بدمشق . وكان تقي الدين السبكي يبالغ في تعظيمه .

ابن الملقن :

عمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله السراج (توفي سنة ٨٠٤ هـ) (٢) . ولد سنة ٧٢٣ هـ بالقاهرة وكان أصل أبيه من الأندلس فتحول منها إلي التكرور ، ثم قدم القاهرة ، ثم مات بعد أو ولد له صاحب الترجمة بالقاهرة بسنة.

ودرس علي جماعة من القاهرة كالتقي السبكي والعز بن جماعة وأبي حيان وابن هشام .

واشتغل بالحديث والفقه واللغة والنحو .

قال الشوكاني : رزق الإكثار في التصنيف حتي يقال أن مصنفاته بلغت ثلاثمائة مجلدة ما بين كبير وصغير .

قال ابن حجر : إن العراقي والبلقيني وابن الملقن كانوا أعجوبة ذلك العصر وله من الكتب المشهورة : جمع الجوامع في فقه الشافعية . والمقنع في علم الحديث وشرح ألفيه ابن مالك .

---

(١) أبناء الغمر : ١/ ٣٢٨ .
(٢) الشوكاني : ١/٩. ٥ .

البلقيني: سراج الدين عمر (ت ٨٠٥ هـ)

سراج الدين عمر بن رسلان بن يصير (المتوفي سنة ٨٠٥ هـ) . ولد سنة ٧٢٤ هـ عاش بالقاهرة ، وكان شافعياً ، حفظ القرآن وهو ابن سبع وحفظ الشاطبية ، والمحرر والكافيه ، والشافية ، والمختصر الأصلي ثم أقدمه أبوه إلي القاهرة وهو ابن اثنتي عشرة سنة فعرض محافيظه علي جماعة كالتقي السبكي والجلال القزويني . وفاق بذكائه وكثرة محفوظاته وسرعة فهمه ثم رجع به أبوه ، ثم عاد معه وقد ناهز الاحتلام فاستوطن القاهرة وقرأ علي أعيان العلماء في الفنون كالشيخين المتقدمين والعز بن جماعة ، وابن عدلان وسمع من خلق ، وأجاز له الأكابر.

ومما يحكي من حفظة أنه أول مادخل الكاملية طلب من ناظرها بيتاً فامتنع واتفق مجئ شاعر الناصر بقصيدة وأنشده أياها بحضرة صاحب الترجمة ، فقال للناظر : حفظتها . فقال له إن كان كذلك أعطيتك بيتاً فأملاها له من حفظة جميعاً. فأعطاه البيت ، وما زال يطلب العلم علي علماء القاهرة حتي برع في جميع العلوم ، وفاق الأقران ، وتفرد بكثير من المعارف.

خرج من القاهرة إلي الشام ودخل حلب صحبة الظاهر برقوق سنة ٧٩٣ هـ وأخذ بها عن جماعة من العلماء.

وعين بقضاء عصره غير مرة ولم يتم ، مع كونه في ذلك يترفع عنه ، ويجلس فوق كبار القضاة ، بل ولي ابنه علم الدين صالح في حياته .

شاع ذكر البلقيني في الممالك ، وعظمه الأكابر فمن دونهم ، وأثني عليه أكابر شيوخه . وأشادوا به : قال ابن حجر : كان أحفظ الناس لمذهب الشافعي .

تصدر للفتيا والتدريس فكثرت طلبته وصاروا شيوخاً في حياته ، وله تصانيف كثيرة لم تتم ، لأنه يبتدئ كتاباً فيصنف منه قطعة ثم يتركه.

وكان يتكلم عن الحديث الواحد من بكرة إلي قريب الظهر .

وكان يتعاطي نظم الشعر فيأتي بما يُستحي منه ، بل قد لايقيم وزنه .

قال ابن حجر : وكانت آلات الاجتهاد فيه كاملة.

وابنه علم الدين البلقيني : صابر بن عمر

ولد سنة ٧٩١ هـ وتوفي سنة ٨٦٨ هـ .

أخذ الفقه عن والده وأخيه ، والنحو عن الشنطوفي ، والأصول عن العز بن جماعة ، ولي مشيخة الخشابية ، والتفسير بالبرقوقية بعد أخيه ، وتدريس الشريفية ، والحديث بمدرسة قايتباي .

تولي القضاء الأكبر سنة ٨٢٦ هـ وتفرد في الفقه وأخذ عنه الجم الغفير . ألف تفسير القرآن .

قال السيوطي : قرأت عليه الفقه وأجازني بالتدريس . وحضر تصديري (١).

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي : ص ١٨٩ ، والضوء اللامع : ٣ ٣١٤ .
اختلف في لقبه مع أبيه بين سراج الدين وعلم الدين .

ابـن جماعـة

وسمي بهذا الاسم أكثر من واحد أشهرهم اثنان من كبار الفقهاء . أحدهما إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد (ولد سنة ٧٢٥ هـ وتوفي سنة ٧٩٠ هـ).

الكناني الحموي الأصل ، ثم المقدسي تولي قضاء الديار المصرية والديار الشامية ، قال عنه ابن حجر : كان حسن الإلقاء لدروسه ، محباً في الحديث وأهله ، كثير الإنصاف والاعتراف ، قوياً في أمر الله . وكان قوالاً بالحق ، متعلماً لحرمات الشرع ، مهاباً ، محباً في السنة وأهلها . ولم يأت بعده له نظير ولا قريب من طريقته.

وخلف من الكتب النفسية - كقول ابن حجر - ما يعز اجتماع مثله ، لأنه كان مغرماً بها (١).

وابن جماعة : محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز (توفي سنة ٨١٥ هـ)

الأستاذ العلامة المفتن الحموي الأصل ، الشافعي الأصولي ، المتكلم الجدلي النظار ، النحوي اللغوي ، البياني ، الخلافي ، استاذ الزمان ، وفخر الأوان ، الجامع لأشتات جميع العلوم.

قال ابن حجر :

وكان من العلوم بحيث يُقضي   له في كل فن بالجميع

ترجم نفسه في كراسة سماها «ضوء الشمس في أحوال النفس» ذكر أن مولده بالينبوع سنة ٧٥٩ هـ .

أخذ عن خلدون والحلاوي والتاج السبكي وأخيه البهاء السبكي والسراج البلقيني ، وغيرهم . واتقن العلوم ، وبرع في سائر الفنون حتي صار المشار إليه في الديار المصرية في فنون المعقول وتفاخرُ به علماء العجم في كل فن والعيال عليه .

---

(١) انباء الغمر : ١ / ٣٥٥ ، والدر الكامنة : ١ / ٣٨ .

وأقرأ وتخرج عليه طبقات من الخلق ، وكان أعجوبة زمانه في النظر .

وليس له في التأليف حظ مع كثرة مؤلفاته التي جاوزت الألف ، فإن له على كل كتاب أقرأه التأليف والتأليفين والثلاثة ، وأكثرها من شرح مطول ومتوسط ومختصر وحواش ونكت ، وغير ذلك . سمع على جده والقلانسي . وقد أجاز له أهل عصره مصراً وشاماً.

وكان ينظم شعراً عجيباً غالبه بلا وزن !

وكان متنحياً عن بني الدنيا ، تاركاً للتعرض للمناصب ، باراً بأصحابه ، مبالغاً في إكرامهم ، يمشي بين العوام ويقف على حلق المشاقفين ونحوهم .

وكان يعرف علوماً عديدة ، منها الفقه والتفسير والحديث والأصلان والجدل والخلاف والنحو والصرف والعالي والمعاني والبيان والبديع والمنطق والهيئة والحكمة والزيج والطب والفروسية والرمح والنشاب والدبوس والثقاب والرمل وصناعة النفط والكيمياء وفنون آخر .

وعنه أنه قال : أعرف ثلاثين علماً لا يعرف أهل عصري أسماءها.

وله في النحو حاشية على الألفية لابن الناظم ، وحاشية على شرح التوضيح لابن هشام ، وحاشية على المغني .

وله في المعاني والبيان : مختصر التلخيص ، وحاشية على شرح التلخيص للسبكي ، وثلاث حواش على المطول ، وحاشية على المختصر .

وأخذ عنه جماعة منهم شمس الدين القاياتي والمحب الأقصرائي ، والحافظ ابن حجر وعلم الدين البلقيني شيخ السيوطي (١).

---

(١) بغية الدعاة للسيوطي : ص ٢٧ .

الديـــري

سعد الدين سعد بن محمد بن عبد الله الديري

(٧٦٨ - ٨٦٧هـ)

قال ابن إياس شيخ الإسلام ، علامة عصره ، قاضي القضاة ، الحنفي .

كان إماماً فاضلاً ورعاً ، زاهداً ماهراً في الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك من العلوم . وانتهت إليه رياسة الحنفية بمصر ، وكان معظماً عند الملوك والسلاطين . وأخذ العلوم عن والده وغيره ، وجدّ في العلوم حتي رجح علي أبيه.

ولي قضاء الحنفية مدة طويلة نحواً من أربعين سنة ، وكذلك مشيخة الجامع المؤيدي بعد أبيه ، واستمر بالقاهرة يدرس بها ويفتي ويفسر القرآن.

وصنف الكتب الجليلة في العلوم الدينية .

ولما مات دفنه السلطان في تربته تبركاً به ، ومات وهو منفصل عن القضاء . ورثاه الشهاب المنصوري بقوله :

دع الأيام تعجب والليالي ... فظل نعيمهن إلي زوال

قصاري عيشهن إلي فناء ... وغاية أهلهن إلي إنتقال (١)

وروي له نظم كغيره من الفقهاء .

القاياتـــي :

شمس الدين محمد بن علي

قاضي القضاة ، علامة الديار المصرية والمرجع إليه في غالب العلوم النقلية والعقلية . ولد سنة ٧٨٠ هـ أو سنة ٧٨٥ هـ وتوفي سنة ٨٥٠ هـ .

وولي مشيخة عدة مدارس بالقاهرة (١).

(١) بغية الدعاة للسيوطي : ص ٢٧

المناوي : شرف الدين يحيي بن محمد (٢).

شيخ الإسلام . ولد سنة ٧٩٨ هـ ، وتوفي سنة ٨٧١ هـ .

لزم الشيخ ولي الدين العراقي ، وتخرج به في الفقه والأصول ، وسمع الحديث عليه وعلي الشرف بن الكويك ، وتصدي للأقراء والافتاء ، وتخرج به الأعيان ، وولي تدريس الشافعي وقضاء الديار المصرية .

وله تصانيف منها : «شرح مختصر المزني».

شمس الدين البساطي :

محمد بن أحمد بن عثمان بن مقدم بن علم (توفي ٨٣٤ هـ) . ولد في بساط من بلاد الغربية بمصر سنة ٧٦٠ هـ وقدم القاهرة وتفقه بها حتي عُدَّ من الأئمة (٣).

زكريا الأنصاري (٤) :

الأزهري الشافعي القاضي السنبكي . ولد سنة ٨٢٦ هـ بسنبكة بالشرقية ونشأ وحفظ القرآن وتعلم ببلبيس ، وتحول إلي القاهرة سنة ٨٤١ فقطن الأزهر وأتم علومه به ، أخذ علي كثير من شيوخ العلم في عصره مثل القاياتي والكافيجي والشمني والزين البوتيجي وابن حجر العسقلاني وشرف الدين السبكي .

وحفظ من الكتب المتدارسة في عصره ، المختصر في فقه الشافعية والمنهاج وألفيه ابن مالك في النحو والشاطبيتين.

وجد في الطلب وقرأ في جميع الفنون ، وأذن له شيوخه بالافتاء والتدريس ،

---

(١) نظم العقبان : ١٥٤ ، والسخاوي ٢٥٨

(٢) حسن المحاضر : ١٨٩ .

(٣) ترجمته في الذيل علي رفع الإصدار من ٢٣٠ - ٢٣٨

(٤) ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي ٣ / ٢٣٤ ، البدر الطالع ٢٥٢/١

فتصدر وافتي وأقرأ . وصنف التصانيف . منها : فتح الوهاب بشرح الآداب ، وغاية الوصول في شرح الفصول ، وشرح الروض مختصر الروضة لابن المغزي ، وله حاشية علي شرح البهجة للولي العراقي ، وشرح شذور الذهب . وله شروح ومختصرات في كل فن من الفنون .

وولي عدة وظائف ودرس في عدة مدارس .

وزاد في الترف وحسن الطلاقة والتُّقي ، مع كثرة حاسديه .

وتقدم عند السلطان الأشرف قايتباي حتي ولاه القضاء سنة ٨٨٦ هـ وكثر توسل الناس به إليه . وباشر القضاء بعفة ونزاهة ثم عزل سنة ٩٠٩ هـ ثم عرض عليه بعد ذلك فأعرض عنه لكف بصره . وبقي في محله واشتهرت مصنفاته ، وكثرت تلامذته وتوفي سنة ٩٢٦ هـ .

السخاوي فقيهاً محدثاً

شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (توفي سنة ٩٠٢ هـ)

بُعدّ من محدثي العصر (١) وقد أخذ عن شيخه محدث العصر العلامة ابن حجر العسقلاني . وقد لازمه وتعلق به . وكان حريصاً علي حضور دورس الحديث منذ نعومة أظفاره .

وقد أعانه علي ملازمة ابن حجر قرب منزله منه . فكان لايفوته مما يقرأ إلا النادر ، وانفرد عن سائر تلاميذ ابن حجر بأشياء .

وعند وفاة ابن حجر كان عمر السخاوي واحداً وعشرين عاماً ، شاباً في مقتبل العمر .

وواصل بعد وفاة شيخه الجلوس إلي كبار المحدثين والشيوخ مثل جمال الدين ابن هشام الحنبلي ، وصالح البلقيني ، وشرف الدين المناوي ، والشمني ، وابن الهمام.

وبلغ عدد شيوخه أربعمائة شيخاً ، جمعهم في مؤلف وترجم لها .

وحفظ من الحديث ما صار به متفرداً عن أهل عصره.

وأملي الحديث ، ودرَّسه ببعض مدارس مصر وخاصة بدار الحديث الكاملية.

وألف في الحديث مجموعة مصنفات منها ما خرجه لجماعة من شيوخه و «التذكرة» و «تخريجة الأربعين حديثاً النووية» . و «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» في مجلد ضخم و «شرح التقريب للنووي» في مجلد ، و «بلوغ الأمل في تلخيص كتاب الدارقطني في العلل و «شرح الشمائل للترمذي» في مجلد . و«القول المفيد في ايضاح شرح العمدة لابن دقيق العيد».

وقد نال في حياته من الشهرة والمنزلة في علم الحديث ما دعا كثيراً من الناس إلي قصده والأخذ عنه . وأشرف علي السبعين من عمره . وانتهت إليه الرياسة في

---

(١) ترجمنا له في المؤرخين ترجمة تفصيلية .

الحديث في أخريات القرن التاسع وأوائل القرن العاشر حتي عام وفاته وقيل إنه فاق في علم الحديث شيخه العلامة ابن حجر (١) . نقل الشوكاني قول أحد تلاميذه : « .. والله العظيم لم أر في الحفاظ المتأخرين مثله . ويعلم ذلك كل من أطلع علي مؤلفاته أو شاهده » . وقال : «ولا أعرف الآن من يعرف علوم الحديث مثله ، ولا أكثر تصنيفاً ولا أحسن » وله اليد الطولي في المعرفة بأسماء الرجال وأحوال الرواة ، والجرح والتعديل . وإليه يشار في ذلك .

ولقد قال بعض العلماء : لم يأت بعد الحافظ الذهبي مثله من سلك هذا المسلك ، وبعده مات فن الحديث .

وإن كان لنا أن نعقب بكلمة علي سيادة علم المحدثين والفقهاء ممن يغلبون الأخذ بالحديث والسنن وما ترامي إليهم من أنباء السلف صحَّت أم كذبت ، إن كان لنا ما نعقب به فإنما نقول إن استغراق العلماء في هذا التيار جعلهم يغمضون أعينهم عن كل مستجد حولهم ، فقد أخذت الأمم من حول العالم الإسلامي علم المسلمين وتجاربهم الحضارية والعقلية في القرون الإسلامية الزاهرة الثالث والرابع والخامس والسادس ليبنوا عليه حضارة جديدة تطورت ، وتدعمت باكتشافات العقل الإنساني المتحرر من قيد رجال الدين السلفيين وعلي عكس ذلك كان المسلمو ن ، فقد طلقوا الأخذ بالعلم التجريبي وحاربوا الفلاسفة وتعقبوا المفكرين والمناطقة وجعلوا طلب العلم قاصراً علي العلم الديني ، فحصروا دائرة العقل وقيدوه بما استحدثوا من أوهام ، وما ترامي إليهم من علم نقلٍ فغيب العلماء بهذه الاحاجي المنقولة عن واقعهم ومستقبلهم واستغرقهم علم السلف ، وظنوا أنه علم مُلهَمُ صحيح وكل علم دونه باطل محدث فتخلفوا وأظلمت العقول ، ولم يقتصر هذا علي عصرهم ، بل نقل هذا الظلام إلي عصرنا لأن العلم الديني ظل في تلك الدائرة المغلقة التي أغلقها عليه علماء هذه العصور - عصر الأيوبيين والمماليك فالعثمانيين.

---

(١) الشوكاني : ٢ / ١٨٤ .

الفصل الثاني

التاريخ والمؤرخون



التاريخ والمؤرخون

كان لعلم التاريخ أهميته في هذا العصر ، لاعتبارات في المجتمع الإسلامي قال روزنتال : «ذكر أخوان الصفا أن الزهاد والعباد والمذكرين للناس بأمر الآخرة وذكر المعاد يحتاجون إلي أمور منها النظر إلي آثار القرون الماضية والاعتبار بها ، والدور الخربة والمنازل الدارسة العافية للأمم الخالية ، والنظر في كتب الحكماء وأخبار سير الملوك الماضية ، والتفكير في الأمثال المضروبة علي ألسنة الحكماء ذوي التجربة في وصفهم الدنيا ، واعتبارهم تصاريف الزمان ونُوبَ الحدثان والتلقين بأمر المعاد ، وشدة الاشتياق إلي نعيم الآخرة دار القرار».

ويتأكد هذا المعني في تسمية ابن خلدون لكتابه المشهور في التاريخ بكتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وفي خطط المقريزي المسماة «بالمواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار».

ويتصل علم التاريخ بالدين من جانب آخر ، هو قصص الأنبياء وأخبار الرسل وعلاقة ذلك بالتفسير ، ثم تاريخ الرجال وعلاقته بالحديث ، وذكر ابن حزم التاريخ بين العلوم المتصلة بعلم الشريعة في كتابه «مراتب العلوم» وعدّ الفخر الرازي التاريخ من العلوم الخادمة للدين وعلوم الشرع ، وجعله العلم الثالث عشر في كتابه «جامع العلوم» (١).

ومن هنا كان الاهتمام بالتاريخ في هذا العصر ، وظهر جماعة من كبار المؤرخين في التاريخ العام أو تاريخ الدول ، أو الأشخاص من الملوك والسلاطين أو تراجم العلماء والمشايخ والأولياء.

---

(١) راجع مقدمة روزنتال في كتابه عن التاريخ عن المسلمين من ١٨ - ٥٥ .

كتابة التاريخ

مناهجه وأساليبه:

تعددت أساليب الكتابة التاريخية في هذا العصر . وتعددت مناهجه وقد استمرت الاتجاهات التي كانت سائدة من قبل في كتابة التاريخ ، التاريخ العام ككتاب تاريخ ابن خلدون وتاريخ المقريزي السلوك ، والمقفي ، والتاريخ الخاص بدولة أو أقليم ، كتاريخ المقريزي عن خلفاء الفاطميين . وتاريخ ابن تغري بردي عن مصر والقاهرة ، والسيوطي في حسن المحاضرة ، وهناك تاريخ أحد الملوك أو السلاطين ، أو تاريخ دولة من الدول . وقد كثر هذا النوع وتعددت صوره في دولتي المماليك . واهتم المورخون بتدوين تاريخ السلاطين ومن أشهر هذه الكتب في هذا العصر تاريخ «الملك الناصر محمد بن قلاوون» لشمس الدين الشجاعي (١) و «إنباء الهَصْر بأبناء العصر» للمؤرخ علي بن داود الجوهري الصيرفي (٢) ويؤرخ فيه لعصر السلطان قايتباي من سنة ٨٧٣ هـ . وتاريخ ابن حبيب عن المنصور قلاوون وبنيه .

وقد يكون التاريخ متعلقاً بالعصر دون اختصاص ملك بعينه ، يؤرخ فيه مؤلفه لمرحلة حياته ، وما دار فيها من أحداث ، ومن اشتهر من العلماء ، ومن بقي منهم ، ومن ذكر وفياتهم ، ومثاله كتاب «إنباء الغمر بأبناء العصر» ويؤرخ فيه لمرحلة حياته منذ ولادته عام ٧٧٣ هـ .

وواصل المؤرخون التاريخ للأفراد ، ومنهم من جعل تاريخه عاماً بوفيات قرن بعينه ، كابن حجر في «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة و السخاوي في «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» ، والشوكاني في «البدر الطالع» فيمن نبغ بعد القرن السابع.

ومنهم من خص جماعة بعينها من القضاة ، أو العلماء في فرع من العلوم كما

---

(١) حققته وترجمته إلي الألمانية برباره شيفر ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ وأصدره المعهد الألماني لأثار بالقاهرة .

(٢) تحقيق الدكتور حسن حبشي - طبع دار الفكر العربي ١٩٧٠ .

فعل ابن حجر في «تاريخ القضاة» ، والسيوطي في «بغية الوعاة» في تاريخ اللغويين والنحاة .

ومن الكُتّاب والعلماء من دوَّن التاريخ سرداً للأحداث والوفيات دون تعليق أو ملاحظات ، أو نظرة خاصة ، ومنهم من دقق وحقق ، واستخلص العبر والنتائج ، حتي وصل إلي درجة فلسفة للتاريخ ، وحياة المجتمع والناس ، وعلي رأس هؤلاء ثلاثة من مؤرخي العصر هم : إبن خلدون ، والمقريزي ، والكافيجي .

ومن المؤرخين من كان يعرض للناس ممن يؤرخ لهم من السلاطين ، أو العلماء والمشهورين فيتناولهم بهواه ، ميلاً إليهم ، أو عليهم وقد عرف من هؤلاء الذهبي الذي كان يقع في كثير ممن يخالفون مذهبه وينال منهم . كذلك فعل ابن حجر في الحنفية والصوفية ، ولم يسلم أحد من قلم السخاوي إلا شيخه ابن حجر.

وممن عرف بالانحياز للسلطان والدولة حتي التغاضي عن السيئات ومحاولة تبرير المظالم والاعتذار عن الاعمال المشينة ما رمي به المقريزي من تحيز لدولة الفاطميين ، وعلي بن داوود الصيرفي من تحيز للسلطان قايتباي.

واختلفت أساليب الكتابة التاريخية ، فكان بعض المؤرخين يحافظون علي اللغة السليمة ، والأسلوب العربي الرصين ، دون إسراف في البديع مثل ابن خلدون، وابن حجر ، والكافيجي ، والسخاوي ، والسيوطي ومنهم من كان يرتفع بأسلوبه عن مستوي الكتابة العادية إلي مستوي الكتابة الفنية ، فتصبح كتابته قطعاً أدبية رائعة. فيها خصائص الأسلوب الفني من أناقة التعبير ، إلي اشراقة اللفظ ، والميل إلي التصوير .

وقد ضرب المقريزي بسهم وافر في هذا اللون ، كما فعل من قبل ابن فضل الله العمري ، لكن المقريزي فاقه بتضمين تجاربه ، وكثرة اطلاعه علي أحوال المجتمعات ، والنظرة المتعمقة في علاقات الناس ، وأسرار الحياة ولعل المقريزي قد اقتفي آثار أستاذه ابن خلدون.

وعلي العكس من هذا كان بعض المؤرخين لا يهتمون بالأسلوب بل يسوقون القول بما يتفق لهم من اللفظ والعبارة ، فقد تأتي العبارة مضطربة ركيكة أو يكون اللفظ عامياً ، تركياً ، أو أعجمياً ، ويكون ذلك بسبب الضعف اللغوي لقلة

التحصيل ، أو الإهمال ، أو العجمة . ومن أمثال هؤلاء المؤرخين شمس الدين الشجاعي صاحب «تاريخ الملك الناصر» وابن تغري بردي صاحب «النجوم الزاهرة» وعلي بن داود الجوهري الصيرفي صاحب «أنباء الهصر» و «نزهة النفوس» وابن اياس في «بدائع الزهور في عجائب الزهور».

وبصفة عامة فإن سمة العصر تركت طابعها كذلك علي الكتابة التاريخية التي تعتبر قريبة جداً من الكتابة الأدبية ، بل من الناس من يري كتابة التاريخ أدباً كالرواية والمسرحية .

المؤرخـون :

ابن خلدون

وعلي رأس مؤرخي العصر العلامة ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الأشبيلي الأصل التـونسي ثم القـاهري المالكي المذهب ، ولد سنة ٧٣٢ هـ وحـفظ القـرآن والشاطبيتين ومختصر ابن الحاجب والتسهيل في النحو . وتفقه بجماعة من أهل بلده . وسمع بها الحديث ، وقرأ في كثير من الفنون ومهر في جميع ذلك لا سيما الأدب وفن الكتابة .

ثم توجه سنة ٧٥٣ هـ إلي فاس بالمغرب ، فوقع بين يدي سلطانها ثم امتحن واعتقل عامين ثم ولي كتابة السر والنظر في المظالم ، ثم دخل الاندلس فقدم غرناطة سنة ٧٦٤ هـ ، وتلقاه سلطانها ابن الأحمر عند قدومه ، ونظمه في أهل مجلسه ، وكان رسوله إلي عظيم الفرنج بأشبيلية فقام بالأمر الذي ندب إليه ، ثم توجه في سنة ٧٦٦ هـ إلي بجاية ففوض إليه صاحبها تدبير مملكته مدة ، ثم استأذن في الحج فأذن له ، فقدم الديار المصرية سنة ٧٨٤ هـ في شوال وحج ثم عاد إلي مصر فتلقاه أهلها وأكرموه ، وأكثروا من ملازمته والتودد إليه .

وتصدر للاقراء في الجامع الأزهر مدة ، ثم قرره الظاهر برقوق في قضاء المالكية بالديار المصرية سنة ٧٨٦ هـ (١).

قال ابن الصيرفي : (٢) و«وفي هذا الشهر (شوال) وصل الشيخ العلامة أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون المالكي من بلاده المغرب ، واتصل بالأمير الطنبغا الجوياني أمير مجلس وصار عنده في أوج العظمة ، وتصدر للعلم والاقراء بالجامع الأزهر ، فهرع الناس إليه وأقبلوا عليه ، وأعجبهم كلامه الرائق ومعناه الفائق».

وسار ابن خلدون في القضاء متشدداً . قال الشوكاني : «وفتك بكثير من

---

(١) البدر الطالع : ١ / ٣٣٧ .
(٢) نزهة النفوس : ٥١ .

الموقعين ، «صار يعزر بالصفَّع ، ويسميه الزج ، فإذا غضب علي إنسان قال زُجُّوه فيصفع حتي تحمرَّ رقبته».

وعزل ثم أعيد وعزل وتكرر ذلك . عزله برقوق سنة ٧٨٧ هـ وعزله السلطان الناصر فرج بن المنصور برقوق سنة ٨٠٤ هـ (١)

وتولي التدريس بالأزهر وببعض المدارس المصرية كالبرقوقية ، وتولي تدريس الحديث بالصرغتمشية سنة ٧٩١ هـ ، ثم درس بخانقاه بيبرس وعزل عنها بعد سنة، وذهب إلي دمشق الشام وأقام بها زمناً حتي احتلال المغول بقيادة تيمورلنك لها .

وسفر إلي تيمورلنك ، وعمل ببعض النشاط السياسي وتوفي سنة ٨٠٨ هـ .

(١) بدائع الزهور : ٢٩٨ .

نموذج من كتابة ابن خلدون
في أحوال الدول بالتدريج إلي الضخامة والإستيلاء
ثم إلي الضعف والاضمحلال (١)

قال : «وذلك أن الدُولة الكلية ، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحداً بعد واحد في مدة طويلة . قائمين علي ذلك بعصبية النسب أو الولاء، وهذا كان الأصل في استيلائهم و تغلبهم ، فلا يزالون كذلك إلي انقراضهم ، وغلب مستحقين آخرين ينزعونه من أيديهم بالعصبية التي يقتدرون بها علي ذلك ، ويحوزون الأعمال التي كانت بأيدي الدولة الأولي ، يفضون جبايتها بينهم علي تفاضل البأس والرجولة ، والكثرة في العصابة أو القلة ، وهم علي حالهم من الخشونة لمعاناة البأس ، والإقلال من العيش لأصطحاب حال البداوة وعدم الثروة من قبل ، ثم تنمو الثروة فيهم بنموّ الجباية التي ملكوها ، ويزين حبُّ الشهوات للاقتدار عليها، فيعظم الترف في الملابس والمطاعم والمساكن والمراكب ، والممالكَ وسائر الأحوال ، ويتزايد شيئاً فشيئاً بتزايد النعم ، وتتسع الأحوال أوسع ما تكون ، ويقصر الدخل عن الخرج ، وتضيق الجباية عن أرزاق الجند وأحوالهم ، ويحصل ذلك لكل أحد ممن تحت أيديهم ، لأن الناس تبع لملوكهم ودولتهم ، ويراجع كل أحدٍ نظره فيما هو فيه من ذلك فيرجع وراءه ، ويطلب كفاءَ خرجه بدخله .

ثم إن البأس يقلُّ من أهل الدولة بما ذهب لهم من الخشونة ، وما صاروا إليه من رقة الحاشية ، والتنعم ، فيتطاول من بقي من رؤساء الدولة إلي الاستبداد بها غيرةً عليها من الخلل الواقع بها ، ويستعد لذلك بما بقي عنده من الخشونة ، ويحملهم علي الاقلاع عن الترف ويستأنف لتلك العصابة بعشيرةٍ أو بمن يدعوه لذلك ، فيستولي علي الدولة ويأخذ في دوائها من الخلل الواقع ، وهو أحقُّ الناس به ، وأقربهم إليه ، فيصير الملك له ، وفي عشيره ، وتصير كأنها دولة أخري ، تمرُّ عليها الأوقات ، ويَقَعُ فيه ما يقع في الأولي فيستولي آخر منهم ، كذلك إلي أن

(١) المجلد السابع من تاريخ ابن خلدون : ص ٣٤٥ .

تنقرض الدولة بأسرها ، وتخرج عن القوم الأولين أجمع وتأتي دولة أخري مباينة لعصابة هؤلاء في النسب ، أو الولاء .. سنَّةُ الله في عباده».

وابن خلدون حين يقرر هذه الأسس في قيام الدول وسقوطها ، كاشفاً عن أسباب الضعف والإنحلال فيما يسقط مقرراً انغماس أصحاب الدول في الترف والنعمة ، وانشغالهم بأنفسهم وملاذهم عن مهام الحكم والحفاظ علي كيان الدولة ، وضعف الاقتصاد بزيادة الصرف علي الدخل ، حين يرصد كل هذه الآفات في سقوط الدول كأنما يقرأ كتاب التاريخ المصري ، في عصره عصر المماليك الشراكسة وقبله عصر الأتراك ، وعصر الأيوبيين وعصر الفاطميين ، بل ويقرأ تاريخ النصف الثاني من القرن العشرين بظاهرة الانقلابات العسكرية والاستيلاء علي السلطة في الدول التي تخلصت من الاستعمار أو التي كانت تحكمها نظم حكم متخلفة أو فاسدة .

القاهرة في عين ابن خلدون في القرن الثامن :

ونقرأ مع ابن خلدون صفحة أخري من تاريخ مصر في زمنه يصف فيها القاهرة حين رآها لأول مرة . يقول (١) :

«ولما رحلتُ من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة أقمنا في البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسي الأسكندرية يوم الفطر ، ولعشر ليالٍ من جلوس الملك الظاهر (برقوق) علي التخت و واقتعاد كرسي الملك دون أهله بنيّ قلاوون . وكنا علي ترقب ذلك ، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموّه لذلك ، وتمهيده له . وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ، ولم يُقدّر عامئذ ، فانتقلت إلي القاهرة أول ذي القعدة ، فرأيت حضرة الدنيا وبُستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذرِّ من البشر ، وإيوان الإسلام وكرسيٍّ الملك . تلوح القصور والأواوينُ في جوه ، وتزهو الخوانكُ (أو الخوانق) والمدارس بآفاقه . وتضئُ البدُور والكواكبُ من علمائه . قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء، يسقيهم النُهَلَ والعلَلَ سيحه ، ويُجني إليهم الثمرات والخيرات ثَجُه.

(١) ابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً . ص : ٢٦٤ (الجزء السابع من تريخه الكبير) .

ومررتُ في سكك المدينة وهي تَغُصُّ بزحام المارة ، وأسواقها تزخرُ بالنِّعم ، وما زلنا نُحدِّث عن هَذا البَلد ، وبعد مداه في العمران ، واتساع الأحوال . وقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجِّهمْ وتاجرهم بالحديث عنه . سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقري مقدمَهُ من الحج سنة أربعين . فقلت له : كيف هذه القاهرة ؟!/ . فقال : من لم يرها لم يعرف عز الإسلام ».

وذكر مدارس القاهرة وخوانقها فقال (١) :

« أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيُّون علي القدم - منذ عهد مواليهم ملوك بني أيوب بإنشاء المدارس لتدريس العلم ، والخوانق لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب الصوفية السُّنِّية في مطارحة الأذكار ونوافل الصلوات . أخذوا ذلك عمَّن قبلهم من الدول الخلافية (٢) ، فيختطون مبانيها ، ويقفون الأراضي المغلة للإنفاق منها علي طلبة العلم ، ومتدَرِّبي الفقراء ، وإن استفضل الريع شيئاً من ذلك جعلوه في أعقابهم ، خوفاً علي الذريَّة الضعاف من العَيْلة. واقتدي بسنتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة ، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة ، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية ، وآثارها الجميلة الخالدة ».

لقاء ابن خلدون لتيمورلنك :

وكان تيمور قد حاصر دمشق بعد رحيل السلطان برقوق إلي مصر وتبعه جنده فخرج ابن خلدون من دمشق وكان قد وصلها مع سلطان مصر ، وظل بها حتي مجئ تيمور . يقول (٣).

« ودلُّوني من السور فوجدت بطانته (تيمور) علي الباب ، ونائبه الذي عينه للولاية علي دمشق واسمه شاه ملك من بني حقطاي أهل عصابته ، فحييتُهم وحيُّوني ، وفديت وفدوني ، وقدم لي شاه ملك مركوباً وبعث معي من بطانة

(١) المصدر نفسه : ص ٣٠٤ .
(٢) يقصد دولة الفاطميين الشيعة لمخالفتهم أهل السنة .
(٣)

السلطان من أوصلني إليه . فلما وقفت بالباب خرج الإذنُ بإجلاسي في خيمة هناك تجاور خيمة جلوسه ، ثم زيد بالتعريف باسمي أني القاضي المالكي المغربي ، فاستدعاني، ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئاً علي مرفقه ، وصحاف الطعام تمرُّ بين يديه ، يشير به إلي عُصب المغل جلوساً أمام خيمته حلقاً حلقاً ، فلما دخلت عليه فاتحتُ بالسلام ، وأومَيْتُ إيماءة الخضوع ، فرفع رأسه ، ومد يده إليَّ فقبلتُها ، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت . ثم استدعي من بطانته الفقيه عبد الجبار النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم ، فأقعده يترجم ما بيننا و سألني من أين جئت من المغرب ؟ ، ولِمَ جئت؟ .

فقلت : جئت من بلادي لقضاء الفرض ، ركبت إليه البحر ، ووافيت مرسي الاسكندرية يوم الفطر سنة أربع وثمانين (وسبعمائة) من هذه المائة الثامنة، والمفرحات بأسوارهم لجلوس الظاهر علي تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددها .

فقال لي : وما فعل بك ؟ . قلت: كلٌّ خير ».

ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن

أبو محمد (توفي سنة ٧٨٩ هـ) وقد اشتغل وبرع إلي أن صار رأساً في الأدب وانتقي من قراءاته ، وخرّجَ وأرّخَ وتعاني في تواليفه السجع وكتب الشروط علي القضاة وناب في الحكم ، ووقع في الانشاء وصنف فيها ، ونسخ البخاري بخطه.

اشتهر كذلك بالأدب ، فنظم ونثر ، وجمع مجاميع مفيدة ، ولزم منزله بعد تولية عدة وظائف ، وأقبل علي القراءة والتصنيف فكان من مصنفاته :

درة الاسلاك في دولة الأتراك واعتمد فيه علي النويري .

وتذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه (١).

وكل مافيها منثور.

وكان ابن حبيب دمث الأخلاق ، حسن المحاضرة جيد الذاكرة ، وتوفي عن ٦٩ سنة ، وترك ابنه الشيخ زين الدين طاهر الذي أكمل تاريخه وذيل عليه .

---

(١) حُقِقَ الكتاب ونشر بالهيئة العامة للكتاب في عدة أجزاء .

المقريـزي

المؤرخ لتاريخ مصر السياسي والاجتماعي

أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم.

الحسيني العبيدي ، البَعْلَبِيّ الأصل ، القاهري المولد ، المعروف بالمقريزي نسبة إلي حارة في بعلبك بلبنان تعرف بحارة المقارزة .

ولد الشيخ تقي الدين عام ستة وستين وسبعمائة (٧٦٦ هـ) ونشأ بها نشأة حسنة ، فحفظ القرآن ، وسمع جماعة من كبار الشيوخ والعلماء في ضروب العلم ، ممن اشتهرو ا في عصره . وأولهم جده شمس الدين ابن الصائغ الحنفي ، وبرهان الدين الأمدي ، وأبو إسحق التنوخي ، والبلقيني سراج الدين ، وزين الدين العراقي، ممن أشرنا إليهم منذ قليل .

ولم يكتف بالأخذ من علماء مصر والقاهرة ، بل سافر إلي بلاد المشرق العربي وحج فسمع بمكة من علمائها ، واجتمع في الشام بجماعة وسمع منهم ، واشتغل بالعلم كثيراً ، وطاف علي الشيوخ ، وجالس الأئمة ، تفقه في فقه الحنفية علي مذهب جده لأمه شمس الدين بن الصائغ.

وتحول بعد قليل إلي مذهب الشافعي كغيره من معظم فقهاء مصر علي عصره.

وكان اهتمامه الأول بالتاريخ ، ولكنه جمع إليه بعض العلوم الأخري كالفقه والحديث وعلوم الدين واللغة والأدب ، مما كان لازماً لمثقفي العصر . ومن يريد أن يبلغ من العلم شأواً ، أو أن يجالس العلماء ، وينزل منهم منزلة طريقة ابن حزم الأندلسي الظاهري . وقد نص ابن حجر علي ذلك فقال : إنه أحب الحديث ، فواظب عليه حتي كان يتهم بمذهب ابن حزم الظاهري.

وقالوا إنه نظر في عدة فنون ، وشارك في الفضائل .

وتولي المقريزي بعض الأعمال ، واشتغل بالتدريس . فقد عين مراراً في وظائف

الوعظ ، والإرشاد . كما تولي قراءة الحديث بالمساجد الجامعة بمصر والقاهرة ، فقد تولي الخطابة بجامع عمرو بن العاص ، ومدرسة السلطان حسن ، والإقامة بجامع الحاكم ، وقراءة الحديث بجامع المؤيد ، وبجامع السلطان حسن .

وناب عن الحكم ، وكتب التوقيع وولي الحسبة بالقاهرة غير مرة ، آخرها سنة ٨٠٤ هـ في عهد السلطان الظاهر برقوق .

وكان لتولية الحسبة أثر في معرفته بخبايا القاهرة ، واطلاعه علي حياة الأسواق، وأسرار المجتمعات ، والمشكلات المتعددة واليومية بين الناس مما وسع من معرفته ، وأمده بمادة قيمة ، اكسبت كتبه طابعاً خاصاً ومذاقاً معيناً لا نجده عند غيره من المؤرخين إلا فيما ندر . ولعل تمكنه من اللغة و ميله إلي الأدب حسَّنَ من أدائه ، كذلك سعة أفقه واطلاعه مما جعل كتاباته امتداداً لكتابات أستاذه وشيخه الذي سبقه إلي هذا اللون من الكتابة التاريخية للمجتمعات العربية والإسلامية . أعني ابن خلدون.

واتصل المقريزي بالسلطان الظاهر برقوق ، فحظي عنده بمكانة طيبة واتصل بولده الأمير الناصر فرج ، فصحبه إلي دمشق مراراً ، وهناك عرض عليه قضاءها فأبي . وتوثقت صلته بالأمير الكبير يشبك الدويدار ، فنال بسبب ذلك جاهاً ومالاً، أو كما قيل : فنالته منه دنيا ، وكان محمود السيرة.

وحج غير مرة وجاور في مكة زمناً ، وتردد علي دمشق ودرَّس ببعض مدارسها وجوامعها ، ثم أعرض عن جميع ذلك ، وأقام بالقاهرة عاكفاً علي الاشتغال بالتأليف ، وبالتاريخ خاصة حتي أشتهر به ، وذكر فيه ، وبعد صيته ، لكثرة ما صنف .

وكان حبه لمصر دافعاً لتأليفه معظم تواريخه فيها ، وفي حكامها وناسها وقال في حبه لمصر :

«وكانت مصر هي مسقط رأسي ، وملعب أترابي ، ومجتمع ناسي ومغني عشيرتي وخاصيتي ، وموطن خاصَّتي وعامَّتي ، وجُؤُجوي الذي ربَّي جناحي في وكره ، وعشي ومأربي . فلا تهوي الأنفسُ غير ذكره . لازلت منذ شدوْتُ العلم، وأتاني ربي الفطانة والفهم . أرْغبُ في معرفة أخبارها وأحب الإشراف علي

الاغتراف من آبارها . وأهوي مساءلة الركبانِ عن سكان ديارها ».

اختار المقريزي تاريخ مصر ميداناً لجهوده . وإن كتب في جوانب أخري من تاريخ الإسلام .

وأشار السخاوي إلي اهتمامه بتاريخ المجتمعات المصرية المتعاقبة ، مما لم يفطن إليه سابقوه ممن اهتموا من التاريخ بتدوين الأحداث أو الملوك والحكام . أو الوفيات من الأعيان ، وكانت له نظرات خاصة في الأحداث ، وتعليقات وتعليلات تأثر فيها بآراء أستاذه ابن خلدون، والتي بدأت مرحلة جديدة في كتابة التاريخ هي فلسفة التاريخ .

ويعد المقريزي مصدراً غنياً لتاريخ عصره الرسمي والاجتماعي أو الحيّ فقد عاصر عشرة ملوك من سلاطين المماليك في مصر والشام . وكان مجتمع عصره مادة غنية بما فيها من الظواهر الاجتماعية الفريدة التي اهتم بتسجيلها وتحليلها، وساعده علي ذلك توليه منصب الحسبة ، وقربه من السلطان .

قال السخاوي : «وكان حسن المذاكرة بالتاريخ ، لكنه قليل المعرفة بالمتقدمين ، ولذلك كثر فيهم وقوع التحريف والسقط . وكانت له معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو، واطلاع علي أقوال السلف ، وإلمام بمذاهب أهل الكتاب حتي كان يتردد إليه أفاضلهم للاستفادة منه ، مع حسن الخلق ، وكرم العهد وكثرة التواضع وعلو الهمة لمن يقصده . وكل ذلك مع تبجيل الأكابر له ، إما مداراة له خوفاً من قلمه أو لحسن مذاكرته».

والسخاوي وإن غمزه أكثر من مرة في حديثه عنه إلا أنه اعترف بفضله ولم ينكر ما أجمع الناس عليه من حسن خلقه وسعة علمه .

خطط المقريزي :

ومن أهم كتب المقريزي ، وأكثرها شيوعاً كتابه الخطط ، أو «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار».

وهو في تاريخ مصر والقاهرة ومجتمعاتها أيام الدول الإسلامية المتعاقبة وتشمل مصر والقاهرة بخططها وتطوراتها العمرانية ، شوارعها وأسواقها وأحياءها ومساجدها ورياضها ومدارسها وكل ماحدث من مظاهر الحضارة والعمران .

واستغرق جهداً كبيراً في الإعداد لتصنيف الخطط . يقول في مقدمتها : «فقيدت بخطي في الأعوام الكثيرة ، وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب ، إلا أنها ليست بمرتبة علي مثال ، ولا مهذبة بطريقة ما نسج علي منوال ، فأردت أن ألخص منها أنباءَ ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم والقرون الخالية ، وما بقي بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يفنيه من البلي والقدم ، ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعَدم ، وأذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور والدهور ، وما اشتملت عليه من الخطط والإصقاع. وحوته من المباني البديعة الأوضاع ، مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل والتنويه بذكر الذي شادها من سراة الأعاظم والأفاضل».

والكتاب كما قلنا فريد في كونه عرضاً مستفيضاً لتاريخ مصر الاجتماعي ، وأحوال المجتمع المصري النفسية والسلوكية والأخلاقية . كما يؤرخ لأحواله العامة مما يسود الشارع والسوق والمنزل من طرق العيش والبيع والشراء والتعامل والطعام و الكساء.

ومع اهتمامه بصور المجتمع المصري في هذه الجوانب جميعاً إلا أنه كان مصوراً ماهراً ، لايلزم النقد والتحليل إلا في مواضع قليلة.

واتهمه السخاوي بأنه كان يميل في تأريخه لمصر إلي الفاطميين ويعظم من شأنهم وخاصة في «الخطط» قال السخاوي : «وهو من أحسن الكتب وأنفعها وفيه عجائب ومواعظ ، وإن كان فيه ينشر محاسنَ العبيدية (الفاطميين) وتفخيم شئونهم ويشيد بذكر مناقبهم».

ويعزو انتصاره لهم إلي نسبه إليهم مع اختلافه معهم في المذهب فهم فاطميون وهو سُني.

واتهمه في الخطط كذلك بالسرقة من كتاب سابق للأوحدي

قال السخاوي : «إنه ظفر بمسودة للأوحدي في خطط القاهرة وآثارها فأخذها وزاد فيها زوائد غير طائلة ونسبها لنفسه (١).

ومع ذلك الاتهام الذي وجهه إليه فقد اعترف له بالفضل فقال : «والرجل غير مدفوع عن فضل لا سيما في التاريخ و ما يتعلق به والله أعلم».

ومعظم مؤلفاته في التاريخ ، ومنها ما يتصل بالسيرة النبوية مثل كتاب " امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفَدَةِ والمتاع ".

«ومعرفة ما يجب لأهل البيت النبوي علي من عداهم».

«والنزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم» (٢).

وفي تاريخ الفاطميين كتاب«اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا». وفي تاريخ مصر :

«عقد جواهرالأسفاط في ملوك مصر والفسطاط»

و «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار».

و «البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب».

وفي تاريخ البلاد الأخري:

«الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة».

«والإلمام بما في أرض الحبشة من ملوك الإسلام».

وفي التراجم :

«درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ذكر فيه من عاصره» .

وفي التاريخ العام :

«السلوك بمعرفة دول الملوك» والدرر المضيئة في تاريخ الخلفاء حتي نهاية الدولة العباسية».

---

(١) الضوء اللامع للسخاوي : ٢/٢١ - ٢٥ ، والبدر الطالع : ١/٧٩ - ٨١ .
(٢) نشر بتحقيق الدكتور حسين مؤنس بدار المعارف بمصر ١٩٩٠ م .

والمقفي وهو التاريخ الكبير ، ١٦ مجلداً، و «الخبر عن البشر» و «تراجم ملوك الغرب» و «الطرفة الغريبة» و «رسالة في تاريخ النقود العربية».

قال الشوكاني : وجد بخطه أن تصانيفه زادت علي مائتي مجلد ، وأن كبار شيوخه بلغت ستمائة نفس ، وكان متبحراً في التاريخ علي اختلاف أنواعه ومؤلفاته تشهد له بذلك وإن جحده السخاوي لأنه يقع في غالب أعيان معاصريه.

وكان المقريزي يجمع إلي التاريخ إلماماً ببعض العلوم الأخري . قال الشوكاني : «وكان حسن الخبرة بالزايرجه والأسطرلاب والرمل والميقات . وقد نعت بالميقاتي.

قال ابن حجر : له النظم الفائق والنثر الرائع والتصانيف الباهرة خصوصاً في تاريخ القاهرة ، فإنه أحيي معالمها وأوضح مجاهلها وجدد مآثرها وترجم أعيانها .

قال : وكان حسن الصحبة حلو المحاضرة .

وقال الشوكاني : له نظم حسن وعشرة لطيفة واستحضار لنكت وطرائف ولم يتزوج.

وله من النظم في شخص اسمه يونس :

قم فاقطف الوردة من خده … ولا تَخَفْ في ذاك من يحرسُ

وآنس النفس بذكر الذي … لامَسهُ فهو لها يونس

عذاره والقد مع طرفه … ما الآسُ ما البانُ ما النرجسُ

وثغرهُ العذب إذا ماتَو حَّ … شْتَ مخافَةَ العدي يونسُ

وقوله :(في نظم شعبي)

كل من طبعه الأذية … ما يموت إلا مُقَهَّر

ومن شعره

سقا عهد دمياط وحياه من عهد … فقد زادتي ذكراه وَجْداً علي وجدي

ولازالت الأنواء يسقي سحابها … دياراً حكت من حسنها جنة الخلد

وله مؤلفات في غير التاريخ ، منها رسالة في الغناء ، و «البيان المفيد» في

الفرق بين التوحيد والتلحيد » و «الأخبار عن الأعزار» و «نحل عبر النحل»

و «المقاصد السنية في معرفة الأجساد المعدنية» و «تجريد التوحيد» و «نبع الفوائد» و «الأوزان والأكيال الشرعية» وغيرها.

وهكذا كان المقريزي عالماً جامعاً مؤرخاً ، أديباً ، مصري الروح والهوي . وقد توفي رحمه الله يوم الخميس السادس عشر من رمضان سنة ٨٥٤ هـ في سلطنة برسباي .

نموذج من كتابات المقريزي

من كتـاب «المواعظ والاعتبـار» : يذكر جزيرة الروضة وتطور إعمـارها منذ الأخشيديين وحتي عصر الآمر الفاطمي .

« محمد بن طنج أول ما ملك مصر : كان في نفسي إذا ملكت مصر أن أجعل صناعة العمارة في دار ابنة الفتح ، وأجعل موضع الصناعة من الجزيرة بستاناً أسميه المختار » . واستدعي أحد مهندسيه وأمره بأ ن يخط له بستاناً وداراً وفرغ من بنائه فاتخذه الإخشيد متنزهاً له وصار يفاخر به أهل العراق . وكان نقل الصناعة من الجزيرة إلي ساحل النيل بمصر في شعبان سنة خمس وعشرين وثلاثمائه . فلم يزل البستان المختار متنزهاً إلي أن زالت الدولة الأخشيدية والكافورية وقدمت الدولة الفاطمية من بلاد المغرب إلي مصر فكان يتنزه فيه المعز لدين الله الفاطمي معدّ ، وابنه العزيز بالله نزار ، وصارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس ، لها وال وقاض ، وكان يقال القاهرة ومصر والجزيرة . فلما كانت أيام استيلاء الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وحجره علي الخلفاء أنشأ في بحري الجزيرة مكاناً نزهاً سماه (الروضة) ، وتردد إليها تردداً كثيراً ، فكان يسير في العشاريات والموكبيات من دار الملك التي كانت سكنه بمصر إلي الروضة . ومن حينئذ صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة . فلما قتل الأفضل بن أمير الجيوش ، واستبد الخليفة الآمر بأحكام الله أبوعلي المنصوري بن المستعلي بالله أنشأ بجوار البستان المختار من جزيرة الروضة مكاناً لمحبوبته الغالية البدوية سماه الهودج .

قال ابن سعيد في كتاب المحلّي بالإخبار عن تاريخ القُرطبي : قد أكثر الناس في حديث البدوية وابن مياح من بني عمها ، وما يتعلق بذلك من ذكر الخليفة الآمر بأحكام الله حتي صارت رواياتهم في هذا الشأن كأحاديث البطال ، وألف ليلة وليلة، وما أشبه ذلك . والاختصار منه أنه يقال أن الخليفة الآمر كان قد ابتلي بعشق الجواري العربيات ، وصارت له عيون في البوادي ، فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرف نسائهم ، شاعرة جميلة ، فيقال إنه تزياً بزي بداة الأعراب وصار يجول في الأحياء إلي أن انتهي إلي حيّها وبات هناك في ضائقة ، وتحيَّل

حتي عاينها ، فما ملك صبره ، ورجع إلي مقر ملكه و سرير خلافته فأرسل إلي أهلها يخطبها ، فأجابوه إلي ذلك ، وزوجوها منه ، فما صارت إلي القصور صعب عليها مفارقة ما اعتادت عليه ، وأحبت أن تسرّح طرفها في الفضاء، ولاتقبض نفسها تحت حيطان المدينة ، فبني لها البناء المشهور بالجزيرة جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج . وكان علي شاطئ النيل في شكل غريب» (١).

قال العلامة ابن سعيد في كتاب المغرب وقد ذكر الروضة : هي أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجيزة ، وبها مقياس النيل . وكانت متنزهاً لأهل مصر فاختارها الصالح ابن الكامل سرير السلطنة ، وبني بها قلعة مسوَّرة بسورٍ ساطع اللون محكم البناء عالي المحل ، لم تر عيني أحسن منه . وفي هذه الجزيرة كان الهودج الذي بناه الآمر خليفة مصر لزوجته البدوية التي هام في حبها . والمختار بستان الإخشيد وقصره . وله ذكر في شعر تميم بن المعز وغيره ولشعراء مصر في هذه الجزيرة أشعار منها قوله الفتح بن قادوس الدمياطي :

أري سرح الجزيرة من بعيد كأحداق تغازل في المغازلْ

كأن مجرَّة الجوزا أحاطت وأثبتت المنازل في المنازلْ

وكنت أشق في بعض الليالي بالفسطاط علي ساحلها فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل أمام سور هذه الجزيرة الدرّي اللون . ولم أنفصل عن مصر حتي كمل سور هذه القلعة ، وفي داخله من الدور السلطانية . ارتفعت إليه همة بانيها ، وهو من أعظم السلاطين همة في البناء".

قال المقريزي : «ولم تزل هذه القلعة عامرة حتي زالت دولة بني أيوب ، فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركماني أول ملوك الترك بمصر أمر بهدمها ، وعمّر فيها مدرسته المعروفة بالمعزيّة المعروفة في رحبة الحنأء بمدينة مصر ، وطمع في القلعة من له جاه ، فأخذ جماعة منها عدة سقوف وشبابيك كثيرة، وغير ذلك . وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة . فلما صارت مملكة مصر إلي الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري اهتم بعمارة قلعة الروضة، ورسم للأمير جمال الدين موسي ابن يغمور أن يتولي إعادتها كما كانت . فأصلح بعض ما تهدم منها

(١) الخطط : ١٨١/٢ .

، ورتب فيها الجانداريّة وأعادها إلي ماكانت عليه من الحرمة ، وأمر بأبراجها ففرقت علي الأمراء» (١).

ومن كتاب

«النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم» (١).

يقول في مقدمته :

«أما بعد ، فإن كثيراً ما كنت أتعجب من تطاول بني أمية إلي الخلافة مع بعدهم عن جذم رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وقرب بني هاشم . وأقول كيف حدثتهم أنفسهم بذلك ؟ . وأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله صلي الله عليه وسلم ولعينه من هذا الحديث ، مع تحكم العداوة بين بني أمية وبني هاشم في أيام جاهليتها ، ثم شدة عداوة بني أمية لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، ومبالغتهم في أذاه ، وتماديهم في تكذيبه فيما جاء به منذ بعثه الله تعالي بالهدي ودين الحق ، إلي أن فتح مكة شرَّفها الله تعالي ، فدخل من دَخَل منهم في الإسلام ، كما هو معروف مشهور . وأردد قول القائل :

كم من بعيد الدار نال مراده وآخر داني الدار وهو بعيد

ولعمري لا بعد أبعد مما كان بين بني أمية وبين هذا الأمر ، إذ ليس لبني أمية سبب إلي الخلافة ، ولابينهم وبينها نسب إلاَّ أن يقولوا : أنَّا من قريش فيسايرون في هذا الاسم قريش الظاهر . لأن قوله صلي الله عليه وسلم «الائمة من قريش» واقع علي كل قرشيّ.

ومع ذلك فأسباب الخلافة معروفة . وما يدّعيه كل جيل معلوم . وإلي كل ذلك قد ذهب الناس ، فمنهم من ادعاها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه باجتماع القرابة والسابقة والوصية بزعمهم . فإن كان الأمر كذلك ، فليس لبني أمية في شئ من ذلك دعوي عند أحد من أهل القبلة.

وإن كانت لا تنال إلا بالسابقة ، فليس لهم في السابقة قديم عهد مذكور ولا يوم مشهور ، بل كانوا إذا لم تكن لهم سابقة ، ولم يكن فيهم ما يستحقون به الخلافة ولم يكن فيهم مايمنعهم منها أشد المنع ، كان أهون ، وكان الأمر عليهم أيسر.

فقد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوته للنبي صلي الله عليه وسلم ، وفي

---

(١) الخطط : ١٨٤/٢ .

محاربته وفي إجلابه عليه ، وفي غزوه إياه ، وعرفنا إسلامه كيف أسلم ، وخلاصه كيف خلص ، علي أنه أسلم علي يد العباس رضي الله عنه ، والعباس هو الذي منع الناس من قتله ، وجاء به رديفاً إلي النبي صلي الله عليه وسلم (٢).

(١) بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، وطبع دار المعارف سنة ١٩٩٠ في سلسلة «ذخائر العرب

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٦ - ٢٧ .

الكافيَجـــي

محمد بن سليمان بن داود ، الرومي الحنفي.

ولقب بالكافيَجي نسبة إلي كثرة اشتغاله بكافية ابن الحاجب ، قراءة وتدريساً.

وفد الكافيجي إلي مصر من المشرق ، في عصر السلطان الأشرف برسباي ، واستقر بها بعد كثرة الرحلة في بلاد المشرق الإسلامي طلباً للعلم ، وعملاً بتدريسه لتلاميذه.

ووجد بمصر مكاناً آمناً ، فوضع بها عصا الترحال بين ترحيب علماء مصر وفقهائها ، وولاة الأمر فيها ، وترافق من كبار علماء عصره السنباطي وابن حجر والعيني ، والأقصرائي.

وعمل بالعلم والتدريس بمساجد القاهرة ومصر الكبري ، وببعض المدارس كالبرقوقية ، وزاوية الأشرف شعبان.

وتتلمذ عليه كثيرون في الفقه الحنفي والتاريخ والبيان .

واشتهر مؤرخاً بكتابه «المختصر في علم التاريخ» الذي أظهر اتجاهه الفلسفي في تعريف التاريخ وكتابته ومنهاجه ،

وعرض له روزنتال في كتابه «تاريخ الكتابة التاريخية عند المسلمين» (١). فعده جديراً بالاعتبار لأصالة طريقته وجودة كتابته، فهو يتبع النظام المألوف في تعريف علمي يرجع إلي الفلسفة الأرسططاليسية»

ويعد هو وابن حجر من أشهر اعلام القرن التاسع ، ونعته السخاوي بـ «علامة الدهر، وأوحد العصر ، ونادرة الزمان ، وفخر هذا الوقت والأوان ، الأستاذ في الأصلين ، والتفسير والنحو والصرف و المعاني والبيان والمنطق».

وتتلمذ علي يديه أحد مؤرخي العصر علي بن داود الجوهري الصيرفي ، صاحب

---

(١) ترجمه إلي العربية د . صالح العلي العراقي - نشرته مكتبة المثني ببغداد ١٩٦٣ .

كتابي «نزهة النفوس» و «أنباء الهصر» . وقَرَّظَ الأستاذ تلميذه معترفاً بنبوغه في كتابه التاريخ.

وتوفي الكافيجي سنة ٨٧٩ هـ (١) .

---

(١) راجع في ترجمته الضوء اللامع للسخاوي جـ ٧ ، وبغية الدعاة للسيوطي ، وابن اياس جـ ٣ .

ابن حجر العسقلاني مؤرخاً (١)

اشتهر ابن حجر العسقلاني بمؤلفاته التاريخية علي اختلاف صور الكتابة التاريخية حتي عدَّ بين كبار مؤرخيه ، ففي التاريخ العام له كتاب «أنباء الغمر بأنباء العمر» في تاريخ عصره ، و «الإعلام بمن ولي مصر في الإسلام» بملوك مصر منذ الفتح ، و «النبأ الأنبه في بناء الكعبة».

وأما في الأعلام والوفيات والرجال فقد كان له الجهد الفائق ، وألف فيها الكتب المشهورة ، وعلي رأسها كتاب : «رفع الإصر عن قضاة مصر» ، و «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» و «تجريد الوافي في الوفيات للصفدي»

و «الإعلام بمن سمي محمداً قبل الإسلام و «الإصابة في تمييز الصحابة»

و «لسان الميزان» و «الإعجاب ببيان الأنساب» و «الإحتفال في بيان أحوال الرجال» المذكورين في صحيح البخاري.

وقد عرف ابن حجر في تواريخه بنقده لبعض من لا يتفق معه في الرأي أو الهوي ، لهذا مال علي بعض من ترجم له وجرَّحه ، وقد أخذ عنه هذه الصفة ، وجري له علي هذا السلوك من تلاميذه السخاوي.

وقد تتلمذ علي يديه كثير من شيوخ القرن التاسع وكبار فقهائه ومحدثيه وشيوخ العلم والأدب و التاريخ.

ومن أشهر تلاميذه في علم التاريخ ، علي بن داود الجوهري الصيرفي ، وكان يلزمه لقرب بينهما ، ولقي الصيرفي من ابن حجر تقديراً خاصاً ، مما أثار غيرة تلميذ آخر من تلاميذه الكبار وهو السخاوي ، فمال علي الصيرفي كل الميل وجرَّحه كعادته في تجريح العلماء.

---

(١) ترجمنا له تفصيلاً بين الشعراء في الباب الرابع .

الصيرفي

علي بن داود الجوهري

وهو صاحب كتابين من أشهر كتب العصر : «نزهة النفوس» و «إنباء الهصر بأنباء العصر» .

وعرف علي بن داود الصيرفي بابن الصيرفي لأنه اشتغل بالصيرفة هو ووالده ، فقد تولي داوود بن إبراهيم صيرفية الدولة وديوان المفرد في عهد السلطانين المؤيد شيخ ، وبرسباي ، وزمناً قصيراً في عهد السلطان جقمق حتي توفي سنة ٨٥٣ هـ .

ونشأ علي في بيت أبيه ثم تكسب بالعمل بسوق الجوهريين بالقاهرة ، وربما ورث هذه الصنعة عن والده ، وربما كانت هذه الصنعة هي التي رشحتهما لتولي الصيرفة بديوان السلطنة.

وترجم السيوطي له في «نظم العقيان» ، وأورد له السخاوي كذلك ترجمة قصيرة إلي حد ما في «الضوء اللامع» امتلأت سطورها بالنقد والتجريح.

وجلس علي إلي بعض شيوخ العصر وعلي رأسهم العلامة ابن حجر ، فقد لازمه منذ شبابه الباكر ، وظل يحضر مجالسه ، وقرأ عليه شرحه «للنخبة» وديوان خطبه، وقدر ابن حجر تلميذه حتي صلي وراءه مرة بجامع الظاهر مما أثار حفيظة السخاوي فنبه إلي ذلك بقوله: «إن ذلك عظم علي كثيرين».

وأخذ علي الزراتيني في القراءات ، وكان هذا الشيخ شيخ القراءة في عصره دون منازع .

وأخذ أصول الدين علي الأقصرائي الفقيه ، وإمام السلطان برسباي ، وكان الأقصرائي متبحراً في كثير من العلوم النقلية والعقلية.

وقد مدح السيوطي الأقصرائي بقوله : «انتهت إليه رياسة الحنفية في عصره، مع الدين المتين ، والصلاح المفرط والقيام في نصرة الدين ، وإبطال المظالم ومراجعة الملوك . وهم يعظمونه ويقبلون قوله».

وعرف الأقصرائي في الجوهري مقدرته في التاريخ فقرظه بخطه معلقاً علي الجزء الثاني من كتاب «نزهة النفوس والأبدان» الذي وضعه الجوهري في السيرة النبوية فقال فيه (١) : نظر في هذا المصنف البديع ، والعقد الفريد ، وتبصر ، واستفاد منه وشكر مؤلفه حيث أنبأ ما عملته يداه بالاجتهاد ما فيه تقع الفائدة لكافة العباد ».

كذلك أخذ عن الكافيجي علي ماذكرنا في حديثنا عنه . وأثني الكافيجي كذلك علي تلميذه وقرظ كتابه المذكور في السيرة النبوية قائلاً : «إنه التاريخ الفائق علي الاقتران وأنه ليس أنس منه للصلحاء».

واعترف له في هذا الكتاب كذلك بفضله وكماله ، وحسن ترتيبه وجودة نظامه ، وشاركه في الاعتراف بذلك الحاضر والبادي ، والداني والقاصي . واغترف من بحره العذب الرحب الرائح والغادي «وأتي بأمر يحيي ذكره في الاخرين أبد الآبدين».

وكان الصيرفي متوسط الحال كثير العيال . عمل في أكثر من عمل ليواجه تكاليف الحياة ومتطلبات عياله .

اشتغل أول الأمر بنيابة القضاء أو الأحكام للقاضي الحنفي ، وبالصيرفة في ديوان المفرد ، وبالجوهرة في سوق الجوهريين بالقاهرة ، وعمل زمناً بالنسخ ينسخ الكتب لمن يريد لقاء أجر.

ومما نسخه كتب أستاذه ابن حجر ، وبعض مؤلفات أبي المحاسن ابن تغري بردي وذيل رفع الأصل للسخاوي .

وللصيرفي علي بن داوود مؤلفات كثيرة في التاريخ علي رأسها كتابه الكبير : «نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان» وهو في التاريخ العام ، ألم فيه بتاريخ العرب والمسلمين منذ الجاهلية وحتي عهد السلطان جقمق . وقسمه إلي أجزاء حسب العصور (٢).

وله كتاب : «أنباء الهصر بأنباء العصر» عن عصر السلطان قايتباي ، وهي

(١) مقدمة كتاب « أنباء الهصر » للدكتور حسن حبشي : ص ١٣ .

(٢) راجع أنباء الهصر : ص ١٧ . وقد قام الدكتور حسن حبشي بتحقيق القسم الخاص بالدولة المملوكية المتأخرة من «نزهة النفوس» وطبع بمركز تحقيق التراث ونشرته هيئة الكتاب .

مرحلة حرجة في تاريخ مصر عامة ، وتاريخ مماليك الجراكسة خاصة ، ذلك أن هذه المرحلة كشفت عن خذلان عظيم في النظم الإدارية المملوكية ، تداعت بسببه أركان الدولة . وقد كشفنا في حديثنا السابق عن العصر عن جوانب متعددة أدت إلي الخذلان ، ولكن أخطره ما أصاب الجهاز العسكري ، وهو الجهاز الذي كان يحفظ المماليك هيبتهم وكيانهم ، ويمسك عليهم شرعيتهم في حكم البلاد كذلك بحجة الدفاع عن الإسلام والأوطان . لكن انهيار النظام العسكري في أخريات العصر المملوكي كان خاتمة المطاف في سلسلة الانهيارات المتتابعة في أركان الدولة .

وقد كشف الصيرفي بحكم قربه من مصادر السلطة و معاصرته للأحداث عن كثير من الجوانب التي أهملها غيره من المؤرخين .

ويسوق الصيرفي أخباره في سهولة أسلوب وتسلسل لا تحس فيه بافتعال . وتجري لغته سهلة لينة . فهو يقترب بها من الكلام الجاري العادي ، لالغة التأليف الرصينة .

وربما عاب المؤرخ الصيرفي دفاعه عن السلطان قايتباي ، ومهاجمته لبعض من عارضوه أو نقدوه من المؤرخين لارتكابه بعض الأخطاء أو المظالم.

ويري الدكتور حسن حبشي (١) أن الصيرفي يحاول في هذا الكتاب محاولة عقيمة للدفاع عن قايتباي وتبرئة ساحته مع إلقاء اللوم من حوله بحجة عدم إيقافهم إياه علي ما ينزل بالشعب من الظلم والكوارث . والمصادرات والسجن .

يقول الدكتور حبشي : وهذا دفاع أعرج مبتور.

علي أن دفاع الصيرفي عن السلطان يشير إلي أن هناك طبقة من كبار شخصيات الدولة لم يكن يعنيها إلا مصلحتها .

وفقدت السلطة هيبتها باستبداد بعض أمراء المماليك . وتولي السلطة في المناصب الكبري بالأمر .

ويعرض الصيرفي صوراً صارخة لهذه الحال . مع الإشارة هنا وهناك إلي بعض الجوانب الاجتماعية والثقافية ، وإن كان لا يسهب .

---

(١) إنباء الهصر : ص٧ .

ويقف الصيرفي موقف النقد لبعض تصرفات كبار الأمراء . والمعظمين فيقول : فلما ضعف أمر هذين السلطانين الأشرف إينال ، والظاهر خشقدم عن ذلك صار الوزير والاستادار يظلمان العباد لعلمهما أن الدواوين لاتسد ، ولا تقوم بالكلفة إلا بالظلم. وصار كل من ظفر بشئ أخذه وسد به ، فخربت البلاد ، وظهر الفساد ، وسكت العباد قبلي وبحري عن جور الوزراء والأستادارية ، وإفشاء ظلمهم ، وأخذهم ما لايستحقون من الرعية ، ومع ذلك فالعجز الفاحش ظاهر عليهم . وأما أمر الكشاف و الولاة ومشايخ العربان مع أهل القري فقس عليهم ، فضلاً عن الحرامية والمفسدين» (١).

وينقد اهمال أصحاب الوظائف الحساسة كالحسبة ، لعدم اهتمامهم بمسئولياتهم ، والاكتفاء بالجلوس في منازلهم ، وترك الأعوان يقومون عنهم بما كان ينبغي أن يقوموا به . «وكانت أحكام المحتسب بالبخت والنصيب، وأما أخلاقه ففي غاية الشراسة» (٢).

وهكذا غطي ابن الصيرفي جانباً من جوانب هذا العصر الهام من رؤية خاصة ألقت مزيداً من الضوء علي ذلك العصر.

---

(١) المصدر نفسه : ٣٧ - ٣٨ .
(٢) المصدر نفسه : ٣٢ .

ابن تعزي بردي

أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي(١)

ولد بالقاهرة في شوال ٨١٢ هـ (١٤٠٨م) في عهد الملك الظاهر برقوق . وكان أبوه مملوكاً روميا اشتراه الملك الظاهر برقوق و أعتقه . وتولي نيابة دمشق . وكفله زوج أخته فاطمة الشيخ القاضي ناصر الدين ابن محمد العديم ، فلما توفي تولاه زوجها الثاني قاضي القضاة جلال الدين البلقيني.

وحفظ القرآن في صغره ودرس الفقه والكلام والنحو والبيان علي جماعة من أعلام العصر كابن حجر العسقلاني ، وبدر الدين العيني وشهاب الدين ابن عربشاه المؤرخ صاحب تاريخ تيمورلنك ، والشمني ، والكافيجي.

ودرس التاريخ علي أستاذه الكبير المقريزي ، وشغف به منذ حداثته فلازمه وأفاد من أستاذية الآخرين كالعيني وابن عربشاه.

وكان رئيساً فاضلاً ، حنفي المذهب ، واشتغل بالعلم ، واهتم بالتاريخ خاصة ، وألف فيه كتابه «النجوم الزاهرة» . وهو من أجل كتبه ، وإن سبقه بأخري . واحد في التراجم هو «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» ، ومنها : «حوادث الدهور» ، و «مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة» و «البشارة في تكميل الإشارة» ، و «حلية الصفا في الأدب» (٢) .

أما «النجوم الزاهرة» فهو موسوعة كبيرة في تاريخ مصر الإسلامية و أهلها منذ الفتح الإسلامي سنة ٢٠ هـ وحتي سنة ٨٧٢ هـ قبيل وفاته بقليل .

ويلخص منهجه في مقدمته فيقول :

«استفتحته بفتح مصر ، وعلي أي وجه فتحت . وأجمع في ذلك أقوال من أختلف من المؤرخين وأهل الأخبار ، ثم أذكر من و ليها من يوم فتحت ، وما وقع

(١) راجع في ترجمته الضوء اللامع للسخاوي ، والشوكاني : ٣ / ٣٥١ ، وابن اياس : ٢/ ١١٨
(٢) ذكرة في النجوم الزاهرة : ٦/ ١٩٥ .

في دولته من العجب ، ثم أذكر أيضاً ما أحدث صاحبها أيام ولايته من الأمور وما جدده من القواعد والولايات في مدي الدهور ، ولا أختصر علي ذلك بل استطرد إلي ذكر ما بني فيها من المباني الزاهرة كالميادين والجوامع ومقياس النيل وعمارة القاهرة . علي أنني أذكر من يعرف من الأعيان في دولة كل خليفة وسلطان باختصار ».

ويتوقف تغري بردي عند مراحل التاريخ المصري منذ الفتح و خاصة عند العصر الفاطمي فيهتم به اهتماماً كبيراً ربما كان تبعاً لاهتمام أستاذه المقريزي الذي عرف باهتمامه بالفاطميين لانتسابه إليهم .

ويهتم كذلك بعصر المماليك و لاسيما العصر الذي عاش فيه في القرن التاسع فهو يسجل أحداثاً كبيرة وصغيرة وأسرارها مما و قعت إليه معرفته وأولاه اهتمامه.

وأما نيل مصر فقد كان له الحظ الوافر من مؤلفه ، أحصي تقلباته من وفاء أو نقص في فيضه عاماً بعد عام .

وبيانه في هذا التاريخ سلس ، جار ، لا تعثر فيه ، وإن لم يبلغ ما بلغ أستاذه المقريزي من بيان ناصع إذ تتخلله بعض الألفاظ و العبارات غير الفصيحة أحياناً.

وله أيضاً غير النجوم الزاهرة : «الذيل الشافي علي المنهل الصافي مختصر للمنهل».

و «البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر».

ويطبعها طابع التاريخ . وخاصة تاريخ مصر .

أما ماعدا التاريخ فله :

«حلية الصفات في الأسماء والصناعات» مجموعة أدبية تاريخية وقد استوعب فيه ذكر معاني الشعر ومختارات من فنون مختلفة كذكر طول الليل وقصره .. إلخ.

وقد حمل عليه السخاوي حملته علي غيره كالمقريزي والسيوطي ، فاتهمه بالحماقة والادعاء والجهل وتزييف الأحداث . قال : إن مؤلفاته فيها كثير من الخلط والوهم .

قال ابن اياس : «وكان نادرة في أولاد الناس ».

وقال الشوكاني : «إن السخاوي أكثر من الحط عليه ، وأطال ترجمته متبعاً لغلطاته(١).

وذكره الصيرفي فاتهمه بالجهل وضعف اللغة ، وأنه كان يدفع بما يكتب إلي بعض الشيوخ ليصححه.

(١) الشوكاني في البدر الطالع : ص ٣٥١ .

السخـــاوي

شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد

ولد بمدينة القاهرة سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨) ، في أسرة أصلها من بلدة سَخاً من أعمال الغربية ، كانت قد انتقلت إلي القاهرة . وتحولت الأسرة بعد مولده إلي بيت جديد مجاور لبيت العلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني . وكان ذلك من أسباب تعلق السخاوي بالشيخ ابن حجر والتزامه إياه.

وذهب السخاوي إلي المكتب فحفظ القرآن ، و جلس إلي شيوخ عصره في مختلف العلوم والفنون ، فَدرس اللغة والفقه والحساب والميقات والأصول والبيان والتفسير والمنطق.

وكان في مقدمة شيوخه ابن حجر .

تتلمذ له طفلاً في الثامنة وقد اعتاد والده أن يصحبه إلي مجالس الشيخ كل مساء فيستمع إلي دروسه في الحديث . قال عن علاقته بشيخه :

«وقبل ذلك كله سمع من والده ليلاً الكثير من الحديث علي شيخه إمام الأئمة وأوقع الله في قلبه محبته ، فلازم مجلسه وعادت عليه بركته في هذا الشأن ، وأقبل عليه بكليته اقبالاً يزيد علي الوصف بحيث تقلل ما عداه . وداوم الملازمة لشيخه حتي حمل عنه عالياً واختص به كثيراً بحيث كان من أكثر الآخذين عنه . وأعانه علي ذلك قرب منزله منه ، فكان لا يفوته مما يقرأ عليه إلا النادر ، وينفرد عن سائر الجماعة بأشياء ، وعلم شدة حرصه علي ذلك فكان يرسل خلفه أحياناً بعض خدمه لمنزله يأمره بالمجئ للقراءة». ولبثت هذه العلاقة الوثيقة حتي توفي ابن حجر سنة ٨٥٢ هـ وكان عمر السخاوي واحداً وعشرين عاماً.

وسوي ابن حجر قرأ السخاوي علي جماعة من الشيوخ عَدَّدهَمْ بأربعمائة.

وسافر السخاوي إلي بعض العواصم المصرية والعربية كالاسكندرية ودمياط ، وأخذ عن علمائها وحج وأخذ عن علماء مكة والمدينة ، وذهب إلي الشام وطاف

بكثير من مدنها كالبيت المقدس ، والخليل ونابلس ودمشق وحمص وحماة، واستقر بحلب زمناً.

ثم عاد إلي مصر وقد ملئ علماً ومعرفة وجلس للتدريس ببعض مدارس القاهرة مثل خانقاه «سعيد السعداء» ودار الحديث الكاملية ، والضرغتمشية ، والظاهرية والبرقوقية ، والفاضلية .. وغيرها .

وذاع صيته وأقبل عليه الطلاب ، والتفوا حوله.

وسافر مرة أخري مع أسرته للحج مرة ثانية ، ثم مرة ثالثة سنة ٨٨٥ هـ وقضي بمكة عاماً للتدريس ثم حج رابعة سنة ٨٧٧ هـ وخامسة سنة ٨٩٢ هـ وسادسة سنة ٨٩٤ هـ .

وكان كل مرة يجلس للتدريس والإقراء بمكة عاماً أو بعض عام أو أكثر قليلاً حتي غدت مكة وطناً ثانياً له . وكتب فيها كثيراً من مؤلفاته .

وعند عودته إلي مصر سنة ٨٩٨ هـ بعد حجته السادسة مكث في بيته وأبي الدرس والإقراء خارجه ، «ترفُّعاً عن مزاحمة الأدعياء» كما يقول . وكان قد أشرف علي السبعين من عمره . ولكنه ظل منكباً علي الدرس والتأليف . وكانت قد انتهت إليه الرياسة يومئذ في معظم علوم عصره. ولا سيما الحديث حتي قيل إنه فاق شيخه ابن حجر فيه .

وانتهي إليه علم الجرح والتعديل حتي قيل لم يبلغ أحد مكانته فيه منذ الحافظ الذهبي .

وذاعت شهرته في العالم الإسلامي فأمَّه الطلاب من أنحائه وجاءوا إليه زرافات ليرتووا من فيضه .

وزهد السخاوي في مناصب الدولة فأعرض عنها .

وذهب للمرة السابعة إلي مكة للحج وتردد بينها وبين المدينة ، حتي استقر بالمدينة وظل يقرئ بها حتي توفي سنة ٩٠٢ هـ في الحادية والسبعين من عمره .

مصنفاته :

وللسخاوي مجموعة من المصنفات القيمة في الحديث والتاريخ والأدب .

واشتهر مؤرخاً لما قدم في التاريخ من عظيم الآثار ونعني كتابيه : «التبر المسبوك في ذيل السلوك» و «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» وهو أعظم كتبه علي الإطلاق و قد ذاع واشتهر به».

وكتاب «الذيل علي رفع الإصر» متمماً كتاب استاذه ابن حجر «رفع الإصر عن قضاء مصر» ، وكتاب «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» (١).

و «الضوء اللامع» قال فيه :

«فهذا كتاب جمعت فيه من علمته في هذا القرن الذي أوله سنة احدي وثمانمائة ختم بالحسني ، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة ، والأدباء والشعراء والخلفاء والملوك ، والمباشرين والوزراء ، مصرياً كان أم شامياً ، حجازياً أم يمنياً ، رومياً أم هندياً ، مشرقياً أم مغربياً . بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل الذمة».

وساعدته رحلته والتقاؤه بعديد من العلماء في جمع مادة كتابه .

بدأه سنة ٨٠٩ هـ وانتهي منه سنة ٨١٨ هـ .

ويظهر هذا الكتاب قدرة السخاوي علي النقد ، وإن غالي في ذلك أحياناً فبدأ متحاملاً علي بعض من ترجم لهم ، و كانت بينه وبينهم أشياء كالسيوطي.

ويقول في مقدمة الكتاب :

«ولكني لم آل في التحري جهداً ، ولو عدلت عن الاعتدال فيما أرجو قصداً ، ولذا لم يزل الأكابر يتلقون ما أبديه بالتسليم ، ويتوقون الاعتراض فضلاً عن الإعراض عما ألقيه والتأثيم ، حتي كان العز الحنبلي والبرهان ابن ظهيرة المحلي يقولان : إنك منظور إليك فيما تقول ، مسطور كلامك المنعش للعقول ، وقال غير و احد ممن يعتد بكلامه ، وتمتد إليه الأعناق في سفره ومقامه، من زكَيتُه فهو

(١) حققه وعلق المستشرق روزنتال وترجم الدراسة الدكتور صالح العلي . طبع بيروت .

العدل، ومن مرَّضتَه فالضعيف المعلل ، بل كان بعض الفضلاء المعتبرين يتمني الموت في حياتي لأترجمه بما لعله يخفي عن كثيرين ..».

وفي هذه السطور شاهد علي اعتداده بكتابه ونفسه ، وظهر هذا الاعتداد في أكثر من جانب من جوانبه ، و لعل ترجمته لنفسه ضرب منه تكفي وحدها للدلالة عليه .

وجرت عليه روح النقد والقسوة علي أقرانه ومعاصريه من علماء القرن التاسع ، واعتداده بنفسه كثيراً من العداوات ، وأشهرها تلك التي ثارت بينه وبين البقاعي وبينه وبين السيوطي وقد أدت إلي الملاحاة والتهاجي وتبادل رسائل التجريح والسباب.

ورد السيوطي عليه في رسالة عنيفة سماها «الكاوي علي تاريخ السخاوي».

يقول في مقدمتها :

«ماترون في رجل ألف تاريخاً تناول فيه أكابر وأعياناً ، ونصل لأكل لحوهم خطافاً ، ملأه بذكر المساوئ ، وثلب الأعراض ، وفوق فيه سهاماً علي قدر أغراضه ، والأغراض هي الأعراض . جعل لحم المسلمين من جملة طعامه وإدامه ، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق فيه بين جليل وحقير .. وامتد حتي إلي العلماء الأعلام».

ويأخذ عليه السيوطي بعض أخطاء في رواية الحديث ، وينسب إليه أنه ظفر بمسوَّدة لكتاب أستاذه ابن حجر في الظلال ، وحجبه عن الناس ونسبه لنفسه ، رماه بالجهل والحماقة والكذب في عبارات عنيفة.

ومع هذا كله فقد ظل «الضوء اللامع» معلماً بارزاً في تراجم علماء القرن التاسع.

وهو أول من وضع هذا الضرب النقدي التحليلي في التراجم . ولم ينهج نهج سابقيه من مجرد جمع الأخبار حولهم دون تحليل أو تمحيص.

ويقول الأستاذ محمد عبد الله عنان:

« .. وفيه يستحيل النقد الأدبي من الرواية المجردة إلي فن حقيقي ، ويتخذ الأسلوب النقدي صيغة محدثة شبه علمية . كان السخاوي متقدماً عصره بمراحل . وكان في القرن التاسع الهجري ، أو القرن الخامس عشر الميلادي يقوم بالدور نفسه الذي قام به سانت بيف Saint Beve النقادة الفرنسي أواسط القرن التاسع عشر الميلادي في النقد الأدبي ».

وخرَّج لجماعة من شيوخه أحاديث في ثلاث مجلدات ، وجمع كتاباً في تراجم شيوخه في ثلاث مجلدات كذلك . وله كتاب «التذكرة» و «تخريج أربعين النووي» في مجلد لطيف.

وتكملة تخريج ابن حجر للأذكار و تخريج أحاديث العالمين لأبي نعيم «وفتح المغيث بشرح ألفية الحديث» في مجلد ضخم ، « وشرح التقريب» للنووي في مجلد.

وإليه يشار في ذلك . ولقد قال بعض العلماء : لم يأت بعد الحافظ الذهبي مثله من سلك هذا المسلك . وبعده مات فن الحديث ، وأسف الناس علي فقده ، ولم يخلف بعده مثله.

قال الشوكاني : ولو لم يكن لصاحب الترجمة إلا الضوء اللامع لكان أعظم دليل علي إمامته ، فإنه ترجم فيه أهل الديار الإسلامية ، وسرد في ترجمة كلٍّ أحد محفوظاته ومقروءاته وشيوخه ، ومصنفاته وأحواله ، ومولده ووفاته علي نمط حسن وأسلوب لطيف ينبهر له من لديه معرفة بهذا الشأن ، ويتعجب من إحاطته بذلك وسعة دائرته في الإطلاع علي أحوال الناس.

ومن قرن هذا الكتاب الذي جعله صاحب الترجمة لأهل القرن التاسع بالدرر الكامنة لشيخه ابن حجر في أهل المائة الثامنة عرف فضل مصنف صاحب الترجمة علي مصنف شيخه بل وجد بينهما من التفاوت ما بين الثري والثريا . ولعل العذر لابن حجر في تقصيره عن تلميذه في هذا أنه لم يعش في المائة الثامنة إلا سبعاً وعشرين سنة وبخلاف السخاوي فإنه عاش في المائة التاسعة تسعاً وستين سنة ، فهو شاهد لغالب أهلها.

وابن حجر لم يشاهد أهل القرن الثامن . ثم إن صاحب الترجمة لم يتقيد في

كتابه بمن مات في القرن التاسع ، بل ترجم لجميع من وجد فيه ممن عاش إلي القرن العاشر . وابن حجر لم يترجم في الدرر إلا لمن مات في القرن الثامن.

وليت أن صاحب الترجمة صان ذلك الكتاب عن الوقيعة في أكابر العلماء من أقرانه ، ولكن ربما كان له مقصد صالح . وقد غلبت عليه محبة شيخه الحافظ ابن حجر ، فصار لايخرج عن غالب أقواله ، كما غلبت علي ابن القيم محبة شيخه ابن تيمية وعلي الهيثمي محبة شيخه العراقي .

قال الشوكاني : «وللسخاوي فضلاً عن الضوء اللامع مجموعة كتب في التاريخ العام و التراجم هي :

١- ذيل تاريخ المقريزي في الحوادث من سنة ٨٤٥ هـ إلي رأس القرن العاشر في أربع مجلدات.

٢- والذيل علي طبقات القراء لابن الجزري .

٣- والذيل علي دول الإسلام للذهبي.

٤- والوفيات لأهل القرنين الثامن والتاسع سماه «الشافي من الألم في وفيات الأمم» في مجلدات.

٥- ومصنف في ترجمة النووي.

ولم يزل السخاوي مشتغلاً بالعلم والتصنيف حتي جاوز السبعين وتوفي سنة ٩٠٢ هـ .

نموذج من كتابة السخاوي

من كتاب : «الإعلان بالتوبيخ».

يقول في فوائد التاريخ وقصص الأولين.

«.. وروي بعض العلماء والمحققين مما حكاه الجندي في مقدمة تاريخه أن الله تعالي أنزل في التوراة سفراً من أسفارها متضمناً أحوال الأمم السالفة ومدد أعمارهم كقوم نوح وهود ، وكمدين وثمود ، وما حكاه عن موسي وهارون وفرعون وقارون وعن أصحاب الكهف والرقيم ، وعن النمرود وإبراهيم . وقال تعالي وهو أصدق القائلين : (وكلاً نقص عليك من أنباء الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادكَ ، وجاءَك في هذه الحقّ وموعظةٌ وذكري للمؤمنين).

وكفي بهذا دليلاً علي جلالة عمل التاريخ وفضله و فخامة قدر صاحبه ونبله.

وقال ابو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي في الحكمة في قص الله تعالي علي المصطفي صلي الله عليه وسلم أخبار الأنبياء الماضين والأمم السالفين أمور منها :

١- قصص عن إظهار نبوته ، والاستدلال بذكرها علي رسالته ، لأنه صلي الله عليه وسلم كان أمياً لم يختلف إلي مؤدب و لا معلم ، ولا فارق وطنه مدة يمكن الانقطاع فيها إلي عالم يأخذ ذلك عنه . فإذا علم بها وتدبر العاقل من قومه ذلك ، علم أنه بوحي من الله سبحانه و تعالي ، فآمن به و صدقه . وكان ذلك من المعجزات الدالة علي صحة نبوته . و،قد ينكر و يجحد حسداً وعناداً.

٢- ومنها قصص التأسِّي بهم فيما أثني الله عليهم به ، والانتهاء عن ضده .

٣- ومنها قصص التثبيت له ، والإعلام بشرفه وشرف أمته ، حيث عوفي (الرسول) وأمته من كثير مما امتحن به مَنْ قبلهم . وخفف عنهم في الشرائع وخصهم بكرامات انفردوا بها عنهم . وقد قيل في قوله تعالي : (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة) . أن الظاهرة تخفيف الشرائع ، والباطنة هنا تضعيف الصنائع.

٤- ومنها قصص التهذيب والتأديب لأمته كما أشار إليه تعالي في قوله :

﴿ أيات للسائلين ﴾ و ﴿ عبرة لأولي الألباب ﴾ و ﴿ موعظة للمتقين ﴾ . لذا قال كان الشبلي يقول فيها : اشتغل العامة بذكر القصص والخاصة بالأعتبار من القصص .

٥- و منها قصص الأحياء بذكرهم ليكون للمحسن سبباً للاجتهاد في العمل رجاء تعجيل ثوابه ، وبقاءً لذكره وآثاره الحسنة . كما رغب خليل الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام إذ قال : (واجعل لي لسان صدقٍ في الآخرين) . والناس أحاديث يقال : ما ميت إلاو الذكر يحييه . وقيل ما أنفق الملوك والأغنياءُ الأموال علي المصانع والحصون والقصور إلا لبقاء الذكر .

وإنما المرءُ حديثُ بعـــــده فكن حديثاً حسناً لمن وَعَي (١).

(١) الإعلان بالتوبيخ ص ٣٧ - ٣٨

جلال الدين السيوطي

(المتوفي بمصر سنة ٩١١ هـ)

هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي أبو الفضل .

وكان يعرف أحياناً بابن السيوطي ، وبالخضيري(١) ، والخضيرية حلة لاتزال تعرف بهذا في أسيوط ونسبته إلي أسيوط عاصمة محافظة أسيوط ، وبلد من بلدان الصعيد العامرة العريقة منذ عهد الفراعنة .

وذكر السيوطي عن والده أنه كان قاضياً. وأنه لم يكن لآحد من أجداده اشتغال بالعلم قبل أبيه . ولد بسيوط أوائل القرن التاسع واشتغل بها ثم قدم القاهرة بعد عام ٨٢٠ هـ ولازم شيوخ العصر ودأب إلي أن برع في العلم (٢).

ويذكر السخاوي أن أمه كانت تركية ، ويبدو أنها كذلك .

ولد كقول المؤرخين يتيماً سنة ٨٤٦ هـ (٣) فقد مات أبوه ونشأ في حجر أمه وكفله ابن الطباخ .

واشتغل بطلب العلم منذ صباه فحفظ القرآن ، وذهب إلي مجالس العلم فأخذ علي جماعة من العلماء والشيوخ الكبار كالبلقيني ، والمناوي ، والشمني والكافيجي ، والبقاعي ، والمحلي . وقيل إن عدد شيوخه بلغ مائة وخمسين شيخاً جمعهم في معجمه (٤) .

وسمع علي الشمني قطعة كبيرة من المطول للشيخ سعد الدين التفتازاني ، ومتن التوضيح لابن هشام قراءة تحقيق . كذلك سمع وقرأ عليه في الحديث عدة أجزاء.

---

(١) يعلل السيوطي نسبته إلي حلة في بغداد بهذا الأسم . حسن المحاضرة : ١/ ١٤٠ .
(٢) يقول ابن اياس أنه ولد سنة ٨٤٩ هـ ٢/ ٢٩ .
(٣) بغية الوعاة : ٢٠٦ .
(٤) ترجمة السيوطي في مقدمة «تحذير الخواص» تحقيق محمد الصباغ : ٢ ٢٧ .

قال السيوطي : ومازال الشيخ يقربني ويحبني ويعظمني ويثني علي كثيراً حتي توفي سنة ٨٧٢ هـ (١).

وهب حافظة واعية ومقدرة علي الاستيعاب ورويت في ذلك أخبار كثيرة بعضها منقول ، والبعض الآخر موضع شك ومبالغة ، فمما ذكروا عن محفوظه القرآن ، وكتابا العمدة والمنهاج . وآلاف الأحاديث.

وكان دائب الاطلاع علي الكتب ، والمحاضرة ، والمحاورة.

ارتحل من القاهرة إلي كثير من بلاد مصر ، كالفيوم . ودمياط والمحلة.

كما سافر إلي بعض البلاد العربية والإسلامية ، وجاور بمكة والتقي ببعض الشيوخ.

وبلغ من العلم مبلغاً كبيراً ، حتي اشتهر بين علماء عصره وذاع صيته في الآفاق . قال عنه ابن اياس : كان من أعيان الشافعية ، بارعاً في الحديث الشريف وغير ذلك من العلوم ، نادرة عصره ، بقية السلف وعمدة الخلف .

وقال الشوكاني : برز في جميع الفنون وفاق الأقران . واشتهر ذكره وبعد صيته.

وعرف السيوطي في تاريخ الفكر العربي والإسلامي بكثرة تصانيفه .

قال ابن اياس : بلغت عدة مصنفاته نحواً من ستمائة . وكان في درجة المجتهدين في العلم.

وقد ذاعت قدرته علي التأليف حتي إنه كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً كما يقول الداوودي في طبقات المفسرين (٢).

وكان معتداً بعلمه فقال : «والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من العلوم السبعة (التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع) لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي فضلاً عمن هم دونهم. ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها

---

(١) بغية الوعاة : ١٦٤ .

(٢) طبقات المفسرين للداوودي . «ترجمة السيوطى» .

لقدرت علي ذلك من فضل الله لا بحولي ولا بقوتي» (١).

ورفع نفسه إلي رتبة المجتهدين ، وأعتقد أنه المجدد للدين في المائة التاسعة. يقول في إحدي رسائله (٢).

«.. جولوا في الناس جولة ، فإنه ثمَّ من ينفخ أشداقه ويدَّعي مناظرتي وينكر عليَّ دعواي في الاجتهاد و التفرد بالعلم علي رأس هذه المائة (العاشرة) ويزعم أنه يعارضني ، ويستجيش عليَّ من لو اجتمع هو وهم في صعيد و احد ونفخت عليهم نفخة صاروا هباءاً منثوراً».

وكان هذا التعالي سبباً في عداء الناس من العلماء والأمراء والأعيان له . فممن عاداه من العلماء السخاوي . علي ما ذكرنا .

قال الشوكاني «.. ولكنه لم يسلم من حاسد لفضله وجاحد لمناقبه فإن السخاوي في الضوء اللامع ، وهو من أقرانه ترجمه ترجمة ظالمة غالبها ثلب «فظيع» وسب شنيع وانتقاص وغمط «لمناقبه تصريحاً وتلميحاً».

وقال : «وقد تنافس هو وصاحب الترجمة منافسة أو جبت تأليف الجلال لرسالة سماها «الكاوي لدماغ السخاوي» (٣).

وكذلك عادي ابن ظهيرة صديقه وتلميذ والده .

وقد شارك السيوطي في الحياة العامة في عصره . مدرساً ، وقاضياً ، وشيخاً للخانقاه ، ومستشاراً للسلاطين .

تولي سنة ٨٧٧ هـ مشيخة الحديث بالشيخونية ، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره بعد وفاة شيخها فخر الدين المقسي (٤) وتولي الخانقاه البيبرسية في عهد السلطان قايتباي سنة ٨٩٠ هـ . وقيل أنه أفتي بأنه لايجوز البناء علي ساحل الروضة بعد أن شرع قايتباي في بناء مسجده هناك .

---

(١) حسن المحاضرة : ١٤١/١ .
(٢) نقله محمد الصباغ عن رسالة الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف ص ٣١ مقدمة تحذير الخواص .
(٣) البدر الطالع : ٢٢٩/١ .
(٤) ابن اياس : ٢ /٤٤٢ .

وولاه الخليفة المتوكل علي الله عبد العزيز قاضي قضاة الشافعية و كبيراً للقضاة بمصر و الشام سنة ٩٠١هـ . قال ابن اياس في حوادث سنة ٩٠١ هـ : «إن الخليفة المتوكل علي الله عبد العزيز عهد للشيخ جلال الدين السيوطي بوظيفة لم يسمع بمثلها قط و هي أنه جعله علي جميع القضاة قاضياً كبيراً يولي منهم من يشاء ويعزل منهم من يشاء مطلقاً في سائر ممالك الإسلام . وهذه الوظيفة لم ينلها سوي القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز في دولة بني أيوب ، فلما بلغ القضاة ذلك شق عليهم و استخفّوا عقل الخليفة في ذلك ، وقالوا : ليس للخليفة مع وجود السلطان حل ولا ربط ، ولا ولاية ولا عزل ، ولكن الخليفة استخف بالسلطان لكونه صغيراً فلما قامت الدائرة والألسنة علي الخليفة رجع عن ذلك وقال لي : هذه كانت وظيفة قديمة ، وكان الخلفاء يولونها من يختارون من العلماء ، ثم اشهدوا علي الخليفة بالرجوع عن ذلك ، وبعث أخذ العهد الذي كان كتبه للشيخ جلال الدين السيوطي ، وكادت أن تكون فتنة بسبب ذلك» (١).

وظل السيوطي شيخاً علي الخانقاه البيبرسية حتي سنة ٩٠٣ هـ فثار صوفية الخانقاه عليه ، وكادوا أن يقتلوه ، ثم حملوه بأثوابه ورموه في الفلسقية وجري بسبب ذلك أمور يطول شرحها» (٢).

وحدثت بينه وبين الدوادار طومان باي الأمير المملوكي الخطير أحداث أحرجت صدر المملوك ، فكان كثير العداء له والحملة عليه ، فلما ولي السلطنة سنة ٩٠٦ هـ طلبه ليقتله ، فاختفي السيوطي خشية بأس السلطان . وقرر مكانه علي مشيخة البيبرسية الشيخ يس البلبيسي (٣).

وظهر السيوطي من مخبأه بعد سقوط طومان باي وتولي السلطان قنصوه الغوري وقد أمنه الغوري ، وقربه وكان يبعث إليه الأموال والهدايا.

وظل السيوطي بعد ذلك يدرّس العلم ويأخذ عليه طلبته ، وقد اعتزل في أخريات حياته بمنزله بروضة المقياس حتي مات في جمادي سنة ٩١١ هـ وعمره ٦٢ عاماً . فكان ممن تخرج عليه ابنه ضياء الدين محمد . وابن اياس الحنفي صاحب التاريخ و جماعة .

(١) ابن اياس : ٢/ ٦٠٢ .　　(٢) المصدر نفسه .
(٣) ابن اياس : ٢/٣٩٤ .

مـؤلفـاتـه :.

بدأ السيوطي مؤلفاً في سن مبكرة - السابعة عشرة من عمره - وأول ما ألف «شرح الاستفادة والبسملة : سنة ٨٦٦ هـ».

وقد تنوعت مؤلفاته بين القرآن والحديث واللغة والنحو والتاريخ والتراجم و الأدب والفقه والبلاغة (١) ويغلب عليها الجمع من مصادر عديدة ، وبعضها مما لم يقع عليه علماء عصره . فمن المشهور المتداول منها :

١- الاتقان في علوم القرآن.

٢- تفسير الجلالين . وقد أتم فيه تفسير أستاذه جلال الدين المحلّي .

٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور.

٤- الجامع الكبير في الحديث

٥- الجامع الصغير في الحديث

٦- المزهر في علوم اللغة

٧- بغية الوعاة في طبقات النحاة

٨- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة

٩- أعيان الأعيان أو نظم العقيان في أعيان الأعيان.

١٠- تاريخ الخلفاء.

١١- شواعر النساء

١٢- تحذير الخواص من أحاديث القصاص

١٣- بهجة الناظر و نزهة الخاطر في وصف مصر ونيلها عند الشعراء

١٤- همع الهوامع وجمع الجوامع

---

(١) فهرس المستشرق فلوجل لكتبه وعدّها نحو ٥٦١ مصنفاً . Flogel
وذكر السيوطي عدد كتبه ٣٠٠ . طبعت بالهند ، وظبعت بالهند رسالة تحوي كتب السيوطي

وأسلوبه في كتبه أسلوب جيد ، ينبئ عن مقدرة وإلمام ، وموهبة وإبداع ومن كتبه الأدبية أو مجموعاته نقف عند كتاب بهجة الناظر ، وهو مجموعة شعرية في فضائل مصر والنيل.

يقول في أوله : «الحمد لله الذي فاوت بين العباد ، وفضل بين خلقه بعضاً علي بعض حتي في الأمكنة والبلاد . والصلاة والسلام علي سيدنا محمد أفصح من نطق بالضاد ، وعلي آله وصحبه السادة الأمجاد . و فقنا الله لما يحبه ويرضاه ، وجعلنا ممن يحمد قصده علي دفع ما قضاه.

وبعد ، فهذا ذكر ما قالت الشعراء في و صف مصر ونيلها ومتفرجاتها، وأوان ربيعها وإملاقها.

فمن ذلك قول شرف الدين ابن الفارض - رضي الله عنه - حيث قال :

وطني مصر وفيها وطرِي   ولعيني مشتهاها ومناها

وقال الصلاح الصفدي:

من شاهد الأرض وأقطارها   والناس أنواعاً وأجْناساً
ولا رأي مصر ولا أهْلها   فما رأي الدنيا ولا النَّاسا

وقال أيضاً رضي الله عنه :

رأيت في أرض مصر منذ حللت بها   عجائبَ ما رأها الناس في جيل
تسوَّد في عيني الدنيا فلم أرها   تبيضُّ إلا إذا ما كنت في النيل

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي:

وكان بمصر السخر قدماً فأصبحت   بأشجارها وأمواهها تترقرق
ويعجبني منها تملق أهلها   وقد زاد حتي ماؤها يتملقُ

وقال آخر :

وما مصر سوي الدنيا ، وساكنُها   هُم الأنامُ فقابلها بتفضيل
يامن يباهي ببغداد ودجلتها   مصر مقدَّمة والشرحُ للنيلِ

وللسيوطي اهتمام بقول الشعر علي الطريقة التقليدية ، ويسلك فيه مسلك غيره من العلماء والشيوخ في عصره.

ويدور أكثره في المديح والرثاء والإخوانيات.

ومن مرائيه قوله في شيخه الشمني المتوفي سنة ٨٧٢ هـ : «وقلتُ أرثيه في قصيدة هي من غُرر القصائد التي لا نظير لها » (١).

ومن مرائيه مرثيته في شيخه سيف الدين محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا التركي القاهري المتوفي سنة ٨٨١ هـ . الحنفي وكان شيخ الخانقاه الشيخونية قبل أن يتولاها السيوطي (٢).

مات سيف الدين منفرداً ... غدا في اللحد منغمداً
عالم الدنيا وصالحُها ... لم تزل أحواله رشداً
ناصر دين النبي إذا ... ما أتاه ملحدٌ كمداً
ذا الذي قد كان من ورَعٍ ... لم يَخْلُفْهُ بعده أحداً
لم يكن في دينه وضر ... لا ولا للكبر منه رداً
عمره أفناه في نصب ... لإله العرش ملتحداً
ليت شعري من نؤمله ... بعد هذا الحبر ملتحداً
ثَلْمة في الدين موتتُهُ ... ما لها من جابر أبداً
قد روينا ذاك في خبر ... وهو موصول لنا سنداً
فعليه هاملات رضا ... ومن الغفران سحبُ ندا
وبُعثنا ضِمنَ زُمْرَته ... مع أهل الصدق والشُهدا

ومن شعره ما قاله في مناسبة الرخاء الذي عم مصر سنة ٨٩٦ هـ وفي مناسبة اجتماع وفاء النيل مع عيد الفطر ، فصار العيد عيدين . قال :

---

(١) بغية الوعاة : ٦٤ .
(٢) تاريخ ابن اياس : ٤٦٨/٢ .

يوم عـيـد الفطر وافَــــي	بهناء وسعــــــــــادة
خُتِمَ الصـوم ووافَـــــي	النيـل في أحسن عـــادة
ياله من يوم عيـــــــد	فيـه حسني وزيـــــادة

ولكن السـيوطي لم يشتهر شاعراً ، وإن كان شعره ليس بذاك كغيره ممن عرفنا من العلماء أمثال ابن حجر .

التعريف ببعض مؤلفاته في تاريخ مصر وغيرها :

١- «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة».:

مُؤَلَفٌ ضخم يقع في مجلدين كبيرين يتحدث في أولهما عن ذكر مصر في القرآن والحديث ، ثم تاريخها الغابر حسبما ترويه الأساطير المتداولة وعجائبها مثل الأهرام ومنارة الأسكندرية . ثم يتحدث عن فتحها في الإسلام ، وعن خططها ، وما يتعلق بالجزية والمكوس . ويقدم لنا بعد ذلك جزءاً من مؤلفه : «در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة» . يذكر فيه من دخلها منهم من حرف الألف حتي حرف الجيم ، ثم يذكر من دخلها من التابعين وأتباع التابعين . ثم يذكر من كان بها من الأئمة المجتهدين والحُفاظ والمحدثين والفقهاء علي اختلاف مذاهبهم ، وأئمة القراءات ، وأئمة النحو ، وأرباب المعقولات ، والحكماء ، والوعاظ ، والقصاص والمؤرخين والشعراء والأدباء.

ويتحدث في المجلد الثاني عن أمراء مصر وسلاطينها في ظل الخلفاء العباسيين ، ثم عن قضاة مصر علي مختلف المذاهب ، ثم عن الجوامع والمدارس، والنيل وأحواله ومواسمه وجزائره . ويختم بمختارات من الشعر في الأنهار والأشجار والرياحين والأزهار والفواكه والمحاصيل الموجودة بمصر .

٢- «در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة».

٣- «تاريخ الخلفاء» وهو في تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة من عهد أبي بكر الصديق إلي عهد المؤلف علي ترتيب زمانهم . وذكر في

ترجمة كل منهم ما وقع في أيامه من الحوادث المستغربة ومن كان في أيامه من أئمة الدين وأعلام الأمة».

٤- تاريخ السلطان قايتباي والدولة الأيوبية ودول المماليك» . وينسب إلي السيوطي .

٥- «الكاوي علي تاريخ السخاوي» .

٦- «الشماريخ في علم التاريخ» رسالة صغيرة .

يتناول أولها في الباب الأول مبدأ التاريخ والمقصود به والحوادث التي تتخذ أساساً للبدء بتاريخ العالم مثل هبوط آدم ، وبعث نوح والطوفان ، وبناء البيت، ثم عام الفيل ، وأخيراً الهجرة التي أتخذها عمر بن الخطاب بداية لتاريخ المسلمين.

ويتحدث في الباب الثاني عن فوائد التاريخ .

وفي الباب الثالث عن فوائد شتي تتعلق به وعن طريقة احتساب التاريخ بالشهور والأيام .

وله في التاريخ مجموعة من كتب الطبقات :

طبقات الحفاظ - طبقات النحاة - طبقات المفسرين - طبقات الكتاب - طبقات شعراء العرب - حلية الأولياء . ونظم العقبان في أعيان الأعيان .

ومن مؤلفاته المخطوطة : لقط المرجان في أحكام الجان ، لخص فيه كتاب أحكام المرجان لبدر الدين السبكي (ت ٧٦٩ هـ) (١) . والبدور السافرة في أحوال الآخرة ، جزيل المواهب في اختلاف المذاهب (٢) . والأحاجي النحوية (٣) . وتحفة المجالس .

---

(١) منه نسخة بمكتبة بلدية الاسكندرية .

(٢) والمخطوطتان بمكتبة الاسكندرية.

(٣) مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة .

محمد بن أحمد ابن إياس الحنفي

ولد بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ وتوفي بها سنة ٩٣٠ هـ.

درس علي جماعة من أعلام عصره ، ولاسيما جلال الدين السيوطي.

وسار في أثر المدرسة المصرية التاريخية التي جنحت عن التعميم إلي التخصيص.

ولكن ابن اياس لم يرد علي ما يظهر أن يكتب تاريخ مصر كله بنفس الإفاضة التي يتميز بها القسم الأخير من هذا التاريخ ، فبينما يتناول تاريخ دول المماليك بشيء من التوسيع إذا به ينقلب إلي الإسهاب والإفاضة منذ بدء القرن التاسع . فإذا كانت أوائل هذا القرن وهو العصر الذي عاش به ابن اياس ووعي صوره وحوادثه ، ألفيته يجعل من تاريخه نوعاً من السجل اليومي لا يفوته أن يدون فيه كثيراً من الحوادث الخاصة فضلاً عن العامة.

أما حوادث الأعوام القلائل التي تلته فإنها تستغرق معظم مجهود المؤرخ ، وتملأ من كتابه أكثر من مجلدين كبيرين ، وفي هذا القسم يدون ابن اياس حوادث عصره وبالأخص الفتح العثماني ما تقدمه وما تلاه . وهنا تبدو أهميته بالنسبة لسابقيه.

ومع ذلك لم يكن ابن اياس مؤرخاً مجيداً ، ولا جغرافياً محققاً ولا شاعراً مبدعاً وكان بيانه يقصر بالأخص عن أداء المهمة الكبيرة التي أخذها علي نفسه ، فهو يكتب تاريخه بأسلوب ضعيف مفكك ، ويلوذ بتكرار النعوت والألفاظ كلما أعوزته حاجة التعبير . ويلجأ إلي العامية في كثير من الأحيان . مما يعود إلي ضعف أصيل في تكوينه أكثر مما يعود إلي ضعف البيان في عصره . فإن معاصريه كالتقي المقريزي وابن داود والسيوطي والسخاوي كتبوا التاريخ وغيره بلغة قوية وبيان منتهيئ .

الفصل الثالث

علماء الدراسات اللغوية والبلاغية

وعرف من علماء اللغة في هذا العصر جماعة اشتهروا بمؤلفاتهم وشروحهم لكتب النحو وجمعهم لتراث اللغة ، وعمل المعاجم نذكر منهم :

ابن عقيل بهاء الدين (١)

وابن خطيب درايا : محمد بن أحمد بن سليمان الدمشقي (٢)

الشيخ الأديب البارع . سمع علي العماد بن كثير وآخرين ، وصنف في العربية وكانت أجل علمه مع مشاركة جيدة في العلوم النقلية والعقلية ، وشرح ألفية ابن مالك . وله كتاب الليث والضرغام في اللغة رتبه علي الحروف .

وله شعر جيد نعرض له عند حديثنا عن الشعراء.

العيني : بدر الدين محمد بن أحمد بن موسي الحنفي العلامة (٧٦٢ - ٨٥٥ هـ):

ولد بعينتابْ ونشأ بها وتفقه وبرع في الفقه ومهر ، وانتفع في النحو والمعاني بالعلامة جبريل بن صالح البغدادي . دخل القاهرة وسمع الحديث . وولي نظر الحسبة بالقاهرة مراراً ، ثم تولي قضاء الحنفبية ، ودرَّسَ الحديث بالمؤيدية فتقدم عند الأشرف برسباي .

كان إماماً عالماً عارفاً بالعربية والتصريف وغيرها . حافظاً للغة كثير الاستعمال لحوشيِّها ، سريع الكتابة.

عمرّ مدرسته بقرب الجامع الأزهر ووقف بها كتبه .

نظم سيرة الملك المؤيد، وكان نظمه رديئاً ، وقد يأتي بلا وزن . وقد جرد ابن حجر من منظومته تلك الأبيات الركيكة والتي بلا وزن فبلغت أربعمائة بيت وسماها : « قذي العين من نظم غراب البين » . وكان بينهما منافسة.

---

(١) ابن اياس : ص ٢١٠ .

(٢) بغية الوعاة : ١١ ، والبدر الطالع : للشوكاني : ١٠٦/٢ .

ومن مؤلفاته شرح البخاري ، وشرح الكنز ، وطبقات الحنفية ، وطبقات الشعراء. ومختصر ابن عساكر . وشرح الهداية في الفقه (١) وكتاب في التاريخ يسمي بتاريخ العيني.

الفيروز بادي :

محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروز بادي (ولد سنة ٨٢٩ هـ وتوفي سنة ٩١٦ هـ) (٢).

ولد بكازرون وتفقه ببلاده وسمع بها من محمد بن يوسف الزرندي المدني «الصحيح» . ونظر في اللغة فكانت جل قصده في التحصيل فمهر فيها إلي أن بهر وفاق . ودخل الشام فسمع بها من ابن الخباز وابن القيم والتقي السبكي والفرضي وابن نباته والشيخ خليل المالكي وخلق . وظهرت فضائله وكثر الآخذون عنه . ثم دخل القاهرة وجال البلاد ودخل الروم فأكرمه ملكها ابن عثمان ، وحصل له منه دنيا طائلة ، ومن تمرلنك . ثم دخل الهند ثم زبيد فتلقاه مالكها الأشرف اسماعيل بالقبول وبالغ في إكرامه وتزوج من ابنته.

وصنف له كتاباً واحداً . وكان يقول : ما كنت أنام حتي أحفظ مائتي سطر ولايسافر إلا وصحبته عدة أحمال من الكتب. وكان إذا أملق باعها . وله من المصنفات القاموس المحيط في اللغة واللامع والمعلم ، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري.

وتوفي في عصر الملك المؤيد شيخ (٣).

ابن الدماميني :

محمد بن أبي بكر بن محمد القرشي المخزومي السكندري (٤) (ولد سنة ٧٦٣ هـ وتوفي ٨٣٨ هـ).

---

(١) بغية الوعاة : وراجع ابن اياس : ٣٦/٢ . (٢) بغية الوعاة : ١١٨ .
(٣) ابن اياس : ١٠/٢ . (٤) بغية الوعاة : ٢٨ .

ولد بالاسكندرية وتفقه وتعاني الآداب ففاق في النحو والنظم والنثر ودرس بعدة مدارس وتقدم ومهر واشتهر ذكره. وتصدر بالجامع الأزهر لاقراء النحو ، ثم رجع إلي الاسكندرية ، واستمر يقرئ بها ويحكم ويتكسب بالتجارة ثم قدم القاهرة ، وعين للقضاء فلم يتفق له ودخل دمشق سنة ٨٠٠ هـ وحج منها وعاد إلي بلده.

واشتغل بالحياكة وصار له دولاب متسع . واحترقت داره و صار عليه مال كثير ففر إلي الصعيد فتبعه غرماؤه وأحضروه مهاناً إلي القاهرة، فقام معه الشيخ تقي الدين بن حجة وكاتب السر ناصر الدين البارزي حتي صحت حاله . ثم حج سنة ٨١٩ هـ ودخل اليمن سنة ٨٢٠ هـ . ودرّس بجامع زبيد نحو سنة فلم يرج له بها أمر ، ثم ركب البحر إلي الهند فحصل له إقبال كبير ، وأخذوا عنه وعظموه وحصل له دنيا عريضة فبغتته الأجل بها سنة ٨٣٧ هـ .

وله من التصانيف : «تحفة الغريب في شرح مغني اللبيب» وشرح التسهيل وجواهر البحور في العروض . والفواكه البدرية في نظمه ، ومقاطع الشرب ونزول الغيث ، وهو شرح علي «الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم» للصفدي وعين الحياة مختصر حياة الحيوان للدميري .

وله شعر عرضناه مع الشعراء.

الشمنـــي :

أحمد بن محمد بن محمد بن حسن (ولد بالإسكندرية سنة ٨٠٦ هـ وتوفي سنة ٨٧٢ هـ) .

الحنفي المالكي الفقيه المفسر المحدث الأصولي المتكلم النحوي البياني، المحقق ، إمام النحاة في زمانه وشيخ العلماء في أوانه.

قال عنه صاحب البغية : «أما التفسير فهو بحره المحيط ، وكشاف دقائقه الوجيز علي الوسيط والبسيط . وأما الحديث فالرحلة في الرواية والبداية إليه ، والمعول في حل مشكلاته وفتح مقفلاته عليه ، وأما الفقه فلو رآه النعمان لأنعم به علينا . وإذا رام أحد مناظرته لأنشد :

ولفْي قولُها كذباً ومَيْنَا

وأما الكلام فلو رآه الأشعري لقربه وقربه ، وعلم أنه نصير الدين وبراهينه وحججه (١).

الجامي :

عبد الرحمن بن أحمد (٢).

كانت له شهرة بالعلم في خراسان وغيرها من الديار ، وقد استدعاه السلطان بايزيد سلطان العثمانيين إلي استانبول واعتذر له عن عدم تلبية دعوته .

صحب شيوخ الصوفية. وله مصنفات منها : شرح الكافيه المشهور بالجامي ، وشواهد النبوة بالفارسية، ونفحات الأنس بالفارسية وتوفي بهراة سنة ٨٩٨ هـ.

ابن عبد المعطي :

عبد القارد بن أبي القاسم بن محمد (٣).

ولد بمكة سنة ٨١٤ هـ وسمع بها عن جماعة ثم جاء من مكة إلي القاهرة واجتمع بفضلائها . وله عدة مؤلفات في النحو واللغة.

كان فصيح العبارة جداً. طلق اللسان قادراً علي التعبير عن مراده بأحسن عبارة وأعذبها وأفصحها . لا تمل مجالسته . ونبغ في التفسير والحديث والنحو والأدب والمحاضرات . وكان حسن المحاضرة جداً ، كثير الحفظ للآداب والنوادر والأشعار والأخبار .

وتوفي سنة ٨٨٠ هـ .

---

(١) بغية الوعاة : ١٦٥ .
(٢) البدر الطالع : ٣٢٨/١ .
(٣) بغية الوعاة : ٣١٠ .

الأشموني:

علي بن محمد بن عيسى بن يوسف بن محمد الأشموني الأصل ثم القاهري . ولد سنة ٨٣٨ هـ وأخذ علي المحلي والبلقيني والمناوي والكافيجي وبرع في جميع العلوم وتصدي للأقراء، وصنف شرحاً للألفية وشرح بعض التسهيل ، ونظم «جمع الجوامع و «إيساغوجي».

قال السخاوي : «وراج ورجح على الجلال السيوطي مع اشتراكهما في الحمق غير أن ذلك أرجح !!».

قال الشوكاني : وهذا غير مقبول من السخاوي في كلا الرجلين . على أن صاحب الترجمة ليس مما ينبغي أن يجعل قريناً للجلال فبينهما مفاوز !.

وتوفي سنة ٩١٨ هـ .

ابن قرقماس :

محمد بن قرقاس الحنفي ولد سنة ٨٠٢ هـ (١).

وكان عالماً فاضلاً من أعيان الحنفية ، ولي مشيخة تربة الظاهر خشقدم . وكان ناظماً ناثراً . وله عدة مصنفات ، منها كتاب : «زهر الربيع في شواهد البديع». وغير ذلك من التأليف . وله معارضة مقامات الحريري. وكان يدعي دعاوي عريضة .

الكافيجي :

محمد بن سليمان بن سعد الرومي (ولد سنة ٧٨٨ هـ وتوفي سنة ٨٧٩ هـ) . كان يعلم العقليات في مدارس القاهرة فولي الشيخونية . ونبغ في المعقولات وعلم العلوم واللغة والجدل والمنطق.

وأخذ عنه جماعة من علماء مصر والقاهرة في القرن التاسع الهجري . دخل القاهرة زمن الأشرف برسباي.

كان يُعْني في درسه بالمعاني والبيان ويدّرس الكشاف للزمخشري . قال السخاوي في الضوء اللامع في ترجمة ابن الكيلاني : جاء إلي القاهرة سنة ٨٧٢ فأخذ عن الكافيجي في المعاني والبيان . بل قرأ عليه في الكشاف وغيره (٢). وله رسالته في الاستعارة . وتصانيفه في العلوم العقلية لاتحصي وأكثرها مختصرات. قال السيوطي : وأجلها وأنفعها علي الإطلاق شرح قواعد الأعراب(٣).

وله رسالة مخطوطة في البلاغة موضوعها الاستعارة هي «الأنموذج» (٤).

(١) ابن اياس : ٤٨٠ .

(٢) الضوء اللامع : ١٣٦/٣ .

(٣) بغية الوعاة للسيوطي .

(١) نسخة بدار الكتب رقم ٣٦٦ بلاغة حققها د . عثمان موافي بمجلة كلية الآداب بالإسكندرية .

ومن علماء المشرق في هذا العصر :

سعد الدين التفتازاني :

محمود بن عمر بن عبد الله العجمي (١).

ولد سنة ٧١١ هـ و تقدم في الفنون وأشتهر ذكره وطار صيته ، وانتفع الناس به . وله شرح التلخيص ، وشرح العقد للإيجي . وشرح مطول علي المفتاح (القسم الثالث) وشرح علي التنقيح وحاشية علي الكشاف وغير ذلك .

وتوفي في سمرقند سنة ٧٩١ هـ أو سنة ٧٩٢ هـ .

الشريف الجرجاني :

علي بن محمد الحسيني الجرجاني (توفي سنة ٨١٦ هـ (٢) . وله كتابان : التعريفات ، والكنايات . وكان من علماء المشرق جاء إلي مصر ، وأخذ علي بعض علماء القاهرة ، وأقام بسعيد السعداء ، ثم غادرها إلي الروم .

ابن جابر الأندلسي :

محمد بن أحمد الأندلسي (٣) (توفي سنة ٧٨٠ هـ)

صاحب بديعية العميان ، والمعيار في فن الأشعار.

ولد ببلدة بالأندلس ، وتلقي العلم علي جماعة من شيوخ العلم . قرأ القرآن والنحو علي محمد بن يعيش ، والفقه علي محمد بن سعيد الرندي . والحديث علي ابي عبد الله الزواوي . ثم رحل إلي الديار المصرية ، وصحبه في هذه الرحلة رفيقه

---

(١) أنباء العصر : ١/ ٣٩٠ ، وبغية الوعاة : ٣٩١ والدرر الكمنة ك ٤/ ٣٥٠ والبدر الطالع للشوكاني : ٢/ ٣٠٣ .

(٢) الشوكاني ١/ ٤٩٠ .

(٣) راجع ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي : ٦/ ٢٦٨ ، والدرر الكامنة لابن حجر : ٣/ ٣٩٠ .

أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطي ، فكان ابن جابر ينظم والغرناطي يكتب.

ونظم ابن جابر مجموعة من منظومات المتون ، مثل «الحلة السيرا في مدح خير الورَي» علي قافية الميم ، وهي بديعية علي طريقة الصفي الحلي وشرحها صاحبه أبو جعفر.

ونظم كذلك «فصيح ثعلب» و «كفاية المتحفظ» وغير ذلك .

ويقول عنه ابن حجر أنه كان كثير النظم عالماً بالعربية ، وذكر الصفدي أنه أنشده من شعره(١).

وقد غادر مصر حاجاً مع صاحبه أبي جعفر الغرناطي ، وأتجها معاً إلي الشام واستقر بهما المقام في حلب وسكنا بها . وظل ابن جابر بحلب مقيماً حتي نهاية حياته ، وبها تزوج ، وكانت إقامته في حلب نحواً من خمسين سنة وانتفع به أهلها.

وله في ميدان النقد والبلاغة كتاباً «المعيار في فن الأشعار» (٢) والبديعية المذكورة . التي شرحها الغرناطي. وهي علي شاكلة بديعية صفي الدين الحلي وبديعية ابن حجة .

وله شعر . قال الصفدي : وينظم الشعر الجيد ، وأنشدني منه كثيراً .

والمعيار في صورته العامة ومنهجه لا يخرج عما جاء في كتب النقد والبلاغة في مصر في القرون الماضية ، وبينه وكتب المصريين والشوام المشابهة في الموضوع واتفاق واضح في الخط الأساسي ، وهو اعتبار البديع بمعناه العام هو إطار البلاغة ومن ثم المعيار الإبداعي في العمل الأدبي والشعر خاصة.

---

(١) نكت الهميان : ٢٤٥ .

(٢) راجع تاريخ النقد : جـ ٢ للدكتور محمد زغلول سلام . طبع دار المعارف .

الباب الرابع

آداب العصر

(الكتابة والكتاب)

الفصل الأول

الكتابة التاريخية

الكتابة التاريخية

اختلفت لغة الكتابة التاريخية باختلاف الكتاب ، فهي إما اللغة الفصحي القويمة المرسلة الخالية من المحسنات ، أو التي يلجأ صاحبها إلي المحسنات البديعية أحياناً ، وإلي التأنق في التعبير ، وبلاغة الأسلوب وغالباً ما يكون هؤلاء من العماء المشادين ، أو ممن مارسوا كتابة الإنشاء ، والتأليف الأدبي إلي جانب التاريخ ، ولعل أشهر هؤلاء في عصرنا ابن خلدون ، والمقريزي ، وابن حجر والعيني ، والسخاوي والسيوطي .

وقد تختلط اللغة عند بعضهم ببعض الألفاظ العامية ، ولا يخلو أسلوب من ذكرنا أحياناً من هذه الألفاظ ، وإن جاءت قليلة نسبياً ، لكنها قد تزيد نسبتها عند ابن تغري بردي ، فضلاً عن عبارات ، وتراكيب غير عربية وقد تغلب العامية الفصحي عنه ابن إياس ، ويكثر من المأثورات الدارجة ، فضلاً عن الأمثال الشعبية والمنظومات كالزجل والبليق ويقترب من لغة ابن إياس كل من ابن الفرات وابن دقماق .

وقد تصبح اللغة عند بعضهم دارجة عامية لاوجود للفصحي فيها كما سنري في كتابات بعض من تعرض لهم .

وكان الاهتمام بالتاريخ لخدمة التفسير والمعرفة . واستخراج العبرة ، وتنوعت مناهج الكتابة التاريخية وأساليبها تبعاً لثقافة الكاتب ، وتوجهاته.

وجاءت بعض الكتابات التاريخية أقرب إلي الأدب منها إلي التاريخ بما ضمنها صاحبها من رؤي ذاتية ، وأحاسيس ومشاعر خاصة نحو الأحداث التي يشاهدها أو يسمع بها أو يؤرخها.

كما عبرت كتابات بعضهم عن توجهاتهم الفكرية ، والمذهبية ، وإن غلب علي أكثرهم الإتجاه السلفي السائد في العصر ، إلاَّ أن جماعة تحرروا منه بعض التحرر ، أو كله ، وكتبوا في موضوعية ملحوظة وعلمية ورؤية عقلية واضحة تميل إلي تحليل الأحداث ، واستنباط العبر ، والقواعد العامة التي تواكب حركة التاريخ ،

وقيام الدول ، وسقوطها ، ورقي المجتمعات ، وانحطاطها كما في كتابات ابن خلدون مثلاً .

واهتم بعضهم بالتعبير عن اتجاهه المذهبي وتشيعه له ولمن حكموا به كالمقريزي الذي عرف بتشيعه للفاطميين ، مما دفعه إلي الإشادة بهم حكاماً لمصر ، والحملة علي غيرهم ممن جاء بعدهم .

وحاول بعضهم أن يقترب من الحياة العامة ، وأن يعرض لأحوال الناس العاديين ، ويسجل انطباعاتهم بالأحداث ، والأصداء التي تتردد بينهم والإنفعالات التي تنتابهم ، وأفراحهم وأتراحهم ، وما يصدر عنهم من أحاديث و تعليقات ، وانتقادات تأخذ صوراً مختلفة من التعبير ، بالنكت ، والسخرية ، والنظم الشعبي .. إلي غير ذلك .

وكان ابن إياس رائداً في هذا المجال ، وكتابه «بدائع الزهور» سجل حي لنبضات الشارع المصري علي مدي العصر المملوكي الثاني وملوك الشراكسة» وهو الذي زامن أخرياته ، وشاهد سقوطه بنفسه .

واهتم بعضهم بكتابة سير السلاطين بأسلوب يطبعه التملق الواضح كابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ) .

فقد كتب عن سيرة الملك الظاهر برقوق ، وكان من شيعته يقول (١) :

«وفي يوم الجمعة سابع عشر من محرم دخل السلطان إي القاهرة المحروسة ، وفرشت له الشقق من قبة النصر إلي داخل القصر الأبلق ، وزينت القاهرة ومصر ، وحل الركاب الشريف السلطاني الملكي الظاهري السيفي من الشام المحروس إلي الديار المصرية . و لما و صل إلي قبة النصر فرشت له الشقق الحرير من الأطلسي وغيره إلي داخل قصره . وطلع إلي قلعته في الساعة الثالثة من اليوم المذكور ، وقعد بقصره بعد أن خلع علي سائر الأمراء المقدمي الألوف كلٌ منهم قباء يوجهني ... قال ! وكان يوم طلوعه يوماً مشهوداً ، وجاء إلي الديار المصرية مجئ الغيث للبلد الماحل ، والعافية إلي السقيم الناحل ؛ بل كفلق الصبح بعد الإظلام ونور

(١) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ص ٢٨٤ / في عام ٧٩٤ هـ بمناسبة عودة برقوق الي السلطنة بعد عزله .

الأرواح في ظلمات الأجسام . وحَصَّل لوجوه الآمال تهللاً وبشراً ، ولطيب الأماني شرفاً ونشراً ، وأصبحت الديار المصرية وثغورها بواسم ، وأيامها أعياد ومواسم ، كما قال الشاعر :

كأنَّ أيامه من حُسْنِ سيرتهـــا مواسِمُ الحجِّ والأعيادِ والجُمَع

بعد استياق أهلها إلي جوده وفضله ، وحكمه في القضايا بعدله ، وبثّه للأحكام بفضله ، وفعل الجميل الذي هو من أهله، فعمَّ الرعايا بالعدل والفضل ، وأفاض عليها من الجود الجزيل ، فانتصَرَ الضعيفُ المحقُّ علي الظالم ، وتناصف الناس فيما بينهم في الظلم » (١).

وغير خفي هذه الأهازيج التي ختم بها وصفه لعودة السلطان ، والتي دبَّج عباراتها بأسلوب إنشائي استعان فيه بطريقة القاضي الفاضل ، وبعض عباراته في مديح آل أيوب.

وينهج ابن خلدون في كتابته التاريخية ، نهجاً آخر لغةً . وفكراً ، وبخاصة في مقدمة كتابه العبر ، والذي يدل عنوانه علي محتواه ومنهجه وغايته من كتابته التاريخية .

ويري ابن خلدون في اللغة الفصحي رأياً غير ما يراه بعض معاصريه ، فهي عنده لغة الدولة والعلم والحضارة ، ولهذا حرص علي سلامتها فيما كتب . ويبدو أنه يري في قوة اللغة ، قوة الثقافة ، وقوة العنصر العربي المؤسس للدولة الاسلامية التي كتابها القرآن ، وقد وضع دستورها بلغة فصحي رقيعة ، اعتبرها المثقفون نموذجاً يحتذونه فيما يبدعون، أو ما يعبرون عنه من مختلف نشاطاتهم واجتهاداتهم في شتي مناحي الفكر والأدب .

يقول ابن خلدون (١) اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها ، ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العصر عربية ، وإن كان اللسان العربيّ الحضري قد فسدت ملكته ، وتغيرٌ إعرابه ، والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغَلَبِ علي الأمم . والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها موادُّ له ، والصورة مقدمة علي

---

(١) المقدمة ص ٣٣٠ .

المادة . والدين إنما يُستَفَادُ من الشريعة ، وهي بلسان العرب ، كما أنَّ النبي صلي الله عليه وسلم عربيٌّ ، فوجب هجر ما سوي اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها .. لأن الناس تتبعُ السلطان وعلي دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام .. وهجرت الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك ، وصار اللسان العربي لسانهم حتي رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ، ومدنهم ، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها ، وغريبة ، ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه ، وتغيُّر أواخره ، وإن كان بقي فيه الدلالات علي أصله ، وسمّي لساناً حضرياً في جميع أمصار الإسلام .

وأيضاً فإن أكثر أهل الأمصار في الملّة لهذا العهد (العصر المملوكي الثاني) من أعقاب العرب ، المالكين لها ، الهالكِيَنَ في ترفها ، بما كثَّروا من العجم الذين كانوا بها ، وورثوا أرضهم وديارهم . واللغات متوارثة ، فبقيت لغة الأعقاب علي مثال لغة الآباء وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجام شيئاً فشيئاً ، وسميت لغتهم حضرية.

ولَمّا تملَّكَ العجم من الدَّيْلَمْ والسُّلجُوقِيَّة بعدهم بالمشرق ، وزناتة ، والبربر بالمغرب ، وصار لهم المُلك ، والاستيلاء علي جميع الممالك الإسلامية فسد اللسان العربي لذلك ، وكاد يذهب ، لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسّنة وربما بقيت اللغة العربية المصرية بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين».

وهكذا كشف ابن خلدون عن دور اللغة في كونها وعاء للثقافة والحضارة والتاريخ والمجتمع . عن طريقها يمكن الكشف عن جوانب كثيرة في حياة الأمة التي تتحدث لغة بعينها.

وقد كشفت البحوث اللغوية المعاصرة كثيراً من جوانب هذا الوعاء اللغوي ، واستخرج علماء الآثار ، والتاريخ والاجتماع كثيراً من عناصر اللغة التي كشفت ، أو سجلت واحتفظت في وعائها بكثير من تلك الجوانب التي أشرنا إليها.

وربما كان حال اللغة في عصرنا هذا ، وفي هذا الموضوع الخاص الذي نحن بصدده وهو الكتابة التاريخية دالاً من الدوال علي أحوال العصر علي النحو الذي ألمح إليه ابن خلدون ، وحققته وأكدته الدراسات المعاصرة.

ونواصل الحديث عن لغة الكتابة التاريخية في كتابات مؤرخي العصر . ونعود مرة أخري لابن خلدون ، ولكننا هذه المرة لا نورد حديثاً مباشراً له للربط بين حال

اللغة وتاريخ الأمة . وإنما نستنبط من جملة حديثه عامة فيما أوردنا من قبل عن علاقة اللغة بالدولة، من حيث القوة والضعف، وغلبة العنصر المؤسس للدولة وصاحب اللغة وهم العرب والمسلمون الأوائل أو تراجعه . وضعفه وغلبة عناصر أخري ذات لغات متعددة في تهجين اللغة ، كما تهجن المجتمع ، فلم تعدله الوحدة المتماسكة لتخلخل اللغة ، وتداخل عناصر دخيلة ، أخلت برصانتها .

ويري ابن خلدون من عوامل تماسك الأمة وحدة اللغة ووحدة العقيدة ، ووحدة السلطة ، وأن تقوم السلطة علي رعاية هذه الوحدات الثلاث في تعاضد وتلاحم فقد رأي أن ما يمسك كيان الأمة والدولة هو وجود "سلطان عال مقتدر يزجر غرائز البشر بما يسنَّ من قوانين تضمن النظام والأمن والسلام الإجتماعي .ويستند هذا السلطان إلي أمر نبويٍّ سماويٍّ ، أو علي مصلحة عامة أو شخصية.

ومن هذا الترابط بين اللغة والمجتمع نلاحظ هجوم ابن خلدون علي لغة الحضر واتهامها بالضعف كما أشرنا في النموذج الذي عرضناه لحديثه عن اللغة وضعفها في الحضر ، بتحللها من بعض قيودها كالإعراب . وكأنه وهو يعرف للخلل الاجتماعي في مجتمع الحضر يوازي بين هذا الخلل الإجتماعي والخلل اللغوي .

يقول (١) " أما فساد أهلها (المدينة) في ذاتهم واحداً واحداً علي الخصوص فمن الكدّ والتعب في حاجات العوائد . والتلون بألوان الشرّ في تحصيلها ، وما يعود علي النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون أخر من ألوانها ، فلذلك يكثر منهم الفسق والشرُّ ، والسفسفةُ ، والتحيُّل علي تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه ، وتنصرف النفس إلي الفكر في ذلك والغوص عليه ، واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء علي الكذب ، والمغامرة والغش والخلاعة ، والسرقة والفجور في الأيْمان والربا في البياعات ، ثم تجدهم أبصر بطرق العشق والفسق ومذاهبه ، والمجاهرة به وبدواعيه ، واطراح الحشمة في الخوض فيه حتي بين الأقارب وذوي المحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك ، ونجدهم أيضاً ، أبصر بالمكر والخديعة ، يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر ، وما يتوقعونه من العقاب علي تلك القَبائح حتي يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلاَّ من عصمه الله .

---

(١) المقدمة ص ٣٢٥ .

ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب و غلب عليه خلق الجوار (الجواري) وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات. »

وهذا العرض لأحوال المدينة ، وما يخالطها من المفاسد ، والإنحلال قد يقف وراء ما شاع من لغة داعرة تتعرض للمحارم ، وتخدش الحياء بلا مواربة ، ولا استحياء . وأكثر ألفاظ هذه اللغة من السوقي الساقط أو الدخيل غير المألوف في اللغة العربية مما وفد مع العناصر البشرية المؤلفة للمجتمع في هذا العصر ، والتي أصبحت ألفاظها التركية والفارسية والتترية الدالة علي أشياء لم تألفها العربية شائعة متداولة .

وفضلاً عن هذا فقد دلّ التدني اللغوي علي التدني المعرفي لمسيرة التاريخ والخلط المضلل بين أحداثه ، واختلاط عصوره ، وتضارب أنبائها ، وبالضرورة فإني لا أقصد بالتدني القياس بالفصحي لفظاً وتركيباً ، ولكني أقصد بالتدني الدلالي ، والربط المنطقي بين عناصر الأسلوب ، وبناء الكلام علي أساس أن الكلام يفضي بعض إلي بعضه فالملاحظ مثلاً أن لغة كاتب تاريخي كابن خلدون ، أو المقريزي ، تخلو من العفوية ، والقاء القول عل عواهنه وإنما يتحدث كلاهما كلاماً محكماً مقنعاً ، تتماسك عباراته وألفاظه تماسك مضامينه ومعانيه .

ونعود إلي ابن خلدون لنقف من خلال لغته الكاشفة علي بعض ما شاب أقوال المؤرخين المعاصرين من فكر أسطوري غير واعٍ ولا مستنير ، فهو فكرٌ عاميٌّ نأقل ومتبع غير ناقد ولا مستنير.

وحديث ابن خلدون كان بصدد ما يدور حول بعض المعابد والأبنية والهياكل الضخمة لقدماء المصريين من أساطير و حكايات خرافية يتناقلها بعض العلماء في مؤلفاتهم التاريخية ، وبعض المفسرين في تفاسيرهم لآخبار الفراعين والأمم القديمة وقد جاء في بعض هذه الكتب مزاعم عن عاد تنسب إليها غزو مصر وبناء الأهرامات و الهياكل . يقول ابن خلدون (١).

« وأكثر أثار الأقدمين لهذا العهد - عصره - تسميها العامة عاديَّة نسبة إلي قوم عاد و مصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم . وتضاعف قدرهم . وليس كذلك .

فقد نجد آثاراً كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي مثل ذلك العظم وأعظم ، كايوان كسري ، ومباني العبيدين - الفاطميين - من الشيعة بأفريقيا .. إنهم لم يكونوا بافرآط في مقادير أجسامهم ، وإنما هذا رأي و لع به القصَّاص عن قوم عادٍ وثمود والعمالقة . ونجد بيوت ثمود بالحجر منحوتة إلي هذا العهد . وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين - في طريق الحج - ويشاهدونها ، لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها علي المتعاهد . وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتي إنهم يزعمون أن عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريّاً ، ويشويه في الشمس ، يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منه .»

وعلي الرغم من أن ابن خلدون يحاول أن يحرر لغة الخطاب المعرفي من الأساطير والخرافات التي لا تمت إلي الحقيقة بصلة ، والتي أصبحت في عصره عماد كثير من الكتابات إلاَّ أن الطابع الثقافي العام كما أشرنا لم يترك فرصة لهذا التصحيح المستنير للمسار المعرفي وظلت مجمل الكتب تاريخية ودينية وأدبية تفيض بمثل هذه الأساطير . كما سنتحدث عن ذلك تفصيلاً ، ويكفي أن نورد نماذج لمثل هذا اللون الأسطوري الذي بَثَّتَهُ تلك الكتب ، وكأنه حقائق معتمدة، وموثقة ، وليس جهلاً ، وتهاويم قصَّاص كما ذكر ابن خلدون .

فقد ورد في كتاب «التيسير والأعتبار» حكاية مشوهة تحولت إلي أسطورة وهي في أصلها حقيقة ضلت سبيلها في أذهان النقلة . وتحولت كغيرها من الحقائق التي أفسدتها الشفاهية ، بالحذف و الإضافة والتحوير .. إلخ .

يقول صاحب التيسير - وأحسب أنه يشير إلي قصة اخناتون التي تحولت من حقيقة تاريخية إلي أسطورة (٢).

«ويقال إنما كانت عداوة فرعون لبني اسرائيل ، وضمه إياهم لمخالفتهم لدينه لأن الفراعنة كلهم كانوا صائبة ، يعبدون الأصنام والكواكب ، إلاَّ واحداً منهم كان يعبد من الكواكب الكوكب الشاقب (يقصد النجم الثاقب) المسمي زحل فأظهر الله سبحانه له آية ، وخاطبه زحل ، وقال له : لا تعبدني فإني مخلوق، وإلهي والهك

---

(١) المقدمة .

(٢) التيسير والأعتبار ص ٦٠ .

الله رب العالمين ، فترك عبادة الأصنام و هجر الهياكل ، وأظهر التوحيد لمن أمكنه من أهله وخواصه ، وكتم إيمانه ، وعبد الله سبحانه إلي أن مات».

تلك قصة إخناتون ، وكيف تحولت إلي أسطورة لعب فيها خيال بعض عوام المسلمين فتغيرت معالمها ، وتحول معبود إخناتون من القو ة المختفية وراء قرص الشمس «رع» إلي الكوكب «زحل» و هوَ النجم الثاقب كما جاء في القرآن وفسرته بعض التفاسير ، ونسب إلي الصائبة عبدة النجوم كما جاء في كتب الملل وأظن أن هذه القصة ، من مأثورات التراث المصري انتهت إلي هذا المؤ لف المصري ، وليست من الإسرائيليات ، لأنها لا تعترف بالسبق المصري إلي التوحيد. وجدير بالذكر أن الصابئة اعتبروا كتابيين أو موحدين بنص القرآن في بعض آية .

ومما جاء في هذا الكتاب من أمثال تلك المرويات المغلوطة تاريخياً قوله عن فرعون موسي (١) «وكان فرعون موسي آخر الفراعنة ، وأحقرهم في الشأن ، ولما اشتدت قوته زاد في الطغيان ».

ويقو ل : «ومن المعلوم أن فرعون لم يملك سوي ملك مصر لاغير. »

ويتمثل الخلط التاريخي عند هذا المؤلف بصورة واضحة فيما رواه عن العلاقة بين «نبوخذ نصر» أو «بختنصر» وتخريب بيت المقدس ، أو أورشليم ، وقتل زكريا ويحيي عليهما السلام ، والفارق الزمني بعيد . وقتل يحي كان علي يد ملك يهودي ولم يكن علي يد بختنصر الآشوري .

يقول صاحب التيسير (٢) : "يقال إن أول من سنَّ التخريبَ في الدنيا بختنصَّر ولم يخرِّب إلاَّ بيت المقدس ، وكان في ذلك آيات من الله سبحانه وتعالي ، وتسليط ونقمة علي بني اسرائيل لما قتلوا زكريا ويحيي عليهما السلام . »

ونخرج من هذا الخلط الواضح في التاريخ القديم إلي خلط آخر في أزمان التاريخ الإسلامي ، فإن صاحب هذا الكتاب «التيسير» ينسب المتبني إلي عصر المعتصم ، وبينهما زمن طويل يقرب من قرن ليقول (١)

«ولما توجه المعتصم بالله إلي فتح عمُّوريَّة الكبري من بلاد الروم (٢٢٢ هـ)

(١) التيسير ص ٥٩ .
(٢) التيسير ص ٥٧ .

كانت عدة عساكره خمسمائة ألف فارس ، وعلي مقدمته من الخيول البلق ثلاثون ألفاً "أُجيزَ المتنبي علي شعره من الخليفة بخراج الموصل . وكان المتنبي يُنْعِلُ خيوله بالذهب".

وهذا مثال آخر للخلط ، واختلاط الحقيقة بالخرافة . فلم يكن المتنبي في عصر المعتصم ، وأخطأ المؤلف وخلط بين أبي تمام والمتنبي ، وبالغ . وسيطرت علي ذهنه الخرافة والمبالغة فقال ما قال عن خراج الموصل ووقفه علي الشاعر وأنه كان ينعل خيوله بالذهب".

وهذا مثال صارخ علي هذا اللون من الكتابة التاريخية غير الرشيدة والتي تكشف بوضوح عن ثقافة العصر المخدَّجة والهجين كما أشرنا في لغته .

ونورد أمثلة من كتاب آخر في سياق الخطاب التاريخي وشوائبه الأسطورية ذلك الكتاب هو «زبدة كشف الممالك» لخليل بن شاهين الظاهري ، وهي أمثلة تظهر التأثر الو اضح بالمأثورات الاسرائيلية التي تروي وتنسب إلي كعب الأحبار» وهو مصدر كثير منها في كتب التفسير والأخبار والتاريخ . ولا يسلم منها عالمٌ مجتهد فضلاً عن ناقل غير بصير.

فقد روي صاحب الكتاب عن كعب الأحبار قوله (١).

" إن الله تعالي أوحي إلي سليمان عليه السلام أن يبني بيت المقدس ، فجمع حكماء الإنس والجن ، وعفاريتهم ، وعظماء الشياطين . فجعل فريقاً يبنون ، وفريقاً يقطعون الصخر والعمد من معادن الرخام ، وفريقاً يغوصون في البحر ، فيخرجون منه الدرَّ والمرجان ، كلُّ درَّة قدر بيضة النعامة . وأسَّسَ البناء علي الماء ولما فرغ من بنائه أطعم فيه بني اسرائيل اثني عشر ألف ثور " .

وروي الكلبي - وهو مصدر آخر من مصادر هذه الأساطير والأقاصيص - قال : (٢) .

ولما فرغ سليمان عليه السلام من بناء بيت المقدس أنبت الله له شجرتين عند باب الرحمة تنبتان الذهب والفضة . فكان كل يوم ينزع من كل واحدة مائتي رطل

(١) التيسير ص ٦٥ .
(٢) زبدة كشف الممالك ص ١٨ .

ذهباً وفضة ، إلي أن فرش المسجد بلاطةً من ذهب ، وبلاطة فضة ، واستمر علي ذلك إلي أن أتي بختنصر خَرَّبة ، واحتمل منه ثمانين عجلة ذهباً (يقصد خمسين عربة).

وقال : (١) وكان فوق قبة الصخرة غزالٌ من ذهب في عينيه درَّتان حمراوان يقعد نساء البَلقاء يغزلن علي ضوئهما بالليل ، ومسيرة البلقاء من بيت المقدس قريب من ثلاثة أيام ، وكان أهل عمواس يستظلون بظل القبَّة إذا طلعت الشمس من المشرق ، وإذا مالت إلي الغرب استظل بها أهل الرامة وغيرهم . وكان ارتفاع القبة ثمانية عشر ميلاً » .

وهذا التصور الخرافي غير المعقول لكاتب هذا الكلام أو ناقله يدّل علي عقلية غير واعية ، ولا مدركة للنسَّب ، والأبعاد ، وتسيطر عليها الخرافة وتلقي بزمامها إلي الموروث دون تدقيق ، وتسلّم بالمرويّ دون عرض علي الفهم الدقيق .

ومفهوم أن القبة بناء إسلامي ، وليس بناء قديماً ، ولايتصور أن معبد سليمان أو بيت المقدس أن قبة الصخرة كانت قائمة بهذا الشكل المهول الذي لايعقل ولا يوجد إلاّ في أوهام الناس وخيالاتهم عن عالم الجن والعفاريت .

ومما يرويه صاحب الكتاب عن كعب الأحبار قوله ! لاتقوم الساعة حتي يزور البيت الحرام البيت المقدس » ولم يدرك نقلة هذا الخبر ما فيه من تلميح إلي القصد الذي قصد من روايته ، وميله الإسرائيلي لايخفي من القول بأن القيامة لا تقوم حتي يؤول الدين إلي ما بدأ عنه زعماً بأن يسلم البيت الحرام بيت المسلمين إلي البيت المقدس وهو أصل قبله اليهود ثم المسلمين من بعد ، وتحولت منه القبلة إلي البيت الحرام . وكان راوي هذا الكلام يري أن البيت المقدس سيعود مرة أخري ليصبح هو الوحيد الذي يتوجه إليه المسلمون والناس جميعا وهو في الأصل علي زعم اليهود قائم علي هيكل سليمان .

ومما يروي تبجيلاً وتعظيماً لبيت المقدس ، ولا يروي مثله عن البيت الحرام مع أنه في نص القرآن أول بيت وضع للناس ، وأنه ، وأنه ... إلخ .. لكن الخبر بضرب صفحاً عن هذا كله ليقول كما يرويه صاحبنا (٢) .

---

(١) زبدة كشف المماليك ص ١٨ .
(٢) المصدر نفسه

«وروي عن ابن عمر الشيباني أنه قال : لا تقوم الساعة حتي يضرب علي بيت المقدس سبعة حوائط ؛ حائط من ذهب ، وحائط من فضة ، وحائط من ياقوت ، وحائط من زمرد ، وحائط من لؤلؤ ، وحائط من نور ، وحائط من غمامة " ولا تري غرضاً واضحاً من وراء رواية هذا الخبر سوي تعظيم بيت المقدس وإجلاله.

ومن تمام ما يروي من أخبار التعظيم والإجلال ، ما رواه صاحب الكتاب عن مُقاتِل بن سليمان أن كل ليلة ينزل سبعون ألف ملك من السماء إلي مسجد بيت المقدس لا يعدون إليه إلاً أن تقوم الساعة ، وهذا في كل ليلة[1] .

هذه نماذج لأحاديث وأخبار تتناقلها كتب العصر ، تدل علي هذا الاختراق الثقافي للإسرائيليات ، وتدور في فلك الأساطير ، لتوقع القارئ الساذج في أوهام ومغيبات يطلب إليه أن يسلم بها لتغيبه عن وعي الحقيقة ، ويصبح التاريخ والكتابة التاريخية الإطار ، والوعاء المحتوي ، بما لهما من جاذبية ، وتأثير في نفوس الناس لولعهم بالأخبار وتطلعهم دائماً إلي الحكي والقصّ لتَقصَّي ما كان في كان يا ما كان ، في غابر العصر والأوان ؟!.

ونعود لنعرض جانباً آخر من جوانب الكتابة التاريخية تمثل توجُّها مغايراً في عرض الوقائع والأحداث ، والنظر إليها من و جهة نظر متأثره بالتوجه المذهبي للمؤرخ والذي لا يتفق مع التوجه للعصر في مجمله ، تلك الو جهة للمؤرخ الشيعي الاتجاه ، والانتماء المصري النشأة والوطن «المقريزي» .

فكل من عرضنا لهم من أصحاب الاتجاه السلفي ، من كان منهم مدفقا أو من الحشوة الذين يجمعون ولا يُدقِّقُون فيما جمعوا . وسبق القول بأن التشيع ارتبط بالاعتزال وأخذ بعض علمائه بالمنهج العقلي عند المعتزلة ، بل أن الشيعة وافقوا المعتزلة في بعض توجهاتهم كابداء الرأي في المنقول ، والأخذ بالمعقول والتأويل للنصوص الدينية لمسايرة العقل . فضلاً عن الانتصار لوجهة نظرهم الخاصة في العقيدة والإمامة.

علي أية حال فإن الكتابة التاريخية للمقريزي قد تأثرت بعقيدته الشيعية

(١) زبدة كشف الممالك ص ٢٢ .

وانتمائه للفاطميين ، ودليل اهتمامه بهم تأليفه لكتاب «اتعاظ الحنفا بدولة الفاطميين الخلفا» ويتضح من هذا العنوان ميله للفاطميين بوضوح ، كما يظهر في هذا الكتاب ، فضلهم علي غيرهم من الدول التي أعْقَبَتْهم ، وكلها دول سنية من أيوبيين ومماليك.

ويبدو ولاؤه للفاطميين ظاهراً في كل كتاباته ، وهو في كتابه الشهير الخطط غير خاف ، إذ لا يترك فرصة تتاح دون الإشادة بهم والزراية بمن جاء بعدهم تصريحاً أو تلميحاً .

وكان ولاؤه ثلاثياً لمصر و العروبة والإسلام ، وليس هذا غريباً لمؤرخ ولد بالقاهرة من أسرة يمتد نسبها إلي أحد خلفاء المصريين أو الفاطميين . وكان والده يتولي في هذا العصر جامع الحاكم بأمر الله ويقول لابنه : ياولدي هذا جامع جدك . ومعروف أن الذي بدأ ببناء الجامع الخليفة العزيز بالله ثم أتمه الحاكم بأمر الله ابنه.

وقد انتصر لبني هاشم ودافع عنهم في أكثر من موضع ، وألف فيهم كتاباً (١) ويقول في كتاب « الخبر عن البشر ».

« ... أما بعد فإن الله – وله الحمد لَمّا من بإكمال كتاب «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأتباع ، والأخوال ، والحفدة والمتاع» صلي الله عليه وسلم أردت أن أعمل له مدخلاً يشتمل علي بدء الخليقة ، ومن سكن الأرض أولاً، وكيف خلق الله تعالي آدم عليه السلام ، وبثَّ منه ذريته لكي تُعرف العرب بين الناس ، ويتميز جنسها من بين الأجناس ، ليُعلم كيف كان اجتماعها في غابر الدهر واتفاقها ثم كيف كان بعد ذلك تمزقها وافتراقها حتي صارت شعوباً وقبائل وعمائر وأفخاذاً وفصائل . فإن رسول الله صلي الله عليه وسلم من بني هاشم ، وبنو هاشم من قريش ، وقريش من العرب . فهو صلي الله عليه و سلم العربي القرشي الهاشمي فلهذا دعت الحاجة إلي معرفة العرب ، ليعرف لها حقها من المحبة والإعظام والتجلة والإكرام».

وينبغي أن نشير هنا إلي أن الفاطميين كانوا يؤكدون علي ضرورة عودة الحكم إلي العرب ، وكانوا حريصين علي التأكيد علي عروبتهم فيما يقولون ، ويفعلون

(١) هو كتاب النزاع والتخاصم .

ويزرون بالضرورة علي أبناء الإماء والمولدين من خلفاء العباسيين ، كما يحملون علي تسلط الأعاجم علي مقدرات الدولة الإسلامية.

وقد رأينا في بعض ما نقلناه من أقوال ابن خلدون انتصاره كذلك للعرب وتقديره للفاطميين فيما شادوا من المدن العظيمة والعمارة الجليلة وينبغي التنويه بأن كثيراً من الفكر الفاطمي خاصة والشيعي عامة تداخل مع الفكر السني السائد في مصر ، وظهرت آثاره بوضوح في آراء كثير من الصوفية وممارساتهم ، بل إن كثيراً من كبار الصوفية وشيوخها في مصر كانوا ينتمون بالنسب حقيقة أو إدعاء إلي العلويَّة.

وقد كان المقريزي نفسه فيما يؤثر عنه رقيق العاطفة ، عفاً ، عازفاً عن الصغائر ، ذا ميول صوفية.

وخالف آراء متشددي أهل السنة من سلفية عصره في بعض آرائهم كتزمتهم إزاء الغناء والموسيقي ، وتحريمهم لهما علي عكس ما رآه المقريزي فقد ألف كتاباً بعنوان «إزالة التعب والعناء في معرفة الحالِ في الغناء».

دافع فيه عن الغناء عامة وسماع الصوفية.

وكان ولاؤه وحبه لمصر مستقراً في قلبه عبَّر عنه في مقدمة الخطط بقوله ! "وكانت مصر هي مسقط رأسي ، وملعب أترابي ، ومجمع ناسي ، ومغني عشيرتي وخامتي" وموطن خاصتي و عامتي .. وعش مآربي . فلا تهوي الأنفس غير ذكره لازلت من شدوت العلم ، وآتاني ربّي الفطانة و الفهم أرغب في معرفة أخبارها ، وأهوي مسا ءلة الركبان عن سكان ديارها ، فقيدت بخطي في الأعوام الكثيرة ، وجمعت من ذلك فو ائد قل أن يجمعها كتاب أو يحويها لعزَّتها وغرابتها.

وهكذا كان حبه لمصر حافزاً له علي كتابة تاريخها ، وتقصي أخبار أهلها ، وأوطانها ، والتعرف علي خططها وبلدانها .

تأثرت الكتابة التاريخية إذا بأهواء الكتاب ، وعواطفهم ، فبدت ميولهم فيما يكتبون ، ولونت مشاعرهم رؤيتهم وأحكامهم.

ومن كتاب التاريخ في العصر من يكشف عن مشاعره إزاء الأحداث فينطلق

منشئاً ، أديباً ، لا مؤرخاً مُسَدد العبارة ، محدد الألفاظ ، ونمثل بما كتبه الصيرفي صاحب نزهة النفوس تعليقاً علي ثورة أحد مماليك الظاهر برقوق واسمه علي باي ، وكان السلطان اشتراه واعتقه ، وصار من خواصه ، ثم لماَّ اشتد ساعده ، وتمكن من أمره انقلب علي سيده . وأراد الوثوب عليه واغتياله ، لكنه فشل ، ولقي مصرعه لقاء خيانته . يقول (١)

«وكانت قضية علي باي مع السلطان شبيهة بقضية أعرابي صاحب غنم ومواشي أخذ جرْوَ ذئب وربَّاه بلبن الغنم حتي إذا كبر يحفظ مواشيه وغنمه من الذئاب وغيرها ، فلما كبر أخذ يفترس كل يوم خروفاً من غنمه ، فمسكه وقتله، وقال : ربَّيتُكَ في حجري بلبن الغنم لتنفع لي وتردُ عن غنمي فما علمت أني ربَّيتُ من يؤذيني ، ثم أنشد :

أكَلْتَ شويهتي ونشأت فيها   فمن أنْبَاكَ أنَّ أباك ذيبُ

وكذا السلطان اشتري علي باي وهو صغير ، وحسنه ، وعلمه القرآن وأمورَ دينه وربَّاه مثل ولده في حجره وجعله دواداره ، وأعطاه إقطاعاً ثقيلا ، ثم نقله في أقرب مدة إلي الخازندارية الكبيرة عوضًاَ عن قلمطاي العثماني ، ثم جعله أحد المقدمين الألوف بالديار المصرية ورأس نوبة كبيراً ، وقدمه علي كثير ممن كان قبله ، ولم يأخذ منه حساب الخزانة الشريفة ، وكان عنده بمنزلة عظيمة ، وكان لايردُّ كلامه ، وكان السلطان يأمن إليه ويركن في أموره عليه ، ولا تصور في ذهنه أن تصدر عنه هذه الأمور الغريبة التي ظاهرها غدرٌ ، وباطنها مكر . وقال عليه السلام :

«لكلِّ غادرٍ لواءٌ يوم القيامة يعرف به» ، وما أقبح ما يجئ الغدر ممن يُرجي منه الخير ، وما أفظع ما يجئ النفاقُ ممن يُرجي منه الوفاق ، وكثيراً ما أسمع : «ما تجئ الخيانة والجفا إلاَّ ممن تؤملُ منه الصدق والوفاء . وما أبخس من يرضيك ظاهره ويقصد قتلك في ضمائره . فمآل الغدر إلي الغرور ، ومآل الشر إلي الشرور ، ولقد غلب عليه البطر ، وطار من ناره شرر كما تري ، قد صدر عن فتنة فيها حذر . وقال الشاعر :

ياراكناً للدهـــر في سُلطانـــه   أنظرُ إلي الأيَّام كيفَ تـزولُ
هلْ مارأيت وما سمعت سبيلها   التحويل والتقتَيل والتبديـلُ

(١) نزهة النفوس ١/ ٤٧٠ .

لقد نسي المسكين أن السلطان مثل البحر ، وقرب البحر مورد الهلاك ، كما قال من قال :

إذا أدناك سُلْطـــانٌ فـــــزدْهُ   من التعْظيم وأنصَحْهُ وراقبْ

فما السلطانُ إلاَّ البحر عظمــاً   وقربُ البحرِ محذورُ العواقِــبْ»

ومن الكتابات كما أشرنا ما اقترب من الشعب ، وشاعت لغة العامة فيها ليوافق الأسلوب أو الشكل المضمون ، أو لقلة محصول الكاتب من الفصحي وقدرته علي التعبير باللفظ العاميّ أكثر.

وذكرنا أبن إياس نموذجاً ، وكتاباته مثال حيٍّ ، وصورة معبرة عن حيوات الناس في شوارع القاهرة ، وأحاسيسهم وليست كتاباته مجرد تسجيل لأحداث العصر ، وصراعات المماليك ، ووقائع مظالمهم ، وجَوْرِ تصرفاتهم وإن كان هذا الجانب واضحاً كلَّ الوضوح في تاريخه . كذلك اهتم في كتاباته برسم صور قلمية لكل سلطان من السلاطين ، ترسم ملامحه الجسدية ولا تنسي خلاله النفسية ، وميوله ، وأهواء ه ، وأخلاقه ، ماحسن منها ، وماساء ، ولا يغفل ما قد يكون عند بعضهم من شذوذٌ في التصرف أو السلوك ، ومن كمال في العقل أو جنون ، ومن تهور أو حلم ، ومن دهاء أو طيش . ومن ميل إلي اللهو ، أو تزمت وإيثار للوقار، واعتصام بوازع الدين ، و من معرفة و علم و بصيرة ، ومشاركة للعلماء في مجالسهم أو جهل وأمية ، وعدم معرفة بالكتابة ، وميل إلي الإيمان بالخرافة واتبع المشعوذين ، والدجالين والمدّعين من المتصوفة وأشباههم علي ماجاء في مقدمة كتابنا عن أحوال السلاطين نقلاً عن ابن اياس .

الفصل الثاني

الكتابة الموسوعية

« صبح الأعشى للقلقسندي »

تعتبر الكتابة الموسوعية من سمات العصر المملوكي بدولتيه ، وإن اتخذت هذه الموسوعات أشكالاً متعددة ، واختلفت اهتماماتها وموضوعاتها ، وقد عرفنا في الدولة الأولي موسوعات في علوم شتي ، مثل نهاية الأرب للنويري في فنون الأدب ، وموسوعة ابن منظور في اللغة ، والعمري في موضوعات شتي من تاريخ وجغرافيا وأدب .. وظل هذا الاتجاه إلي الكتابة الموسوعية في عصر دولة الشراكسة ، فعرفنا موسوعات في علوم القرآن مثل كتاب البرهان للزركشي وموسوعة القلقشندي «صبح الأعشي» ، وقبل أن نعرض للكتاب ينبغي أن نتعرف علي صاحبه ، وعلمه ، ومكانته في مجتمعه ، واهتماماته وما أضافه إلي المكتبة العربية من مؤلفات غير «الصبح».

القلقشندي

(٧٥٦ - ٨٢٠هـ) (١٣٥٥ - ١٤١٨م)

صاحب صبح الأعشي:

هو القاضي شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي

ولد سنة ٧٥٦ هـ بقلقشندة إحدي قري قليوب جنوبي طوخ درس بالاسكندرية والقاهرة علي أكابر شيوخ العصر.

تخصص في الأدب والفقه الشافعي ، وبرع في اللغة وعلوم البلاغة والإنشاء .

تولي بعض الوظائف حيناً ، ثم التحق بديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ في عهد السلطان برقوق ، وظل يعمل به حتي وفاته ، زمن المؤيد شيخ.

وكان بديوان الإنشاء مدرسة خرجت كثيراً من فحول الأدب والكتاب علي رأسهم القاضي الفاضل وابن عبد الظاهر وابن فضل الله العمري ممن ذكرنا.

وجمع إلي عمله بديوان الإنشاء العلم في التدريس والإفتاء ، ببعض مدارس الاسكندرية والقاهرة . وأجازه شيخه ابن الملقن بالفتيا والتدريس وهو في الواحدة

والعشرين من عمره . قال فيها : «شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة وتعلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة ، وصحب السادة والمشايخ والفقهاء والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشغالاً يرضي. »

وظل ينتقل في و ظائف التدريس ، وأقبل عليه الطلاب ، لما تمتع به من علم ومقدرة بيانية ، تجلت في كتاباته ، فضلاً عن خلقٍ حميد وتواضع .

وجمعت ثقافة القلقشندي عديداً من جوانب المعرفة في عصره علي ما ذكرنا وشكلت الثقافة الدينية جانباً كبيراً منها ، بطبيعة الحال وفي مقدمتها علوم القرآن والحديث والفقه ، وضم إليها علوم التاريخ والإدارة ، واللغة والأدب وفنون الكتابة والإنشاء .

وتدل مؤلفاته علي سعة ثقافته وتعدد مواردها.

فمن مؤلفاته غير «الصبح» : « حلية الفضل و الكرم في المفاضلة بين السيف والقلم » وكان هذا الموضوع شاغل كثير من الأدباء والشعراء منذ القدم ، لأن الدولة لا تقوم إلا علي القوة والعلم ، ولكن لأيهما يكون السبق ، هذه هي القضية التي شغلت الناس وتحدثوا فيها وتجادلوا كثيراً . وأدلي القلقشندي بدلوه ، وقام بدوره بعرض و جهة نظره كأديب ، ومفكر من رجال القلم في ظل دولة يحكمها ويصرف أمورها رجال السيف.

وله شرح علي قصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير . وقد نالت هذه القصيدة كذلك من اهتمامات الناس جانباً في عصر القلقشندي والعصور السابقة لزيادة اهتمام الناس بشخصية النبي صلي الله عليه وسلم بين طبقات الناس حكاماً وعلماء من كل الاتجاهات بين فقهاء ، وصوفية ، كذلك كانت شاغل كثير من الشعراء ، فأولوا المدائح النبو ية اهتمامهم ، وقدموها علي غيرها من المدائح في دواونهم ، وكانت قصيدة « بانت سعاد » لكعب بن زهير نموذجاً للمدائح النبوية عندأهل السنة . ثم أصبحت قصيدة «البردة» للبوصيري نموذجاً للمدائح عند الصوفية وكثير من الشعراء من بعد القرن الثامن . وكثرت شروح الأدباء لبانت سعاد وقلدت علي مدي العصور ، كما تغددت معارضاتها ، والتظلم علي منوالها.

وله في التاريخ ، والأنساب كتابان يتحدث فيهما عن قبائل العرب ، وأنسابها والقبائل التي نزلت بمصر وتفرقت في أنحائها و هما :

"قلائد الجمان في قبائل العريان" ، و «نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب»

وكتاب «مآثر الإنافة في معالم الخلافة» لعله قابل به أو تابع فيه المقريزي

في كتابه : «اتعاظ الحنفاء " وإن كان كل منهما يتحدث عن خلفاء غير من عناهم الأخر وله في الفقه كتاب : «الغيوث والهوامع في شرح جامع المختصرات ، ومختصرات الجوامع» وكتاب «الحاوي الصغير في الفروع للمقريزي» .

وكان اهتمامه بالأدب والإنشاء واضحاً فمن بواكيركتاباته فيهما رسالته بعنوان «الكواكب الدرية في المناقب البدرية» في قالب المقامة ، وتقدم بها لرئيس ديوان الإنشاء في عصره . وأما كتابه العمدة في هذا المجال فهو موسوعته صبح الأعشي:

مهد لموسوعته الكبري «صبح الأعشي» برسالة في ما يحتاج إليه الكاتب من آلات وما تقتضيه صناعته من أصول ورسوم وأساليب.

ووقعت هذه الرسالة موقعاً حسناً في النفوس ، فأشير عليه ببسط الكلام في موضوعها ، فلبي الإشارة ، وعكف علي تأليف كتابه الكبير . واسترشد بكتاب العمري «المصطلح الشريف».

١- صبح الأعشي:

رتب الكاتب علي مقدمة وعشر مقالات تملأ أربعة عشر مجلداً.

واستغرق تأليفه عشرة أعوام بدأه سنة ٨٠٥ هـ وانتهي منه في شوال سنة ٨١٤هـ.

واعتمد فيه علي عديد من المؤلفات والرسائل ومحفوظات الديوان من المراسلات السلطانية والعهود والمواثيق.

كذلك رجع إلي بعض كتب الفن التي سبق بها أمثال كتابي «المصطلح

الشريف» و «التثقيف» لابن فضل الله العمري . و «مواد البيان» لعلي بن خلف من كُتَّاب الدولة الفاطمية . ومعالم الكتابة لابن حاجب النعمان ، وصناعة الكتاب لأبي جعفر النحاس وحسن التوسل إلي حسن الترسل لابن و اصل ، والدر الملتقط . إلخ .

مقدمته:

وتناول في المقدمة الحديث عن فضل القلم والكتابة ومعني الإنشاء وتطوره خلال العصور ، وترجيح النثر علي النظم ، وصفات الكتاب وأدابهم ، وتاريخ ديوان الإنشاء وأصله في الإسلام ، ثم انتظامه بعد ذلك في مختلف الدول الإسلامية ، وقوانين الديوان ومرتبة صاحبه ، ثم التعريف بوظائف الديوان في مصر الإسلامية واختصاص كل منهما في مختلف العصور والدول ثم تأتي بعد المقالات العشر .

فالأولي : فيما يجب علي الكتَّاب معرفته من مواد الإنشاء وآلاته من معرفة باللغة والأدب ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانية .. إلخ.

ومما يحتاج إليه من أنو اع الأقلام والورق والحبر وغيرها .

ثم تعريف بالخط العربي وتاريخه

المقالة الثانية : في المعرفة الجغرافية ببلاد العالم أو «المسالك والممالك» ويهتم فيها بالدول الإسلامية ومصر والشام خاصة.

المقالة الثالثة : في المكاتبات وأنواعها وما يناسبها من الأقلام والورق وأنواع المراسم ومصادرها وأقلام الترجمة واختصاصها وفواتح الرسائل وخواتمها مع تفضيل خاص لما يتعلق بذلك كله في ديوان الإنشاء المصري.

والمقالة الرابعة : في التعريف بألقاب الملوك والأمراء من أرباب السيوف والعلماء والكتاب ، والفضاة مرتبة علي حروف المعجم مع شروح وافية لتلك الألقاب . ويشرح فيها أساليب الكتابة في الرسائل من استفتاح ومقدمات ودعاءات وصلوات وسياق أهم مصطلحات المكاتبات الدائرة بين ملوك أهل الشرق والغرب من جهة وكتاب الديار المصرية في مختلف العصور منذ صدور الإسلام إلي عصره مبتدئاً بذكر رسائل النبي صلي الله عليه وسلم إلي ملوك الفرس والروم

والحبشة وغيرهم.

والمقالة الخامسة : تتمة للرابعة في موضوعها.

وتمضي المقالات حتي العاشرة في أمور الدولة ونظمها ورسومها .

٢- نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب :

وفيه يذكر أهم القبائل العربية التي نزلت بأقاليم مصر المختلفة.

مثال من أسلوب القلقشندي في صبح الأعشي في فضل الكتابة :

يقول : «أعظم شاهد لجليل قدرها ، وأقوي دليل علي رفعة شأنها ، أن الله تعالي نسب تعليمها إلي نفسه ، واعتده من وافر كرمه وإفضاله فقال - عن اسمه ﴿ إقرأ ، وربُك الأكرمُ ، الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسانَ ما لم يعلم ﴾ مع ما يُروي أن هذه الآية والتي قبلها مفتتح الوحي ، وأول التنزيل علي أشرف نبي ، وآخر مرسل صلي الله عليه وسلم وفي ذلك من الاهتماء بشأنها ، ورفعة محلّها مالا خفاء فيه.

ثم بيَن شرفها بأن وصف به الحفظة الكرام من ملائكته ، فقال - جلّت قدرته : ﴿ وإنَّ عليكم لحافظين ، كراماً كاتبينَ ﴾ ، ولا أعلي رتبة وأبذخ شرفاً مما وصف الله به ملائكته ، ونعت به حفظته . ثم زاد ذلك تأكيداً ،ووفر محله إجلالاً ، وتعظيماً بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة ، وما يسطرّ به ، فقال تقدست عظمته :﴿ ن والقلم وما يسطروُن ، ما أنت بنعمة ربَّك بمجنون ﴾.

والإقسام لاتقع منه سبحانه إلا بشريف ما أبدع ، وكريم ما اخترع كالشمس والقمر والنجوم ونحوها . إلي غير ذلك من الآيات الدالة علي شرفها ورفعة قدرها.

ثم كان نتيجة تفضيلها . وأثرة تعظيمها وتبجيلها أن الشارع ندب إلي مقصدها الأسني ، و حث علي مطلبها الأغني فقال صلي الله عليه و سلم : «قيِّدوا العلم بالكتاب» مشيراً إلي الغرض المطلوب منها ، وغايتها المجتناة من ثمرتها ، وذلك أن كل ذلك صنعة لابدَّ له في معاناتها من مادة جسميّة تظهر فيها الصورة . وآلة تؤدي إلي تصويرها ، وغرضٌ ينقطع الفعل عنده ، وغايُة تستثمر من صنعته.

والكتابة إحدي الصنائع فلابدُ فيها من الأمور الأربعة : فمادتها الألفاظُ التي

تخيَّلها الكاتب في أوهامه ، وتصوَّر من ضمِّ بعضها إلي بعضٍ صورة باطنة في نفسه بالقوة . والخطُّ الذي يخطه بالقلم ويفيد به تلك الصور ، وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسةً ظاهرة . وآلتها القلم . وعَرَضُها الذي ينقطع الفعل عنده تقييد الألفاظ بالرسوم الخطية ، تكملُ قوة النطق ، وتحصل فائدة للأبعد كما تحصل للأقرب وتحفظُ صُوَرهُ ويؤمن عليه من التغيُّر والتبدُّل والضياع . وغايتها الشئ المستثمر منها ، وهي انتظام جمهور المعاون ، والمرافق العظيمة ، العائدة في أحوال الخاصة و العامة بالفائدة الجسيمة في أمور الدين والدنيا.

ولَما كان التقييد بالكتابة هو المطلوب وقع الحضُّ من الشارع عليه والحثُّ علي الاعتناء به تنبيهاً علي أنَّ الكتابة من تمام الكمال من حيث أن العمر قصير والوقائع متسعة ، وماذا عسي أن يحفظه الإنسان بقلبه أو يحصله في ذهنه :؟!.

قال ذو الرمة لعيسي بن عمر : « أكتب شعري فالكتاب أبقي من الحفظ إن الأعرابي لينسي الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة فيضع في مكانها كلمة في وزنها لا تساويها ، والكتاب لا يُنسي ولا يبدِّل كلاماً بكلام».

وقال القلقشندي (١) : قلت : ولشرف الكتابة وفضل الكُتَّاب صرف كثير من أهل البلاغة عنايتهم إلي وضع رسائل في المفاخرة بين السيف والقلم ، إشارة إلي أن بهما قوامُ الملك وترتيب السلطة . بل ربما فضل القلم علي السيف ورجح عليه بضروب من وجوه الترجيح . كما قال بعضهم مفضلاً للقلم بقسم الله تعالي به :

إن افتخر الابطال يوماً بسيفهم وعدَّوه مما يكسبُ المجد والكرمْ
كفي قلمُ الكُتَّاب عزاً ورفعـةً مدَي الدَّهرِ أنَّ الله أقسم بالقلمْ

وكما قال ابن الرومي:

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب و دانت خوفه الأمـمُ
فالموت - والموت لاشئ يغالبـه - ما زال يتبعُ ما يجري به القلـمُ
كذا قضي الله للأقلام مذبُريـت أن السيوف لها مذ أُرْهفَت خُدمً

والمعني في ذلك أنها تؤثر في إرهاب العدو علي بعد . والسيوف لاتؤثر إلا عن قرب ، مع ما فضل به القلم من زيادة الجدوي والكرم».

والكتاب جامع لكثير من علوم ومعارف العصر المملوكي ، وجوانب الإدارة والحياة السياسية ، ورسوم السلطنة ، ورجال الحكم ، وتاريخ الدولة و أخبار السلاطين والحكام ، وما يتصل برسوم ديوان الإنشاء ، وما يصدر عنه من مكاتبات ، ومراسيم ومنشورات تتصل بإدارة الدولة وعلاقاتها الخارجية بغيرها من الممالك والبلاد .

واحتفظ بنصوص كثير من الوثائق والمخاطبات والعهود والمعاهدات التي تفيد وتلقي أضواء علي جوانب كثيرة من الحياة المصرية في عصو ر المماليك الأتراك والشراكسة.

وجمع فيه كثيراً من أخبار مصر وأحوال بلادها . وقراها ،وسكانها ، وعناصرهم وعقائدهم ، وعاداتهم ، و تقاليدهم . وأفرد جانبا منه للحديث عن قبائل العرب ومنازلها في أقاليم مصر بالوجه البحري والوجه القبلي وفي قراها وكورها ومدنها .

كما جمع كثيراً من النصوص الأدبية ، والوثائق التاريخية التي يندر وجودها في غيره.

ويهتدي في تأليفه ببعض من سبقه ممن تحدث في هذا الموضوع وألّف في موضوع الكتابة الديوانية ، ورسوم الكتاب ، وديوان الانشاء في مصر وغيرها وبخاصة من اهتم بالموضوع وألف فيه من العصر الفاطمي الذي ازدهر فيه هذا الديوان ، وجاء علي رأسه جماعة من كبار الكتاب ورجال الدولة ، كانوا قدوةً لمن بعدهم في عصور الأيوبيين والمماليك . ونشأوا أمثال القاضي الفاضل الذي ابتدع في أساليب الكتابة بعد أبن العميد ، واهتدي بما تلقّنه ، ومارسه كتاب الفاطميين من أمثال ابن الصيرفي ، وابن خلف ، وابن شيث وابن الخلال وغيرهم .

ومن هنا نجد القلقشندي ينقل كثيراً عن كتاب «مواد البيان» لابن خلف من كتاب القرن الخامس ، وقانون ديوان الرسائل لعلي بن منجب ، ومعالم الكتابة لابن شيث .

كما أفاد ونقل كثيراً عن كتاب العصرين الأيوبي والمملوكي من أمثال «ضياء الدين ابن الأثير وكتابة «المثل السائر" وغيره كمفتاح المنشأ ، وكتاب ابن مماتي قوانين الدواوين" وكتاب شهاب الدين محمود «حسني التوسل إلي صناعة

الترسل». والتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري.

وأظهر لنا المدافع له إلي كتابة هذه الموسوعة في مقدمته قائلاً:

"وكنت في حدود سنة إحدي وتسعين وسبعمائة عند استقراري في كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية - عظم الله تعالي شأنها ورفع قدرها وأعزَّ سُلطانها أنشأت مقامة بَنَيْتُها علي أنه لابد للإنسان من حرفة يتعلق بها ، ومعيشة يتمسك بسببها وأن الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها ، ولا يجوز له العدول عنها إلي ما سواها ، وجنحت فيها إلي تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها ، وتقديمها علي كسْب الأموال وتحصيلها ، ونبهت فيها علي ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجدَاد ، وضَّمنتُها من أصول الصنعة ما أربَتْ به علي المطولات وزادت . وأودعَتها من قوانين الكتابة ما استولت به علي جميع مقاصدها أو كادت، وأشرت فيها إلي وجه تعلقي بحبال هذه الصنعة ، وإن لم أكن بمطلوبها مليًا ، وانتسابي إلي أهلها ، وإن كنت في النسبة إليها دَعيًا :

وليس دعيُّ القوم في القومَ كالـذي حوي نسباً في الأكرمينَ عريقاً .

إلا أنها وقعت موقع الوحيَ والإشارة ، فعزَّ بذلك مطلبُها ، وفاتَ علي المجتني ببعد التناول أطيبُها . فأشار مَن رأيُه مقرونٌ بالصواب ، وشورته عريَّةُ عن الارتياب أن أتْبِعَها بمصنف مبسوط ؛ يشتمل علي أصولها وقواعدها ويتكفل بحل رموزها وذكر شواهدها ليكون كالشرح عليها ، والبيان لما أجملته والتتمة لما لم يسُقْهُ الفكر إليها . فامتثَلتُ أمره بالسمع والطاعة».

حتي يقول مشيراً إلي أنه عمد إلي التوسع أو الشرح علي ما جاء بكتاب التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله «فشرعت في ذلك بعد أن استخرتُ الله تعالي - وما خاب من استخار -، وراجعتُ أهل المشورة ، و ما ندم من استشار مستوعَباً من المصطلح ما اشتمل عليه «التعريف» و «التثقيف» موضحاً لما أبهماهُ تبيين الأمثلة مع قرب المأخذ وحسن التأليف ، متبرعاً بأمور زائدة علي المصطلح الشريف لايسَعُ الكاتب جهلها ، متنقلاً من توجية المقاصد وتبيين الشواهد بما يعرف به فرع كلّ قضية وأصلها أتيا من معالم الكتابة بكل معني غريب ، ناقلا للناظر

في هذا المصنف عن رتبة أن يسأل فلا يجابُ إلي رتبةٍ أن يُسّألَ فيجيب».

ويهدف القلقشندي من وراء تأليف الكتاب إلي إظهار أهمية الكتّاب للدولة ، ومكانة الكتابة بين غيرها من وظائفها ، وأنها روح الأمة كما يقول ، وبما يستشهد به من آراء من مثل قولهم : «الكتاب كالجوارح ، وكل جارحة منها ترفُد الأخري في عملها بما به يكون فعلها ، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح الممازجة للبدن المدّبرة لجميع جوارحه وحواسّه".

وكقول الزبير بن بكّار : الكتّابُ ملوك وسائر الناس سوقه ، وقول عبد الله بن المقفع : الملوكُ أحوج إلي الكتاب من الكتاب إلي الملوك.

وأظهر أهمية كتاب الدولة في نظام الحكم الإسلامي منذ عصر الدولة الإسلامية الأولي ، وأبرز أهمية الكتاب ومسؤولياتهم كثير من المؤلفين ، وأولهم عبد الحميد الكاتب في رسالته المشهورة إلي الكتاب ينصحهم فيها ويهديهم إلي سبل إتقانهم عملهم وبلوغهم فيه مكانة ترضي أولي الأمر. ومن بعده كانت رسالة بشر بن المعتمر إلي الكتاب والتي تحدث عنها الجاحظ وجاء بنصها في البيان والتبيين .. وتتابعت بعد ذلك مؤلفات ابن قتيبة كأدب الكاتب ومن جاءوا بعده علي مانعرف وعلي ما ذكرنا ممن اعتمد ملهم القلقشندي في منهج كتابه ، وإن كان الصبح قد فاقهم جميعاً وأربي عليهم بهذه الإضافات الموسوعية والوثائق العديدة ، والبسط لكثير من النظم والعادات والمعارف المتعددة التي ينبغي أن يلم بها كاتب الدولة وكاتب الإنشاء علي وجه الخصوص .

ودفاع القلقشندي عن الكتاب ، وإشادته بمكانتهم في الدولة يسلك في سلك منظومة الحوار بين أصحاب السيف والقلم ، وأيهما المتقدم والمعول عليه في بناء الدولة ، والحفاظ عليها ، ذلك الحوار الي شغل جانباً من اهتمام الأدباء شعراء وكتاباً زمناً طويلاً متواصلاً . وقال فيه المتنبي بينه المشهور :

حتي رجعت وأقلامي قوائل لـي   الفضل للسيف ليس الفضل للقلم

علي كره منه وهو صاحب القلم .

ونجد أصداء كثيرة لهذا الحوار في عصر دولة المماليك شعراً ونثراً علي ما نوهنا من قبل في مواضع من الكتاب.

ويأبي القلقشندي في أوائل القرن التاسع الهجري إلا أن يشارك في الحوار وإظهار ما للكتابة من فضل علي أصحابها ترفعهم ، وتعلي من شأنهم ضارباً الأمثلة بكثير من الكتاب اللامعين ، كأبي اسحاق الصابي ، والوزير المهلبي الذي بلغ مكانة رفيعة لدي معز الدولة البويهي ، فوزر له ، وكان سنده في كثير من الملمات بسديد رأيه .

ويفضل القلقشندي صاحب الفلم علي صاحب السيف بأن الله أقسم بالقلم ولم يقسم بالسيف في قوله تعالي :(ن ، والقلم ومايسطرون) وأورده الشاعر في قوله :

إذا افتخر الأبطال يوماً بسيفهم وعدُّوه مما يكسب المجدَ والكرمْ

كفي قلم الكتَّاب عزاً ورفعـــةً مَدَي الدهر أن الله أقسم بالقَلَمْ

ويحفل الكتاب بمادة غزيرة من الأدب الشعبي ، والمأثورات ، والأساطير والعقائد المتعلقة بالطبيعة والكائنات المختلفة من جماد ونبات وحيوان وطير وإنسان. كما يحفُل بكثير من الأمثال العربية القديمة ، والأمثال الشعبية المتداولة بين الناس والمتصلة بأحوالهم والأحداث الخارجية والمتضمنة أحياناً مواقفهم من الحكام .

ومن هذه المادة الشعبية ، والمأثورات ماهو وافد من ثقافات عربية قديمة أو عبرية أو أسيوية أومصرية قديمة أو يونانية .

فمما جاء به من أخبار وأساطير ما يتعلق بالعرب البائدة من عاد والعماليق من طسم وجديس ، وثمود ، وما يروي من خوارق للطبيعة في شكل الأناسي والحيوان.

كذلك من أو ابد العرب ، و ما يعتقدونه من عقائد ترجع إلي ديانات بدائية كعبادة الأجداد ، والطوطمية ، والدين الحيوي .. إلخ . من ذلك عاداتهم إذا احتبس المطر أن يجمعوا البقر ويعقدوا في أذنابها وعراقيبها السلع والعشر ، ويوقدون بها النار ويدفعون بها إلي الجبال ، يزعمون أن ذلك يسقط المطر.

وهي صورة من صور الطقوس لعبادة الجبال وآلهة الجبال التي ظلت رواسب منها حتي عصور الإسلام الأولي ، والتي ظهرت عنها طقوس مشابهة في بعض الديانات السامية وسجلت فيما يروي من التوراة المتداولة وغيرها من الإسرائيليات .

واتصال هذا الثالوث : النار والجبل ، والمطر عند الرعاة بصورة أو بأخري.

ومنها الاعتقاد في طائر الهامة الذي يطالب بثأر الميت . وهي عقيدة تشبه عقائد المصريين في طائر آخر بمثل روح الميت ولماً كان الثار ليس من آليات الحياة المصرية .... ، لما تمتعوا به من الرغبة في السلام والأمن في واديهم دون تكالب علي العيش أو صراع في سبيل الحياة فإن هذا الطائر الذي اعتقدوا أنه روح الميت لا يتصل برذيلة الثأر بسبب ، بل يتصل بعقيدة الخلود ، والحرص علي سلامة الجسد حتي تعود إليه الروح من جديد.

كما وردت أساطير متعلقة بالخلق والكون ، ترددت في كتب الأحاديث والتفاسير ونقلها المؤلفون في هذا العصر ، وأشرنا إليه فيما سبق من الحديث عن الثقافة كأسطورة الديك الأبيض.

ويوردكذلك بعض الأساطير الأخري المتعلقة بالطير مثل "غراب البين" والتي ظهرت بوضوح في بعض الشعر الجاهلي ومنه ماجاء في حديث النابغة بقصيدته الذائعة الدالية : -

زعم البـوارحُ أنَّ رحلتَـهَـا غـد   وبذاكَ خـبَّـرنا الغُـرابُ الأسـودُ

والاعتقاد في الزوابع التي يثيرها الشيطان ، والاعتقاد في أن الرعد صوت ملك يزمجر في السحاب . وأن البرق ضحكه(١).

وكما يحفل ببعض المرويات والمأثورات التي تفسر النصوص الدينية ، كقصه ذي القرنين (٢) والخضر (٣) وأهل الكهف(٤).

ومن ذلك ما يروي عن خلق النجوم والكواكب ، وما جاء به آدم من نبات الجنة. وعن أمور تتعلق بالعالم السفلي ، والعالم العلوي ، وما يروي عن الجبال كجبل قاف ، وأنهار الجنة وعن الطوفان ، ووصف السماوات وعدد طبقاتها ، والسماء الدنيا وما فيها.

والمرويات في التنجيم ، واعتقادات الناس في ارتباط النجوم وتحركاتها بالبشر وتصرف أحوالهم ، وما يتشاءم به العرب من النجوم والكواكب والشهب كالمريخ وزحل وما يتفاءلون به ككوكب "سعد الخير".

١ - راجع الصبح ٢/١٧٦ - ١٧٨   ٢ - ٤/٤٨٢ .
٣ - ٥/٢٣٧ .   ٤ - ٥/٣٨٩ .

وما يروي من تفسير أسماء بعض الطيور كعصفور الجنة ، وسبب تسميته أن الله تعالي لما أهبط آدم إلي الأرض استوحش ، فآنسه الله بعصفور الجنة لأنه يألف سكني البيوت المعمورة.

ونري في الصبح صورة لعشق القلقشندي لمصر ، فقد أشاد بمحاسنها ، وما قاله عن فضائلها أنه جاء في التوراة عنها ! "مصر خزائن الله، فمن أرادها بسوء قصمه الله" ويعجب بآثارها القديمة ، ويتحدث عن النيل والمقياس ، والخلجان ، ومنها خليج القاهرة ، وما قام عليه من القناطر.

ويتحدث عن جبال مصر ، وأولها المقطم ، وامتداده من الشمال إلي جنوب مصر وما حوي ، وسامت من العجائب التي تركها به ويكهوفه ملوك مصر القدماء من هياكل كثيرة ، وعجائب غريبة . وينقل عن بعض الكتب التي تحدثت عن فضائل مصر كالكندي وعندما عرض لعجائب مصر ، قدم الحديث عن الأهرام ، وردد ما ذكره الشعراء عنها كقول الشاعر:

أنظر إلي الهرمين واسمع منهما ... ما يرويان عن الزمان الغابر

لو ينطقان لأخبَرانا بالذي ... صنع الزمانُ بأولٍ وبآخر

ويتحدث عن عواصم مصر وحواضرها ومدنها وقراها ، فينقل مما كتب إلي عصره في الموضوع و بخاصة ما أفاض فيه المقريزي وغيره من معاصريه.

ويتحدث عما بني بالقاهرة والفسطاط والقلعة من المنشآت العظيمة كالمساجد والقصور الزاهرة وما اخْتُطَّ من الميادين و الحدائق المطلة علي النيل ، ومن المناظر التي تبهج الناظر وتسرَّ الخاطر.

وتحدث القلقشندي عن الخط وأدوات الكتابة ، وأفاض في ذلك .

وهكذا يتضح من هذا الملخص السريع الذي عرضنا فيه بنذة من محتويات الكتاب وموضوعاته مدي ما يتسم به من موسوعية ، وما يناطُ به من أهيمة في التعرف علي هذه الحقبة التاريخية من مصر والقاهرة .



الفصل الثالث

الكتب الأدبية الجامعة، والمختارات

لم تعرف الكتابة الأدبية في هذا العصر كما عرفت من قبل ، فلم يخلص الأدباء لكتابة الأدب ، ولم يوجد علي الأجمال أدباء يوقفون كتاباتهم علي الموضوعات الأدبية إلا من ندر ، بل كانت الكتابة كغيرها من فنون القول نتاجاً شائعاً بين العلماء علي اختلاف نحلهم وتخصصاتهم ، وكان أحدهم كما أشرنا في الحديث عن القلقشندي و من قبل عن غيره من العلماء ، كان فقيهاً يكتب في الفقه ، ومحدثاً يهتم بالحديث وجمعه ، وشرحه ، ومؤرخاً ، وأديباً وشاعراً .

ومن هنا تلونت الكتابة الأدبية باتجاهات كتابها في مضامينها وأساليبها وكان العلمُ الديني بفروعه في مقدمة اهتمامات أولئك الكتاب ، وموردا، ومصدرا فامتزجت بكتبهم علوم الدين بعلوم الأدب ، وتأثر الأسلوب الأدبي بالخطاب الديني وأساليب الكتابة الدينية.

ويحدثنا ابن خلدون عَن أساليب فن الكتابة أو المنثور ، وخص الكتابة الديوانية بالحديث فقال : "وهذا الفن المنثور المقفي أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر ، فوجب أن تُنَزَّه المخاطبات السلطانية عنه ، إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية ، وخلط الجد بالهزل ، والإطناب في الأوصاف ، ضربُ الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لاتدعو الضرورة الس ذلك في الخطاب ، والتزام التقفية أيضاً من اللوذغة والتزيين وجلال الملك والسلطان ، وخطاب الجمهور من الملوك بالترغيب أو الترهيب ينافي ذلك ويباينه.

والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل ، وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تَسُجيع إلا في الأقل النادر ، وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له ، ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضي الحال ، فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز ، أو حذف أو إثبات ، أو تقديم أو إشارة أو كناية واستعارة.

وأما إجراء المخاطبات السلطانية علي هذا النحو الذي هو علي أساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة علي ألسنتهم ، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضي الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطْوه . وولعوا بهذا المسجعً يلفقون به ما نقصهم من

تطبيق الكلام علي المقصود ومقتضي الحال فيه . ويَجْبُرُونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوي ذلك .

وأكثر من أخذ بهذا الفن ، وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتابُ المشرق وشعراؤهم لهذا العهد ، حتي إنهم ليخلّون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو سجع".

فابن خلودن يعتبر ما شاع علي عهده من تكلف المحسنات البديعية في أساليب الكتابة. وبغير الإنشائية منها خاصة يعده ضرباً من العجز والقصور اللغوي أو العجمة لأن الكاتب لا يجد من محصوله اللغوي فسحة في بسط القول ، ميُلجئه العجز إلي التزويق ليعوض ما نقصه من قصور في إبلاغ ما يريد ، أو مطابقة كلامه لمقتضي الحال . وعزا هذا القصور ، والاسراف في السجع والجناس وسائر المحسنات والمجازات إلي الآثار الوافدة مع الأعاجم من المشارقة الذين شاع بينهم هذا النوع من الأساليب.

ومهما يكن من رأي في قول ابن خلدون ، فإن البديع علي اطلاقه ليس صنعة مشرقية وقد يكون التكلف فيه في عصره عجزاً في اللغة علي حد قوله كما أن استخدام العامية صورة كذلك من صور العجز في تحصيل الفُصحي والتمرس بأساليبها.

وقد أشار ابن خلودن في موضع آخر إلي هذا القصور . وأشرنا إلي جانب منه في حديثنا عن الكتابة التاريخية .

واستأثرت موضوعات بعينها باهتمام كتاب المجموعات الأدبية ، في مقدمتها الموضوعات الدينية من وعظ وإرشاد وتحذير ، وترغيب وترهيب . وحكم وأمثال . كذلك لقيت بعض معالم مصر وحياة الناس بها وبالعاصمة القاهرة ، ومظاهرها ومعالمها وما بها من الآثار باهتمام بعض الكتاب.

فللنيل مكانة خاصة عند المصريين لا يخلو كتاب أدبي أو ديوان شعري في الغالب من إشارة أو إشادة بالنهر العظيم.

وفي غير كتب الأدب نجد بعض كتاب المصريين يولي النيل اهتماماً من قلمه ينمُّ عن تقدير وحب واعتراف بالفضل . فالسخاوي يعرض للنيل في ذيل السلوك

(١) فيقول :

"واعلم أن هذا النيل من النعم العظام والآيات الجسام اللائق مقابلتها بالشكر والخضوع والذكر لا بما يفعل من الركوب في الشخاتير والتجاهر بالمناكير"

ويتحدث عن الأهرام ، وهي من المعالم البارزة لمصر ، والعلامات الشاهدة علي شموخ حضارتها ، وعلو مكانتها فيقول .(٢).

"وضع فيها الشريف أبو جعفر محمد بن عيد العزيز أبي القاسم عبد الرحمن الهاشمي الإدريسي المصري كتاباً حافلاً طالعته سماه ! "أنوار علوم الآجْرام في الكشف عن أسرار الأهرام ، عمله ليوسَف بن الحافظ أبي الفرج بن الجوزي حين قدم عليهم الديار المصرية .. وكذا صنف فيها غيره. وقال الحافظ الذهبي فيما نقله عن بعض التواريخ أنهما قبران لنبيين أحدهما شيث والآخر هرمز وقال أحد الفضلاء أنه كتب علي صفحة حجر ونظر إلي الأهرام وإلي ما هدم منها فبذا ما انتدب لعمارته الملوك والفراعنة وتصدي لخرابه الأراذل والصقاعبة

وللسخاوي فقرات في الأهرام ذكرها في التبر المسبوك (صَ ١٧١) بقول :

وقد ذهب مع بعض صحبه من العلماء ليلاً الي الإهرام : " وأسريتا حتي وصلتا الاهرام التي حارت الأفكار في شأنها . وصنف فيها الشريف أبو جعفر محمد بنَ عبد العزيز ين أبي القاسم عبد الرحمن الهاشمي الإدريسي المصري كتاباً حاملاً طالعته سماه أنوار علوم الأهرام في الكشف عن أسرار الاهرام ، عمله ليوسف بن الحافظ أبي الفرج الجوزي حين قدم عليهم الديار المصرية وكذا صنف فيها غره . وقال الحافظ الذهبي فيما تقله عن بعض التواريخ إنهما قبران لنبيين آحدهما ، شيث والآخر هرمز ، وان كاشم بن سعدان العمليقي ملك مصر قصدهمها ، فقيل له : لايفي هدمُهما خراج مصر .وقال غيره حكاية عن بعض الفضلاء إنه كتب علي صفحة حجر وقد نظر الي الأهرام والي ما هدم منها ؛ هذا ما انتدب لعمارته الملوك والفراعنة ، وتصدَّي لخرابه الاراذل والصقاعية . وتمثل بهذه الآبيات .

مررت علي الآهرام يومًا فــراعَني بها زَجلُ الأحجار تحت المعاول

---

(١) ذيل السلوك ص ١٢

(٢) المصدر نفسه ص ١٧

تناولها عبل الـــذراع كأنما رمي الدَّهْرَ فيما بينهم حرب وائل
آهارمها شُلَّتْ بمينك خَلَّهـــا لمعتبرٍ إو مبصرٍ أو مُسَائــــل
منازل قوم حَدَّثنا حديثـــــهم ولـم أر أحْلَي من حديث المنـــازلَ

وقال القاضي فخر الدين عبد الوهاب المصري فيما كتب عنه الشهاب أحمد بن يحيي بن أبي حجلة التلمساني ، سنة خمس وخمسين وستعمائة من نظمه وأحسن ما شاء :-

أنظر إلي الأهرام كم من واعـــظ صَدَع القلوب ،لم يفُهْ بلسانـــه
أذكر نَبي قولاً تقادم عهـــدُهُ أين الذي الهَرمان من بُنيانـــه
هن ً الجبال الشامخاتَ تكادأن تَمتَدَّ فـــوق الآفق عن كيوانه
لو آن ً كسْرَي جالسٌ في سفحها لآجَـــلّ مَجلسَهُ علي إيوانـــه
ثبتَتْ علي حَرِّالزمـــان وبـــرده مُـــدَداً ولم نأسف علي حدَثـــانهَ
والشمس في إحراقها رالريـــح عند هبوبها والسيل في جريانـــه
هل عابِدًا قد خصها بعبـــادة فمبانيَ الأهرام من أوثانـــه
أو قائلٌ يَرْجُو برُجَعة نفســــه من بعد فرقته إلي جثمانـــه
فاختارها لكنوزه ولجسمـــه قبراً ليآمن من أذَي طوفانـــهَ
أو آنها للساهرات مَراصيـــدُ يختار راصدُها أعز مكانـــه
أو آنها وضعَتَ َ بيوت كواكب أيام فرس الــــدهر أو يونانِهِ
أو آنهم نَقَبُوا علي حيطانهـــاُ علماً يحار الفكر في تبْيانـــه
في قلب رائيها ليعلم أنهـــا فكرٌ يَغُضُّ عليه طرف بيانـــه

ولعمارة اليمني :-

خليلي مــــا تحت السماء بنيَـةُ تماثل في إتقانها هَرمَّي مصـــر
بنـــاء يَشيبُ الدهر منه وكلُّ مـــا علي ظاهر الدنيا يشيب من الدهرِ

تَنَزَّهَ طَرْفي في عجيب بنائهـــا ولم يتَنَزّهْ في المـــراد بها فكـــري

وقال آميه ين آبي الصلت المغربي في رسالته المصرية :

بعينك هل آبصرت أحسن منظـرا علي طول ما آبصرت من هرمي مصر

أنَافَا عناناً في السماء وأشرفا علي الجوْ إشراف السماك او النســرْ

وقد وافيا نشزا من الآرض عاليا كأنهما نهدان قاما علي صَـــــدْرِ

وللشهاب الحجازي :-

يا هرمَيْ مصر لقـــدَ حـــسُنْتمُاَ رُباهــاَ

عَـرُوُس حسنٍ قـد غـدَت وأنتُمـَا نَهـداهَـــا

قال السخاوي : ولما وصلنا الي المكان المشار إليه اقتفينا أثر شيخنا وصعدنا إلي آعلي آكبر هرم هناك . وسمعت البقاعي ينشد فوقَهُ قصيدة أولها :

بامن يكلفني بالذل رالملـــقِ أقْصِـرْ قـدتُيكَ ليس الذل من خُلقي

إلي أن قال :

إنا بنو حسن والناس تعرفنــا وقت النزول واسْدُ الحرب في حَنَــــق

كم حببت قَفْراً ولم يَسْلُكْ بهَ بَشَرٌ غيري ، ولا أنيس إلا السْيفَ في عنقي

سلكتـه والدَّلوأرخَي عـزالتـه فـيـه كبحـر طغي بالمــوج مندفِــقِ

قلت : وقد تلاعب الشعراء في هذه الأبيات ، لا سيما في قوله : إلا السيف في عنقي " .

قال مُتممًا الحديث عن الهرم " ثم انحدرنا منه ودخلنا المكان الذي بأسفله ومع كلٍّ منا الشمع المطيِّب ، وفي الوصول إليه خطر لكونه لم يتمكن من الدخول أوله إلا بالمرور علي البطن كالحيات والهوام والحيتان ، ولا يؤمن في حال المرور فيه من حيه وغيرها ، ويحصل الرّقي بعد ذلك من مكان صعب جدا يكون عرضه مقدار ذراع ، وعلي يسار الصاعد فيه وهوة " الله أعلم بقرارها ، ثم ينتهي إلي مكان مربع إلي غير ذلك مما كان الأولي عدم التوغل في دخوله لما فيه من مزيد المشقه والخطر .

وقد توجه عقيبنا بيسير القاضي بدر الدين بن القطان ، فلم يستطع هو ولا أحد ممن معه الدخول ، واقتضي رأيهم رد مهم المكان الذي منه يدخل لما في بقائه - عندهم - من الضرر . ورجع فأخبرنا بذلك ، فما كان بأسرع من رجوع البقاعي ، فأزال الردم وصيره كما كان أولا ، لكنه لم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً وسقط عليه من قطع الحجارة ما لا يمكن إزالته إلا بتكلف ورجال . ولله الأمر .

زهرة الآداب (١) ، وتحفة أولي الألباب

(للبسطـــى)

دت سنة ٧٨٦هـ

وهو عيسي ين محمد ين أبي مهدي الفهري البسطي من أدباء عصر الشراكسة ويعلل تسمية كتابه زهرة الآداب في مقدمته بقوله :

" .. وقال العلامة جار الله الزمخشري ؛ كان ذو الرياستين يقول : الأدب عشرة أجزاء ثلاثة أفو شروانية : لعب الشطرنج ، والضرب بالعود ، والضرب بالصولج ، وثلاثة شهر خانيَة الهندسة والطب والنجوم وثلاثة عربية : النثر والشعر وأيام العرب . وواحدٌ وهو السمر آرادَ المحاضرة ."

ويأتي بتعريف للآدب عن اليونان ثم يقول ؛" فالآداب عندئذ تكمل عند آهل الأمصار الذين اجروا في الظرافة واللطافة ومكارَم الأخلاق .. فمن تبحر من الأمم العربية في الأدب واللسان العربي وترفيق الكلام والقاء العبارات وتحسين الألفاظ المناسبة للمقام حاز الغاية القصوي والدرجة العليا عند جميع الأمم ، فيكون مرضيا عند جميعهم ، مرموقا بعين المحبة بينهم ، مرفوع الرتبة فوق كثير ممن سواه . وما من أمة من الأمم إلا ولها قدرة علي التصرف في المعاني والآداب ، ظريفة المعاني في الآمن والاضطراب ، عند الانفراد والاصطحاب ، شعراء بلسانها بُلغاء بلغتها وبيانها ؛ ولكن قوة العقل غير مستوية في سائر الأقاليم ، بل شدة جولان الذهن في المعاني ، وممارسته فيها ، واختراعه لها في الأقاليم الحارة لما فيها من راحة الخاطر حيث لا يكلف فيها بكثير من ذلك شئ ، ،مع هذا فإن المحقق أن ذوق الشعر وملكته يكونان أيضا في الأقاليم الباردة ، بل شديدة البرودة ، ولو كانت قريبة من القطب .

لكن فضل الأشعار العربية مشهور ، فلا يقاس غيرها بها ، فإن الدرجة متفاوتة

(١) مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم خط ١٦٧٦ ب
وهي نسخة خطية بالنسخ الحديث بتاريخ ١٣٣٠ هـ عن نسخة أصلية فرغ منها كاتبها سنة ٨١٩هـ

، والله يؤتي فضله من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، فعرب البادية ، والمغاربة ، والمشارقة يميلون إلي نظم الأشعار ، واختراع الأحدوثات " فإن الاختراع عبارة عن شئ يحدثة الإنسان ، آي يأتي به ويزخرفه ، فهو مخترع آي مُنشأ .

فمن العرب أناس يتكلمون بالشعر ، ويتحدثون بالحكايات اللطيفة ، مع كونهم عوام لا يقراون ولا يكتبون لتنوير أذهانهم لا يعسر عليهم ذلك ، بل يكون سهلاً عندهم » .

والكتاب في حملته من كتب المجموعات التي اشتهرت في العصر ينقل نصوصا متعددة بين نظم ونثر وحكايات . ومن مصادره جمع الجوامع لتاج الدين السبكي ، وابن عساكر ، والنووي ، والزركشي ، وابن حجر ، وابن الجوزي وابن شاكر الكتبي والزمخشري . وممن أورد شعراً لهم بعض شعراء الأندلس ، والأدفوي صاحب الطالع السعيد ، والشهاب الخفاجي . ومما تقله من شعر الادفوي قوله :

إن الدروسَ بمصرنا في عصرنا	طبعت علي لغَطٍ وفرط عياط
ومباحث لا تنتهي لنهاية	جدلاً، ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرّسٌ يبدي مباحث كلها	نشأت من التخليط والأغلاط
ومُحَدِّثٌ قد كان غاية علمه	أجزاء يرويها عن الدمياطي
وثلاثة تروي حديثا عاليا	وفلانٌ يروي ذاك عن أسباط
ولا الفرق بين غزيرهم وغريرهم	وافصح عن الخياط والحناط
والفاضل التحرير فيهم رآيه	قولٌ لرسطا ليس أو سقراط
وعلوم دين الله نادت جهرةً	هذا زمنٌ فيه طيٌّ بساطي

ويورد قوله كذلك يحن إلي وطنه الصعيد :-

احن إلي أرض الصعيد و أهلها	ويزداد شوقي حين تبدو قبابها
وتذكرها في ظلمة الليل مهجتي	فتجري دموعي إذ يزيد التهابها
وما صعبت يوماً علي مُلِمَّةٌ	وشاهدتها إلا و هانت صعابها

بلاد بها كان الشباب مساعـــدي علي نيـــل آمالٍ عزيزٍ طلابُهـا
وقضَّيْتُ صفو العيش في عرصاتها لـذلك يحلو للـفؤاد رحَابُهـــا
مواطن إهلي ثم صَحْبِـي وجيرتـي وأول أرضٍ مسُّ جـلدي ترابها

ويترجم أحيانا تراجم مختصرة لبعض الأعلام ، كقوله عن صاحب " لسان العرب " محمد ين مكرم بن علي - وقيل رضوان - ابن أحمد ين أبي القاسم بن منظورالأنصاري ، الإفريقي المصري ، جمال الدين ، أبو الفضائل ، صاحب لسان العرب في اللغة ، الذي جمع فيه بين التهذيب ، والمحكم ، وحواشيه ، والجمهرة ، والنهاية ، والمولود في المحرم سنة ٦٣٠ ه والمتوفي في شعبان سنة ٧١٠ . ومن نظمه :

بالله إن جزت بـــواديَ الأرَاكْ وقبلتُ عيدانُه الُخضْـر فـاكْ
فابعثَ إلي عبدكَ مـــن بَعْضها فإنني ، والله ، مـــالي سِوَاكْ

ويعرف ببعض الأشياء الشائعة في كلام الناس ، ليرجع لفظها إلي أصله اللغوي الفصيح ، فيتكلم عن " الكباب " فيقول :" الكبابُ بفتح الكاف وهو اللحم المشروح وأجودة المشروح شرحاً خفيفا ، ونثر عليه الملحُ ، ونصبَ له مَقْلي علي النار بلا رسم وطُوِّحَ عليه ، وقلبَ من جنب إلي جَنْبٍ حتي ينْضُجْ َ ويحَمرُ . وهذا هو الكباب الخالص بعينه . وهو الذي كان يعمل ليحيي ين خالد ، ولولده . ويقول فيه أبو الفتح البستي :

عليك إذا انجابَ الدْجي بكباب وعقْبْة مرتاحاُ بكأسِ شرابِ
فلم يفتْح الأقوام بابا إلي المنـي كبابِ شرابٍ أو كبأبَ كباب

ويورد كثيرا من هذه الطرائف المعرفية والشعرية ، منها قول ظافر الحداد

فيما كتب علي كرسي : (يعني كرسي قراءة - الذي يوضع فوقه المصحف أو الكتاب)

نَزِّهْ لحاظكَ في غـــريب بدائعي وعجيب تشبيهي ، وحكمة صانعي
فكأنني كفاً مُحبٍّ شبكَـتْ يوم الوداع أصابعاً بأصابعَ

وقد يورد بعض الأحاديث عن الأخلاق الانسانية حميدها ومرذولها ، ويتحدث عن الخيل ، وصفاتها ، وألوانها ، وأنسابها

وأحبهاً لدي العرب ، كما يورد كثيرا من المعارف الطيبة ، والجغرافية ، وبعض الأطعمة ، والحيوان والنبات .

حياة الحيوان الكبري
للدميـــري

وهو كتاب جامع علي ما يبدو من عنوانه أنه قاصر علي الحديث عن الحيوان .

وحديث الحيوان موضوع شيق مطروق في التاريخ الأدبي ، فقد تناوله الأدباء من قديم وعرضوا له في صور متعددة ، منهم من عرض للتاليف عن أنواع الحيوان ، وحياته وتناسله وطبائعه ، وما يدور حوله من قصص وعقائد ، ككتاب الحيوان للجاحظ ومنه ما يتخذ وسيلة للتعبير والرمز ، فيوظفه المؤلفون في حكايات ، يلقون علي ألسنته بالقول كما هو الحال في كليلة ودمنة ، وما وافقة أو سار علي منواله من الكتب ، وقد اتخذه بعض الصوفية والحكماء وسيلة ليبث أفكارهم ونصائحهم . كما خصه بعض الشعراء بالقول ، والقوا منظومات تتحدث عن كل نوع منه ، وكثر هذا في شعر الطرد ، كما هو حادث في طرديات أبي نواس إذا يصف في كل طردية نوعا من حيوان الصيد أو طيره ، يتحدث عن الفرس ، والكلب ، والديك .وغير ذلك .

وكتاب الدميري " حياة الحيوان الكبري " ينتظم في هذه المنظومة من المؤلفات الكبري ، ويتخذ الجاحظ أسوة له مع الفارق في المنهج والغاية . وقبل الحديث عن الكتاب نتعرف علي صاحبه :

الدميـــــــري

كمال الدين محمد بن موسي

(٧٤٢ - ٨٠٨ هـ)

صاحب كتاب حياة الحيوان

وهو محمد بن موسي بن علي الدميري ثم المصري ولد في حدود ٧٥٠ هـ (١) وتكسب بالخياطة ، ثم طلب العلم وسمع المسند ، لازم خدمة الشيخ بهاء الدين السبكي وتخرج به وبغيره ، وكان اسمه كمالاً ، وبذلك كان يكتب بخطه ، ثم تسمي محمدا . ولد بدميرة من قري مصر ، وتكسب فيها بالخياطة ، ثم تعلق بالعلم فطلبه وانتقل إلي القاهرة ، للقاء علماء عصره ، ومن أشهرهم بهاء الدين السبكي الذي لزمه كثيرا وتفقه عليه ومهر في الفقه والأدب ، وشارك في الفنون ، ودرس الحديث بقبة بيبرس وفي عدة أماكن . ووعظ وأفاد وخطب وأجاد علي قول ابن حجر (٢) . وكان ذا حظ من العبادة تلاوة وصياما ومجاورة بالحرمين .

وقد ذكر عنه كرامات ، وكان يخفيها ، وربما أظهرها وأحالها علي غيره .

ويقول ابن العماد (٣) :

" الدميري بالفتح والكسر نسبة إلي دمير - قرية بمصر ، الشافعي العلامة . وتفقة علي الشيخ بهاء الدين أحمد السبكي والشيخ الإسنوي ، والقاضي كمال الدين النويري المالكي ، وأجازه بالفتوي والتدريس .

وأخذ الأدب عن الشيخ برهان الدين القيراطي . وبرع في الفقه والحديث والتفسير والعربية . وسمع جامع الترمذي علي المظفر العطار المصري ، وعلي علي بن أحمد الغرضي الدمشقي مسند أحمد بن حنبل بفوت يسير . وسمع بالقاهرة من محمد بن علي الجيزاوي وغيره . ودرس في عدة أماكن كرامات . وتصدر للإقراء فانتفع به جماعة .

---

(١) وقيل سنة ٧٤٢ هـ

(٢) إبناء القمر ٥/٢٤٦

(٣) شذرات الذهب : ٤ / ٨٠

وأما كتبه فقد غلب عليها الحديث والفقه ، فقد كتب علي ابن ماجة شرحاً سماه :" الديباجة " ، مات قبل أن يحرره ويبيضه وشرح " المنهاج " وسماه " النجم الوهاج " لخصه من السبكي والإسنوي ، وغيرهما . وعظم الانتفاع به خصوصا ما طرزه به م التمنمات والخاتمات علي قول السخاوي (١) والنكت البديعة .

ونظم في الفقه أرجوزة طويلة ، فيها فروع غريبة ، وفوائد حسنة . وله " تذكرة " حسنة مفيدة ، "وحياة الحيوان "

واختصر شرح الصفدي للاميه العجم فأجاده .

قال السخاوي : " ورأيت من غرائبه فيه قوله : وكان بعضهم يقول إن المقامات وكليلة ودمنة رموز علي الكيمياء . وكل ذلك من شغفهم وحبهم لها . نسأل الله العافية بلا محنة !! ." قال السخاوي وله نظم جيد . ولعله علي طريقة المتصوفة ويبدو أن الدميري تصوَّف أو اعتقد في التصوف فقد الحق بصوفية سعيد السعداء وشاهد وقفها .

وقد أخذ عليه جماعة من علماء العصر ، من بينهم السخاوي الذي ترجم له ترجمة ضافية وقد حضر عليه دروسة بالمدرسة البيبرسية . وكان يدرس بها دروس الحديث. قال السخاوي !" وكنت أحضر عنده فيها ." وحضر دروسه وصحبه المقريزي زمنا . قال : " صحبته سنين وحضرت مجلس وعظه مراراً لإعجابي به . وأنشدني ، وأفادني . وكنت أحبه ويحبني في الله لسمته وحسن هديه ، وجميل طريقته ، ومداومته علي العبادة ." (٢)

وحسن اعتقاد بعضهم في صلاحة ، وزعموا أن له كرامات كان يخفيها وقد جاء ذلك علي لسان عالم حجة هو حجرابن العسقلاني ، وأكد صوفيته ، فقال إن له أذكارا يواظب عليها . وعنده خشوع وخشية ، وبكاء عند ذكر الله سبحانه .

ومما ينسب إليه من النظم في هذا النهج :

بمكارم الأخلاق كــنْ متخلقــاً ليُفوح نَدُّ شذائك العَطِرُ النَّـدى
واصْدُق صَديقك إن صَدقتَ صداقةَ وادفع عدوَّك بالتي ، فاذًا الذى

وقد أشار في عجز البيت الثاني إلي الآية الكريمة :﴿ أدفع بالّتي هيَ أحسن فإذا الّذي بينَك وبينّه عداوةً كأنّه وليّ حَميم ﴾

(١) الضوء اللامع ٥٩/١٠ (٢) المصدر نفسه

كتاب حياة الحيوان الكبري

فأما كتابه هذا فيعكس شخصيته ، وثقافته . ويصور ثقافة العصر ، وطبقة الفقهاء ، ورجال الدين بعَامَّةٍ علي إختلاف اتجاهاتهم .

ومن ينظر في حياة الحيوان يلاحظ اختلاف منهجه عن منهج كتاب الجاحظ فالجاحظ في كتابه مفكر ، يضع العقل والتجربة والملاحظة الواقعية موضع الاعتبار ولا يهتم بما يروي من القصص والأخبار والأحاديث كثيراً في إثبات عادة لحيوان ، أو التعرف علي طبيعتة أو صفتة ، بل علي العكس تراه يعرض لآراء هؤلاء القصاص ، وأصحاب الأخبار والأحاديث فيفند أقوالهم وخرافاتهم في ضوء المنهج العقلي الذي يتبعه .

وأما الدميري ، فشأنه يختلف ، فهو محدث سلفي مغرق في سلفيته ، يعتمد الأقاصيص والأحاديث الضعيف منها والموضوع وغير الحسن من الخرافات والأساطير ، وهذه طبيعة علم العصر ، وما فرضه بعض الفقهاء والعلماء من حصار ديني علي المفكرين والمدقِّقين ، فتاهوا في دوامة السلف وأحاديث المحدثين وتزيّدهم أحيانا في اختلاق الأخبار ، جريا وراء الغريب والطريف ، ولمخاطبة عقلية المتعلمين والمتلقين الغيبية التي نشأت ودرجت علي مثل هذه الأمور التي تغيب العقل ، ولا تتعلق من العلم والواقع بسبب .

وكتاب الدميري عن الحيوان دلالة واضحة علي تخلف العقل الإسلامي إذا ما قورن بحيويته وانبعاثه ونشاطه أيام المأمون علي يد أمثال الجاحظ وأبي حنيفة الدينوري في الأخبار الطوال من الآخذين بأسباب العلم الموضوعي والفكر السليم القائم علي التجربة والمنطق ، والنظر العقلي السليم . وتستطيع أن تحكم علي تخلف هذا الفكر وأسبابه بعد ما يزيد علي خمسمائة عام بالمقارنة بين الكتابين . لنضع دليلاً واضحاً أمام المكابرين علي مدي خَبْبَةِ الفكر السلفي والمنهج النقلي وجنايته علي الفكر العربي الإسلامي .

وقد لاحظ السخاوي ، وهو من عرفنامن تلمذته علي الدميري ، وهو أحد أعلام السلفية في عصره ، لاحظ الخلط في الكتاب فقال !" وهو (كتاب الحيوان) نفيس ، أجاده ، وأكثر فوائده ، مع كثرة استطراده فيه من شيء إلي شيء . وله

فيه زيادات لا توجد في جميع النسخ ، وأتوهم أن منها ما هو مدخول لغيره ، إن لم تكن جميعها لما فيها من المناكير ." (١)

أما ملاحظة الاستطراد فهذه حقيقة في منهج الكتاب ، وأما توهمه بأن به مدخولاً لغيره ، ممن هم أقل ثقافة من النساخ أو المعلقين . فهذه حقيقة أيضا تثبتها له ، لوجود كلام غير متفق مع عصر المؤلف ، مما يشهد بصحة قول السخاوي .

والكتاب إذا ليس مجرد حديث عن الحيوان ، بل يقع في دائرة الكتب الجامعة ، والمحاضرات ويتخذ من الحيوان بابا يدخل منه إلي ما يريد من الموضوعات ، والأحاديث ، والقصص والتاريخ والمواعظ ، والتفاسير ، والأساطير ، والماثورات ، والاسرائيليات والمرويات الشعبية ، والهواجس الصوفية . كما يحفل بكثير من العقائد الشائعة بين العوام من الشيوخ والناس علي سواء ، من العلاج بالقرآن والحديث ، الذي تطور عند بعضهم حتي وصلنا فيما يطلق عليه " التداوي بالقرآن " و" "الطب النبوي " .

ولم يتنبه هؤلاء كما تنبه راشدةُ المفكرين إلي أن كتاب الله لم ينزل لمداواة الأجساد ، بقدر ما نزل لعلاج أمراض النفوس والعقول ، فهو كتاب دعوة وارشاد وهداية من ضلال النفوس وبغي الأناس . (إن الانسان ليطغي أن رآه استغني)ولم يكن يوم نزل كتاب رُقي ، وتراتيل ، ودواء وعلاج . وإلاّ فإن بين الناس من اكتسب الخبرة في مثل هذه الأدواء عالجوا بها أمراض الجسد لكنهم افتقروا إلي علاج الارواح فتنزل الله عليهم الكتاب ، وهداهم بالرسول ليكون قدوة في عقيدته وسيرته

ومصادر الدميري في الحيوان " كتاب الجاحظ " بصورة أساسية ، لكنه يضيف إليه ما يتعلق بالحيوان من الحديث وكل ما جاء عنه في الكتاب والسنه ومن هنا كان القرآن . مصدراً أساسيا ، يليه كتب الأحاديث : البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود ، والنسائي ، والطبراني ، والحافظ المنذري ، والبيهقي ، وأبن حبّانِ وكتب التفسير المختلفة كتفسير ابن عطية وتفسير البحر المحيط لأبي حيان .

---

(١) الضوء اللامع ٥٩/١٠ .

هذا فضلاً عن مجموعة آخري من الكتب المتنوعة الموضوعات والمستويات ، كعمل اليوم والليله " لابن السني و" القواعد لصلاح الدين العراقي ، والمحرر " لابن تيمية وكتاب " روضة العلماء " ، " والبستان " و" المجالسة " ولم يذكر مؤلفها ، ووفيات الأعيان لابنخلكان ، و"ربيع الأبرار"،" للزمخشري "، و" الكامل في التاريخ " لابن الأثير ،" الجزري ،و"الروض الأنف " للسهيلي " ،" ذيل تاريخ بغداد "لابن النجار ." والاذكياء " لابن الجوزي ، كما تقل عنه من كتب آخري لم يذكر أسماءها " والزُّهد " لأحمد بن حنبل من مسنده ." وكتاب " ابن سيده المحكم وغيره . ومن كتب تفسير الأحلام كتاب ابن سيرين وغيره ككتاب " سر الأسرار " لشهاب الدين أحمد البنوني ، وأحسبه في التصوف ومن كتب معاصرية والسابقين عليه من عصر المماليك كتاب للسراج الوراق " منهج الفكر في أوصاف الخيل المذمومة » . وكتاب للطرطوشي في الدعاء ، وأحسبه نقل كذلك عن " سراج الملوك " وهذه المصادر تعطي إطارا لموضوع الكتاب ، وتصوراً عاماً لما ورد فيه ، وهو كما قلنا جامع لكثير من المعارف المختلفة يبدؤها بالتعريف بالحيوان . ويتناول " تعريف الحيوان " عنده كل ما دبت فيه الحياة من الزواحف والحشرات ، والطيور ، والحيوان البري والأحياء البحرية .

وبعد ذكر صفات الحيوان الذي يعنية وأشياء عن فوائده وأضراره وما يتصف به من صفات ، وطريقة عيشه وتوالده ، وما يتصل به من الأساطير ، والحكايات والعقائد ، يختم بما يفيد من جلده أو لحمه ، أو شعره ، فائدة طبية أو سحرية .

فهو كما قلنا خليط عجيب وصورة متداخلة الخطوط والألون لثقافة عصر يختلط فيها الحق بالباطل ، والصحيح بالوهم ، والتاريخ بالخرافة والأسطورة كما يحفل بكثير مما شاع عند عوام المسلمين من الأدعية والرقي المأخوذة من آي القرآن الكريم . والآيات التي يُدَّعَي بفوائدها الطبية ، في شفاء أمراض بعينها علي زعمهم . ومثال لذلك قوله :

" قال بعض العلماء المحققين !" ومما جرّبَ لإذهاب الخوف والهم والغم أن يكتب هاتين الآيتين ويحملهما ، فإنَّ الله تعالي يبارك له في جميع أحواله ، و ينصره علي أعدائه وهما ينفعان للأمراض الباطنة . وكلّ آية منها تُجمعُ الحروف المعجمة

بأسـرها ، وتكتب في إناء نظيف ، وتمحي بدُهن ورد ، أو زيت طيب ، أو شيـرج ويطلي به الألم كالدُمّل والضلوع ، والحرارة والريح والتآليل والنَّضْجُ ، والقروحات بأسرها . فإنه يزول ويبرأ من يوسه في الغالب ، كما جُرّبَ مرارا . وهما من الأسرار المخزونة . كذا قال شيخنا اليافعي رحمه الله . الآية الأولي من سورة آل عمران قوله : (ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنه نعاساً إلي قوله تعالي . . عليم بذات الصدور) والآية الثانية من سورة الفتح من قوله تعالي : (محمد رسول الله . . إلي آخر السورة)(١)

ويحفل بالاسرائيليات المدخولة ، والتي أشرنا في حديث ثقافة العصر ومواضع سابقة إلي أنها اختراق لفكرنا الإسلامي - رواه بعض المحدثين والعلماء غفلة دون تدقيق ولا نقد لمضمون الخبر وملاءمته لنصوص القرآن وصحيح العلم . ومنها بعض ما جاء فيه من قصص الانبياء مما نقله عن كتب غيرموثوقة بَالتجلي في وصف الأنبياء والقزويني في عجائب المخلوفات فمن حديثه عن بناء الأهرام يروي زعم بعض الاسرائيليات بأن الذي بناها يوسف الصديق لحفظ الغلال ، سنوات القحط .

وهو محض افتراء ، مثله مثل ما يزعمه بعض اليهود في عصرنا هذا في القرن الخامس عشر الهجري والعشرين الميلادي من نسبة بناء الأهرام لليهود ، وأن المعابد والهياكل العظمي لفراعين مصر إنما هي نسخة من هيكل سليمان . ويحفل الكتاب بكثير من الأحاديث التي ينسبُها إلي ثقات إلا أن ما جاء بها لا يتفق مع المنطق ، ولا يقبله عقل بصير وهي أشبه بتهويمات القصاص ، وغرائب أخبارهم وتساير ادعاءات رواة الأسرائيليات وافتراءاتهم علي التاريخ والعقول . كنسبة بعض الخوارق إلي أنبياء بني اسرائيل من أرميا ، ودانيال ومن شابههما وتتداخل في الكتاب وتختلط أزمان التاريخ ورجاله ، فيتعاصر من فرقت بينهم أزمنة طويلة ، وأمكنة شاسعة . وينسبون إلي بعض رجال التاريخ من علقت أسماؤهم بأحداث كبيرة كبنوخد نَصَّر ، أو ذي القرنين أعمالاً خارقة ، لا تتصل بهم في حقيقة الأمر ، وفقا لما هو ثابت في وثائق التاريخ الصحيح .

---

(١) حياة الحيوان ص٦

مثال من كتاب الحيوان للدميري (١):

يقول عن الأسد :" روي ابن سبع السبتي في شفاء الصدور عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنه في بعض أسفاره فبينما هو يسير إذ هو بقوم وقوف ، فقال : ما لهؤلاء القوم ؟ . قالوا : أسد عمي الطريق قد أخافهم فنزل عن دابته ثم مشي إليه حتي أخذ بأذنه ونحاه عن الطريق ثم قال له : ما كذب عليك رسول الله صلي الله عليه وسلم بقوله : إنما سلطت ابن آدم لمخافته غيرَ الله ، ولو أنَّ ابن آدم لم يخف إلاَّ الله تعالي لما عليه . ولو لم يرج إلا الله تبارك وتعالي لما وكله إلي غيره ".

وهذا مثال من القصص والأحاديث الموضوعة علي لسان الوعاظ فقد جعل من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أو من ابنه عبد الله سربا للوحوش يأخذ بأذن الأسد ولا يؤذيه بل يخافه الأسد ، ويستمع إلي موعظته وكلامه . أمر عجيب وضرب من العلم أعجب ! .

والعجيب في أمر الدميري ومنهجه في الكتاب أنه ينقل عن أرسطو والجاحظ ، ولا أدري هل رجع إلي كتاب إرسطو في الحيوان أم أنه نقل عن الجاحظ ما أخذه من أقواله . قال(٢) :

" قال أرسطو رأيت نوعا منها يشبه وجه الإنسان ، وجسده شديد الحمرة " ويستطرد في حديثه عن كل حيوان استطرادات كثيرة ، فيخرج عن موضوع الحديث إلي موضوعات أخري جانبية ويأتي بحكم وأقوال ، ونوادر وأخبار ، وقصص وأحاديث ومواعظ .

وطريقته في الحديث عن الحيوان أن يبدأ باسمه . أو اسمائه إن كان له أكثر من اسم كالأسد والإبل ، ويبين اشتقاقاته ، وما إلي ذلك . مثاله في " الإبل " يقول :

الإبل بكسر الباء الموحدة ، وتسكنُ للتخفيف الجمالُ ، وهو اسم واحد يقع علي الجمع ، وليس بجمع ، ولا اسم جمع إنما هو دال علي الجنس كذا قاله ابن سيده ..

---

(١) حياة الحيوان الكبري : ص ٣

(٢) حياة الحيوان الكبري : ص ٣

وقال الجوهري ليس لها واحد من لفظها ، وهي مؤنثة لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم ٠٠٠

قال بفتح الباري : روي ابن ماجة عن عروة البارقي رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال : الإبل عزٌ لأهلها ، والغنم بركة ، والخير معقود بنواصي الخيل إلي يوم القيامة ٠

قال تعالي : (أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت) وقد جعلها الله تعالي طوال الأعناق لتنوء بالأثقال ٠ وعن بعض الحكماء أنه حدث عن الأبل وبديع خلقها وكان قد نشأ بأرض لا إبل فيها ففكر ساعة ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق ٠ وحيث أراد الله تعالي أن تكون سفائن البرَ صبّرها علي احتمال العطش حتي إن ظمأها ليرتفع إلي العشر ، وجعلها ترعي كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم ٠ وروي عن سعيد بن جبير أنه قال : لقيت شريحاً القاضي ذاهباً فقلت له : أين تريد ؟ فقال : أريد الكناسة ٠ فقلت : وما تصنع بالكناسة ؟ قال : أنظر إلي الأبل كيف خلقت ٠ وقال تعالي : (وعليها وعلي الفلك تحملون) قرنها بالفلك التي هي السفائن لأنها سفن البر ٠ قال ذو الرمة :

سفينةُ برٍّ تحت خدِّي زمامُها

يريد صيدح (ناقته) التي يخاطبها بقوله :

سمعت الناس ينتجعون غيثـاً　　　فقُلتُ لصيدحَ انتجعي بلالاً

قال : " والإبل أنواع " : الأرحبية ، منسوبة إلي بني أرحب من همدان ٠ وقال ابن الصلاح إنها من إبل اليمن ، والشذقمية إبل منسوبة إلي شذقهم وهو فحل كريم كان للنعمان بن المنذر ، والعيدية - بكسر العين المهملة - أبل منسوبة إلي بني العيد وهم فخذ من بني مهرة ٠٠ والمهْرِيَّة إبل منسوبة إلي بني مهرة بن حيدان ٠٠ والجمع المهاري " ٠

قال أصحاب الكلام عن طبائع الحيوان : ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه إذْ يسوء خلقُه ويظهر زبده ورغاؤه ، فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل ، ويقل أكله ويخرج الشقشقة ، وهي الجلدة الحمراء التي يخرجها من جوفه وَيَنْفُخُ فيها فتظهر من شدقه لا يعرف ما هي ٠٠

.. ومن طبعها أنها تستطيب الشجر الذي له شوك وتهضمه أمعاؤها ، ولا تستطيع في غالب الأوقات أن تهضم الشعير . ومن عجيب ما ذهبت إليه العرب أنها إذا ما أصاب إبلها العرّ كوُّوا سليمها ليشفي العليل(١) . وفي هذا المعني قال النابغة :

وحمَّلتني ذنبَ امريءٍ وتركْتَهُ كذي العرِّ يكوي غيره وهو راتع

الحكْمُ - يحل أكل الإبل بالنص والإجماع . قال الله تعالي : (أحلت لكم بهيمة الأنعام) . وأما تحريم إسرائيل وهويعقوب عليه السلام علي نفسه أكل لحوم الإبل وشرب ألبانها فكان ذلك باجتهاد منه علي الصحيح . والسبب في ذلك أنه كان يسكن البدو فاشتكي عرق النّسا ، فلم يجد شيئاً يؤكل إلا لحوم الإبل وألبانها ، فلذلك حرمها . وإسرائيل لَفظةٌ عبرانية " .

ويخرج من هذه الأحكام الفقهية في لحْم الإبل ، حرامها وحلالها إلي حديث آخر يسترسل فيه تعبيرإلي الرؤيا في مشاهدتها بالمنام فيقول : قال أهل التعبير : " من رأي أنه ملك منها هجمة في منامه ، فإنه يدل ذلك علي أنه يحكم علي جماعة ذوي أقدار ، ويملك مالاً ." وواضح أن مفسر الرؤيا يدرك قيمة الإبل عند العرب ، فهي ذات قدر بين الحيوان حتي إنها عبدت عند العرب الآبدة ، وكانت مالاً ، أوهي تسمي مالاً ، وتقدر ثروة بعض البدو والأعراب بما يملكون من المال .

فالذي يري الحلم ، والذي يفسره لابدّ وأنه يعرف قدر الإبل ، وما تمثله من قيمة معنوية أو مادية . بل ودينية أحيانا .

---

(١) وقد يراد بكي السليم حمايته من المرض

مطالع البدور من منازل السرور
للغزولـــي

وإذا كان كتاب حياة الحيوان يمثل جانبا من الحياة والفكر الإسلامي في هذا العصر ، فإن مطالع البدور يمثل الجانب الآخر بعيداً عن الإغراق في التعلق بالغيبيات ، والانصراف عن المادية ، ومتع الحياة الدنيا . فهذا الكتاب وهو مطالع البدورمع الحيوان يمثلان المجنمع الإسلامي ، أو يمثلان نمطين من حياة البشر يتعايشان ، قد ينفصلان فيتمثل كل جانب في مجموعة من الناس ، تمثل إحداها الانصراف عن الدنيا والأخذ بأسباب الآخرة . وتمثل الآخري الأخذ من الحياة الدنيا بنصيب ولا تنسي نصيبها منها الدنيا ، والتمتع بكل ما يتاح من متعها وملأذها . وقد يهمل الجانب الآخر أو يأخذ به مجاراة ، وقد يتعايش الجانبان في شخص واحد ومجموعة من الناس تري التوسط ، والأخذ من كلّ بمقدار دون أسراف وافراط أوتفريط شريعة ومسلكا متوازنا .

الغزولـــي
صاحب مطالع البدو
علي بن محمد بن عبد الله البهائي الدمشقي

ولد الغزولي وعاش وتلقي العلم بدمشق ، وأقام بها حتي غزو المغول لها سنة ٧٨٧ه ، فغادرها إلي القاهرة وأقام بها زمنا التقي فيها بجماعة من أدبائها وعلمائها المشهورين .

ولم يذكر المؤلفون ترجمة له ، وقد استقينا طرفاً من أخباره من كتابه " مطالع البدور " ومنه يمكن القول بأنه عاش في الفترة الواقعة بين النصف الأخير من القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع .

وممن روي عنهم الأديب عز الدين الموصلي ، وأنشده بنفسه من شعره .

وممن أخذ عنهم بالقاهرة ابن حجر العسقلاني ، والدماميني ، وابن العجمي ، واتصل في دمشق بالوزير فخر الدين ابن مكانس في أثناء إقامته بدمشق سنة

٧٩٣هـ . وعندما جاء إلي مصر واصل اتصالاته بابنه مجد الدين ابن مكانس . وظل علي علاقة حميمة به طوال إقامته بمصر .

وتردد بين مصر والشام فقد جاءها قبل ٧٩٥هـ أو ربما ٧٩٤هـ ، وغادرها أوائل سنة ٧٩٥هـ . وقبيل سفره التقي بالعلامة زين الدين أبي بكر عثمان ابن العجمي بمنزله بمدرسة الكاملية بشارع بين القصرين بالقاهرة .

ولعله عاد في العام نفسه إلي مصر حيث يخبرنا بأنه التقي أواخر سنة ٧٩٥ بالدماميني وتذاكر بين يديه الكتب وحسن أسمائها . ويبدو أن الغزولي تردد بين القاهرة ودمشق عدة مرات . والتقي في هذه السفرات بجماعة نقل عنهم ، وأفاد وذكرهم في كتابه مطالع البدور ، منهم الأديب ابن حجة الحموي .

وعاصر الغزولي السلطان حسن وخلفاءه من سلاطين آخر الدولة الأولي ، وزمن السلطان برقوق مؤسس الدولة الثانية والسلطان المؤيد شيخ المحمودي .

والغزولي أديب متعدد المواهب ، فهو أديب شاعر . وصلنا كتابه " مطالع البدور في منازل السرور " ، يدور حول ما يوفر للإنسان في حياته الراحة والسرور والمتعة ، ويبدأ بالسكن الجميل المريح ، والأثاث المناسب ، والزوجة والخدم والطعام والشراب والغناء والموسيقي وما إلي ذلك .

ومن شعره قوله في رثاء دمشق عند احتلال المغول سنة ٧٨٧هـ :

أعرُوسنا لكِ أُسوةٌ بحماتنـــا ... في ذا المصَابِ فأنتما أختانِ

غَابتْ بدورُ الحسن عن هالاتِهـا ... فاستبدلـت عن عزّها بهـوانِ

ناحت نواعيـرُ الرياضِ لفقدهـم ... فكأنّهـا الأفلاكُ في الدَّورانِ

ويغلب علي صداقات الغزولي ومعارفه ومن اتصل بهم وجلس إليهم وراسلهم الأدب والشعر ، والتحرر في القول والفعل ، لا التزمت والجمود . والأقبال علي الحياة بمتعها ، وليس الانصراف عنها . وفي مقدمة هؤلاء الصاحب فخر الدين بن مكانس ، وهو من علية القوم ، وممن تولوا المناصب الرفيعة والوزارة ، وكان مقربًا من السلطان ، وسيرد ذكره في الشعراء ، وله شعر فيه هذه النزعة الدنيوية والتحرر في القول والفعل .كذلك كانت علاقته وثيقة بابنه الشاعرمجد الدين وكان

يدعون بأخي ، وكانت علاقتة بالكاتب الشاعر ابن حجة الحموي كاتب السلطان المؤيد شيخ المحمودي ، وجليسه وأثيره ، ومعروف ما كان من ميل المؤيد إلي الفن وسماع الغناء والموسيقي وعمل الشعر الذي يتغني به أحيانا .

ومطالع البدور من منازل السرور :

يكشف عنوانه عن مزاج صاحبه ، ومحتوي الكتاب :

فيقول في مقدمته (١):

" الحمد لله الذي جعل قلوب البلغاء أفلاكًا كالمطالع للبدور . وأسكنها من فسيح صدورهم في منازل السرور ، وأطلعها من درج الفصاحة إلي بديع الطباق وأحلها منازل سعد سنية الإشراق . يظلُّ تحت جناح شرفها كلُّ منشدٍ وقائل :

لك يا منازلُ في القلوب منازلْ

أحمده حمدَ من تخيرً لعمله الصالح داراً أسْسَ بنيانها علي تقوي ، وجعل بابها مدخلاً إلي جنة المأوي ؛ فأضحت مباركة العتبة لمن أمَّها بعد سيرٍ حثيث ، وروي حديث فضلها المسند ، فأكرم بدار الحديث .

وعمدتنا في دار المقام . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله قائدنا إلي دار السلام الكافي لمن يخافه ويرجوه . الهادي إلي طرق السعادة ، يوم تبيض وجوهُ وتسود وجوه .

وصلي الله عليه وعلي آله ما رفُعت أركان وشيّدَ بنيان .

أما بعد فهذا كتابٌ مجموعهُ لفريق أهل الأدب مفيد ، وتذكرة فيها ذكري لمن كان له قلب ، أو ألقي السمع وهو شهيد . جاءَ في تأليفه الشريف عَلَويً النسب ، وتاريخاً أدبياً ، لو سمعه الذهبي لكتبه بماء الذهب . ما وصل إلي حلاوة تأليه ابن خلكان ، ولا يُنْظَرُ مع وجودة بوجهٍ إلي مرآة الزمان . فياله من مجموع أقسمُ بثاني اثنين أنه تفردّ ، وهامت به كتب الأدب ، وأمست عاريةً من الجلد ، وما عسي أن تتجلد . لقد أصبح من حسان المعاني بحور مقصورات في خيام الطروس ممدودة .

---

(١) مطالع البدور : ١ / ٢٣١

وأوتي من كنوز الأدب وأنبائه مالاً معدوداً ، وبنين شهوداً . صرفت الذهن إلي ترصيفه ، وأستعنت بالناقد البصير عند الصرف ، وبلصانع القدير عند الوصف . وأعريْت بناه عن وصف داء ملك ، فجاء في حسنه زائد الوصف . فأقسم من وصف هذه الدار بالبيت المعمور أنها نزهة الناظر والسامع ، وأتلو علي بيت حاسدها ان عذاب ربك لواقع ، ما مرّ الأدباء علي أبوابها الا سلموا سلام الخاشعين . عسي أن يُقال لهم : ادخلوها بسلام آمنين .

وإنَي وأن لم استطع خلوةٌ بِكُمْ أمرُّ علي أبوابكم فأُسَلِّمُ

فتح علي من وصفها بخمسين باباً ، فسبحان الفتاح . ولكن جعلت سواد نقشها وبياض طرسها نزهتي في الليل والصّباح" » .

فالواضح من المقدمة أن الكتاب يتحدث عن السكن ، ولكنه في الحقيقة يجعل السكن باباً أو مدخلاً إلي كل ما يدخل المسرة إلي النفس . وكأنه يجعل السكن المنزل والحديث عنه مطرحاً للحديث عن موضوعات السرور ويعرضها في معارض أدبية شيقة ، من حديث ، وطُرَفٍ ، وشعر ونكتة أدبية .

ويعتمد علي كثير من كتب الأدب والمجموعات السابقة عليه ، إلا أنه يكثر من الاعتماد علي شعر وكتابات المتآخرين من عصور القرون الثلاثة السابقة علي عصره . وكأنه يري ضمنا ما ارتآه مثله من الأدباء في هذه العصور من أن أدب العصر أليق بأذواق أهله ، وأن أدب العصور القديمة قد تنفر منها أذواق معاصريه .

وهو في هذا قد يخالف بعض المخالفة اتجاه السلفيين الذين يجعلون عدتهم الأدب القديم ، ويرون فيه الأصل ، وماجاوزه الفرع . والفرع جزء ناجم عن الأصل ، والأصل عندهم أكثر ثباتاً ، وأمتن أيْداً وقوة ، وفي المحدث ضعْفٌ ورخاوة .

وتحدد أبواب الكتاب موضوعاته . وقد قسمه خمسين باباً هي :

تخير المكان المتخذ للبنيان ، وفي أحكام وضعه وسعة بنائه ، وبقاء الشرف والذكر ببقائه وفي اختيار الجار ، والصبر علي أذاه وحسن الجوار ، وذم الحجاب ، والخدم والدهليز ، والبركة والفوارة ، والدواليب ، وما فيهن من كلام وجيز ، وفي الباذهنج (الهواية - المروحة) وما شاكل ذلك ، والطيور المسموعة ، والشطرنج

والنرد وما فيها من محاسن مجموعة والشمعة والفانوس ، وفي الخضروات والرياض ، والروضات والبساتين . وفي آنية الدَّاح وما يستجلب بها من الأفراح ، وفي الصاحب والنديم ومسامرة أهل النعيم ، وفي الشعراء المحبدين ، والحذَّاق المطربين ، وفي الغلمان الحسان ، والجواري ذوات الألحان ، والباه والحمَّام وما غزا مغزاه . وفي النار والطبخ والقدور ، والأسماك واللحوم والجزور . وفي الشفرة والبقول والخوان والمائدة وما فيها من كلام مقبول ، وفي الوكيزة والأطعمة المشتهاة وفي الماء وما جَري مجراه والحلوي والمشروب ، وبيت الخلاء المطلوب ، وفي نبلاء الأطباء ، وفي الحجاب والوزراء ، وكتاَّب الإنشاء ، وفي الهداياوالتحف الفنَّفيسة الآثمان ، وخواص الأحجار ، وكيانها في المعادن ، وفي خزائن السلاح ، والكنائن والكتب وجمعها ، والخيل والدواب ونفعها ، وفي مصائد الملوك الجليلة المقدار وفي حظائر الوحوش المتخذة لنزهة الأبصار . وفي الأسد والزرافة والفيل ، وفي الحمام وما فيه من قيل . وفي الحصون والقصور والآثار ، وفي الحنين إلي الأوطان وما فيه من رائق الإشعار ، وفي دار سكنت بها كثير من الحشرات ، وفي جنات النعيم وما فيها من غرفات .

ويتحدث في " الباب الأول " عن تخيَّر المكان المتخذ للأسكان فيقول :

" قال أرسطاليس : أول الصناعات الضرورية الصَّيدُ ، ثم البناء ، ثم الفلاحة وذلك لو انَّ رجلا سقط في فلاة ، لا أنيس بها ولا زرع ، لم يكن همَّه إلاَّ حفظ قوام نفسه بالغذاء . فليس يفكر إلا فيما يصيده ، فإذا صاد واغتذي ، فليس يفكر بعد ذلك إلاَّ فيما يسكن فيه وهو البناء ، فإذا تم له ذلك فكر حينئذ فيما يزرعه ويغرسه وقال إبراهيم بن اسحاق المصعبي : كيمياء الملوك العمارة ، ولا يحسن بهم التجارة . وقال ابن كلدة : جميع خصال الدار المستحسنة أن تكون علي طريق نافذ ، وماؤها يخرج منها . وليس عليها مشترف ، وحدودها لها ، وتكون بين الماء والسوق ، ويحصل فناؤها لحط الرحال ، وبلَّ الطين ، ووقوف الدواب . وإن كان لها بابان فذاك أمثل ، وينبغي أن تكون أيضا في طرف البلد ، لأن الأطراف منازل الأشراف . وقال البحتري :

عَجبَ النّاس لاعتزالي وفي الأطراف تُلفَي منازلُ الأشْراف

وقعودي عن التلفُّتِ والأرْضُ لمثلي رَحيبةُ الأكنافِ

ليس عن ثروة بَلغْتُ غير أنِّي امروٌ " كفاني كفافي

قيل : وإنما كانت الأطراف منازل الأشراف لأنهم يتناولون ما يريدونه بالقدرة ، ويصل إليهم من يريدهم بالحاجة إليهم . وقيل لرجل : في أي موضع من القرآن الأطراف منازل للأشراف ؟ . فقال : قوله تعالي : (وجاء من أقصي المدينة رجلٌ يسعي قال ياقوم اتبعوُا المرسلين) فهذا أشرفهم ، وكان ينزل أقصي المدينة .

قال الحكماء : لذة الطعام والشراب ساعة ، ولذة النوم يوم ، ولذة المرأة شهر ، ولذة البنيان دهر ، وكلما نظرت إليه تجددت لذته في قلبك ، وحسنه في عينيك .
وقال نَاصرُ بني أمية في مبانيه العظيمة بمدينة الزهراء بالأندلس :

همُ الملوكُ إذا أرادو ذكرها من بعدهم فبألْسُنِ البُنْيانِ

إن البناءَ إذا تعاظم شأنهُ أضحي يَدُلُّ علي عظيم الشّانَ

ومن كتاب " مطالع البدور " في الخمر والغناء :

قال الغزولي :" يقال السماع كالروح والخمر كالجسد والسرور ولدهما .

اعلم أن بين الخمر والغناء مناسبة في أكثر الأحوال ، ومضارعة فيما يجمعانه من محمود الخصال ، لأن فيه ما يصير الجبان إذا سمعه شجاعاً ، ومنه ما يكون للهم دفاعاً ، ونغمه يبعث الشحيح علي السخاء ومقابلة سؤال السائل بالعطاء . وفيه ما ليس في الخمر من الخصائص العجيبة الأمر ، وذلك أن الرجل الواحد يغني له في طريقة فيلين خلقه ، ويغني له في غيرها فتظهر شراسته ونزَقهُ ، وإذا سمع ضربا منه استَنْفَرهْ ، وإذا غني بصوت آخر لم يكن للعواصف أن تهزه . وفيه ما يبكي سامعه .

ولممازجة الأصوات الحسنة للأرواح وإهدائها إلي القلوب طرائف الأفراح كانت البهائم إذا سمعتها تحن إليها والطير يشغف بها ويطربُ عليها . والإبل يكسبها الحداءُ مثل ما يُكسبُ الأنسان الغناء ، والخيل والبغال والحمير تلذ بشرب الماء إذا تواصَلَ من ساقيهاَ الصفير . والحمامة المطوقة والشحارير والبلابل والزرازير والزاردستانات وغيرها من الطيور المستحسنة الأصوات تسمع أصواتها فيبين منها الطرب وذاك داعيها إلي تكريرها . ولأجل ذلك يتخذ الملوك في قصورهم ،

ويجعل أماثل الناس كثيراً منها في دورهم وإن كانت أصواتها لا تدل علي معني رائق يعلم ، ولا تتضمن ما يعرف عنه الكلام الذي يفُهم . فما ظنك بالألفاظ التي يسمعها السامع فيعيها ويُفهم . ما يفيده إياه من معانيها إذا أدركها ملحنة ممن خصوًا بصفاء اللحن والنغمات المستحسنة . ولهذه صار من يسمع غناء المحسن يشرب من النبيذ عليه أزيد مما يحتمله حاله إذا لم يصغ إليه . ويستمريء الكثير منه مع سماعه ، وإن كان يثقل عليه قليله إن خلا من سماعه . وقد عُلِمَ أن الصبي الصغير إذا انذعر خلقه واتصل بكاؤه ، لوجع يناله أو ضجر يجده ، وصوتت له دادته بكلام تلحنه وتراجعه سكن قلقه ، أو سمع من منومته مثل ذلك زال أرقه .

وقال اسحق بن إبراهيم الموصلي : عيش الدنيا بعد الصحة والشباب الطّلا والغناء والنساء " .

ويحلو له في بعض الأبواب أن يجمع من المنثور والمنظوم في موضوع بعينه فيفيض . ويخص من أشرنا إليهم من شعراء العصورالقريبة منه وأدبائها كالقاضي الفاضل ، وابن الأثير ، والجزار والسراج الوراق

وعقد باباً للحديث عن الشمعة والفانوس والسراج(١) .

يقول فيه :

" من رسالة للإمام ضياء الدين (محمد بن) نصر الله الجزري المعروف بابن الأثير (مولده سنة ٥٥٨ ، ووفاته سنة ٦٣٧

" وكان بين يديُ شمعةٌ تعمُ ُ مَجْلسي بالأيناس . وتغني بوجودها عن كثرة الجُلاس وينطق لسان حالها أنها أحمد عاقبة من مجالسة الناس ، لا الأسرار عندها ملفوظة ولا السقطات لديها محفوظة . وكانت الريح تلعب بلهبها ، وتخلف علي شغبه لشغْبها فطوراً تُقيمُهُ فتصيره أنملة ، وطوراً تُميلَهَ فيصيُر سلسله . وتارة تجوُفه فَتصيره مدهنة ، وتارة تجعله ورقات فيتمثل سوسنه ، وآواناً تنشرهُ فنصيره منديلا وآونة تُلفُهُ علي رأسها فيستدير إكليلا . ولقد تأملتها فوجدت نسبتها إلي الفصُ العسليُ ، وقدها قد العسّال ، وبها يُضْربُ المثل للحكيم غير أن لسانها

(١) منازل السرور ١ / ٨١

لسان الجُهال ، ومذهبها مذهب الهنود في إحراق نفسها بالنار · وهي شبيهة بالعاشق في انهمال الدمع ، واستمرارالسهر ، وشدة الاصفرار · وكل ذا تجدد لها بعد فراق أخيها ودارهما ، والموت في فراق الأخ والدار ·"

وبعد إيراد هذه الرسالة لابن الأثير ، واردافها برسالة أخري مثيلة له أثني علي بلاغة صاحبهما ، وعزاهما إلي قول الأرجاني الشاعر فقال الغزولي : " وهذا الوصف وإن مُد باعه لمعانقة الأبداع ، وأودع أسرار المعاني في صدور الألفاظ فضانها بالأيداع مأخوذ من موضعين ، أحدهما قصيدة الأرجاني والآخر من كلام أبي محمد عبد الله بن أبي الخصال ، فإنه مذكور في آخر هذا الباب عند ذكر السراج · أما قصيدة الأرّجاني فهي :

نمّتْ بأسرار صَبّح كان يُخفيهـا	وأطْلعَتْ قلبهـا للناس من فيهـا
قلب لها لم يَرَعنا وهو مكتمِنٌ	إلاّ برقيـة نارٍ منَ تَراقيهـا
سفيهةٌ لم يزلّ طول اللسان لها	في الحيّ يحنيٌ عنيها ضرب عاديها
غريقة في دموع وهي تحرقهـا	أنفاسُها بـدواء من تلظيهـاً
تنفسّتْ نفسَ المهجور فادكرت	عهد الخليط فبأت الوجدُ يبُكيهـا

ويعمد الغزولي من حين لآخر إلي إبداء رأي نقدي فيما يعرض له من نصوص نثرية أو شعرية ·

ويمضي في الحديث عن بعض مظاهر الجمال في الطبيعة مما يدخل السرور إلي النفس ، ومنها الورد · يقول في الباب الخامس عشر في الخضروات والرياحين – كان المتوكل يقول : أنا ملك السلاطين ، والورد ملك الرياحين ، فكل منا أولي بصاحبه · وكان قد حَرّمَ الورد علي جميع الناس واستبد به ، وقال : لا يصلح للعامة · فكان لا يري إلا في مجلسه ، وكان أيام الورد لا يلبس إلا الثياب الموردة ، ويفرش الفُرُشَ المورُدة ، ويوردُ جميع الآلات ·"

ويذيّلُ حديثه عن الورد بخواصه الطبية والعلاجية · فيجري في ذلك علي ما رأيناه في كتب المجموعات بهذا العصر ، وهذا واضح في كتاب الحيوان للدميري ، وسنراه فيما سنعرض له ·

يقول : " خواصه : بارد يابس في الدرجة الأولي يابس في آخر الدرجة الثانية ، نافع " لصاحب المرّة الصفراء ، ومن به حرارة حرّيقة . مسكنٌ للصداع المتولد منها . ضارّ لصاحب المزاج البارد ، مهيجً لعطاسه ، مزعج لدماغه ."

ويعرف بكيفية الأفادة منه في الطعام ، باستخدامه كمربّي . يقول : ومُرباُهُ بالسكر والعسل ينفع من البلغم ."

وينقل هذه الفوائد عن كتاب " النّوْرُ المُجتنُيَ من رياض القدماء " تأليف الحكيم الفاضل الأديب المعروف بالعنبري وبابن المحليّ ." (١)

ويبين كيفية زراعته والعناية به مستعينا ببعض كتب الفلاحّة . ويشير إلي أنواعه وألوانه ، وما ينبت منها في البلاد المختلفة .

وينتقل إلي ما جاء في وصفه وتشبيهه من أقوال الأدباء شعراً ونثرا يقول : " قال بعضهم وصدق :

للورْد عندي مَحـــلٌ	ورُتْبـةٌ لا تُمـيـــلٌ
كلٌ الرياحين جُنَـــدً	وهـو الأمـيـر الأجـلٌ

وقال آخر وظرف :

كـتبَ الوردُ إلينـــا	في قـراطيس الخُـدودْ
يا بني اللهـو صِلُوني	قـد دنا وقـت ورودي

(١) مطالع البدور ١ / ٩٤

"حلبة الكميت" للنواجي

وهو من هذه الكتب التي يدور موضوعها كالكتب السابق في إطار اللذات ومتع الحياة ، وجماع هذه المتع كما يري بعض الشعراء والأدباء الشراب لأن مجالسه تجمع كل صور المتعة من أنس وسمر ، وطرب سماع ، وجمال مباح وجوه السقاه ، وكل ما يدور في مجالسه ٠

ويكرسُ النواجي كتابه للموضوع ويجعله حلبة للكميت ، موريّاً عن الشراب بالكميت ، وجامعاً في توريته بينه وبين الفرس لتكون الحلبة مجالاً لانطلاق القول في كميت الخمر ، كانطلاق كميت الخيل في حلبة السباق ٠ فهو يتخذ من الخمر موضوعاً ينتقل منها إلي ما يتصل بها من موضوعات كما فعل الغزولي ٠

النواجـــي (١)

شمس الدين بن محمد بن حسن بن عثمان النواجي ٠

ينسب إلي نواج بالقرب من المحلة بمحافظة الغربية ٠

ولد بالقاهرة سنة ٧٨٨ ه ، وأخذ علي كمال الدين محمد بن موسي الدميري ، بالأزهر وغيره من الشيوخ ، وتصدر للتدريس ؛ بالجامع الأزهر وغيره من مدارس مصر والقاهره لتدريس الحديث وعلوم الفقه والعربية ، و درس بالحسينية ، والجمالية وظل بها حتي وفاته ٠ وحج مرتين ٠ ودخل دمياط والاسكندرية وتردد علي بلده المحلة وغيرها ٠

وكان يجتمع إلي رفاقه من الصوفية ويعقد لهم المجالس ، وكان صديقاً لابن حجة الحموي ٠ وإن صنع فيه كتاباً سماه :" المحجة في سرقات ابن حجة ٠"

وعني النواجي بالأدب عناية بالغة ، وعرف النحو ، وكان كاتباً ناثراً وشاعراً ،

---

(١) راجع ترجمته بالضوء اللامع: ٧ / ٢٣٩ ونظم العقيان : ص ١٤٤ وحسن المحاضرة : ص ٢٢٦ والبدر الطالع : ص ١٥٦ وصفحات لم تنشر من تاريخ ابن اياس : ص ٢٧ وطبقات الشافعية للأسدي (مخطوط رقة ١١٣)

وصنف كثيراً من الكتب معظمها مجاميع من الشعر والنثر في الغزل والخمر خاصة ؛ . ومن كتبه:

١- حلبة الكميت في شعر الخمر . جمع فيه أشعاراً كثيرة ، وشيئا من الحكايات الطريفة تتعلق كلها بالخمر ، وما يتصل بها من اسمها ، وأصلها ومنافعها ، وخواصها ، ورأي الحكماء فيها ، والندمان ، ومجالس الشراب وآدابه ، والأزهار والجناين ، والمطر . . إلخ . وهو موضوع حديثنا

وقد فرغ من تأليفه في شوال سنة ٨٢٤هـ .

٢- مراتع الغزلان في الحِسان من الجواري والغلمان .

٣- حَلّ العذار في وصف العذار وهو مجموع أشعار .

٤- صحائف الحسنات في وصف الخال (١)

٥- كتاب الصبوح . مجموع أشعار في وصف شرب الخمر في الصباح

٦- التذكرة في الأدب .

٧- نزهة الألباب في أخبار ذوي الأداب . مجموع قصص وأخبار عن الأجواد والبخلاء من الأذكياء والعظماء .

٨- تأهيل الغريب . مجموعة أشعار أورد فيه قصائد لكثير من شعراء العصر ، والعصور السابقة . وتدور حول الغزل والوصف ، وغرائب المعاني والتشبيهات . (٢)

٩- عقود الآل في الوشحات والأزجال . وقدم له بمقدمة في صناعة النظم والنثر (٣)

١٠- الشافية في البديع .

---

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة غازي خرسوبك، وصورت منها صورة بمعهد المخطوطات بالكويت برقم ٣٢٦٧ وعدد أوراقها ٤٣ ورقة

(٢) منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة .

(٣) طبع

١١- الاكتفاء في البلاغة .

١٢- روضة المجالسة ، وغبطة المجانسة في فن الجناس .

١٣- المحجة في سرقات ابن حجة .

١٤- رسالة في حكم حرف المضارعة

١٥- ديوان شعره .

١٦- بديعيات في مدح الرسول صلي الله عليه وسلم .

وأما كتاب " حلبة الكميت " فيقول المؤلف :" أخذت تسميتي كتابي هذا بحلبة الكميت لمأ كان مضماراً لفحول الشعراء ، ومجري سوابق أفكارهم في التشابية الخمرية ." فهو مجموع أقوال الأدباء من شعراء وكتاب في معاني الخمر وآلاتها ومجالسها وما يلحق بها . والقول في الخمر والتأليف فيه موضوع مطروق في الأدب العربي علي الرغم من تحريمها شرعاً في المجتمع الأسلامي ، إلا آن هذا التحريم لم يمنع من شربها والحديث فيها وافتنان الشعراء في معانيها . وسبق المؤلف إلي الموضوع الشاعر العباسي السري الرفء في كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب ، فقد خص الجزء الرابع من الكتاب بالمشروب ، وقصره علي أوصاف الخمر وما دارفيها من الشعر . وتوارد معه النواجي في هذا الكتاب علي عناصر من الموضوع ومنها أسماء الخمر وبعض الروايات والنوادر مما تردد في كتب الأدب العام والمحاضرات . وعلي الأخص «كتاب قطب السرور».

ويرتب النواجي حديثه في الكتاب علي خمسة وعشرين بابا هي :

أسماء الخمر مستعملها ومتروكها ، وأصل الخمرة وأول من أعقرها والسبب في ذلك ، وفي طبائعها ومنافعها ، وخواصها . وفي استعمالها في رأي الحكماء (الأطباء) . وفيما يجب علي مستعملها من حقوق المنادمة وآداب النديم . وفيمن يختار من الندماء ، وذكر طرف من لطائفهم . وفي الإحسان إلي الندماء وتتابع صلاتهم ، وحسن جوائزهم . وفي أشعارهم الرائقة ، وأفكارهم الفائقة . وفي المغرمين بشربها والمصرين عليها . وفي استهداتها واستدعائها من الأدباء نثراً ونظما . وفي وصفها بجميع أنواعها ، وما وقع فيها من المعني البليغ والتشبيه البديع . وفي وصف ما يشتمل عليه مجلس أنسها من أواني الشراب وكاسات

وطاسات وبواطي وظروف ودوارق وقناني وأباديق ، وغير ذلك . وفي وصف الساقي وآدابه وما اختص به . وفي وصف الأغاني وآلات الملاهي . وفي وصف الشموع والفوانيس والسُّرُج وفي وصف مجلس الأنس بعد تمامه وترتيبه ، وانتظامه ، وما يلحق بذلك من ذكر ليالي الصفا وطرف من الخلاعة . وفي الزهريات والرياحين والفواكه علي طريق الخصوص والانفراد . وفيما قيل فيها علي طريق العموم ، والكلام علي فصل الربيع . وفي الجداول والدواليب والنواعير والبرك والفوارات ، وفي النسيم ولطافته ، وفي غناء الحمائم وحمائم الرسائل . وفي الغيم والمطر والرعد والبرق والشمس والقمر والنجوم والصبح وغير ذلك . وفي المطولات والأراجيز والأزجال من جميع ما تقدم من الزهريات .

ويختم الحديث بعد هذا كله في التوبة والإخلاص . وذم الخمرة والتنفير عنها وكأنه بهذا يفعل فعل شاعر الخمر أبي نواس بعد أن يقضي حياته في التعلق بها ووصفها أحسن أوصافها يختم بالتوبة .

والدافع إلي هذا النهج معروف وهو ما أشرنا اليه في بدء هذا الحديث من ازدواجية الفرد المسلم بين نواهي الدين ومحرماته ، ورغبات النفس وعشق الحياة ومسراتها .

ولا يغيب عن وعي القاريء لكتابي الغزولي والنواجي ما بينهما ، من صلات وموضوعات مشتركه ، فكل منهما يبحث في موضوع السرور ، ودواعيه ، وما يكسب المتعة ونسيان هموم الحياة ، والتمتع بما خلق الله من الزينة ، والجمال ولذة الحواس .

ويحفل الكتاب بطرائف من ابداع الشعراء والكتاب ، ومن المتاخرين منهم خاصة تكشف عن لطف ، وعذوبة لفظ ، وخفة روح فيما يعرضون من الصور وينشدون من المعاني كقول فخر الدين بن مكانس من موشح يذكر الخمر باسم الكميت ويلعب بالتورية في رشاقة تعبير ليقول علي لسان جارية :

تقول لحظي من بني سَاسانِ يُنبيك عن مقاتلِ الفرسانِ
فالْهُ بهَ عن موقف الطعانِ وإن ذكرت الخيل في الميدانِ

فـــاشْـــــرَبْ كُمْينـــــــاً   وأعَـــل فـــوقَ نَهْـــــد

ويعلق النواجي علي هذا المقطع بقـوله :" أنظر أيهـا المتـأدب إلي غـزل عـيـون التورية في الكميت والنهد ."(١)

ومما جاء بالكتاب في باب استدعاءات الأدباء نظماً قوله :

وقال ابن الزين :(٢)

قامتْ لغيْبتكَ الدُّنياعلي سَـــــاقِ   والكأسُ أصبح غضباناً علي السَّاقي

والرَّاحُ قد أقسمت أن لا تطيبَ لناَ   حتـــي تَرَي وجَهكَ الزَّاهي بإشــــراق

وأعينُ الزَّهرِ نحو الباب ناظـــــرةٌ   وقــد صَغَتْ أذُانُ السَّوسَانِ للطـــاَق

وناحَ حُزْنا علَيك الغصْنُ حين بكي   الراووقُ . والجنك ذو وجد واشَفــاق

والدُّفُّ يزعق والموصول ناح جــوًي   والزَّمــر يصرخ من شجوٍ واشفـــاقِ

والشمع أضحي بنار الوجد ملتهبًا   يَــذْري مدامعَه من فيضِ أحْـــداقِ

والندُّ أحرق أحشاهُ وفاحَ لنـــــا   يعرفه بشذا مسكٍ بإعبـــــــاقِ

وساقي الراح غنانا نويًّ (٢)فشجا   من طيب لذة الحان بعشـــــــاقَ

والنهرُ جنَّ فجاءَ الريحُ سَلْسَلَــــةٌ   وباتَ فيَ الروض صبَّاً ما لـــه راق

والوردَ قد فككَ الأزرارمن شغـــف   وشَمَّـرَ النرجسُ الوسنانُ عن ســـاقَ

والوُرْقَ للروضِ تملي من صبابتهــا   والغـيث يكتب أشـواقـــــاً بأوراقِ

فاسْمَحْ بجودك فضلاً بالحضور لنا   ما دام شملُ مسرَّات الهنا بـــــاقِ

ولا تدع طيبَ أيام السرور إلـــــي   غدٍ ولا تتناسي حفظ ميـــــــثاقَ

ومن أناشيده في هذا الباب موشح لشهاب الدين العزازي يقول :

كــــــــــأس رويــــــة   جلاعلينــا النديم   أم سنا مصباح

أم حسن شَمس توجتها النجوم   في سما الأقــداح   أم حباب الراح

---

(١) حلبة الكميت ص ٩

(٢) نَويً : مقام موسيقي كالصَّبا

لنا خلَيـــلٌ تراه مـُذليـالي غائبا عنّــــا
وماء الشمولْ لديه وهو سَالِي ليتـــه مِنّـــا
قل يا رسُـولْ بأننا في ظلال وروضــةٍ غَنّـــا

وأداب الاستدعاء إلي مآدب الطعام أو مجالس الشراب ، من الإخوانيات التي شاعت في الأدب العربي منذ القرن الرابع الهجري ، عصر الازدهار الحضاري ، وهذا اللون من الأدب من منتج الحضارة والرفاهية التي رفل فيها المجتمع والناس للغني والثراء الذي أصاب بعض الطبقات فأصبح هذا اللون من مظاهره . وللمصريين في هذا المضمار سبق وافتنان منذ العصر الفاطمي وحتي هذا العصر . ومن شعر أحد شعراء العصر . رواه النواجي . قول الفخر ابن مكانس يستدعي أحد أصدقائه ، وفيه مداعبة أشتهر بها في أقواله وأشعاره (١): (واسم الصديق سراج الدين)

ياذا الذي فكُره مثلُ اسمهَ يـــقدُ بَعُدْت عنا وما من شأنكَ البُعــدُ
بم اعتذارِكَ عن هذا الصَّدُود لنـــا هذا وقد ضمنا بالجيرَة البلـــدُ
عافاكَ ربُك من داء القطيعة بـــل شفاكَ من داء أمر كلُّه نكـــدُ
فيم التواني وشهَر الصَّوم مقتبـــلٌ عن خمرةٍ ضَوْؤها فيَّ الكأس يَتقدُ
وفتية مُخْلصِينَ الودّ قَدْ جُبلُـــوا علي المحَّبة لا حقْدٌ ولا حَسَـــدُ
إن ذاعَ وصفك في ناديهمُ طرِبـــوا أو جالَ ذكرُكَ فيَما بينهم سجدُوا
إن لم تشرّف بناديهم فما شَرُفـــوا أو لم تفرّقْ لهم آدابهَم كسَـــدُوا
إذا هجرتَ بنـــي الآداب فابدْ لنـــا بم اعتذارُك ، لا أهلٌ ولا ولَـــدُ
قد صرْت توحشهمْ بعداً وإن قربُـــوا وكنت تؤنسهم قرباً وإن بَعُـــدُوا
تركْتَ عشرتهم لما رغبت إلــــــي جاهٍ طويل عريض زانه مَـــدَدُ
ما هكذا تفعلُ الدنيا بصاحبهـــــا فالناسُ بالنَاسِ والإخوان تفتقدُ
وبعد، فاحضرْ،وذنبُ البعدِ مغتفرٌ وإن تطاول من هجرانك الأمَـــدُ

ويعقب المؤلف علي ما أورده من استدْعاءات نثرية وشعرية بقوله (١):

(١) حلبة الكميت ص ١٠٥

" وللظرفاء في استدعاءاتهم لا حبابهم إشارتُ ألطف من النسيم ، وأرقُّ من سلاف الراح ، ممزوجة بماء التسْنيم . "

ومن صفات الخمر وما جاء فيها من غريب التشبيه في شعر معاصريه قول أبي الفضل بن أبي الوفا :

يسعي إليَّ بكاساتٍ قـــــد استَبقَتْ لمهجتي من فَمي تَسْعَــي علي الـرُّوسِ
وللكؤوسِ ابتسامٌ حال قهقهـــــةٍ وللغيــــوم بَكـاءٌ حـال تعْبيـــس
قد استَباحتْ حمَي تبْري المصون وقد أذبتُ في لكأسِ ما جَمَّدْتُ في الكَيس

ويتحدث عن الساقي ، وما جاء فيه من الشعر ، ويذكر من آدابه أن يجري الكأس علي اليمين . ولم يزل ذلك معروفا عند العرب . فقد قال شاعرهم

صرفْتِ الكأسَ عناً أمَّ عمـــرو وكانَ الكأسُ مجراها اليمينا .

فإن أمرَ رَبُّ المجلس أن يُدار يساراً امتثل له الساقي ، وأدارها يساراً . وفيه يقول بعضهم .

أدْر الكأس علي اليسـار ولا تخف عتـباً وكن من مزجهنَّ أمينا
فالشمس تجري في الحقيقة يســرةً ويـديرها الفلك المحيط يمينا

ومن آدابه أن يستأذن جلساءه وندماءه في المزج وعدمه ، فإن منهم من لا يناسبه الراحُ إلاَّ صرفاً وهذا قليلٌ في هذه الأعصار . وكثير في الأعصار المتقدمة ومنهم من يختار الممزوج قليلاً ومنهم من يختار الممزوج كثيرا ، فإن كان الساقي عارفاً بأخلاق الجماعة ، عامل كلاً منهم بما يلائم طبعه من غير سؤال . (٢) "

ويمضي النواجي في أبواب الكتاب ليأتي بكل جميل مستطرف فيما يتصل بالخمر وأدواتها وما يتعلق بمجلسها ، حتي يصل إلى قول ابن مكنسة :

إبريقنا عَاكفٌ علي قدح كأنه الأمُّ ترضـــعُ الـــوَلدَا
أو عابدٌ من بني المجوسِ إذا توهم لكأسَ شعلةً سجداً

---

(١) المصور نفسه ١٠٧ (٢) المصدر نفسه ص ١٦١

ليقول معلقاً : " ولم يزل يختلج في صدري ، ويدور في خلدي سؤال علي هذا البيت ، وما ذاك إلا أن قصد الشاعر فيه تشبيه الخمر بالنار ، وتشبيه انحناء الإبريق حالة الصبّ في القدح بالعابد المجوسي الذي يسجد للنار . وهذا التشبيه في غاية ما يكون من الحسن ، ولكن حال انحناء الإبريق يكون القدح فارغاً ، فلا يحسن تَشبيهُهُ بالنار . وحال امتلائه يكون قد انتهي سجود الإبريق . وهذا أخذ في الرَّفع من السجود ، فلا يحسن التشبيه في ذلك أيضا . وكنت أتهم نفسي في هذا السؤال ، وأعرضه علي الأصحاب ، فمن موافق ومن مخالف إلي أن رأيته منصوصاً لبعض الفضلاء من أهل الأدب علي حاشية كتاب عند ذكر هذين البيتين ، فاطمأنت لذلك نفسي ويمكن أن يقال إنه شبه آخر الأنحناء ، وهو حال أمتلاء الكأس لا أوله.

فيستقيم ، وفيه بعد لا سيما وقد أتي بإذا الظرفية الوقتية التي فيها معني الشرط ، أي يسجد وقت توهج الكأس ، وإنا وجد توهَّمَ الكأس شعلة فقد وجب السجود . ومعلوم أن ذلك مفقود في حالة فراغ القدح . والله أعلم .(١)"

وهذا مثال من النقد الذي يعقب به أحيانا علي ما يورد من النصوص موجزاً أو مطيلاً ، مستحسنًا أو مستقبحاً . وهو غالباً ما يستحسن لأنه يختار ما يروق له ، ومن هنا جاءت تعليقاته معبرة عن الاستحسان والاستلطاف والإعجاب .

فقد يبدأ إيراد نص أو خبر بقوله : ويعجبني كذا ، أو تلطف فلان فقال . أو آجاد من قال . أو ما أحسن قول فلان ، أو ما ألطف اعتذار فلان

ويعقب بالاستحسان ، لما في الشعر أو النثر من تشبيه . فيقول في بيتي أبي نواس:

قامَتْ تريني وأفْقُ اللَّيَلِ مُعْتكرُ	صبحاً تولَّد بين المــاء والعــنب
كانَّ صُغْري وكبري من فقاقعها	حصباءُ دُرٍّ علي أرض من الذهَب

قال : " قلت : وهذا التشبيه البديع في غاية الحسن . وقد اعترِّض عليه في قوله صغري وكبري بما هو معلوم عند من يرغب في جداله . ولا يحتمل هذا المجموع الخوض في ذلك وأمثالية .(٢)"

وقد يشير إلي بعض المآخذ في المعاني ، فيقول في التعقيب إن هذا مأخوذ من

---

(١) المصور نفسه ١٧٣ (٢) المصدر نفسه ص ١١١

قول فلان ومن هذا القبيل قوله :" وقال أبو الحسن القيراطي : ضمني أنا ويحيي الكاتب مجلس أنس فتذاكرنا ما قيل في معاقرة الشراب في المشيب ، فأنشدني لنفسه :

لاموا علي شرب الصَّهْباء بالكاس — لما بدا زهر المشيب براسي

والكأس أحوج ما تكون لشربهـــا — أيام يَبْدو الأزاهر كاســـي

وقال : هل سمعت في هذا المعني شيئا لغيري فقلت : لا . ثم أعملت خاطري فظفرت بمعني غريب وهو قول القائل :

يلُومونني أنْ شبْتُ في الخمْر خلَّـةً — وأنّيّ إذا وافي المشيب بها أحـــقّ

إذا شابَ رأس الليل بالفجر قَربـَتْ — له أكْؤسُ الصهباء في حمرة الشَفَقْ

ويخرج من حديث الخمر الكميت إلي ما يلحق بها من متع كالغناء في الباب الرابع عشر ليقول : . أعلم أن سماع الأغاني من أجلّ أركان مجلس الشراب ، فإنَّ له تأثيراً عجيباً في استمالة القلوب . وهو شيء تنتعش به جميع الأرواح الآدمية وغيرها من الحيوانات غير الناطقة فقد حكي أن الجواميس ربما فارقت أماكنها وغابت عنها أياماً في الماء ، فإذا أراد أصحابها عودها جمعوا أصحاب آلات الملاهي التي تعتادها الجواميس ، وخرجوا في طلبها فإذا سمعت الجواميس صوت الآلة أخرجت رءوسها من الماء وطربت له ، ثم خرجت من الماء فيتراجع أصحاب الآلة قليلاً قليلاً والجواميس تتبعها حتي تصل إلي أوطانها .

ويقول :" واعلم ان بين الخمر والغناء مناسبة في أكثر الأحوال ، ومضارعة فيما يجمعانه من محمود الخصال ، لأن فيه ما يصير الجبان إذا سمعه شجاعاً . ومنه ما يكون للهمَّ دفاًعا . ونغمةُ يبعث الشحيح علي السخاء ، ومقابلة سؤال السائل بالعطاء . وفيه ما ليس في الخمر من الخصائص العجيبة الأمر . وذلك أن الرَّجل الواحدُ يغَنّي له بطريقة فيلين خلقه ، وإذا انتقل إلي غيرها ظهرت شراسته ، وتزقُه . وإذا سمع ضرباً منه استفزه الطرب ، وإذا غُنّي له بصوت آخر لم يمكن العواصف أن تهـزه . ولممازجة الأصوات الحسنة بالأرواح ، وإهدائهـا إلي القلوب طرائف الأفراح كانت البهائم كما تقدم إذا سمعتها تحن إليها ، والطير تشغف بها وتطرب

عليها ، والإبل يكسبها الحداءُ مثل ما يكسبُ الإنسان الغناء والخيل والبغال والحمير تلتذ بشرب الماء إذا تواصل من ساقيها الصيغر . والحمامة المطوقة والشحارير والبلابل والزرازير تسمع أصوات أنفسها فيبين منها الطربُ في تسجيعها ، وذلك داعية إلي تكريرها وترجيعها . ولأجل ذلك يتخذها الملوك في قصورهم ، ويجعل أماثل الناس كثيرا منها في دورهم ، وإن كانت أصواتها لا تدل علي معني يعلم ، ولا تتضمن ما يعرض عنه من الكلام الذي يفهم ، فما بالك بالألفاظ التي يسمعها السامع ، ويعيها ويفهم ما تفيده من معانيها إذا أدركها ملحنة ممن خصوا بصفاء الحلوق والنغمات المستحسنة لهذه العلة صار من يسمع الغناء الحسن يشرب من النبيذ عليه أزيد مما لا يحتمله إذا لم يُضْغِ إليه . وقد علم أن الصبي الطفل ، إذا تذعَّر خُلقه واتصل بكاؤه لوجع يناله ، وزاد قلقه ، وصوتَتْ له دادته بكلام تلحنه سكن وجعه وزال أرقه »(١)

وينقل صفحات كثيرة عن أشهر المغنين العرب وفي مقدمتهم اسحاق الموصلي وأبوه إبراهيم وجماعة من الموسيقيين ، ويتحدث عن الآلات الموسيقية وعلي رأسها آلة العود ، وذكر أشهر الضاربين عليه .

وينقل هذه الأخبار عن كتب سابقية كصاحب الأغاني ، أدب النديم لكشاجم ، وقطب السرور للرقيق القيرواني . ويختم حديثه عن الغناء والموسيقي ، والطرب والمطربين بأبيات من الشعر في الموضوع لشعراء من مختلف العصور والأقطار :

ومن ذلك قوله :

وألطف ماسمعت في هذا النوع لابن القيسراني : (في مطرب)

واللّه لوْ أنصَف النُّدمَانُ أنفسهَم | أعْطُوك ما ادَّ خروا منها وما صَانوُا
ما أنت حين تُغَنيَّ في مجالسهم | إلا نسيمَ الصَّبَا والقومُ أغْصَانُ

وقال الحكيم ابن دانيال في مغنية تضرب بالدُّف :

ذاتُ القَوامِ الذي يهتزُّ غُصْنَ نقاً | لو مرَّ يوماً عليه طايُرٌ صَدَحا
تُبْدِي علي الدَّفَّ كالحَّمارِ معُصَمَها | بنَقرةٍ ببنانٍ يشبهُ البَلَحا

(١) المصور نفسه ١٧٩

غناؤها برقيق الغُنْـــج تمزجُــــه فمـا ينقّطُ إلاَّ كلُّ من رشَحَـا

وقال سيف الدين المشَد :

ومطرب قد رأينا في أناملــــه شَبَّابةً لسُرور النَّفْسِ أهَّلَهـــا

كـأنَّه عـاشقٌ وافَتْ حبيبتَــــه فضمهَّا بيديْه ثُمَّ قَبَّلهـــا

ويضيف إلي الشعر في الغناء وآلاته ، القول في أنواعَ الملاهي الأخري كالرقص وخيال الظلّ.

ويمضي في أبوابه إلي مجلس الأنس وأوصافه فيروي : ما قيل في مجلس :

ومجلس راق من واشٍ يكـــدِّرُهُ ومن رقيب له باللــــوْم إيــلامُ

ما فيه ساعٍ سوَي الساقي وليس به علي النّدامَي سوَي الريحانِ نَمّامُ

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي :

طرَّ بنا العود إلي أنْ غَــــدا مَقَامُنا يرقُصُ مع صحبِــــه

فشمْعُهُ قام علي ساقِــــه وكـأسه دار علي شَرْبِـــــه

وقال بعضهم :

آهِ من ليَلةٍ جادَ الزمأن بهـــا فعادَلتْ كلَّ ما أفنيتُ من عُمـري

بَاتَ الحَبيبُ نديمي في دُجُنَّتها إلي الصَّبـــاج بلا خوفٍ ولا حَـذَرِ

كلامُه الدُّرُّ يغني عن كواكبها ووجهــه عـوض فُيها عن القمــر

فبينما أنا أرعي في محاسِنها طرفي وسمْعي إذا بودرْتُ بالسَّحَر

فلم يكُن عيبهُا الاَّ تقاصُرهـا وأي عيــب لها أشَنا من القَصَـر

وَددْت لو أنَّها طالَتْ عليَّ ولوْ مدَدْتُها بَسواد القلــب والنظــر

وفي الزهريات والرياض والفواكه يختار من أقوال الشعراء كعادته مقطعات تنم عن ذوقه الذي عرفناه في اختياراته السابقة . وهو ذوق مرهف يقع علي الجمال في الصورة والتعبير ، واللفظ الرقيق المبدع . ويبدأ حديثه بالمنثور ، وفي النرجس وقد تداول الشعراء تشبيه المنثور بالأصابع ، وتشبيه النرجس بالعيون أو العكس . فمن

ذلك قول الشاعر :

غُضّي جفونك يا عيون النرجس ... فعسى أفوز بقبلةٍ من مُؤنِسي

فَلقدْ تحيّر إذ رآك شواخصاً ... ترمينه بلواحظ المتفرسِ

ويقول صفي الدين الحلي : في النرجس وزهر النمام

أقول وطرفُ النرجس الغضّ شاخصٌ ... إلينا ، وللنمّام حوليَ إلمامُ

أيارَبُّ حتيٍّ في الحدائقِ أعينٌ ... علينا ، وحتّي في الرياحين نمّام

وتلطف ابن تميم فقال في نرجس ومنثور :

كيف السبيل لأن أقبّل خدَّ من ... أهوَي وقد نامت عُيونُ النرجس

وأصابع المنثورِ تومي نحونا ... حسداً ، وتغمزنا عيون النرجس

والطف منه قوله في منثور ونرجس وأقحوان :

كيف السبيل للثم من أحببتهُ ... في روضة للزهر فيها معركَ

مابين منثور وناضر نرجس ... مع أقحوانٍ وصفه لايُدْركَ

هذا يُشيرُ بإصبع وعيون ذا ... تَرنُو إليَّ ، وثغر هذا يضحكَ

ويورد بعض ما يرمز إليه كل نوع من الزهور في وجدان الشعراء ، من مثل قول مجير الدين بن تميم :

بعثت بنرجسة إليَّ ووردةٍ ... ففهمت - أفْديها - حقيقة قصدها

لما تعذَّرَتْ الزيارةَ أرْسلَتْ ... تشبيه ناظرها إليَّ وخَدَّها

ويطيل الحديث عن النرجس ، ويكثر من افتتان الشعراء في وصفه ، ولعل هذا لحبه النرجس ، فيكون من رفقة ابن الرومي في هذا الحبّ . وهو لا ينسي قول ابن الرومي في تفضيل النرجس علي الورد :

خجلت خدودُ الورد من تفضيله ... خجلاً تورّدها عليه شاهدُ

للنرجس الفضل المبين وإن أبي ... آب ، وحاد عن الطريقة حاقدُ

ينهي النديم عن القبيح بلحظـه وعلي المدامة والسماع مساعدَ

أين العيونُ من الخدود نفاسـةً ورياسة ، لولا القياس الفاسد

ومع ذلك فإنه وإن قدم النرجس علي الورد في القول ، واكثر منه ، فهو لابتكر الورد بل جاء حديثه عن الورد بما يستحقه من كونه ملك الرياحين .

وحديثه في الورد والزهور موصول بحديث الغزولي في " منازل السرور "ومنه اعجابه بمن قال :

كتب الورد إلينـــا في قراطيس الخدُود

يابني اللهو صلوني قد دنا وقتُ ورُودي

ويورد قول مجير الدين ابن تميم ، وقد أهديَ إليه وردة غير متفتحة :

سبقَتْ إليكَ من الحدائـق وردةً واتتْكَ قبل أوانها تطفيـلا

طمعت بلثمكَ إذ رأتك فجَّمعتْ فمها إليك ، تطالب تقبيلاً

ويمضي فيي عرض ما قبل في بقية الزهور والثمر من الفاكهة وغيرها كالتفاح والكمثري والمشمش والرمان . وللتفاح مع الشعراء ترانيم ، فهو يذكرهم بخَدِّ الحبيب . يقول الشاعر :

تفاحة يحكي لنا نصفُها وجنة حِبِّي حين عانقتُـه

ونصفها الآخر شبهتُـــه بلونِ وجهي حين فارقتهُ

ويذكرهم الرمان بصدور العذاري ، ويورد النواجي قول الشاعر :

وأشجار رمانٍ كأنَّ ثمارهـــا ثُديُّ العَذَاري في مُلا ثلها الخُضْـر

إذا فضَّ عنه قشرهُ فكأنـه فصوصُ عقيقٍ في حقائق من دُرَّ

ومن الزهر والثمار والفاكهة إلي فصل الربيع الذي تتجلي فيه روعة الزهور ، وتتجمل الحياة بأفانينه ، ويكشف الروض عن مفاتنه . ويقول الشاعر :

ألاَ تري الأرض قد أعطتك زهرتها مخضَّرة واكتسي بالنَّور عاريها

فللسماءِ بكـــاءٌ في حدائقهـــا وللرياض ابتسامٌ في نواحيهـــا

ونمضي مع النواجي في كتابه إلي الباب العشرين عن نيل مصر ، وحق علينا أن نقف معه وقفة في هذا الباب . وسبق الحديث عن اهتمام ادباء مصر وشعرائها بالنيل فهو جزء من حياتهم ومنعتهم . ومما أورده من مقطعات قول ابن الوردي :

ديار مصر هي الدنيا وساكنها ... همُ الأنامُ ، فقابلها بتفضيل

يا منْ يباهي ببغدادٍ ودجْلتهــا ... مصرٌ مقدمةٌ والشرحُ للنيلَ

ويقول النواجي : وتلطف من قال :

إنَّ مصرًا لأطيبُ الأرضِ عنْدي ... ليسَ في حُسْنها البديعِ قِياسُ

ولئنْ قِسْتها بأرضِ سِوَاهــــا ... كان بيني وبينك المقيـــــاسُ

وألطف منه :

أري أهل الشآم يفاخرونــــا ... وتلك وقاحةٌ فيهم وخصلـــــهْ

وكيف يفاخروا بالشام مصراً ... وشهوة كلّ من في الشام نخلَهْ

وهكذا فإن الكتاب مما عرضنا له من نماذج لابوابه ينمّ عن ذوق النواجي وحسن تقديره للنصوص شعراً ونثراً . وهو مجموع جامع مفيد ، يضم شعراً ونثراً لا نعثر عليه في مصادر أخري وبخاصة مايتصل بادباء عصره ، فقد صحب منهم جماعة وروي عنهم ، ما لم يسجله كتاب .

وبه كعادته مجموعة من شعره يُذيل بها بعض مختاره ، كما ينثر هنا وهناك أقوالاً وتعليقات ، تبدي قدرته النقدية ، وسعة اطلاعه ومحفوظه .

وللنواجي مجموعات شعرية أخري في مقدمتها : تأهيل الغريب ، وعقود اللآل في الموشحات والأزجال ، وصحائف الحسنات .

فأما : "تأهيل الغريب . (١)"

يقول في مقدمته : " فقد سألني من لا استطيع له رداً ، ولا أجدله من امتثال أوامره العَالية بداً أن أجمع له من غُرر القصائد نبذة تزهو بجوهر نظمها الفريد علي الدرّ النظيم وتبسمُ بيتيم دُرّها عن يتيم المعاني ، ومن عجيب الهوي ضحك السقيم

(١) منه نسخة مصورة عن مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٤٠٦ معهد المخطوطات العربية بالقاهرة

، فشمرت عن ساعد الاجتهاد . ونظمتُ له في هذا العقد المستجاد ما يفوق عقود الجمان ، ويزري بقلائد العقيان ، جمعت فيه شمل المتقدمين بالمتأخرين ، وذيَّلتُ حُللَ بديعه بمحاسن من أدركناه من المصريين العصريين مرصعاً تيجانَ بلاغته بجواهر نفيسة من بديع شعري ، مستجلباً من ذوي الأبصار والبصائر بمخدَّرات المعاني من بنات فكري . يقول من تطرق أسماعه : " كم ترك الأول للآخر ." من كل بيت يشهد الذوق السليم بتزكيته وعدالته ، ويحكم قاضي العقل في شرع الأدب بأهليته وكفايته .

" حتي يقول : معولاً في جميع ذلك علي المطولات ، جانحاً إلي العامر بالمحاسن من الأبيات مقتصراً علي الغزل دون المديح . عادلاً عن التركيب الضعيف إلي اللفظ الصحيح إلا مواضع يغتفرها أهل الذوق لكونها توطئة لما سيأتي أو إيضاحاً لما تقدم ، ولعين تُجاري ألف عين وتكره وبعض أغراض قليلة ناطقة لمخترعها بالفضيلة . فجاء بحمد الله كنزاً يُنفَقُ من ذخائره وبحراً يحدث عن عجائبه ويستخرج من جواهره ، وغيثاً يستسقي بغدمه وروضاً يقتطف ثمرُ الآداب من أزهار كما ئمه . يستغني به الأديب عما سوى ، ويقتصر كلُّ بليغ إلي ما تضمنته من نفائس الكلم"

وبعد هذه المقدمة التي أغرق فيها بتقريظ نفسه وكتابه يقول : ورتبتُه علي حروف المعجم مبتدئاً من حركات الرويِّ بالضمِّ ثم بالفتح والكسر والسكون ، ثم ما اتصل بضمير غيبة أو خطاب ليسهل الكشف عما يقصده المتأدب .. فإذا انقضت الأبواب ذكرت حروفا مختلفة من مشطور الرجز ، وبها نختم الكتاب . وسميته لغرابة أسلوبه وجميع شمله " بتأهيل الغريب" .

وهذا المجموع خزانة نادرة كسابقه لشعر كثير من شعراء عصره مما يندر العثور عليه في غيره .

وأما كتابه أو مجموعه " صحائف الحسنات فهو علي شاكلة كتاب" حلبة الكميت " من حيث انه يدور حول موضوع بعينه هو الحسنات أو الشامات وما يدور فيها من الشعر .

وفي المقدمة يقول ناسخه : " قال العلامة الفاضل الأديب الأوحد شمس الدين محمد النواجي رحمه الله ؛ أما بعد حمدالله الذي ضاعف لنا الحسنات ، وأسبغ علينا فضله وإنعامه والصلاة والسلام علي سيدنا محمد المبعوث لعين الزمان إنسانا ، ولوجه الدهر شامة فقد جمعت هذه النبذة في وصف الخال ، وأودعتها من نفائس الجواهر ما يرخص عقود اللآل ، وسميتها " صحائف الحسنات " تفاؤلا بحسن الخاتمة إن شاء الله تعالي عند الهنات ، والله تعالي يُبيّضُ صحائف حسناتنا يوم الحساب ويتجاوزُ عما سطره القلم في أمّ الكتاب .

قال الأمير سيف الدين علي بن قزل المشدّ:

ياشقيقَ الشقيقِ بالوجنات   وقسيم البدور بالقسَمات
ونظيرَ القَضِيب وهو نضيرٌ   لك خالٌ من أحْسنِ الحسنَاتِ

وقال الشيخ برهان الدين القيَراطي :

إن أسَاءَ الحبيبُ قامتْ بمحوٍ   وَجْنةٌ منه فوقَها شاماتُ
يالها وجنةً أقابلُ منها   حَسَنَاتٍ تمحي بها سيئاتُ

ويمضي في عرض مثل هذا الشعر من التورية بين الحسنة بمعني الشامة والحسنة بمعني العمل الحسن .

ومن طَريف ما جاء به من التشبيهات :

كأنما تختَ دُجي شعره   بَدْوٌ تبدّي في الليالي الطوالْ
كأنما الخال علي خَدِّه   ساعةُ هَجْرٍ في ليالي الوِصالْ

عقود اللآل في الموشحات والأزجال :(١)

مجموع آخر للنواجي ، اختار فيه مجموعة من الموشحات المشهورة والمتداولة بين الأدباء في عصره لبعض الأندلسين والمصريين ممن أظلّتهم الدولتان الأيوبية والمملوكية .

(١) طبع بتحقيق عبد اللطيف الشهابي ببغداد (سلسلة كتب التراث رقم ١١٧) سنة ١٩٨٢ ونشرته دار الرشيد

فأما عن الأندلسيين فقد اختار لابراهيم بن سهل الإشبيلي موشحه :

باكر في اللذة والاصطباح   بشرب الراح   فما علي أهل الهوي من جناح

ولابن زهر الحفيد قوله :

أيها الساقي إليك المشتكي   قد دعوناك ، وإن لم تسمع .   وغيره

ولابن الزقاق البلنسي موشحه :

خذ حديث الشوق عن نفسي   وعن الدمع الذي همعا . وغيره

واختار للسان الدين ابن الخطيب : " جَادك الغيث إذا الغيثُ همي " . وغيره

واختار من شعراء المصريين في عصر الأيوبيين لابن سناء الملك عدة موشحات ولصفي الدين الحليّ ، ومن عصرالمماليك الاتراك اختار للشهاب العزازي ولصدر الدين بن الوكيل ، وصلاح الصفدي ، وابن النبيه ، وابن نباته وأما من معاصريه فقد اختار لمجد الدين بن مكانس ، وابن حبيب الحلبي وابن حجة الحمَوي وابن العطار ، وابن الصائغ الحنفي

كما اختار لبعض شعراء الصوفية من مثل تقي الدين السروجي ، وجمال الدين يوسف الصوفي .

وأما الزجل والبليقات ، فقد اختار لجماعة ممن نظموا في الفنين الموشح والزجل كابن النبيه، وابن مكانس، ومن انفرد بالزجل كابن قزمان ، وابن مقاتل .

وفي البلاليق اختار للمعمار ، وعلاء الدين بن أيبك الدمشقي والقيم الغباري ، وهو ممن اشتهر بعصره في هذا الفن ، وأورد له ابن إياس كثيرا من نظمه .

وما نظمه الشيخ شهاب الدين أحمد الحجازي في المواعظ ، ولجماعة آخرين غير مشهورين ، وجماعة لم يذكر أسماءهم .

يقول في المقدمة :

" .... فقد جمعت في هذه الحديقة من الموشحات والأزجال ، واقتطفت من ثمارها ما هو أطيب من نشوة الشمول ، وألطف من نسمة الشمال قاصداً في ذلك التوسط بين الإطناب والإيجاز ، مُنتقياً من حُلي نباته الغريبة ما يزهو ببديع

محاسنه علي كل ما في دار الطراز (يعني مجموع ابن سناء الملك) ، من كل بيت يصعد ناظر المتأمل إلي بديع طباقه العامرة بأنواع المحاسن ، فيسكن قلبه إلي تلك القصور ، الخالية من القصور ، ويتوصل من خرجاته الداخلة إلي براعة ذلك المطلع بأحسن دخول ، وألطف عبور ،. وسميته : " عقود اللآل في الموشحات والأزجال مقتصراً علي ما وقع لي في ذلك من النوعين ، مرتبا له علي بابين . والله تعالي يسددنا في القول والعمل ."

ثمرات الأوراق ، وخزانة الأدب
لابن حجة الحموي

وهما كتابان من هذه المجموعات الأدبية ، وصاحبها معاصر للنواجي ، وكانت بينهما صداقة ، ومحاورات في الأدب ، وتلاحظ في الكتابين اتفاقاً ونشابها في كثير من مادتهما مع ماسبق فيما عرضنا له من الكتب مما يشير إلي ثقافة عامة للعصر وردها المؤلفون ، وأن اختلف موضوع الكتاب الثاني عن الأول .

وأما مؤلف الكتابين فهو

« ابن حجة الحموي »
(٧٦٧ هـ - ٨٣٧ هـ)

تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله بن حجة ، الإمام الأديب ، البليغ ، شاعر العصر ، إمام المتأدبين.

ولد بحماة سنة ٧٦٧ هـ ، ونشأ بها ، وقدم حلب وأقام بها مدة ، وقدم دمشق واتصل بنائبها الأمير شيخ ، فلما تسلطن بالقاهرة باسم المؤيد شيخ المحمودي صحبه ابن حجة وتولي الكتابة بالديوان سنة ٨٠٢ هـ . واستوطن القاهرة . واتصل بالقاضي ناصر الدين بن البارزي ، واختص به وقدمه عند السلطان المؤيد ، وصار أحد موقعي الدست ، بل عينهم .

وترقي عند السلطان حتي صار من الخصيصين به ومن جلسائه وندمائه ، فحسنت حالة وولي عنده وظائف . وكان فاضلاً أديباً بارعاً ، حسن الحظ .

كانت له - كما قال مؤرخو العصر - اليد الطولي في النظم والنثر.

قالوا في نظمه : «ونظمه أحلي من ليالي الوصال ، وأشهي للقلوب الصافية

(١) ابن اياس : ص ٣٠٤ وراجع «ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً» للدكتور محمد الربداوي طبع دار قتيبة ١٩٨٣

من الزلال (١) ، وموضوعات شعره المديح والمديح النبوي والإخوانيات ، والوصف والألغاز والشوق والحنين إلي وطنه حماه .

وفي النثر له كثير من المؤلفات في الأدب والمحاضرات والتاريخ ، منها خزانة الأدب ، وثمرات الأوراق ، وتأهيل الغريب ، وكشف اللثام عن وجه التورية والأستخدام .

وتأثر في كتابته بطريقة القاضي الفاضل وابن نباته .

وظل ابن حجة بالقاهرة يمارس أعمال الوظيفة ، وينفع الناس بأدبه حتي عاد إلي حماة مسقط رأسه ، وتوفي بها سنة ٨٣٧ هـ أو سنة ٨٥٦ هـ كقول الشوكاني (١) .

وقد صحبه جماعة من الأدباء أشادوا بأدبه كصاحبه الغزولي مؤلف مطالع البدور وعارضه وهاجاه جماعة من أدباء العصر وشعرائه وألفوا في تنقيصه وذم أدبه ، منهم النواجي صاحب حلبة الكميت .

كتبـــه :

خزانة الأدب

أصله شرح لبديعية نظمها معارضاً عز الدين الموصلي . وقدم له بقوله في ديباجة الخزانة :

« هذه البديعية التي نسجتها بمدحه صلى الله عليه وسلم على منوال طراز البردة كان مولانا المعز الأشرف العالي القاضوي المخدومي الناصري سيدي محمد البارزي الجهيني الشافعي ، صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية جمَّل الله الوجود بوجوده هو الذي ثَقَّفَ لي هذه الصعدة ، وحلب لي ضرعها الحافل » .

يريد أنه نصحه عند اطلاعه علي بديعية الموصلي بأن يعارضه . ويقول :

« غير أن الشيخ عز الدين ما أعرب عن بناء بيوت الله أن ترفع ، ولا طالت يده لإبهام انعقاده إلي شئ من إشارات ابن أبي الإصبع . وربما رضي في الغالب تسمية النوع ولم يعرب عن المسمي ، ونثر الألفاظ والمعاني لشدة ما عقده نظماً :

فيادارها بالخيف إن مزارهـــا قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالُ

فاستخار الله مولانا الناصري المشار إليه ، ورسم لي بنظم قصيدة أطرز حلتها ببديع هذا الالتزام ، وأجاري الحلّي برقة السحر الحلال الذي ينفث في عقد الأقلام ».

هكذا أراد ابن حجة أن ينظم بديعية تكمل نقص بديعيتي صفي الدين الحلّي والموصلي ، الأولي لم يذكر فيها أنواع البديع . ولم يعرف عن أسمائها ومصطلحاتها ، والثانية لم تتضمن أبياتها أسماء ومصطلح البديع بل أنه لم يذكر أمثلة لكل نوع ، وأغفل ذكر بعضها أحياناً .

واستعان بالبارزي في نظمها حتي استوت له تامة الأجزاء :

« فجاءت بديعية هدمت بها ما نحته الموصلي في بيوته من الجبال ، وجاريت الصفيَّ مقيداً بتسمية النوع وهو مع ذلك محلول العقال » .

وسمي هذه البديعية « تقديم أبي بكر » وجملتها مائة واثنان وأربعون بيتاً تضمنت من أنواع البديع مائة وأربعين نوعاً .

وأهم منها هذا الشرح الذي سماه « خزانة الأدب وغاية الأرب » .

والكتاب وإن جاري غيره من شروح المتون في النحو أو اللغة أو البلاغة أو غيرها من فنون العلوم إلا أنه ينفرد بخاصية تخرجه من مجرد الالتزام بشرح المتن من فنون البديع إلي جمع لأخبار الأدب والأدباء من سابقية ومعاصريه . مع نصوص كثيرة من نظمهم ونثرهم من أمثال القاضي الفاضل ، وابن سناء الملك ، وابن نباته ، وغيرهم من المعروفين فضلاً عن المغمورين أو الذين لم تتردد أسماؤهم ولم تعرف أعلامهم .

فهو من هذه الناحية مصدر هام من مصادر أدب العصر أخباراً ونصوصاً ، ويجلي صوراً لأذواق النقاد ، وآرائهم ، تلقي أضواءاً علي قِمَم الشعر والكتابة آنذاك .

وفرغ من تأليف الكتاب سنة ٨٢٦ هـ .

كتاب « تغريد الصادح » في تفضيل المتنبي .

فضل فية المتنبي علي أبي تمام ، جارياً في ذلك علي نهج كثير من شعراء الشام وأدبائه قال ابن حجة : « إن صلاح الدين الصفدي كان مذهبه تقديم أبي الطيب المتنبي علي أبي تمام ، وهو مذهب أبي العلاء المعري ، فإنه سمي ديوانه بعدما شرحه « معجز أحمد » . وذكر ابن حجة فضله في الخزانة فقال : « وقد عنَّ لي أنْ أورد هنا ما سارت في الخافقين كَلِمُهُ وأمثاله ، وأنقاد أهل الذوق السليم لطاعته لما ورد عليهم مثاله وهو تأليفي الذي وسمته بتغريد الصادح » . يروي قصته فيقول :

« .. وما ذلك إلا أن سيدنا ومولانا قاضي القضاة صدر الدين ابن الآدمي نور الله ضريحه ، وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه كان يقول : أود أن أنتزع من الصادح والباغم (للصفدي) أرجوزة مشتملة علي أمثلة مرقصة وحكم بديعية بشرط أن يكون البيت منسجماً مع الذي قبله والذي بعده ، ولم يتيسر لي ذلك . لصعوبة المسلك » .

ومضي الزمن علي ذلك ، الأمر مرة أخري ويُسِّرَ له عمل الأرجوزه تلك ووصفها بقوله : «التي سارت غرر أمثالها ، ولم يسمح الزمان بمثالها ومن سافر فيها بنظره ، وكان الذوق السليم رفيقه علم أنها تضرب بها الأمثال علي الحقيقة ، وسميتها بتغريد الصادح ، وصدرتها من نظمي بأبيات تقوم مقام الديباجة والخطبة هي :

الحمــد للــه الذي هذَّبنـــــا	واختارنا للعلم إذْ أدَّبنـــــا
فإن للآداب فضـــــلاً يذكـــــر	فلا تُخاطبْ كُلَّ من لايشـعرُ
يا مدعي الحكمة في كلامــــه	ومن يروم السحر في نظامـه
خذ حكماً وكلهـــــا أمثـــــالُ	ليس لها في عصرنا أمثـالُ
ألفها ابن حجةٍ للنجبَـــــــــا	لأنَّ فيها رأس مال الأدبـــا
واختارها من مفردات الصادح	فكان ذا من أكبر المصالـــح

ثمرات الأوراق :

مجموعة أخبار أدبية وطرائف ورسائل ، فيها كثير من انشائه ، منها قال(١)

«حضرت في بعض الليـالي علي جـانب النيل المبارك في خدمة مـولانا المقر الأشرف المرحومي القاضوي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلاميـة المحروسة . كان تغمده الله تعالي بالرحمة والرضـوان وبيـده الكريمة جزءٌ من تذكرة الشـيخ صلاح الدين الصفدي .. قـال الصفدي وطلب إليَّ . معـارضتـهـا » فكتب رسـالة في معـارضتـهـا ذكـرها في الثمرات (٢) .

ونثر ابن حجة أحسن من نظمة علي قول الشوكاني (٣) .

قال (٣) : ورسم لي في الأيام المؤيدية وأنا منشئ الديوان الشريف المؤيدي سنة تسع عشرة وثمانمائة أن أنشئ رسالة بوفاء النيل المبارك لم أسبق إليها ممن تقدمني من المنشئين بالديار المصرية ، حتي إن المقر الأشرفي المرحومي القاضوي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي سقي الله ثراه قرأ علي المسامع الشريفة هذه الرسالة المسطرة ورسالة من انشاء جمال الدين ابن نباته ، وكان غرضه في ذلك اختيار الألفاظ والمعاني من الرسالتين فأنشأت – بعد المستعان بالله :

---

(١) ثمرات الأوراق : ص ٨١ (٢) ثمرات الأوراق : ص ٨٢
(٣) مطالع البدور : ١ / ١٦٥

«وتبدي لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذي عاملنا فيه بالحسني وزيادة ، وأجراه لنا في طرق الوفاء علي أجمل عادة ، وخلق أصابعه ليزول الإبهام ، فأعلن المسلمون بالشهادة كسر جسره ، فأمسي كل إنسان بهذا الكسر مجبوراً ، واتبعناه بنوروز ، وما برح هذا الأسم بالسعد المؤيد مكسوراً . دقَّ قفاً السودان ، فالراية البيضاء من كل قلع عليه ، وقبَّل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو ، فمالت أعطاف غصونها إليه ، وشبَّ حريقه في الصعيد بالقصب ، ومدَّ سبائكه الذهبية إلي جزيرة الذهب ، فضرب الناصرة ، واتصل بأم دينار ، وقلنا إنه صبغ بقوة لما جاء وعليه ذلك الاحمرار . وأطال الله عمر زيادته فتردد في الآثار ، وعمته البركة ، فأجري سواقي مكي إلي إن غدت جنة تجري من تحتها الأنهار ، وحضن منتهي الرَّوضة في صدره وحني عليها حُنُو المرضعات علي الفطيم ، وأرشفه علي ظمأ زلالاً ، ألذ من المدامة للنديم ، وأرق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الآيات ، وسقي سلافته فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلي جنات النخيل والأعناب فالق النوي والحب ، فأرضع جنين النبت ، وأحيي له أموات العَصْف والأبَ ، وصافحته كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية ، ولبس الوردُ تشريفَهُ وقَال : أرجْو أن تكون شوكتي في أيامه قوية ، ونسي الزهر بحلاوة لقائه مرارة النوي وهامت به مخدّرات الأشجار ، فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الجوي ، واستوفي النبات ما كان له في ذمة الريّ من الديون ، ومازج الحوامض بحلاوته ، فهام الناس بالسكر والليمون ، وانجذب إليه البكَّاءُ وامتدَّ ولمن قوي قوسه لما حظِي منه بسهم لايُرَدّ ، ولبس شر بُوش الأتْرُجّ وترفع إلي أن لبس بعده التاج ، وفتح منشور الأرض لعلامته بسعة الرزق ، وقد نفذ أمره وراج ، فتناول مقالم الشَّنْبَر وعلَّم بأقلامها ، ورسم لمحبوس كل سدٍّ بالإفراج ، وسرَّح بطائق السفن فخفقت بأجنحتها بمخلق بشائره . وأشار بأصابعه إلي المحل فبادر الخصب إلي امتثال أوامره ، وحظِيَ بالمعشوق ، وبلغ من كُلَّ ذي مُنْيةٍ مناه ، فلا ساكنٌ علي البحر ألا تحرك ساكنُهُ بعدما تفقه ، وانفَتقَ باب المياه ، ومد شفاه أمواهه إلي تقبيل فم الحُورْ ، وزاد بسرعته فاستحلي المصريون زائده علي الفور ، ونزل ببركة الحبش ، فدخل التكرور في طاعته ، وحمل علي الجهات البحرية فكسر المنصوره ، وعلا علي الطويلة بشهامته ، وأظهر مجد الخضر عن الجياد ، فأقر الله عينه ، وصار

أهل دمياط في برزخ بين المالح وبينه (١) ..

وأورد له الغزولي في كتاب مطالع البدور جملة مقطوعات من منثوره ، كقوله في الفوّارة :

« .. كزُجّ سنان تطعن في صدر الظمأ ، أو شجرةٌ تدنـاها ، طوبى لما ظهرت وأصلها ثابت وفروعها في السماء ، أو مغترف بندي الماء وقد أفاض عليه عطاياه فيضاً ، فرفع له لأجل ذلك فوق قناته رأيةً بيضا . أو عمود وفاء أشارت الناس إليه بالأصابع . أو أبيض طائر علا فَقُلْناً إنه يلتقط حب النجوم الشواقب ، أو شجاع ذو همة عالية يحاول ثأراً من بعض الكواكب .. (٢) .

وقال في حريق (٣) :

« .. هذا وكم مؤمن قوم خرج من دياره حذر الموت وهو يقول : النَّجاة ، وطلب الفرار ، وكلما دعاه قومه لمساعدتهم علي الحريق ناداهم وقد عدم الاصطبار : ياقوم مالي أدعوكم إلي النجاة وتَدْعونني إلي النار .. » .

ونلاحظ من سمات هذا النثر تكلف البديع وخاصة التورية والاستعارة تكلفاً قد يخرج المعني عن قصده ،ويثقل كاهل اللفظ ، فلا يؤدي ما أراده له انشغالاً وراء موافقة التورية والتلاعب باللفظ ليقع له قصد ما أراده من بديع لا ما أراده من معني . فانشغاله بالشكل باعد بينه وبين بيان القصد .

ولم تملح الكناية ملاحتها عند القاضي الفاضل إذ تأتي في موضعها نكته معجبة تروق السامع ، وتكشف عن اقتدار في البيان ، وامتلاك لناصيته .

ويستخدم السجع والجناس استخداماً سيئاً تحس بثقله . لابرقته ولطفه وكم بين استخدام مثله للجناس واستخدام شاعر مبدع كابن الفارض كما مر بنا مثلاً (٤) .

ويتضح أن نثر ابن حجة أيضاً ليس أقل درجة ، بل أقل درجات من نظم سابقية . لقد حاول أن يقلد القاضي الفاضل وأن يكون أحد تلاميذه ، ولكن

---

(١) ثمرات الأوراق : ص ٢١٥
(٢) مطالع البدور : ١ / ٣٩
(٣) مطالع البدور : ص ٢ / ٢٢
(٤) في الجزء الأول

هيهات لقد كان تقليد الغراب للطاووس ، اتخذ ريشه عارية فبدا عليه متكلفاً ، فلم يحسن صنعه ، ولم يكن من وقمه ولارسمه إذ يبدو أنه كان مغري بالتقليد ، فقد قلد صلاح الدين الصفدي ، في أكثر من رسالة ، وتتبعه في أكثر من كتاب ، واتهمه معاصروه بالسرقة من الأدباء ومحاكاه معانيهم وألفاظهم . فقد ألف النواجي فيه كتاباً سماه «الحجة في سرقات ابن حجة»(١) .

شعـــره :

وشعر ابن حجة لايخرج عن طريقته في النثرفهو كثير البديع وخاصة التورية ونمثل له بالموشحة التي أوردها له الغزولي في مدح القصار بمدينة حماة قال الغزولي (٢) :

... وما ألطف ما قال سيدي تقي الدين ابن حجة أبقاه الله تعالي من موشحة امتدح بها سيدنا ومولانا الإمام العلامة المفتن قاضي القضاة أبا الحسن علاء الدين الشهير بالقصَّار الحكم بمدينة حماة المحروسة - أسبغ الله عليه ظلاله مضمناً :

بالله يابرق إن أومضت في الثغر	وحارسُ اللَّحْظِ في شك من الخبرِ
قف بالثنيات واذكرني إذا عَربتْ	مسهلات عُذَيْبِ الثغر في السحرِ
وارْسل عليل النسيم خلفـــــي	معرَّضـاً بالشـــذا وأشفـــــي
ولا تقل أنما المعتَلّ في شُغُـــلٍ	فربما صحت الأجســام بالعِلَــلِ

وله في المديح النبوي قصائد علي طريقة شعراء عصره ، فمما رواه له الغزولي قال : «وأنشدني من لفظه سيدي الشيخ وأخي تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي من قصيدة نبوية أولها (٣) :

شَدَتْ بكمُ العشَّاق لما تزنَّمـوا	فغنُّوا وقد طاب المقام وزمـــومُ
وضاع شذاكم بين سلعٍ وحاجرٍ	فكان دليل الظاعنِينَ إليكـــم
ولما روي أخبار نشرثُغُورِكُـــمْ	أراكُ الحِمي جاء الهوي يَتَنَسَّمُ

(١) البدر الطالع : ١ / ١٦٥
(٢) مطالع البدور : ١ / ٥٨
(٣) مطالع البدور : ١ / ٥٥

ومدح الملك المؤيد شيخ المحمودي مدائح كثيرة .

وذكر له ابن اياس (١) مديحة فيه بمناسبة وفاء النيل وكسر المقياس وعزمه السفر إلي الشام لقتال نائبها نوروز سنة ٨١٦ هـ .

قال : قال ابن حجة : وَفَّي النيلُ المباركُ وكسر السدُّ علي العادة ، وذلك قبل أن يتوجه الملك المؤيد شيخ إلي دمشق بسبب نوروز فأنشدته ذلك اليوم مهنئًا :

أيا ملكـاً باللهِ صـار مؤيـداً ومنتصباً في مُلْكِه نصبَ تمييز

كسرت بِمَسْري سدّ مصر وتنقضي وحقك بعد الكسر آيام نـوروز

وله ديوان شعر اختار منه الغزولي والنواجي منطعات وقصائد في كتابيهما مطالع البدور وتأهيل الغريب ، كما اختار له صاحب الكشكول في مواضع ، وصاحب حوليات دمشقية(٢) .

ويضم من موضوعات الشعر غير المديح الغزل والوصف والتراسل واللغز .

ومن مؤلفاته : بلوغ المرام من سيرة ابن هشام ، والروض الأنف ، والاعلام وأمان الخائفين من أمة سيد المرسلين ، و«بروق الغيث» علي الغيث الذي انسجم للصفدي .

(١) ابن اياس : ٢ / ٤ و ٣١٥

(٢) مُؤَلَفٌ مجهول نشره الدكتور حسن حبشي . راجع صفحات من ١٠٠ الي ١٠٩

المستطرف من كل فن مستطرف
للأشبيهي (ت ٨٩٢)

ويكتب الأشبيهي كتابة بعد مرور أكثر من نصف قرن علي كتب الغزولي والنواجي وابن حجة ، وهذا الزمن الممتد تحدث فيه أحداث وتتغير أمور في أحوال المجتمع المصري وظروف حياته وسياسات حكامه ، وتتغير بالضرورة ثقافته ، ويخفت شيئاً فشيئاً هذا الوهج الذي كان امتداداً لثقافة القرن الثامن في أخريات القرن التاسع ، ويوغل الفكر شيئاً فشيئاً في كهوف ومتاهات ، ويقل إبداع العقل ، ويتكاسل ، ويغرق الأدباء في النقل ، وتكرر الصور ، وتعاد عناصر الثقافة ، ويُجْتَرُّ التراث ، وتضاف إليه المأثورات الشعبية ، ولانعود نتنبين في كتابات كثير من متأخري القرن التاسع صحيح الخبر من باطله ، ولاقويم الفكر من معوجه ، ويحتقب الأدباء مما يقعون عليه من التراث في مجموعات تحوي كل شئ ، تلم من كل علم صحيح أو زائف بطرف .

وهكذا كان المستطرف للأشبيهي .

والأشبيهي :(١)

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي ، ولد بالمحلة الكبرى ، ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم ، وبعض الكتب التي وقعت إليه . وجلس إلي جماعة من بلده فأخذ عنهم علوم النحو والصرف والفقة . وقدم القاهرة لاتمام علومه فتلقي علوم العربية ، والمعاني والبيان والبديع علي جلال الدين المحلي (صاحب التفسير مع السيوطي المعروف بالجلالين). وجلس إلي بعض مشهوري عصره كالبلقيني والمناوي وشغل بعض الوظائف ، فناب في القضاء ، واتصل بالأمير تمراز أحد مقدمي المماليك الشراكسة ، فتردد عليه لخدمته ، وكان الأمير رأس نوبة النوب وهو منصب رفيع القدر في الدولة ، فقرره في تدريس الفقة الشافعي بمدرسة الشيخونية وكان ذلك سببا لحدوث بعض التنافس والغيرة ثم الملاحاة بينه وبين بعض الرفاق من الشيوخ ممن كانوا أقدم منه في التدريس والخبرة.

(١) ترجم له السخاوي ترجمة وافية بالضوء اللامع ٢ / ١٤٤

وتولي كذلك التدريس في بعض مدارس القاهرة الأخري كالأشرفية ، درّس بها الحديث . وكاد له بعض زملائه بسبب الغيرة والتنافس فقبض عليه مع بعضهم ثم أطلق سراحه دونهم ، ولعل ذلك كان بسعي من مخدومه الأمير تمراز .

وكان الأبشيهي طموحاً إلي تولي القضاء ، وسعي إلي ذلك لكنه لم يوفق وظل يوالي التدريس ، ويعمل بالتأليف حتي وافاه الأجل فتوفي سنة ٨٩٢ هـ ودفن بخانقاه سعيد السعداء .

وقد أثني عليه السخاوي ووصفه بالتودد والعقل .

وترك الأبشيهي مؤلفات أشهرها كتاب «المستطرف» هذا ، وقد جمع فيه كثيراً من الأخبار والطرائف الأدبية ، التي انتقاها من كثير من الكتب كما جمع به بعض الأمثال الأدبية العربية ، والعامية المصرية.

مادة الكتاب :

يشير في مقدمة الكتاب إلي سابقيه من المعاصرين ممن جمع مثل مجموعه الأولي فيقول :« ..أما بعد فقد رأيت جماعة من ذوي الفِهَم جمعوا أشياء كثيرة من الأدب والمواعظ والحكم ، وبسطوا مجلدات في التواريخ والنوادر ، والحكايات ، واللطائف ورقائق الأشعار ، وألفوا كتباً كثيرة ، وتفرد كلٌّ منها بفرائد فوائد لم تكن في غيره من الكتب محصوره ، فاستخرجت من مفردها ، وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف وجعلته مشتملاً علي كل فن ظريف ، وسميته المستطرف من كل فن مستظرف «واستدللت فيه بآيات من القرآن العظيم ، وأحاديث صحيحة من أحاديث النبي الكريم ، وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار ، ونقلت فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري في كتابة «ربيع الأبرار» وكثيراً مما نقله ابن عبدربه في كتابة «العقد الفريد» . ورجوت أن يجد مطالعه فيه كلَّ مايقصد ويريد . وجمعت فيه لطائف وطرائف عديدة من منتجات الكتب النفسية المفيدة . وأودعته من الأحاديث النبوية والأمثال الشعرية ، والألفاظ اللغوية ، والحكايات الجدّية ، والنوادر الهزلية ، ومن الغرائب والدقائق ، والأشعار والرقائق ماتَشنُفُ بذكره الأسماع ، وتَقَرُّ برؤيته العيون ، وينشرح بمطالعته كلُّ قلب محزون .

مِنْ كلِّ معنيً يكادُ الميتُ يفَهمُه حُسْناً ، ويعشقُه القِرطاسَ والقَلمُ

ويتضح من قول الأبشبيهي في مقدمته مابني عليه الكتاب من مادة منتقاه من كتب السابقين . ليكون عدة لكل قارئ ينشدُ الأدب ، ويرغب في أن يبلغ فيه مبلغاً . ومادة كتابه تنجاوب مع ثقافه العصر ، وتتناغم مع معزوفته المعرفية التي يقدمها القرآن العظيم بما حواه من أي بليغ معجز يتضمن أصول دين المسلمين ، وما ينبغي عليهم اتباعه من أوامر ، وما أحل الله لهم ، ومايجب عليهم الامتناع عنه من محرمات ليحيوا حياة طيبة .. كما يتعظ القارئ بما يسوقه من عبر ومواعظ من أخبار الأمم السالفة وأخبار الأولين ، في أحسن القصص ، وأبلغ الأمثال .

ويلي القرآن الحديث النبوي ، وهما العكازان والعمادان اللذان تقوم عليهما ثقافة العصر كما سبق أن كررنا القول . وهما مورد الأديب ، كما أنهما مورد العالم ورجل الدين . في كل ما يقول ويكتب . ومن بعدهما تراث العرب والمسلمين بما ضم من الأخبار والنوادر واللغة والشعر والأمثال والحكم والنوادر والطرائف ، ومعارف شتي في الطب ومجالات الحياة المختلفة .

ويمزج في كتابه بين الجد والهزل ، مما يدخل علي قلب قارئه المسرة ليتروح وتنشط همته ، فلا يتملكه الملل فيغلق أمامه طرق الفهم . ويجمع الكتاب محصولاً وافراً من مأثورت عصره ، ينقُلُها شفاهاً ، أو من كتب ومدونات .

ويقسم الكتاب بحسب مادته وما تضمنه من موضوعات أبوابا عدتها أربعة وثمانون باباً أولها باب الإسلام وفيه خمسة فصول ، والثاني في العقل والذكاء ، والحمق وغير ذلك ، والثالث في القرآن العظيم وفضله وحرمته ، وما أعدّ الله لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم . والرابع في العلم والأدب ، وفضل العالم والمتعلم ، والسادس في الأدب والحكم ، وماأشبه ذلك . والسابع في الأمثال السائرة ، والثامن في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر فصحاء الرجال والنساء .

ويمضي في ذكر أبواب الكتاب .... إلي آخره .

وطريقته أن ينقل الخبر أو النص ، أو يقتطف مايسعه اقتطافه من شعر أو نثر يوردها دون مناقشة أو القاء ضوء أو ابداء رأي في فكرة أو قضية بعينها

ولاينسي في سياق القول أن يعرج علي أحوال زمانه ، وما يهمّ الناس من أمور الدولة والحكم ، ووجوب طاعة ولي الأمر ، وهو بالضرورة «السلطان المملوكي» ومساعدوه من أمراء المماليك ، فيقول في الباب الرابع عشر : « في المُلكِ والسلطان ، وطاعة ولاة أمور الإسلام ، ومايجب للسلطان علي الرعية ، وما يجب لهم عليه . »

وفي الباب الخامس عشر يتحدث فيما يجب علي من صحب السلطان ، والتحذير من صحبته . وما تبعه من أبواب متممة لهذا الموضوع من أمور الدولة والحكم والأدارة فيتحدث عن الوزراء وصفاتهم وأحوالهم ، وما أشبه ذلك . ويذكر الحُجَّابَ والولاةَ ، وما يتخلق به بعضهم من الغرور والكبر . ويتحدث عن القضاة والقضاء وعن الرشوة والهدية – ومعروف أن ذلك كان شائعا في دولة الشراكسة ويعرف «بالبرطلة» ، لا يستثني من ذلك سلطان ولا أمير . ولاقاض ، ولاصاحب منصب . ويقدم النصائح لأولي الأمر من هؤلاء جميعاً من ضرورة الابتعاد عن الظلم ، ومراعاة أحوال الرعية ، ومعاملتهم بالإحسان والإنصاف ، ويحذر من سوء عاقبة الظلم وشؤمه ممثلاً بما جري علي الظلمة وما آلو إليه من نقمه بعد نعمة .

ويطرق باب الأحوال العامة ، وأخلاق الناس السائدة بينهم ، وما ينبغي أن يتخلقوا به من الفضائل وحسن المباشرة والمودة ، وتبادل الزيارة وما أشبه ذلك ويقابلها بما يجب الأمتناع عنه من سوء الخلق والقطيعة .

ويضرب المثل بجماعة ممن ينبغي الإقتداء بهم في حسن السيرة وعمل الخير والصلاح من الصحابة والأولياء الصالحين . ويذكر أهم مناقبهم وكراماتهم ، كما يذكر من خالفهم وضادهم من الأشرار والفجَّار ، ومن ارتكبوا من الفواحش ، وما جبلوا عليه من القِحة والسَّفه .

كما يورد الحديث في أبواب الكتاب عن مكارم الاخلاق التي يتمدح بها الشعراء كالكرم ، والمروءة ، والسؤدد ، وعن عكسه مما يذم بها من البُخْلِ واللؤم مع ذكر أخبار هؤلاء وهؤلاء .

وينتقل في الباب السادس والأربعين إلي القول في الخلْق وأحوالهم ، وذكر الحسن والقُبحْ ، والطول والقصر ، والأثواب واللباس . وماأشبه ذلك . ويتحدث عن

الحليّ والطيب ، وعن الشيب والشباب ، والصحة والمرض ، وأخبار المعمّرين ، وعن الأسفار والاغتراب ، ومايتصل بهامن الوداع والفراق والحث عل ترك الأقامة بدار الهوان ، والحضّ علي حب الوطن . ويذكر الحنين إلي الأوطان . وأن ذلك جبلة في الأنسان .

ويتكلم في أنواع السعي ، والأعمال والحرف وصور الكسب والنشاط ، ومنها ينتقل إلي القول في المعارف العامة في الحياة والطبيعة ، فيذكر أنواع الحيوان والطيور والنبات ، وعجائب المخلوقات ، وغرائب الأحياء ، وذكر أخبار الجان وصفاتهم . ويتحدث عن البحار والأنهار .

ونتوقف عند بعض أبواب الكتاب وفصوله . لنستشف بعض مايؤثره في اختياره ، ويصفه أو يدير حوله أقواله مما يعكس صورةُ ويشي بأحواله العامة وثقافته . ولتتعرف علي ماكان يدور بين أوساط الناس ، وعوامهم من معتقدات ، وما يصدر عنهم من مخزون قديم ، ورواسب انتقلت اليهم عبر الزمان تعكس عقائد بائده ظلت أثارها باقية .

وأول ما يستوقفنا ما ساقة من الأمثال العامية التي أوردها بترتيب حروف أوائل كلماتها ، وقد تلقاها شفاها من أفواه الناس ، أو نقلها عمن سبق إلي تسجيلها . ومنها مالايزال يدور علي الألسنة من مثل قولهم :

إذا كان صاحبك عسلاً لاتلحسه كله ، واقعد ياحمار حتي ينبت لك العليق أو الشعير . وتبات نار تصبح رماد ، وجوزوا مشكاح لريمة ، ماعلي الاثنين قيمة . حاجة لاتهمّك وَصَّي عليها جوز أمَّك . ودرهم لك ودرهم عليك ولالك ولاعليك . رزق الكلاب علي المجانين . وسل المجرب ولاتسأل طبيب .

وسَيُغْنِي اللهُ عن زيدٍ وعمرو   ويأتي الله بالفرج القريب .

شرا العبد ولاتربيته . صام سنة وفطر علي بصلة . صباح الخير ياجاري انت في دارك وأنا في داري .ضرب الحبيب كأكل الزبيب . ضربتين في الرأس تعمي . ضربني وبكا وسبقني واشتكا . طلبواجاهم عثمان إيدْ وراً وإيد قدَّام .

لايطير طيرك ويأخذه غيرك . قالوا للجمل زمُر قال لاشفايف ملمومة ولا أيادي

مفرودة . لوكان فيها خير مارماها الطير . لقمة بدقة ولاخروف بزقّة . من عاشر الحداد احترق بناره . نواية تسند الجرَّة ، قال وتسند الزير الكبير . نصف البلا ولا البلا كلهُ . لاتعيرني ولاأعيّرك الدَّهر حيّرني وحيَّرك.

ومن أمثال النساء :

إيش تعمل المشاطة في الوجه المشؤم . إذا كان زوجي راضي إيش تقول يا قاضي . اتباهت القرعة بشعر بنت اختها . خطبوها تعززت .

وقد أورد مجموعة كبيرة من الأمثال علي لسان الرجال والنساء بعضها بلغة عامية سوقية ، وألفاظ خارجة تكشف تجارب الناس وسلوكياتهم ، ومعاملتهم وتعكس أخلاقهم .

ويدخل في تركيب بعضها سوي الألفاظ العامية والسوقية والفاحشة بعض الألفاظ التركية والفارسية مما يكشف عن شيوعهافي لغة العصر المتداولة

وتتمثل في تلك الأمثال ظواهر مشاهدة وملموسة لاتزال تجري بين الناس في وقتناً هذا مع مضيّ مئات السنين ، لكن يظل وجدان الشعب مختزنا لها وبفرزها علي مدي الأجيال جيلاً بعد جيل ، وإن غير بعض لفظها .

وأما ما فضل عن هذه التسجيلات من واقع حياة الناس في عصر المؤلف فهو مجموعة نقول عن كتب يشير إليها وقد لايشير ، ويقع عليها القارئ كثيراً ،منها ماورد فيما عرضنا له من قبل من كتب المجموعات.

وأشهر من ترددت أسماؤهم من كبار الأدباء والعلماء السابقين الجاحظ وابن قتيبة ، والزمخشري ، وابن عبد ربه ، وأبوعلي القالي .

ولكثرة مانقل ، ولم يعلق ، ولم ينتق ، فإن شخصيته لم تتضح إتضاح شخصيات من سبقه من مثل الدميري أو الغزولي ، والنواجي علي مابيننا. وليست هناك غاية واضحة يستهدفها الكتاب سوي الغاية العامة التي تستهدفها كل الكتب الشبيهة ، وهي التأديب بالمعني الأخلاقي ، إسداء النصيحة وابداء العبرة ، من أهداف الكتاب الواضحة والرئيسة ، فأما ادخال المتعة والسرور فهي أهداف ثانوية مساعدة.

وتبقي فضيلة للمؤلف ينبغي التنوية بها وهي ابتعاده في غالب الكتاب عن الأخذ بالخرافات والأقاصيص والأساطير التي تعارض المنطق وتصدم العقل ، فقد عاب علي القصاص والأخبار بين ماأوردوه من اختراعات وأباطيل ، وزكيّ في كثير من المواضع منهج العقل . ولعل ذلك ما جذبه إلي الأخذ عن بعض علماء المعتزلة ،وادبائهم من أمثال الجاحظ والزمحشري من الذين كان بعض معاصريه من المنشددين المتزمتين بتنجنب الأخذ عنهم .

ومعلوم أن الزمشخري قد عورض من كثير من علماء السلفية وشيوخهم وهاجموه في كتب لهم لازالت متداولة كما تجنبوا الأخذ عن المعتزلة والفلاسفة .



الفصل الرابع

كتب التراجم والسير والقصص
والنصائح والمواعظ



ابن عربشاه (١)
(٧٩١-٨٥٤هـ)
وكتبه في السير والقصص

وهو الكاتب الأديب المؤرخ الدمشقي الأصل شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله والمشهور بابن عربشاه . ولد بدمشق سنة ٧٩١ هـ ، الرومي الأقامة ، الحنفي المذهب . ويعرف كذلك بابن العجمي . عاش طفلاً في سلطنة الظاهر برقوق ، ونشأ ببلده دمشق وقرأ القرآن ، وما أن بلغ الثانية عشرة من عمره حتي كانت وقعة تيمور بدمشق فغادرها هو وأمه وإخوته إلي بلاد المشرق أسيراً ، أو مصاحباً لتيمور فاستقر به المقام بسمرقند ، وتجول في بلاد الخطا وبلاد ما وراء النهر مشتغلاً بالعلم ، واتصل بكثير من علماء تلك البلاد من المسلمين كالسيد الجرجاني وأنتفع بهم وتعلم اللسان الفارسي ، وكتب الخَّط المغولي . ورحل من سمرقند إلي خوارزم ولقي بها بعض العلماء ، وأخذ عنهم .

وعاد من الشرق . وقد اتقن كثيرا من العلوم ، وتمكنّ من اللغتين الفارسية والتركية إلي جانب اللغة العربية التي نشأ عليها . وعاد من المشرق ليلحق بالعثمانيين . فأقام باستانبول أو القسطنطينية نحواً من عشرين سنة في خدمة سلاطين آل عثمان يكتب لهم .وكان أهم من لزمه من سلاطينهم السلطان الفاتح محمد بن بايزيد بن مراد . وعمل عنده في كتابه الرسائل ، وترجم له بعض القصص مثل " جامع الحكايات ولامع الروايات عن الفارسية إلي التركية . ولعله هو نفسه كتاب مرزبان نامة . كما ترجم تفسير السمرقندي القادري إلي التركية كذلك نظما .

وكتب الرسائل إلي ملوك الأطراف ، وفيها بعض الرسائل إلي السلطان المؤيد شيخ المحمودي . وكانت بينه وبين محمد الفاتح رسائل متبادلة وتهاني وهدايا وعلاقات طيبة .

وبعد موت السلطان محمد اعتزل ابن عربشاه العمل بديوان الأنشاء باستانبول

---

(١) راجع ترجمته في الضوء اللامع

الأستانة وعاد إلي الشام ، وأقام في حلب زمنا ، وغادرها إلي دمشق سنة ٨٢٥ هـ . وفي دمشق مال إلي اعتزال الناس إلاّ من صحبة قلبة لازمت مجلسه ·

ونبغ في كثير من العلوم الاسلامية والعربية ، وعلا كعبه في الأدب نثراً ونظما . قال السخاوي :" وتقدم في غالب العلوم ، وأنشأ النظم الفائق ، والنثر الرائق وصنف نظما ونثرا وأشير إليه بالتفنن حتي كان ممن يجله ويعترف له بالفضيلة شيخنا » – يعني ابن حجر.

وكان قد جاء ابن عربشاه إلي القاهرة ، ولزم ابن حجر ، وامتدحه بقصيدة بديعة علي قول السخاوي تلعب فيها بضروب الأدب ، وأودعها الجواهر والدرر ·" وشهد له بالذكاء والفكاهة وحسن المداعبة وعذوبة الكلام · وسمع منه كثيرا من ذلك وأودعه كتاباً له ، كذلك كان عارفا بالجواهر ·

ومن صفاته – علي ماروَي السخاوي – حسن التودد ، والتواضع ، وعفة النفس ، ووفور العقل ، والرزانة ، وحسن الشّكالة ، والأبهة . وسيما الخير ولوائح الدين عليه بادية ·

وكان يقاء السخاوي به بالخانقاه الصلاحية بالقاهرة سنة ٨٥٠ هـ فكتب من نظمه أشياء · وكتب له بخطه بعض مؤلفاته · وقد أدرك وهو بمضرحكم السلطان الظاهر جقمق وكان متزمتا ، وربما كان دخوله السجن بسبب من الأسباب التي لم ترق السلطان في بعض سلوك ابن عربشاه أو ما نقل عنه من بعض من لم يعرف فضله ·

ويبدو أن دخوله السجن كان صدمة لابن عربشاه لم يستطيع تحملها وهو في تلك السن ، وقد أوفي علي الستين ، فمرض علي اثر ذلك مرضاً أدي إلي وفاته ، بعد خروجه من السجن · وكان موته بالخانقاه التي أقام بها في القاهرة وهي الصلاحية سنة ٨٥٤ هـ ودفن بتربتها ·

ومن مصنفاته :

١- مرآة الأدب في علم المعاني والبيان والبديع . وسلك فيه اسلوبا بديعاً – علي قول السخاوي · نظم فيه التلخيص علي شكل قصائد غزلية ، كل

باب منه قصيدة مفردة علي قافية . وقد أسمعها للشيخ ابن حجر فأعجب بصنعته لها .

٢- مقدمة في النحو .

٣- الرسالة المسماة العقد الفريد في التوحيد " .

٤- تاريخ تيمور لنك وسماه " عجائب المقدور في نوائب تيمور " .

٥- فاكهة الخلفاء ، ومفاكهة الظرفاء " .

٦- خطاب الأهاب الناقب ، وجواب الشهاب الثاقب " .

٧- الترجمان المترجم بمنتهي الأدب في لغة الترك والعجم والعرب " .

٨- شعره .

وروي السخاوي نماذج منه في " الزهد " منه قوله

قميص من القُطْنِ منَ حلَّةٌ وشربة ماءٍ قراح وقوتُ
ينالُ به المرءُ مَا ينبغي وهذا كثيرٌ عليَّ من يموت

وقوله :

فعِشْ ما شئْتَ في الدُّنيا وأدْرِكْ بها ما شئْتَ من صيتٍ وصَوْت
فحبلُ العَيش موصولٌ بقطعٍ وخيطُ العمرِ معقودٌ بموْتَ

وقوله :

وما الدَّهْرُ الاسُلَّمٌ فبقْديما يكونَ صُعَودَ المرءِ فيه هُبُوطُهُ
وهيهاتَ ما فيه نُزولٌ وإنما شروطُ الذي يرقي إليه سقوطهُ
فمنْ صارأعلا كان أوفي تهشماً وفاءً بما قامتْ عليه شروطُهُ

وكان المقريزي ممن التقي به ابن عربشاه بمصر ، وأخذ عنه ، ووصفه بأنه بحر بلاغة وفصاحة . كذلك لقي من علماء مصر وأعيانها في وقته برهان الدين الباعوني ، وتبادلات النظم . ومما أنشده الباعوني :

إبنَ عـربشـاه كُفَّ عنـــــيَ أولا فخـذ مـا يجيـئـكَ مـنّي
واعلم بأني خـصمُ الـــدُّ الشّـرّ دأبي والمكـــر فنّـــي
خلفي رجـالٌ لهم مـجـالٌ في الحـربِ لا يخلفـون ظنيَّ

وأما عن كتابه في تيمورلنك ، فقد كان مثار إعجاب كثيرين من قدماء ومحدثين . وهو يعد سيرة للغازي المغولي الذي ارتسمت صورة " أسطورية عنه عند الناس في عصره ، وتناقلت الأجيال من بعدهم تلك الصورة التي لزمت كثيرا من غزاة التاريخ وجبّاريه من أمثال ذي القرنين ، وجنكيز خان . وكتاب ابن عربشاه من أو في . المراجع التي صدرت عن حياته وأعماله وأخلاقه .

قال عنه محمد عبد الله عنان (١): .. فلا زالت ترجمته لتيمور أهم المراجع في تحقيق سيرة هذا الفاتح الكبير .

وقد أتاح لابن عربشاه كتابة هذه السيرة ما سمعه ، ورآه في موطن تيمور ويبدو أنه جمع مادته في اثناء غربته بالمشرق حتي إذا جاء دمشق وتفرغ للدرس والتأليف استرجع مابين يديه من أوراق ، وما أحتفظ به في ذاكرته من أخبار سمعها من الرواة عن تيمور ، وجمع هذا كله ليؤلف الكتاب سنة ٨٤٠ هـ وجاء كتاب " عجائب المقدور " معبراً عن ثقافة صاحبه ، وأسلوبه المنمق ، كما بدا فيه ميله إلي القص ، ومزج حقائق التاريخ بالأساطير مما سمع وتداوله أهل عصره . وفي بلاد المشرق خاصة حول تيمور ونشأته ، يضيف إليه ابن عربشاه قدراً من المبالغة والخيال أحيانا .

كما ضمن الكتاب بأسلوبه روح البغض لتيمور لما فعله في بلده دمشق يقول في مقدمته .

" وكان من أعجب القضايا ، بل من أعظم البلايا قصة تيمور ، رأس الفساق ، الأعرج الدجّال ، الذي أقام الفتنة شرقا وغربا علي ساق . أقبلت الدنيا عليه فتولي ، وسعي في الأرض ، فأهلك الحرث والنسل . وتيسم حين عمته النجاسة الجُكْتَّيهْ صعيد الأرض فغسل بسيف الطغيان كلّ ثغر محجلُ ، فتحققت نجاسته

(١) مصر الاسلامية ص ١٨٠ الطبعة الثانية مكتبة الخانجي بالقاهرة

بهذا الغُسْل . أردت أن أذكر منها ما رايته ، وأقُصُّ في ذلك ما رويتهُ إذ كانت قصته إحدي الكبر وأم العبر ."

ويروي قصة نشأته ، وما أصابه من العرج بأسلوبه الذي أشرنا إليه فيقول : «دخل تيمور حائطاً من حوائط سجستان قد أوي إليه بعض رُعاة الضان ، فاحتمل منها رأساً وأدبر ، فشعربه الراعي ، وأبصره ، فأتبعه للحين وضربه بسهمين أصاب أحدهما فخذه ، والآخر كتفه ، فلله درّه ساعداً إذ أبطل بهذا الضرب الموزون نصفه» . ويروي كيف أن الفتي تيمور قد نشأ مغامراً يسطوعلي الناس ليأخذ منهم ما يملكون ، وازداد في هذا الطريق سلوكه ، فتزعم عصابة من الفتاك أثارت الذعر في بلاد التركستان ، وتضخمت عصابته حتي صارت جمعا كبيراً فجيشا مقاتلاً روَع به الناس . وقد تمرس علي الكر والفرّ ، بما ملك من جسارة القلب ، وتمرس من فنون الخداع والمكر . واستطاع بذلك أن يجتاح بلاد الاسلام من أقصي المشرق من سمرقند حتي بلاد الشام وبلاد الأناضول ملك آل عثمان .

ويتتبع أحواله في دمشق وما جري بينه وبين أهلها ، وبينه وبين ابن خلدون من حوار سجله ابن خلدون نفسه في رحلته ، ويمضي في تتبع حركة تيمور في بلاد آل عثمان وما دار بينه وبين بايزيد وتبادلاه من الرسائل وما انتهي إليه أمر بايزيد من هزيمة منكرة وما فعله به تيمور من تنكيل حيث وضعه في قفص من حديد وأحضره مجلسه وجعل نساء بايزيد وجواريه - وقد أسرهن تيمور - يَقُمْن بسقايته تحت بصر بايزيد ويعبر ابن عربشاه عن هذا الموقف المزري فيقول في عبارة إنشائية مسجوعة . تعمها الاستعارات . " ثم أمر تيمور بأفلاك السرور فدارت ، وبشموس الراح أن تسير عن شرق أكواب السقاة إلي مغرب الشفاه فسارت . وحين تقشعت عن شموس السقاة سحائب الخدود ، ودار في السماء العشرة نجوم يحثها من مراسيه يزوزٌ وبُدُور نظر ابن عثمان ، فإذا السقاة جواريه ، وعامتهم من حرمه وسراريه فأسودت الدنيا في عينه ، واستحلي سكرات حَيْنه ، وتصدع قلبه ، وتضرَّم لبُّه وتزايد كمده ، وتفتت كبده ، وتصاعدت زفراته ، وتضاعفت حسرات حَسَراتُه ، ونُكيءَ جرحه ، وأعيدَ قَرْحُه ، ونُثر علي جرح مصابه قصبات الأسي مْلحُه . وكانت هذه نكاية لابن عثمان بما أسلفه ." . . ويمضي فيَ تصوير هذا المشهد حتي ذكر وفاة ابن عثمان فيقول :" ولماً صفا لتيمور شرابُ ممالك الروم من الكدر ، وقضي

الكون من أفعاله العجب ، وأهل الروم النَّحب ، وجيشه من الغارة الوطر ، وامتلأ من المغانم وادي سيله العرم ، وكان فتي الربيع قد أدرك ، وشيخ الشتاء قد هرم ، واندرج إلي رحمة الله المجيد السلطان السعيد ، الغزي الشهيد إيلدريم بايزيد ، وكان معه مكبلاً في قفص من الحديد . وإنما فعل ذلك تيمور قصاصاً ، كما فعله قيصر مع سابور . "

وتراه يعرض في ختام الكتاب خلال تيمور وطباعه في فصل بعنوان : " فصلٌ في صفات تيمور البديعة ، وماجُبِلَ عليه من سجيه وطبيعة ." لا يملك فيها علي الرغم من مقته لاعماله وجَبَروته إلاّ أن ينوه ببطولاته ، وجرأته في مغامراته ومعاركه ويمزج بين صورته وسريرته فيقول : " كان تيمور طويل النجاد ، رفيع العماد ، ذا قامة شاهقة ، كأنه من بقايا العمالقة ، عظيم الجبهة والرأس ، شديد القوة والبأس ، عجيب الكون ، أبيض اللون مشرباً بحمرة ،غير مشوب بسمرة ، مستكمل البنية ، مسترسل اللحية ، أعرج اليمنوين ، عيناه كشمعتين غير زهراوين ، جهير الصوت ، لا يهاب الموت ، قد ناهز الثمانين . كأنه صخرة صمَّاء لا يحب المزاح ولا الكذب ، ولا يستميله اللهو واللعب . يعجبه الصدق ، ولو كان فيه ما يسوءه ، لايجري في مجلسه شيءٌ من الكلام الفاحش ، ولا سفك دم ، ولا من سبي ونهب وغاره وهتك حُرَم . مقداما ، شجاعا ، مطاعاً . يحب الشجعان والأبطال ، ذا أفكار وهيبة ، وفراسات عجيبة ، وسعد فائق ، وجدٍّ موافق ، وعزم بالثبات ناطق ، ولدي الخطوب صادق ، محجاجاً ، دراكاً للححة واللمزة . مرتاضًا ، مستيقظا لرمزه . لا يَخْفَي عليه تلبيسُ مُلَبِّس ولا يتمشي عليه تدليسُ مُدلِّس ، يفرق بين الحقِّ والباطل بفراسته . ويدرك الناصح والغَاشَّ بدُربة درايته، ويكاد يهدي بأفكاره النجم الثاقب ، ويتتبع بآراء فراسته منهم كل كوكب صائب "

" .. وكان محباً للعلماء ، مقرباً للسادات والشرفاء ، فريد الطور ، بعيد الغور لا يُدْرَكُ لبحر تفكيره قعر ، ولا يسلك في طُور تدبيره سهلٌ ولاوعر . "

وهكذا يضع أمامنا ابن عربشاه في عجائب المقدور صورة فريدة لهذا الغازي الذي يعد من ابطال التاريخ وعتاته المعدودين ، تختلط فيه الحقيقة بالخيال ويتجمل فيها السرد بالعبارة الأنشائية ، ويكشف فيه المؤلف عن موقف الناس في عصره من هذا الرجل العجيب الذي ظهر واختفي كعاصفة الهوجاء تأكل ما في

طريقها ، وتهدأ ولكن يترك بعد موته الذكر المدوّي كما قال المتنبي :

وتركك في الدنيا دوياً كأنما   تداول سمعَ المرءِ أنمله العشر .

فاكهة الخلفاء، ومفاكهة الظرفاء (١):

وهو كتاب حكايات وطرائف ، من كتب الأسمار ، تجري علي ألسنة الحيوان والطير ، وقد اشتهر هذا اللون من الحكايات في الأدب العربي القديم والحديث منذ كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع .

وكان الكتاب يلجأون إلي هذا الضرب من الحكايات ، رمزاً ، وتجنباً للتصريح حتي لا يؤخذوا بأقوالهم زمن القهر فيما يعرضون به للحكام وأحوالهم . وقد يلجأ إليه بعض الصوفية تمشيا مع أساليبهم ، وهم يقرأون في كل نوع من الطير والحيوان ليغظوا الناسّ .

ويلجأُ ابن عربشاه في هذا الكتاب إلي حديث الطير والحيوان للغرض نفسه ، حيث كان عصره يشهد صراعًا بين السيف والقلم ، ويحكم رجال السيف علي رقاب العباد ، ويريد المؤلف أن يبدي رأيه الذي لا يصرح به في حكام عصره وأرباب السيف محترزاً ، من أن يؤخذ بجريرة اللسان ويمزج في أحاديثه وقصصه كعادة العصرين القرآن الكريم والحديث لنبوي ، والحكم والأمثال ، مدخلا ذلك كله في إطار يستلهم فيه قصة يوسف .

ومع ذلك فإنه لم ينج من بطش الحاكم كما نوهنا في تاريخ حياته وسيرته .

ومرزبان نامه (٢)

هو الكتاب الثالث الذي طبع من كتب ابن عربشاه ، والثاني في هذا اللون من القصص . وهو مترجم ككتاب كليلة ودمنة كتب ! أصلاً بالغة الطبرية (طبرستان) ثم ترجم إلي الفارسية ونقله ابن عربشاه إلي العربية .

---

(١) طبع طبعة حديثه ونشر بدار سعاد الصباح سنة ١٩٩٧ وكان قد طبع طبعة غير محققة سنة ١٣٢٥ هـ بالطبعة اليمنية .

(٢) طبع دار الانتشار العربي - بيروت - لبنان سنة ١٩٩٧

ونامه بالفارسية كتاب ، ومرزبان اسم لأمير من أمراء طبرستان ، وأحد أبناء أربعة لملك من ملوكهم ، أعلن ثلاثة من الإخوة عصيانهم لأبيهم الملك وظل هو علي ولائه لأبيه إلاّ أنه اعتزل ، وانصرف عن الحياة والناس إلي العلم والتأليف .

والكتاب يشمل حكايات تعليمية ، تهذيبية ، علي لسان الحيوان والطير والجان . ويرجع تاريخه إلي أواخر القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ولم يترجم ابن عربشاه الكتاب ترجمة حرفية ، بل تصرف في النص ، فأضاف إليه بعض الأشعار العربية ، والأحاديث النبوية . وعمد إلي السجع علي طريقته . يقول في مقدمته : " الحمد لله الذي شهدت الكائنات بوجوده ، وشمل جميع الموجودات بعميم كرمه وجوده . ونطقت الكائنات بقدرته ، وأعربت العَجمُ بحكمته ، وتخاطبت الحيوانات بلطائف صنعته ، وتناغت الأطيار بتوحيده ،وتلاغت وحوش القفار بتغريده . كل باذلٌ جهده ، وإنْ من شيء إلا يسبح بحمده . دلَّ العالَمُ بظاهره وخافيه ، والمكان ومن فيه ، والزمان وما يحويه من شاكر وحامد ، ومشهود وشاهد علي أنه إله واحد ، منزَّه عن الشريك والمضاد ، مقدسٌ عن الزَّوج والولد والوالد ، مبرأ عن العناد والمعاند ، منزهٍ عـن الزوجة والولد . هو الله الأحد . . أما بعد فإن الله تعالي أودع في كل ذرَّة من مخلوقاته من الحكم والعبر مالا تدركه عقول البلغا ، ولا يحيط به فهم الأذكياء ، لكن بعض الحكم والعبر ظاهرة يدركها كل أحد . قال تعالي (وفي الأرض آياتٌ للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون) . وقال تعالي (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) .

وقال تعالي :(إن في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينْفَعُ النَّاسَ ، وما أنْزلَ اللّهُ من ماءٍ فأحْيَي به الأرض بعد مَوْتها ، وبثَّ فيها من كلِّ دابةٍ وتصريف الرياح والسَّحاب المسّخر بين السماء والأرض لآياتٌ لقَوْمٍ يعقلوُن) . وفي ذلك قيل :

فيا عجباً كيفَ يعصي الإلهُ	أم كيف يجحدهُ الجاحدُ
وفي كـلِّ شيءٍ لـه آيــةٌ	تـدلُّ علي أنه واحــدُ

ولكن لماَ كثرت الآيات والحكم ، وترادفت هذه العجائب والعبر اعتادت النفوسُ بها وألفتها ، فلم تتدبر في حكمها ومعانيها ، ولا فيما دلّت عليه من عجائب ما

فيها . ولم تنظر إلي حسن مواقعها وعظم منافعها ، وكثرت في التنبيه علي ذلك أقوال الحُكَمَاء ، وتكررت مقالات العلما ، فلم تُصغ الأسماع إليها ، فقصدت طائفة " من الأذكياء وجماعة من العقلاء إبرار شيء من ذلك علي ألسنة الوحوش والبهائم ، وسائر الطيور والسباع لتميل النفوس إليها ، لأن البهائم والوحوش غير معتادة بشيء من الحكم ، بل ولا النطق والقولُ ، فإذا أُسْنِدَ إليها شيءٌ من ذلك مالت إليه القصص لغرابته ، ورغبت في سماعه وتلقُّنه بالإصغاء والقبول ، فربما تنبهَّت لذلك لإصلاح أمور معاشها ومعادها ، وتفكرتَ في أحوالَ دينها ودنياها لاسيما الملوك والأمراء وأرباب الدول والرفاهية والتنعُّم ، فإنهم إذا سمعوا قول القائل سكر الدب ، وصدق الأسد ، وأنشد الذئب ، ورقصت الغزالة ، وطرب القنفذ وتصادق القط والفأر وحن الذئب علي الخروف وعانق الأسد الجمل وحمل الباز علي رقبته الحمامة ارتاحت أنفسهم وانشرحت صدورهم ، وزادت لذة عيشهم . ولكن أهل السعادة منهم والمنتبهون ومن هو مقصود لفصل الخصومات ، وخلاص المظلومين من الظالمين إذا كانوا في الحكم والعبر ولطائف الغزل والسير الحسنة المسندة إلي ما لا يعقل وهم ممن يعقل يزدادون بذلك بصيرة فتتوفر مسراتهم وتتضاعف لذاتهم ، فربما تفكروا في أنفسهم أن مثل هذه الحيوانات مع أنها غير مكلفة إذا فعلت هذه الأمور الغريبة والقضايا الحسنة العجيبة فنحن أولي بذلك . وقد ورد في الكتاب العزيز مما فيه الاعتبار لأصحاب العقول علي ألسنة غير العاقل آيات كثيرة كقوله تعالي:

(إنا عرضنا الامانة علي السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) . وقال تعالي : (ثم استوي إلي السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أيتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتيتا طائعين) .وقوله تعالي : (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر) الآية ، وقوله تعالي : (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) وقد وضع في ذلك كتاب يسمي بمرزبان نامة مترجم باللسان التركي عن الفارسي فأشار إلي المخدوم الذي لا يمكنني مخالفته أن أترجمه باللسان العربي فامتثلت أمره وترجمته وقد جعله واضعه ثمانية أبواب : الباب الأول في تسميته وسبب وضعه ، الباب الثاني في ذكر العالم والعفريت ، الباب الثالث في ذكر أحوال الثعلبين ، الباب الرابع في ذكر الكلب المسمي بالذكي

والعتر الباب الخامس في ذكر السبع وسلطان الأفيال ، الباب السادس في ذكر وقائع الجمل والأسد ، الباب السابع في ذكر العقاب و لحجلتين ، الباب الثامن في معاملة الأحباب .

الباب الأول
في سبب
تسمية الكتاب

روي أن واضع هذا الكتاب ملك من ملوك الفرس اسمه مرزبان بن شروين ، وهو من أولاد كيكاوس وهو أخو أنوشروان الملك العادل وكان متولياً طبرستان ولما توفي انتقل الملك إلي أولاده إلي أن استقر فيه شروين فلما توفي خلّف من الذكور خمسة أنفار كل منهم صالح للسلطنة فاستولي علي الملك بعد، أكبر أولاده .

وكان مرزبان واضع هذا الكتاب هو أصغرهم فاستمر الاخوة الأربعة في خدمة أخيهم الأكبر مدة ، ثم إنه حصل في خواطر الأخوة مما يخطر ببال الناس من المخالفة فخاف مرزبان من ذلك علي نفسه وأنه لا يستطيع أن يكون في جهة أحد منهم إذ كل منهم أخوه . وكان في الفضل والتدبير وحُسن السياسة والتأمل في العواقب متميزاً علي أقرانه واخوانه ففكر في عواقب ما عزم عليه اخوته من العصيان فأراه اجتهاده إلي أن يتوجه إلي جهة من جهات المملكة وينحاز عن دائرة ما يقع بين اخونه من المخالفة والمناكدة بينهم وبين أخيهم الملك حتي لا ينسب إليه شيء من ذلك ويسلم من تلك الكدورات ، فتشاور فيما عزم عليه مع طائفة من الأذكياء وجماعة من الفصحاء فاستصوبوا رأيه إلا أنهم التمسوا منه أن يضع لهم كتاباً يشتمل علي أنواع الحكمة واللطائف التي تتهذب بها النفس وتتوفر بها مكارم الأخلاق ويكون عوناً علي اكتساب مصالح المعاش والمعاد ويدل علي فضائله وغزارة حكمته وعلمه فاستصوب ما أشاروا به عليه ثم رأي عرض ما وقع من هذه الأمور علي أخيه الأكبر فوقف في مقام الخدمة وذكر له ذلك بعبارة لائقة وانتظر ما يرسم به ليمتثله فتوقف في جوابه وتأمل في خطابه وصرفه .

ثم إن الملك استشار في ذلك أحد وزرائه وكان بينه وبين مرزبان بعض شرور وعداوة فاغتنم الفرصة وقال : أما ما طلبه مرزبان من العزلة فإنه رأي فاسد وقد قيل في المثل : الأعدا كلما قلوا ذلوا وقد قيل :

وليس كثير اللف خلّ وصاحبٌ   وأن عدواً واحداً لكثير

فكيف لوكانت الأعدا كثيرة وإذا نقص أعداء الملك واحداً فنعمة طائلة ويتوصل منهم إلي تشتيت أمرهم ومخالفة أقوالهم ورأيهم وقد قيل في ذلك ·

وتشتت الأعداء في آرائهـــــم   سبب لجمع خواطر الأحباب

وأما ما قصده من وضع كتاب يشتمل علي فوائد وحكم فكر وخديعة فإنه إنما يريد به إظهار فضله علي مولانا الملك ويستميل بذلك الرعية ويصرف وجوههم إليه ، ولكن مولانا الملك لا يمنعه من ذلك ويرسم لي أن أكون حاضراً وناظراً لما يبديه من المسائل والنصايح لينظر الملك كيف أظهر دسائسه وأبين طرائق مكره وخداعه وأكشف زيفه في نقده ويطلع الملك علي ما تصل خديعته وما تنتهي إليه درايته · ثم إن الملك جمع أركان دولته من الفضلاء والعلماء من أطراف مملكته وجلس في محل عظيم وجمع كثير ودعا أخاه مرزبان وبالغ في إكرامه وقال : يا أخي كان تقدم منك طلب الإذن في تأليف شيء ينتفع به العام والخاص من الحكم والأمثال والنصيحة ويتخلد به الذكر ويبقي مستمراً علي مر الدهور وذلك لوفور فضلك ورجاحة عقلك ومزيد شفقتك علي الرعية فأحببت أن يكون ذلك بحضرة العلماء ومجمع من الأكابر والفضلاء وأرباب الدولة والمناصب ليأخذ كل واحد منهم نصيبه وتتوفر العائدة وتعم الفائدة ، وقد أذنّا لك في الكلام فقل ما بدا لك والسلام ·

فقال مرزبان : يا مولانا الملك حيث أنعمت بالإذن في الكلام فأتم ذلك بحسن الاصغا فإن حسن الإصغا هو الدرجة الثانية وذلك أن حسن الأداء هو المرتبة الأولي وحسن الأصغا هو الدرجة الثانية والستفادة هي الغاية القصوي والدرجة الثالثة ، ثم إعلم أيها الملك أن النصيحة خير والنفس مائلة إلي الشر فبينهما تنافر من أصل الخلقة فالسعيد من تفكر في معاني الحكم وتأمل في عواقب الأمور وتلقي الأشياء من طرق الاعتبار وقد قيل :

إذا لم يعن قول النصيح قبول   فإن معاريض الكلام فضول

ثم إعلم يا ملك الزمان أن أفضل شيء تركب في وجود الإنسان وحسَّن جوهرهُ

وزان عقد تركيبه العقل وأشرف خصله تتوج بها العقل الخلق الحسن ولأجل هذا قال الله تعالي لأشرف مخلوقاته صلي الله عليه وسلم : (وإنك لعلي خلق عظيم) وبالخلق الحسن ينال الذكر الجميل في الدنيا والآخرة . وأشرف الموجودات من الخلائق الإنسان وأفضل جنس الإنسان بعد الأنبياء عليهم السلام الملوك ، وإذا كان الملك حسن الخلق كان في الدرجة العليا من الكمال ، ومن جمله حسن الخلق العدل والشفقة علي الرعية وإذا صلح السلطان وحسن خلقه صلحت الرعية طوعاً أو كرهاً لأن الناس علي دين ملوكهم . ثم إعلم أن أقبح عادة للملك الخفة والطيش وعدم الثبات لأن الرجل الخفيف لا يقدر علي تدبير الأمور الجليلة ولا الدخول في القضايا الشاقة ولا يستطيع أن يصل إلي الرياسة ولا يمكنه أن يتحمل فصل الخصومات ، فإن هذه الأشياء تحتاج إلي رجل يكون كالجبل في السكون والوقار أو كالبحر الهائج في الحركات ، ثم إعلم أيها الملك أن مما ينبغي أن يتجنبه الملك الإسراف والتبذير فإن الملك حافظ لدماء المسلمين وأموالهم والمال الذي في يده هو لهم وإنما هو مرصد تحت يده ، كما لا ينبغي أن يتصرف بالتبذير في مال نفسه كذلك يجب عليه أن يذبّ به عنهم وأن لا يسرف في أموالهم ومصداق ذلك قوله تعالي : (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) وينبغي بل يجب علي الملك أن لا يأمر بشيء إلاّ بعد التأمل والتروي لأن أمر السلطان بمنزلة القضاء النازل من السماء لا يرد وإن أمر الملك من غير تأمل وتدبير يشبه السهم الخارج من كبد القوس بل يشبه سهام القضاء والقدر لا يمنع منه ترس أو حذر ولا يمنعه خوف أوحيلة ، كذلك سهم الموت لا يرده شيء ولكن ربما أدي في أواخره إذا لم يتدبر في أوائله إلي الندامة . وإعلم أيضا أيها الملك أنه يجب علي الملك أن يصغي إلي نصيحة تشرف مولانا السلطان لا بأصله الزكي ومقامة الرفيع ولا بهمته العلية فإنه لا يميل إلاّ إلي التخلق بما كان عليه السلف الصالح والملوك الكرام كما قيل :

وإن الظلم أقبح كل قبح ... وأقبح ما يكون من البَلِيَّةْ

وقد قيل أيضاً :

ولم أر في عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين علي التمام

فما وسعني إلاّ الانحياز إلي العزلة والتعلق بذيل الانفراد والوحدة وما أمكن أن أفعل شيئا برأيي ولا أعترض علي آراء مولانا السلطان ولا أفاتحه في شيء من ذلك فإنه قد قيل في بعض النصائح : لا تخاطب الملوك فيما لا يسألونك ولا تقدم

علي مـا لا يأمرونك ، إذا تركوك ، فلمـا أذن لي في الكلام قُلْتُ قطرة من بحر وقمت ببعض مـا يجب علي سـائر الناصحين من طريق واحد ووجب عليَّ من طرق متعددة أقواها حق الأخوة التي هي أقوي الوسائل وأعظم الصلات فإنه قد قيل السبب الذي لا يقطعه سيف حبل القرابة والبنيان الذي لا يهدمه مر الزمان أساس الأخوة . قال الله تعالي (سنشد عضدك بأخيك) وقال القائل :

أخاك أخاك إن من لا أخاً له كساعٍ إلي الهيجا بغير سلاح

وناهيك بحكاية اقالوها عن الضحاك . فقال له السلطان : كيف تلك الحكاية أخبرنا بها فقال مرزبان : ذكر المؤرخون أن الضحاك كان من أحسن الناس سيرة وعدلاً فتزيّا له إبليس في زي طباخ وصار كل يوم يهيىء له من لذيذ الأطعمة ما يعجز عنه ولا يأخذ علي ذلك أجرة ، واستمر علي ذلك مدة إلي أن قال له الضحاك في بعض الأيام أيها الطباخ إن لك عليَّ حقوقاً أريد أن أكافئك ببعض فتمنَّ عليَّ قال : تمنيت عليك أن تكشف لي عن ظهرك فأقبل لوح الذي جرّب منه الصدق والمودة وعلم منه محض النصيحة ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها فإن الناصح المشفق مثل الحكيم الحاذق إذا اشتكي إليه المريض مرارة فمه فإنه يصف له دواءً مراً فإنه ما وصف له الدواء المر إلاّ ليعيد بشربه حلاوة فمه ولا يستحقر النصيحة ولا الناصح ، فإن سليمان عليه السلام من أجلّ سادة الأنبياء المرسلين عليهم السلام وهو أحد من ملَكَ الدنيا وحكم علي الجن والإنس والطير والوحش والريح ، استشار نملة حقيرة فنجح في أمره ولما خالف وزيره آصف بن برخيا في قضيته ابتلاه الله تعالي بَعْدُ وسلب ملكه حتي صار أجير السماك علي ما قيل ثم قال : يا مولانا الملك وأنا لما رأيت أمور الملك قد وقع فيها اختلال بواسطة إهمال المباشرين لمصالح الرعية واستطالتهم علي الفقير ومد أيديهم إلي أموال الناس بالباطل وخروجهم عن دائرة العدل وعدم الالتفات إلي المستحقين وتولت المناصب غير أهلها بحيث وقع الاختلال في أمور المملكة وتطاول الغير إلي البغْيِ والفساد ورأيت هذا لا يليق بُملكك فأجابه إلي ذلك وكشف عن ظهره فقبله وغاب عن عينيه فأخذته حكة ولدغ ثم خرَج من موضع تقبله حبتان فطلب الأطباء لذلك فعجزوا عن علاجه ثم لم يروا لسكون لدغته إلاّ دماغ الإنسان فأمر بإلقاء القرعة قبضوا وقتلوه وأخذوا دماغه وعالجوا به الألم فسكن ، ففي بعض الأيام وقعت القرعة علي ثلاثة أنفار فوضعهم بالسجن ليجري عليهم ما جري علي أمثالهم ، فجاءت الضحاك امرأة هي زوجة أحدهم وأم الأخر وأخت الثالث وتظلمت فخيرها بين أحد الثلاثة

فتقدمت إلي الحبس فرأت زوجها فذكرت ما جري بينهما من لذيذ العيش وطيب الأوقات وتحريك الشهوة النفسانية فهمت بطلبه فوقع نظرها علي ابنها فرأت صباحة وجهه وتذكرت تربيتها إياه وحمله في بطنها وإرضاعها له فتعطفت عليه فقصدت أخذه فوقع بصرها علي أخيها فرأته ودموعه تتساقط لأنه يعلم أنها لا تعدل عن زوجها فتفكرت طويلاً ثم قالت : أختار أخي فبلغ الضحاك ذلك فدعاها وسألها عن سبب ترجيح اختيارها أخاها دون غيره فقالت : تذكرت زوجي وطيب عشرته فهممت باختياره ثم رأيت ابني فحنت عليه جوارحي وتذكرت ما مضي من الحمل والولادة والتربية فهممت باختياره ، ثم رأيت أخي فأخذتني الفكرة وقلت أنا شابة أتزوج غير زوجي ويولد لي غير ولدي ففيهما بدل وعوض وأما الأخ فليس عنه بدل ولا عوض وذلك أن أبوينا ماتا ولا يمكن تعويضه فاخترته فاستحسن الضحاك منها ذلك ووهبها الثلاثة ثم قال مرزبان : وما أوردت هذه الحكاية إلاّ ليعلم مولانا الملك أن لي عن كل شيء بدلاً وعوضاً ولكن ما لي عن مولانا الملك من بدل ولا عوض إلاّ بقاء ذاته النَّفيسَة ودوام حياته العزيزة وأخاف والعياذ بالله تعالي من الفتن التي أقبلت أن تستأصل أسلافنا الكرام وتقرض عقب أجدادنا والسلام ، فاخترت العزلة لذلك وآثرت الوحدة هنالك فقال الملك : قلت الصواب ونصحت فأبلغت في الخطاب ، وأنا أتحقق حسن نيتك وخلوص طويتك وصدق وفائك وحسن التجائك ، ولكن أريد أن يقع بيني وبين هذا الوزير المشفق محاورة ، ويقع فيما أنت بصدده بحث ومشاورة فإن كلاً منكما ناصح مشفق وحكيم مدقق وعالم محقق وفاضل مونق وفي مثل هذه الأشياء كلما طال التفتيش ودق البحث وظهر الحق واتضح الصدق لا سيما إذا كان الكلام بين عالمين والسؤال والجواب من فاضلين كاملين .

فقال مرزبان : يا مولانا الملك إذا قام الإنسان في صدر المعارضة وترقي في البحث إلي المعاكسة والمناقضة لا سيما إن كان من أهل الفصاحة واللسان ومساعدة الإدراك الحسن لا يعجز عن أن يقابل الإيجاب بالسلب والاستقامة بالقلب والعكس بالطرد والقبول بالرد ، ويكفي في جواب المتكلم إذا أورد مسألة لا نسلم ولكن قد قيل في الأمثال لا تشفع الشفاعة باللجاج ولا النصيحة بالالتجاج ، وأما أنا فقد بذلت جهدي في أداء النصيحة وكشفت عن أركان التحقيق حجب الأستار فإن وقع

نصحي في محل القبول فقد تبين الرشد من الغي وإن رددت كلامي وأعرضت عن العمل به فلا إكراه في الدين .

فتصدي الوزير للكلام وكشف عن ثغر بيانه اللثام وبرز في ميدان الملاينة والمخادعة وسلك طريق الملاطفة و المصانعة وقال الحمد لله الذي منّ علي مولانا الملك بهذا الأخ الحكيم الفاضل ، العليم الناظر في العواقب صاحب الرأي المصيب والفكر الثاقب . لقد بالغ في النصيحة بعباراته المليحة وإشاراته الصحيحة ، الدالة منه علي سلامة القريحة فكل شيء نهاه هو الذي يقتضية الفعل القويم والمنهج المستقيم ويترتب عليه الذكر الجميل وآثار الثواب الجليل ، ولكن الذي نعرفه نحن في حفظ الرياسة وإقامة قانون السياسة هو الذي عليه الناس في هذا اليوم وجرت عليه عوائد الأكابر والأصاغر فإن الزمان قد فسد والخير والفضل فيه قد كسد ، وهذا مقتضي الحال بين أبناء الزمان والناس تدور مع زمانهم بقدر إمكانهم وقد قيل : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم وبعض السياسات تقتضي العقوبة بالتغريم وأخذ المال ولو عفا الإنسان عن مجرم طمع المجرمون فيه وكان كمن عاقب من لا ذنب له فإن وضع الأشياء في محلها هو أحد قوانين الشرع والسياسة وقد قيل :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه　　　يهدَّم ومن لا يظلم الناس يُظلم

لا يسلمُ الشَّرفُ الرفيُع من الأذَي　　　حتي يُراقَ علي جوانبـِه الدَّمُ

وقد قيل رُبَّ إراقة دم تمنع من إراقة دم وقد قيل :

لعل عتبك محمود عواقبــه　　　وربما صحت الأجساد بالعلل

ومصدق هذا الكلام قوله تعالي : (ولكم فيي القصاص حياة يا أولي الألباب) . وقال قابوس بن وشمكير لما قبض أركان دولته عليه وأرسلوه إليه وهو في السجن من يقتله فقال : ما سبب قيام أهل مملكتي عليَّ مع إحساني إليهم وتربيتي إياهم قالوا : كثرة إراقتك الدماء هو الذي أوجب تغيير خواطرهم عليك ، فقال : لا والله وإنما سبب ذلك قلة إراقتي الدماء يعني لو أراق دماء القائمين عليه لما قبض عليه ولكن لما أهملهم قبضوا عليه وجري لهم ما جري ، ثم إعلم أيها الحكيم الفاضل أن مزاج الزمان قد فسد وقد أعراضوا عن طاعة السلطان إلي مخادعة الشيطان وكل منهم قد باض الفساد في دماغه وفرخ وتصور بخيالاته الفاسدة ومجالاته الكاسدة أنه بصير إلي ما يطلب ويبلغ ما يريد وهيهات كما قيل:

لقد هزلت حتي بدا من هزالها　　　كلاها وسامها كل مفلس

وهذا لأنهم كما قال الله تعالي : في حقهم : (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غرورا) ولم يشعروا أن السلاطين هم ممن اختارهم الله سبحانه وتعالي للقيام بأمور عباده فهم في الحقيقة ملحوظون بعنايته وكما أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم صفوة الله تعالي من خلقه من غير كد منهم ولا سعي في تحصيل الرسالة صدر عنهم ، وإنما محض منحة من الله تعالي كذلك الملوك والسلاطين هم صفوة الله تعالي من خلقه اختارهم لأن يكونوا خلفاء في أرضه وقد غفل أهل هذا الإقليم والممالك عن إدراك هذه الحقائق وعدوا المكر والخداع من جملة العقل والكياسة والتحيل علي أقوال الناس ومظالم الناس من الفطنة والذكاء وتملقهم للسلاطين . فمن أسباب الوصول إلي الأغراض من تحسين الظاهر وتزيين ما يراه الناس ، وقلوبهم كقلوب الذئاب فلأجل هذا سلطنا الله عليهم نعاملهم بما تقتضية السياسة السلطانية .

فقال مرزبان : إعلم أيها الوزير الناصح والشفوق الصالح أن الملك بمنزلة الشمس المشرقة والرعية بمنزلة السراج وإذا تلألأت أشعة الشمس المشرقة علي صفحات الأكوان فأي نور يبقي للسراج ، وأن قلوب الرعايا تضئ ومن ضياء أشعة قلوب الملوك فإذا صفت مرآة قلب الملك أشرقت قلوب الرعية بل والزمان والمكان كما قيل إذا تغير السلطان تغير الزمان وقد ذكر المؤرخون في قضايا الملك بهرام جور أنه في بعض الأوقات عزم علي الصيد وخرج في عسكره فبينما هم في البرية وكل من الجند قد توجه إلي صيدة إذ غيمت الدنيا وانطبقت الآفاق بالغيوم واستترت الشمس في النقاب وأرسلت عيون السحاب ومعها المدرار وجنات تجري من تحتها الأنهار وأقبلت السيول تجري في مضمارها كالخيول . فتشتتت الخيول والعساكر عن بهرام فقصد قرية من القري ونزل طالبا القري منفردا من عسكره مخفيا سر خبره فاتفق نزوله في بيت رئيس القرية ولم يشعر به الرئيس فلم يقم بواجبه فتنكد لذلك خاطره وتغيرت نيته ولكن لم يظهر أثر ذلك فلما أمسوا أقبل الراعي بالمواشي وذكر للرئيس أن حليب المواشي نقص عن عادته مع أن رعيها كان أحسن من كل يوم فتعجب من ذلك وكان للرئيس بنت تسجد الأقمار لحدودها وتنقصف الأغصان إذا ماست في الرياض عند وردها ، فلما سمعت كلام الراعي قالت : والله ما يكون سبب ذلك إلا أن خاطر سلطاننا تغير علينا فظهر لذلك النقص في

حلب مواشينا وقد قيل إذا هم الحاكم بالجور علي الرعايا أدخل الله تعالي النقص في أموالهم حتي الزرع فقال الرئيس إذا كان كذلك فلا مقام لنا في هذه القرية والأولي أن نرتحل منها إلي مكان نستريح في ظل حاكمه فقالت البنت : إن كان ولابد من الارتحال فالأولي أن نتكلف لهذا الضيف بما عندنا فإنا لانقدر علي نقل جميع ما عندنا فيحصل فيه فائدتان القيام بحق الضيف ويطيب خاطره والثانية يخف الحمل فقال الرئيس : نعم هذا الكلام وأظهر البشاشة وصنع الأطعمة المفتخرة وقدمها للضيف فأكل ثم شرع في تجهيز الشراب والطعام ، وأخذ من بهرام النشاط و ارتفعت أسباب الحشمة ، وتاقت نفسه إلي ماكانت معتادة من مغازلة الغزلان وسماع القينات ، فقال للرئيس : هل عندك من يطربنا بصوته أو يعجبنا بصورته من وصيفة أوصورة لطيفة ولانطلب زيادة علي النظر وحسن المنادمة إلي السحر لتزول عنا وحشة الاغتراب ودهشة الاضطراب وقد قيل الشرب بغير نغم غم وبدون طرب همّ ، ثم نهض الرئيس إلي حريمة وقال لابنته ما جري بينه وبين ضيفه وقال : يابنيه أظن ضيفنا من الأكابر والأعيان وقد التمس منا شيئا يلهيه بمنادمته وليس عندنا من يليق لذلك سواك وأنا أعرف عفتك ونزاهتك وحسن محاضرتك ومحاورتك فإن رأيت أن تمتعيه بالنظر إلي حسن صورتك وجمالك ثم تعودي إلي مكانك مفتخرة بين أهلك وناسك فلا عار عليك والأمر مفوض إليك ، فأجابت أباها وأقبلت إلي الضيف وهي من قدها ولحظها تلعب معه كالرمح والسيف إلي أن صادته بلحظها المكسور وأمسي قلبه وهو في يدها مأسور فأنشأ يقول :

أري ماءً وبي عطش شديد ولكن لاسبيل إلي الورود

فأضمر بهرام في نفسه أنه إذا رجع إلي محل ولايته يطلب هذا الرئيس ويصاهره علي هذه الكريمة ويعطيه هذه القرية مع أمثالها فما استتم هذا الخاطر حتي جاء الراعي وقال للرئيس: إن الغنم قد فاضت ضروعها حتي صارت تشخب علي الأرض وقد ملأنا باللبن جميع ما كان عندنا من الأوعية ولم نجد لذلك موضعا . فقالت البنت لاشك أن نية الملك انصلحت في حقنا حتي أعاد الله تعالي الخير علينا فتعجب بهرام من ذلك إذ بلغه ، فلما أصبح توجه إلي محل ولايته وأرسل إلي ذلك الرئيس وأمضي ما كان نواه وعقد علي بنته واقطعه النواحي والقري وأعطاه ما تمني ثم قال مرزبان : إنما أوردت هذه الحكاية لتعلموا أن الزمان وإذا لم يكن الملك علي

الرعية باراً ولا عليهم شفوقاً ولامتجاوزاً عن مسيئهم ومقبلاً على محسنهم فالأولي لهم أن يهاجروا من بلادهم ويخرجوا من مملكته قال الله تعالي لنبيه عليه الصلاة والسلام : (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وينبغي أن لايواخذ أحد بجريمة أحد قال الله تعالي : (ولا تزر وازرة وزر أخري) ولو طولب بذلك أحد لفسدت المملكة واضطربت الرعية واختل نظام الملك ولو فعل ذلك من تقدم من الملوك لما بقي للمتأخرين شئ وخرجت الدنيا من أول الأمر وينبغي لمن باشر أمر الرعية أن يكون شديد الفكر والرأي صدوق القول متفكرا في العواقب عادلاً بين الخاص والعام شفوقاً علي اليتيم ثابتاً في النوازل مشغولا بتهذيب نفسه واضعاً الأشياء في محلها مقيما كل أحد في محله ومنصبه ومقامه لايتعداه حتي تَسْتقيمَ بذلك الأمور والمملكة وقضايا السلطنة ويطمئن بذلك خاطر الملك الذي هو في خدمته ويتمشي أمره عنده، وينبغي للملك أن يكون كريم الأعراق لطيف الأخلاق في جميع أحواله وينبغي أن يراعي أساس ما بناه آباؤه وأجداده إن كانوا ملوكاً فإن كل من لايراعي عادات أسلافه وأخلاق أجداده وصنائع آبائه يصيبه ما أصاب الذئب الذي أحب أن يتعشي علي غناء الجدى المغني. فقال الملك : كيف كانت تلك الواقعة ؟ بيّنها لنا .

فقال الحكيم مرزبان : بلغني من رواة الأخبار أن ذئباً كان له إقامة في بعض الغياض خرج يوماً في طلب صيد يسد به رمقه فقصد المواضع التي كان يتوقع فيها الصيد فلم يتفق له شئ فرجع وقد أثّر فيه الجوع والتعب فوجد بعض الرعيان يسوق غنماً حوالي فتعلقت أطماعه بها فأراد الهجوم عليها لكن رأي الراعي مستيقظاً فجعل يراقب الفرصة ويحوم من بعيد إلي أن أمسي وساق الراعي الماشية إلي مرابضها ما عدا جدياً تخلّف منها فأدركة الذئب واستبشر بالفتح والظفر فلما عاين الجدي الذئب علم أنه لاشك واقع في مخالب الهلاك ، ففكر في نجاة نفسه وقال : لاينجيني من هذه البليَّة إلا حسن الحيله فتقدم بجأش قوي وقلب ثابت وقبّل الأرض بين يدي الذئب وقال له إن الراعي أرسلني إليك وهو يسلم عليك ويقول لك إن غنمه قد حصل لها الشبع والري ببركة جوارك وتركك عادة آبائك وأجدادك في التعرض له ولغنمه فأراد مكافأتَك فأرسلني إليك وأوصاني أن أغني لك قبل أن تأكلني فإني حَسَنُ الصوت والغناء وصوتي يشتهي فإن اقتضي رأيك ذلك غنيت لك غناء يطربك وأسمعتك شيئاً لم تسمعه آباؤك وأسلافك ويزيد في لذة أكلك ، فقال الذئب

: لابأس بذلك ، تغني لي حتي أسمع صوتك فاغتنَمَ الجدي الفرصة ورفع صوته حتي ملأ الوادي عياطاً فطرب الذئب وقال : هات صوتاً آخر حجازاً فصرخ الجدي صرخة أسمع بها الحجاز والعراق فسمعه الراعي فأسرع نحوه بالمطرق فلم يشعر الذئب إلاّ والراعي قد لحقه فرأى الأولي رواحه بالسلامة ونجاة نفسه وترك الجدي وانقلب وصعد علي رأس تل وجعل يلوم نفسه ويقول : يا قليل العقل متي كانت آباؤك و أجدادك يأكلون وعلي سماطهم المغني ، ولولا أنك عدلت عن طريق آبائك وأسلافك ما فاتك صيدك ولاجلست جائعاً كما قيل :

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتي إذا فات أمرٌ عاتبَ القدرا

وإنما أوردت هذا المثل والحكاية ليعلم أن العدول عن طريق الآباء ليس بمحمود . وقد قيل : من يشبه أباه فما ظلم خصوصا الملوك والسلاطين لئلا يدخل الخلل في قواعد المملكة والسلطنة ، فكل هذا من عدم التدبير في العواقب . وكل من لم يتدبر في عواقب أمره يصيبه ما أصاب ابن آوي مع الحمار فقال الملك : صفة لنا فقال : إنه كان في جوار بعض البساتين لابن آوي وكر فكان يدخل كل يوم من مجري الماء ويعبث في البساتين كيف ما اختار ويأكل من الأعشاب وطيب الفواكه ما أراد إلي أن عجز عنه البستاني فكان يرقب منه الفرصة . ففي بعض الأيام أحسَّ به البستاني وهو في البستان يأكل الفواكه فبادر إلي مجري الماء فسده عليه ثم أقبل عليه بعصا وأثخنه ضرباً إلي أن كاد يهلك فطرح نفسه فحسبه قد مات فشحطه بذنبه ورماه خارج الحائط وفيه أدني رمق فاستمر ملقي حتي تراجعت إليه نفسه فلما أفاق فكر في نفسه وكره المقام في ذلك الموضع وقال : إذا كان هذا الجار القديم لم يرع حق الجوار فلا فائدة لي بعد اليوم في جواره والرأي أن أرتحل مادام لي قدرة علي الرحيل فإنه لو عرف أن فيَّ حياة ما أمهلني . ثم فكر إلي أين يرتحل وكان في بعض الغياض ذئب هو لأبيه صاحب قديم فقصده فلما رآه سلم عليه وتعرف بصحبه أبيه إليه فتلقاه بالترحيب وسأله عن أحواله فبكي بالأشواق وتذكر أنكاد الزمان وذكر له أحواله من أولها إلي آخرها فسكن الذئب ما به وأنشد:

أحيا بكم الإله وأحياكم ولا عدا الوابل مغناكم

فما رأينا بعدكم منظراً مستحسناً إلا ذكرناكم

ثم إن الذئب أراد أن يضيفه شيئا وليس عنده ما يقدمه إليه فاستعد للصيد وعزم علي التوجه وقال يتبع الفتي لؤم إذا أجاع ضيفه فسأله ابن آوي عن سبب حركته فأخبره بذلك فقال ابن آوي إن لي قريباً من هذا المكان حماراً بيني وبينه صداقة ولو تحيلت عليه وجئت به لكان لنا ذخيرة عدة أيام فإذا اقتضي رأيك ذهبت إليه فقال الذئب نعم هذا عين المصلحة فافْعلْ ما بدا لك . وتوجه ابن آوي إلي بعض الجهات فوصل إلي طاحون وإذا بحمار أو سقوه حملاً قد قصم ظهره فطرحوا الحمل عنه وأرسلوه يرعي فتقدم إليه ابن آوي وسلم عليه سلام معرفة وأظهر له التودد وسأله عن خاله وتوجع له مما يقاسيه ويعانيه من جفاء بني آدم والأحمال الثقيلة وأخذ يلومه علي الصبر علي ذلك وقال إلي متي تبقي علي هذا الذل وتقاسي الجوع والعطش وتذوب تحت الحمل الثقيل كما قيل شعر :

ولا يقيم علي ضيم يراد بـــــه   إلاّ الأذلاّن غير الحي والوتد

هذا علي الخسف مربوط برمته   وذا يشج فلا يرثي له أحـد

فقال : ياأخي لو لقيت لي ملجأ أو مهرباً أو مكاناً اختفي فيه كنت أويت إليه وتخلصت من هذا العناء العظيم والشقاء الجسيم فقال له ابن آوي : أنا عرف في هذا القرب أجمة تفرح رياضها وتزهر غياضها وأنا ساكن فيها وهي آمنة من الوحوش والسباع حصينة من الأذي والشرور فإذا اقتضي رأيك ذهبت بك إليها فإن أعجبتك سكنتك فيها وكفيت مني من أحسن الجوار ما تحمد عاقبته وتعيش باقي العمر في عيش وحياة هنيئة ويستأنس كل منا بالآخر ومن أين نجد رفيقاً مثلك وصاحباً هنيئاً نظيرك ؟ فلما سمع الحمار هذا الكلام أثر فيه ورغب في الخلاص من السَّقَاءُ الذي قد آلمه فسلم زمامه إلي ابن آوي وعجلا في المسير لئلا يشعر بهما أحد فصار الحمار يعدو وابن آوي لا يلحقه فتعب ابن آوي فعكس المسألة وقال للحمار اصبر يا أخي حتي أحملك وأسير بك لئلا يلحقنا أحد فقال الحمار : أنت ما يمكنك أن تحملني ولكن أنا أحملك وأسرع بك فأجاب إلي ذلك فرجع الحمار إلي ابن آوي فنط ابن آوي عليه فركبه وجعل الحمار يعدو به بنشاط وابن آوي يدله علي الطريق فلما قربا من الأجمة رفع الحمار بصره فرأي الذئب قاعدا علي مكان ينتظره فعرف الحمار أن ذلك مكيدة وحيلة فقال : تأتي الخطوب وأنت عنها غافل فاستحضر عقله وعرف أنه غفل عن نفسه فكأنه كان الساعي للهلاك بنفسه والباحث عن حتفه بظلفه وإن أهمل أمره فقد سبق للجناية علي تلف روحه وهلاك

نفسه . ثم وقف يريد أن يتفكر فقال الحمار : ياأخي إن هذه الأجمة لما رأيتها وتنشقت طيب ريحها تندمت علي أني ما قطعت علائقي وجئت وما ورائي تبعة ولا علقة وقد عزمت علي الرجوع والأخذ في قطع علائقي وحمل ما لي من الأثاث فإني إذا رأيت هذه الروضة وسكنتها لاأقدر علي مفارقتها أبداً فتضيع إذ ذاك مصلحتي فقال له بن آوي : يا أخي لاتوخر أوقات السرور إلي غد للتأخير آفات ، فقال الحمار : لا بد من ذلك ولكن أعظم الدواعي للرجوع وصية كان أوصاني بها أبي وكنت لا أفارقها أبدا وإذا جاء الليل وضعتها تحت رأسي وإن لم تكن تحت رأسي لا يجيتني نوم ولا يقر لي قرار إن نمت بغيرها وأري مناماًت مهولة وتغلب علي دماغي السوداءُ وتلك الوصية هي جُلُّ القصد فإذا أنا قد حصلتها وجئت بها فما عليَّ من غيرها فإني لا أجد مثل تلك الروضة ولاأحسن من نزهتها ولا ثمارها ولا ريحها ولا رفيقاً مثلك صالحاً. ثم أخذ في الرجوع فقال ابن آوي في نفسه : إن تركت هذا الحمار يرجع وحده لا يعود لنا يفوت المقصود ، وأداه فكره إلي الرجوع معه ولا يفارقه فربما تتم الحيلة معه ثم قال للحمار شوقتني ياأخي إلي رؤيا هذه الوصية ولا بد لي من الوقوف عليها وقد عزمت علي الرجوع معك لأراها واقف عليها ولكن هل تحفظ شيئا منها فقال الحمار : لا أحفظ شيئا منها إلا نصيحة واحدة وهي أن أبي قال لي : إياك أن تفارق هذه الوصية والباقي ليس في خاطري وربما أتذكره فإن وقفت عليه أخبرتك بالباقي ثم مشي قليلاً، فقال : تذكرت نصيحة أخري ، فقال ابن آوي له : أخبرني بها فقال : قال أبي إذا وقعت في شدة فتصور أشد منها تهن عليك وتجدها نعمة بالنسبة إلي غيرها فتشتغل بشكرها ، ثم سار قليلاً وقال : قد حضرتني الثالثة . فقال ابن آوي : أذكرها لي فقال قال لي أبي : لاتحسب أن الصديق الجاهل خير من العدو العاقل واعلم أن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل ، فقال ابن آوي : والله آن هذه النصائح لملاحٌ ثم سار الحمار مسرعاً إلي محله ورجع ابن آوي إلي محله وهو متعجب من حيلة الحمار عليه وغلبته إياه والعجائب كثيرة فلا تزال النفس تجتهد في أن تؤتي مرادها وتبلغ شهوتها وتنال محبوبها وأن مرادها غاية لاتدرك ، وقال صلي الله عليه وسلم : لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب وناهيك بقصة اللصوص الثلاثة ، فقال له الملك : كيف كانت قصتهم؟ أخبرنا بها .

فقال له مرزبان : إن لصوصا ثلاثة اشتركوا في السرقة وأخذ أموال الناس واستمروا علي ذلك مدة من الزمان فلما دنا وقت هلاكهم اتفق أنهم سرقوا صندوقاً من الذهب فقبل أن يقسموه كانوا جياعاً ، فقال أحدهم للآخرين لابد من الغدا فأرسلوا واحداً منهم إلي المدينة ليأتيهم بطعام فذهب وافتكر في نفسه كيف يختص بهذا المال ، فسولت له نفسه قتل صاحبيه وانفراده بذلك وهما بنفسهما ما همت به نفسه فسولت لهما أنفسهما قتله واقتسامهما المال . أما هو فوضع لهما سماً في الطعام وجاءهما به فعند حضوره بهذا الطعام بادراه بالقتل وكانا في استعداد له علي ذلك فقتلاه ثم جلسا يأكلان الطعام فلما أكلاه ماتا ولحقاه وبقي المال وحده ، وانما أوردت هذه الحكاية ليعلم مولانا الملك أن الميل إلي هوي النفس لايفيد إلاّ الحسرة والندامة والحرمان وإن عاجلاً . واعلم أن النفس لا تقنع بالقليل ولاترضي إلا بالكثير ولا يظن أحد أنه أذا أعطي النفس هواها أنها تشكر له علي ذلك وانها كلما أعطيت شيئاً من مطلع بها طلبت أعلي منه كما قال الشاعر :

والنفس راغبة إذا رغّبتها وإذا ترد إلي قليل تقنع

وقال الآخر :

وما النفس إلاّ حيث يجعلها الفتي فإن حملت طاقت وإلاّ تسلت

وقال الحكماء : الأمل شبكة الشيطان فاجتهد أن تخلص نفسك من حبائل هذه الشبكه واعلم أيهاالملك أن الدنيا غدارة قليلة الوفاء مهما فرت منك أتعبتك في طلبها وكلما ركنت إليها تخلت عنك واعلم أيها الملك أن الله تبارك وتعالي جعلك بمنزلة الراعي وجعل الخلائق رعيتك ولابد أن يسأل الراعي عن رعيته ، وإذا كان كذلك فيجب علي الراعي أن يختار لرعيته اسني المراعي وأهناها وإن هذه النقود من الذهب والفضة إذا لم تنفق في وجهها وفي مصارفها المحمودة فإنها قطع من جمر نار جهنم كما قال رب العزة : (إن الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كَنَزْتُمْ لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنيزُن).

ثم قال : أيها الملك العظيم اسمع هذه النصيحة واعمل بها فإنها من ناصح مشفق ولا تغتر بالدنيا وزهرتها فإنك متي ملت إليها أسرتك ولاتخدع بمكرها فإنك متي ركنت إليها كسرتك . فلما وعي الملك هذه النصيحة تلقاها بالقبول وقال :

هذه هي البغية والمأمول ، ثم ركب جواده الميمون وأدرك بنته في قصرها المبّقون وأخبرها بما أخبره به أخوه الحكيم من النصح السليم ، فقالت له هكذا يكون طالب السعادة الأبدية والكرامات السرمدية إذا ملّكه الله تعالي زمام الرعية وساد في الدنيا تيقظ لتحصيل السعادة الكبري واشتغل بما يرضي عنه المولي وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولي ونعم النصير لاإله غيره ولاخير إلاّ خيره.

قال الحكيم بلغني : أنه كان في بعض الغياض أسد عظيم في خدمته ثعلبان يدعي أحدهما بالرئيس والآخر بالعادل ملازمان منادمته ، وله دب وزير بينه وبين الثعلبين عداوة وكان هوأقربهما من حضرة الملك . فحاقهما المكر السيئ فكان يتوقع لهما عثرة يتوصل بها إلي إفساد صورتهما . ففي بعض الأيام كان الثعلبان ينادمان الملك فغلب عليه النعاس فخرج منه ريح سمعاها واستيقظ هو لها فتناوم ليعرف ما يصدر منهما فلم يتمالك الرئيس أن ضحك فقال له العادل : مم تضحك أما علمت أن الضحك بلا سبب من قلة الأدب وأن الملوك تحترم مجالسهم غابوا أو حضروا ، ناموا أو استيقظوا ، وقد قيل : رفع قلم العتاب عن النايم والسكران والمجنون والصبي وعذر النائم أوضح من عذر الباقين فإن النوم أخو الموت ، ولقد قال صاحب الأخلاق: لايعيب الشخص علي أحد عيباً هو فيه ، وإذا صدر من الملوك بغير أدب فقد خاطر بنفسه وأوجب لها التعب . فقال الرئيس : اللسان إذا ظهر منه الكذب ، والعرض إذا نقي من العيب والنفس إذا زكيت عن الجهل يصلح لها أن تضحك علي كل أحد ، وأنا إذا اتصفت بهذه الأوصاف فلا عليَّ إذا ضحكت علي غيري . قال العادل : يعرف الجاهل بثلاث علامات أولها ، أن يري نفسه عارياً عن العيوب ثانيها ، أن يري نفسه أنه أعلم من غيره ثالثها ، أن يغتر بعلمه ويتصور أنه انتهي في ذلك إلي أعلي المراتب ، وقالت الحكماء : إذا رأيت نفسك طاهراً من دنس العيوب وطالباً عيوب غيرك فاعلم أنك غارق في العيوب ومتدنس بأوساخ المساوئ واعلم أنك لا تشم رائحة الفضل الموجب للتقدم ما دمت تري لنفسك مقداراً ، ولكن كن في تفقّد عيوبك حريصاً لتفقّد عيوبك حريصا لتفقد عدوك . قال الرئيس : لقد صدقت ونصحت فجزاك الله عني خيراً وقد وقع الخطأ علي سبيل الغفلة وقد خرج هذا الأمر مني علي سبيل السهو وهو كالسهم إذا خرج لايعود إلي كبد القوس كما قيل : القول كاللبن المحلوب ليس له رد وكيف يرد الحالب اللبنَ ،

ولكن الذنب غير المستمد المار لا يستحق صاحبه العقوبة ولا الدمار وإنما أنا أحمد الله من أجل أنك رفيقي وصاحبي ونصحتني وأرجو منك أن لاتفض ختام هذه الهفوة عني ، فقد قالت الحكماء : السر لايستقر إلا في صدر محب وأنت محب وشفوق . فقال العادل : من علامات الجهل شيئان أحدهما أن تقرض مالك ثم تتقاضاه بالعنف ، والثاني أن تودع سرك لمن تحتج أن تتضرع إليه وتحلفه أن يكتمه ولايبديه وقد قيل:

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه   فصدر الذي يستودع السر أضيق

وقالت الحكماء لاتستودع أحداً سرك فإن كتمان السر ثقيل يتولد منه هم وعياءٌ وإفشاوه هلاك وبلاءٌ وقدقيل :

كل سر جاوز الثنين شاع   وكل علم ليس في القرطاس ضاع

والمراد بالأثنين الشفتين وناهيك بقصة الحرامي مع البرغوث فقال الرئيس: أخبرني بتلك الحكاية قال العادل : زعموا أن لصاً كان ماهراً في صنعة السرقة وكان كثيراً مايقع في خاطره أنه ينقب خزانة الملك ويأخذ منها الذخائر ويطلب لذلك ممن يفشي إلية سره ذلك وهو يخاف من إفشائه ، إلي أن زاد عليه ذلك الخاطر ولم يتمالك كتمانه وعجز عنه فوجد في ثيابه برغوثاً فقال في نفسه : هذا البرغوث قد أكل من لحمي وشرب من دمي وهو حيوان ضعيف ولا لسان له يفشي السر به ، ثم أدني رأسه إلي البرغوث وهو في يده وقال : اعلم أيها البرغوث أني أريد أن أدخل دار الملك واخذ مما تصل إليه يدي من الذخائر والدراهم والدنانير وأنا الآن مودعك هذا السر فلا تُفشه عني . ثم أطلق البرغوث في ثيابه وقصد إلي دار الملك فلما دخلها اختبأ تحت سرير الملك حتي يجد فرصة فيأخذ ما يريد فخرج البرغوث من ثيابه وقصد الملك فقرصه فأقلقه ، فطلب النور ونظر في ثيابه فوجد البرغوث فأراد القبض عليه ففر ونزل تحت السرير ففتشوا عليه فوجدوا الحرامي فقبضوا عليه وفعلوا معه مايجب فعله كما قيل :

مشي برجليه عمداً نحو مصرعه   ليقضي الله أمراً كان مفعولا

وانما أوردت هذا المثل لتعلم أن السر لايؤمن عليه الحيوان بل ولا الجماد فضلاً عمن يكون فيه أدني ناطقية أو يسمي باسم إنسان .

فلما انقضت هذه المحاورة وكان الأسد قد استوفاها من أولها إلي أخرها وقد امتلأ عضباً فوثب مغضباً وأمر بالقبض علي الرئيس وإيداعه في السجن ، ففعلوا به ما أمر به الملك من القبض عليه وإيداعه في السجن ، فتنكد عيش رفيقه العادل وتوجه إليه وأغلظ له القول ولكن كان الأمر قد خرج من يده فقال الرئيس : كل هذه الأمور بقضاء الله تعالي وقدره . وفي الجملة إذا كان السعد مقبلاً فكل حركة له تصدر عن الشخص فإنها سعيدة وإذا أدبر فلا يكاد يصيب العاقل واللبيب فضلاً عن غيره وهذه عادة الزمان مع أبنائه وقد قيل شعر :

ومن ذا الذي ما غره صرف دهره   فأضحكه يوماً ولم يبكه سنه

وأنا كنت غافلاً عن هذه النكت ماشياً علي ما كنت أعهده من نفسي وعودني به الزمان فصادفني مثل حكاية الهدهد والرجل الصالح .

قال العادل : كيف كانت تلك الحكاية ؟ قال الرئيس : ذكروا أن رجلاً من الصلحاء كان قد علّمه الله تعالي لسان الطير وكان له هدهد يدّعي صحبته فرآه في بعض الأيام جالساً علي رأس حائط فقال له : ياصاحبي هذا المكان كثير العاهات فانتقل إلي مكان أخر ، قال الهدهد : قد علمت ذلك ولكن سبب جلوسي هنا أني رأيت صبيا قد نصب لي فخاً يريد أن يوقعني فيه فأنا أتفرج عليه وأسخر منه علي طائل ، فمضي الصالح في حاجته ورجع فرأي الهدهد في يد الصبي فقال له : كأنك وقعت له في الفخ طوعا أردت أن تنظر هل له من الإقتدار عليك نوعا فإنك كنت حريصا علي أن لا تقع في مكايد هذا الصبي ورأيت أنه لايحصل له إلاّ التعب والعي ولو لم يكن ذلك فأنت تري الماء تحت الأرض أفلا تنظر حبل الفخ ؟ فقال له الهدهد : ذلك لايمنع من إنفاذ القضاء والقدر إذا جاء القضا عمي البصر . فاشتري ذلك الرجل الصالح الهدهد من الصبي وأطلقه وحرره وأعتقه.

وإنما أوردت هذا المثل عني توبيخك وتقريعك وتتعاطي أسباب خلاصي من هذه القضية ولو بان يكون مسكني بعدها في البريه وذلك بحسن تدبيرك علي ما تقتضيه سابق الصحبة وقديم المودة وما أعهده عنك من طيب الأعراق ومكارم الأخلاق وسابق الصحبة وقديم المودة ، والمحبة وما أعهده عنك من وفور الشفقة وحسن الوفاء والقيام بحق الإخاء وقد قيل:

دعوي الأخاء علي الرجاء كثيرة　　　بل في الشدائد تعرف الأخوان

وأنا أسألك بالله وسالف حقوق المودة والصداقة أن تكف عني توبيخك فقد آلمني أكثر مما أنا فيه، فرقَّ له العادل وقال : حباً وكرامة ولو لم تقل لي ذلك لما كان يسعني التخلص عن خلاصك و انما قلت لك ماقلت من شدة ما نابني من الحرق والأرق وقد قيل أربعة أشياء فرض في شريعة المودة وطريق الاخوة بالأول المشاركة في هموم الاخوان ونوازلهم ، الثاني إذا أخطأ أحدهم يردونه إلي طريق الصواب بألطف وجه ، وأحسن إشارة ولا يتركونه علي الخطأ ، الثالث إذا صدر من أحدهم جفا يتداركونه بالوفا ولا يتركون الوفاء القديم بالجفاء الحادث ، الرابع عدم المؤاخذة وأنا . إن لم أبذل مجهودي في إنقاذك بكل ما تصل إليه يدي وإلاّ فلا فائدة في صحبتي ، فإني والله لأبذلن المجهود في ذلك وها أنا متوجه إلي الملك فانظر مايصدر منه ثم أتم الأمور علي ما يقتضيه ذلك .

ثم توجه العادل إلي الملك فوجد الدب عنده وهو يريد أن يكلّمه في أمر الرئيس فإنه قد وجد للظفر فرصة يريد أن ينتهزها ، فإنه عدو قديم فأراد أن يتكلم ثم افتكر أنه ربما يعاكسه الدب فتنخرم أموره فأمسك عن الكلام ، ثم بدا له أنه ربما يفتح الدب الكلام بطبيعة العداوة فيرسخ في قلب الملك فلاتمكن إزالته ويعسر رده ويتعذر إزالته من خاطر الملك كما قيل شعر :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوي

فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فبادر العادل بالكلام وافتتحه بالدعاء علي العدة في استعطاف الملوك الكرام ثم قال : إن من عادات الملوك العظام العفو عن الجرائم لاسيما إذا كان وقوعها علي سبيل السهو والخطأ وصدرت من المعروف صدقهم وإخلاصهم .

ومن ذا الذي ماساءَ قط　　　ومن له الحسني فقط

وكان مملوك مولانا الملك الرئيس معترفا بتقصيره ، متوقعاً من مولانا الملك عفوه ومراحمه ، وإسبال ذيل الشفقة والحنو عليه ووجبت الشفاعة فيه علي الملوك السابقة والأخوة وقديم الصداقة . فلما سمع الأسد ذلك علم أن قصد العادل

جميل وهو يريد سوق الأجر وإثبات الحسنات في صحائفه وانتشار صفاته بالجود والعفو بين الأقران . فما ردٌ عليه جواباً وأطرق ، فلما رأي الدب إطراقه وسكوته قال إن الملوك سكوتها رضاها وحيث سكت أتت الفرصة فانتدب للجواب واستعد للخطاب فقال : اعلم يا عادل أن من أخفي خيانة الخائن واستخف بزلة الجاني واعتذر عنه فهو شريكه في الذنب ، خصوصا إذا كان صادراً في حق ملك من الملوك ويقدر المجني علية يقع علي الجاني . قال العادل : يامولانا الوزير كلنا محل الخطأ والتقصير.

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفي المرءَ نبلاً أن تعد معايبه

وإن لم يشفع الشخص في الجاني فالمحسن لايحتاج إلي شفاعة ومن لم يأخذ بيد العاثر لم يجد ليده آخذاً إذا عثر . وأ×حسن ما يكون العفو من القادر علي المؤاخذة وهم الملوك ، وأحسن ما تتصف به الملوك من الصفات الجميلة والخطأ الذي يصدر من الشخص أربعة أقسام : زلة وتقصير وخيانة ومكروه ، فجزاء الزلة العقاب وجزاء التقصير الملامة والتوبيخ وجزاء الخيانة العقوبة ، وإيصال المكروه جزاءه إيصال مكروه مثله ، والذنب الصادر من الرئيس إنما هو زلة وقد استوفي جزاءه وزيادة والملك أدام الله تعزيره له أن يعاقب علي الذنب اليسير ويعفو عن الذنب الكبير ولا يؤخر عنده العفو والخير والفضل ، ومكارم الشيم أولي من أن يؤثر عنه القصاص والعقوبة فإن ذلك أليق بحشمة الملك . فلما سمع الدب منه هذا الكلام قال : من شرط ناموس السياسة إقامة حرمة الملك وأن لايسامح طوائف بل يستوفي الملك القصاص منهم ولا يأمن إليهم ، فإنه لايصدر منهم خير منهم من عزل عن منصبه بغير سبب ومنهم من يصادف أعداء الملك ومنهم من يري له مسرة في مضرة الملك ولا يبالي بذلك ومنهم من يطلب علي خدمته مكافأة ، فإن لم يحصل مطلوبه تغير خاطره . ومنهم من يتعرض لسخط الملك . ومنهم من يهتك حرمته . ومنهم من يفشي سره . ومنهم من يخون في الحريم ، ولاشك أن الرئيس قد ارتكب بعض هذه الخصال وهو متصف بباقيها وهذا يدل علي دناءة أصله ولؤم طبعه . قال العادل : لاتقل هذا يامولانا الوزير فإن الرئيس خادم قديم وعبد مخلص ونديم ظريف لم نعلم عليه مايسوءه من صدق ولايته ولا اطلع أحد منهم علي سهوه. والخطأ شئ من تفوه نادرة في حق الملك فحلم مولانا الملك لا يقتضي طرح هذه

الأوصاف كلها لأجل هذه النادرة المنفردة . وقد قيل :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً ‌ ‌ ‌ ‌ فأفعاله اللاتي سررن ألوفاً

وقد حصل له من الكسر ما لا يَجْبرهُ إلاّ عفو الملك ومراحمه وإلا فلا جابر لكسره ابداً ، وأنا ما قمت في مقام الشفاعة إلاّ لقوله تعالي : (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) . وأنا أسال صدقات الوزير أن يكون شريكاً لي في الأجر والثواب وأن لاتقع منه مخالفة في ذلك فإن كريم الطبع لايصدر منه إلا الكرائم التي تليق بطبعه. واللئيم إذا أراد أن يتعاطي شيئا من مكارم الأخلاق المحمودة لاتساعده طباعه كما قيل :

كلما رام التخلق جاذبته ‌ ‌ ‌ ‌ فعنه إلي الطبع القديم

وقال آخر :

الناس علي دين ملوكهم ‌ ‌ ‌ ‌ وتأبي الطباع علي الناقل

وحيث كان مولانا الملك مجبولاً علي الشفاعة الكاملة والمراحم الشاملة فكلنا يجب علينا أن نتشبث بتلك الخصال ، فإن العبد من طيبة مولاه وإن الله لايضيع أجر من أحسن عملاً ، فالتجم الدب بهذه المغالطة ولم يرد جواباً فقال الأسد : حتي انظر في هذا الأمر فتفرقوا من المجلس ، فتوجه العدل إلي الرئيس وهو في الحبس وأخبره بصورة ما وقع وقال له : أبشر فإني رأيت لخلاصك أثراً قوياً في بشرة الملك فشكر الرئيس للعادل جميل مساعدته وقال الرئيس للعادل: كنت أود أن تؤخر الكلام في أمري فإن الطالع قد أدبر والسعد في هبوط وطالع الخصم في قوة أما سمعت قصة الحكيم بزرجمهر في مخدومه كسري . قال العادل أخبرني بها قال الرئيس : ذكروا أن كسري انوشروان أراد النزهة يوماً فدعا وزيره الحكيم بزرجمهر وجلس معه عل جانب حوض يتنادمان وكان في الحوض طائفة من البط وكان كسري يلعب بخاتمه وفيه فص ثمين فسقط من يده فابتلعته بطة وهو غافل عن ذلك ، كل ذلك وبزرجمهر لم يشاهد هذه الأمور فلما دخل كسري إلي الحريم افتقد خاتمه فلم يجده فدعا الحكيم بزرجمهر ليسأله عن ذلك وعُرِّفَ بزرجمهر ما قد دعاه إليه فنظر في الطالع فرآه غير مستقيم فخاف أنه إن تكلم في هذا الأمر بما رآه عاكسه الطالع فربما يذبح ذلك الطير كله وربما لم يجد الخاتم وأن عين طائراً بعينه فربما يكون الخاتم في غيره فينسب إلي الجهل فلم يزد عن السكوت لما سأله عن ذلك

واستمر كسري علي الطلب والاهتمام بشأن الخاتم فلما استقام الطالع وزال عنه الوبال توجه بزرجمهر إلي خدمة مخدومه وأخبره بما كان من وبال الطالع فأحضروا الطير كله وقبضوا علي واحدة وذبحوها فوجدوا الخاتم في جوفها ولم يحتاجوا إلي ذبح غيرها وذلك لقوة الطالع وإقبال السعد . وإنما أوردت هذا المثل لمراقبة الطالع ولم أورده اعتراضاً علي مافعلت ، فإني أعرف أن مقاصدك جميلة فقال العادل : الأمر كما قلت وإنما بادرت بذلك خوفاً من حاسد يسبق بكلام يستقر في خاطر الملك فتعسر إزالته ولئلا أنسب إلي تقصير وتوان ومع هذا إن الله هو المدبر ومقاليد الأمور بيده ولم يخطر ببالي أن أقواني في هذه القضية لحظة واحدة وأني مباكرٌ فناظر ما يصدر منه . ثم إن العادل باكر إلي خدمة الأسد فوجد الدب قد سبقه وهو يريد أن يفتح الكلام فبادره العادل وقاطع عليه ودعا للملك ثم قال : ياملك إن المواعيد الوفية والأخلاق المرضية تقدمت في حق عبده القديم الرئيس بالنظر في أمره ولم يبق إلاً المراحم وإجراء عبيده القدما علي ما كانوا عليه من سالف حالتهم المرضية خصوصاً المخلصين من خاص الندما كما عودتهم المكارم البهية والصدمات السنية.

ولا زال يتكلم بمثل هذا الكلام حتي لان قلب الأسد وظهر للدب ذلك فاشتعل غيظاً وخرج عن دائره الاعتدال وقال : كل من ستر علي أعداء الملك فهو شريكهم في الخيانة ومن يشفع في الجاني فهو الجاني وما أظنك أيها النديم والخادم القديم إلاّ منقصاً لهيبة الملك وانتهاك حرمته ، فعند ذلك هم الأسد علي الدب وقال : لم تزل إلا ظالماً من قديم الزمان إلي هذا الأوان وأنت ترقب مراحم الأكابر لتتسلط علي أحبائهم بظلمك وتوقعهم في الأثام وإن السلاطين لم تزل تغضب وترضي وتسبل ذيل إحسانهم علي هفوات أصحابهم وأصدقائهم ويطلبون أجر مخدومهم وثبوت الأجر والثواب في صحائفهم ، وكلامك أيها الوزير يلوح علي صفحات وجهك منه خيالات الغش ومنازلة الفتن وإن كان العادل هذا مساعداً في أمر الرئيس فذلك هو الذي يجب عليه لأنه صاحبه القديم ولو تخلي عنه من قبل هذه الورطة نسب إلي عدم المروءة وقلة الدين وقد راعي مايجب عليه من وجوه عديدة : أولاً قام بما يجب عليه لأخيه وصاحبه من شروط الأخوة ، ثانياً قصد إثبات الحسنات في صحائفي ، ثالثاً تحرّي ما يوجب رضائي وانشراحَ صدري ، ويزيل غيظي ، رابعاً

باعدني عن الوقوع في الإثم فربما تعديت الحد في عقابه . خامساً طلب اشتهار اسمي بالفضل دون العدل ، سادساً اشهر نفسه بحسن الوفاء وحفظ العهد ، سابعاً غرس في قلوب الأماثل محبته ، وأما أنا فقد تحققت أن الرئيس قد ندم علي ماوقع منه ورجع واعترف بذنبه ويكفيه خجلته عقوبة ولا يليق بحشمي إلاً العفو ومكارم الشيم وهذا الذي ورثته من أكابر أسلافي. فندم الوزير علي ما وقع منه ، وعلم أنه فرط ووقع مع صاحبه في ورطة فلا حاجةً تضي ولاصديقاً أبقي . فلما علم أن الأسد عفا تفكر في تدارك ما وقع منه وما هذ فلم ير أوفق من السعي بينه وبين الرئيس ، وكان للدب صاحب أرنب يدعي مبارك الميلاد فعرض عليه القضية فلامه علي ما كان منه وقال : يا أخي أما علمت أن الملوك يُمن علي هواهم ويطلب رضاهم وهل تحققت أن الملك طرح جانب الرئيس قطعاً حتي أنه لايقبل عليه أصلاً هيهات إذا لم يعرف الكبير مقدار خدمة عبده ووفائه وحسن عهده ، فما فائدة خدمته خصوصاً هذا الملك الجليل الذي نحن في خدمته هذه فنكون في عقب هذا الأمر مثل التاجر البلخي في أمر زوجته .

قال الدب أخبرني كيف كانت الحكاية ؟ قال مبارك الميلاد ذكروا أنه كان في بلخ تاجر كثير المال عريض التجارة فاتفق أنه تراجعت عنه الدنيا وصار كلما قصد شيئا خسر فيه إلي أن نفذ ما عنده فلم ير لنفسه إلا التغرب والبعد عن وطنه إلي أن يقضي الله ما يختار ، فقصد بلاد الغرب وأقام بها مدة ففتح الله تعالي عليه بمال جزيل ثم اشتاق إلي وطنه فجاء إلي بلخ فلما وصل إلي البلد تخفي ودخل البلد لينظر ما حدث في غيبته فجاء إلي داره وصعد إلي السطح من طريق كان يعرفها فنظر من الكوة فرأي زوجته قد عانقت شاباً جميلاً وهما نائمان علي السرير فأخذته الحمية وقصد قتلهما ثم تفكر في نفسه وقال : إن مدة غيبتي طويلة وقد تكون المرأة فسخت عقد نكاحي وتزوجت بهذا الرجل حلالاً فالتأمل في هذا الأمر والفحص عنه أولي ، ثم نزل وأتي إلي جارة له في صبيحة تلك الليلة فطرق عليها الباب فخرجت له فقال لها إنني رجل تاجر كنت أتردد علي صاحب هذه الدار مدة مديدة فأخبريني ما حاله ، فقالت إنه مسافرٌ من مدة مديدة ولم نعرف له خبراً وإن زوجته لما طالت الغيبة عليها توجهت إلي القاضي وشكت إليه طول غيبة زوجها وأنها لاتعرف أهو حي أم ميت ولم يأتها جواب منه ولا خبر عنه فطلقها عنه وأمرها بتزوج غيره ، فظهر للتاجر البلخي أن الأمر علي ما ظنه وأنه لو قتلهما

لكان ذنبهما بعنقه ، فحمد الله تعالي وأثني عليه بمحامده إذ ألهمه التثبُّت في الأمر ، وإنما أوردت لك هذا المثل لتعرف فائدة التأمل في العواقب . فقال الدب : دعنا يا أخي يا مبارك من هذا الكلام وخذ بنا في تدارك هذه القضية قبل أن يخرج تداركها من أيدينا فنندم حيث لاينفع الندم . لأنهم قالوا إذا لم تتدارك زلة القدم ندمت حيث لاينفعك الندم ، فقال مبارك : عندي من يتدارك أسباب الصلح والسعي ويفعل لك مافيه الرشد وينفي عنك ما يوقع في الغي ويُخلصُ لك الرئيس ويأخذ لك في المصافاة باطناً وظاهراً بحيث ترتفع الكدورات من الأثنين أصلاً فإن شارطتني علي هذه الشروط كما ذكرت فأنا أتعاطي أسباب التدارك في هذه القضية وإن أبقيت في نفسك شيئا من نقص فلا يفيدنا ذلك شيئا بل ربما وقعنا في بلية ولاتنتج أمورنا ولاتنجح آراؤنا ، فوافقه الدب علي ذلك وعاهده وصفا باطنه وصدق في مودته وألقي زمام تدبير الأمور إليه وعول في هذه المهمة عليه وذلك بعد الأيمان الأكيدة والعهود الوثيقة الشديدة أنه أزال ما في باطنه من الكدورات أصلاً ولم يبق لها في قلبه مكاناً ولا محلاً.

فتوجه مبارك الميلاد إلي منزل العادل وذكر له ما جري بينه وبين الدب وأخبره أن المكارم لاتكون إلاّ من الكرام وأن انتهاز الفرصة في وقت الزلّة سيمَاءُ اللئام وأن السعي لإزالة الحقد محموده والمشي في طلب صفاء ذات البين مَوارده عند الكرام موروده . وأنت أيها العادل من أهل الصلاح وشيمتك الخير والنجاح . وأعلم أنه لوكانت هذه الزلّة من شيمتك صدرت منه لسعيت له لأجل التجاوز عنه وإن كان الرئيس متصفاً بصفتك إلا أنه بوجودك معنا لا يخرج عن شيمتك . فلما سمع منه العادل هذا الكلام اعتدل واستقام ووثب معه وقام وتوجها إليَ الرئيس واعتذر له من جهة الوزير وقال له : إن كنت ممن يحب المشاغبة والمتاركة والجزاء علي أمثال هذه المشاركة فهذا غير الجبلّة والفطرة لأن الوزير ما قام بما قال إلاّ موافقة مراد مولانا خوف أن يستغشه فَي الصحبة . وبعد التبين يتكلم بالمحبة علي أن الوزير صرح بأن هذا ما صدر منه إلا في معرض السهو والخطأ وما عني الأذى والإختطا .

أقر بالذنب ثم اطلب تجاوزه   فإن جحود الذنب ذنبان

ومع هذا فهو واقف موقف الندم يرجو عفو مولانا فيما زلت منه فيه القدم ومازال يتعاطي الأسباب الموجبة للصفاء والمودة وتأكيد المحبة والصحبة حتي

انعقدت بينهما كما ينبغي وتأكدت كما يجب .

ثم توجه العادلُ ومبارك الميلاد وصحبته الوزير إلي حضرة الملك ووقفوا في مقام الخدمة والشفاعة في الرئيس إلي أن عطفت عليه جوانحه ووقع كلامهم منه في محل القبول فأمر بإحضاره فحضر مكبلاً في حديده مغبراً في صعيده ووقفوا به في مقام الخدمة والخجل والإفتقار فقال الملك : أما سمعت يارئيس قول القائل إياك وما يعتذر منه وقالت الحكما :إذا كان أحد في خدمة الملك فينبغي أن لايفوه بكلمة حتي يشيرها أولا بميشار الفكر ويقيسها بمقياس العقل ويزنها بميزان الحكمة ويعايرها بمعيار التدبير ثم يعبر عنها بأرشق عبارة وألطف خطاب ولايتكلم بكلمة تورثه الندامة وتعقبه الملامة كما جري الرأي لملك الهند مع مخدومه فقال الحاضرون : أخبرنا ياملك الزمان عن كيفية هذه الحكاية .

قال الملك : بلغني أن ملك الهند كان في خدمته نديم فاضل ثقيل الرأس خفيف الروح فكان في بعض الليالي في خدمة مخدومه فطلب منه أن يحدثه بأحاديث مختلفة ثم جري علي لسانه أن قال : رأيت في عراق العرب حيواناً في شكل الطير والجمل يأكل الحصا فتذيبه معدته ويبتلع الحديد المحمي فلا يضره فأنكر الحاضرون ذلك وقالوا حيوان من لحم ودم يأكل النار لا يتصور ووافق الملك علي ذلك فخجل النديم وتندم علي حكاية ذلك ووَدَّ أنْ لو كان لم يذكر هذا الحديث ، ولزم من هذا أنه يتوجه إلي عراق العرب فوصل إلي بغداد وحصل من النعام عدة وتكلف في حملها وإيصالها إلي بلاد الهند وأنفق عليها أموالاً عديدة وتحمل لأجل ذلك المشقة الشديدة قصد بذلك تصديق قوله وتحقيق ما ادعاه حتي وصل إلي الهند وأخبر الملك بذلك فأحضر ما وصل من النعام بين يديه وطرح الحديد المحمي والحصا أمامها فما تتمالك أن أكلت منه فتعجب الحاضرون من ذلك وصدقوا فقال النديم : يا مولانا الملك أنفقت أموالاً كثيرة وقاسيت مشقة عظيمة حتي ظهر صدْقي فقال الملك : نعم ما فعلت ولكن كلام يحتاج قائله إلي إنفاق أموال جسيمة وتَحمل مشقة عظيمة وتعب البدن والروح وصرف مدة من العمر لا يتفوه العاقل به .

وإنما أوردت هذه الحكاية ليتأدب جلساء الملوك وندماؤهم لئلا يفعلوا شيئا يحتاجون معه إلي غيرهم أو إلي مكث في الحبس واستعمال جماعة من الأصحاب

في السعي إلي تدارك ما يترتب عليه من الخزي والنكال وتحمل منتهم وجميلهم ، فقام مبارك الميلاد وقبّل الأرض وقال : يا مولانا الملك كل هذا من سعادتك وبركة ملاحظتك ، وكان سعد الرئيس قد أدبر فانعكس عليه أمره فلما أقبل سعده استقام أمره ونظير هذه الحكاية حكاية الملك كسري مع غريمه قال الأسد : وكيف كانت تلك الحكاية ؟

قال مبارك الميلاد : خرج علي كسري بعض الملوك وجاهره بالعصيان وابتدر لمحاربته فاستعد كسري وتوجه لقتاله وتواقعا الحرب فيما بينهما فانكسر ذلك الملك الخارج عليه ونصر كسري عليه فقبض عليه وتفرقت عساكره كلها وحمل إلي كسري مغلولاً مذلولاً فعاتبه ثم منَّ عليه وأعتقه ، فلما تفرقت عساكره التمس من كسري أن يقيم عنده تحت كنفه أياماً إلي أن يختار التوجه بنفسه فأنعم له بذلك وأنزله في حديقة يانعة مشتملة علي نخيل وأشجار وأزهار وأنوار فالتمس من صدقات كسري من بين تلك النخيل نخلة يابسة فاستخف كسري عقله وقال أنا وهبتك هذا البستان برمته قال : لا أريد إلاّ نخلة يابسة فأنعم له بذلك أيضا وكان كل يوم يجلس تحتها . ومر علي هذا مدة إلي أن جاء الأوان فاستأذن كسري في التوجه إلي مملكته فسأله كسري عن ذلك فقال : يا مولانا إن طالعي كان قد انعكس وسعدي أدبر وكل حركاتي كانت غير سديدة ولو كنت توجهت قبل ذلك ما انتظم لي أمر ولاصلح لي حال ولا استقام لي رأي فجربت أمري بجلوسي تحت تلك النخلة اليابسة فإني كنت لَقِنْتُ من أقوال الحكما أن السعد إذا أقبل يصير اليابس أخضر فكنت أجرب ذلك إلي أن رأيت هذه النخلة اليابسة قد اخضرت فعلمت استقامة أمري ونفود قهري فرجعت لذلك وطلبت دستوراً إلي هنالك . وإنما أوردت هذا المثل لتعلم أن استقامة أمورنا إنما هي من سعادة مولانا الملك وقوة سعده ويُمْنِ طلعته وطالعه وكما أن الرعية لا يستقيم لها حال إلا بالملك كما قيل شعر :

إذا غدا ملك باللهو مشتغــــلاً   فاحكم علي ملكه بالويل والحزن

كذلك الملك لايكون ملكاً إلاّ بالرعية والله تعالي قد أحوج الصغير للكبير ليسوس أمره وأحوج الكبير للصغير ليخدمه . ونظير هذه الحكاية حكاية الشبيطر مع العصفور في زمن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام وعلي نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم فقال الأسد : أخبرنا كيف كانت تلك القضية ؟.

فقال مبارك الميلاد : قيل إن سليمان عليه السلام كان يوماً في سيرانه فمر علي شجرة دلب عليها وكر شبيطر وقد عشش في وكره عصفور وهما يتخاصمان في شأن ذلك فقال الشبيطر للعصفور : اشكر لي ولجواري إذ لولاي ما ابقتك الحية ولا شيئا من فراخك وأنا أحميك شرها وأمنعك ضرها . فقال له العصفور أنت أيضا اشكر لي صنعي إذْ لولا إحَاطتي بك لما أبقي النمل من فراخك شيئا فكل منهما يمن علي الآخر بجواره . ثم قال أحدهما لآخر نحن كلنا ندعو لنبي الله سليمان عليه أفضل الصلاة والسلام إذْ هو ملك العصر ونحن في أمان به ونحن كذلك نحمد الله تعالي ونشكره ونكثر الدعاء لمولانا الملك بدوام أيامه حيث ملكه الله علينا أذ هو ملك الوحوش الأكابر والأكاسر الضواري الكواسر ، وشامل بفضله المساكين والأصاغر وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم تسليماً .

والكتاب كما قرأنا من هذا الفصل شبيه في موضوعه ونهجه بفاكهة الخلفاء ، وربما كانا في الأصل واحداً تعرف فيه ابن عربشاه بتعريبه . لا بترجمته ، فأعاد صياغته بأسلوب الكتابة المعروف في عصره، فضمنه الشعر مما يحفظ ، أو ينظم.

والمؤلف في جملته شبيه بكليلة ودمنة قريب في أسلوب سرده الحكايات منه ومن ألف ليلة ، وقد شاع الكتابان كلاهما بين أدباء العصر . وحاولوا النسج علي غرارِهما .

(ولد سنة ٨٠٦ هـ وتوفي سنة ٨٦٢ هـ)(١) .

شهاب الدين أحمد بن محمد بن حسين القاهري الحنفي

كان عالماً فاضلاً ، شاعراً ماهراً ، وله نظم جيد .

ألف الكتب النَّفِيسةَ في الأدبيات وغير ذلك . منها كتاب «السفينة» كله محاسن وفوائد . ويبدو أنه تمثل فيه سفينة نوح ، فجمع به من كل لون من ألوان الأدب والمعرفة علي طريقة المستطرف .

وذكره السيوطي في نظم العقيان . قال : الأديب البارع ، تفنن وبرع ، وتميز ، وجمع مجاميع ، وعلق تعاليق.

تطارح الشعر مع الشريف صلاح الدين الاسيوطي ، ومدح الحافظ ابن حجر العسقلاني بمناسبة ختم شرح البخاري (٢) .

وقال عنه السخاوي في الضوء اللامع (٣) :

« تعاني نظم الشعر (علي الطريقة البيانية) . قال : وقد سمعت منه من نظمه الكثير ، بل سمعت بقراءاته علي شيخنا في أسباب النزول له ولغيره ».

وكان ابن حجر كثير التبجيل له والإصغاء إلي كلامه . ومدح ابن حجر بقصيدة لمناسبة إتمام شرح البخاري يقول فيها :(٤)

وعلمك جمٌّ «والتصانيف جملــةٌ ... ووالله ما في العصر غيرك يُقتدي

صحيح البخاري شَرحْتَ حديثــه ... بفتح من الباري ونصر تأيَّـــــدا

فكم مغلقٍ بالفتح أصبح واضحاً ... إلي فهميه لولاهَ ما كأنُ يْهتَــدَي

---

(١) ابن اياس : ص ٣٦٨ - وجعل صاحب نظم العقيان وفاته سنة ٨٦٢ هـ
(٢) نظم العقيان : ص ٥٦ وأعيان الأعيان للسيوطي : ص ٥٤ - ٥٦
(٣) الضوء اللامع : ٢ / ٦٥
(٤) أوردها السخاوي في ترجمته لابن حجر بكتاب الجواهر

الفصل الخامس

الإنشاء والخطابة



ظلت الكتابة في هذا العصر كسابق العهد سائدة علي النظم ، وبها تصرف شؤون الدولة فتكتب الرسائل السلطانية والأوامر والمنشورات ، والعهود كما تنوعت فنون النثر وعمت الأنواع التي عرفت من قبل كالمقامات والمواعظ والخطب الدينية والمحفليَّة ، وقلت السياسية منها لانشغال الناس بأمور حياتهم وبالأحداث الخارجية كغزوات المغول والفرنجة ، واستبداد سلاطين المماليك ورتابة الحياة العامة .

وتأثر أسلوب الكتابة ، واختلفت درجاته ، وتنوعت وفق الموضوع فقد احتفظت الكتابة العلمية بالأسلوب العربي الفصيح والصياغة التقليدية دون تأثر واضح بالعامية التي أخذت تشيع فيما دون ذلك من أنواع الكتابة ، وخاصة بعض الكتابات التاريخية والمواعظ والسير والمقامات .

ودخلت اللغة العربية ألفاظ وتعبيرات غريبة كثر فيها التركي والفارسي والروميّ ، كما زادت نسبة العامية ، وتراجع الاهتمام باللغة المعربة .

ذكر ابن خلدون أن لغة الأدب في الجيل المعاصر له (في القرنين الثامن والتاسع) قد اختلفت عن اللغة المعربة التي سادت الأدب العربي في الأجيال السابقة إذا اتجه الأدباء والشعراء خاصة إلي التحرر من قيود اللغة الفصحي ومن قواعد النحو ، كما دخلت بعض الألفاظ المستعربة والأعجمية من لغات أهل الأمصار الأصلية وثالثاً اختلف النطق ببعض الحروف .

وهكذا اتجهت أساليب الأدب ولغاته شيئا فشيئاً إلي التحرر من قيود الفصحي وأُدْخِلَتْ بها بعض العبارات والصيغ العامية المحلية . كما اسرفت في البديع .

ويري ابن خلدون أن فقدان اللغة العامية للاعراب ليس بضائرها ويعيب علي كتاب عصره اسرافهم في استعمال المحسنات البديعية كالسجع والجناس في القوافي وغيرها كما ذكرنا .

وقال إن الإسراف في البديع والسجع لايليق بالرسائل الديوانية خاصة ، لأنه اليق بالشعر يقول:

« وهذا الفن المنثور المقفَّي أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر ، فوجب أن تتنزه المخاطبات السلطانية عنه إذ أساليب الشعر تناسبها اللوذعية، وخلط الجد بالهزل ، والإطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث

لاتدعو ضروره لذلك في الخطاب . والتزام التقفية أيضا من اللوذعة والتزين ، وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملك بالترغيب أو الترهيب ينافي ذلك وينابيه .

والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تشجيع إلا في الأقل النادر ، وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له ثم إعطاء الكلام حقه في طابقته لمقتضي الحال ، فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب ، أو ايجاز أو حذف ، أو إثبات أو تصريح ، أو إشارة ، أو كناية أو استعارة . وأما إجراء المخاطبات السلطانية علي هذا النحو الذي هو علي أساليب الشعر فمذموم .

وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة علي ألسنتهم ، وقصورهم كذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضي الحال . فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوته . وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام علي المقصود ومقتضي الحال فيه . ويجبرونه بذلك القدر من التزيين والاسجاع والألعاب البديعية ، ويغفلون عما سوي ذلك.

وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد، حتي إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لايجتمعان معاً ، فيرجحون ذلك المصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس . فتأمل ذلك (١) ».

ويذكر صاحب الضوء اللامع من أسباب شيوع الألفاظ التركية في لسان الناس اختلاط أبناء العرب بأبناء الترك في المكاتب (٢) ، ولاشك أن كثرة العناصر التركية في المجتمع كان لها أثر كبير في دخول كثير من الألفاظ التركية والأجنبية.

---

(١) مقدمة ابن خلدون الفصل الخامس والأربعون

(٢) راجع الضوء اللامع : ١ / ٣١٧ في ترجمة ابن الصيرفي

الرسائـــل :

وقد اتخذت الرسالة طابعاً تقليدياً درج علية الكاتبون ، هو البدء بالبسملة والحمد ثم الافتتاح وهو التقديم بما يناسب المقام من آيات القرآن الكريم أو حديث الرسول صلي الله عليه وسلم والشعر العربي ، وقد يبدأ الكاتب رسالته بعد الحمد بأبيات من الشعر كما فعل السيوطي في رسالة له لابن ظهيرة ، وكما فعل المسعودي في رسالة أخري (١).

ونمثل للرسائل السلطانية أو الديوانية برساله من تيمورلنك إلي السلطان الظاهر برقوق تقول :« قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ».

اعلموا أنَّا جندُ الله ، مخلوقون من سخطه ، ومسلَّطُون علي من حَلَّ عليه غضَبُه . لانرقُّ لشاكٍ ، ولا نرحم عبرةَ باكٍ ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا ، فالويل كل الويل لمن لايمتثل لأمرنا ولم يكن من حزبنا وجهتنا ، وقد خَرَّبنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأظهرنا في الأرض الفساد ، وأذلَّت لنا أعزتها ، وملكنا بالشوكة أرقَّتها ، فإن خُيِّل ذلك علي السامع واستشكل وقال إن عليه فيه مشكَلْ فقل له : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) ، وذلك لكثرة عددنا ، وشدة بأسنا ، فخيولنا سوابق ، ورماحنا خوارق ،

وأسنتنا بوارق ، وسيوفنا صواعق . وقلوبنا كالجبال ، وجيوشنا كعدد الرمال ، ونحن أبطال وأقيال ، وملكنا لايُرام ، وجارنا لايضام ، وعدتنا ببذل السؤدد والمقام ، فمن سالمنا سلم ، ومن حاربنا ندم ، ومن تكلّم فينا بما لايعلمُ جَهِل .

وأنتم فإن أطعتم أمرنا ، وقبلتم شرطنا ، فلكم ما لنا وعليكم ماعلينا .

وإن أنتم خالفتم ، وعلي بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلاأنفسكم . الحصون منا مع تشييدها لاتمنع ، والمدائن بشدتها لقتالنا لاتَرُدُّ ولاتنفع ، ودعاؤكم علينا لايستجاب ولايسمع . وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام وواقعتم جميع الآثام ؟!، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرِّشوة من الحكام ، وأعددتم لدخول النار وبئس

---

(١) راجع نظم العقيان : ص ٣٧

المصير : (إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً). ولما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم مورد المهالك .

وقد قتلتم العلماء وأغضبتم ربَّ الأرض والسماء . وأرقتم دَمَ الأشراف . وهذا والله هوالبغي والإسراف . فأنتم بذلك في النار خالدون ، وفي غدٍ يُنادي عليكم (فاليوم تُجْزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) فأبشروا بالمذلة و الهوان يا أهل البغي والعدوان .

قد غلب عندكم أنا كفرة ، وثبت عندنا والله أنكم الكفرةُ الفجرة ، وقد سلطنا عليكم الإله الذي له الأمور مقدَّره ، والأحكام مُدَبَّرةٌ ، فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم عندنا قليل ، لأنا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً ، وأخذنا منها كل سفينة غصباً وقد أوضحنا لكم الخطاب فاسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء وتضرم الحرب نارها وتضع أوزارها ، وتصير كلُّ عينٍ عليكم باكية ، وينادي منادي الفراق (فهل تري لهم من باقية) ويسمعكم صارخُ الفناء بعد أن يهزكم هزاً (هل تحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزاً) .

لقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، فلا تضلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين فتخالفوا علي عادتكم سنن الماضين ، وتعصوا ربَّ العالمين . فما علي الرسول إذا راسلناكم إلا البلاغ المبين . وقد أوضحنا لكم الكلام ، فأسرعوا برد الجواب ، والسلام » . (١)

والرسالة كما تبدو بقلم شيخ من شيوخ الكتاب المسلمين ممن خضعوا لقهر تيمورلنك وسخروا إرادتهم لرغباته ، فهي تنطق بلسانه ، وتمزج بصورة غريبة بين قيم الأسلام ودعاوي غير المسلمين ، إذ الكتاب مسلم لاستشهاده بآيات القرآن .

يسخر عبارته وفكره وثقافته الإسلامية لرغبات تيمورلنك التتري الوثني ولهذا نجد الخلط الغريب بين آيات القرآن وعقائد الإسلام . وعبارات التهديد والوعيد ، وتيمورلنك لايؤمن بهذا القرآن ، والشيخ مضطر لأن يسخر معاني القرآن وآياته لموضوع الرسالة التي يبعث بها إلي سلطان مسلم .

(١) نزهة النفوس : ص ٣٨٠ - ٣٨١

وعجيب أن يبدأها بهذا الادعاء بأن تيمورلنك من عذاب الله ، وأنه « مخلوق من سخطه ومسلط علي من حلَّ عليه غضبه » . ويجعل منه عقاباً للمسلمين الذين خرجوا عن حوزة الدين ، ولاشك أن تيمورلنك لايري هذا في أعماقه فهو لايهتم بأنهم خرجوا عن دين الإسلام أو لم يخرجوا وأنه بعث عقابا للمسلمين الذين خرجوا عن دين الإسلام أو لم يخرجوا وأنه بعث عقاباً لهم ، إنما هي حجة خرجت علي لسان الكاتب المسلم ساقها وجدانُه إيمانا منه بأن ما حلَّ علي المسلمين من نكبات غزو المغول والتتار إنما كان مقتاً من الله وغضباً ونقمة للخروج عن حدود الدين .

وعلي أية حال فإن الرسالة تحمل من الوعيد ، ما أريد به ارهاب سلطان المماليك وجنده . ويعمد الكاتب بهذا ليدخل الهول إلي النفوس مستعيناً من القرآن بآيات النقم والعذاب ، والسخط علي المارقين .

والرسالة في شكلها جيدة البناء والتعبير ، تضم تلك الخصائص التي أشرنا إليها وذكرها ابن خالدون من اهتمام بالسجع والجناس أحيانا ، واقتباس من القرآن الكريم دون غيره، لكنها لاتُسْرفُ في البديع اسراف غيرها من الرسائل . ونعود إلي ردِّ سلطان المماليك الظاهر برقوق بقلم كاتبه القاضي بدر الدين محمد ابن فضل الله العمري .

يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والتسليم علي سيد المرسلين .

قل اللهمَّ مالكَ المُلك ، توتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء ، بِيدك الخير ، إنك علي كلِّ شئ قدير .

والصلاة والسلام علي سيدنا محمد النبي الأميِّ ، وعلي أصحابه وأهل بيته وسلم ياربِّ تسليمًا كثيراً (١) .

أما بعد فقد وقفنا علي كتاب مُحبَّر عن الحضره اليلخانية والمملكة المعظمة السلطانية، وتقولون إنكم مخلوقون من سخطه ، مُسَلَّطون علي من حلَّ عليهم غضبه لاترقون لشاك ولاتترحمون لباك ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم فقولكم من أقبح عيوبكم ، وهذه الشهادة كافية ، وبما وصفتم به نفوسكم ناهية ، وزعمتم

(١) الرسالة في الدرة المضيئة ص : ١٤٧ مع خلاف في بعض العبارات ومواقعها

أنكم الكفرة ، (ألا لعنة الله علي الكافرين) (قل ياأيها الكافرون ، لاأعبد ماتعبدون ، ولاأنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين).

ففي كل كتاب لعنتم وبكل قبيح وُصِفْتُمْ ، وعلي لسان كل مرسلٍ نُعِتُّمْ ، وعندنا خبركم من حيْن خرجتم .

ومن تمسك بالأصول لايبالي بالفروع . نحن المؤمنون حقاً . لايدخلنا عيبُ ، وليس فينا ريبُ ، والقرآن علينا نزل ، وهو سبحانه رحيم لم يزلْ فتحققنا نزوله ، وعلمنا ببركة تأويله ، فالنار لكم خلقت ، وجلودكم اضطرمت (إذا السماء انفطرت).

ومن العجب العجاب تهديد الرتوت بالتوتْ، والسبَّاع بالضباع ، والكماة بالكراعْ ، نحن خيولنا بَرقيهْ ، وسهامنا عَربيّه ، وسيوفنا يمانية ، ونفوسنا مضريَّة ، وأكفنا شديدة المضارب ، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب . إن قتلناكم فنيت بضاعتكم ، وإن قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة ! ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضل ، وإن الله لايضيع أجر المؤمنين).

وأما قولكم « قلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال . فالقصاب لايبالي بكثرة الغنم وكثير الحطب . يكفيه قليل من الضرم ، (كم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين).

الفرار الفرار من الرزايا وطول البلايا ، واعلموا أن هجوم المنيّة عندنا غاية الأمنية ، إن عشنا عشنا سعداء ، وإن متنا متنا شهداء ، (ألا إن حزب الله هم المفلحون).

أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تطلبون منا طاعة ؟! ، لاسمع لكم ولا طاعة . وطلبتم أن نُوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء ، ففي نظمه تزكيك وفي سلكه يكفيك ، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان ، أكفر بعد إيمان أم اتخذتم رباً ثانياً ، وطلبتم أن نكون من حزبكم لقد جئتم شيئاً إداً ، تكاد

السماوات يتفطرن منه ، وتَنْشقُّ الأرض ، وتخرُّ الجبال هداً).

قل لكاتبك الذي وضع رسالتك ورَصف مقالتك : وصل الكتاب كصرير باب أو كطنين ذباب، وسنكفيه ما يقول (ونَمُدُّ له من العذاب مداً) ونريه ما نقول إن شاء الله».

وهذه الرسالة وإن كانت من كاتب السلطان لكنها أقل قدراً في البلاغة من رسالة كاتب تيمورلنك وهذا عجيب ولكن البلاغة موهبة يهبها الله لمن يشاء فرسالة كاتب تيمورلنك أتم رصفاً وأبلغ عبارة ، وأكثر تماسكا ورصانة ، وإن كانت الرسالتان تتشابهان في استخدام السجع واقتباس آيات القرآن الكريم .

ونلاحظ في رسالة المصري استخدام بعض الأمثال والكلام الجاري .

وتبقي هاتان الرسالتان بمثابة ضرب من النقائض النثرية ، كالنقائض الشعرية .

ومن الرسائل الديوانية أمثلة كثيرة تَضُمها دواوين كتاب العصر ، وكتب التاريخ الكبري وكتب الإنشاء كصبح الأعسي ، وشبيه بما أوردنا الرسائل المتبادلة بين الناصر وقازان وذكرها ابن تغري بردي (١).

ومن الرسائل الإخوانية :

رسالة السيوطي إلي ابن ظهيرة برهان الدين ابراهيم بن علي (ولد سنة ٨٢٥ هـ) وكان بينهما مجافاة ثم تصافيا .

قال السيوطي :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

كلُّ نهرٍ فيه ماء قد جَرَي ... فإليه الماء يُوماً سَيَعُود

يُبدي محبةً كانت في نهر العروق جارَية ، ومودَّة كانتْ في الآباء ثابتة ، وإن كان عطلها بعض الكدْر فهي الآن في الأنباء واهيَةُ . علي أنه - والله شهيد - ليس كلُّ ما نُقلَ إلي المسامع الكريمة من تلك الأكدار بصحيح ، أو كان بعضه قد

(١) النجوم الزاهرة : ٨ / ١٤٤ - ١٤٦

وقع فقد استدرك بالمحو ، ولم يقف عليه أعجم ولا فصيح . ولستُ كواحدٍ من هؤلاء . فإن الواحد منهم عبدٌ بطنه ، إن أعطِيَ مَدَحَ وأثنى . وإن مُنِعَ ذَمَّ وهَجَا .

وأما أنا فأحفظ للإنسان على الحالين حقَّ الصُّحْبَه ، وأحفظ له في حضوره وغيبته رفيع الرتبه ، لكن مع حفظ الأدب ، والوقوف عند الحق المحَقّ ، الخالص من شبَه الرَيبْ .

وقد كان لكم في قلبي من قبل أن أحج الحجة الأولي وقبل أن أراكم من المحبة ما لايقدر قدرها. ولايستطاع حصرها . وكنت أضمر للمخدوم في قلبي أن أكون له من الناصرين وعلي أعدائه من الثائرين ، فلما حصل الاجتماع بالمخدوم رأيته يراني بغير العين التي أراه، ويسوقني مساق الطُّغاة الجفاة ، وربما قدم عليَّ من ليس كشكلي . ولستُ من يرضي بالذل.ولايرضي بذلك من كان مثلي :

ولا ألين بغير الحق أسألـــه   حتي يلين بضرْس الماضغ الحَجر

فهنالك حصل ما حصل ، وفرح به العدوّ ، وافترى فيما نقل ، وعلي كل تقدير فقد زال الجفا، وحصلَ الصفا ، ومُحِيَ ما كتب كما أشرتُمْ في سنة ثلاث وسبعين ، وبدل بغاية الإحسان .

وكتبتُ لكم التراجم الفائقة في أعيان العصر . فإنكم للأعيان أعيان مع أن الأصول بحمد الله لم تزل محفوظة ، والأحساب بعين التعظيم والتبجيل ملحوظة ومازلتُ أعرف لكم حقكُم ، ومقامكم بذلك حقيق . فمتي يسمح الزمان يكون له في الرياسة أملُ عريق ، ويَسْتَمسك من العلم بحبل وثيق . وأنتم بحمد الله تعالي في رؤساء عصركم كالشامة لما اجَتمع لكم من الصفات العلية فحسيبٌ ، ورئيسٌ ، وعالمٌ وعلامه » (١).

ومن أنماط النثر كتب العهود ومنها كتاب العهد بولاية السلطنة لابن السلطان الأشرف إينال أحمد المؤيد سنة ٨٦٥ هـ . كتبه المحب أبو الفضل ابن الشحنة محمد بن محمد بن الشهاب غازي (توفي سنة ٨٩٠ هـ . وكان أنذاك كاتب السر السلطاني .

(١) من نظم العقيان في أعيان الأعيان بتحقيق فيليبب حتي طبع المطبعة السورية الأمريكية بنيو يورك سنة ١٩٢٧ م.

قال (١) :

« هذا عهدُ شريفُ تبسَّمَ ثَغْرُ ربيعه لما تنسَّم في جمادي وروده وعقد ضيف لايحلُّ لأحدٍ إن جدَّ عقوده ، ومحضر كريمُ أحرم الله حكَّامه وشهودَه ، ومجمعُ عظيمُ الزم الله الكافة أحكامه وعُهُودَهُ .

من عبد الله وليّه وابن عم نبيه المصطفي وصيفه المستجد بالله أمير المؤمنين أعزَّ الله ببقائه الدين مولانا السلطان الأعظم الملك أبي الفتح أحمد بن السعيد الملك الأشرف أبي النصر إينال - فتح الله له مشرق الممالكِ ومغربها ، وآلان لطاعته شديدها ، وأذل لدولته صعبها .

صَدَر عن اتفاق أهل الحل والعقد ، واختيار أرباب السير والتقسيم والنقد وتلا لسان الحال في موكبه المشهود (يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) .

أما بعد . فالحمد لله الذي أيد الأمة المحمدية والدين الحنيف بأحمد ، ونصر العصابة الأحمدية والشرع الشريف بالملك المؤيَّد ، وأنال أحمد عباده أقصي مراده ، فيافوز من كان أحمد .

وأظهر في سماء العَدْل شهاباً لايزال عهدُه يتجدد ، وثبَّت أركان الدولة الشريفة بملك أحكم بنيانها ، وشيد بسيفه المرهف ، وسنانه المثقف وسهمه . الذي كراية المسوَّدْ .

والحمد لله علي ما منح من جزيل الأنعام ، وفتح من اجتماع كلمة الإسلام علي أحسن اتساق وأكمل نظام ، وأجمل انفاق ، تؤذن براعته بحسن الختام .. إلخ » .

والظاهرة علي ما ذكرنا من خصائص الكتابة عامة واضحة ، فالميل للسجع والترجيع في القول ، والمبالغة ، لكنا نري هاهنا شيئاً يلفت النظر وهو اهتمام الكاتب باستخدام اسم ولي العهد مادة يشتق منها بعض اللفظ ويتلاعب به ، وهذا مما عيب به أسلوب العصر ونوه به ابن خلدون ، فإن المقام ليس مقام تلاعب باللفظ واقتدار ولوذعية لان الموضوع عهد وميثاق ينبغي أن تكون العبارة فيه واضحة

(١) الذيل علي رفع الأصل : ص ٣٧٠

الدلالة مستقيمة اللفظ والتعبير . لكن الكاتب المتفصح لم يفرق بين كلام الإنشاء في مجال التندر أو الترسل ومجال العهد والميثاق.

وقد كان القدماء أقدر علي التفريق بين المجالين . فللأدب الخالص «الإنشاء» مجاله ، وللكتابة الموضوعية فيما يتعلق بالأمورالجارية وشؤون الحكم والملك مجالُها ، يتأنق الكاتب في موضوعه لايسرف في القول . ولايخرج عن حدود الموضوع بمزوق العبارة أو مردد اللفظ .

ومن النثر رسائل وصف المعارك وقد رأيناها في العصرين السابقين ، وظل هذا الموضوع من مهام الكتابوسبقت إشاوتنا إلي ذلك في الكتابة التاريخية .

في عصرنا هذا ، ومن أكمل ما نعرض له وصف صاحب الدرة المضيئة لموقعه الترك مع العرب سنة ٧٩٢هـ .

قال (١) :

«وفي يوم الخميس أتت العرب أيضاً علي عادتهم ، فركب العساكر والتقوهُمْ وأبذلوا فيها المجهود ، وتوكلواعلي الواحد المعبود ، ووقعت العين علي العين ووقف في موقف الحرب لملتقي الأعداء ، وأخلصوا السريره ، وتلا لسانُ حالهم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة) وحملت الفرسان علي الفرسان ، وتنازلت الأبطال وجالت الصوارم في ضيق المجال ، وكشفت الحرب قنعها ، ومدت يدها وباعَها ، وارتعدت الفرائص والمفاصل ، وبرقَتْ السيوف الفواصل ، وطارت الرءوسُ وخمدت النفوس ، فلا ترَي إلا رءوسًا طائرة وقلوباً طائرة ، وخيولاً طائرة ورجالاً تتخابط ، وهامات تتساقط ..هذا جريح والآخر طريح ...» .

وقال آخر يصف وقعه المماليك (٢) .

«وأما عسكر الشام فإنه ما أصبح عليه الصباح إلا وعسكر الناصريّ قد أقبل مثل النعام ، فركبت عسكر الشام ودقت الكوسات وثارت الرجالُ ، وصهلت الخيول ، وتقدمت الأبطال إلي ملتقي الأبطال ، وارتجت الأرض والتقي الفريقان ، وبان

(١) الدرة المضيئة : ص ١٣٦ (٢) الدرة المضيئة ص ٩

الفارس الجيد من الجبان ، وبقيت قلوب الرجال كالرايات خوافق ، وصهيل الخيل رعود ، وضرب السيوف صواعق . وسالت الدماء في قصطل الحرب من أنابيب القنا ، وطلعت الأسنة الزرق علي الرماح السمر ، وعمل الصارم البتّار حتي ولّي الجبان الفرار ، واختلطت الصفوف بالصفوف، وغنّت في سماع الحرب قينات السيوف .

وصالت الفرسان صولة ، ورقصت الرءوس في دخول الضرب جولّه ، فذكرت في ذلك الوقت قول ابن سناء الملك حيث يقول :

إن كنت ترغب أن ترانا في لقا	يوم الهياجِ إذا تشاجرت القنـــا
تلقي الذي تجنيهم ثمر العـــلا	قضباً يطيب بها الجنا عمن جني
لايشربون سوي الدماء مدامـةً	إذ ينشقون وذي الأسنة سوسنـــا
وإذا الحسامُ بمعركٍ غنّي لهـــم	خلَعُوا نفوسهم علي ذاك الغنـــا

هذا وعساكر الناصر كأنهم أسودُ وثبت تحامي عن الأشبال »(١).

وشاعت الحكايات القصيرة يسوقها الكاتب مستشهداً علي بعض الأحداث الجارية أو الآفات الاجتماعية كالبرطلة أو الرشوة ، منها حكاية الفأرة التي أخرجت صاحبتها من تحت «الطاسة» برشوة الرجل الذي ألقاها عليها (٢) .

وفي الدرة المضيئة حكايات نثرية أقرب إلي أسلوب الراوي المسجوع الملئ بالخيال يرويه علي الربابة.

وهذا ضربٌ من التأثر الذي أشرنا إليه بأسلوب الحكاية في كليلة ودمنة وألف ليلة وغيرها وشابت هذه الكتابات الوعيظة الألفاظ والتعبيرات العامية ، وإن التزم الفصيح ولم يعدل عنه ، ومنهم من استخدم الركيك ، أو الفصيح الممزوج بالعامية

وقد كان ابن اياس ممن يؤثرون استخدام العاميّة في اثناء سياقهم الفصيح وكثيراً ما يُعبَّر بتعبير «راحت عليه» و «راحت علي من راح» .

وتجد بعض الدخيل من اللفظ مثل لفظ «الغليون» بمعني المركب الكبير.

---

(١) الدرة المضيئة : ص ١٠ (٢) الدرة المضيئة : ص ٤٠ ومابعدها

المقامـــات :

وظلت المقامات صورة من صور النثر الغنيً في هذا العصر ، ودار معظمها حول الحكايات الخرافية ، أو القصص الفكاهي الذي يمثل النقد الاجتماعي أو القصص الديني والوعظي .

ومن كُتَّاب المقامات في العصر كمال الدين ابن الأعمي . وله من المقامات الاجتماعية الفكهة مقامة في عشرة من المحارفين - أصحاب الحرف - ذكر منها ابن شاكر مقامة في نحوي مع اسكاف .

وروي له صاحب الدرة المضيئة مقامة في لص قال :

« قال الشيخ : فعندما سمع اللص مقال صاحبه البحري مَرق قائماً ، وجعل يقول بلسان جرئ ، وجنان قوي ، ولايفكر فيما يقول ، ولايدري ما إليه أمره يؤول ، وقال : ياهذا لقد قلت فأبطات ، وتكلمت فأخطأت . ويحك! أما سمعت بجوال السباسب وخواض الغياهب ، السالم من المصايب ، المعروف في المشارق والمغارب ، أما علمت أني قليل العدد ، كثير المدد ، خفيف الرجل واليد ، كما أطلقت قفلاً موثقاً ، وفتحت باباً مغلقاً ، وأورثت الحَزَنَ و الكآبة . ورثت صاحب المال من غير قرابة . كم وسعْت من نقوب ، وضيقت من قلوب . كم استبحت حميً منعياً ، وبلغتُ مكاناً رفيعاً ، وأعجزت الولاة ونوابها ، وركبت من الطرق صَعابها ، لا أخشي نوائب المحذور ، ولاأفكر في عواقب الأمور . لايهولني الإقدام ولاتعتريني الأوهام ، ولاتغيرني الأيام ، واستوي عندي الحلال والحرام ، لا استعين بصاحب ولا رفاق ، ولايفوتني درب ولا زقاق ، فمن ذا يبارزني . أو يناضل في هذه الخصال دُوني ...! ».

المقامات في صبح الأعشي (١)

أنشأ القلقشندي مقامة أشار إليها في صدر كتابه صبح الأعشي سنة ٧٩١هـ . يقول عنها(٢) « وهذه المقامة التي قدمتُ الإشارة إليها في خطبة هذا الكتاب إلي أني كنت أنشأتها سنة احدي وتسعين وسبعمائه عند استقراري في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة ، وأنها اشتملت مع الاختصار علي جملة جمة من صناعة الإنشاء وسميتها بـ « الكواكب الدُّرية في المناقب البدرية » ، ووجهت المَقَالَ فيها لتقريظ المقر البدْري بن المقر العلائي بن المقر المحيوي بن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء بالإبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ.

جعلت مبناها علي أنه لابد للإنسان من حرفة يتعلق بها ، ومعيشة يتمسك بسببها ، وأن الكتابة هي الحرفة التي لايليق بطالب العلم سواها ، ولايجوز له العدول عنها إلي ما عداها . مع الجنوح فيها إلي تفضيل كتابة الإنسان وترجيحها وتقديمها علي كتابة الدّيْونة وترشيحها . وقد اشتملت علي بيان مايحتاج إليه كتاب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجداد . مع التنبيه علي جملة من المصطلح بينت مقاصده ، ومهدت قواعده ، علي ماستقف عليه من خلال مطاويها إن شاء الله تعالي وهي :

(حكي الناثر بن نظام قال : لم أزل قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف أنصب لاقتناص العلم أشْرَاكَ التحصيل ، وأنزّهُ توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ، مُشمراً عن ساق الجدّ ذَيلَ الاجتهاد ، مستمراً علي الوحدة ، وملازمة الانفراد ، وانتهز فرصة الشباب قبل توليها ،واغتنم حالة الصحة قبل تجافيها ، قد حالف جفني السهاد ، وخالف طيب الرقاد ، أُمرِّنُ النفس علي الاشتغال كي لاتمل وتنفر عن الطلب وتجمح ، مميلاً جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها ، صارفاً وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركوب إليها ..إلخ).

وممن أنشأ المقامات الشيخ شمس الدين القادري الشاعر الأديب ، وله مقامه في

---

(١) صبح الأعشي : ١٤ / ١٢٠.
(٢) المصدر نفسه : ص ١١١

الأزبكية لطيفة كلها غرر، وتشتمل علي نثر ونظم ، أوردها ابن اياس في كتابه : (نزهة الأمم في العجائب والحكم)(١).

وممن كتب المقامات من أدباء العصر جلال الدين السيوطي وقد لجأ فيها إلي الرمز ، واتخذ منها أسلوباً لنقد بعض أحوال مجتمعه وتوجه بها إلي القراء واعظاً وموجهاً ، ومعبراً عن وجهة نظره في الحياة والناس .

ومنها مقامة « الرياحين » ، وتدور حول تخيلّ مناظرة بين أنواع الرياحين.
وترمز هذه المناظرة إلي مشايعته للخلافة العباسية . في عصر رأي فيه وعاني تدنيّ قدر الخلافة ، وتعنت سلاطين المماليك مع بعض الخلفاء الرمزيّينَ الذين كانوا يتولون هذا المنصب الصوري واحداً بعد الآخر في مصر بعد فقدان كرسيّ الحكم ببغداد ووفودهم إلي مصر ، فصاروا لعبة في أيدي السلاطين .

وفيها قلّد بعض من سبقه من الصوفية في اتخاذ الرياحين رمزاً لمعان أرادوا التعبير عنها (٢). وتقوم مقامة السيوطي علي الحوار بين بعض الرياحين وقد اتخذهم رمزاً لبعض أمراء المماليك .

ويبدو أن السيوطي كغيره من رجال القلم كانوا يحنون بعودة الخلافة لما قاسوه من ظلم المماليك واستبدادهم ، حتي يعود الاستقرار إلي الدولة الاسلامية في رأيهم

---

(١) ابن اياس : ص ٤٩٥

(٢) راجع ما اسلفنا القول فيه عن ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب .

كتب العهود

ومن صور الكتابة الرسمية كتب العهود بولاية السلطنة ومن ذلك العهد الذي كتبه ابن الشحنه (٨٠٤-٨٩٠هـ) كاتب السرّ السلطاني لابن السلطان الأشراف إينال واسمه أحمد المؤيد بتولي السلطنة من بعده .

يقول العهد : (١) علي لسان الخليفة العباسي

«هذا عهد شريف تبسَّم ثغر ربيعه لَمّا تَنسَّمَ في جمادَي وروده وعقد منيفٌ لايحلُّ لاحدٍ كانَ حلُّ عقوده ، ومحضرٌ كريمٌ أجزمَ الله أحكَّامُه وعهَودَه ، من عبد الله وليّه ، وابن عمّ نبيه المصطفي ، وصفيه المستنجد بالله أمير المؤمنين ، أعز الله ببقائه الدين ، إلي مولانا السلطان الأعظم الملك المؤيد أحمد أبي الفتح أحمد بن السلطان السعيد السّديد الملك الأشرف أبي النصر إينال - فتح الله له شرق الممالك وغربها ، وألان لطاعته شديدها وأذلّ صعبها ، صدر عن اتفاق أهل الحلّ والعقد ، واختيار أو باب السَّيْر والتقسيم والنقد . وتلا لسانُ الحال في موكبه المشهود «ياأيُّها الذين آمنُوا أوفوا بالعهود ».

أما بعد فالحمد لله الذي أيدَّ الملّة المحمدية والدين الحنيف بأحمد ، ونصر العصابة الأحمدية والشرع الشريف بالملك المؤيد . وأنالَ أحمدَ عباده أقصي مراده ، فيافوز من كان أحمد، وأظهر في سماء العدل شهاباً لايزالَ سعدَه يتجدَّد ، وثبت أساس أركان الدولة الشريفة بملك أحكمَ بنيانها ، وشيَّد بسيفه المرهف ، وسنانه المثقف، وسهمه الذي كرأيه المسدَّد .

والحمد لله علي مامنح من جزيل الإنعام ، وفتح من اجتماع كلمة الإسلام ، علي أحسن اتّساق ، وأكمل نظام ، وأجمل اتفاق تؤذن براعته بحسن الختام . والحمد لله المانّ علي الإسلام والمسلمين بملكٍ أصله في الملك ثابت وفرعه في أرُومَة المجْد نابت ، وكفَّ بسعيد وجهه ومبارك قدمه يدكلّ عابث وعائث ، وحكَّم سيُوفَه في أعناقِ كل ناكب وناكث .

والحمد لله الذي جعل أيامه سافره عن وَجْهِ التهاني بأمارات السعادة تلوح

(١) الذيل علي رفع الإ ص ٣٧٠

وتوضح بوادر الإقبال غاية الوضوح . وتعلم أن غبوق سعده سيعقبه نعم الصبوح وكفي شاهداً علي ذلك ماورد في أول دولته من بشارات الفتوح .

والحمد لله الذي جعل إشعار العدل في أيام المؤيد ظاهراً ، وأقام له من دولته ناصراً قاهراً ، وجعل لسانَ الكونِ بحبس سيرته سائراً . فله الحمد لله عوداً علي بدء ، وأولا وآخراً.

والحمد لله جاعل المستنجد قائماً بأمره علي مَنْ ناوأه ، وكافي المتوكل عليه ما أهمّه من آخرته ودنياه ، فإليه نلْجأُ ، ومن لجأ إليه آواه ، وعليه نتوكل ، ومن توكل عليه كفاه . وبه نستنصر ، ومن استنصر به أيده وفي حمَاهُ حَمَاه .

في « الحمد لله الذي هَدَانا لهذا وما كُنَّا لِنَهْتَدي لَوْلا أَنْ هَدَانا اللّه » والحمد لله رافع أهل البيت النبوي علي هام الكواكب ، وواضع مجدهم السرمدي من أعناق الفخار علي الذّري والغوارب ، ومُحلهم في أعلي الأنساب وأشرف الذوائب من أفخر فَخذِ كعب بن لؤي بن غالب .

نحمده علي أن سلك بنا أحمَدَ المسالك ، وشَرَّف سُلطاننا علي سلاطين الأرض ، ومملكتنا علي سائر الممالك .

ونشكره علي النجاة بأحمد من مهاوي المماليك . كما جعل من أمته طائفة قائمة بأمره ظاهرين علي الحق ، لاينضرهم مَنْ خَذَلَهم حتي يأتي أمر اللّه ، وهم علي ذلك .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إلهُ حكمَ فعدل . وربٌّ جعل ماظهر من الكواكب عوضاً عما أفَل ، ونقل إلي الأسرّة خير خلف عمن إلي رحمته انتقل، ومَنَّ علي عباده عَمَّنْ سلف بأحسن بدل ، ونَشهد أن سيد البشر محمداً عبده ورسوله الذي بعثه للعالمين رحمة ، وجعل سيوفه المرهفة علي الظالمين نقمة ، وبلّغ ملك أُمته ما زوي له المشارق والمغارب ، وأظهر علي يديه من المعجزات خوارق العجائب ، صلي اللّه عليه وعلي آله وأصحابه وأزواجه النجباء والنجائب ، ماطلع صبح ، ودجي جنح ، وأعقب الأضواء بالغياهب ، وسلم تسليماً كثيراً.

ولما كان أجر القيام بالإمامة العظمي أعظم الأجور ، وتدبير الممالك الإسلامية صلاح الأمور ، وجب أن يُختار للسلطنة المعظمة من الملوك أعظمهم ، ومن

السلاطين أعرفهم بالمهمات وأعملهم ، وللآراء المسددة مَنْ هو أبو عذرتها ، وابن بجدتها ، ومن إذا التقت مضايق الخصوم بشجاعته فرقها ، وإذا اجتمعت كتائب الهموم ببسالته مزقها ، وخضعت لبأسه وحكمه الأكاسرة من الملوك ، وسلك في عنفوان شبابه ما يعجز المشايخ من حسن السلوك ، وأيده الله - تعالي - بنصره ، ورد كيد عدوه في نَحْرِه ، وأرغم بما أظهر من / عَدْله أنف من يناوئه ، فيحق لمحبه الداعي ببقاء دولته ان يقول فيه : { طويل }

أيَا مَلِكاً بالعَدْلِ أصبَحَ ظاهِـرا ... وخَادِمُه النَّصْرُ العَزِيزُ المجَـدَّدُ

وأ مسي بأفْقِ المُلك بَدْراً مُكَمّلاً ... وأَضْحيَ شِهَاباً بالسَّنَا يتوقّد

ليَهْنِكَ إقبالٌ ومُلكٌ مخلَّــــدَ ... وسعدٌ وإسعادٌ وعزٌ مؤبَّـــد

وأنَّك منصورٌ لك الله ناصِــرٌ ... عَدُوُّكَ مَقْهورٌ وضدك مُكْمَـدُ

وإن شَيَّدَ الأعداءُ أبوابَ غَدْرِهم ... فأنْتَ أبو الفَتح المُبين مُؤَيَّـدُ

فلذلك رأي أمير المؤمنين بفكرَه الصائب ، ولم يزل يعمل رأيه الثاقب ويراجع علماء الدين وقضاته ، وملوك الإسلام وحماته ، فيمن يصلح لهذا النبأ العظيم . ومن يقوم بأعباء هذا الخطب الجسيم ، وذلك حين ثَقُلَ بالملك السعيد الشهيد الأشرف المرض ، ومن يحصل به في هذا العَرض الفَرضَ ، حق اجتمعت الآراء السديدة. من أهل الحل والعقد والإشارة ، بعد التدبر والتفكر ، وتكرار الاستخارة . أنه لايقوم بهذا المنصب، ولايصح لهذا المقام إلا الشجاع الباسل والأسد الضرغام ، نجل السلاطين من الطرفين ، الجامع من الشجاعة والعلم ، بين الشرفين ، أسد الله في أرضه في هذا العصر ، السلطان المؤيد أبو الفتح بن الأشرف أبي النصر، أيده الله بملائكة في سمواته وأنزل عليه النصر العزيز من سائر جهاته ، واستخار الله سبحانه وتعالي فعدلها أمير المؤمنين ، المستنجد بالله أبو المظفر يوسف ابن عم سيد المرسلين ، بعد أن انعقد الإجماع علي ذلك من غير خلاف ، وأكدت الأيمان والمواثيق علي الوفاء له ، وعدم الإخلاف ، وعهد إليه بعهد الله وميثاقه ، وما أشهد به ملائكة قدسه ، حيث قال جل وعلا . «إن الذين يبايعونك أنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث علي نفسه» ، وعقد له البيعة علي جميع ما اقتضه خلافته ، وانتظمته إمامته ، وفوض إلية أمر السلطنة المعظمه ، وجعل اليه

الإشارة وله الكلمة ، بجميع الممالك الأسلامية ، علي العصائب المحمدية ، بمشارق الأرض ومغاربها ، وحيث انتهت كلمة الإسلام بكامبها وغاربها ، والظفر في أمر كُفَّالها وقضائها ، وأمرائها وولاتها ، في جميع نبلاد والأقطار ، وسائر المدن والأمصار ، والقلاع والثغور ، والسهول والوعور .

وحكمه في العساكر والأجناد ، وصرفه في الأرواح والأجساد ، والرقاب والنواصي ، والمعاقل والصياصي / وجعل له النظر في جميع الأمة طراً ، بعداً وقرباً ، وشرقاً وغرباً ، وبراً وبحراً ، وهنداً وسنداً ، وحجازاً ويمناً وشاماً ومصراً ، وأبلي له في ذلك عذراً ، وركن إليه في باطن الملك وظاهره ، وعامر البقاع وغامره ، وولاه ماله الولاية عليه من ذلك ، وبسط يده الشريفة ، وأمره العالي،في سائر الأقطار والممالك من العرب والعجم . وجميع الملوك وسائر الأمم ، ينظر في التولية والعزل ، لسائر ملوكها وعساكرها وجيوشها ، وأسْوَدها وأحمرها ، من عربها وعجمها ، وتركها وزنجها وحبوشها ، وجميع أصنافها علي اختلاف أجناسها وتباين أنواعها ، وتفرق أناسها ، وتجهيز الجيوش ، وإقامة الحدود ، وتقاليد الكفال والقضاة والوزراء والأمراء ، وكتابة العهود..

فوض إليه ذلك تفويضاً كاملاً تاماً ، عاماً شاملاً ، سعيداً مباركاً ، ولم يجعل له في ذلك ظهيراً ولا مشاركاً، يقر من شاء منهم . ويعزل ، ويصل أرزاقهم بإذن اللّه ، ويفصل ، ويقلّدُ الوظائف ، ويخرج الإقطاعات ويجند الجنود، ويقرر المرتبات ، ويجاهد في اللّه حق جهاده ، ويجالد من يري مصلحةَ المسلمين في جلاده ، ويهادن ويفادي ، ويصالح ويعادي ، ويمن ويصفح ، ويعمل في ذلك برأيه الشريف الأرجح ، وولاه ذلك ولاية صحيحة ، محكمة صريحة ، يتصرف في ذلك بما أراه اللّه بصره ، ويعمل بما يرجو ثوابه .

أيده اللّه ونصره ، وعول في أمور الإسلام والمسلمين علي سَديد آرائه واعتمد علي سعيد إبرامه وإمضائه عاملا ، في ذلك بتقوي اللّه فيما فوضَ إليه ، معتمداً في تنفيذ أحكام اللّه عليه ، من أقامة شعائر الشرع . ورفع مناره ، وإماتة الباطل ، ومحو آثاره ، وإنصاف المظلوم من ظالمه ورد العدل إلي أعلي معالمه «والأخذ علي يد الظالم ، وأن لا تأخذه في اللّه لومة لائم .

قبل ذلك معدلها السلطان الملك « المؤيد أبي الفتح أحمد » أعز اللّه به الإسلام ونصره ، من معدلها أمير المؤمنين «المستنجد باللّه أبي المظفر قَبُولاً أقبلت التهاني

بوصوله ، ووصلت المسرات الي القلب بوصوله ، وتم هذا العقد ؛ وشهد به مشايخ الإسلام ، وأئمة المسلمين ، وانتظم هذا الأمر ، بحضرة الخاص والعام ، من وجوه الأمراء وسراة الموحدين ، وأشرق في أفق السعادة نور بدره ، في رابعة العشر الثاني من شهره ، واعتاضت الأمة عن ضياء تلك الشمس بنور هذا القمر ، وكان لهم في المسرة بمن بقي تسلية عمن غبر ، فروت السلطنة الشريفة عن جَلاَلَهْ ، وأخذها عن أصالة من الطرفين أي أصالة ، فوالده الأشراف ، وجده الظاهر ، وسلفه في العلم والملك نعم السلف الطاهر ، ورفعت الأيدي بالدعاء له بالعمر الطويل ، مع البقاء في الملك وهذا المنصب الجليل ، وقال خادم بابه العالي /وباب أبيه فيما أنشده بحضرته الشريفة يهنئه .

أنـت المؤيـــد صدقـــاً	ووارث المـــلك حقـــاً
«وعُمَرُ الأشرف » طِبقاً	في الملك تبقي وترقي

وهو سلطان بحمد الله قلدها مسئولا لا سائلا ، ومالت السلطنة إليه وما كان إليها مائلا، ورق قلبه إلي الدخول عليها ، ظفرت منه بأي كفء كريم ؛ وأنشد لسان الحال متمثلا بالقول القديم .

فلم تك تصلح إلا لــه	ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيـــره	لزلزلت الأرض زلزالها

والوصايا كثيرة ، وهو بحمد الله يعلمها ويعلّمها ، وتقوي الله ملاك الأمور ، ومازال بتوفيق الله يلْزَمها ويُلْزِمها ، فالله تعالي يزين باسمه الشريف أعواد المنابر ، ويشرف بقلمه السعيد أفواه المحَابر ، ويجعل العدل شعاره ، والجود دثاره ، ويجمّل ببقائه أقاليم الملك وأمصاره ، ويرفع به الدين ، ويعز أنصاره ، ويمنع به الجوْر ، ويضع آصاره ، ويبلغه من خير الدنيا والآخرة أو طاره ، ويجعل بعد العمر الطويل في الفردوس الأعلي داره ».

الخطــب :

وبقيت الخطب الدينية علي حالها بصورها المعروفة ، وبأنواعها من منبرية وغيرها في المناسبات والمحافل . ونشير إلي نوع من الخطب لم نعرض له من قبل هو الخطب الدراسية أو التعليمية يلقيها العالم بين يدي طلبته مفتتحاً بها دروسه. ومثالها تلك الخطبة التي ألقاها ابن خلدون في افتتاح تدريسه بالمدرسة القمحية المالكية بالقاهرة. قال:

(الحمد لله الذي بدأ النعم قبل سؤالها ، ووفق من هداه للشكر علي منالها ، وجعل جزاء المحسنين في محبته ففازوا بعظيم نوالها . وعلي الإنسان الأسماء والبيان ، وما لم يعلم من امثالها ، وميزه بالعقل الذي فضَّله علي أصناف الموجودات وأجيالها . وهداه بقبول أمانة التكليف وحمل أثقالها . وخلق الجن والإنس للعبادة ، ففاز منهم بالسعادة من جدّ في امتثالها ، ويَسَّر كلاً لما خُلِقَ لهُ من هداية نفسه أو إخلالها . وفرغ ربك من خلْقها وخلقها وأرزاقها وآجالها.

والصلاة والسلام علي سيدنا ومولانا محمد نكتة الأكوان وجمالها ، والحجة البالغة لله علي كمالها ؛ الذي رقَّاه في أطوار الاصطفاء ، وآدم من الطين والماء فجاء خاتمَ ، أنبيائها وأرسالها ، ونَسخَ المللَ بشريعته البيضاء فتميزَ حرامُها من حلالها ، ورضيَ لنا بالإسلام ديناً فأتم علينا النعمة بكمالها.

والرضا علي آله وأصحابه غيوث رحمته المنسجمة وظلالها ، وليوث ملاحمه المشهورة وأبطالها وخير أمة أخرجَت للناس في توسطها واعتدالها ، وظهور الهداية والاستقامة في أحوالها ، صلي الله عليه وعليهم صلاة تنصل الخيرات باتصالها ، وتنال البركات من خلالها .

أما بعدُ فإن الله سبحانه لما أقرَّ الملة الإسلامية في نصابها وشفاها من أدوائها وأوصابها ، وأورث الأرض عبادَهُ الصالحين من أيدي غصابها بعد أن باهلت فارسُ بتاجها وعصابها ، وخَلَتْ الروم إلي تماثيلها وأنصابها ، وجعل لها من العلماء حفظةً وقَوَمة ، ونجوماً يهتدي بها التابع ، وأعلاماً يتربونها للدراية تبياناً وافهاماً . ويوسعونها بالتدريس ترتيباً وإحكاماً ، وتهذيباً لأصولها وفروعها ، ونظاماً.

القاطعين بنصالهم المرهفة علائق المين والإفك ، المصيبين بسهامهم النافذة ثغر

الجهالة والشرك ، المظهرين سر قوله : لاتزال طائفه من أمتي فيما يتناولونه من الاخذ وَالترك ، ففسحوا خطة الإسلام ، وقامُوا بالدعوة الخلافية أحسن قيام ، وبثوها في أقصي التخوم من الحجاز والشام . واعتمدوا في خدمة الحرمين الشريفين ما فضلُوا به ملوك الأنام . واقتعدوا كرسيّ مصر الذي ألقت له الأقاليم يد الاستسلام ، علي قدم الأيام ، فزخر بهم منذ دولتهم بحر العمران ، وتجاويت فيها المدارس بترجيع المثاني من القرآن ، وعمرت المساجد بالصلوات والآذان تكاثر عدد الحصي والشُّهْان . وقامت المأذن علي قدم الاستغفار ، والسبحان ، معلنة بشعار الإيمان ، وازدان جوها بالقصر والإيوان فالإيوان . ونُظِّمَ دستُها بالعزيز والظاهر والأمير والسلطان ».

ثم يمتدح بعدها السلطان الظاهر برقوق ودولته ، ويشير إلي رحلته من المغرب إلي مصر.

ومع أن ابن خلدون ذم الاسراف في السجع إلا أنه التزمه هنا وتقيد به . وربما أوقعه في الحرج في بعض مواضع الجمل ، فساق السجعات متكلفة أحياناً ، أو متعنتاً في تحميلها معني العبارة تمشياً مع السياق . وهو لم يخلُ من المحسنات الأخري ، كالاستعارة والكناية والإشارة والتلميح ، وإن باعد بينه وبين الجناس .

الباب الخامس

الشعر والشعراء

الشعر والشعراء

واصل الشعر مسيرته في عصر دولة المماليك الجراكسة بقية القرن الثامن وطوال القرن التاسع وأوائل القرن العاشر، لكن حاله لم يبق كما كانت عليه عصر دولة المماليك الأولي في القرنين السابع والثامن، بل اعترته عوارض، وانتابته آفات استشرت فنالته بالوهن، وقللت من رونقه وجماله.

لقد عرف الشعر في العصر السابق بعض عناصر الضعف تلك، وأهمها دخول العامية بألفاظها وتراكيبها علي الفصحي واختلاط اللغتين في تعبيراته، ولكن شعراء العصر السابق كانوا أكثر وعياً باستخدام العامية في مواضعها بحيث تكون حلية لاتُغير علي جمال التعبير، ولاتنال من رونقه.

وتغير الحال في هذا العصر فصارت العامية غالية علي الشعر، لفظاً وتعبيراً وفكراً، بل إن الجهالة دخلت علي الشعر، فصار الجهل بمعاني اللفظ والخطأ اللغوي والعروض سمات ظاهرة في شعر العصر، وما كان ذلك إلا لدخول هذا الميدان غير المجيدين له ولا القادرين عليه، الموهوبين فيه.

كان كل من نظم أبياتاً، موزونة أو مقفاة ، بل مقفاة دون حرص علي وزن سليم، يعد نفسه شاعراً، ويتصدي لقول الشعر.. وكم من شواهد علي ذلك في كتب التاريخ لهذا العصر.

ولعل غلبة الجهالة ، والأمية، حقيقةً وذوقاً علي العصر دفعت بهؤلاء إلي التشدق بقول الشعر.

بدأ الشعر في هذا العصر إذا يفقد رونقه، وتخلف عن غيره من فنون الأدب والفكر، ولهذا أسبابه العامة فضلاً عن هذه الأسباب الخاصة التي عرضنا لطرف منها في حديثنا عن الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ومهما يكن من أمر هذا الشعر، ومن تخلفه فلابد لنا من وصده وتشخيص أدوائه ، لكشفها والتنبيه إليها، ولعل الأهم من كشف أدواء الشعر باعتباره فناً قولياً جميلاً ، أن نكشف عن عناصر الحياة والفكر ونبضات الإنسان في ذلك

العصر، والتي ضمنها هذا القول الموزون الذي سلكه المؤرخون للعصر ضمن الشعر، وإن كنا نختلف معهم في هذه كذلك.

وأول مانعرض له من حديث عن هذا الشعر موضوعاته. ومنها موضوعات تقليدية جري عليها الشعراء في كل العصور، وتبعهم شعراء العصر من مديح وهجاء وفخر ووصف وغزل، إلا أن تلك الموضوعات التقليدية قد اتخذت طابعاً جديداً في هذا العصر، تغيرت فيه القيم والمضامين ولم تعد تلك نفسها التي تتردد في الشعر التقليدي أو القديم. وإن بدا في ظاهر القول الصفات نفسها والقوالب، والأنماط المعروفة الموروثة.

ولعل أهم موضوع يستأثر بالاهتمام من موضوعات العصر ماأرخ لمعارك أو أحداث تاريخية. ولو أن هذا الموضوع قديم منذ صنع ابن المعتز أرجوزته التاريخية، ومافعله قبله علي ابن الجهم، وقد نظم إجزاً تاريخياً (١). وتبعهما ابن الانباري فعلق علي قصيدة ابن الجهم بمنظومة تاريخية في تاريخ الخلفاء. ونظم شعراء الأندلس مجموعة من المنظومات التاريخية تتمثل في منظومات ابن عبد ربه وابن عبدون ولسان الدين بن الخطيب.

ومن منظومات عصر المماليك السابق نجد منظومة ابن دانيال فيمن ولي قضاء مصر، يقول في أولها :

يقـول راجي كـرم الله العلــي	محـمـد بن دانيـال الموصلي
من بعـد حـمـدٍ للعلي الحـاكم	غـامرنـا بالجـود والمكـارم
ثم الصـلاة بعـد ترتيل اسـمـه	عـلي أحـمـد الهـادي من كلمه
وألـه وصحبــه العـــدول	شهود حجة أحمد الرسول (٢)

وكذا منظومة ابن الجزار.

وممن نظم التاريخ في هذا العصر علاء الدين بن أيبك، ونظم مقطوعة يؤرخ بها وقائع دمشق في عصره بأسلوب واقعي تصويري، فصيح، ونظم زين الدين العراقي

---

(١) نشر ملحقاً لديوانه بتحقيق خليل مردم بدمشق . سنة ١٩٤٩

(٢) حسن المحاضرة : ٢ / ١٠٤

عبد الرحيم حسن المتوفي سنة ٨٠٦ هـ منظومته في السيرة النبوية ألفية، اختصر فيها سيرة الرسول صلي الله عليه وسلم .

ولشمس الدين محمد بن أحمد الباعوني، منظومة سماها «تحفة الظرفاء في تواريخ الملوك والخلفاء» وقف فيها عند الأشرف برسباي، وذيل عليها ابن أخيه بهاء الدين محمد بن القاضي جمال الدين يوسف منظومة في الأشرف قايتباي سلطان عصره سماها : اللمحة الأشرفية، والبهجة السنية فيما لمولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي من الأعمال الذكية والأقوال القوية (١) مطلعها :

وبعد فالتاريخ والأخبارُ ... علم له في الملّة اعتبارُ

وقد كفّي فيه من البرهانِ ... ماجاءنا من قصص القرآن (٢)

وللعيني «نظم سيرة المؤيد» إلي جانب مؤلفه نثراً. كما نظم سيرة المؤيد كذلك محمد بن ناهش الحلبي(٣).

ونظم الشعراء في المواقع والحروب والفتوح. ومن أشهر وقائع العصر ما كان بين المماليك والمغول، وبين المماليك وشاه سوار، وبين المماليك والعثمانيين.

وكان «شاه سوار» قد هزم الأشرف قايتباي فقال الشعراء :

يارب إن سواراً قد بغي وبه ... قد أصبح الناس في ضيق وفي قَلَقْ

فاكسر سواراً ودعه في السلاسل ... خواتم الأمر يستعطي من الخلق

وقال آخر :

إن سِواراً قد غدا مخلخلاً ... عسكره قد حل في دار البوار

يارب شتت شمله حتي نري ... خواتم الأمر لَهُ كسر سِوَارْ

قال ابن اياس في هزيمة عسكر المماليك ويصف عودتهم مكسورين إلي القاهرة:

« وصار العسكر بعد ذلك يدخلون إلي القاهرة في أنحس حال من العُرْي

(١) مخطوط في باريس - الأهلية - رقم
(٢) راجع روزنتال : ص ٥٤٧
(٣) كذلك جاء في الإعلان بالتوبيخ للسخاوي - يراجع روزنتال : ص ١١٦

والجوع، وبعضهم مجروح، وبعضهم ضعيف، وكان يدخل بعضهم وهو راكب علي جمال أو جمل، أو يدخل ماشياً وهو عريان »

وقال الشهاب المنصوري في مقتل شاه سوار :

يا أيها الملك الذي سَطواتُه ... تغني عن العسَّال والبتَّار
علّق سواراً فوق باب زويلةٍ ... إن كنت منه آخذاً بالثأر
فلأنت تعلم أن ذلك معصم ... ماكنت تتركه بغير سوارِ

وقد جاء أحد قادة المماليك بشاه سوار أسيراً بعد هزيمته (١) :

مُنذُ وافي الأمير يشبك مصراً ... حبذا مصر موطن الأوطار
لَبِسَتْ جِحْلَ نيلها وتَحَلَّتْ ... زند بابي زويلةِ بسوارِ

يشير إلي أنَّ شاه سوار قُتل وعلق علي باب زويلة

وقال الشيخ علاء الدين أيبك سنة ٧٩٢ هـ في وقعة دمشق أيام السلطان برقوق:

دُرْ مع زمانك يالبيبُ ودارِ ... واعمرُ فدارُكَ للخراب وداري
نفسي ونفسك والنفوس جميعها ... يجري بها نفس علي المقدار
والحكم حكم الله يفعل مايشا ... والأمر أمرُ مُقدر الأقْدار
سبق القضاء بكل ماهو كائن ... فاحذر تجادلْ في القضا وتُماري
والله قد قَسَم الذي أعطي الورى ... من رزقهم وتفاوت الأعمار
واللوح مكتوب به مَا خطه ... وجري به قلم اللطيف الباري
لابد من فرح وحزن بعده ... يأتي ومن يسر ومن إعسار
والصفو يحدث بعده كدر وهل ... أبصرت من صفو بلا أكدار
واعلم بأن الله يعلم كلما ... نبدي ونُخْفيه من الأسرار

---

(١) ابن اياس : ص ٤٤٠

يــوم المعــاد زلازل تُنسَـي بهـــا   أسمـــاءُ عُـــودٍ مُزمَـرٍ أو طـــارِ
والنفـخ في الصُّورِ الذي أرواحنـــــا   فيــــه خلاف النفخ في المزمـــار.

وتبـدو في هذه الأبيـات نغـمـة الحزن واليـأس، والتـقـوقع أو روح الانهـزام، والانصـراف عن متـع الحيـاة كالسـمـاع للأغاني والعزف والمرح واللهو في صوره المختلفة ، وهي نغمة غير غريبة في هذا العصر فقد غلبت علي شعر بعض الزهاد والصوفية .

وأراد الشاعر هاهنا أن يعزي نفسه عن الهزيمة و بأن الحياة قُلّب ينبغي للإنسان أن لايأمن لها ، وأنه يجب أن يوطّن نفسه علي تغير الأحوال، فلا يحسن بالإنسان أن يغفل وأن يلهو، وأن لا يعد العدة ليوم المعاد ، أو للموت والبعث، وقد اتخذ إلي التعبير عن هذه المعاني سبيل التقابل والتضاد بين صور اللهو الزائل في الدنيا ، والهوّل المنتظر يوم البعث.

غير أن الحرب وحدها بأحداثها بين النصر والهزيمة لم تكن مما يقلق بال شاعر العصر، ويأخذ بوجدانه ويتركه مشتتاً بين الهلع والقلق بل إن كوارث الحياة من مجاعات وطواعين تنال من الأحياء وتدمر حياتهم، وتتركهم صرعي مبهوتين هالعين.

لقد بدا في شعر معارك النصر شعور غريب لم يكن بادياً بهذا الوضوح في شعر العصر السابق، لأن عصر المماليك الأول كان عصر انتصارات كبري في معظمه، لكن هذا العصر كان عصر انحسار، إذ تجمع الأعداء حول مصر ودولة المماليك من كل جانب، وماكانت تنتهي من معركة حتي تبدأ أخري فضلاً عن المعارك الداخلية بين أمراء المماليك أنفسهم، بله النكبات والأدواء .

وأحس الشاعر بالقلق والهلع من جديد بعد أن كان قد أحس بالاستقرار والأمان ردحاً من الزمن في مصر المنتصره. وتبدو روح القلق في تلك الأبيات التي أشرنا إليها. وهذه الأبيات للسيوطي في طاعون سنة ٩٠٩ هـ :

يارِبِّ بالهـادي النَّبِي المجْـتَبـي   أغـمـد عـن الإسلام أسـيـافَ الوبا
يارِبِّ لانشـكـو أليمَ عـذابـه   إلا إليك فقـد أخـاف وأرْغَـبـــا

يارَبّ لُطفاً بالعباد فما لهم رَبٌّ سِواكَ يَقيهُمُ المستصعبا

إنا اعترفْنا بالذنوب فكلنا عاص مُسيئ للعذاب استَوجَبا

لكن إذا قُرنت عظيم ذنوبنا لعظيم عفوك كانَ عَفْوُك أغلبَا

إن كان لايرجُوك إلا محْسِنٌ في العالَمين فَمن يُجيرُ المُذنِبا

فهذا الاعتراف بالخطيئة وتجريم النَّفْس، وهذا الابتهال إلي الله أن يرفع الضر، إحساس غامر بالقلق، والضلال عن طريق الحق ورغبة في البداية. فقد أظلمت الدنيا في أعين الناس، بل أظلمت في نفوسهم آمال المستقبل، ولم يعد بصيص يرشد الناس إلا بمدد من الخالق، فهو وحده القادر علي أن يكشف هذه الظلمة وييسر سبيل النجاة.

وعلي الجانب المقابل لهذه الصورة القلقة المظلمة من الحياة في شعر العصر تطالعنا صورة أخري أكثر اشراقاً تعبر عن سير الحياة، فالحياة تسير رغم كل شئ، عجلتها لاتتوقف رغم الموت والدمار والهزيمة وسلاطين المماليك وأمراؤهم يوالون الإنشاء والتعمير، رغم كل شئ، وهاهم الشعراء يبادرون إلي تسجيل تلك الإنشاءات من مساجد ومدارس وميادين وقصور ومتنزهات، يقول الشاعر بدر الدين الزيتوني فيما أنشأه قانْصوه الغوري :

ياحَبّذا الميدان من جنةٍ مساكن الولدان والحور

أغصانه هب عليها الهوي من كل ممدود ومقصور

أطيارُه في دوْحِها مُطْربٌ وكل حسُّونٍ و شحرور

وبحرةٍ يذهب فيها الهوا جمدها تنقيشُ تَصوير

في جمع تصحيح تري ماءها وبالهوا في جمع تكسير

ويصفُ شهاب الدين أحمد بن الجمَّال جسراً بناه السلطان برقوق فيقول

أيا ملكاً بني جسراً بعدل به حَمل الأنامَ علي الشَّريعة

لـه شرفٌ علي الجَوزاءِ سامٍ وفوقَ الحُوت أركانٌ مَنيعَه

وقال شهاب الدين أحمد العطار المصري في بناء جسر الجزيرة :

راعَي الخليلي قلب الماءِ حين طغي ... بني علي قلبه جسراً وعبَّرهُ
رأي ترمُّلَ أرضيه ووحدتها والنِّيلَ ... قد خَافَ يَغْشاهاَ فجسَّره (١)

ووصفوا المساجد واقامتها ،كما رثوها إذا ماخربت، وهو من الموضوعات الجديدة في الشعر العربي، يقول علاء الدين أيبك في رثاء مسجد تنكز بدمشق وقد خرب في الوقعة بين منطاش ونائب دمشق :

يامادحاً بالأمس جامع تنكز ... من شر يوْم كان بالمرصاد
من بعد سبعين السنين وخمسهاَ ... في الذكر والصلوات والعُبَّادِ
وتردد التسبيح في الأسحار إن ... قام المؤذن بالصلاة ينادي
ألقوا به النِّيرانَ حتي أحرقوا ... مافيه من خَشب ومن أعْوادِ
فرخامُه ونحاسه متكسِّرٌ ... مُتفتِّتٌ كتَفتِّتِ الأكبادِ
وتساقطت أحجارٌ مئذنةٍ له ... كتساقُط الصخرات من أطوادِ
والنهر من بعد الصفاء مكدَّرٌ ... فكأنه ما كان يروي الصَّادي(٢)

واستحوذ النيل علي اهتمام الشعراء كما هو الحال في كل عصر فيقول الشاعر :(٣)

أضمر علي النيل فانظرنا تسُّر به ... إذا ضمرت فما في الفال اشكال
لفالك الماء رملٌ والنسيم به ... مبدي ضميرك والتجعيد أشكال

وهو وصف علي طريقة شعراء العصر من ثقل الصورة في أحمال البديع وسقم اللفظ .

وفي وصف بركة الرطلي إحدي برك النيل العامرة بالفرجة والزينة علي ضفافها

---

(١) نزهة النفوس : ص ٥٠٢
(٢) الدرة المضيئة : ص ٨٤
(٣) تاريخ ابن اياس : ص ٧٧٠

آنذاك قول الشاعر يصف حفلاً علي شواطئها وقد تلألأت الأنوار فانعكست علي صفحة الماء :

تاه الأنام بجنح الليل فاتخذوا   لهم دليلاً لدي الظَّلْمَا من اللهب

حتي كأن جلابيب الدُّجي رغبت   عن لونها وكأنَّ الشمس لم تغبَ

وقد استعار بيت أبي تمام المشهور في وصف حريق عمورية ليكمل التعبير عن الصورة التي رسمت في مخيلته.

ووصف الشعر حفلات المماليك وأعراسهم

وصف ابن اياس عرس زوج السلطان طوماي باي أخر الممانيك وطلوع موكبها إلي القلعة. فقال : صعدت خوند الخاصكية زوج الملك العادل طومان باي إلي القلعة فخرجت من بيتها الذي بقنطرة سنقر وهي في محفة من زركش ومشي قدامها رءوس النواب والحجاب والخاصكية وهم بالشاش والقماش .

ومشي أيضاً قدامها الوالي ونقيب الجيش، وعبد اللطيف الزمَّام، وأعيان الأكابر والمباشرين، وكان معها من نساء الأمراء والأعيان نحو مائتي امرأة. فلما وصلت إلي باب الستارة فرشت لها الشقق الحريرية تحت حوافر بغال المحفة ونثر عليها خفائف الذهب والفضة، وحمل الزِّمام القبة والطير علي رأسها حتي جلست بقاعة العواميد، والنوبة السلطانية عمَّاله. واستمر المهم بالقلعة عمَّالاً ثلاثة أيام. وكان لها موكب حافل لما شقَّت من الصليبة. وكان قدامها المجمع السلطاني والبقج وطشت أباريق بللور، ومَدوَّرة زركشي».

ونظم هذا الوصف شعراً فقال :

عادت خوند إلي سرورٍ ثانِ   مذ زُوِّجت بالعَادِلِ السلطانِ

في وجهها الإقبالُ والبشر الذي   يتفاءلون به بكلِّ لِسانِ

طلَعتْ كشمس الأفق ضِمْنَ محفةٍ   تُجْلَي كَنُورِ العين وسط جِنانِ

في موكب يحكي مواكب قيصر   فاقت علي كسري أنوشروانِ

لما أتتْ عند الصعود لقلعةٍ   نثرت عليها الدرَّ كالعقيانِ

إلي آخر هذا الكلام الغث. والعجيب أن ابن اياس يراها قولاً جيداً وشعراً إذ يعقب عليها بقوله (١):

«وقد عرضت هذه القصيدة علي خوند واستحسنتها»

وإن كان وصفه بلغته السهلة القريبة من العامية أكثر بياناً من شعره هذا السخيف. القريب من شعر صغار الصبية ممن يحاولون النظم.

وعرض الشعر للهجاء في صور مختلفة، بين هجاء الأمراء أو القضاة أو الولاة، أو من إليهم من عامة الناس.

ويقول الشاعر. ولم يعجبه أن زاد المماليك علي عصره، في طول قرون عمائمهم ولبسهم الصوف في مطلع الشتاء، فأفرغ عدم الإعجاب في هذه الصورة الساخرة(٢):

قد لبس الصُوفَ كلُّ كبشٍ ... قُرونُه يالها من قرون

فرُحتُ من ذاكَ مستريحاً ... لاصُوفَ عِندي ولاقرون

ويلعب بالتورية ومفارقات اللفظ

ومن هجاء بعض الشعراء لمن تولي الوزارة ولم يكن يستحقها.

قالوا البيباوي قد وَزَرْ ... فقلت كلا لاوزر

الدهرُ كالدُّولابِ لا ... يدورُ إلا بالبقَرْ

وقال آخر في الوزير نفسه (٣):

تجنَّبْ العلم والفضائل ... ومِلْ إلي الجهل ميل هائم

وكُنْ حماراً مثل البيباوي ... فالسعد في طالع البهائم

وهجاء الشاعر السلاموني للقاضي ابن عبد البر (٤):

فشا الزُور في مصر وفي جنباتها ... ولم لا وعبدُ البرِّ قاضي قُضاتها

(١) ابن اياس : ص ٦٨١

(٢) تبن اياس : ص ٧٧١

(٣) المصدر نفسه : ص ٣٨٢

(٤) المصدر نفسه : ص ٧٥٥

إذا جاءه الدينارُ من وجه رشـــوةٍ   يـري أنه حـــلٌّ علي شبُهـــاتهـــم

فإسلام ابن عبد البرليس يري سوي   بعمتـه والكُثْـرُ في سَنَمـاتِهــا

أجـــازَ أمـــوراً لاتحــلُّ بمـــلــةٍ   يحـل ويحـرم مظهـراً منكراتهـا

الست تري الأوقاف كيف تبدلـــت   وكانت علي تقديرهـا وثَباتهــــا

ولــو أمكنتــه كعبـة الله باعهــا   وأبطـل منها الحج مع عمراتِهــا

شكـت ملـة الإســلام مما ينالهــا   بأفعـالهِ يا من يزيل شكاتهـــا

فـيبكي علي الدين القويم وشرعـــه   وأحكامـــه منهــا بمنعوتاتهــا

وهو قـول ركيـك ضعيف كمـا تري، ولكنه يكشف عمـا أراد من اتهـام هذا القاضي.

ويبدو أن هجاء القضاة كان باباً حافلاً في الشعر العربي، ولم يتخل عنه الشعر في هذا العصر، وها هو شاعر آخر يهجو أحد قضاة عصر قايتباي سنة ٨٧٦ هـ. وكان هذا القاضي صغير السن لم يظهر البياض بلمته فقال الشاعر(١):

قـاضيكـمُ مـامِثْلُــهُ في حكمـه   عـفيف ذيل نبس يدعي زانيا

قـد ساس أمر الناس في أحكامه   فلم نجد أسْوَسَ منه قـاضيــا

وقيل فيه :

حضـرتُ في الدِّرس علي قـــاض   نصُّ علي التّقليـد في دَرْسِـهْ

فـيحســن البحـث علي وجهــه   ويوجب الدخـل علي نفسِــهْ

وقيل فيه :

قاضٍ إذا انفصل الخصْمانِ رَدَّهما   إلي الجدال بحكم غُـير مُنقَصم

يُبْدي الزَّهادة في الدنيا وزخْرفهـــا   جَهْراً، ويقبلُ سِراً بعرةَ الجملَ

ونظم الشعر في الفتاوِّي .كتب أحدهـم إلي الشيخ الكرماني يستفتيـــه :

---

(١) ابن اياس : ص ٤٣١

الحمـــد مقرونـــاً بكـــل ثنـــاء   للـــه ذي الإكـــرام والآلاء

ثم الصلاة مع السلام علي الرسول   وآلـــه وصحابـــه الكُرمَـــاء

ماقـولُ شيـخ العِلـم أوحـد دهْـــره   قاضي القُضاة وأحْمد الفقهاء

في ناظـر ولّي جَهُولاً درس أخبـــار   النَّبِـــي مشـــرَّع الإفتـــاء

ويردُّ القاضي عليه بقوله (١):

بالـلـــه ذي الأفـــضـــــال والآلاء   توفيقنـا لجواب ذي الأنْبـاء

أما ولاية ذي الجهالة درس أخبار   النبــــيٌ فظاهـر الـلآولاء

جرمٌ حرامٌ ذاك ليس يجـــــــوزُ   بالإجماع عند أئمة العلمـاء

واستخدم الشعر في التوقيعات علي الكتب بالتقريظ والإجازة .

ومن ذلك ماكتبه الكرماني أحمد بن نصر علي نسخة كتاب لابن حجـــــــر:

جزي الله عنا رَبُّ العَرشِ خيَرجزائـه   مُحرَّرَ ذا المجمـوع يومَ لِقائـه

لقد فـاز قصْبـاتِ السّبـاق بأسْـــرها   وفـازَ لمرقي لاأنتـهـا لارتقـائـــه

يـدوم لـه عـــزٌ بـــه وجلالـــــةٌ   وذكرُ جـميـلُ شـامخُ في ثنائـــه

فـلا زال مقرونـــاً بكـل سعـــادةٍ   تـوقَّع بـالأحكام طُـولَ بقـائـــه

وخـفـرِّقت العـادات في طُولِ عـمـره   تزيد علي الأعـمـال عند وفـاتـه

ونظموا الشعر في بعض الوقائع الغريبة أو المستغربة التي تحدث بها الناس ، كواقعة سقوط الفيل الذي أهدي إلي السلطان في القنطرة والتي تناولها الشعر الشعبي أو الزجل علي مابينا، ويقول فيها أحدهم : واتخذ منها موعظة في الموت والحياة :

يامَنْ لـهُ في دَوام العَيْـشِ تأميـلُ   لاتغترِرْ إن يكن في العُمْرِ تطْويـــلُ

فهـذه الـــدار لايبقـي بهاَ أحــدُ   لكن زمـان مَجئِ المـوت مجهــولُ

فـلا وحـــوشٌ ولاطيـرٌ، ولاسَبـــعٌ   ولاجَبـالٌ لهـا في الأرضِ تحْميـــلُ

(١) ذيل رفع الإصر : ص ١٢٢

والنسرُ يَفْنَي مع العمر الطويل، كذا يَقْنضيَ بها معْ عظيم القُوَّة الفيلُ
أمـا تـراه أتـاهُ المـوت أخرجـه يسمُو به العرضُ بين الناسِ والطُولُ
حتـيْ أتي لنفاد العُمـر قنطـرةً مشيَ عليها ومن يعلُوهُ مشغـولُ
فلـم تَطِـقْ ثقلَهُ هاتَيك فانْخَرقَتْ بـه وجـاءَ بـذاك القَـالُ والقيـلُ
وقال من بعـد عزٍّ كانَ فيـه : ومـنْ يُعـزُّ فهـو يُـذُلُّ المـوت مذلُـولُ
منْ كـلِّ فـجٍ أتـوْهُ ينظـرونَ لـه تَعجَبـاً ولكـلٍّ فيـه مَنْقُـولُ
أتـوا مَشـاةً وركبانـاً علي حُمُـر منها سمينٌ، ومنها البعض مهزولُ
وبعضهُم راكـبُ خيـلاً مُسوَّمَـةً لمشيهـا تحت تلك التُرك تَفْضيـلُ
فحيـنَ رؤيتهـم إيـاه حقَّ لهـم أن يُنْشِدوا ولهم بالفيل تهْليـلُ
"كلُّ ابن أنثي وإنْ طالَتْ سَلامتـه يومـاً علي آلةٍ حَدبْـاءَ مَحمُـولُ
فَتبْ إلي الله بالأخلاقِ عن عجـلٍ ومَنْ يَشُوبُ مع الإخلاص مَقْبُـولُ

كذا مايكرُب الناسَ أو يفرحهم من نقصان النيل أو زيادته يجد من الشعر مجالاً للتعبير والتسجيل. يقول الشاعر، أو الناظم في انحفاض النيل سنة ٨٠٦ هـ :

أقـول لمـن يشكـو تَوقّـفَ نيلنا سَلْ اللّـهَ يُمدُدْهُ بَفضُـلِ رتأييـد
ولايَقْطَعَنْكَ اليأس عن فَضلِ واحـدِ جزيلِ العطايا واسَع الفَضل والجود
ألَيْسَ الـذي عمَّ الأراضـي كلهـاَ بطُوفانِ نوحٍ يوم أرْسَتْ علي الجودي
بقادرٍ أن يسقس العبادَ بحبـي البلاد منـه بغَيْـثٍ غير محُـدود
وطوفانُ نفوحٍ كان من عضبٍ جَـري علي قومـه من جحدهم غيـر محـدود
فـإنْ تَـكُ خَطَّائينَ فـالعفْـوُ واسـعُ فنْسألُه مـن فَضْـله الجـوَّدَ بالجُـود
وإنَّكَ غفَّارُ الذَّنـوب وسـاترُ العيـ ـوب، وكشف الكروب إذا نُودي(١)

ولايغيب عنا أنه إتخذ من انحقاض النيل ومعاناة الناس، مناسبة للوم الذات،

---

(١) السخاوي ذيل السلوك ٣١٣

واتخاذ العبرة والتنبيه إلي أن الله لايغفل عن الناس ، فهو يعاقبهم علي مايرتكبون من الذنوب ، بما يجري عليهم من ضيق ، أو يصيبهم به من نكبات .

لقد استقرت هذه القاعدة في نفوس الناس ، فكانوا يلتمسون الغفران والتوبة من الله كلما ألم بهم كرب ، ويتخذ الشعراء والنظامون والوعاظ من الشعر أداة لبثُ الموعظة والتذكير. وإن جاء قولهم علي قدر حالهم وفي مستوي فهم الناس ولغتهم .

وفي زيادة النيل رضاً من الله، وايذانٌ بالخير، قال ابن اياس في حوادث سنة ٧٨٣ هـ :" وزاد النيل في تلك السنة زيادة لم يعهد مثلها. وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

قد قطع النيل جِسْرَ مصرٍ ... ولم يُراعَ له خليل
فتاةً ثار مثل سيفٍ ... يقطع والماءُ له نُصُولُ

وللنظّامينَ أقوالٌ فيما يتصل بالغلاء وندرة رغيف الخبز لشحِّ القمح والدقيق، يقول أحدهم في رثاء رغيف الخبز :

قسماً بلوْحِ الخبز عند خُروجه ... من فُرنه وله الغَداةَ فُوارُ
ورَغائفُ فيه تَرُوقُكَ وهي في ... سُحْبِ الثِّقَالِ كأنَّها أَقْمارُ
من كلِّ مَصْقُولِ السَّوالفِ أحمرِ الـ ... ـخَدَّينِ للشُّوفيزِ فيه عِذارَ
كالفضَّةِ البيضاءِ لكنْ يغْتدي ... ذَهباً إذا قويَتْ عليه النَّارُ
تَلْقَى عليه في الخِوانِ جَلالَةً ... لا تستطيع تحدُها الأبصارُ
فكأنَّ باطنَهُ بكفِّكَ درْهَمٌ ... وكأنَّ ظاهرَ لونِه دِنيارُ
ماكان أجْهلَنا بواجب حَقِّه ... لو لمْ تبيِّنْه لنا الأسْعارُ
إنْ دام هذا السِّعرُ فاعْلَمْ ... أنه لاحبةٌ تبقي ولامْعَيارُ

وعندما تَتقلَّبُ أحوال العملة ويعلو سعرها في عهد السلطان إينال ، يخاطب الشاعر الشهاب المنصوري السلطان فيقول :

أمولايَ قدآثرتني متفضلاً ... وأهديتَ ديناراً قد استغرق الوصْفَا

ولكنَّه قد خافَ أمْر مَـــليكهِ　　ألـم تَـرهُ مـن خوفهِ نقص النصْفا؟

وإلى هذا وذاك فهناك مداعبات العلماء بالشعر، فقد اتخذ وسيلة للتملح والتظرف. من ذاك ماتبادله عالمان جليلان من رجال العصر هما بدر الدين العيني قاضي القضاة وشهاب الدين بن حجر، إذ كتب ابن حجر للعيني بمناسبة ميل مئذنة جامع المؤيد قائلاً :

لجامـع مولانا المؤيـد رونــق　　منارتـه تزهـو من الحسـن والزيـن

تقول وقد مالت عليهم ترفقــوا　　فـليس على هدمي أضر مـن العَيْنِ

فأجابه عن ذلك بدر الدين العيني:

منارةٌ كعروس الحسن إذ جُليـتْ　　وهدمهـا بقضـاء الله والقدر(١)

قـالوا أصيبت بعين قَلتُ ذا غَلَـطْ　　مـاأوجب الهـدم إلا خسة الحجر

ومن هذا الشعر الفكاهي وصف أحدهم لِحْيَةْ عالم كبير (اسمه علاء الدين ابن دقيق العيد)(٢)

لعــلاء الديـن ذقــن　　تملأ الكـف وتفـضـل

فـاعمـل الغربـال فيـهـا　　لدقيـق العيـد وانخـل

ومنه قول الشاعر لأحد القضاة:

قـاضٍ إذا انفصل الخصمان رَدَّهُماَ　　إلـي جـدال بحكم غير منفصل

يبدي الزهادة في الدنيا وزخرفهـا　　جهراً ويقبـل سـراً بعـرة الجمَـلِ

ومن مخاطبة إبليس. وقد صار هذا موضوعاً من فكاهة الشعر منذ ماقاله فيه أبو نواس ، ومحمد بن دانيال في القرن السابع .

وها هو شاعر العصر الشهاب المنصوري يتبعهما بقوله :

وليلـةٍ بـتَّ بهـا والكـري　　في مُقْلـتي أذيالُـه تَسحـب

---

(١) تاريخ ابن اياس : ص ٣١٧

(٢) رنباء الغمر : ١ / ٢٦٨

إذْ جاءَني إبليسُها عارِضاً	عليَّ أنواعاً بها تخلبُ
فقال لي : هل لك مني غادةً	في وجنتيها الصبح والكوكَبُ
فقلتُ : لا قال: ولا شادن ؟	يرنو بطرف بالنهي يلعب ؟
فقلتُ : لا قال : ولاقهوة	تكْسُوكَ تاجَ المُلكِ إذ تشربُ
فقلت : لا قال : ولاكبشةٌ	خضراء فالعيش بها أطيب؟
فقلت: لا قال : ولامطربٌ	إذا شدا عند الصَّفَا يطربُ
فقلت: لا قال : فنم معرضاً	عنيَّ فأنت الحجر المتعبُ (١)

ويظلُّ الغزلُ بنوعيه شاغل الشعراء ، الجادّين واللاهين، وتظل معانيه المطروقة متناولة مترددة في أقوالهم ، ويظهر من بينه ذلك اللون الذي أشاعه أبو نواس وعصبة المجان في صدر العصر العباس وغلب علي غزل العصور المتأخرة، وهو الغزل بالغلمان. ولم يعد يتحرج من القول فيه أحد من الناس حتي كبار العلماء والفضلاء نظموه ، من أمثال ابن حجر وغيره.

وكان غزل الغلمان في صبيان الترك، وقد أعجبوا بجمال وجوههم ورشاقة قدودهم، ويمثله قول شاعرهم(٢) :

بي من بني الترك رشيق أهيفُ	مثل الغزال مقبلاً ومعرضاً
ماجاءني قطُّ بليلٍ زائراً	إلا كبرق في الظلام أو مضا

وظهر لون من الشعر الإباحي أو الفاضح المكشوف، يتناول العورات بصورة لامواراةَ فيها ولايقتصر ذلك علي موضوع الغزل بشقيه ، كما جاء كثير من شعر فخر الدين بن مكانس .

وأنشئت المقطوعات في موضوعات كثيرة صغيرة لوصف أشياء مما تداول بين الناس كالمروحة والدواة، وسكين الورق (الكاغد)، والمشكاة، والقلم وغيرها من الأشياء المستخدمة في الحياة العامة وفي دواوين الكُتَّاب ، أو في مجالس العلماء

---

(١) نظم العقيان : ص ٨٦

(٢) أنباء الغمر : ١ / ٣١١

والمنزل أو السوق .

واهتموا بالمداعبات في الشعر، ويلحق بها الألغاز والأحاجي

وأشاع الأتراك نمط الحياة المترفة فضلاً عن ذوق الجمال، فتحدث الشعراء بذوق الترك في اللباس. وتقليد كبار القوم والأعيان لهم، قال قائلهم.(١).

إذا شئت أن تحيا حياة سعيدة ويستحسن الأقوام منك المقبحًا

تزيَّ بزيِّ الترك واحفظ لسانهم وإلا فجانبهم وكن متصولحا

واهتم علماء العصر بمجالس السمر يتبادلون فيها أحاديث الأدب ويتناشدون مقطوعات الشعر في مختلف الفنون. ويصف الغزولي مجلساً من تلك المجالس في آخريات القرن الثامن فيقول:

«ضمنا مجلس أنس بزريبة قيصون بمنزل المرحوم فخر الدين بن مكانس، وكان فيه إذ ذاك جماعة من أعيان متأدبي الديار المصرية، فأطلقنا عنان المذاكرة، وتجارينا في ميدان المحاضرة إلي أن استطردنا إلي ذكر الخيول، وما قيل فيها من منظوم أزهي من المنثور المطلول، فقال المرحوم فخر الدين : سدوا عنا المقاطيع وأطربونا بالمواصيل إشارة إلي ماقيل فيها من الرسائل»(٢).

واهتم العلماء بتدوين الشعر، والتاريخ للشعراء. ومن بينها ماذكره السخاوي عن أبي عمر بن جماعة، «وللعز أبي عمر بن جماعة : « نزهة الألباء في معرفة الأدباء» اقتصر فيه علي ترجمة من اتصلت له رواية شعره بالسماع أو الإجازه في مجلدات، واختصره في مجلد(٣).

وللبدر البشتكي محمد بن إبراهيم بن محمد (توفي سنة ٨٣٠ هـ) في الشعراء «المطالع البدرية» وهو حافل رتبه علي حروف المعجم. وقد وقف السخاوي علي قطعة منه. وللنواجي الشاعر والأديب كما ذكرنا «حلبة الكميت» و«تأهيل الغريب» و «الحسنات» وغيرها علي مابيننا.

---

(١) الضوء اللامع : ١ / ٣٢٣

(٢) مطالع البدور : ٢ / ٢٠٨

(٣) الإعلان بالتوبيخ للسخاوي – وروزنتال : ص ٥٧٠

الشعر الصوفي:

وشاع شعر التصوف، ونظم فيه كثير من الشعراء، من صدق منهم ومن لم يصدق، ونظم فيه من ألمٍّ بطرفٍ، ومن انتمي إلي التصوف ولم يخض بحره، بل تسكَّع علي شطه، فكان شعر صوفية هذا العصر عليلاً، لا كشعرِ صوفية العصرِ السابق من أمثال عفيف الدين التلْمساني، وابن الفارض، وابنَ اسرائيل، وأينَ الثريا من الثري.

لقد اقتات شعراء صوفية العصر علي معاني الشعراء السابقين واجْترُّوا معانيهم دون أن يهضموها، فبدا شعرهم غثاً ، سمجاً ومثال شعراء هذا اللون ابن وفا، وابن أبي حجلة ، وقريب من شعر التصوف وداخل فيه شعر المديح النبوي، وكان كذلك شعراً مقلداً لشعر العصر السابق ، وكبار شعراء المديح النبوي، اقتاتوا كذلك علي تراثهم ، واتبعوهم اتباعاً سيئاً، شوهوا فيه معانيهم وسمجوا ألفاظهم .

المديح النبوي والتصوف

وسار شعراء العصر سيرة سابقيهم في المزج بين المديح النبوي والتصوف ، واتخذت المدائح النبوية شكل البديعيات كما كان الحال عند صفي الدين الحلي، فنظم فيها بديعيته ، وكذلك فعل ابن نباته (٧٦٨ هـ) وابن جابر الأندلسي (٧٨٠ هـ) والسيوطي (٩١١ هـ).

وتتسم مدائح العصر بسمات المدائح السابقة من حيث المعاني والشكل العام ومدائح البوصيري خاصة في العصر السابق فهي تتحدث عن معجزاته باعتباره مخلصاً لأمته من ذنوبها وشفيعاً لها يوم القيامة عند الله سبحانه وتعالي ليدخلها الجنة ويبعدها عن النار.

والمدحة النبوية مليئة كذلك بالضراعة والدعاء، والأماني والرغبات والابتهالات والتوبة والندم علي ماارتكب من الذنوب، والشفاعة بالنبي لبلوغ رضا الله.

وقد لاتبلغ قصائد المديح في هذه المرحلة رتبة مدائح البوصيري وابن اسرائيل وغيرهما في قوة التعبير وصدق العاطفة، ويغلب عليها زخرف اللفظ، والتكرار للمعاني السابقة في اطار من الزخارف والحلي.

ولم يمنع ذلك من وجود بعض المدائح الجيدة كقصيدة شمس الدين النواجي (توفي سنة ٨٥٩ هـ)

وغلبت علي لغة المدائح سهولة العبارة ، وسلاسة النظ واقترابه من لغة العامة السائدة كغيرها من الموضوعات وإن لم تسرف في ذلك .

وظهرت بعض الألفاظ الدخيلة غير العامية من الفارسية أو التركية أو الرومية ولم يتحرج الشعراء في استخدامها لشيوعها في اللغة الجارية لغة الحياة.

وسار علي نهج البديعيات ؛ ابن بناته المصري ٧٦٨ هـ وعز الدين الموصلي ٧٨٩ هـ وابن حجة الحموي ٨٣٧ هـ وابن المقري ٨٣٧ هـ والسيوطي ٩٩١ هـ.

وكانت المدائح النبوية علي عهد النبي (صلي الله عليه وسلم) تتحدث عن فضائله (صلي الله عليه وسلم) وعن شجاعته وخصاله في الدعوة وعزمه وجميل عشرته وخلقه .

أما مدائح العصور المتأخرة فإنها تتحدث عن معجزاته باعتباره مخلصاً لأمته من ذنوبها وشفيعاً لها يوم القيامة عند الله سبحانه ليدخلهم الجنة ويبعدهم من عذاب النار.

وهي مليئة بعد بالضراعة والدعاء والأماني والرغبات، وحافلة بزخارف اللفظ، ويبدو أنه عندما فقدت قوة المعني بدأت حلية اللفظ تأخذ طريقها إلي التعبير الشعري والأدبي عامة (١)، وعندما فقدت الكلمات الصدق وحرارة العاطفة حلت الصنعة الظاهرة محلّها.

وهذا لم يمنع من وجود قصائد جيدة في المديح نظمت في هذا العصر خاصة قصيدة شمس الدين النواجي (توفي سنة ٨٥٩ هـ) وشهاب الدين محمود (٧٧٥ هـ) وابن نباته المصري (ت ٧٦٨ هـ).

وختام القول في نبويات العصر أنها كتبت بأسلوب سهل ولغة قريبة من أفهام الناس، تتخللها أحياناً بعض التعبيرات الدارجة. وانتهت تلك النظرة المتزمتة للغة الشعر عند القدماء، كذلك حدثت ضروب من التساهل في البناء والحفاظ علي

---

(١) مقدمة ديوان ابن حجر بالإنجليزية : ص ٢٣

قواعد اللغة أو تزكية، ولم يتحرج الشعراء في استخدامها علي صورة أكثر تحرراً.

ويتصل بالنبويّات أو المدائح النبوية نظم السيرة.

أسلوب الشعر:

وتفاوت الشعراء في أساليب الشعر، وإن غلب عليه الضعف والتخلف عن أساليب شعراء العصر السابق، فقدعاش شعراء العصر عالة عليهم ، قلدوهم في التعبير والصور والخيالات . بل وفي موضوعات القصائد وكانت قصائد بتمامها مثالاً احتذاها شعراء العصر برمُتِّهم، كبعض قصائد عمر ابن الفارض، وبعض قصائد البوصيري، والبردة خاصة.

ومنذ القرن السابع وانتشار تعاليم الصوفية وتجاربهم الوجدانية في الحياة والشعر دخل عنصر جديد علي المدائح النبوية ظهر النموذج الفذ له في مدائح البوصيري، ودخلتها عناصر الحب والوجد الصوفي لشخص النبي (صلي الله عليه وسلم) والتركيز علي المعاني الصوفية في ذاته الكريمة. وأخذ الشعراء من بعد البوصيري هذه المعاني ، فتداولوها علي اختلاف فيما بينهم وتفاوت في التناول والعرض.

ودخلت أشكالٌ جديدة في اللفظ والعبارة ، والصور البيانية . علي تلك المدائح، وأهم مانالها في الشكل من تغيير لون البديعية الذي أدخله جابر الأندلسي (٧٥٠ هـ)، صفي الدين المحلي (٧٨٠ هـ) في القرن الثامن الهجري ، ولكل منهما بديعية في المديح النبوي ، سار علي نهجها جماعة من شعراء العصر أمثال عز الدين الموصلي (٧٦٨ هـ) وابن حجة الحموي (٨٣٧ هـ) وابن المقري (٨٣٧ هـ)، والسيوطي (٩١١ هـ).

وأسرف الشعراء في استخدام البديع اسرافاً عجيباً حتي لقد عدوه غاية في ذاته وأداة لاينبغي أن يخلو منها بيت، وبدا التكلف فيه بصورة لم تعرف من قبل حتي غدا القول ممجوجاً سخيفاً في بعض الأحيان.

وابتدعوا ضرباً من هذا البديع المتكلف الممجوج سموه الاكتفاء. وهو الكتابة بحذف جزء من آخر اللفظ ليشابه لفظاً بعينه، بحيث يشترك اللفظان التام والناقص في البناء من مثل قول القائل :

خليليَّ هذا ربع عـزة فاسعيـا إليه وإنْ سالت به أدمعي طوفا (ن)

فجفني جفا طيب المنام وجفنها جفاني فيالك من شرك الأجفا (ن)

ومثل قوله :

ياضـيف بيت الله نلت المنى مـذ تحصنت بأم القـري (ان)

لـبٍّ واعتـمِـرْ وقـل للـه ماأسـعد هذا القرا (ن)

فالتورية في قافيتي البيتين

وأصله مزج ضربين من البديع أولهما سابق معروف وهو عدم تمام اللفظ بل وقوف حرف الرويَّ دون تمام اللفظ. وثانيهما التورية وهي اشتراك لفظين في الرسم واختلافهما في المعني، ويريد الشاعر المعني البعيد لا القريب الظاهر من سياق اللفظ في العبارة أو بيت الشعر.

وشاع استخدام مصطلح العلوم وكثر لاتملُّحا كما كان الأمر من قبل بل صار دون ضوابط في مناسبة وغير مناسبة. وأسرف العلماء في استخدام مصطلح الحديث خاصة من مثل قول الشاعر :

لاتبعثوا غير الصَّبا بتحية ماطاب في سمعي حديث سواها

حفظت أحاديث الهوي وتضوعتْ نشراً فيالله ما أزكاها

أو قول ابن حجر :

وأغيد من إشراق خديه قد بدا دليلٌ بأن الخدَّ يروي عن الزَهْر (ى)

وقد لاح في الخدّ اخضرار عذاره تواتر عندي مارواه عن الخضر.

فقد استخدم ألفاظ الرواية والزهري والتواتر والخضر عن علم الحديث ومصطلحه. والزهري محدثٌ عظيم مات سنة ١٢٤ هـ، كما جاء في الحديث بعض ما ينسب إلي الخضر العبد الصالح الذي جاء نبأه في القرآن ، وذكرته بعض كتب التفاسير.

واستخدم الشعراء فنون الاقتباس والتضمين والإشارة والتلميح، فأكثروا الاقتباس من القرآن الكريم والحديث والشعر القديم والأدب العربي والأخبار والقصص.

وجاءت الخيالات والصور البيانية مشتقة من هذا الجو الديني، فها هو الشاعر يشبه قِصَرَ مدة ولاية أحد القضاة، بالفترة ما بين الخطبتين في صلاة الجمعة. يقول :

ولُوك قــاضي القــضـــاة لكن جــاءوك بالعــزل عن قـــريـب

فــمـدة الحكـم منـك كـانــــت أقــصـر من جلسـة الخطيب (١)

واستخدام الشعراء التشبيه مقتبساً من القصص الديني، ممتزجاً بفنون البديع التي استحدثت وأكثر فيها أهل العصر، ومن ذلك قول الشهاب المنصوري (٢):

زها الورد الجنُّي بوجنَتـيْـه ومن ســود العِــذَارِ لهُ سِــيـاجُ

فلو ظهــرَ الوشاة عليـه يومـاً لهَـا جُـوا مـثل يأجـوجٍ ومـاجـوا.

ويحلو لبعض الشعراء أن يستخدم أسلوب الزهريات في التعبير عن معانيه ويستهدي في ذلك بما نظمه شعراء الوصف والروضيات من المشارقة والأندلسيين. ويروي صاحب الدرة البهية (٣) أبياتاً يمدح بها الشاعر السلطان الظاهر برقوق يقول فيها :

وبدا لنرجسه الجني من الهــوي عين مُـسـهّدةٌ وقلـب يخفُــقُ

واحمر وجهُ الورد حتي قال لي عـرَقٌ علي عرق ومثلي يعـرقُ

مـابـان فـضـلُ البـان إلا انــه أبداً له قُـدأم جيشِي سنجـق

إن كنتُ بعد الزهر جئت فإن لــي كالظاهر السلطان جيشاً يسبق

ملــكُ جنائبه الجنـوب تودُّ لــوْ أمست بذيل غُبـارها تتعلّــقُ

لازال مخضـر الجــنابِ وبيْضُـــهُ يَصـفَـرُّ منهُــنَّ العـــدوُّ الأزرقُ

وقد بلغ الشعر في هذه المرحلة درجة من الإسفاف لغة، وعبارة جعلت بعض العلماء ينفرون من كثير منه، وما اقترن به خاصة من لغة العوام، إذ تصرف فيه

(١) تاريخ ابن اياس : ص ٦٨٠

(٢) نظم العقيان : ص ٨٤

(٣) الدرة البهية : ص ١١٢

ناظموه في قواعد اللغة وأصولها تصرفاً يخرج به عن حدود السلامة والإنضباط.

وأشار ابن خلدون إلي ذلك في مقدمته قال : « والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد، وخصوصاً علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها، أو يمج نظمهم إذا أنشده، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنْها لاستهجانها، وفقدان الإعراب منها، وهذا إنما أتي من فقدان الملكة في لغتهم، فلو حصلت ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره ، وإلا الاعراب لامدخل له في البلاغة ، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود، ولمقتضي الحال من الوجود فيه ، سواء كان الرفع دالاً علي الفاعل ، أو النصب دالاً علي المفعول ، أو بالعكس وإنما يدل علي ذلك قرائن الكلام ، كما هو في لغتهم هذه فالدلالة بحسب مايصطلح عليه أهل الملكة ، فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضي الحال صحت البلاغة ، ولاعبرة بقوانين النحاة في ذلك ».

« وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه. ماعدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لابحركات الإعراب»(١).

وافتقد الشعر الأصالة، واقترب الخيال فيه من الحياة اليومية، ولم ينطلق ليُحلِّق بعيداً أو يتعمق ليبلغ المعاني البعيدة، رغم كثرة استخدام وسائله التعبيرية من استعارات وتشبيهات وكنايات.

ولم تعد معاني الحكمة، أو الفلسفة تشغل بال الشعراءْ أو ناظمي الشعر كما أنهم عدلوا عن ضرب المثل، واستخدم بدلاً منها الأمثال الشعبية الشائعة.

ويضاف إلي موضوع المديح النبوي موضوع الابتهالات والشكوي، ولكن في صور جديدة غير شكوي الزمن التي عرفها الشعر العربي من قبل واضحة عند ابن الرومي وأبي الطيب المتنبي.

فمن الابتهالات مانظمه الشاعر سعد الدين بن الديري(٧٩٨ - ٨٦٧ هـ)(٢).

---

(١) مقدمة ابن خلدون. طبع بولاق : ص ٥٣٤ (الفصل الخامس والأربعون)

(٢) ولد بأخميم في صعيد مصر سنة ٧٩٠ كما جاء في الضوء اللامع : ٣ / ١٦٥

فقال :

أيا سعد لاتيأس لذنب لو أنه ... على جبل راس لدك بحمْله
فكم من ذنوب قد تضاعف عدها ... تجاوز عنها ذو الجلال بفضْله
وثم شفيع الكُلّ أحمد مَلْجأ الـ ... ـعصاة نبي الله خاتم رُسْله
فكن راجياً منه الشفاعة تُعْطها ... فما خَاب من ناط الرَّجاء بأهله.

،قال كذلك مبتهلاً:

ياربّ عبدُك قد زلَّت به القَدَمُ ... وكانَ منه الّذي قد خطَّهُ القَلَمُ
وقد أتي تائباً مستغْفراً حَذِراً ... وشفَّه الخوفُ مما كانَ والنَّدمُ
فاغفرْ لهُ وتجاوزْ عن جريمَته ... فالعفوُ دأبُكَ منكَ الحِلْمُ والكرمُ

ونظم كذلك يشكو زمانه فقال :

ذهب الأولي كانَ التفاضل بينهم ... بالحِلم والأفضَالِ بالمعروفِ
يتجشمون متاعباً لإعانة ... المظلوم أو لإغاثة الملهوفِ
وأتي الذين الفخر فيهم منعُهم ... للسائلين وظلم كل ضعيف
فتراهم يترددون مع الهوي ... قد أعرضوا عن أكثر التكليْف
مابين جبَّارٍ وباعث فتنةٍ ... ومُخايلٍ بخداعه مشغوف
والمستقيمُ علي الطريقة نادرٌ ... ما إن تراهُ بين جمْع ألوفٍ
فاسلم بدينك لاتكن متبدلاً ... ذا ضِنَّة وفظاظة بـرءوفٍ

ونلاحظ علي هذا لاشعر عامية البناء واللفظ كغيره من شعر العصريقول كذلك في الشكوي :

روّح الروح براَحاتِ الأمل ... وتعلل بعسَي ثم لعَلْ
واحتمل أوصاب دهر مُكَدرٍ ... فغريقُ البحَرِ لايخشي البَلَلْ
ومعاناةُ صروفِ الدهر لا ... تُبعدُ البلوي ولاتُدْني الأجَلْ

فإذا ضاقَ بك الأمر فقُـــــــلْ قـدَّر اللـه وماشـاءَ فَعَـــــــلْ

وكان معظم شعراء العصر دون المستوي ، كما رأينا في كثير من الأمثلة التي مرت بنا ، ويرجع هذا الضعف إلي عدم الاهتمام بوسائل الشعر وأدواته من رواية للشعر القديم، واهتمام باللغة ورصانة الأسلوب فضلاً عن الموهبة، وندر وجود الشعراء المحترفين الذين أخلصوا للشعر ، بل كان معظم شعراء العصر من العلماء والفقهاء، ولهؤلاء طابعهم منذ قديم الزمن، وقد أشار إليه ابن قتيبة في مقدمة الشعر والشعراء كما نبه إليه غيره من العلماء.

لكنا نلاحظ بصفة عامة أن من سلكوا بين الشعراء من هؤلاء الناظمين كانوا فيما يبدو يتجهون وجهتين، وجهة تأخذ نهج البيانيين الذين يستخدمون ضروب البيان والبديع، ووجهة أخري تأخذ بغير هذا من نظم جار علي لغة الكلام العادي .

وقد ذكر المؤرخون عشرات ممن وصفوا بالشعر، ولامجال هنا للحديث عنهم جميعاً ، بل نختار من بين هذا الجمع الحاشد منهم من عرف واشتهر ورأينا في شعر بعضهم لمحات تجيز لنا أن نختار مايصلح لحديث.

وأعود للقول بأن اختيارنا لهؤلاء لم يكن لأنا نستجيد شعرهم، بل لأنا نريد أن نعرض لذوق العصر ممثلاً فيمن عُدَّ من شعرائه.

وبهذا الشعر الذي نورده شواهد علي العصر في مختلف جوانبه وهو سجل لبعض ماخفي من أحواله.

وكان من بين الشعراء المحترفين من ينظم الشعر وينشده في المحافل والمناسبات الدينية والدنيوية كحمزة بن علي الأسناوي، الذي يروي عنه السخاوي أنه كان يحفظ كثيراً من الشعر ويعاني نظمه ويمدح الناس، وقد كان من الأصوات الطيبة، كلما طال انشاده جاد صوته (١).

وكان لابن الفارض وابن عربي أثرهما البالغ علي شعراء العصر وعلمائه اقتدي بهما كثيرون، وعارضهما كثيرون، ونسمع من أخبار هؤلاء وهؤلاء نوادر تروي في كتب الأدب والتاريخ.

---

(١) الضوء اللامع : ٣ / ١٦٥

ومن يذكر من معارضي ابن عربي الشقدري اليمني (توفي سنة ٨٣٧ هـ) يقول السخاوي : «ناظر أتباع ابن العربي فغمت عليهم الأبصار، ودفعهم بأبلغ حجة في الأفكار، وله فيهم غرر القصائد، تشير إلي تنزيه الصمد الواحد».

ومن اقتدي بابن الفارض ، وأعجب بشعره ، وقلده الشاعر الكاتب ابن أبي حجلة صاحب «ديوان الصبابة» .

شعـراء العصـــر

وأشهر شعراء العصر من اعترف العلماء بتقدمهم، وقد ذكر ابن حجة جماعة منهم اعتبرهم من الطبقة الثالثة من شعراء عصر المماليك. ممن ساروا تحت لواء جمال الدين بن نباته. وهم صلاح الصفدي، وعمر بن الوردي، وبرهان الدين القيراطي، وشمس الدين بن الصائغ، وبدر الدين الزغاري، وبدر الدين البشتكي (١).

وعاش معظم هؤلاء في النصف الأخير من القرن الثامن، وأوائل القرن التاسع.

وذكر السيوطي جماعة من شعراء هذه الطبقة ومن تبعهم في القرنين الثامن والتاسع كابن أبي حجلة (٧٢٥ - ٨٧٦ هـ) برهان الدين القيرطي (توفي ٨٠٦ هـ) وابن مكانس فخر الدين عبد الرحمن (توفي سنة ٧٨٤ هـ) وأحمد ابن يحيي ابن بكر عبد الواحد، وشهاب الدين ابن العطار - أحمد ابن محمد (توفي سنة ٧٩٥ هـ) والبارزي ناصر الدين (توفي سنة ٨٤٣ هـ) وبدر الدين البشتكي: محمد ابن إبراهيم (توفي سنة ٨٠٣ هـ) وابن حجة الحموي (توفي سنة ٨٣٧ هـ) وابن كميل شمس الدين محمد ابن أحمد (توفي سنة ٨٤٧ هـ) (٢).

وعاصر جماعة منهم السلطان جقمق كابن حجة ، وشهاب الدين ابن مبارك شاه، صاحب السفينة ، وكان من أعيان الشعراء، وشمس الدين ابن كميل، والبشتكي، والنواجي صاحب حلية الكميت ، وكان كذلك من أعيان العصر.

وذكروا سبعة من الشهب ممن لقبوا بشهاب الدين تعاصروا في هذه المرحلة، قال ابن اياس :

« كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا في عصر واحد، وكل واحد يدعي بالشهاب ، فكان يقال : السبعة الشهب، وهم : الشهاب ابن حجر والشهاب ابن الشاب التائب ، والشهاب ابن أبي السعود، والشهاب ابن مبارك شاه الدمشقي، والشهاب ابن صالح ، والشهاب الحجازي ، والشهاب المنصوري فلما مات الستة رثاهم الشهاب المنصوري بهذه الأبيات :

(١) راجع خزانة الأدب للحموي : ص ٤٠٧
(٢) حسن المحاضرة : ٢ / ٢٤٦

خَلَتْ سماءُ المعاني من سنا الشهبِ   فالآن أظلَمَ أفقُ الشِّعرِ والأدَبِ

ويضاف إي هؤلاء من الشهب شهابان آخران هما شهاب الدين الوداعي وشهاب الدين الباعوني (توفي سنة ٨١٦ هـ) (١).

ونذكر من هذه الطبقة جماعة :

(١) راجع صفحات لم تنشر : ص ١٦٢

القيراطـــي

(ولد سنة ٧٢٦ هـ وتوفي سنة ٧٨١ هـ)

هو برهان الدين إبراهيم بن شرف الدين عبد الله بن محمد ولد سنة ٧٢٦ هـ بمصر، وقيراطي نسبة إلي قيراط قرية بالشرقية بمصر. ونشأ بالقاهرة، وطلب بها العلم، ولازم علماء عصره، وتوثقت صلته بالشيخ تقي الدين السبكي وآل السبكي عامة، وله فيهم مدائح ومراث، وله في تج الدين السبكي وفي ناظر الجيوش محب الدين غرر المدائح.

وتفقه علي جماعة من العلماء، حتي برع في الفقه والأصول والعربية وتتلمذ في الأدب والشعر علي جماعة من شيوخ الأدب وشعراء العصر المشهورين، وخاصة إمامهم جمال الدين بن نباتة ، قال ابن تغري بردي: « وعندي أنه أقرب الناس في شعره لشيخه جمال الدين بن نباتة من دون تلاميذه ومعاصريه »(١).

وقال ابن حجر(٢) : « سلك طريق ابن نباتة وتتلمذ له وراسله ».

وقد درّس بعدة مدارس (٣) بمصر وبمكة في آخريات حياته.

رَحَلَ إلي دمشق ووصف روضاتها ثم إلي مكة وجاور بها وانقطع للعلم والدرس ، وحدَّث وتلقي عنه جماعة من علمائها والقادمين عليها ، وظل كذلك حتي مات ، ودرَّس بالفارسية.

وكان عابداً فاضلاً

وبرع بين معاصريه في النظم والنثر، وراسل كثيراً منهم كابن نباتة والصفدي.

قال ابن حجر: « وقال الشعر ففاق أهل زمانه ».

وقال ابن العماد : « وتعاني النظم ففاق فيه ، وله ديوان جمعه لنفسه يشتمل

---

(١) النجوم الزاهرة في وفيات ٧٨١ هـ
(٢) الدرر الكامن : ١ / ٣١
(٣) حسن المحاضرة للسيوطي : ٢ / ٢٤٦

علي نظم ونثر في غاية الجودة »(١).

ومن مطارحاته المشهورة أبيات طارح بها الصفدي أجاد فيها القيراطي كما كتب رسالة إلي الشيخ جمال الدين ابن نباتة في غاية الحسن والطول .

وجري في شعره علي طريقة معاصريه من كثرة البديع . ومهر في التورية والاستعارة وحسن التعليل . ومن جميل قوله في حسن التعليل قوله في خال علي صفحة خد مليح :

كأنَّ خديه ديناران من ذهب فحرر الصيرفي الوزن واحتاطا

فشحَّ بعضهما عن وزْنِ صاحبه فزاده من فَتيتِ المسك قيراطا

وقال عنه ابن اياس (٢): « كان من فحول الشعراء وله شعر جيد في علم البديع. ومن بليغ شعره قوله في مليح مخايل (٣) :

ومخايلٍ نبت العِذَارُ بخده وله مخايلُ بالملاحة تشهدُ

لما رآني عالقاً بخياله نزل العِذارُ بوجنتْيه يُسوِّدُ »

وقد قرظه ابن تغري بردي وترجم له ترجمة طيبة مع نماذج كثيرة من شعره في « المنهل الصافي » وفي « النجوم الزاهرة » .

وجمع له جماعة من أدباء العصر وشعرائه مختارات من شعره ، كالغزولي في «مطالع البدور »، والنواجي في «حلبة الكميت» « وتأهيل الغريب» .

وشعره مجموعة من القصائد، والمقطعات ، في موضوعات الشعر التقليدية من مديح ورثاء ، وغزل وخمريات ووصف، واخوانيات وألغاز وأحاجي ، كما أن له منظومات شعرية في أوزان الموشح والكان وكان .

ونختار له نماذج من شعره في الوصف والغزل وبعض مقطعات في الطرف والمداعبات والألغاز :

---

(١) شذرات الذهب : ٦ / ٢٧٠

(٢) تاريخ ابن اياس : ص ٢٦٦

(٣) المخايل يعني الذي يلعب بخيال الظل

فمن أوصافه قوله يصف دمشق وربضها (١) :

اشتاق في بَرِدَي دمشق معهداً | كل الجدل إلي حماهُ ينسب
مافيه إلا روضة أو جوسق | أو جدول أو بلبل أو ربرب
وكأن ذاك النهر فيه معصمٌ | بين النسيم منقّشٌ ومكتّبُ
وإذا تكسّر ماؤه أبصرته | في الحلْ بين رياضه يتشعبُ
وشدت علي العيدان ورقُ أطربت | لغنائها من غاب عنه المطربُ
فالورقُ تشدو والنسيم مشببٌ | والنهر يسقي والحدائق تشربُ

ويقتبس من شعر سابقيه في العصر الأول كابن الخيمي عبد المنعم ويضمنه شعره فيقول :

من لي بدينار خد قمت أنشده | يامطلباً ليس لي في غيره أرب
ويامعيد دروس الصبر دارسةً | إليك آل التَقصّي وانتهي الطلب
اشتاق وصف جبين منه يسفرلي | كأنني لهلال العيد أرتقبُ

ويضمن شعر أبي نواس، ويستخدم عبارات من الحديث مع ألفاظ من القرآن الكريم مورّيا فيقول :

وسنانُ قلتُ له أشكو له سهري | ياناعس الطرف ما للعين إغفاءُ
انظر إليَّ بعين قد قتلت بها | وداوني بالتي كانت هي الداءُ
كم وقفة لي وبي عند الغرام بها | في ربعه. ولدمْع العين إجراءُ
أنهي له قِصَّةَ الشكْوي مُعنعنةً | لو كان يُسمع للمظلوم إنهاءُ
إن كان في النار قلبي من تباعده | فوجْهُهُ جنةٌ والعينُ حَوْراءُ
بقاف أقسم لولا نون حاجبه | لم يَحْلُ صاد ولاباء ولاراء

وله بعض المعاني الحسنة في الغزل كقوله :

---

(١) مطالع البدور : ١ / ١٢٣

لوَي عقاربَ صدغيه كموْعِـــده   من ليس يصدق إلا في توعده
،من صوره الجيده في بعض المأكل. ماقاله ملغزاً في قطايف :

نَبْت له النار قد أبدت به ورقـــاً   فاعجب له ورقاً ينمو بنيـــران
سجن إذا ماسقاه القطر وابلـــه   وجاده بسحاب منه هتـــان
وكم له من يدور كُمَّلٍ طلعـــت   في آخر الشهرلم تمحق بنقصان

ويقول في الكنافة :

بالطيِّ والنشر في حالٍ قد اتصَّفَتْ   والطيِّ والنشر فيما قيل ضدان
كم سُكِّرَتْ ففتحنا للدخول بهـــا   أبداننا فتلَقَتْنا بإحســـان

وللقيراطي أبيات تتردد كثيراً ويغنَّي بها لما فيها من رقة اللفظ وعذوبته وهي :

أمانـــا أيهـــا القمـــر المطـــلُ   ومنْ جفنيـــك أسياف تُسَـــلُّ
يزيد جمـال وجهـك كل يــــوم   ولي جسد يذوب ويضمحــــل
وماعرف السِّقامُ طريق جسمـــي   ولكن دَلَّ من آهـــوي يُـــذِلُّ
يميل بطرفـه التركـي عنـــي   صدقتم إن ضيق العين بخـــلُ
إذا نشـــرت ذوائبـه عليـــــه   تري مـاء يـرف عليـه ظـــل
أدر كأس المدام علي الندامـــي   ففي خديـك لي راح ونقـــل
قليل الوصـل يقنعنـا فإن لـــم   يصبنـا وابـل منكـم فَطَـــلُّ

ومنه قوله يستخدم بعض تعبيرات العصر المتصلة بحروف الهجـاء فيقـول :

وجواب لام الخدِّ والألف التـــي   في القد منه لسائر العُشَّاقِ لا
حلو المراشف والمعاطف لفظـــه   مامـرَّ في أسماعـنا إلاحَلاَ
وإلي ظبا الخطِّيِّ ينسب لحظـــه   لَما قَسِي كم قد أصابت مَقْتَلا
زُرْقٌ الأسنة لاتحاكي سودهـــا   قالوا: ولابيض الظبا قلنا: ولا

وله مداعبات طريفة يستخدم فيها التورية مثل قوله :

ومهفهفٍ في خَـــــــدِهِ نارٌ نهيّجُ لي الهَـــــوى
قد لقبوه بمُشْـــــمشٍ لكنّــه مُـرُّ النَـــوَى

ومثل قوله :

حسنات الخدّ منـــــهُ قد أطالت حسراتـــي
كلما ساء فعـــــالاً قلت إنَّ الحسنـــــات

وقوله : في الباذهنج (مروحة الهواء) :

بنفسي أهدي باذهنجاً موكـلاً باطفاء ما ألقاه من ألم الجـوي
إذا فتحت في الحر منه طرائق اتاني هواء قبل أن أعرف الهوي

ومما اختاره له الغزولي (١) :

قسماً بروضة خدِّه ونباتهـا وبآسه المخضـر في جنَّاتهـا
وبصورة الحسن التي في خده كتب العـذار بخطـه أياتهـا
وبقامــة كالغصـن إلا أننـي لم أجْنِ غير الصد من ثمراتهـا

يقول فيها :

كم ليلة نادمت بدر سمائهـا والشمس تشرق في أكف سُقاتِها
وجرت بنارهم الليالي للصبا وكؤوسنـا غـررٌ علي جبهاتهـا
فصرفت ديناري علي دينارِها وقضيت أعوامي علي ساعاتهـا
خالفت في الصهباء كل مقلد وسعيت مجتهـداً إلي حاناتهـا
فتحيـر الخمـار أين دِنَانُهـا حتي اهتدي بالطيب من نَفَحاتِها

ويقول :

ياصاح قد نطق الهزار مؤذناً أيليق بالأوتـار طـول سُكَانِهـا

وقد جري في كثير من معاني هذا الشعر علي آثار أبي نواس ، فاهتدم، وجاء

(١) مطالع : ١ / ١٦٦

لاحقاً، وأين هذا من ذاك، بل أين النظم من الشعر؟!

وأعجب معاصروه بأبيات من شعره يقول فيها (١):

زَوَّج الماء براحِك ... واجْلُها بين ملاحِكْ
لاتعطل يوم لهو ... من صبوح في صباحِكْ
وإذا خفت افتضاحاً ... كلُّ عين في افتضاحِكْ
أو ترى فيها جناحاً ... قم ودعني من جناحِكْ
وصل اليوم اغتباقاً ... من كؤوس باصطباحِكْ
صاح هذا وقت راحي ... واقتراحي واقتراحك
فاطَّرِحْ من لام جهلاً ... في اطِّراحي واطراحِكْ

وقال شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة : هذه الأبيات تحبَّبُ في الحبب، ويقلب أكسير راحها لجين الزجاج إلي ذهب قد امتزجت بالقلوب امتزاج الماء بالراح ولم يفتح بمثلها علي صاحب «مفتاح الأفراح». كم رَقَصَتْ علي أسماعها الأحبة. ونقط الحبيب دينارهما من خده وشامته بدينار بقيراط وحبه.

وقال الشيخ بدر الدين البشتكي - أبقاه الله : «أقول والله كلما نظرت إلي هذه الأبيات والكلمات الحجيلات أكاد أسكر بلا راح، وأطير من الأدب بلا جناح».

واختار له الشهاب الحجازي في روض الآداب (٢) .

لطلعة البدر جزء من محياك ... وللصباح تصبب من ثناياك

ويحلو للقيراطي أن ينشد متلاعباً بحروف الكتابة معبراً بها عن كلمات علي طريقة عصره، علي ماأشرنا في حديثنا عن الشعرفي الدولة الأولي التركية فيقول :

في لام خدِّكَ عُذَّالُ الهَوَي بـاءُوا ... بإثْـمِ من لالَـهُ لامٌ ولابَـاءُ
وحارَبُوني فمُدْ لاحَتّ لأعْيُنِهمْ ... واوٌ من الصُّدغِ يجلو عطفها فاءُ
جاءوا يرُومونَ سلْواني بعذلِهم ... عن الحبيب فراحوا مثل ماجاءوا

(١) الغزولي : ١ / ١٧١ — (٢) روض الآداب ورقة ٩٠

قالوا اسْلُ عنْهُ أماشاهدْتَ عارِضَهُ ... في الخدّ خُضرقد الْخُلْدُ خضراءُ
وكيفَ يقبلُ منهمْ عَاشِقٌ عَذَلاً ... والعاذلون لأهل العشقِ أعْدَاءُ

ويمضي القبراطي في هذا الإيقاع الهادئ والنفس الرقيق في عذوبة مستحبه حتي يقول في محاسن محبوبه :

منْ لي بأهيفَ سحَّار اللحاظِ له ... ميلٌ إلي تَلَف المضْنَي وإيماءُ
للغُصْن في الرَّوض إطراقٌ لديه كَما ... للنرجس الغَضّ في جفنيه إغضاءَ
وفي محيَّاهُ إذ قابلتُ طاعته ... نارٌ ومَاءٌ، ولانارٌ ولاماءُ
وللزَّمانِ إنـدراجٌ في محاسنِه ... والشَّعْرُ والثَغْرُ إصباحٌ وإمساءَ
عشاهُ عينيه ترميهم بأسهُمِها ... فماتُصيبُهم إلاَّ بما شاءوا
وسنانُ قلتُ له أشكو له سَهري ... ياناعس الطرْفِ ماللعين إغفاءُ
انظر إليَّ بعينٍ قد قتلتَ بها ... أو داوِني بالّتي كَانَتْ هيَ الدَّاءُ

أما تري أن طريق الشعر العربي في القرون الأوني قد خُولِفَتْ هذه اللغة ، والتعبيرات والصور الجديدة التي اختلط فيها التراث بصنعة حضارية مترفة، وامتزجت معانٍ من هنا وهناك في موضوعات الشعر وتجارب شعراء الغزل والخمر والتَّصوف علي مدي الدهور، فجاء هذا القول السلسل العذب ، وإن بدا في أذواق بعض من اعتادت اسماعهم علي نغم الفصحي عليلة عمية.

وقد أعزم أدباء العصر بهذا اللون من شعر القيراطي فأكثروا من الإشادة به والاختيار منه، فعل ذلك الغزولي في «مطالع البدور» والنواجي في تأهيل الغريب، وحلبة الكميت، والشهاب المنصوري في روض الآداب .

ومااختاره النواجي قوله وقد امتزجت فيه أصداءُ من الشعر القديم والمحدث في مزيج رقَه وصفا ، كما امتزجُت خمرته التي يصفها بالماءَ . ليقول :

أيُ برق قد لاحَ لي من سَنَاها ... ماأختفي نوره علي الزرقاء
ليت شعْري أنشر دمعي يُطْفِي ... حرقاً تارهنَّ في الأحشاء

فعلي الجزْع والعقيق لدمْعي دُرَّةٌ بعد دُرَّةٍ بيضاء

وعلي الحيِّ حَيِّ أسْماءَ قومٌ ماظباهم سوي عيون الظباء

والأبيات المختارة هنا بينَةُ الصنعة ، واهيةُ السبْك ، قد تصدم أذواقنا التي اعتادت جزالة اللفظ، ودقة السّبك ، لكن الشاهد فيها واضحٌ علي ماترسب في وجدان شاعر العصر من محفوظه للشعر القديم وبتقاليده التعبيريه ولغته، وإن حاول الشاعر هنا أن ينقلها من حقلها الدّلالي المعتاد إلي هذا السّياق الجديد. وهي عادة فنية يلجأ إليها شعراء العصر ومن قبلهم كثيرا .

ومع هذا التكلف الواضح والوهن في بناء الأبيات ، فإن بالقصيدة نفساً شعرياً يطلّ من وراء هذا الوهن . يقول ويصف صاحبته :

لو بدت في القناع ليل سرارٍ سترته كالليلة القمراء

قلت أفدي بالنفسُ حُسنَك قالت قَلَّت النفس ان تكونَ فدائي

ودعتني بالعبدِ يوماً فقالوا قد دعتْه بأشرف الأسماء

لاحَ برقْ العذيبِ فوقَ الثنايا فأغارَ البُدورَ باللألاء

وربما كانت اختياراتهم في المقطعات أحسن سبكاً من القصائد وقد أشرنا إلي ميل كثير من الشعراء إلي المقطعات. وللقيراطي منها العديد المقبول. من مثل قوله:

جلُ من صوَّرَ من مَاءٍ مَهينْ صوراً تَسْبي عُقَولَ العاشقين

وأرانا قُضُباً في كثب تخْجلُ الأغصانَ من قدٍّ ولينْ

وشفاهاً كحقاق أُطبِقَتْ منَ يواقيتَ علي دُرٍ ثمينْ

وبحها المسْكُ ولكنَ ريقُها صِرْف خمرٍ لذَّةً للشاربين

قال:

وظبيةٍ خَطَرتْ في الحَلْي والحُلل سألتُها قُبْلَةً قالت: علي مَهل

فقُلْتُ: كيف ياشَمْسي وَياقمريَ وإنما خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلِ

واختار له النواجي في الحلبة بيتين في الخمر قدمهما بقوله :" وقال القيراطي وأجاد إلي الغاية :

قهـــوةٌ فـــي الكأسِ منْهـا ذَوبُ تبـرٍ فـــي لُجَيْـــنِ
فـــإذا الـــدِّيكُ رَآهـــا قـالَ أفـــدْيكِ بعينـــي

ولعل سر استحسان النواجي يكمن ف هذا التشكيل الجديد للتشبيه ف البيت الثاني الذي درج الشعراء فيه علي تشبيه لون الخمر بعين الديك فجاءنا القيراطي بهذا التشكيل المبدع المعجب الذي تلاعب فيه بالتورية

واختار له قوله من أبيات :

أفْدِي ليالِي أنْس قد ظفرتُ بها مِنْ الزَّمانِ وللأيامِ غَفَـــلاتُ
ليالياً نسخت ماكانَ من زمنِي كأنها في حواشِي الدَّهرِشاماتُ

وقال:

شكوت له من خَدِّهِ وحريقِـــهِ فأطفأ نَـــرِي ثَغْرُه برَحيقِـــهِ
وللصبِّ منه سكرتانِ إذاسَـــقَـي بإبريقِـــهِ طوراً وطوراً بريقِهِ

ومن مقطوعاته التي استخدم فيهـا الإشارة إلـي بعض آي القـرآن قولـــه :

رأيتُها تمشي وهي مَخْمورَةْ فقلتُ:ياربُ هبْ لي هذه الصورَةْ
تبسَّمتْ ثم قالت وهي مسرورَةْ أقرأسَبأ. وجوابك آخر السُّورَةْ

يشير إلي الآية من سورة سبأ من قوله تعالي (وجعل بينهم .... إلي قوله في شكٍّ قَريب) .

وقال كذلك واستخدم بعض آية من سورة الصمد :

لي حبيبٌ كلَف من أبَصـــرَهْ خرُّ في الحالِ صريعاً وسَجَدْ
وتلا خوفـاً من العين لـــه ياحبيبي قل هَو الله أحَـــدْ

واستْخَدَمَ هذا البناء للمقطوعة الثنائية في رثاء المعمار الشاعر فقال :

مُـذْ عَـمَّـرَ المعـمـارُ دار البلي   رمَـي بُيُـوتَ النَّظْم بالنقض

فـيـالَهُ من شـاعِـر مَـيِّــتٍ   بكت عليــه طُوبَةَ الأرْضَ

ونلاحظ استخدامه العبارة العامية في ختام البيت الثاني ، وهوَ بناء اخذته المقطوعة الثنائية من خرجة الموشح علي مابيّنا من قبل .

شمس الدين ابن الصائغ

(ت سنة ٧٨٦ هـ)

من شعراء هذه المرحلة، ومن طبقة القيراطي وابن مكانس. وابن حجة وقد روي له صاحب تأهيل الغريب جملة من شعره في موضوعات شتى. وشعره على النمط نفسه، وإن بدا فيه حلو النفس أحياناً، يرق في مواضع الغزل والوصف، ويلتقط بعض الصور، فيصوغها في عبارات محلاة بالبديع. ومن شعره قوله :

كيف الخلاصُ وقلبي بعضُ أسـراكِ ... صادته أجفانُك الوسْنَى بأشْـراكِ
ياسَلْـمَ إنَّ ليالينا بــذي سَلَـم ... مَرَّتْ وما كان أحلاها وأحـلاكِ
تفْنَى الليالي وما أنْسَى عهودَ هوًى ... وثقتُها بعقـودٍ من ثنايـاكِ
حاشَايَ أنْسي بروقاً بالثنيَّة من ... تلك الثغور، وحاشا القلب ينساكِ
أكاد من صدق ماتُدْنيكَ لي فِكَري ... أري جمالك يجْني من مُحيَّاكِ
فلستُ أعرف ما السلوانُ عنكِ ولا ... تمرُّ بالبالِ ذكـري غير ذكراكِ
لولاك ماكنت أصبو عنكِ كلَّ صَبَا ... لها مـرورٌ بذاك السفح لـولاكِ
آه على السفح من عيني ومن وصبَي ... أو ليـتَ آهاً تروي غُلَّةَ الباكي
أوليت ياجنتي نارَ الأسى خمـدَتْ ... فإنّها في حَشَائي وهي مثـواكِ
أوليـت حاجبك الرامي بأسهمه ... حَشايَ يُبْقي عليه فهي مرعاكِ
أوليت عينـي يَغشَّاها لذيذ كـرىً ... كما تراكِ، فما المقصُـود إلاّكِ
أوليت عيْشي وهل ليت بنافعـةٍ ... عَنّي يَخفِضُه بالعطف عِطفـاكِ
أوليـت أوليـت قلبي مايقرُّ بـه ... من موعدٍ، وامطلِه إن تقاضـاكِ

ومن رقائقه الغزلية قوله :

إلامَ تسيءُ فـي الأفعـال أسْـاً ... وتتركُني مصـابَ القَلْب مُضْنى

تميل بسمعهـــا لحديـث واشٍ   وتلكَ مصيبةٌ لاشكَّ عظمَـــــي
وكَمْ أعــرضتُ عـــن لاح لحانـي   وقُلتُ أنا أصمٌّ، وأنت أعْمَـــي
لقـــد غطّي علـي قلبي هواهـــا   ولو كشفِ الغطا ماازدَدْت علْما
أيا أسماء ما هـــــذا التجنِّـــي   رُوَيْدَكِ قد حكمتِ عليَّ ظُلْمـــا
أفي شرع المـــــوَدَّةِ أنَّ مضـــنَي   هَوَاكِ غـدا بسهم البين يُرْمَـــي
ويطلُبُ بردَ ريقكِ وهـــو ظلْـــــمٌ   فما يَجدُ البرودَةُ حينَ يَظْمَـــي
ويقصد شربـــــةَ مـن ماءِ ثَغـــرٍ   فما تسقينَه حتَّي ولا المـــــا
رعَاكِ الله كم أفنَيـــــتِ صَبّـــاً   له أذنٌ عنِ العُذَّالِ صَمَّـــــاً
وقلبٌ يكتُمُ الأشواقَ لكـــــــن   أبت منه دموع العين كتْمـــا

ويقول من أبيات يشتاق لدمشق ومعاهدها التي نشأ فيها وترعرع وبها ذكريات طفولته وصباه وشبابه :

لي في ربوعـــك دائماً ياجلَّـــقُ   شـوقٌ أكابده جَـــوي يتحـــرَّقُ
أشتاقُ منـــك منازلاً لم أنسهـــا   أنِّي، وقلبي في رُبُوعِكِ موثـــقُ
خَلَلٌ بها خَلقِـــي تَخلَّـــقَ أولاً   وبهـــــا عُرفت بكل ما أتخلَّقُ
وقفاً عليك لذا التأسفُ والبكـــا   قلْبي الأسير ،ودمع عيني المطلقُ
أدمشقُ لابَعُدتْ ديارُكِ عن فتـــيً   أبدا إليـــك بكـــلِّهِ يتشـــوَّقُ
أنفقتُ في ناديكِ أيـــام الصِّبـــا   صَبًا، وذَاك أعــزُّ شئ يُنْفَـــقُ
ورحلْتُ عنك ولي إليك تلفـــتٌ   ولكُلِّ جمـــع صدعـــةٌ وتفـــرُّقُ
فاعْتَضْتُ عن أنسٍ بروضكِ وحشةً   منها وهي جَلَـدي وشابَ المفْرقُ
ولكم أسكِّن عنك قلبـــاً طامعـــاً   بوعـودِ قُرْبِك ، وهو شوقاً يخفقُ
ولكـــمْ أحدِّث عنـــكِ من لاقيتـــه   وجميع من سمعَ الحديثَ يُصـدِّقُ
للهِ وادِي النَّيْرَ بَيْـــــنِ وظلُّـــــهُ   لا الرقمتـانِ، ورامـــةُ والأبـرقُ

فلكم حوَتْ تلك المنازِهُ صـــــورة فـيـهـــا الجمالُ مجمَّعٌ ومفـــرَّقُ
فمخَضَّبٌ، ومؤزَّرٌ، ومعمــــــمٌ ومُزَنَّرٌ، ومبرقــعٌ ومُقَرْطَـــــقُ
والريحُ تكتبُ والجداولُ أسطـرٌ خـــطاً له نسْمُ الربيع مُخَـفَّـــقُ
والطيـر تقرأ والنسـيم مـــرددٌ والغصنُ يرقصُ والغدير يُصَفِّـقُ

ويذكرنا البيتان الأخيران بأبيات ابن الساعاتي في مدينة أسيوط (١)

---

(١) راجع كتابنا "الأدب في العصر الأيوبي" الجزء الثاني طبع منشأة المعارف سنة ١٩٩٨ .

فخر الدين ابن مكانس (١)

(٧٤٥ - ٧٩٤)

هو عبد الرحمن بن عبد الرازق بن إبراهيم بن مكانس ، من كبار شعراء المصريين في هذه الحقبة ، في النصف الأخير من القرن الثامن الهجري وكان من أسرة ابن مكانس القبطية الأصل ، والمصرية النشأة والدم والطبع ، وكان رب هذه الأسرة من الكُتَّاب، ثم تولي الإفتاء .

وكان لهذه الأسرة مكانتها في تاريخ مصر المملوكية أول عصر الجراكسة فقد تولي ثلاثة منها اخوة مناصب في الوزارة والكتابة، وجمعوا من الأموال ثروات طائلة، وذاعت شهرتهم واكتسبوا جاه السياسة والسلطان ووجاهة الأدباء .

والإخوة هم كريم الدين بن مكانس مشير الدولة، وفخر الدين هذا ناظر الدولة، وزين الدين صاحب الديوان الناصري ..

ويذكر ابن حجة الحموي في ثمرات الأوراق (٢) أن رب الأسرة عبد الرازق ابن إبراهيم تولي الإفتاء بدمشق المحروسة عام واحد وستين وسبعمائة في عهد السلطان الناصر حسن (٧٥٥ - ٧٦٢ هـ) وكان في السادسة عشرة من عمره.

يقول ابن حجة :«ونقلت من خط الصاحب فخر الدين بن مكانس رحمه الله قال : سافرت سنة واحد وستين وسبعمائة (٧٦١ هـ) مع الصاحب فخر الدين بن قزوينة إلي دمشق المحروسة، وقد ولي نظر مملكتها ووالدي رحمه الله افتاءها ».

وقد حرص الوالد علي تربية ولده ، وتهيئة مكانة له في مجتمع المماليك ودولتهم ، وكان له من جاهه ومكانته، مامهد لهم أن يلوا المناصب ويبلغوا الدرجات التي طمحوا إليها .

---

(١) راجع الترجمة بشذرات (٧ / ٣٣٤)
(٢) الثمرات : ص ٢٧
(٣) النجوم الزاهرة ١٢ وفيات سنة ٧٩٣
(٤) المنهل الصافي سنة ٧ / ١٧١

واشتهر أكبرهم كريم الدين بتولي بعض وظائف الدولة الكبري في حياة والده حتي صار وزيراً عام ثلاث وثمانين وسبعمائة بدلاً من شمس الدين المقسي في عهد السلطان زين الدين حاجي بن الأشرف وأول عصر برقوق.

ولقد كان لأبناء مكانس في دولة السلطان برقوق دور هام في الدولة فقد تولي كريم الدين الوزارة ، ومكن لاخوته في مناصب شريفة، حصلّوا فيها الأموال .

ويبدو أن كريم الدين لم يسر في الوزارة السيرة المحمودة، فأغضب منه الناس والأمراء، وأثار غضب السلطان، وقد وصفه ابن حجر بالهوج (١) ولم يلبث أن أمسك هو وإخوته وأهينوا وصودروا.

قال ابن حجر: « وكان السبب في ذلك أن ابن مكانس فتك في الناس وبالغ في الظلم، وألزم المباشرين كلهم بجامكية شهرين، وظلم التجار. وأخذ منهم أموالاً جمة، فاستغاثوا بأهل الدولة حتي رفعوا أمورهم إلي السلطان فعزله في رمضان عن نظر الخاص، واستقر عوض سعد الدين البقري ثم عزل عن الوزارة واستقر علم الدين سن إبرة »(٢) .

ويقول ابن حجر في (حوادث عام ٧٨٤ هـ) : « هرب ابن مكانس الوزير من الترسيم، فبلغ برقوق، فغضب علي شاد الدواوين بهادر. وحبسه بخزانة شمائل، ثم شفع فيه فأطلق. وبالغ في أذية إخوة ابن مكانس وأقاربه، وسلط عليهم العذاب. وضربوا بالمقارع، وهجموا علي حريمهم وهاجموا بيوت معارفهم. واستقصوا في التفتيش عليه في الكنائس والديور فلم يقعوا به ».

ويبدو أن كريم الدين ظل هارباً حتي هدأت الأحوال، ومرت العاصفة وتغير الجو، واعتدل مزاج برقوق، ووجد كريم الدين وسيلة للقربي منه بالمال، والهدايا فولاه الوزارة ونظر الدولة مرة أخري بعد عام ثمان وثمانين وسبعمائة (٧٨٨ هـ) (٣). وبعدها عاد كريم الدين إلي سيرته الأولي وأبدي من الجد، والنعمة ، ماأثار حفيظة برقوق.

---

(١) أنباء الغمر : ١ / ٢٣١
(٢) أنباء الغمر : ١ / ٢٣٤
(١) أنباء الغمر : ١ / ٣١٧

قال صاحب نزهة النفوس :

« في رابع ربيع الأول عام تسع وثمانين وسبعمائة (٧٨٩ هـ) جلس السلطان في بعض أماكن لينظر إلي جهة البحر (النيل) فرأي خيمة مفروشة بشاطئ النيل، فأرسل يكشف عن الذين بها ويحضرهم، فإذا فيها كريم الدين بن مكانس وشمس الدين أبو البركات يتعاطيان الخمر في خواصهما، فأحضرا بين يديه، فضربهما بالمقارع، وألزم ابن مكانس بمائة ألف درهم، فحملها إليه » (١).

ويذكر ابن حجر الخبر نفسه عام ٧٩٠ هـ ويرويه بصيغة أخري فيقول : « بلغ السلطان الظاهر برقوق أن كريم الدين وأبو البركات بن الرويهي صهره نصبا خيمة علي شاطئ النيل، وأحضرا من يغني، وعملاً مقاماً حافلا؟ فأمر بالقبض عليهما، وضربهما بالمقارع، ومصادرتهما » (٢).

وظل كريم الدين فيما يبدو في السجن أو مقبوضاً عليه، متحفظاً علي أمواله حتي أمكنه أن يعود إلي استغلال المال لرفع القيد، وكشف الغمة متوسلاً بأحد أمراء المماليك واسمه منطاش، وكان ذا مكانة في دولة برقوق، قال صاحب نزهة النفوس :

« أفرج عنه منطاش في شوال عام واحد وتسعين وسبعمائة (٧٩١ هـ) بعد أن حمل إليه من الفضة والذهب ماجملته ثلاثمائة ألف دينار وخمسة وثلاثون ألف دينار - كله لبرقوق - خارجاً عما أخذه منه منطاش نفسه »(٣).

ورضي السلطان برقوق بما حمل إليه من المال الكثير هذه المرة، وأعاد أسرة ابن مكانس إلي مكانها، فعين كريم الدين مشيراً للدولة، وفخر الدين ناظراً للدولة، وزين الدين في نظر الجهات .

ويبدو أنه اختلف مع أحد أمراء المماليك ممن كانت بينه وبين ترات، وكان كريم الدين قد صادر أمواله أيام توليه الوزارة في عهد الملك الصالح حاجي، فانتقم منه هذا المملوك وقبض علي كريم الدين وجاء به فضرب بالمقارع بين يديه سنة ٧٩٢ هـ في

(١) نزهة النفوس : ص ١٥١
(٢) أنباء الغمر : ١ / ٣٥٣
(٣) نزهة النفوس : ص ٢٥٣

عهد برقوق أيضاً وأمره باسترجاع ماأخذه من دواوينه، ثم أفرج عنه بعد الثقة والضمان (١).

وفي عام أربع وتسعين مسك وسلّم لوالي القاهرة (٢) وانقطعت بعدها أخباره،

أما عن فخر الدين، فقد اشتهر باسم عبد الرحمن، وذكر أحياناً بعبد الوهاب.

قال ابن حجر في الدرر : « وكان أبوه من الكتاب في الدواوين فنشأ في ذلك وكان ذكياً، فتولّع بالأدب، فأخذ عن القيراطي وغيره، وصحب الشيخ بدر الدين البشتكي، ونظم بالطريقة النباتية - يقصد ابن نباتة الشاعر المشهور فأجاد مع قصور بيّن في العربية، لكنه كان قوي الذهن، حسن الذوق حاد النادرة، يتوقد ذكاء.

ولي نظر الدولة وغيره من المناصب بالقاهرة، وصودر مرة مع الصاحب كريم الدين أخيه، ثم ولي وزارة الشام، فأقام بها مدة، ودخل حلب صحبة الظاهر برقوق، وطارح فضلاء الشام في البلدين (يقصد دمشق وحب) ثم طلب من دمشق نيلي الوزارة بالديار المصرية. فيقال أنه اغتيل بالسم وهو راجع. فوصل بيته ميتاً عام أربع وتسعين ولم يكمل الخمسين سنة (٣).

ويبدو أن أعداء أخيه، قد فعلوا به ذلك بعد أن أمسك أخوه، وخشوا من انتقامه بعد توليه الوزارة.

وغالب الظن أن المدبر لهذا كله بأسره ابن مكانس هو الأمير منطاش صاحب النفوذ في دولتي الصالح حاجي والظاهر برقوق. فقد كان هذا الأمير مستبداً قبل تولي برقوق، وأرغم فخر الدين وأخاه علي أن يقررا له مالاً حتي يتركهما علي حالهما في النظارة والوزارة.

فلما ملكا الأمر استعادا أموالهما، وصادرا بعض أموال الأمير ثم انقلب الأمر عليهما مرة أخري. بعد عزل برقوق علي يد الأمير يلبغا الناصري.

---

(١) نزهة النفوس : ص ٢٩٩
(٢) المصدر نفسه : ص ٣٤٥
(٣) الدرر الكامنة : ٢ / ٣٣١

ولما عاد السلطان برقوق إلي السلطة في السنة نفسها عام ٧٩١ هـ وقبض علي أخيه كريم الدين وصودر اختفي فخر الدين حيناً، ثم لّما عاد كريم الدين ورضي عنه السلطان بالرشوة، أعاد فخر الدين مرة أخري إلي السلطة، وربما بعث به في هذه الفترة إلي الشام ليلي الوزارة هناك بوحي من أخيه، علي الأرجح ، وعلي ماسبق أن أخبرنا ابن حجر.

وَيرْوي ابن اياس أنه في عام ٧٩٢ هـ بعد غضب السلطان علي أخيه جاء به «وضربه علقة قوية» ثم علقه من رجليه بسرياق فأقام وهو منكوس علي رأسه نصف نهار، ثم إن بعض الأمراء شفع فيه، فأنزلوه، فقال في هذه الواقعة (١):

وماتعلقت بالسرياق منتكساً ... لثزلّة أوجَبتْ تعذيبَ ناسُوتي

لكنَّني مذ نفثتُ السحر من عزَلي ... عُذِّبْتُ تعذيبَ هاروتِ وماروتِ

ويروي صاحب نزهة النفوس خبراً يوضح كيف عاد فخر الدين بعد هربه، أو سجنه بعودة السلطان برقوق إلي السلطنة بعد أن نحيّ فترة غير طويلة في أواخر عام ٧٩١ هـ. يقول :

« في صفر أول عام ٧٩٢ هـ عاد السلطان الظاهر برقوق إلي السلطنة ثانية وطلب فخر الدين بن مكانس وخلع عليه ، واستقر ناظر الجيش »(٢).

وقال المقريزي في السلوك أنه خلع علي تجهيز استقبال السلطان في عودته من دمشق فقد ذكر أنه في صفر من هذا العام طُلب إليه تجهيز الإقامات والشقق الحرير لأجل فرشها تحت فرس السلطان برقوق عند وصوله من الشام إلي مقر ملكه القاهرة ثانياً بعد نفيه.

وفي ربيع الأول - علي رواية أخري - من العام نفسه هرب كريم الدين أخوه عندما طلبه السلطان برقوق، فلم يعرف له أثر ولاخبر فوقعت الحوطة علي أقاربه وخواصه وحاشيته، ورسم علي أخويه فخر الدين عبدالرحمن ناظر الدولة وزين الدين نصر الله »(٣)

(١) ابن اياس : ص ٢٥٤
(٢) نزهة النفوس : ص ٣٩٦
(٣) نزهة النفوس : ص ٢٩٨

ويتفق هذا الخبر مع ماأورده ابن حجر في أنباء الغمر حيث قال : « وفي سنة ٧٩٢ هـ بعد عودة الظاهر برقوق استقر فخر الدين بن مكانس في نظر الدولة، ثم أمسك وصودر، ثم هرب، فأخذ وأهين »(١).

ويبدو أنه عاد فحمل الأموال وقدمها للسلطان فعفا عنه وأعادوه في ذي الحجة إلي وظيفته، وبعث به إلي دمشق وزيراً. ويقال إنه استقر في استيفاء الدولة رفيقاً لابن البقري. قال صاحب نزهة النفوس : « وصاروا يركبون في خدمته ويمتثلون مايرسم به ديْدَنا. ولم يقع لغيره من الوزراء هذا »(٢).

ومن عبارة صاحب النزهة نفهم عودة فخر الدين إلي السلطة معززاً ثم سفره بعد إلسي دمشق وزيراً، وطلب السلطان برقوق له بعد مسك أخيه كريم الدين نيلي وزارة القاهرة فدس له أعداؤه السم في الطريق فبلغ مكانه ميتاً عام ٧٩٤ هـ في شهر ذي الحجة علي ماذكرنا.

يقول ابن حجر وقد لقيه وسمع منه : « وولي وزارة دمشق أخيراً، ثم استدعي إلي القاهرة ليستقر وزيراً بها، فاغتيل بالسم في الطريق، فدخل القاهرة ميتاً (٣).

ويذكر المؤرخون - ويؤيده ماذكر في سيرته هو وأخوه - أنه كان مترفاً رقيق الطبع، كثير الذوق، حسن الصوت، ظريف الشكل، مقبول الخلق (٤).

اشتهر بالكتابة وراثة عن أبيه، كما برع في نظم الشعر.

قال ابن حجر: « كان ماهراً في الكتابة، عارفاً بصناعة الحساب، أعجوبة في الذكاء ، له الشعر الفائق والنظم الرائق ».

قال ابن حجر : سمعت من لفظه شيئاً من الشعر، وكانت بيننا مودة (٥).

ويقول عنه: وكان إماماً بارعاً في الأدب ، بليغ النظم ، جيد النثر، مفرط الذكاء، عارفاً بصنعة الديوانية، يرجع إليه فيها رحمه الله تعالي .

---

(١) أنباء الغمر : ١ / ٣٩٥
(٢) نزهة النفوس : ص ٣١٨
(٣) أنباء الغمر : ١ / ٤٤٤
(٤) نزهة النفوس : ص ٣٥٣
(٥) أنباء الغمر : ١ / ٤٤٤

واشتهر بسرعة البديهة وحدة النادرة، والميل إلي النكتة .

ورماه ابن العماد بأنه لم يحسن اسلامه فقال : « أنه لعراقة آبائه في النصرانية كان يستخف بالإسلام وأهله ويخرج ذلك في أساليب من سخفه وهزله »(١).

كتابته :

ومن نثره قال ابن حجر : ماطرق مسمعي أحسن من قوله في الرسالة التي كتبها للبشتكي لما صاد السمكة، وهي الرسالة الطويلة ، منها :

« وقعد لصيد السمك بالمرصاد، وأطاعه حرف النصر، فكلما تلا لسان البحر نون، تلا لسان العزم صاد » (٢).

وهذه الرسالة أوردها الغزولي في مطالع البدور، يقول فيها : « من رسائل فخر الدين بن مكانس، وكتب بها إلي الشيخ بدر الدين البشتكي، وقد كانوا بمجلس أنس بشاطئ الروضة في أيام وفاء النيل السعيد، فاتفق أن الشيخ بدر الدين صاد حوتاً عظيماً بالصنارة - يداعبه (٣) :

« بلغني - رفع الله قدرك علي السماك ، وأعلي محلَّكَ وأسماك، وأجري بسعدك وأمرك في نهر السماء وبحور الأرض الأفلاك، ولازالت همُّ نظمك البدرية، ونثرك تعلو علي النَّثرة، وفتكات عزماتك الملوكية تسمو إلي جيد نسر السماء في وكره، وحوتها في المجره، ولابرحْت تعرف صروف المحاسن، فتخدمك من كل محجر عين، ومن كل حاجب نون، ولافتئت تجمع شمل المعالي إلي أن يفترق الفرقدان، ويلتقي الضبّ والنون، ويغدو سهيل في السماء مصادف الثريا، ويصبو الحوت للسرطان، إن مولانا مع ما له من العز أقلق السابح في لجّه. وراع كلَّ حوت حتي حوت الأرض في لُجِّه وحوت السماء في بُرجه. وجاور ذوات البحر فكان لها بئس الجار، يطعمه الذي أقامه عليهم في الحيلة مقام بنجه. وأنه شدَّ وسطه للصيد، وكان من الحزم. وأرسل آلة صيده إلي الأسود والأحمر من أمم البحار، فعادت عودة أولي العزم، فقعد بعد ذلك مولانا للصيد بالمرصاد، وأطاعته

---

(١) شذرات الذهب : ٦ / ٣٣٤

(٢) نقله العماد في شذرات الذهب : ١ / ٣٣٤

(٣) مطالع البدور : ٢ / ٢٤

حروف النصر، فكلما تلا لسان البحر نوناً تلا لسان العزه صاد:

وهي السعادة في السماء فلو تشا لطعنت منها رامحاً بالأعْزَل

فمن ذلك صيدُ الحوت الذي قدم من أقصي النيل. فياله من سفر بعيد، فارق وطنه، ومشي مع التيار السريع في البحر المديد، فآوي إلي الشط طالباً غذاءه إذ لقي من سفره هذا نصبا، وركن إلي البئر فليته لو عقل واتخذ سبيله في البحر سرباً، ولم يعلم أن سيدنا وضع الحبل وجعله لصيده معني وصورة وسبباً فاخترمتّه يد المنية باعوجاج الصّنّارة التي نصبها لذوات البحر فخّاً للقَيْر، والضعيفة التي تعامل أقوياء الأسماك في أعظم البحور السائلة بنهر. كان هذا المسكين من صالح الأسماك الذي أفني الأيام سبحاً طويلاً، فساح. وأتي يقيِّل جداراً حلَّ فيه قدم مولانا وبركته، فجازاه التمساح، أو كأنه لجأ إلي البرِّ هرباً من عوارض الأمواج، وآمن بمجاورته، فأخذ من مأمنه، وخابَ أمنه من لاجْ، فسبح بعد بحار الأمن من بحور المنون ولاحرج. وقالت له الحيتان: إذا أعماك القضاء عن رشدك حدّث عن البحر ولاحرج. وكان ظنه أن عومّه في الشط ينجيه، فكان حتفه في ذلك اليوم. وعلي الجملة فقد آن أجله. ولو آوي إلي جبل لقيل لا عاصم اليوم، فأتَيْتَ به حُوتاً يلوح بياضه بين هضاب الموج كالبدر من سجف الغمام، وتبدو عليه جهامة تشعر أنه من نسل حوت يونس عليه السلام. فأعيذ هذا الحوت بالنون. وصائده الكاتب الأديب بالقلم ومايسطرون، فلقد ظفر بما لو ظفر به الحواريون في شباكهم المشبكة، ووقع له مالو وقع لابن صياد لتضول عجباً، وانتفخ حتي ملأ الشبكة، ووقع له ما لو وقع من السرور ما يحصل بوفاء النيل. وشاهدوا من جزله العظيم كل خير جزيل. ومنحوا من سنِّه وعظمه بجوهر النقي وأنياب الفيل، وأرخصُوه للقري بعد أن أمسي في القدور يُغلي، وقلوه فطاب مأكلاً وإن كان مما لايُقلي، ونوَّعَوه محلّي وحامضاً. فالمحلّي جعلوهُ نقلاً علي الكؤوس حين تُجْلَي، وفازوا علي رأي ابن حزم، وإن لم يكن من أصحاب الرأي بالمحلّي والمَجلّي، والحامض، فقطعوا عند أكله بالذوق أن ذلك الحوت مرّ لامحالة.

وقال آخرون: بل هو هالة كتناسب البدور والهالة. وجملوا به الموائد وحكموا لصائده بالتقدم علي الضفدع الأديب في مصائد الشوارد وقدموه علي ماعندهم من طري وبائت، وأكلوه من ساعته كي لايندموا علي فائت، قائلاً: لاتؤخروه

فللتأخير آفات، ولاتبيّتوه، فكلما بات فات ».

وبادروا طراوته لعلمهم أنه أطيب مايؤكل من السمك الطري.

واستطابوهُ. ولاخلاف أن صائد الحوت أكثر تلذذاً بأكله من المشتري. هذا وأما الأسماك بذاك الشاطئ. فقد نادي مناديهم بالرحيل، فقال أديبهم للبنّيّةْ (١) مصحفاً يابُنَيّة، ليس المقام هنا جميل، فكم فرخ حوّل وكر أمّه من هنا وشَال، وكم عصبةٍ من السِّمك صرخَتْ قاَقاً وقطعت الحبال، وكم طائفة من رشادها فرت إلي البُرور الخالية من العباد، وكم طائفة تخلفت ودفنت في الشباك فقيل تخلّتْ عن سبيل الرشاد. وكم طائفة أسرعت إلي رءوس الجبال الحركة وكذبت العروضيين في قولهم : لم أر علي ظهر جبل سمكة.

وكم سمكة قالت لرفاقها : اهجروا ماءكم ومأواكم، كما هجْرتُ مأواي، وأخلوا هذه الديار، وإن أعشبت، وابتغوا صائب الرأي.

ومنهم من عمد إلي عمق البحر نجاة، وسارت به سفينته في موج كالجبال وكان سبب النجاة. وتواصوا لما رأوا طغيان الماء أن لايأووا إلي البرور وتحققوا أنه الطوفان لما فار علي أخيهم المصاب التَّنَور.

وكم قائل : الحمد لله الذي قطع عنا أثر هذا النون العظيم، وأزال عينه، وقائلةٍ سبحان من أراح ضعفاء السمك من هذا الجبار، وفرق بينهم وبينه.

فشكراً إذ غدا مولانا شيخ البر والبحر، وأضحي في تنسُّكه ابن السمّاك وفي صدق حديثه أبَادرٌ، وأمسي ضرع البلاغة مسخراً له، فإن جمَحَ لغيره أو أباه ذرَّ أحياه الله بَدْراً يشرق في سماء المعالي، وتحلي أجياد الفصاحة من بحور نظمه ونثره بالجواهر والآلي، وجَمَّلَ به السماء كما جمَّل به الأرض، ولاجعله كأدباء هذا الزمان الذين هم كالأسماك يأكل بعضهم بالغيبة لحم بعض بمنه وكرمه. والسمكَ بارد رطبَ يولد البلغم، وينقع المحرورين ويضر بالمشايخ، ودفع مضرته بالأفواه الحارة والعصفر والملح وصفاره بالخل، نافع لأصحاب الأمزجة الحارة ومن به يرقان، وكبده حار. والمالح منه حار يابس السوداء ويضر بالمحُرورين »(١).

---

(١) البِنّيّه : نوع من السمك معروف بمصر وهو نيلي

وتدلُّ هذه الرسالة علي مقدرة فائقة في الكتابة، يستخدم فيها ضروب الفن الكتابي المعروفة في عصره، والتي أرساها من قبله كبار الكتاب، ورقشها في عصره وزاد فيها وصرفها تصريف المفتن الكاتب المبدع القاضي الفاضل.

وهو غير مسرف فيها اسراف من عاصره في ضروب البديع المتكلف ، بل هو أقرب إلي السجع المرسل، وهي سمة كتاب القرنين الثالث والرابع، كما أنه في هذه الرسالة يكشف عن علم واتساع أفق وثقافة منوعة، ومقدرة لغوية تحاكي قدرات السابقين ممن نوهنا بهم، وفي الرسالة يتضح ميله إلي التورية ميل كُتَّاب المصريين وشعرائهم.

وشعره لايقل عن كتابته افتناناً، فهو يكشف عن شاعر مطبوع مبدع يجيد استخدام اللفظ، له باع في التخيل ورسم الصورة، متمكن من عبارته، لايثقلها تكلف غيره ممن عاني النظم في عصره، ووسم نفسه بالشعر وليس شاعراً.

وقد تعددت جوانب شعره وتنوعت موضوعاته تنوع حياته. ولم يقتصر علي لون واحد منه، بل جرب الأنواع النظمية التقليدية والمستحدثة فنظم القصيدة والأرجوزة، والموشح ، والرباعية، وأبدع فيها جميعاً.

ونقل من شعره جماعة من الأدباء ممن عاصروه وأخذوا عنه كالغزولي وابن حجر، كما جمع شعره في ديوانه. الذي مازال مخطوطاً.

ومما عرف من ظريف نظمه أرجوزته التي نقلها صاحب الكشكول (٢):

هــل من فـتي ظريــــــفٍ	مُـعـاشـر لطيـــــــــفِ
يـسـمع من مـقـالـــــي	مـــا يرخص اللآلـــــي
أمنحــــــه وصـيـــــة	ســاريـــــةً سَـريـــــةْ
تُنيـرُ في الدياجــــــي	كلمـعـةِ السِّـــــــراجِ
حــاليـــــــةَ السَّـــرآء	جليلةَ الأنْبــــــــاءِ

(١) مطالع البدور : ٢ / ٢٤

(٢) الجزء الأول : ص ٨٧

وفي روض الآداب مخطوط ورقة ١٦٨ والغزولي مطالع البدور ١ / ١٤٨

ماجنـــــةً خليعَــــةْ بليغـــــــةً مطيعـــــــةْ
رشيقـــةَ الألفـــــاظ تسْهُـــــلُ للحفَّـــــــاظِ
جادتً بهـــا القَريحــــةْ في مَعْـــرضِ النَّصيحـــــةْ
أنا الشفيـــق الناصِـح أناَ المجــــد المـــــازِحُ

اسلُكْ مع الجـمـــاعَـــــةْ فـي طُرُقِ الخـــلاعـــــة
أجــدُ للأكـيـــــــاسِ عَـهْـدَ أبي نـــــــواسِ
إن تَبـتغِ الكرامـــــــــةْ وتطلـــبْ السـلامــــةْ
أسلكْ مع النـــــأسِ الأدبْ ترَي من الدَّهر العَـــجـــَبْ
أحْسنْهُمْ الخطابَـــــــــــا واعـتـمـدْ الآدابَـــــــا
تَنلْ بهـا الطلاَّبـــــــــا وتسـحـرْ الألبـابـــــا
ألبسً حُلي البــلاغَــــــــةْ واخْلَع رِدا الرَّقــاعَـــــةْ
ولاتطاولْ بنشَــــــــــبْ ولاتُفـاخِـرْ بنسَــــــــبْ
فـــالمرْءُ ابنُ اليَـــــــوْمِ والعـــقلُ زينُ القـــــوْمِ
مـــاأرْوضَ السِّـيـــاسَـةْ لصَــاحِبِ الرِّياسَــــــةْ
إن شـئْتَ تـلْقَي مُـحْـسِنـــــاً فــلا تَقُلْ قطّ أنــــــاَ
وإن أردْتَ لاتـهُــــــــنْ إذا أؤتمنت لاتَخُــــــنْ
العـــــزُّ في الأمــــانَـةْ والـكـيْـسُ في الفـطانـــةْ

وفيها يقـول في آدب المجالـــس، ومـــنها مجلـــس الشــــراب :

وإن حللتَ مــجلســــــاً بين ســـراةٍ رُؤسَـــــــا
اقــصـدْ رضَـا الجـمَــاعَـةْ وكـــن غُــلام الطَّاعَــــةْ
ودارِهمْ بـاللُّطْــــفِ واحْـــذَرْ وبَالَ السَّـــخْـــفِ

لاتلفُظَنَّ كاذبـاً | لاتهـمل الملاعـبَـا
قُـرْبُ النَّدامي يُلجـي | للنَّرْدِ والشَّطرنُـجِ
واختصرْ السُّـؤَالاَ | وقلِّـلْ المقَـالا
ولاتكُنْ معـرْبِـداً | ولابغيضـاً نكـدا
ولاتكُنْ مـقْـدَامـا | تَسْطُـو علي النَّدامَـي
لاتُمسِكْ الأقَـدَاحـا | تُنَغِّصْ الأفـراَحـا
لاتقطعْ الطوافـةْ | لاتهْجُـرْ السُّلافَـةْ
لاتحْـمِلْ الطعـامَـا | والنُّقْـلَ والمدَامَـا
فـذاكَ في الوليـمَـةْ | شَناعـةٌ عظيـمَـةْ

وقُـلْ مـن الكَـلامِ | مـالاقَ بالمقَـامِ
كـرائـقِ الأشْـعَـارِ | وطَيِّـبِ الأخْـبـارِ
واتْـرك كـلامَ السِّفْلَهْ | والنكت المبـتـذلَـةْ

ويقول فيها في فتيان المماليك الذين عرفوا بالعربدة فـي مجالسهم :

وإن صَحِبْتَ تُركـي | فـاصْبِر لأجْلِ الصَّكُ
هذا إذا تـلطَّفـا | ولمْ يكن منْهُ جَـفَـا
وإن يكُنْ ذا عـرْبَـدَهْ | وعـيشـةٍ منكّـدةْ
يقـوم في الجُلـوسِ | بالسَّيـفِ والدبُّـوسِ
أبشـر بَقـتْلِ القَـوْمِ | وشُـؤْمِ ذاكَ اليَـوْمِ

وفيها يصف الهلال، ويشبهه تشبيهات متعددة، ويصوره صوراً دارجة، وجديدة من خياله :

منْ جـانب الغـمـامَـةْ | كـالحـبَّ في العـمـامـة

ولمعــةِ السّــــــــراج والصّــدْغ في الزّجــــــــاجِ
وجــانب المـــــــــــرآة والنّهلِ في المقْـــــــلاةِ
وكــشـفـــــــاهِ الأكْــــــؤُس والحاجب المقـــــــوَّسِ
قلت لـه حين وفـــــــــــا ورَقَّ لي وانعطفَـــــــــــا
كـالغُـصْن لدن أعـــــــــرجِ والفَـــــخُّ أو كـالدُّمْلُــــجِ
مـعـرَّقـاً كـالنُّــــــــــون وهيـــئـةِ الـــعَـرجْــــونِ
يُشْبِــهُ طـــــــوْقَ الـــــدُّرَّهْ فـــي الصَّحـو بينَ الخُضْرةْ
يـــــاصـفـوةَ الأقـمـــــــارِ يـــــامبْـــدأَ الأنْـــــوارِ
يامـــــــنْ يُحـاكـي العيـبَه والقينَـــــــةَ المنْتَقِبـــــةْ
وزورقَ السّـبَــــــــاحـــــةْ والــــظّفْر في التّـفـاحَـــةْ
أصْبَـحت فـــــــي التّمـثـيلِ تشبـــه نَــاب الفيــــــلِ

ومن شعره الجيد الغريب في عصره مع طول النفس وصفه لسرحه وارفة علي شاطئ النيل كان يعتادها هو وبعض ندمائه يقول (١):

ياسرحةَ الشّاطئ المنساب كوثــــرُهُ علي اليـواقيت في أشكال أهواءِ
حلّتْ عليك عَزَ اليـهـا السحــابُ إذا نـوء الثريا استهلت ذات أنـواءِ
وكم نزلنا مقيلاً منك ماحَمِـــــي ألْ هجيرُ إذْ حيثُ لأمرأي لحربـــــاءِ
يظلُّ من قبلِ الحرباءِ في ظلـــــــلً من الغمام يقينا كلَّ ضــــــــــراَءِ
ياطبَّةً بدواءِ القيظ عالمـــــــــــةً انت الشفاءُ لدي الرّمضاءِ للــدّاءِ
لاصوّحَ الدهرُ منك الزّهرَ وانبجسَــتْ عليك كلُّ هتونِ الودق ســـــوْداءِ
عصابة الشّرب أمُّوا رَوْضَ زاهـــــرةٍ تُعْزَي لأكرم أخوالٍ وآبـــــــــاءِ
فاستمهدت دوحَهَا المخضلَّ وافترشتْ نَجْمَ الرُّبا، ورقَتْ عرشاً علي الماءِ

(١) مطالع البدور ١ / ١٢٠ وتأهيل الغريب للنواجي

قريرة العينِ بالأنواء بـــــــاردةٌ ال ... قلب الذي لم تنلْهُ غير ســــــراءِ
مقيلُ ندمانَ، بل مغني حمائم، بـــلْ ... كناسُ آرامٍ، بل أفناء درْمـــــاءِ
لها مَطارفُ سَجْسجٌ فمصْيَفُهـــــا ... ظِلٌّ يعادلُ فيه طيب مَشتَــــاءِ
قديمةُ العهد هزَّتها الصَّبا فصبـــت ... وهي العجوزُ تَهادي هدْيَ مَرْهــاءِ
وصوتُ بُلْبلها الراقي ذُرْي غُصْــنٍ ... بحلّةٍ من دِمَقْسِ الريشِ دكْنـــاءِ
كقَرع ناقوسِ دْيرِي علي شـــرفٍ ... مُسَبِّحٍ في سوادِ الليل دعَـــاءِ
خنَية حين أحنيتُ الضلّوعَ عـــلي ... نارٍ لشَجْوِي بها لا من حب لميـاءِ
تهكمت بي لم تحْنُنْ أضالعهــــا ... علي البِراء وأحنتْها علي المـــاءِ
كم صفَّقَ الموج مع أزْهارهَا طرَبــاً ... فنقَّبتْهُ ببيضاءٍ وصَفْـــــراءِ
وكم طربتُ لما أبدته من مُلَـــحٍ ... يَصْبُو لهـ كلُّ ذِي عقـــلٍ وألاءِ
وجدَّتُ بالِّبْرِ من مالِي ومن أدبـــي ... فكنتُ في كلٍّ حالٍ منهما الطَّائِي
كأنَّ أغصانها اللدنَ الرشــــاق إذا ... هصرتُ أفنانها أعطافُ وطفـــاءِ
كأنَّ صَمْغَتَها الحمرا بقشرتها الـــد ... كناءِ قَرْصٌ علي أعكانٍ سمـــراءِ
مالت علي النهر إذ جاش الخرير بـه ... كأنَّها أذنٌ مالتْ لإصغــــاءِ
كأنما النهر مرآةٌ وقد عكفَــــتْ ... عليه تَدهشُ في حســـنٍ ولألاءِ
ذو شاطئ راق غِبَّ القطر فهو علي ... نهـــــر الأبلَّةِ يزري أيَّ إزراءِ
وكم شدتنا حمامات الأراك علـــي ... أغصانها. فأرتنا رَقْصَ هيفـــاءِ
من كلَّ ورقاء في الأفنانِ صادحـــةٍ ... بين الحدائق في فيحاء زهـــراءِ
باكرتُها في سَراةٍ من أصَاحِبنـــا ... لاينطوونَ علي حقدٍ وبغْضـــاءِ
تداعبُوا بمعانِي شعرهم فأرَوْا ... ودَّ الأحبة في ألفاظ أعـــداءِ
من كلَّ شيخِ مُجونٍ في ثياب فتي ... يَقـــرِي المجونَ بقَلْب غير نسَّاءِ

يسعي إليها علي جرداء جاريةٍ — من أثْلها كهلالِ الأفق حدْباءِ
نُوحيَّةُ الصُّنْع والإنشاءِ مُنشأةُ — تَسيرُ ماسُيِّرتْ من غير إعياءِ
سوداءُ تحكي علي الماءِ المصندل — شامةً علي شفةِ كالشُّهد لميَاءِ

كم قد نعمنا بها عيشاً بصَافيةٍ — شمطاء تُجلي علي الخلانِ عذراءِ
مما تَخيَّرها كسري وأوْدَعَها — رَبُّ الخورنق في قَوارِيَ جوفاءِ
راحا إذا ركعَ الإبريقُ يمزجها — سمعت من صوْتها تسبيح فأفاءِ
أمُّ السُّرور التي أبقي الزمان بها — جزء الحياءِوقدَ ألوْي بأجْزاءِ
تعاطيتُها علي طلِّ النَّدي سحراً — فإنَّ تَرشافها موتُ لأحْياءِ
من كفِّ ظبيٍ لشادٍ، أو لشاديةٍ — تشدو لنا بين شدو العود والناءِ
علي الحدائق لا الآكام تنفَحُنَا — ريحُ الينفْسجِ لا ريحَ الخُزَ اماءِ

أما أنا لستُ نواحاً علي طلل — ولاخليطٍ، ولاندَّابَ أحْياءِ
تركته لأناسٍ كالتُّيُوسِ غَنُوا — عن المدام بدَرِّ الإبْل وَالشَّاءِ

وقدعرّض في الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة بالعرب القدماء وطريقتهم في الشعر من الوقوف علي الأطلال والبكاء عليها. وتفضيل الخمر علي اللبن مزرياً بهم وبطريقتهم البدائية في العيش. لعله نهج نواسي، ولكنه صادف هوي لاشك في أعماقه.

ولعلنا نحس في بعض أبيات القصيدة ضعفاً في الصياغة، أو عدم جزالة اللفظ، ولكنها الطريقة المصرية السائدة والتي شاعت في شعر العصر، أسلوب سهل جارٍ كالحديث العادي، والغريب أن مثل هذا الشعر يسهل عن أسلوب الكتابة علي مارأيناه في رسالته السابقة.

ولابن مكانس مقطوعات وقصائد يراسل فيها أصحابه من الشعراء والأدباء

تجري في باب الإخوانيات، ويختلط فيها الجدّ بالهزل. شبيهة بمقطعات لأبي نواس وأمثاله، فمن ذلك رسالته الشعرية لصديقه سراج الدين عمر السكندري والشهير بالقوصي.

يقول فيها (١):

يوم عليك سعيد ... يُبدي الهنا ويعيدُ
يابحر علم خضمٍّ ... تأتي إليه الوفودُ
ياناقص الود يا من ... شوقي إليه يزيدُ
ويارقيق الحواشِي ... ماذا الجفا والصدودُ
ياجامع الشمل يامن ... بما لديه يجودُ
قد غَرَّتْكَ الليالي ... والجاهُ، وهو شرودُ
فكيف تبدي نُفوراً ... منا ونحن عبيدُ
وعندنا إن نزرنا ... ما تشتهي ويزيدُ
راحٌ وظبيٌ وشادٍ ... يشجي الأنامَ وعودُ

وكتب إلي الشاعر بدر الدين البشتكي يداعبه من أبيات يقول فيها (١):

دورةُ البدرِ في سَواقي الهَمَايِلْ ... تركتْ أدْمُعَ العُيونِ هَوامِلْ
آهِ مَنْ للرياضِ بدرَ أديبٍ ... يَظهرُ من كلامه سحرُ بَابِلْ
فَاقَ سعياً علي بني العِجْلِ في ... الجود، وأغْنيَ عَنَ الوَليِّ الهاطِلْ
زادَ علماً علي بني ثورَ لكنْ ... قال بالدَّورِ ماؤهُ والسلاسِلْ
ياسَعيداً أثْري من النَّظْم والنثر ... فأنسي الورَي زَمانَ الفاضِلْ
قد سقيت الرّياضَ ياشَيخُ بالدورِ ... ، فهـا غُصْنُها من السكر مائِلْ
واي قادوسَ كان طالع في ... خِدْمتك اليوم بالأوامر نازِلْ
وغدا بالظلال كلُّ أديب في ... هجير الرَّمْضَا بفَضْلِكَ قائل

(١) مطالع البدور : ١ / ١٥٦

وبروحي عيونَ نرجس روّض يعزك الحُسْنَ بالنّدي ويغازلْ
أنت شنفتها بشعركَ زهراً وبعثتَ المياه فيها خلاخِلْ

حتي يقول له :

أنت يابَدْرُ فقتَ بَدْرَ الدّياجي فلهذا تَبْدُو وذلكَ آفِلْ

والأبيات كما تري مليئة بالتوريات والمداعبات اللفظية، والنظم فيها لايحفل بقواعد النحو ، والإعراب ، فهو يتساهل تساهل غيره من أبناء عصره في ذلك، ويعمد إلي شعبية اللغة ، لتعطيه هذه المرونة في التعبير، وتكسب قوله مصرية الروح.

ويحلو له أن ينظم علي نهج الطرديات، كما فعل أبو نواس وغيره كبشار ، فينظم هذه الخماسية علي وزن الرجز . يقول :

أنعم صباحاً في خلال السّعْد واركب إلي الهزْلِ جوادِ الجدُ
ولاتبع عاجلةً بنقْدِ وخَلِّ نعت باشقٍ وفهْدِ
واستجلب الأنْسَ بطرْدِ الطّرْدِ

خذ من خلاعات الكلام المعْجبَا فلم أزل عذيقها المرجَّبَا
خلِّ الطبيب واسأل المجرِّبا إذ الخلاعَاتُ طرازُ الأدبا
وإنني فيها نسيجُ وحْدي

باكرْ إلي جزيرة الفيل التي تختالُ في أفنانها كالجنَّة
ولاتملْ عن وجهها لوجهةِ صفْ حُسْنَها بمائها والخُضْرةِ
وقف بشاطيها ولاتُعَدِّي

واجلس علي المنية جنْبَ الشّاطِي فهي من التّدبيج في أمراطِ
من فُرْشِ الروضِ علي بسَاطِ عروسةً تَختالُ بالأقراطِ
ومن لآلي نورها في عقْدِ

والتّاجُ يعْلُو فوقَ هَام النّسْرِ والسبعةِ الزُّهور ذاتِ النَّشْرِ

وكل برج حـولها كـقـصْـرِ   في كـلِّ برجٍ ثَمَّ كل بـــدْرِ
يحلُّ منها كل برجٍ سَعْــد

وعُجْ علي شُبْرا مَحـلِّ الـراحِ   واغْنَمْ من الغَبوقِ باْصطِبـاحِ
إذ كاسُها يُغني عن الصَّبـاحِ   واعقـد لبِنْتِ الكَرْم والأفـراحِ
علي نَميرِ النيل أهني عَقْد

ورُمْ نَثـارَ الحـبَبِ النَّفيـسِ   عـلي زَفـافِ بِكْرها العَـرُوسِ
وقَرِّبْ بها للشمْس عن إبْليـسِ   واستـوهِبْ الـخَمَر من القُسُوسِ
وبعْ سُلافَ دَنِّهَا بالنَّقْــد

وانظرْ إلي أنـوارِ بشر البَلْسَم   فـهي سَبيلُ صِحَتي من سُقْمي
لكونها فيما يَقـالُ تَنْتَمي   إلـي المسَيح السَّيِّدِ بن مَرْيَـم
يُحيي بإذن الله مَيْتَ اللَّحْد

يزينُها التعظيمَ والجلالَـهْ   بـدْرٌ أديرتْ واستدارت هَالَهْ
أنموذَج الفردَوْسِ لامحـالَـهْ   فـيـها علي جَناتِها دلالَـهْ
تُذَكِّرُ الناسَ نعيم الخُلْـد

أدْوَاحُها مُخْضَلَّةٌ غَنَّي بهـا   علي الغصون بلبلٌ غَني بها
إذْ سمعَ المطربَ من رَبَابها   وانْبـتَتْ من رَوْضَـةٍ ربَا بهـا
من كلِّ زوجٍ بَهِجٍ وفَــرْد

واشربْ علي محرابها المرجَّي   فـهـو لمأْثُورِ اليـموم مَلْجَا
دُوأرَجٍ به السُّرورُ يُرْجَـي   فـشـعْبُ بوأنٍ لَدَيْه يْهجَـي
من حُسْنه وصُغْد سَمَرْقَنْد

وانزلْ علي اليُمْـنِ من القناطرِ   ببُسـتَانِ ملك الأمرا بهادرِ

المنجليِّ الملكيِّ الطاهــــــري   كـهف العُـلا مهَـدِ العـسـاكِـرِ

من حين كان مُرْضَعاً في المهْدِ

فـذاكَ قـد زرعـتـه بنَفْســــي   وكلُّ مـافـيـه الجـمـيعُ غَـرسـي

مـرتَـعْ غـزلاني وشطُّ أنْسـي   شـذاهُ كـالعـروسِ وقْت العُـرسِ

فلا يُقاسُ طَيبُه بنِّــــــد

به الشَّــقـيقُ تاهَ قـاني ورْده   وخـالُهُ الأسـودُ فـوق خـدِّهْ

ربَّيتُـه كوالدٍ لولْـــــدهْ   وعـــــمَّهْ مالكه بسَعْــدهْ

فهو كريمُ الأب عالي الجـدِّ

يَمـيسُ زهوافي رياض الملْبَس   مــابَيْنَ وردٍ ناضر ،نَرْجِـس

والآسُ يَعْلوُ في سَماءِ السُّندُسَ   يستـــرقُ السمع بأذنيْ فَرَس

كذاك تنقَضُّ نَجوم الـــوردْ

لم أنْسَ زورَتي لمرجِ عَنْــبَرِ   ومَـقْطَعَ الرَّمْلِ رضيـعَ الكوْثـرِ

ذى النونِ والطير معاً والجؤذرِ   مَـعْ كلِّ بــدرٍ للسُّرور مُشْتَرِيَ

يقولُ هذا اليوم يومُ سَعْـــد

ومن هذه الأمثلة من شعر ابن مكانس يتضح ميله إلي المطولات في القصيد و الرجز، مما ينبئ عن طول نفس وتدفق قريحة، ويمثل لنا طاقة شعرية في الأخيلة، والمعاني الطريفة، مع خفة ظل وميل إلي الدعابة.

وابن مكانس مُغْرَى بمصر والطبيعة المصرية، محب للنيل كغيره من المصريين يحرص علي الجلوس إليه والسكني بقربه فقد اقتني داراً كان يدعو إليها أصحابه ليستمتعوا بأوقاتهم في سرور مع جمال الطبيعة والغناء والشراب .

وهو لايفتأ يتغني برياض مصر والقاهرة ، وماتَضُمُّهُ من مفاتن ومباهج باشجارها وزهورها التي اشتهرت بها .

ومع ميل فخر الدين إلي المطولات إلاّ أنه نظم كذلك مقطوعات كغيره من

الشعراء في مناسبات ومواقف كثيرة، تجلت منها طبيعته التي أشرنا إليها.

كتلك التي رواها له صاحب الكشكول :

للّه ظبيٌ في الدُّجي زَارَنـــــي مــــستـوفِـزاً ممتطيـاً للخَطرْ
فلم يقف إلاَّ بمقــــدار أنْ قُلتُ لـهَ أهلاً وســـهـــلاً ومَـــرْ

ورسائله الشعرية في استدعاء أصحابه، أو مجاملتهم في مناسباتٍ ، أو لمجرد المداعبة عديدة يروي منها أدباء العصر ومن بعده كثيراً.

وبعد، فشعر فخر الدين ونثره كما تري كفرسي رهان، يكشفان كما قال ابن حجر عن مقدرة بيانية، وذكاء، وإن لم يلتزم التزاماً صارماً بقواعد العبارة العربية الرصينة علي ماتعودناه في أدب القرون السابقة، كذلك تراه يتجاوز في استخدام بعض ألفاظه، وقد يأتي بها من حقل اللغة العامية المعاصرة له، ويلاحظ استخدامه لمعارفه القرآنية ، ومحفوظه للكتاب المقدس فيما يكتب من نثر أو شعر.

ذلك كله إلي روح فكهة وميل إلي الدعابة والنكتة .

صدر الدين الآدمي

(٧٦٨هـ - ٨١٦هـ)

هو صدر الدين علي بن محمد الآدمي، ولد بدمشق سنة ٧٦٨ هـ اشتغل بالأدب وقال الشعر الجيد، الحسن المليح الرائق، وترسَّل وحضر إلي مصر. قيل أنه دخلها بعد الثمانين، ويبدو أنه دخلها صحبة الملك المؤيد شيخ المحمودي سنة ٨٠٤ هـ، وكان المؤيد بدمشق، فاتصل به ابن الآدمي هناك ، وصحبه ، واختص به وكتب له السر سنة ٨٠٤، عندما كان نائباً للسلطنة، ونظر الجيش، وقضاء الحنفية وتولي في حلب القضاء والحسبة سنة ٨١٥ هـ (١).

وظل في مصر سنوات بعد عام ٨٠٤ هـ وقبل سفره إلي حلب، التقي في القاهرة بجماعة من الأدباء. وقد ذكر أنه طارح ابن حجر الشعر سنة ٧٩٧ هـ.

وكانت بينهما مودة. كما اتصل بالبدر الدماميني وكانت بينهما مراسلات ومطارحات وتوفي في حلب ورثاه ابن مكانس مجد الدين .

وتبدو علي شعره رقة لانحسها في شعر من نظم من العلماء والفقهاء وإن ظل مطبوعاً بطابع العصر.

وله في الغزل والوصف والشكوي غير ماهو معتاد من جاري القول في موضوعات المديح والمطارحات والإخوانيات في مناسبات عديدة.

ويقول يصف غربته وشوقه، ويضيق فيها بالحياة والزمان :

فيما رعي الله صبَّ يوم فرقته	أجري مدامعه من دون رفْقته
يالأخلاء هل مُوفٍ لمن حكَمتْ	عليه أيدي النَّويَ يوماً بغربته
وفي لهُ الدمعْ دون الصبر بعدهُمْ	وخانه الدهْرُ إلا في تشتته
لم يبق في الدهر من شئ يسُّر به قد	حاكَ ثوبَ الضَّنا مِن وشي صنعته

(١) راجع السيف المهند في سيرة الملك المؤيد : لبدر الدين العيني : ص ٣١٢

وغـادرته يد الأيام مـبتــــذلاً وأخْلقَـتْـهُ الليـالي بعـد جدّتـه
وآن أن يصـحُـوَ السَكرانُ من ثملٍ وأن يملَّ من السَّـاقِي وخمـرتـه

ومن شعره متغزلاً في فتاة تركية :

سَلَبْت نومِي بطرفٍ منك وسنــــانِ ياطلعةَ الشمسِ أو ياقـامـة البـان
مـا كل من يدّعي في الحـب منزلةً قـد نالهـا دعـوةً مـن غـيـر برهانِ
وبي فـتـاةٌ من الأتراك ظالمـــةٌ تـجـري الدمـوعَ ولاترثي لولْهـانِ
تقـول صـانك قلبي وهي كـاذبـة فـقـلـت : أوري بقلب منك صـوانِ
حللت منزلة في الحب ياقـمـري فـلا تجنَّيْ علي طرفي بحـرمـان
يامن غدا وجهُهَا في الحسن منفرداً والله الغرامي فـيك من ثــــانِ
لاترمينْ بسلوَ مـهـجـتـي أبـداً ولـو تسَنَّتْ علي نيـران هجـران
هل تعلمين بليل فيكِ أسهــــرهَ أحلي من الغمض في أجفان وسنانِ
عدمت فيك اصطباري والرقادَ معاً فمـا ادعي بنومي أو بأجفانـــي

قال الغزولي : « وانشدني بلفظه لنفسه سيدنا القاضي المُفَنُّ البارع، صدر الدين علي ابن سيدنا ومولانا القاضي أمين الدين ابن الآدمي سلمهَ الله تعالي ، ونقلتها من خطه (١) :

سبَّح القمـري في الدوح وغـــرَّد فحسبنا أن في الروضة معـبَدْ
والندي فـاضَ علي زهر الرُبـــا فسرت بين الندامي نفـحـةُ نَدْ
إنما الزهر ثغــــورُ فـتحـــت باسماتٍ بجميل المُزْنِ تحمـدْ

ومما اختاره النَّواجي من شعره قوله (٢) :

عَدِمْتُ غداةَ البَيْنِ سَمْعِي وناظِرِي فيا مقلتي حاك السَّحاب وناظري

(١) مطالع البدور : ١ / ١٧٢
(٢) تأهيل الغريب ورقة ١١٩

وأصبحتُ مقصوص الجناح من التوي | فمن لي بقلب بعد بُعدكَ طائــــر
فيـاليت من قد خلفوا القلب عندهم | بُعيد مسيري لو يرقُّوا لسائـري
أحاول كتمان الهوي وهو فاضحــي | فلا تعذلوني بافتضاح سرائـــري
حبيبي علي الكثبان قد خطّ شَعْرُهُ | علي الرمل أشكالاً وخطَّ ضمائري
أنوح ومالي في الدجي من مسامـــر | سوي فيض دمعي والنجوم الزواهر
كلانا رعاك الله يازهر ساهـــــرٌ | فرقٌ علي جفْنٍ قريح وساهـــــرَ
وخاطر طيفٍ رام ليـلاً زيارتــــي | وكـيفَ ونومي لايلمّ بخاطـري
فيـاليل لم هذا التطاول في المــدي | أما تنقَضي عن جفني المتقاصرِ
ويادمــــعُ لاتُمْسِي بِخدَّيَ جَاريًـا | ورفقاً فإنَّ الجري فوق محاجري
وياصبح كم تهوي البعـاد كأنمــا | بهـذا النُجنَّي كان أوصاكَ هاجري
ويانجم ماهذا السُّري أنـــت راقدٌ | تُري أم علي سير الدجي غيرقادر
ويابـــدر ان سامـرتني متكلفـاً | فكم بت لاأرضـاكلي بمسامـر
ليالي وصل مـــن حمَاهُمْ قَطعْتـها | سواء دجاها كان لحظة نــاظرِ
إذ العـيش مُخْضَـترٌ الذوائب يانـع | وأيامنا بالوصل بيض الدّيـــاجر
إذوَرْدُنا تـــلك الخـدودُ ، وخَمْرُنـا | رُضـابٌ ، ومافي وردْنا من مصادر
بورقاء هاجتني بترجيع شجوهـــا | علي عود دوح غبَّ سحبٍ مواطـرِ
تطل تـورّي بالبكــاء صبابتـــي | وتطهر زوراً من هَويً غير ظاهـرِ
وتنتـخب الألحان حـــتي كأنهــا | فـتاة علي عودٍ تغنَّتْ لهاجـــرِ
بـــروحي مـــن لا استطيعَ تفرُّها | بذكر اسمها صونا لها عن مذاكـر
يراني الصبا شوقاً وخوف رقيبهـا | فـصار كلامي كله بالأشائـــــر
فكم ليلةٍ بتنا يهـدّد فجـــــرها | بشعـبان شعـرٍ ازرق اللون باهـر
فلم يتنفس صبحــــه أبـــداً وإن | أفـاق تغشته بتلك الضفائـــــر

والأبيات علي ما وصفنا من شعر هؤلاء تكلفٌ وهلهلة بناء ، ونضوب شاعرية .

ومنه غزله بأحد فتيان الأتراك ، وكان كما لمسنا موضوعاً محبباً للشعراء آنذاك :

رضـــا به وثناياه لنـــا أرب ... ياحبذا نراحُ أو ياحبذا الحبـــبُ

لاتذكر الخمر يوماً عند ريقتـــه ... فما استوي في المثال الإثم والقُرَب

يامسكري برضابٍ في المـذَاق حـلاً ... هذا هو الخمرُ أم هذا هوُ الضَّـرَبُ

حَدِّث عن البحر من دمعي ولاحـرج ... وقُلْ عن النَّار من قَلْبي ولاعجـبُ

من بْردِ ريقك اشكو حرَّ نارِ جـويَ ... وجَنَّتي نارُ خدٍّ منكَ تَلتَهـبُ

مُذْ أوَّدرتْ كثبه هيف القُـدودَ رأي ... فاضي نهَوي حدَّها ان تُقْطَع العَذَبُ

لي من بني التُّركِ من تركي له سَفَـهُ ... قَاني الخدودِ غدا للْقانِ ينتسـبُ

لِقَوْسه منه جذبٌ نحـو حَاجبـه ... والشَبَهُ للشّئ فيما قيل ينجـذبُ

إن هزَّ وصفٌ سواهُ سائغا طربـاً ... فوصفُ حبّي فيه يطربُ الطَّـربُ

وافٍ روي الناس عن أهل الهوي عجبا ... فمن أحاديث عشقي يعجب العجبُ

مَنْ لي بدينارِ خـدٍّ قُمتُ أنْشـدُه ... « يامطلباً ليسَ لي في غيره أربُ »

ويامُعيـدُ دُروس الصَّبْرِ دارسـةً ... « إليكَ آلَ التَقصيٌ وانتهي الطلبُ »

أشتاقُ وصفَ جبينٍ منه يُسفـرُ لـي ... « كأنني لهلال العيـدِ أرتقبُ »

غصنٌ إليه فُؤادي طـارَ ثم شـدا ... « بيني وبينك يا برْقَ الحميَ نَسبُ »

وتمضي الأبيـاتُ باردة ، سقيمة ، لا يهتز لها قلب قارئ .

ونلاحظ استعانته ببعض شعر بائية ابن الخيمي المشهورة مضمنا بقوله " « يامطلباً ليس لي في غيره أرب " وقوله : " إليكَ آل التقضِّي وانتهي الطلب " »

ومن مطارحاته مع الشعراء والعلماء أنه اقترح عليه ابن حجر سنة ٧٩٧ هـ أن ينظم علي وزن أبيات له فقال :

نسـيـمـكُم ينْعـشنِي والدُّجي طـالَ فَـمنْ لي بمجئ الصَّـبـــاحُ
وياصبـاحَ الوَجْـهِ فـارقـتكُـمْ فَزِدْتُ همًّا إذ فـقـدتُ الصِّبـــاح

ونقل عنه السخاوي قوله :

يامُلهـمي بالصَّبْـرِ كن مُنْجدِي ولاتُطِـلْ رفْضِي فإنِّي عَليـــــلْ
أنْتَ خليلي فـبـحقِّ الهـوَيَ كـن يشــجُـونـي راحـمـاً ياخليلْ

ولا يحق لمثل هذا القول أن يدرج في كتاب الشعر ، ولا يحق لصاحبه أن يطلق عليه شاعر ، فهو كلام منظومٌ فقد روح الشاعرية ، فقد جفَّ ماؤه ، جفاف ماء الحياة في عصره .

مجد الدين بن مكانس (١)

(٧٦٩ - ٨٢٢هـ)

فضل الله بن عبد الرحمن بن عبد الرزّاق بن إبراهيم . مجد الدين المعروف بابن مكانس، وهو ابن فخر الدين المذكور سابقاً. مصريُ حنفيُّ المذهب كان أجداده من أقباط مصر المسيحيين.

ولد بالقاهرة ، وبها تعلَّم، وقد نشأ في كنف والده ، وتأدب به، والتقي في مجالسه بجماعة من الأدباء وشيوخ العلم في القاهرة ودمشق عندما كان والده يشغل منصبا كبيرا بها معادلا لمنصب الوزارة .

وقرأ النحو والفقه والأدب كذلك علي بعض علماء عصره. إلي أن برع ومهر في نظم الشعر وهو صغير السن، وكتب بديوان الإنشاء . وتوقيع الدست مرة في حياة أبيه بدمشق .

وبعد عودة أبيه، ومالقيه من السلطان برقوق من تعذيب ، ووفاته علي ما بينا في حينه، ساءت حاله مجد الدين .. ولقي عناءً حيناً حتي تغير وضعه بتغير السلطان ، فعاد ليخدم في ديوان الإنشاء . وتنقلت رتبته فيه إلي أن جاءت الدولة المؤيدية. وكان المؤيد محباً للشعراء مقرباً لهم، فأحسن إليه القاضي ناصر الدين البارزي الذي تولي كتابة السرّ، وكان شاعراً أديباً فأحسن إلي مجد الدين كثيرا، واعتني به .

ومدح مجد الدين السلطان المؤيد بقصائد ، فأثابه ثواباً حسنا والتقي بجماعته. وصاحبهم ، فأشادوا به ، ونقلوا كثيرا من شعره وموشحاته في مؤلفاتهم ، من بينهم الغزولي صاحب مطالع البدور الذي التقي بوالده فخر الدين في اثناء اقامته بدمشق ، وصحبه عند عودته إلي القاهرة .

---

(١) راجع ترجمته ف نزهة النفوس ٢ / ٤٥٩ ، وشذرات الذهب ٧ / ١٥٦

(٢) المرجع السابق

(٣) نزهة النفوس ٢ / ٤٥٩

كما لقي النواجي فأخذ عنه من شعره وموشحاته ومنها كتبه تأهيل الغريب وحلية الكميت ، وعقود اللآلْ .

قال عنه ابن العماد : " وشعره في الذروة العليا ، وكذلك منثوره وقال صاحب نزهة النفوس : " وشعره في الذروة العليا " .

ومع هذا التفريط لشعره إلاَ أنا نري أنه لايرتفع إلي طبقة شعر والده فخر الدين ، ولانحس فيه بروح الشعر كما نحسها عند والده ، وهو قريب في شعره من روح الطبقة السائدة في ذلك الزمان لايختلف كثيرا عن مثل ابن الآدمي ، والشهاب الحجازي ، والغزولي وجملة هؤلاء . وروي له النواجي موشحات يقول في واحد منها :

يامنْ يطوفُ بكاسٍ	باللّهِ كن لي مواسِي
ياربربي وغزالـــــيِ	إلي متي أنت نافِــرْ

ونلاحظ استخدامه للفظ ربرب استخداما غير دقيق ، فالربرب السرب من الغزلان أو بقر الوحش استخدمها بمعني المفرد .

وسبق أن نبهنا إلي مثل هذه الأخطاء اللغوية التي كان يقع فيها بعض النظامين مما يشير إلي ضعف محصولهم اللغوي الي ضعف شاعريتهم .

بدر الدين البشتكي (١)
(٧٤٨ - ٨٣٠ هـ)

قال ابن حجر (٢):

وهو محمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي الأصل. البشتكي. كان أبوه فاضلاً، نزل بخانقاه بشتاك الناصري بين القاهرة والفسطاط فولد له الشيخ بدر الدين هذا بها أي بالخانقاه. وكان جميل الصورة، فنشأ محباً للعلم وحفظ القرآن وعدة مختصرات، وتعاني الأدب فمهر فيه ولازم ابن أبي حجلة ، وابن الصائغ، ثم قدم ابن نباته فلازمه، وكتب عنه ديوانه. ثم رافق جلال الدين ابن خطيب داريا ، ودخل معه دمشق واجتمع بفضلائها ، وأخذ عن البهاء السبكي وغيره بالقاهرة، وصحب الشيخ بهاء الدين الكازروني، ونسخ له كثيراً.

وقال ابن حجر : كان أحد الأفراد في كثرة النَّسخ حتي كان ينسخ في اليوم خمسة كراريس، فإذا تعب اضطجع علي جنبه، وكتب خمساً أخري، كما يكتب وهو جالس.

وكتب مالايدخل تحت الحصر. وكتب للكازروني المذكور كثيراً من تصانيف ابن العربي، ثم رجع عن ذلك بعد موته وصار داعية إلي الحط علي مقالة ابن العربي، وأحب المذهب الظاهري علي طريقة ابن حزم، وامتحن بسبب ذلك بمكة علي يد أبي الفضل النويري قاضيها ، وكان جاور بها بعد الثمانين.

وامتحن أيضاً بالقاهرة علي يد البرهان الإخنائي، وحبس ثم أطلق.

وصحب فخر الدين بن مكانس، وأقرأ ولده وأدبه - يعني مجد الدين بن مكانس. وتخرج به فمهر في الأدب.

وله مطارحات مع أدباء العصر. وهاجي جماعة منهم. وكان هو كثير الإنجماع ! يرجع إلي دين متين مع محبته في المجون والخلاعة، ثم أقلع وتاب ولازم الإنجماع،

(١) ترجمته البدر الطالع : ٢ / ٩٣ ويراجع الشذرات : ص ٧
(٢) إنباء الغمر : ص ١٣٢

وكان حسن الأخلاق في أول مايصحب، ثم مايلبث أن يتغيّر.

وفي الجملة كان عديم النظير في الذكاء وسرعة الإدراك، إلا أنه تبلد ذهنه بكثرة النسخ .

وقد مدح القاضي برهان الدين بن جماعة بعدة قصائد طنانة قال ابن حجر :

سمعتُ منه كثيراً من شعره، ومن فوائده.

وكانت وفاته فجأة. دخل الحمام فمات في الحوض يوم الإثنين ثالث عشري جمادي الآخرة «

وذكر السخاوي (١) أنه ألف كتاباً في الشعر سمَّاه «المطالع البدرية» «وهو حافل، رتبه علي حروف المعجم»(٢). قال السخاوي : وقفت علي قطعة منه .

وقال صاحب البدر الطالع إنه كان حنفي المذهب. حفظ الكتاب في فقه الحنفية ثم تحول شافعياً.

وقال أيضاً : وأمعن النظر في كتب ابن حزم فغلب عليه حبه . وتزيا بكل زيّ . وسلك كل طريق، واشتغل في فنون كثيره ، ولكنه لم يتقن شيئاً منها. وأخذ الأدب عن ابن نباته. وقال الشعر الحسن فكاد يحكيه في الرقة والانسجام. وجمع ديوان شيخه ابن نباته، وفاته كثير منه فاستدرك عليه ابن حجر ما فاته من شعر ابن نباته نحو مجلد.

ولم يجمع هو نظم نفسه مع كثرته فجمعه الشهاب الحجازي.

وكان لأجلماينسخ موسعاً عليه في دنياه، ولايتقلد لأحد منَّةً حتي إن بعض الأكابر بعث إليه بعشرة دنانير فشتم الرسول وقال : لاحاجة لي في ذلك وأخذ جرابه فنثر مافيه من ذهب وفضة وفلوس بحضرته.

وكان يسخر بجماعة من الأعيان، ومن ذلك أنه قال للكمال الدّميري لما بلغه أنه شرح سنن ابن ماجه سماه : «بعرة الدجاجة» ! ولما سمي البلقيني مؤلفاته « الفوائد

---

(١) الإعلان بالتوبيخ : ص ٥٧٠.

(٢) وذكر في الذيل علي رفع الإصر أنه كتاب في طبقات شعراء عصره (الذيل : ص ٨٧)

المنتهضة علي الرافعي والروضة». كان المترجم له يقول: الرَّوضَهَه مشيراً إلي أن السجعة غير متناسبة، فغير البلقيني التسمية إلي: «الفوائد المحضة».

وكانت له مع العلماء والأدباء مطارحات شعرية، منها ماكتب به الحافظ ابن حجر:

أليس عجيباً بأنا نصوم ... ولانشتكي من أذي الصوم غمًّا
ونسغب واللهِ في نُسْكِنا ... إذا نحن لم نرو نثراً ونظما

فأجابه البشتكي:

ألا يا شهاباً رقي في العُلا ... فأمطرنَ نَوّه العذبُ قطرا
إلي فقرٍ منك يافقرنا ... ونَسْتَغْنِ إن قلت نظماً ونثرا

قال الشوكاني: «وشعره سائر. وقد ذكر منه المصنفون في الأدب من المتأخرين شيئاً كثيراً.

وجمع له النواجي في مجموعة «تأهيل الغريب» بعض قصائد كما اختار له الشهاب الحجازي مجموعة أخري في «روض الآداب».

شعره:

وشعره من شعر العصر، متصف بصفاته في التعبير واللغة، والمعاني المشتركة، وهو كما ذكر مؤرخوه قريب في روحه وديباجته من شيخه الشاعر ابن نباته ويكثر من موضوعات المديح والغزل والوصف والإخوانيات والهجاء، والألغاز ويكثر من الخلاعة والمجون والقول في الخمر ومجالس اللهو. ويقول معللاً ذلك (١):

وكنتُ إذا الحوادث دنَّستني ... فزعتُ إلي المدامة والنَّديم
لأغسل بالكؤوس الهمَّ عني ... لأنَ الرَّاح صابون الهموم

ولعل لابن الكازروني الذي صحبه في شبابه، ولازمه، وكان محباً للاجتماع بالشباب من أمثاله أثر فيه هذا الميل إلي حياة اللهو والقصف.

---

(١) إنباء الغمر: ٩ / ١٣٣

ومما قاله في هذا متظرفاً :

وقالوا ياقبيح الوجه تهـــويَ ... مليحاً دونه السُّمر الرشـــاقُ
فـقلت : وهل أنا إلاَّ أديـــبٌ ... فـكيف يفـوتني هذا الطبـاقُ

ومن شعره الرقيق قوله :

رُبَّ ورقـاءَ هَتوُفٍ في الضحي ... ذات شجو صدحت فـي فَنـنِ
ذكـرت إلفـاً ودهراً صـالحـاً ... هيـجتْ حـزناً فـهـاجت حـزني
فـــبكائي ربَّـما أرَّقـهـــا ... وبكاها ربَّـما أرَّقنـــــي
ولقـد تشكو فـلا أفـهـمهـــا ... ولقـد أشكو فـما تفـهمنـــي
أتراهــــــا بـالبكا سـولَّهـا ... أم سـقـاها البين مـاجـرً عنـي
غـيـر أني بالجـوي أعـرفـهـا ... وهـي أيضـاً بالجـوي تعـرفنـي

وقال في الشراب والنديم (١):

وخـمَّـار هُدينا في الدَّياجـي ... بجـذوة كـأسـه وسنا النديـم
سـألنا منه عن خـمرٍ حـديثا ... فـأخبـرنا عن العـصـر القـديم

وكانت له مع فخر الدين بن مكانس مراسلات شعرية ، ومداعبات . ومرَّ بنا قصيدة لفخر الدين بعث بها إلي البشتكي، فكان رده عليها قوله : (٢)

هذه وصـفـةٌ وإلا بلابـــــلْ ... حـركت في القلوب منا بلابـلْ
حرْت مابين لفظيـها والمعاني ... أيـنَ زهرُ الرُبا وأين الخـمائـــلْ
أقسم البدرُ مالنظم الــدراري ... مـثل نظم أزري بسحْبان وائـلْ
أين فـعـل المدام أينَ الغَـوانـــي ... أين لحظَ المهـا وصنعـةُ بَابِـــلْ
مـالنظم الحـبـاب بين النَّدامـَي ... حُسْنُ هذا القـريضِ بين الأفـاضِلْ

---

(١) مطالع البدور : ١ / ١٦٣
(٢) تأهيل الغريب ص : ٢٧٨

طالعاتٌ أبياتُها كنجـــوم تركت في العِدَي بيوتي نـــوازِلْ
أنت في الحالتين تصريفُك الأحرفَ أو كيمياءُ ذهنك واصِلْ
أنت لو لم تكنْ بحار علـــومٍ ماجرتْ منك في الرياضِ جداولْ
فــالأديب المحبُّ يشكو هـواه للأديـــب المحبِّ عند النـوازلْ
أنا مُغري بحبّ أحْـــوَرَ ألمـــي فاتناً يزري بغضِّ الخمائـــل
من بني التُّرك قدُّه اللـــدن واللحظُ كــلا القاتلين أصبح ذابـــلْ
مالزهر الغصون لاحَتْ نزاهــا شاخصات إذا مـــشي ومـواثلْ

وهكذا يمضي في معارضة قصيدة الفخر فيما عرض له من المعاني على ماذكرنا وشعره أقل كلفة ممن عرضنا لهم ، به قبسٌ من الشاعرية ينوّر داجي الصنعة .

بدر الدين الدماميني
(٧٦٣ - ٨٣٧ هـ)

هو محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد .. الأسكندري المعروف بابن الدماميني (١).

ولد في الاسكندرية (سنة ٧٦٣ هـ) (١٤٦٢ م) ودرس علي البهاء الدماميني ثم نقل إلي القاهرة وسمع فيها علي السراج ابن الملقن وغيره.

وتولي التدريس بالاسكندرية في عدة مدارس كما تولي القضاء فيها والخطابة في جامعها ثم انتقل إلي القاهرة فتصدر في الجامع الأزهر لاقراء النحو، كما تولي القضاء. واتصل به في هذه الأثناء جماعة من الأدباء والعلماء الفضلاء أمثال صدر الدين بن الآدمي. وكانت بينهما مخاطبات.

وتكسب بالتجارة والحياكة زمناً.

وتنقل الدماميني في البلاد. وأكثر التردد بين القاهرة والاسكندرية.

وسكن دمشق سنة ٨٠٠ هـ وعاد إلي الاسكندرية وحج مرة أخري سنة ٨١٩ هـ ثم ذهب إلي اليمن سنة ٨٢٠ هـ وأقام يدرس في جامع زبيد فلم يلق نجاحاً، فانتقل إلي الهند فنال فيها حظوة كبيرة ولكنه توفي فجأة في شعبان سنة ٨٣٧ هـ (١٤٢٤م).

وهو من علماء اللغة والنحو - إلي كونه أديباً شاعراً.

قال :

فديناهُ غصناً مُذ تَثَنَّي تفـــــرداً ... بجَمْع جمال ردَّ عقْلي مـــبدَّدا
هو الشـمس لكن لازوال لحسنه ... أو البـدر لكن مـاتكلف إذْ بدا
أفديه تركيا إذا راح هاجـــــري ... رأيـت هلالي من جفاه مُولَّـدا

---

(١) راجع السيوطي : نظم العقيان : ص ٥٣ . والبدر الطالع : ٢ / ١٥٠ .

تُري هل طريقُ لاجتماع لشكله لألثمَ ذا الخدَّ النقي المورَّدا

أميْر جمالٍ رام غزو محبِّه فسلَّ من الأجفان سيفاً مجردا

ورمت قصاصاً إذ قُتلْتُ بحسنه فقال دلالاً ليس حُسني محدَّدا

ولستُ وحق الشَّفع للوتر طالباً وإن قتلتني مقلتاه تعمدا

لو لم يكن للفتك بالصَّب قاصداً يحاول ظلماً منه أن يردَ الرَّدَي

فما راح يُكْسَي خَدُّه لامَ عارضٍ ولا كان يوماً بالعذار مزرَّدا

عذارٌ عريب ملت نحو اخضراره ولمت عليه عاذلاً ومفنّدا

وقلت لقد فطرْت بالعذْلِ مهجتي فأمْسكْ أما لم تر الخيط المسود أبيضا

مليحٌ أدام الحسنُ سحْرَ لحاظه فأصبح بالسحر المدام معربدا

وأفديه طيبا للمحاسنِ حاوياً عقارب صدغيه لواها توعدا

... إلخ القصيدة (١)

وقال(٢) :

أيا بَدْرَ هَدْي صحَّ بالبحْر وصفُهُ وشاهد هذا أن لفظك جوهرُ

وشعره مملوء بمصطلح علوم الدين والنحو، ويكثر فيه من قاموس العصر قوالب تعبيرية متداولة في التشبيه والاستعارة وغيرها من ضروب البديع وخاصة السجع والتورية.

ويلاحظ على الدماميني خاصة بين شعراء مرحلته غرامه بالمقابلات والطباق.

ومن ذلك قوله :

ريان عطفٍ حلا في حُبِّه ظمأي وسنانُ في جفنيه استعذبُ السَّهَرا

يميس عجباً بقدٍّ منه صيرني في عشق أسمره بين الوريَ سمرا

---

(١) البدر الطالع . ونظم العقيان : ص ٦٩ - ٧٠

(٢) نظم العقيان : ص ١٠٢

وقوله :

أقام غرامي والسلوَّ ترحـــــلا وصبري عنه مَرَّ والعشق قد حلا

ويستخدم اللفظ العامي الجاري في الفطير والخمير فيقول :

دعْ ياهواه محبًّا ذاب من أسفٍ فقد تفطر لما بالهوَى أختَمَرا

ويحلو له استخدام مصطلح العروض والحديث وبعض لفظ القرآن فيقول:

سلَّ سيفاً من الجفونِ صقيلاً مُذْ تصدي إليَّ رحتُ قتيلا

صح عن طرفه حديث فتـور وهو مازال من قديم عليلاً

منه أبدي لنا من الخِصْرِ ردفاً فرأينا مع الخفيف ثقيلا

كامل الحسن وافرٌ ظلَّ وجدي فيه يا عاذلي مديداً طويلا

قُلت إذ لاحَ ريقُ وحماهُ فاترُ اللَّحظ بُكْرةً وأصيلاً

كيف أسلو وهل سَألْتُ إليه من سبيل فقال لي سل سبيلاً

وكانت بينه وبين مجد الدين بن فخر الدين بن مكانس مكاتبات منها رسالة لابن مكانس إليه مُلغزاً في الورد. ورد الدماميني عليها (١) يقول في مطلعها « وينهي ورود الجواب الذي شفي الصدر وِرْدُهُ، واللغز الذي نسي ورده بان الحمي وورده . . ».

ونقل عنه الشوكاني أبياتاً يقول : « وله نظم جيد سائر مشهور، فمنه :

قلتُ لـه والدُّجي مُـولٍّ ونحنُ بالأُنْس في التلاقي

قد عطس الصبح ياحبيب فلا تُشَمِتَنْهُ بالفراقِ

ومن نظمه في مطرب مغن :

ياعذُولي في مغنٍّ حرَّك الأوتار لَّما سفرا

كم يهزُّ العطف منه طرباً عندما يسمعُ منه وترا

---

(١) مطالع البدور : ١ / ٩٧

ومنه :

لا مــا عــذاريْكَ همــا أوقــعـا قلــبَ المحب الصبِّ في الحَيْنِ
فـجُـدْ له بالوصل واسـمحْ لهُ فـــضْـلاً فَـقـدْ هام بلا مَـيْــــنِ

ومنه :

الله أكبر يامحراب طرتــــــه كم ذا تَصَلَّي بنار الحب من صابي
وكم أقمت بأحشائي حروب هـــ وي فـمنك تـلبي مفـتـون بمحـراب

وصدق الشـوكاني بنَعْتِ هذا القول بالنظم ، ولم يصفه بالشعر فالشعر بعيد عن ساحته ، لأنه كلامَ غارق في لج من مصطلح النحو والعروض والحديث والفقه . لا تخلص إلي القول الشعري ، ولا يَتَنَسَّمُ صبا الشعرية .

ابن الخراط (١)
(٧٧٧ - ٨٤٠هـ)

عبد الرحمن بن محمد بن سليمان. الحموي الأصل الحلبي، ثم القاهري أحد أعيان الأدباء وموقعي الدست بديوان الانشاء.

ولد بحماة ، وانتقل مع والده إلي حلب، فنشأ بها واشتغل بطلب العلم والأدب، والفقه وغيرها من العلوم، لكنه أولع بالأدب، واشتهر به فنثر ونظم، ومدح بعض أكابر حلب، واتصل بخدمة واليها الأمير جكم، وكانت له فيه - كما يقول ابن نغري بردي - غرر موائح. وذكر أنها قصائد طنانة وف دولة المؤيد شيخ تولي كتابة سر طرابلس.

وكان قد جاء إلي مصر وحظي بالقاهره بمكانة مرموقة من الملوك والرؤساء منذ مدح بعض ذوي السيف والقلم مدائح جيدة، ولقي ترحيباً من كاتب السر ابن البارزي الذي كان مقرباً من السلطان المؤيد. وكانت مدائحه ف ابن البارزي سبباً إلي ترفيعه ف مناصب الدولة وتعيينه بكتابة سر طرابلس وانتقل منها إلي القاهره ليتولي كتابة الإنشاء واستمر علي ذلك إلي أن توفي. وكان توليه كتابة الانشاء بعد ابن حجة الحموي.

قال ابن العماد : وكانت بيده وظائف كثيرة، وقال ابن تغري بردي : وكان فاضلاً ، أديباً بليغاً ، يسلك في نظمه الفحولية وطريقة السلف، من القوة والحماسة .

ومدح الملك الأشرف برسباي بمناسبة أسره لملك قبرص، وأنشدها إياه وبحضرته أعيان الدولة فخلع عليه وأثني عليه الحافظ ابن حجر لبلاغته واجادته في شعره (٢).

وذكر ابن العماد إنه اعتراه في آخر عمره انحرافٌ بعد أن كان في غاية اللطافة والكياسة (٣).

---

(١) ترجم له ابن تغري بردي ترجمة مطولة في المنهل ٧ / ٢١٣ وف الضوء اللامع ٤ / ١٣٠ . وشذرات الذهب ٧ / ٢٣٥

(٢) المنهل الصافي ٧ / ٢١٤

(٣) شذرات الذهب ٧ / ٢٣٥

روي له ابن تعزي بردي مقطوعة من بيتين يقول فيها :

لا والذي صاغ فوق الخدِّ خاتمه ماذاك صدع بياض في عقائقه

وإنما البرقُ في التوديع قبَّلهُ أبقي به لمعةً من نُورِ بارقِه

ومن مدائحه في ابن البارزي قوله علي طريقة القدماء كما ذكر ابن تعزي بردي :

علي فترة الأجفان صدغُك مُرسَل عسي خدّه آي العذار منزَّلَ

حتي يقول :

أيا بابليَّ الطَّرف قلبي مُشوَّشٌ لصدغك كلَّ فوق جمرٍ مُبَلّلُ

وتمضي الأبيات علي هذه الصورة ، ولاتري فيها من نهج الأقدمين ولا ماذكره ابن تغري بردي شيئاً بل هي أبيات تجري مع شعر معاصريه ونهجهم، لاتخرج عن طرائقهم.

وروي له النواجي موشحات منها قوله (١):

من الحبيب ومنّي إليك يالاحِ عنّي

الحبُّ فيَّ مُحَيَّرْ إن شاء مَنَّ وأعتق أو شاء رقَّ وخلَّدْ

أرْضَي بكل رضاهُ ولو بذلتُ حياتي

ولست أسلو هواهُ حتي ولا في مماتي

مُناي ألثمُ فاهُ من قبل تقضي وفاتي

ويمضي الموشح علي هذا النحو

وروي له ابن تغري بردي بليقات فكاهية يقول فيها (٢)

من قال أنا جندي خلق لقد صدقْ

عندي قباء من عهد نُوحْ علي الفتوح

---

(١) عقود اللآل ص ١٧٧

(٢) منهل الوراد ٧ / ٢١٦ - ٢١٨

لو صادفو شمس السطوح كان احتــرق
والخف عندي فــي كمين مــدة سنين
كَعْبوُ مع الساق اليمــين قـــد انفتَقْ
ولي فَرسْ عاوِز عَليـــقْ بِئْسَ الرفيق
ياويحُو إنْ كان الطريـــق فيهـــا زَلَقْ

ابن الغـــرس
(ت ٨٤٣ هـ)

خليل بن أحمد، المعروف بابن الغرس المصري الشاعر.

قال ابن تغري بردي : كان أديباً ذكياً فاضلاً، وكان يلبس لبس أولاد الأتراك، واشتغل في مبتدأ أمره بالفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة، ثم غلب عليه الأدب ونظم القريض حتى صار معدوداً من الشعراء المجيدين ومدح الرؤساء والأكابر. وكان له النظم الرائق لاسيما في مقاطيع الشعر من مثل قوله عفا الله عنه:

قد راق حسنك فسي أبصارنا وصفا ... وزاد حسنـــاً عني قول الذي وصفا

وغصن قدّك قد حاكي لنا ألفــاً ... لم يرث يوماً لصبٍّ للضَّني ألفـــا

ودمعُ عيني من الأجفان مُنسكبٌ ... فاحنُ، فحسبك ما عانيته وكفا

لما بكيت على غصن به سلفــا ... إذا الحبيب يوافي بالهنا سلفــا

أبدي لنا حسنات الخد معـــتذراً ... من هجره، قلتُ صبري ياحبيب عفا

وقيل لي وقف الواشون قلت لهم ... لأصفعن وجه واشٍ بيننا وقفـا

والروض ينشقُّ من رياه عـاطره ... يزهو بـه ولهـذا سُـمِّـيَتْ أُنُفَا

ولائم جن في لومي على قمـــرمن ... فـوق غصن بروض الحسن ما قطفا

وكان ضخماً جسيماً، إلا أنه كان لطيفاً، حاذقاً. حلو المحاضرة، حسن البديهة، قال ابن تغري بردي : صحبني مدة طويلة. وأنشدني كثيراً من شعره ومما أنشدني من لفظه لنفسه :

يانديمي امـــلأ مُـــقـــــامي ... مـن ســـلاف الراح صـــرْفَـــه

ثم رتبـــه بلطفٍ فـــوق إيوان وصْـــفّـــهْ

وله أيضاً في عجوز :

عجوزة حدباءُ عاينتُهـــا تبسَّمتْ. قلت استري فاك

سبحانَ من بدَّل ذاك البها بقبح أشداقٍ وأحْنـــاكِ

ومن شعره قوله في فكاهة ودعابة :

خليليَّ قد جعنا جميعاً فبادراً لبيتِ فُلانٍ مُسْرعينَ وسيَّـــرا

وإن تجدا قرقوشة فاسرعا بها لنحوي وإن كان العجين فطيرا

ونلاحظ استخدام «لفظ قرقوشة» وهو يستخدم إلي الآن لنوع من «الكعك» كما يستخدم التورية، وهي صنعة العصر التي أغرم بها كثير من الشعراء.

وله في جاب :

وافيت محبوب قلبي في جبايته يوماً، وصادف ميعاداً به اقتربا

فأخلف الوعد لما جئت منتجـزاً وراح يمطل حقاً ظاهراً وجبـــا

وله أيضاً :

خليليَّ ابْسُطا لِي الأرضَ إنّـــي فقير مت في حب الغوانـــي

وإن تجـدا قبـانا أو مـداماً خـذاني للمـدامة والقيـانِ

ومما اختاره ابن تغري بردي من شعره، وما قاله عنه في ترجمته نحدس أن الشاعر كان من الشعراء المتحررين. الذين لايصطنعون الشعر، ولايتكلفونه وليس من طبقة الفقهاء ولا العلماء المتحذلقين، وربما كان في ذلك ينتمي إلي الطبقة التي انتمي إليها جماعة من شعراء العصر الأول في القرن السابع وأعني بهم جماعة ابن الجزار والسراج الوراق وابن دانيال، ففي شعره روح هؤلاء.

وتوفي ابن الغرس، وسنه نيف علي الخمسين (١).

---

(١) المنهل الصافي لابن تغري بردي : ١ / ٢٣٢ . طبع الهيئة العامة للكتاب

ابن كميل
محمد بن أحمد بن عمر بن كميل
(٧٧٥ - ٨٤٨ هـ)

المنصوري الشافعي - ولد بمدينة المنصورة، ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم والحاوي وغيرهما، وتردد بين مدينته والقاهرة، بسبب بعض الأعمال التي اشتغل بها، وأكثر في أثناء وجوده بالقاهرة من التحصيل عن كبار علماء عصره، وجلس إلي السراج البلقيني، وابن الملقن، والشهاب القلقشندي. وزين الدين ابن النظام وغيرهم.

وتعلم النحو والأصول عن بعض هؤلاء، وعن غيرهم، وظهرت ميوله إلي الأدب فاشتغل به زمناً وتعاناه، وحاول النظم، واجتهد فيه، وتولي قضاء بلده المنصورة مناوبة بينه وبين ابن عم والده.

وقد كافأه السلطان الملك المؤيد شيخ علي مديحه له بقصيدة عند عودته من الشام بعد وقعته مع نائبها نوروز، وانتصاره، وكانت تلك المكافأة إقراره علي قضاء المنصورة مع اضافة قضاء سَلَموُن إليه كذلك.

وكان ابن كميل فيما يذكر المؤرخون حسن السيرة، مقرباً إلي كبراء عصره من أصحاب القلم، فقد مدح كاتب سر السلطان ناصر الدين ابن البارزي وهو من الأدباء الذي عانوا النظم، ومدح غيره من الأعيان والفضلاء.

ولزم العلامة الفقيه ابن حجر العسقلاني، فنوَّه به وترجم له في معجمه، ووصفه بالفضل قائلاً : لقيته بطريق مكة سنة ٨٢٤ هـ، وطارَحَني بنظم منسجم ، ثم كثر اجتماعنا ، وسمعت من نظمه كثيراً. وقال : وكنا نجتمع ونتذاكر ف الفنون.

وقضي حياة حافلة ، ثم مات فجأة في شعبان سنة ٨٤٨ هـ في حادث سقوط منارة مسجد سلمون بسبب ريح عاصفة ، وكان سقوطها علي خلوته، فمات تحت الردم، ووجد جالساً وهو ميت :

ومن مقاطيعه في السلطان المؤيد :

تملكَ الشيـــــــخ وزال العَنا — فـالخَلْقُ في بشْر وتيـه، وفَـتْح

فلا تقاتِلْ بصــــــــبيٍّ — ولا تلْقَ به شيخاً وقـأتل بِشيْخ

ومنها قوله :

قلتُ لَمّا جاءَنـــي صَباحــاً — يسـأل عـيني عن المقـامـاتْ

ياســائل العين عـن كـــراها — صُـبِّحْتَ بالخيـر والكرامـاتْ

ويبدو أن تحية الصباح التي كانت شائعة بين الناس في العصر هي صباح الخير والكرامة، وظلت هذه التحية جارية في بعض البلاد بأقاليم مصر إلي يومنا . وان اقتصرت أحيانا علي «صباح الخير».

ولابن كميل قصائد مطولة في المديح النبوي عرفت عند معاصريه ولقيت رواجاً، واشتهر بها بينهم، ومنها قوله :

لِمَهْبط الوَحْيِ حَقّا تُرحَلُ النُّجُــبُ — وعند هذا المرجَّي ينتهي الطَّلَبُ

هذا محطٌّ رحالِ السائلين فمـا — لسـائل الدَّمْع لايقَضيَـه مـايجبُ

قف وقفةَ الذّلْ والإطراقِ ذا أدبٍ — فـعند حضرته يَستَلْــزمُ الأدبُ

وخُذْ ذمـامـاً علي المختار، إنَّ لَـهُ — ذمام جاهٍ به تَسْتَنْجدُ العـــربُ

فمـا به لاذَ يومـاً من بهَ سَّغَـــبُ — إلاّ وأطفئ حقاً ذلك السَّغَـبُ

لعله يريد الظمأ فأخطأه اللفظ، وجاء بسغب ، وهو الجوع والجوع لايطفأ. ويتم نظمه المتكلف ليقول :

رَاحاتُ راحاته كَمْ روَّحت بَشـــراً — هَبَّاتُ هَبَّاتِه تحتالها الرُتـــبُ

له الملاحة خَلْقُ والنَّدي خُلْــــقُ — فالثغرُ مبتسم والكفُ مُنسكبُ

لايعرف الجود إلاّ من سَمـاحَتــه — نُهاهُ يَنْهي عن الحرمانِ إذ يهبُ

ولايخطئنا الإحساس بجفاف هذا الشعر، ونضوب د نه ، وعليه سيماء الفقهاء ، ومعظم شعر العلماء ، لاشاعرية فيه، ومعانيه قريبة مبتذلة. وصياغته مهلهلة، ولغته ضحلة، ومحصوله فيها كما مر بنا من مثال فقير .

ولانعدّه من شعراء العصر، وإن عدّه بعض مؤرخي العصر كذلك فأين شاعرية هذا من شاعرية من عرضنا لهم كالقيراطي ، وابن مكانس والبشتكي علي ما قد يعتري بعض قولهم أحياناً من ضعف في اللفظ والتركيب .

ابن حجر العسقلاني

(٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن حجر.

قال السخاوي : شيخي الأستاذ حافظ العصر، وعلامة الدهر وشيخ الإسلام ، حامل لواء سنة سيد الأنام، قاضي القضاة أبو الفضل العسقلاني المصري ثم القاهري الشافعي.

عرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه.

ولد سنة ٧٧٣ هـ (١).

وكان أبوه ذا نظم ونثر ومكارم وعقل وديانة ، أكثر من الحج والمجاورة وصَنَّف وأجيز بالإفتاء والتدريس. وتطارح مع ابن نباته الشاعر وبرهان الدين القيراطي. ومدحه كل منهما وسارَ قوله.

وولد ابنه أحمد سنة ٧٧٢ هـ شهاب الدين هذا بمصر (الفسطاط) ونشأ بها بعد أن ماتت أمه ثم أبوه. وكفله أحد أوصياء كبير التُّجار في ذلك الوقت واسمه الزكي الخروبي وكانت نشأته في غاية العفة والصيانة، ولم يدخل المكتب إلا بعد خمس سنين.

وأكمل حفظ القرآن وهو في التاسعة من عمره.

ثم جلس إلي العلماء في مساجد مصر والقاهرة، وأخذ عنهم في علوم شتي كالأدب واللغة والحديث والفقه.

وكان اهتمامه أول عمره بالأدب وعلم الشعر ونظم ونثر.

قال السيوطي : « عاني أولاً الأدب وعلم الشعر فبلغ فيه الغاية » (٢).

---

(١) راجع الضوء اللامع وذيل رفع الأصر : ص ٨٥ - ٨٩ وترجم له السخاوي ترجمه ضافية في مؤلف كبير كما نزجم له السيوطي في نظم العقيان ص ٤٥

(٢) حسن المحاضر : ص ١٥٣

وجلس في علم الأدب إلي بدر الدين البشتكي (١)، وأخذ علم اللغة علي صاحب القاموس مجد الدين الفيروزبادي باليمن. وعلم العربية والنحو علي الغماري، والمحب ابن هشام .

وأخذ الحديث وعلوم الدين والفقه علي جماعة من كبار مشاهير عصره كالشمس ابن القطان، والسراج البلقيني، وقد لازمه مدة. واشتهر البلقيني بسعة الحفظ وكثرة الاطلاع، والتنوخي في القراءات، والعراقي في الحديث.

وعن عز الدين بن جماعة في كثير من العلوم، وقد اختص به زمناً من سنة ٧٩٠ هـ حتي وفاته سنة ٨١٩ هـ. قال السخاوي : « وقد أخذ عليه غالب العلوم العقلية والأصولية. وقد أتقن علوماً كثيرة بحيث كان يقول : أقرأ في خمسة عشر علماً لايعرف علماء عصري أسماءها.

واهتم بالحديث منذ سنة ٧٩٣ هـ فأقبل عليه بكيته وطلبه وعكف علي الزين العراقي وحمل عنه جملة نافعة من علم الحديث سنداً ومتناً، وعللاً، واصطلاحاً قال السخاوي : « وجبب الله عز وجل إليه فن الحديث النبوي فأقبل عليه بكليته حتي صارَ حافظ العصر ».

قالوا وكانت عنايته بالحديث بعد عودته من رحلاته في سبيل العلم والتحصيل وكان قد ارتحل إلي الحجاز واليمن والشام واجتمع هناك ببعض العلماء.

وسكن الشهاب ابن حجر بالقاهرة ، وكان مقره بمنزل بحارة بهاء الدين (٢) التقي بداره هذه والغزولي سنة ٨٠٢ هـ وانشده شعراً.

وولي عدة وظائف تدريسية، فدرس الحديث والفقه بالشيخونية وبجامع القلعة وبالجمالية والبيبرسية وولي بها مشيخة الشيوخ. ودرس الفقه بالمؤيدية، وتولي مشيخة الصلاحية بجوار مشهد الإمام الشافعي. ومدرسة السلطان حسن، والمنصورية ، وجامع ابن طولون.

وولي القضاء عدة مرات، وكان أولها سنة ٨٢٧ هـ . قال السخاوي : « وعرض

(١) من كبار شعراء العصر وأدبائه روي ديوان ابن نباته وأجازه الشاعر به توفي سنة ٨٣٠ هـ
(٢) الغزولي مطالع البدور : ١ / ٦٩

عليه القضاء الأكبر فاستقر فيه سنة ٨٢٧ هـ يعيد العلم، وعمل تقليده القاضي التقي ابن حجة. وكان هذا أيام المؤيد والظاهر ططر، ثم تولاه في عهد الأشرف قايتباي ». قال : « وتزايد ندم شيخنا علي قبوله وظيفة القضاء لكون أرباب الدولة لايفرقون بين أولي الفضل وغيرهم، ويبالغون في اللوم حيث ردَّت إشاراتهم، وإن لم تكن علي وفق الحق، بل يعاودون علي ذلك القيام بكل ما يرومه علي وجه العدل. وصرح بأنه جني علي نفسه بتقليد أمره ».

ولم يتم في القضاء هذه المرة الأولي عاماً فقد صرف عنه قبل ذلك، ثم أعيد بعد ذلك سنة ٨٢٩ هـ وعين مكانه القاياتي.

وعكف بعد ذلك علي العلم والتأليف حتي توفي سنة ٨٥٢ هـ.

قال السخاوي : « وظل كذلك من ولاية القضاء ثم التخلي عنه مراراً إلي أن سقطت مئذنة المدرسة الفخرية القديمة ومات تحتها جماعة فُوشِيَ به لدي السلطان فألقي تبعة من مات عليه، وألزمه تعويض أهليهم. وتولي بعده شمس الدين القاياتي. وذهب إليه يهنئه في منزلة. ونظم في ذلك شعراً يقول فيه :

عندي حديثٌ ظريفٌ بمثله يُتَغنّي
من قاضيين يُعْزلُ هذا وهذا يُهنَّي
فذا يقول أكرهونا وذا يقول اشرحنا
ويكذبان ويهذي بمن يصدق منّا

وبلغ جملة تؤليه منصب القضاء احدي وعشرين سنة » (١).

وقال صاحب تذكرة الحفاظ أنه كان علي منصب القضاء وكان يهدي في سبيل الحصول عليه مايليق به من المال للملك . قال صاحب الترجمة : « ولو تنزه عنه ولزم الاشتغال بالعلم ليلاً ونهار .. »(٢).

وَوُلِيَ الخطابة بالجامع الأزهر ثم بجامع عمرو. وخزن الكتب بالمدرسة المحمدية.

---

(١) السخاوي في الذيل علي رفع الأصر : ص ٨٥ - ٨٩
(٢) ذيل تذكرة الحفاظ : ص ٣٣١

قال السخاوي : « وَأَمْلَي مانيِّف علي ألف مجلس من حفظه ، اشتهر ذكره وبعد صيته، وارتحل الأئمة إليه، وكثرت طلبته حتي كان رؤساء العلماء من كل مذهب تلامذته، ولم يجتمع عند أحد مجموعهم، وبهرهم بشفوف نظره وسرعة إدراكه واتساع نظره ووفور آدابه ».

وألف كثيراً . قال السخاوي : زادت تصانيفه علي مائة وخمسين تصنيفاً وأشهر تصانيفه في الحديث ورجاله. وسارت مؤلفاته فيه في حياته وانتشرت في البلاد وتكاتبت الملوك من قطر لقطر في شأنها، وهي كثيرة. منها ماكمل ومنها مالم يكمل .

روي أنه قال : لست راضياً عن شئ من تصانيفي لأني عملتها في ابتداء أمري ثم لم يتهيأ إليَّ من يحررها معي سوي شرح البخاري ومقدمته، والمشتبه والتهذيب ولسان الميزان.

ولاريب أن أجل مؤلفاته شرح البخاري الذي سماه : «فتح الباري» وكان شروعه في تصنيفه سنة ٨١٧ هـ قبل ولايته للقضاء وهو بعد في بداية الطريق - علي طريق الإملاء ، ثم صار يكتب بخطه يداوله بين الطلبة شيئاً فشيئاً، والاجتماع في يوم من الأسبوع للمقابلة والمباحثة إلي أن انتهي في أول يوم من رجب سنة ٨٤٢هـ.

وجاءت رسالة من شاه رخ بن تيمور ملك المشرق يستدعي من السلطان الأشرف برسباي هدايا من جملتها فتح الباري، فجهز له صاحب الترجمة ثلاثة مجلدات.

قال عنه السخاوي : « وأشهر مصنفاته فتح الباري بشرح البخاري فإنه لم يسبق له نظير بحيث طلبه ملوك الأطراف بسؤال علمائهم له في ذلك. وبيع بنحو ثلاثمائة دينار ».

ولما أتم هذا التصنيف أولم وليمة لختمه كانت عظيمة لم يتخلف عنها أحد من علماء المسلمين في عصره ومصره، وكانت أمراً يفوق الوصف، وبلغ المصروف فيها نحو خمسمائة دينار.

ثم يأتي بعده في الحديث ورجاله :

٢- مقدمة فتح الباري وتسمي « هدي الساري »

٣- وتقريب الغريب في غريب صحيح البخاري

٤- والاحتفال في بيان أحوال الرجال المذكورين في صحيح البخاري

٥- وشرح الترمذي لم يتم

٦- وتهذيب التهذيب

٧- وتقريب التهذيب

٨- ولسان الميزان

٩- والإصابة في تمييز الصحابة

١٠- وتحرير الميزان

١١- الاعجاب ببيان الأسباب

١٢- وطبقات بيان الأنساب

ومن كتب التاريخ والطبقات والرجال:

١٣- إنباء الغمر بأنباء العمر.

١٤- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة

١٥- الإعلام بمن ولي مصر في الإسلام

١٦- رفع الأصر عن قضاة مصر

١٧- الإعلام بمن سُمِّيَ محمَّداً قبل الإسلام

١٨- بذل الماعون في أخبار الطاعون

١٩- النَّبأُ الأنْبهْ في بناء الكعبة

٢٠- تجريد الوافي للصفدي

ومن كتب الأدب واللغة:

٢١- التذكرة الأدبية

٢٢- ديوان شعره

٢٤- مختصر لديوانه سماه : «ضوء الشهاب»

٢٥- مختصر آخر من الديوان سماه : «السبعة السيارة»

٢٦- ديوان الخطب الأزهرية

٢٧- ديوان الخطب القلعي

٢٨- مختصر العروض

٢٩- الأمالي الحديثية . وعدتها أكثر من ألف مجلس .

وكان في خلقه شديد التواضع مع حلمه وبهائه وتحريه في مأكله ومشربه وملبسه وحياته وبذله وحسن عشرته ومزيد مداراته، ولذيذ أخلاقه .

وقد ترجم له السخاوي ترجمة مفصلة في كتاب مستقل قال عنه :

« وأفردت له ترجمة حافلة، لاتفي ببعض أحواله في مجلد ضخم أو مجلدين كتبها الأئمة عني وانتشرت نسخها، وحدثت بها الأكابر غير مرة بكل من مكة والقاهرة. وأرجو كما شهد غير واحد أن تكون غاية في بابها سميتها «الجواهر والدرر»(١) .

ولقد لهج به لسان العلماء من غير السخاوي إذ ترجم له السيوطي في أكثر من موضع وخاصة في كتابيه حسن المحاضرة (٢) وأعيان الأعيان. ونشير من هذه الترجمة إلي بعض مما يشيد فيه بخصائصه وفضله. يقول (٣) : فريد زمانه وحامل لواء السنة في أوانه : ذهب هذا العصر ونضاره، وجوهره الذي ثبت به علي كثير من الأعصار فخاره، إمام هذا الفن للمقتدين ومقدم عساكر المحدثين وعمدة الوجود في التوهية والتصحيح، وأعظم الشهود والحكام في بابي التعديل والتجريح، شهد له بالإنفراد خصوصاً في شرح البخاري كل مسلم، وقضي له كل حاكم بأنه المعلم، له الحفظ الواسع الذي إذا وصفته فحدّث ولاحرج، والنقد الذي ضاهي به ابن معين فلا يمشي عليه بهرج هرج. والتصانيف التي ما أشبهها إلا بالكنوز. والمطالب فمن ثم قيّض لها موانع قول بينها وبين كل طالب. جمّل الله بها هذا الزمان الأخير، وأحيي به وبشيخه سُنَّة الإملاء بعد انقطاع من دهر كثير.

(١) طبع بالمجلس الأعلي للشئون الأسلامية سنة ١٩٩٦

(٢) حسن المحاضرة : ص ١٥٣

(٣) أعيان الأعيان : ص ٤٥

أدبه وشعره :

أما أدبه وشعره، فقد كان أديباً كاتباً. أخذ الكتابة علي أبي علي الزفتاوي، وكان أسلوبه مشرقاً لم يسرف في البديع فيثقل أثقال أهل زمانه. واتصل بكثير من أدباء عصره وشعرائه كالبدر البشتكي والغزولي صاحب مطالع البدور.

قال السيوطي (١): « عني بالأدب والشعر حتي برع فيهما، ونظم الكثير فأجاد . وهو ثاني السبعة الشهب من الشعراء ».

وقال عنه السخاوي (٢): « وأنشد من نظمه في المحافل. وخُطِبَ من ديوانيه علي المنابر، ليبلغ نظمه ونثره ».

قال : وتبجح فحول الشعراء بمطارحته.

وترجم له بدر الدين البشتكي في طبقاته للشعراء، والمقريزي في العقود الفريدة.

وديوان شعره متنوع بين القصائد في المديح والإخوانيات والمقطعات في المناسبات المختلفة والغزل والمطارحات والحكم والمواعظ، وبين أيدينا ديوانه مستخرج جمع فيه بعض قصائده أسباعاً في كل غرض سبع قصائد (٣).

ونلمس في شعره بعض الاقتباس من القرآن أو الحديث كقوله متغزلاً ومقتبساً الآية الكريمة (٤):

خاض العواذل في حديث مدامعي   لما جري كالبحر سرعة سيـر

فحبسته لأصون سرَّ هواكـــــم   حتي يخوضوا في حديث غيره

وقد جمع شعره خصائص شعر العصر موضوعاً وأسلوباً.

أما موضوعاته فتبدأ بالمديح النبوي علي طريقة بعض كبار المداحين أمثال البوصيري. وسمي هذه المدائح بالنبويات.

وأولها ميمية مطلعها :

(١) أعيان الأعيان : ص ٤٦

(٢) الضوء اللامع : ٢ / ٣٦

(٣) الكشكول : ١ / ١٠٤

(٤) ديوانه طبع حجر بتحقيق الدكتور سيد أبو الفضل طبع حيدر آباد ١٩٦٢ م

ولو أن عذالي لوجهك أسلموا   لرجوت أني في المحبة أسلم

كيف السبيل لكتم أسرار الهوى   ولسان دمعي بالغرام يترجم

قالها سنة ٧٩٨ هـ بمناسبة ختم صحيح البخاري

ومن مدائحه في الملوك، ماقال في ملوك اليمن عند ذهابه إليها سنة ٨٠٦ ومابعدها وخص الملك الناصر بن الأشرف بن زيد بمقطوعة لابأس بها يذكر ما جرى له في رحلته من الشام إلي الحجاز فاليمن من نهب ماله في أرض بني كنانة.

ومدح ملك تونس بقصيدة بعث بها إليه من مصر يقول فيها (١) :

أليك أمير المؤمنين أبعث ما   ينوب منابي في التحايا وروده

قصيدا يروق السمع إن يُصْغِ منصت   إليها يقل قدقال صدقاقَصيدَهُ

مَدَحْتُكَ حباً في فضائل جمَّعَت   لديك فقلبي للسماع عميده

وأرسلتها من مصر من بعد أن سَعَتْ   وطانت ببيت قد تعاظم عيده

وكانت تولية ذلك الملك من سنة ٧٩٦ إلي سنة ٨٣٧ هـ

وقال في المستعين بالله الخليفة العباسي الذي تولي الخلافة والسلطنة بمصر سنة ٨١٥ هـ بعد الناصر فرج بن برقوق ولقب بالملك العادل. وفيها أشار إلي ظلم سلاطين المماليك عامة :

طاعت له أيدي الملوك وأذعنت   من نيل مصر أصابع المقياس

وأزال ظلماً عمَّ كل معمم   من سائر الأنواع والأجناس

فهو الذي قد رد عنا البؤس في   دهر به لولاه كلُّ الناس

وينحي باللائمة علي السلطان فرج بن برقوق فيقول : وهو الملقب بالناصر :

بالخاذل المدعو ضد فعاله   بالنصر المتناقض الآساسِ

كم نعمةٍ لله كانت عنده   وكأنها في غُربةٍ وتَناسِي

(١) ديوانه : ص ٥٠

مازال سر الشر بين ضلوعه　　كالنار أو صَحِبتْهُ للأرماسِ
كم سَنَّ سيِّئةً عليه أثَامُها　　حتَّي القيامة ما لَهُ من آسي
مكراً بَنَي أركانه لكنها　　للقَبْرِ قد بُنيتْ بغير أساس

ومدح بعض رجال السيف من أمراء المماليك كالأمير جمال الدين يوسف الدوادار بمناسبة انتهاء مدرسته سنة ٨١١ هـ وتولية ابن حجر تدريس الحديث بها (١).

ومدح من رجال القلم جماعة من الوزراء والرؤساء مثل مجد الدين بن مكانس، وسعد الدين بن مكانس، يقول في سعد الدين :

ياطالباً للمكرمات مجاهداً　　وعطاء سعد الدين أقصي قصْدِه
اقصد له واسأله تعط وتغتنم　　وتعيش مهما عشته في رفده
حيث السماحة والحماسة والتُّقَي　　كالعقد أحسن ناظم في عقده
حيث الندي والعفة اجتمعا معاً　　مزج الزلالَ بخالص من شهده
حيث اليراعة في المهارق أشبهت　　غصن الرياض تفوح نسمة ورده
قلمٌ تَصَرَّف في الممالك صادراً　　عن أمر مالكه لأصفي ورده
ياحُسْنَهُ في كفه قصبا حلا　　ذوقاً وأطرب مسمعاً من وفده
مبيض وجه القصد محمر الشبا　　يخضر حين السبح في مسوده
وإذا علا شرف المهارق مِنْبَراً　　خطب الفتي في أسود من برده
حيث السطور علي الطروس نوافذٌ　　أحكامها والدهر أول جنده
من كل حرفٍ مثل سيف خاطف　　قصد العدا كالبرق لمع فرنده

وفي مجد الدين سبعية جيدة مطلعها :

آيات وصْلِك يتلوها علي الناس　　صبٌ تحركه الذكري إلي الناسي

ويمدح من أصحاب القلم القضاة والشيوخ من الفقهاء ورجال العلم من أساتيذه

---

(١) ديوانه : ص ٥٩

وأئمة العصر، ومن بينهم القاضي بدر الدين الدماميني (١) يقول فيه قصيدة مطلعها :

إن رحت تسأل عن خلالي ... في الحبِّ جسمي كالخِلالِ

وجلال الدين البلقيني (٢) :

أسيدنا الإمام دعا محب ... يعول في نوائبه ركازا

زَفَفْتُ إلي علاك عروس فكري ... وصيَّرتُ البديع لها جهازا

وقال متغزلاً، وأكثر غزله في مطالع مدائحه النبوية أو مدائحه للأمراء وشيوخ العلم والقضاة.

ومن أحسن غزله في المؤنث قوله يحاكي الشريف الرضي (٣) :

نأيت داراً ولم أسمع غناك فبي ... في الخالتين صبابات بمغْنَا

مازلتُ في الوصل والهجران ذا شجنٍ ... أرْجُوكِ في بُعْدٍ أو في القُربِ أخْشاكِ

أخفي سقاماً وهذا الوجه محتجبٌ ... فالحُزْنُ والحسْنُ أضْنَاني وأخْفاكِ

ماتذكرين نهار الوصل منك وإذْ ... لثمت خدك ما قد كان أوفاكِ

سريت عني وقلبي قد أسرت فما ... أسداك في غيظ قتلاك وأسراك

قالت : قصدت بترحالي سواك فما قصدت ؛ قلت لها : إياك إياك

كرمت أصلاً وما واصلت ذا شجن ... حاشاك أن تنسبي للبُخلِ حاشاك

ماللجفون وللأسقام تسكنها ... لعل جسمي بهذا السُّقم هاداك

أهدي لك السقم جسمي لاقترابك ... من صحابة اللؤم أعدائي وأعداكِ

وعاذلاي شفاك الله من سقم ... قد ولى عنك من جهل وعافاك

---

(١) بدر الدين الدماميني الاسكندراني ولد سنة ٧٦٢ هـ. تعاني الأدب ففاق في النحو والنظم وشارك في الفقه وغيره ، واشتهر ذكره. مات بالهند سنة ٨٣٢ هـ وسبق الحديث عنه. راجع ترجمته : حسن المحاضرة ، النجوم الزاهرة : ٦ / ٢٨٨

(٢) ديوانه : ص ٧٠ (٣) ديوانه : ص ٧٣

دعي العتاب وهاتي كأس فيك فما ... فـي ذا الحديث رعاك الله، أوْهَاكِ

ماأعذب الراح أجلوها بفيك وما ... أحـــلي لقاك بإِصْباحٍ وإِحلاك

وخانَ صبري مذ أبصرتُ رَبْعُكُم ... فــما وفي لي إلاً طرفي الباكي

وبعد ما بين أحشائي وراحتهـا ... كـبعد مابين أجفاني ورؤيـاك

وهو غزل يجمع المعاني المطروحة في مثله وإن بدا كما قلت صريحاً، وقد يتصنع المعاني أو يتكلفها لقاء تصريع بديعي علي مذهب المعاصرين وقد حاول أن يحاكي الشريف ولكن أنيٌ له . وأين الثريا من الثري ! !

ويتغزل في المذكر فيقول :

حَبيبٌ له من عاشقيه شواغلٌ ... علي أنه في قالب الحسن أفرغا

له عارض قد أسبغ الله ظلـــه ... ومازال ذاك الوجه بالحسن مُسْبغا

وريقته كالخمر لكنها حلـــت ... وحلت فكانت في فمي منه أسوغا

ويتغزل في ساق مليح فيقول :

آياتُ وصلِكَ يتلوها علي النــاسِ ... صَـبٌّ تحركه الذكري إلي الناسي

ووعد وصلك دين لاوفـــاء لــه ... فلـيته كان بالهجران ياقاسي

كأسي مزجت بأحزاني ولي جسد ... عـار من العارلكن بالضنا كاسي

وعفت بعدك طعم الصبر حين غدا ... كأساً إذا ارتُشِفَتْ لم يَنْتَش الحاسي

ياثانيا عطفه عن مفردٍ دنـــفٍ ... قد بات يضرب أخماساً لأسداسِ

ومن إذا لاح في خديه لي خضـرٌ ... قَلَبْتُ رجواي من لُقياهُ باليَـاسِ

لايخش خـدك سلواناً لعـارضـه ... فـإنه لجراح القلب كـالآس

قف تلق جفني بعد الدمع صَبَّ دما ... مافي وقوفك عند الصَّب من باس

مُـهَـفْهَفٌ لو رآه الغصن منعطفـاً ... لما تثنت به أعطاف ميَّـاس

كم قال لي خـدُّهُ لَما رأي ولـهي ... خذفي وقارك واتركني لوسواسي

لاطعن فيـه وقد الرمح قامتـــه ... لكنّ قلبي له أضحي كبرجـاسِ

ساقٍ كبدر يدير الـكأسَ في يـده قد لان عطفاً ولكن قلبه قاسي
أضحي لعشاقه من رمح قامتـــه طعن تذكّرنا به طاعون عمـواس
وخَدُّه إنْ تبدَّي تَحتَ عارضـــــه حسبته في الدجي لألاء نَبراسِ
وقده قد رسا مـن تحتـه كفـل كـال غصن فوق الكثيب الراسخ الراسي

ويعرض في هذا الغزل المتكلف الصور المعهودة مثل هذا الغزل في شعر الأقدمين إذ يشبه العارض وهو شعر جانبي الوجه (الذقن) بالآس، مخضراً أو مسمراً وقد لمح تحت سواده بياض الخد فبدا متلألئاً كالقنديل المضئ.

أما بقية المحاسن الجسدية فهي جارية في التشبيه والصورة كالقد يشبه الغصن المتثني رقة وليونة، والوجه المنير كالبدر ويمزج الغزل بالشراب وآلاته، فالساقي يدير كأساً يتلألأ فيها الشراب مشرقاً كالشمس، والحلي يوسوس في مشيته.

هذا كله موجود في الشعر لكن الصنعة وضعت هذه المعاني في قوالب البديع وهو الغاية عند ابن حجر لا المعاني في ذاتها كما كان هذا شأن الشعراء المتأخرين .

فنراه يصوغ معني الأسي من الصدّ والهجران اللذين يصيبان المحب في جسده بالضني والنحول في قالب بديعي يعمد فيه إلي الجناس في أول البيت وآخره فيقول

كأسي مزجت بأحزاني ولي جسد عار من العار لكن بالضني كاسي

ويضيف إليه ضربين آخرين من ضروب البديع هما الجناس الناقص ، والطباق في عار والعار وعارٍ وكاس بالشطر الثاني، ويضيف إليهما التوشيح أو رد العجز علي الصدر.

ويولع بالتورية فينثرها نثراً، خلال أبياته «كالصبر» بمعني السكوت والتجمل، والصبر بمعني المرّ والعلقم، والآسي بمعني الطبيب وبمعني ذلك النوع المعروف من الزهر. وطعن بمعني ضربة الرمح، وطعن بمعني المرض المعروف .

وهو في مدائحه ، وغزله المبتدئ به مكثر من ضروب البديع، مُقلٌ فيما عداهما من أغراض شعره .

ولعل أجمل ماقال نسبياً من شعر في همومه وأشواقه ، ماقاله متشوقاً إلي أهله

وعياله في أثناء رحلته بالحجاز، ويذكر ابنة له صغيرة اسمها زين خاتون (١):

تري هل ألاقي زين خاتون بعدما تناء ت بنا السكني وعادَ المودْع
وهل التقي تلك الطفيلة فرحةٌ قريباً كما فارقتها وهي ترضع
صغيرة سنَّ نابها أمر فرقتي فمن أجلها سنُّ الندامة يقرع
فوا الله ما فارقتكم عن ملالة وهل ملَّ ظامٍ مورداً فيه يَشرعُ
ولكنَّ ضيقَ العَيْشِ أوجب غُربَتي وسَعْيِي لهم في الأرضِ كي يتوسعُوا
فإن يسّر الله الكريم بلطفه رجعت ومثلي بالمسرة يرجع
فيا عاذلي رفقاً بقلبي فإنه علي دون من فارقت يبكي ويجزع
مشيبٌ وهَمٌّ وانكسار وغربة ومن دون ذا صم الصفا يتصدع
صبرْتُ علي تجريعي الصَّبر عَلَّهُ شفائي، فكان الصَّبر ما أتجرعُ
بُليتُ بخصمٍ ظَلَّ للحَيْنِ حاكمي أذلُّ له من بعد عزِّي وأخضعُ
وأحملُ ماعندي السكوت لأنني لمن أتشكي أو لمن أتَضرعُ؟!
أغبُّ مزاري أحمل الثقل عنهم وأخضع والأيام لي ليس تخضع

وفي التشوق يقول كذلك (٢):

سلام علي من لايرد جوابي سلامَ مَشوُق بالفِراقِ مُصابِ
سلام كأنفاس النسيم بسحرة سرت في رياضٍ منهم، ورحاب
سلام مقيم من معني مسافر تبدل من غزلانه بذئاب
سلام علي أهلي وداري وجيرتي وأنسي وقلبي والكري وشبابي
ومنزل أحبابي وظلِّ صحابتي ومنزه أترابي وجل طلابي
مصابي بسهم وافرٍ من فراقهم سريع فقلبي منه شرُّ مُصابِ

(١) ديوانه : ص ٦٧
(١) ديوانه : ص ٨٥

تركت شراب النيل حلواً وبارداً فكم خدعة لي من بعده بشراب
وفارقت ما لا طاعة بفراقه فما طرق السلوان ساحة بَابِي
جُبَيِّبَتا إن لم يراجع لنا اللقا فهل لك أن تصغي لرجع خطابي
صبا لك قلبي وهو بالله مؤمن فيا عجباً من مؤمن لك صابي

وقال مرة أخري (١)

عاد المتيَّمَ شوق كان قد ذهبا وزاد في قلبه طول النوي لهباً
أيامه ولياليه مقسمة أن يلتقي السهدَ فيها أو يري الحربا
يستنشق الريح من تلقائهم فإذا هَبَّتْ شمالاً غلا في عشقه وصبا

ولا يغيب عن حس القارئ هذا النفس الشعري الصادق ، والانطلاق دون قيد كلف البديع وتصنع اللفظ .

ويحتل وطنه مصر من قلبه مكان السويداء، فلا يَفْتأُ يذكره. قال يتشوق إلي مصر في سفرة له بالبحر إلي الحجاز (٢) :

متي يتجلي أفق مصر بأقماري وأروي عن اللقيا أحاديث بشار
إلي مصر شوقاً لمصر وأهلها تشوق صَبٍّ للنوي غير مختار
وياوحشتي يامصر منك لبلدة لدا خلها بالأمن بشري من الباري
تهب نسيمات الشمال بأرضها فينشق منها الأنف جونة عطار
مراتع لذاتي وملهي شَبيبتي ومبدأ أوطاني وغاية أوطاري
ومنزل أحبابي ومنزه مقلتي ومطلع أقماري ومغرب أفكاري
لبست ثياب اللهوفيها خلاعة وقا مت علي خلعي عذاري أعذاري
وأعجب ماأحكيه أني مُسافِرُ مقيم ولكن منزلي أبداً ساري
وفي سفري لم ألق لي من مؤانس سـ وي الكتب أجْلُ الهم فيها بأشفاري

(١) ديوانه : ص ٧٦
(٢) ديوانه : ص ٩٠

أبيت سمير الأفق أحسب أنكم ... كواكبه حتي تعشقت سماري

ومن أغراضه العتاب والهجاء لبعض من ضايقه منهم أمر. قال في شخص صحبه علي غير ضغنٍ فخانه، وقد ائتمنه، ويبدو أنه من الشيوخ أو ممن ينتسبون إلي العلم من أبناء الترك، ويبدو كذلك أنه أخذ منه مالاً دون وجه حق .

بدأ قوله فيه بذم النفاق والرياء والمداجاة .

قال :

جاءت تبختر في ثوبين حشوهما ... منافق بخداع القول محتجب

لامرحباً بك ياغَرَّارة خدعت ... بالنسك قلباً سليماً غرَّه الأدب

وباعت الدين بالدنيا فما اكتسبت ... ربحاً سوي الخزي بئس الربح يكسبُ

ويطلب إلي لائميه في هذا الهجاء وأمثاله مما وجه إلي كل من عاب سلوكه أن يقدروه فإن ما لقيه يثير حفيظته :

وياصاحبي لم ألق إلا بهائماً ... فلا تلحني أن صِرْتُ أنحرهم هجا

ولاتنه نظمي في انتهاج هجائهم ... فما زال قول الحق أنهي وأنهجا

ومنها الاستعطاف والشكوي في طي المديح، قال في نكبته وسرقة ماله وهو قاصدُ الحجاز من الشام يصف حاله ويدعو ملك اليمن أن يعوضه عما فقد من مال (١) :

مَوْلايَ هل اشتكي ما قد علمت به ... أم أكتفي بالذي قَدْ لاح من حَالي

قد ضَعْضَعَ الدهر حالي عندما نهبت ... بالشام أيام تيمر لنك أموالي

وبعدها بلغت مني الحوادث من ... يد ابن عجلان مالاقاه أمثالي

وقد قصدت بأن أحيي بظلّكمُ ... فكان ما كان من خَوْفٍ وأهْوالِ

فصارت الحَالُ في حال معطلة ... مافي كِنانةَ سهُمُ غير قتَّال

وعدت منتصراً في الحادثان بكم ... فأنت حاشاك أن ترضي بإهمالي

مال تمزَّق في نهب وفي غرق إن ... فات مالي سألقي فيك آمالي

(١) ديوانه : ص ٤٣

ويتفجع ابن حجر علي من فقد من شيوخه وأصحابه فيبكيهم بكاءاً حاراً كبكائه علي شيخيه الجليلين سراج الدين البلقيني والحافظ العراقي . يقول (١) :

ياعينُ جُودي لفقد البحرِ بالمطرِ ... أذْري الدُّموعَ ولاتُبْقي ولاتَذَرِي

فرحمةُ اللهِ والرِّضوان يشمله ... سلامه مابكي باك علي عمر

بحر العلوم الذي ماكدَّرتْه دلاً ... من المسائل إن تشكل وإن تَذُرِ

والبحر حُبِّر طرساً مَن يَراعَتُه ... حتي يجانس بين الحبر والحبرَ

لم أنس لما أحفَّ الطالبون به ... مثل الكواكب إذ يَحْفُفْنَ بالقمر

فيقسم العِلْمَ في مفتٍ ومبتدئ ... كقسمة الغيث بين النبت والشَّجرِ

ولم يخص ببشر منه ذا نَشَبٍ ... بل عمهم فضله بالبِشْرِ والبِشَر

قالوا إذا أعضلت نبه لها عمراً ... ونم فمن بعدَهُ للمُشْكل العَسِرِ

من لو رآه ابن إدريس الإمام إذا ... أسرَّ أو قر عيناً منه بالنظر

قد كان بالأم براً حين هذبها ... تهذيب منتصر للحق معتبر

تري خوارق في استنباطه عجبا ... يردها العقل لولا شاهد البصر

وفي رثائه للشيوخ ذكرٌ لفضائلهم فسراج الدين عمر البلقيني الشيخ الفقيه المحدث الكريم الخلق معتد بعلمه لافضل عنده لغير العلم، يوزع نفعَهُ بين الناس فقيرهم وغنيهم، وينفعهم بما لديه من مال وعلم لافرق، لايتزلف لصاحب مال أو جاه، ويوزع علمه بين ناشئة العلماء، ومتقدميهم لافرق كالغيث لايفرق بين صغير النبت وعالي الشجر، فكل يرتوي بمائه .

ويذكر فضله في مذهب الشافعي، وماأضافه من شرح لكتاب الأم للإمام الشافعي وتهذيبه، واستخراجه لعويص المشكلات بذهن وقاد وذكاء نادر وعلم غزيرٌ

(١) ديوانه : ص ١٠٧

وله رثاء آخر في أخته ست الركب (١) يختلف عن رثاء الشيوخ، فيه فجيعة وألم الفقد.

ولأن ابن حجر عالم قضي عمره في المدارس، وساحات المساجد مع الشيوخ تلميذاً ومستمعاً ومنتفعاً، أو شيخاً مدرساً، يحيط به طلبته، فقد ظهرت في شعره آثار هذا كله، يصف المدارس وقاعات الدرس، فهذه المدرسة «الجمالية» التي تولي بها تدريس الحديث، يصف جمال بنائها وروائع زخرفتها فيقول موجها الحديث إلي بانيها الأمير جمال الدين :

لله مدرسة سمت ... ورقمتَ فيها الحسن رقما

تستوقف الأبصار رُؤ ... يتها فتشكر مِنْكَ عَزْما

فهي الفريدة في الجوا ... هر لاتذوق الدَّهَرَ يُتْمَا

جمعت فنون العلم ... والتحقيق والتدقيق فهما

فيها الشريعة والحقيقة ... قد حوت عملاً وعلما

ذات الجمال اليوسفي ... حَوَتْ جَمَالاً منه جَمًّا

وبعد فشعر ابن حجر كما رأيت متوسط في كثير منه لولا مايثقله من تعمد البديع. ويصف شعره بأنه شعر سهل لايتعمد فيه التعقيد والإيغال والمعمي بل يجئ بالفظ المعروف المطروق، وقد يختار التعبير الجاري بين الناس وإن لم يكن الأفصح، بل الأشهر والأقرب علي الافهام، والأكثر ألفة . يقول :

ولانْت اعلا منه والمملوك ... أحلي منه نظما

أتجنب التعقيد والإيغال ... واللفظ المعمِّي

فيقول من أصغي له صدق ... المحدث واستنما

وأكثر ابن حجر من استخدام أبواب البديع المتعارفة كالتشبيه والاستعارة واهتم بالجناس والتورية اهتماماً واضحاً، ويتبع في ذلك مدرسة الشوام والمصريين التي كان القاضي الفاضل ربَّها ومقدمها.

(١) ديوانه : ص ١١٣

ويستخدم مصطلح العلوم ، وخاصة علوم القرآن والحديث بطبيعة انشغاله بهما.
ويقتبس ويضمن ويشير ويلمح ، ومن أمثلة هذا قوله :

لئن مال انساني لرؤية غيـــــرهم   فَو الْعَصْرِ إني بعد ذا الصبر في خسر

يضمن بعض ألفاظ سورة الإنسان والعصر

وقوله :

وأغيد من اشراق خديه قد بـــدا   دليل بأن الخدَّ يروي عن الزهري

وقد لاح في الخد اخضرارُ عذاره   تواتر عندي ماروا، عن الخُضْــرِ

والزهري محدث عظيم مات سنة ١٢٤ هـ كما ورد في الحديث بعض ما ينسب إلي الخضر العبد الصالح الذي جاء نبأه في القرآن. وذكرته بعض كتب التفاسير.

ويستخدم بعض أعلام الفقه وأسماء الأئمة في التورية فيقول :

أمالِك رقي شافعـي أدْمُعُ روتَ   بألوانها عن أشهبٍ علمَ أصْبغَا

ومحصوله الشعريُّ فيما يقتبس من معاني الشعر القديم وأبياته وألفاظه ومايضمنه أو يلمح إليه ويشير كقوله :

قالوا إذا أعضلت نَبِّه لها عُمَرا   ونم فمن بعده للمشكل العَسِرِ

يشير بذلك إلي بيت بشار :

إذا أيقظتك حــروب العـــدا   فنبــه لهــا عـــمــراً ثم نم

ويقول :

لو كنت من مازنٍ لم يُستبح ذَهبِي   يا ابــن النقيطة لكن قَومُنا ذهبوا

اقتبس شطر بيت قديم يقول :

لو كنت من مـازن لم تستبح ابلي   بنــو اللقيطة من حيٍّ بن عمران

وقوله :

لئن كنت قد بُلِّغت عنّي مَقَالــةٌ   لمبلغك الواشِي أغَشُ وأخـدع

وقوله :

ياظبية مادَعَتْ عهدي وقد نَفَرتْ ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

من أبيات مشهورة للشريف الرضي

وقوله :

قف تلق جفني بعد الدمع صَبَّ دماً مافي وقوفك ساعة من باس

وعجزه من بيت معروف لأبي تمام يقول :

مافي وقوفك ساعة من باس تقضي حقوق الأربع الأدراس

وفي رثاء شيخيه البلقيني والعراقي يقول (١) :

علمُ الحديثِ انقضي لما انقضي ومضي والدهرُ يفجع بعد العينِ بالأثرِ

اقتبس من مرثية للتهامي شطره الثاني :

ويضمن شعره المثل أحياناً إذ يقول :

ذا شبه فجر عقار لهجةً صدقت وذا جُهينةُ إن تَسألْ عن الخبر

---

(١) ديوانه : ص ١١٠

الموشحـــات :

ولابن حجر موشحات رقيقة علي طريقة الأندلسيين ومن أجملها قوله (١) :

هل ينفعُ الوجــدْ أو يفـيــدُ أو هــل علي من بكي جناحْ
سقـمت من بعدكم فعـــودوا فما علي محسنٍ جُنـــاحْ
عـشـقت بدراً بلا سِـــــرارٍ أفلحت في حبـه فـــلاح
بدراً أنا في الهـوي شهيـــده لما بسيف الجفـوف مــالْ
فطرفُـه والجفا وجيــــدُهُ ماضٍ ومستقبل وحـــالْ
لو صُدِّقت باللقا وعُــــودُ ماعلل القلب بالمحـــال

رَأيُ الذي لامني سديدُ

لكنني لست باختيــــاري ياعـاذلي في هوي المـلاح
أفدي لطيفاً حوي المــــلاحةْ علي الجفا قلبه جُبِـــلْ
وردُةُ خديه بالوقاحـــــة منهـا ستحي نرجس المُقَلْ
قد ادعي الصبُّ أن راحـــــة كريقه العذب فانتَحَـــلْ

وتأتي الخرجة عامية من أغاني الناس الشائعة الذائعة فيقول :

ياربّ سَمْرَا عليه جُنَّــــــت لما أتي دار وصْلَهـــــا
ثـــــم أنثني راجعاً فأنَّـــتْ لما مَضَي خوف بعلهـــا
فـأنشـده لأمِّـهـا وغنــــت والغنجُ من بعض شُغْلِهـــا
يــــــاأمي الحبيبَ الذي نُريدُو لو زار ما كان أبركُو صَباحْ
لــــــمنْ طرقْ أمْسِ باب داري أخَذْ قُلَيبي مَعُــــو ورَاحْ

وفي التوشيح يصرح أكثر من الغزل فمجال التصريح فيه أوسع وهو باب من

---

(١) ديوانه : ص ١١٧

أبواب الطرب تأتي فيه الخرجة من الغناء المتداول، وكثيره صريح. كأن يقول في هذا التوشيح الراقص :

رعاك الله يابـــــدري وإن بـــالغت في هجـــري
تمادي منك هجرانـــي وما السلوانُ من شأنـي وأنساني إنسانـــي
حديث النيل إذ تجـري دمـوعي منه كالبحـــر
أما تجنح للسِّلـــمْ أما ترثي لذي السقـم أمـا تخشي من الإثم
فكم أسعي علي الجـمر وكـم أجري بلا أجـــر
أعد بالقرب أيامـــي أزل بالوصل آلامـــي ولاتحفل بلوّامـــي
وصلني واغتنم شكـــري لأصحـــو فيك من سكـري
مضي في حبه عقلـي حبيب لايري قتلـــي حراماً وهو في حِـــلُّ
رأته غـادة يلعــــبْ فقـالت قم بنا نشـــرب ودع من لامنا يتـعبْ
وهاتْ ثغرك علي ثغـري وقـوم اقعد علي صَـدْري

ولابن حجر مقطعات تدور حول مداعبات وألغاز تكون كل مقطوعة من بيتين، ويستخدم فيها أحياناً عبارات أو ألفاظاً عامية جارية، وقد يقتبس من القرآن الكريم. وقد يلجأ إلي بعض طرائف البديع في النظم والتقفيه علي ماجري به قلم أدباء العصر منذ الحريري أو تقليداً له :

ومن ذلك قوله :

مَحْبوُبتي واصلتنـــــي فـالهم عـني تشتَّـتْ
وذاب قلب حَسُـــــودِي لـما دنـت وتَفَتَّـتْ

ومنه ماقال في الاسكندرية ومائها :

باسكندرية ماء كريـــه به وخم ناره تستعـــرُ
وقد قيل ثغر شديد البيـا ض قلت لكنه ذُو بَخَرْ

ومما اقتبس فيه من القرآن :

يا معشر التجار أموالكم أدّوا زكـــاتها ولاتـكابروا
من قبل أن تصيبكم قـارغة لأنــكم الهـاكم التــكاثــر

وقال في معيد يقرأ وسط الحلقه :

رأينا معيداً جالساً وسط حـلقة فقيل تعالوا تسمعوا الأوحد الفردا
سيبدي لكم مما يُعيدُ فرائـداً فلما رآنا لا أعادَ ولاأبـــدي

وقد يختم علي طريقة صنعة البديع قافية مقطوعته بتورية تقول :

ولم أنْسَ لَّما زارني البدر ليلةً علي خلس بالرغم من عاذل أعمي
فبت أضم القَدَّ منه مهفهفـاً فـأرشف لَّما زارني الليلة الظلمـا

فالظلم الريق والظلماء المظلمة

وقال في مجرَّد :

تجرَّد من أحب فقال لي مَـنْ يلوم : وأظهرَ الجسد المكتم؟!
أجاد لك الحبيب بلمس جِسْمٍ لـه كالخز ؟ قلت : نعم وأنعَمْ

فأنعم هنا بمعني جاد ، وبمعني أفعل تفضيل من ناعـم

الجوانب الإنسانية في شعر ابن حجر :

١- التشوق والحنين إلي أهله وعياله (١) :

إلي ابنته زين خانون : (مرت)

ويتشكي فيها لوزير صاحب اليمن :

أيا ابن الكرام اسمع شكاية مفرد غريب له في بحر جودك مَشْـرع
لقد ضاقت الدنيا عليَّ برحبها وإن ضاقت الدنيا فعرفُكَ أوسعُ
ولي فيك ودٌ ما يزعزعه الجفا وهل زعزعت صمَّ الرواسِي زعزعُ

(١) ديوانه : ص ٦٧

ممدوحوه :

ومن ممدوحيه :

سعد الدين أخو فخر الدين لعله ابن مكانس

وفي مديحه صورة لمديح الكتاب وأصحاب القلم والبلاغة واللسن. يقول :

ياطالباً للمكرمات مجـــــاهداً وعـطاء سعد الدين أقصي قصده
أقصد له وأسأله تعط وتغتنـــم وتعيش مهما عشته في رفـــده
حيث السماحة والحماسة والتقي كـــالعقد أحسن ناظم في عقده
حيث الندي والعفة اجتمعا كمـا مزج الزلال بخالص من شهــــده
حيث الذكا نار يقابلها النــــدي منه ليمنع زَنْدَها من وقـــــــده
حيث البراعة في المهارق أشبهت غصــن الرياض تفوح نسمة ورده
قلم تعرف في الممالك صـــادراً عـن أمر مالكه لأ صفـــي ورده
ياحُسْنَهُ في كفه قصباً حــــلا ذوقاً وأطرب مسمعاً من وفـــده
مبيضٌ وجه القصد محمرٌ الشبا يخضر حين السبح في مُسْـــوَدِّه
وإذا علا شرف المهارق منبــراً خـــطب الغني في أسود من برده
حيث السطور علي الطروس مؤاخذا أحـــكامها والدهر أول جنده
من كل صرف مثل سيف مبهـرج إلا ويظهر زيفـــه في نقــــــده
وله الفضيلة إذ يبين صوابنـــا في مدحه فكما لنا من عنــــده

مدح مجد الدين بن مكانس مع الإشارة إلي التعزية في أبيه :

آيات وصلك يتلوها علي النـاس صب تحركه الذكري إلي الناس

يقول منها :

بنو مكانس غزلان المجالس بل أســـد الفَوارِسِ في سلم وفي باس

وبعد ، فشعر ابن حجر علي ما رأينا كأشعار الفقهاء في جملته ، وعلي طريقة معاصرية ، فيه يرود ، وتكلفٌ لولاً ومضات ، بين رماد الصنعة في شعره الذي يتشوق فيه لابنته ، وعائلته وبلده .

يحيي بن العطار (١)

(٧٨٩ - ٨٥٣ هـ)

هو يحيي ابن أحمد بن عمر الكركي نسبة إلي الكرك بالشام (بالأردن الآن) ولد بالكرك، وكان والده أحمد بن عمر من أهلها، وجاء إلي القاهرة وأقام بها مع ابنه يحيي، فنشأ قاهرياً، وأخذ عن علمائها ، واشتغل بالفقه والعربية. وسمع علي جماعة من مشاهير العصر مثل كمال ابن البارزي. وجوَّد الخط. قال السخاوي : ونشأ صيِّناً مع جمال الصورة وحسن الشكالة. وتعاني الأدب وأجاد. وصادق الأديب الشاعر زين الدين ابن الخرَّاط أحد الموقعين بالدَّست. وكانت بينه وبين الأديب ابن حجة الحموي أشياء

قال السخاوي : وأول مانشأ تَزَيَّي بزيّ الجند. وخدم بالمحلة، وباشر توقيع الدست، ثم التوقيع عند ناظر الجيش الزيني ابن عبد الباسط. وتمذهب بالشافعي، وتولي التدريس ببعض مدارس القاهرة. ولم يرتح له ابن حجر ولم تتصل بينهما العلاقة، مع أن ابن حجر ذكره بمعجمه وأثني عليه، وقال عنه إنه أحد الكملة .

قال السخاوي : ولم يكمل الخمسين حتي أسرع إليه الشيب. وروي عنه مناماً يُشْبه غفران المعري التقي فيه بالشاعر ابن نباته (٢). وقال عنه : وبالجملة فكان أديباً فاضلاً مفتناً، ذا عقل وافر ، وهيبة لطيفة، ونورانية ظاهرة وحشمة وسكون ، وكياسة وكرم ، وهمة عظيمة مع من يقصده ، وقدم راسخ في فنون الأدب ، ولذا انتمي إليه جماعة منهم ، ونفق سوقهم بسعادته ومحبته في المعروف حتي إنه كان يبرّ الشيخ محمد البيباني صاحب الكمال ابن الهمام .

قال : وقدكتب عنه غير واحدٍ من أصحابنا وغيرهم من نظمه ونثره ولقيته مراراً، وكتبت عنه أشياء .

وروي له مقطوعات ، منها قوله :

---

(١) ترجم له السخاوي ترجمة مطولة بذيل السلوك ص ٣٩٤ وبالضوء اللامع

(٢) ذيل السلوك ص ٢٩٥

بعثتُ أعتب من أهواهُ فـــي ورَقٍ وقـال لي الطِّرس ذرني فـهو مَكْتُوبي
فقلت ياطِرسُ حتي أنتَ تعــشقُهُ فقال دعْني فإني رهن مكتُوبـــي

ومما كتب به إلي الكمال البارزي المذكور آنفًاحين كان بدمشق:

ياسَــيِّــداً جــدَّ بالنَّوَي لـــي وطالما جــادَ بالنْـــوالِ
مـن يوم ســافــرت زادَ نَقْــصِي يــاطول شــوقي إلي الكمــالِ

ونقل النواجي بعض موشحاته . يقول : وقد عارض موشحاً لمعاصره ابن حجة الحموي :

بِنأيكُمْ غدا صَبْري عليكُمْ فاني والوجْدُ بَقــيِ
والله ماحنثتُ بالأيمـــــان فـالعَبْدُ تَقــيَ
إن متُّ صبابةً ياأسَفــــي لــو كان يَفي
قاسُوهُ بغُصْن بانةٍ مُنْعطِـــف بادي الهَيَـفِ
قلتُ اتَّئِدُوا قَد زِدتُمْ في السَّرَفِ ماالأمرُ خفِي

وهو مَما جرَّدَ صارِماً من الأجفانْ بالسِّحْرِ سُقِـي
إلاَّ وددت للذي يلحانـــــي ضـرْبَ العُنُـق
علقت وجْهَ عائدٍ من سَفَـــــر عَـوْد القمَـــرْ
والوجه بما أصابه من أثـــــر كالمُسْتَتِـــرْ
والفرق يلوحُ من خلال الشَّعَـــر مِثلُ السَّحَـرْ
في الأفق ونور خَدِّه الرَّيـــــان تــحتَ الشَّفَقِ
كالبدْرِ صفا ، وشَعْرُهُ الرَّيَـــــانْ مِـثْلُ الغَسَــقِ
لهفي وعنَائي بعد أنْ قد حُجِبَنــا عَنْـه زَمنـــا
قــد رام عذارُهُ يقيه الفِتَنَـــا مــن أعْيُنِــاَ

ظُلْماً وبلامِ صُدْغِهِ قد كمنــــا   يَبْغِي المحنــاَ

يخفي ويلوح كالشيطــــان   المسْتَــرِقِ
ناديت أعوذ بالرحْمَــــن   إن كنْتَ تقـي

فاغتاظَ وطرفُه بقلْبي ظلَمــا   لـمَّا احْتكَمَـا
والدمع مرَّ من سما جفني مــا   يحكي الدِّيماَ
لكنْ لشَقَا نجمْي لم يَرْث لمــا   مــنِّي عَلِمَا
مَنْ فوَّقَ سَهْمه فما أخْطانِــي   عِنْدَ الخنَــقِ
واستهلك سهم اصطباري الفاني   سهــمُ القَلَـقِ

يامن هجر المحبَّ لامن سَبَـب   إلاَّ وصَــبي
سكِّن حركات قلبي المضطــربِ   والــمكتئب
واسكته ولا تخفْ من وَصَـــبِ   يَفْـديكَ أبي

وهو معارضة لموشح ابن حجة الحموي الذي يقول :
تاالله غدا صبري عليكم فانــيِ   والوجْدُ بقـيِ
والله وماحَنثتُ في أيمانــــي   والعبْد تَقـيِ

من متُّ به صبابةً ياأسَفــــي   لوكان يَفْـي
قاسوه بغصن بانــه مُنْعطفٍ   بادي الهَيَــــفِ

قلت : أنشـــدوا قـــد زدتمو في السَّرفِ   ما الأمْر خَفِي

وكان الرجلان من ندماء السلطان المؤيد، وسبق أن ذكرنا ولعه بالغناء وأنه كان يصنع الشعر أحياناً ليتغنيَ به ، ولعلَّ ولع ابن حجة بنظم الموشح كان لما أنساه من متعة المؤيد بهذا النظم المؤلف للغناء. ومن هنا تباري الأديبان لابداء قدرتهما في هذا اللون أمام السلطان متنافسين في إرضائه .

وكذلك عارضه في موشح كان ابن حجة قد التزم بأن يأتي في آخر كل خرجة ببيت من كلام الغير وهو قوله :

جاءت تغازل بالأجفان والـمقَلِ   فاهتز عطف غرامي وانجلي عَذَلي

فيالها لحظات للخطا نـسبْتَ   تصيبِ باللمح قلب الفارس البطلِ

فقـلت يـامنيتي وزينـــي

بتـــربة الصَّبْرِ يـــوم بيني

كحلٌ بعينك قالت وهي في خجل (ليس التَّكَحُّلُ في العينين كالْكَحَلِ)قال ابن العطار معارضا : (١)

من لي به رشأ في الجيد والمقَـــلِ   نـــاهٍ عن العدْل مَّيالٌ إلي العَذَلِ

رَنا إلي القضب إذ حاكْتهُ فاضطربـتْ   أمـــا تري أنها تهتزُّ للوجَـــلِ

حاشاك ياواضح الجلالَـــهْ

وفاضحَ البدْر والغزالَـــهْ

أن يُشَبَّه الغصنُ يوماً بِقَدِّكَ الأسِلِ (وهل يطابق معوجٌ بمعتدلِ ؟!).

قال السخاوي في نهاية ترجمته : " وعندي من نظمه شئٌ كثير ، ولم يزل علي رياسته غير أنه خدشها بتردده علي النحَّاس ومنادمته له " (٢).

---

(١) راجع التبر المسبوك ص ٣٩٨
وعقود اللآل للنواجي ص ١٢٠
(٢) التبر المسبوك ص ٣٩٨

وقد كان النحّاس هذا تقرب إلي السلطان ، وكان سبباً في عزل ابن حجر عن القضاء. وحدثت بين الرجلين مجافاة وعداء، وحمل السخاوي علي النحاس ونال منه . وربما كان من اسباب ماذكرنا من جفوة بينه وبين حجر في بدء حديثنا عنه هذه القربي من النحّاس .

إلاً أن هذه العلاقة رغم نفور السخاوي منها لتعلقه باستاذه ابن حجر لم تؤثر علي تقديره للعطار، واعترافه له بالأستاذية ، وأخذه عنه علماً وشعراً.

قال السخاوي إنه لمأ مات حضر السلطان المؤيد الصلاة عليه مما يدل علي مدي علاقته به .

كمال الدين البارزي

(٧٩٦ - ٨٥٩ هـ)

محمد بن محمد بن محمد بن عثمان ، كمال الدين، الحموي ، ثم القاهري الشافعي، ولد بحماة. وبها نشأ وحفظ القرآن . ورحل إلي القاهرة سنة ٨٠٩ مع أبيه، فأقام زمنا ، عاد بعده إلي بلده .

وتلقي في القاهرة وحماة علوم الدين والعربية، وحفظ بعض كتب الفقه والنحو كالألفية ، وعاد من حماة إلي القاهرة مرة ثانية سنة ٨١٥ هـ، وواصل تلقيه العلم وجلوسه إلي الشيوخ كوليّ الدين العراقي وعز الدين ابن جماعة وقرأ البخاري علي تقي الدين المقريزي، وسمع الحديث علي جماعة من المحدثين والحفاظ .

واجتهد في الأدبيات حتي برع فيها وصارت له يد طولي في المنثور والمنظوم لاسيما في الترسل والإنشاء . واستنابه أبوه في كتابة السرْ بالقاهرة حتي استقل بها سنة ٨٢٣ هـ بعد موته .

وترك كتابة السر إلي نظارة الجيش .

ولم تشغله هذه المناصب عن المطالعة والاشتغال بتحصيل العلوم والآداب والمذاكرة، ولقاء الأفاضل من الأدباء. وتفرغ للعلم والأدب حتي تولي كتابة السرّ بالشام سنة ٨٣١ هـ، وبقي بها أربع سنوات أو أكثر قليلاً ثم عاد ثانية إلي القاهرة صحبة نائب الشام سودون.

وبعد مدة تولي قضاء الشام، فاطمأن النّاس علي أموالهم وأنفسهم وقيل إنه كان زاهداً في القضاء حتي وليه وبعد قضائه فيه فترة استدعي إلي القاهرة مرة أخري لتولي كتابة السرّ ، وأقام في ذلك سنين ثم صرف ورجع إلي الشام ليتولي القضاء مرة ثانية .

وخطب في دمشق بالجامع الأموي .. وظل كذلك حتي استدعي إلي القاهرة ليتولي كتابة السر للمرة الثالثة واستمر فيها حتي وفاته .

وحمدت سيرة ابن البارزي في كل المناصب التي تولاها ، وأثني عليه الناس في

مصر والشام ، وحج غير مرة في تجمل زائد وأبهة تفوقُ الوصف - علي حد قول السخاوي - وانفق فيها أموالاً جمة في وجوه القرب إلي الله وعمل الخير. وحصل لأهل الحرمين منها أفضالٌ وبر علي جاري عادته. وحدَّث في الحجاز باليسير، وكذا حدَّث بالقاهرة .

قال السخاوي : وقرأت عليه أشياء ، وكَتَبْتُ عنه من نظمه .

وأنعقدت أواصر الصلة بينه وبين أدباء وشعراء عصره أمثال ابن العطار الذي مدحه وراسله في دمشق بأبيات منها قوله :

ياسيداً جاد بالنوال ... وطال جاد بالنوالِ

من منذ سافرت زاد نقصي ... ياطول شوقي إلي الكمالِ

فأجابه ابن البارزي بقوله :

خيالكَ في عيني يؤانس وحدتي ... علي أنَّ داءَ الشوق في مُهْجتي أعْيَى

وإن ماتَ من فَرط اشتياقي تصبري ... أعلله بالصَبْر من سَيّدي يحْيى

ونلاحظ التورية في آخر البيت الثاني ، وهو الفن الذي زاد ولوع شعراء العصر وأدبائه به حتي اسرفوا في استخدامه اسرافاً ثقلهُ .

وكذلك مدحه ابن الخراط (٢) وغيره من معاصريه . قال فيه أحدهم وغالي :

ديني تكمَّل مذ جُعِلْتُم قبلتي ... وسجدت في أعتابكم يجبيني

وغدوت مفتخراً بكم بين الوري ... ما الفخر الاَّ في كمال الدين

ويستخدم الشاعر هنا كذلك التورية

وفضلاً عن نظمه الشعر، واجادته الكتابه والانشاء ، فقد ألف بعض المؤلفات

---

(١) ذكر الشهاب الحجازي ف روضة الآداب قصيدته ف مدحه ومطلعب
قسماً بجمرة ثغره وبورده ... وبروض وحتبته الأريج وورده
وذكرنا ف حديثنا عن ابن الخزارا.

(٢) ترجمته في رنباء الهصر بأنباء العصر لابن داود : ص ٢٥٨ - ٢٥٩
وتاريخ ابن إساي : ٢ / ١٢٦ ونظم العقيان للسيوطي : ص ٤٠

منها اعتراضات علي شرح بديعيَّة ابن حجة الحموي مُعاصِره والتي سماها خزانة الأدب .

وتوفي فشهد الصلاة عليه السلطان والخليفة ، وجمع من الناس حافل ودفن بتربة أبيه بالإمام الشافعي .

الشهاب الحجازي

(ولد سنة ٧٩٠ هـ، وتوفي سنة ٨٧٥ هـ)

وهو أحمد بن محمد بن علي . قال ابن داود الجوهري الصَيرفي : شاعر الوقت، أي النصف الثاني من القرن التاسع .

وذكر من ألقابه المقرئ المعروف . والمشهور بالحجازي .

ولد بالقاهرة ، ونشأ بها فحفظ القرآن، وسمع الحديث على بعض أئمته في عصره كالزين العراقي ، والهيثمي ، وابن أبي المجد والتنوخي . وحفظ بعض الكتب .

واشتغل بالفقه وأصوله ، واتقن العربية - علم النحو - وعلوم اللغة وأخذ عن جماعة من علماء عصره فيها . وجوَّد القرآن ، فمهر. وصار أحد أعيان قرّاء الجوْق . يعني أنه صار مقرئاً يقرأ القرآن مجوداً ملحناً وكذا جوَّد الخط الحسن ، وكتب به الكثير، ولعله تكسب بعمله هذا ، وتعاني الأدب حتى صار له سجيةً، وطار صيته به بحيث وصفه ابن حجر بقوله : « العلامة ، فخر المدرسين ، عمدة البلغاء ». وناهيك بهذا الوصف من مثله .

وقرأ مقامات الحريري، وأقرأها وعلق عليها شرحاً، وطارح الأدباء ، ومدح الأكابر. وجمع المجاميع الحسنة. وألَّفَ وصنف، وزادت تذكرته على خمسين مجلدة. فيها فوائد كثيرة. وسارَ نظمه ونثره ، فطبق الآفاق.

قال الجوهري : « ودخل إلى دمياط واسكندرية وغيرهما للنزهة وحدَّث، وسمع منه الفضلاء ، وأقبل بآخره على كتابة الحديث والأسانيد والمتون ، والسؤال ممن يعتقد بقدمه ومعرفته بهذا الفن ، فيما أشكل عليه » .

وعن طباعه وأخلاقه يقول : «ونعم الرجل تودداً لأصحابه وحرصاً على زيارتهم ، واستجلاب مودتهم ورغبتهم في صحبته للفائدة . وذلك مع صحة المصاحبة وصفاء الخاطر، وخفة الروح ، وحلاوة المذاكرة، والمحاسن الجمة ».

وكانت له علاقة مودة وصداقة بكثير من علماء عصره وأدبائه كالحافظ ابن حجر

العسقلاني، وشهاب الدين المنصوري الشاعر وابن داود الجوهري المؤرخ والأديب.
قال ابن داود :

«وكان بيني وبينه صحبة زائدة ، وبات عندي ليالي ، وأقام عندي أياما ، ورأيته استاذاً في سائر الفنون ، كثير الأدب ، عديم الشر ، سمح النفس ، يحب الفضل وأهله ، ويكرمهم ، ولايتكلم في أحد بغيبة ولانميمة ولاتنقيص، ولايلتفت إلي تحصيل مال ولاجاه ، وغالب إقامته بمجلس المدرسة القراسنقرية نهاراً. وأما في الليل فغالب مبيته عند القاضي موفق الدين - ناظر جيش الشام ببركة الرطلي».

قال عنه السيوطي : « المصري ، الشافعي . الأديب البارع المفتن ، عني بالأدب كثيراً إلي أن تقدم فيه، وصار أحد أعيانه ، وله فيه تصانيف منها : «التذكرة» نحو سبعين جزءاً، وكتاب «النيل» و «روض الآداب»(١) وحبيب الحبيب ونديم الكئيب» و«القواعد المقامات من شرح المقامات» في شرح مقامات الحريري و« قلائد النحور من جواري البحور» في اقتباسات القرآن ، وديوانه المفرد، ومصنف في الألغاز والأحاجي ، ومصنف أدعية يدعي بها عقب قراءة الختمات بحسب الوقائع والمقامات . و« أجوبة علي اعتراضات ابن الخشاب علي الحريري» .

وتوفي الحجازي سنة ٨٧٥ هـ .

شعـــره:

وشعر الشهاب الحجازي قريب من شعر الشهاب المنصوري ، ويدور في مدائح معاصرية من السلاطين ، والأمراء والشيوخ من القضاة والعلماء ، وفي رثاء من مات منهم ، ومجاملته في مناسبات سعيدة أو غيرهما .

واختار لنفسه مقطوعات وقصائد في كتاب «روض الآداب» ، كما اختار له بعض الأدباء ممن عاصروه أو جاءوا بعده ، وذكر له بعض المؤرخين نبذاً من شعره في حدود البيتين تتناول موضوعات مختلفة .

---

(١) منه نسخة خطية بدار الكتب التيمورية

فمما اختاره لنفسه قوله علي قافية الزين في موضوع الغزل بالمذكر يَعْنِي أحد فتيان الترك :

أقوامُ قدٍّ أم قنا مركوزُ ... أم غُصنُ بان بالصَّبا مهزوزُ

أم خيزران زانه السّربالُ أم ... ألف بشربوش له مهموزُ

وعذاره ياصاح أم خطٌّ بدا ... من كاتب في الخدّ أم تطريزُ

وبوجهه حسنٌ حماه بصارم ... من لحظه. فجماله محروزُ

وجه غدا لي مطلباً لما بدتْ ... للعين منه ذخائرٌ وكنوزُ

فالدرُّ والمرجانُ في فيه بَدا ... والخد فيه عجسدٌ إبريزُ

وقوله من قافية القاف في الغزل أيضاً:

إن سال دمعي من فراقك أو رقا ... ياغصنَ بانٍ بالملاحة أو رقا

أبداً بحبك لم أبُحْ مع أنّني ... كادت جميع جوارحي أن تنطقا

كم ترشق المضني بلحظ فاتر ... ماأكسلَ لألحاظ منك وأرشقا

أرعدت قلبي والمدامع أمطرت ... لّما تبدّي لي سناك وأبرقا

ومن مقطعاته التي اختارها له بعض المؤلفين في جماعة من أصحاب الحرف من الرجال والنساء. قوله في ترّاب مضمناً :

فتنتُ بتراب حكي الماءَ جسمه ... صفاءً فما أحلاه للعَينِ والقلبِ

إذا مارنا قبلْت تُرباً يمسُّه ... ومن لم يجد ماءً تَيَمَّمَ بالتُّربِ

وقال يمدح الملك المؤيد أحمد بن إينال العلائي ويعزيه في وفاة أبيه :

يُهنَّا الملكُ من بَعْد العزاءِ ... فيبسمُ ضاحكاً عقب البكاءِ

ونحن فقد فقدنا ضوءَ شمسٍ ... وعوضنا بما راق المراقي

وقال في مليحة لابسة ثوباً أحمر :

في ثوبها الخمري قد أقبلت ... بوجنةٍ حمراءَ كالخمرِ

فملتُ سكراً حين أبصرتها لاتنكروا سكري من الخمري

وقال في باكية تسمَّي جَنَّة :

نزهة عيني جنةٌ أرسلت مدامعاً من مقلةٍ هاميةْ

قد قلت لما أن بكت واغتدت كأزْهَار روضةٍ زاهيةْ

جاريةٌ أعينها جنةٌ وجنَّةٌ أعينها جاريةْ

ونلاحظ اهتمامه بالتضمين من ألفاظ القرآن الكريم ، وليس ذلك عجيباً من مقرئ يدور علي لسانه كل حين . ويقول مضمناً بعض لفظ آية في حريق حدث ببولاق سنة ٨٦٢ هـ :

لهفي علي مصر وسكانها والدمع من عيني عليها طليق

ماشاهدوا الحشر وأهواله ما بالهم ذاقوا عذاب الحريق

ويقول كذلك مضمناً بالشعر القديم في فتي نبت عذاره علي صفحة خده :

سال العذارُ بخدّه فإذا ال‍ مبيضُّ من صحن خدّه مسوَدُّ

ولسان حال العذار ينشدنا هل بالطلول لسائلٍ ردُّ

ويضمن بالمثل فيقول :

قصدت رؤية خضر مذ سمعت به فقال لي بلسان الحال ينشدني

انظر إلي الردف تستغني به وأنا مثل المعيديّ فاسمع بي ولاترني

وتبادل هو والشهاب المنصوري الرسائل الشعرية، فقد بعث إليه المنصوري في مرضه يقول :

قيل الشهابُ سقيمٌ قلتُ واأسفا مابال أحمد لايخلو من العِلَلِ

وزن الرقائق من أضحي يجودُ بها ووصفه بفنون العلم والعمل

يشير بذلك إلي صنعته في التجويد والإلمام بالألحان .

هذا وقد رثاه الشهاب المنصوري بقصيدة يقول فيها :

زادني بعد الحجازيّ شجـــــيً   هل يُطيبُ العيشَ فقدانُ الحجَا
لو درَي القمريُّ أبدي نـــــوحَهُ   أو غراب البَيْنِ أضحي مسمجاً
صار في زورق نعش قاطعــــاً   منك بحر المنايا لجـــاً
وامتطي طرفَ الرَّدي مستوفزاً   طالبــاً من همّ دنياه النَّجـا
إن يكن في الترب أمسي هابطا   فسيرني في الخجاب الدَّرجا
أو يكن ليل الضريح عاكــراً   فسيلقاه شهاباً أبلجاً
فلتطب أرجاء قَبْلِي زارهــا   إنها حكَتْهُ في حسن الرَّجا
فالحجاز ومكــة تبصره   والشهاب اشتاقه بدر الدجا(١)

---

(١) تاريخ ابن اياس : ص ٤٢٧
ويراجع روض الآداب - مخطوط - ورقة ٩٧

الرسائل :

كتب الشهاب الحجازي إلي الشريف الأسيوطي صلاح الدين وقد طلع له دُمَّلٌ . يقول (سنة ٨١٥ هـ) .

الحمد لله، حسبي الله، ماشاء الله، لاقوة إلا بالله ، إنما يوفَّي الصابرون بأجرهم بغير حساب، اللهم وفقنا للصواب، مما أنهيه إلي من أسود به، وأستند إليه، فهو لي سيد وسند، ومن نجده في الأمور المهمة أغني به عن العَديد والعُددْ، ومن تستولد أفكاره آداباً كالدرر، حاشاهاً من اليتم وهو لها أب اجتهد في تأديبها وجدَّ، ومن ينشئ فيُنْسئ، وينثر كالمنثور فأجد عنده راحتي وراحي، ومن إذا أفسد نظامي الطالع المنحوس فهو علي الحقيقة صَلاحِي. حرسه الله تعالي من الآفات ونصب أعلام سعوده نصب الألفات .

إنه حدث لي نازلة وهي طلوع دمل كاد أن ينزلني التراب ويفرق بيني وبينَ الأحباب والأتراب. ولي عشر ليال لاأكتحل بالمنام ، ولاأطعم الطعام. فها أنذا في هذا الشهر الشريف صائم الليل والنهار، وطائر قلبي قد غَشَيْتُهُ نارُ هذا الدمَّل، فكأنه كالسمندل وكيف لا وهو داخل النار.

لقد طال ليلٌ ساءني فيه دمَّـــــلٌ   فأسهر أجفاني ولم أستطع صبراً

كأني بعلم الوقت مُغريٌّ فها أنَا   أراعي نجوم الليل ارتقب الفَجْرَا

فياله من دمّل خلته من حرارته جمرة، وشبهته بفارس عادٍ بغَّضَ إليَّ الحياة فكرَّ في مهجتي كرَّةً وكرَّه، فلم أجد بداً من استعمال الصبر مذ وُصف لي، فما أحلاه عندي وما أمرَّه .. حتي تشبهت القول الشاذ، ومنعت به أن آلفَ الإخوان، وألتذ بمطعم ومشرب، فمنعني في الحالين من الملاذ، وهوَّن عليَّ الموت بهذه المشقة الصعبة، ورخصت مهجتي حتي كادت أن تباع كما يقال بحبه. ويئست من العافية فقلت علي غلبة الظن : لم يبق بيني وبينها مجاز، إذ هو في احمراره كالعقيق. ودمعي ينبع من العيون. وبيني وبين النوم حجاز.

توالي ووَافَي هَمٌّ بدمَّــــــــلٍ   أكَـابِدُهُ في الحالتين بلا فجر

نعم ولربَّ ليلٍ بالهمـــوم كدمَّلٍ   صابرته حتي ظفرت بلاضجر

علي أن صاحب الدمل ضعيف لايزار، وكلما قضَي استعارة الصبر، وتهجَّم عليه الليل رجع عن ذلك المسْتَعارْ ، فتراني كلمَّا جَنَّ الليل سلسلته بالدموع، ونحل جسمي في هذه العشر ليالي لعدم المطعم والجوع. والواقع أن البكاء لايسمن ولايغني من جوع. فأقسم بالفجر، وليالٍ عشر ، لقد فطَّر هذا الصيام قلبي، وقطني عن الحواميم ورميت بالنوي ، فطار لبي ، واعظم بمن لايعرف الألم ، ولايفرق بين البرء والسقم. إذ لم يرني مع الساجد والراكع، ولاجمع بيني وبينه في هذا الشهر الجامع. وقال لي : مثلك يفرِّط في هذا العشر . وقراءة ليلة القدر خير من ألف شهر. فلما رأيته جاهل دائي تلوت له : سلامٌ هي حتي مطلع الفجر.

لم يقصد المملوك بهذه السقطات إلي المخدوم عليه إلا لكونه سيداً ، والعبد منتسب إليه.

ولابد من شكوي إلي ذي مروءةٍ يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ

فمولانا وإن كان عين الوقت ومحله الصدر . فقد أصابه مما شكوت منه جانب. ويعلم مايقاسِي المملوك من هذا العارض، وماهو من هذا الكاس شارب. فليصفح سيدي عما فيه من الخطأ، فإنه أكثر من الصواب، ويتجاوز ».

الشهاب المنصوري

(٧٩٩ - ٨٨٦ هـ)

وهو أحمد بن محمد بن خضر بن علي السُّلمي المنصوري ، المعروف «بالهائم». القاهري الحنبلي . قيل أنه ولد بالمنصورة (١) ، ونسب إليها ، ورحل إلي القاهرة بعد أن بلغ مرحلة الشباب فالرجولة سنة ٨٢٥ هـ ، وبها تلقي العلم في السادسة والعشرين من عمره . دَرَس النحو علي شيخه شمس الدين الجندي ، وقرأ عليه الألفية لابن مالك ، ولما فرغ من قراءتها نظم قوله في شيخه :

ثناؤكَ شمسَ الدين قدفاح نشرُه لأنك لم تبرح فتيً طيبَ الأصْلِ

أفاض علينا بحر علمك قطرةً بها زال عن ألبابنا ظمأ الجهلِ

وأخذ النحو أيضاً علي الشيخ شمس الدين القرشي. قال السيوطي : ثم تحوَّل حنبلياً لأجل وظيفة الشيخونية ولعله كان قبل ذلك شافعياً كغالبية المصريين آنذاك .

وذُكر أنه كان جميل الهيئة نّير الوجه متعففاً عن الناس. لم يسأل بشعره علي عادة شعراء عصره المتكسبين. وفي ذلك يقول :

لاأطلب الرزق بشعرٍ ولو كنتُ علي جيّده أقدرُ

كيف وعلمي أنَّ سيداً يرزقني من حيث لاأشعرُ (٢)

وقال :

قالوا عليك بمدح الأكرمين فهمْ أهلُ الندي، قلتُ فيه ذِلّةُ الأبدِ

عندي من القنع شئ لانفَادَ لهُ مادامَ عندِيَ لم أحتج إلي أحدِ

وقال في المعني :

غَنِي البدريُّ بالرزق الذي لم يكُنْ سِيقَ إليه عبثَا

---

(١) السيوطي في نظم العقيان : ص ٧٨

(٢) نظم العقيان : ص ٨٢

مـــن حـــــلالٍ درّت الأرزاق لا	من مـدحٍ وهجاءٍ ورثــــــا

ويقول في ذم السؤال :

صُنْ حرَّ وجهكَ عن إراقة مائه	واحفظ لسانك عن سؤال الناسِ

وانجو بنفسك أن تذلّ لباخلٍ	فسؤاله شرٌّ من الإفلاسِ

فلقد تركتُ تبسُّمَ الضحّاكِ لم	أمدحه خوفَ تَقطُّبِ العبَّاسِ

عجباً لآحاد الورَي في مدحه	إذ يضرب الأخماس في الأسداسِ

فدعْ الوقوف لهم وقول أديبهم	مافي وقوفك ساعةٌ من باسِ

ويظهر في شعر المنصوري وفاؤه لإخوانه، فهو يراسلهم. ولايفتأ يبعث بشعره للسؤال والتقريظ، ويشكو فقد الأصدقاء إذا جفوه أو ابتعدوا عنه فيقول :

إنّي غدوتُ غريباً	لَما فقدتُ الأحَبة

يا صدقَ من قال قِدماً	فقد الأحبة غُربَةْ

وشعر المنصوري يصور جوانب من حياته، وأطوار سنوات عمره، فتراه يقول ، وقد بلغ الخامسة والسبعين :

بلغت من دنيايَ سنًّا به	رتَعتُ في السبعين والخمسِ

والحمد لله الكريم الذي	متَّعني بالسنّ والضرسِ

ولما بلغ الثمانين قال :

نحو الثمانين من العمر قد	قطعتُها مثل عقود الجمانْ

وماأحوجتُ يوماً يَمينِي إلي	عصا ولاسمعي إلي ترجمانْ

وهذا يدلُّ علي أنه لم يضعف حتي تلك السنّ المتقدمة. إلاّ أنَّا نجده في موضع آخر يشكو ضعفه فيقول :

قد زاد ضعفي ضعفه	فآن لي أن أنقُصا

وصرت كالعير فلنْ	أمشيَ إلا بالعصا

وأصيب في أخريات عمره بفالج ألزمه الفراش مدة طويلة، وانقطع في داره عن الحركة فأنشأ يقول :

آه يادرهمي ويا دينـــاري ضعت بين الطبيب والعطـــار

كنت أنسي في وحدتي وشفاشي من سقامي وصحتي في انكساري

كنت أقضي مما حلا من غـداء وعشـاء، منيتي أوطـاري

قد حماني الطبيب عن شهواتي فاحم يارب قلبه بالنـــار

طال شوقي إلي الفواكـــه والبطيخ والجبن واللبا والخيـار

ضاع لبي علي مقاساة لب القرع والهند باوند والشمـــار

ليت شعري وللزمان خطـوبٌ وبلاءٌ يختـصُّ بالأحـرار

هل لميت قضي عليه طبيبٌ من كفيل أو آخذٍ بالثـار (١)

وذكر المؤرخون أنه كان شاعراً جيداً له نظم رقيق، وجمع ديوانه في مجلد ضخم.

وتوفي الشهاب المنصوري بعد حياة تقلبت به فيها الأحوال سنة ٨٨٧ هـ وقد رثاه الشعراء. فمما قيل فيه :

أخبـرتنا ملوك علم القـوافي في بـديع المنظوم والمنثـور

مـاوجدنا خليفـة في المعـاني ملكـاً في البيـان كـالمنصوري

وشعره في معظمه مقبول، لايسرف في البديع ولايتكلف الصنعة الثقيلة وتنوعت موضوعاته بين مديح ووصف وموعظة وحكمة وغزل وممازحة ورثاء وهجاء .

ومن رقيق ماقاله في شدو الحمام (١) :

وصادح في ذُرىَ أرَّقَنــي شدواً، ومـا كان جفني يعرفُ الأرَقا

لو ذاقَ ماذُقتُ من جورِ الغرامِ لما شدا، ولو كان يدري ماعلا الورقا

---

(١) ابن اياس : ٢ / ٢١٣

(٢) نظم العقيان : ص ٨٢

ومن غزله قوله :

يامليحاً ماسَ غصناً ... ورنا سيفاً صقيلا
لاتقابلني بصدٍّ ... واصفح الصفح الجميلا

وقال يصف شهاباً مُنقضاً :

وكوكب من أفقه ... في إثر عفريت وثَبْ
كأنه محاربٌ ... يجرُّ رمحاً من ذهبْ

ويصف الزلابية فيقول مُلغزاً :

ومابيضاءُ حمراءُ الإهابِ ... منقَّبة تزور بلا نقابِ
معراة تعوّض جسمَها من ... ثياب الشَّرب أثواب الشُّراب
مهفهفةٌ لها خصرٌ رقيقٌ ... تتيه به على الخود الكعابِ
تزان بأعين نجل وتجليَ ... بحسن أنامل لُدْنٍ رِطابِ
عجبت لها تَنعَّمُ في شقاء ... من الدنيا وتَعذُبُ في عذاب
لها خدرٌ تصان به منيعٌ ... مهابٌ عن ذوي البطش المهابِ
إذا اشتقنا إليها ذات يوم ... قليناها وذاك من العُجَابِ

ومدح المنصوري بعض من اتصل بهم من ذوي الشأن من رجال الدولة والعلماء، ومن ممدوحيه ناظر الجيش وناظر الخاص السلطاني. ويروي له بيتان بعث بهما إلى الأخير بعد أن أبلَّ من مرضه يقول :

ياجوهر الفرد الذي ... عن جسمه زال المرض
أجفان من أحببته ... تحمَّلت عنك المرضْ

وله في ابن السلطان برقوق نائب الشام : واسمه علي باي بن برقوق :

محييٌّ علي باي بن برقوق مشرقة ... كطرة وسني ليس بينهما فرقُ
فإن يك سبَّاقاً إلى الفضل والندي ... فلا تعجبوا منه فوالده برقُو (ق)

ويعمد في البيت الثاني إلي ماعرف في ذلك العصر وشاع عند بعض الشعراء من بديع الاكتفاء. فالقافية بَرْقُ وبها يختتم معني البيت يقصد البرقَ المؤذن بالغيث وهو في لفظه جزء من اسم برقوق والد الممدوح.

ويمدح العلم والعلماء فيقول (١) :

أجدرُ الناس بالعُلا العلماءُ ... فهم الصالحون والأولياءُ

سادةٌ ذُو الجلال أثني عليهم ... وعلي مثلهم يطيب الثناءُ

وبهم تمطر السماءُ وعنَّا ... يكشفُ السوءُ أو يزول البلاءُ

خشية الله فيهم ذات حصر ... أبداً وفي غيرهم يكون العلاءُ

فهم الآمرون بالعرف والنَّا ... هون عما يقوله السُّفَهاءُ

وإلي ربِّهم تقدَّسَ عزّاً ... فقراءُ وهم به أغنياءُ

فالبرايا جسمٌ وهم فيه روحٌ ... والبرايا موتي وهو أحياءُ

فتعفف عن لحمهم فهو سمٌ ... حلَّ منه الضنَّا وعزَّ الشفاءُ

قد سموا فطنة وزادوا ذكاء ... أفتعمي عليهم الأنباءُ

قلتُ للجاهل المشاقق فيهم ... هل جزاء الشقاق إلا الشقاءُ

زبدةُ العالمين مخضاً ومحضاً ... حيث كانوا، لاسيما القُراَّءُ

وهذه أبيات منظومة في فضل العلماء ، استشهد فيها بقول الله تعالي في كتابه الكريم « وإنما يخشي الله من عباده العلماء» . وحديثه عن فئته ، والفقهاء في عصره حديث مدرك لما عليه العلماءُ من قدر لايرقي إلي قدر مملوك من الجلبان جند السلطنة أو خدم القصر . فبعضهم يعيش علي ما يجود به المماليك في الخوانق والمدارس ، وهم عرضة أبداً لغضبة السلطان ، وعبث الأمراء والأجناء.

ومن مديحه ماخصَّ به النبيَّ (صلي الله عليه وسلم) علي عادة شعراء عصره ،

(١) نظم العقيان : ص ٩٠

ومنه قوله (١) : (ونكتفي بالمقدمة فالمعاني بعدها مكررة)

أذكتْ بروقُ الحمي في مهجتي لهباً فأنشأتْ مقلتي من جفنها سُحباً
يانازلين بقلبي طاب منزلكم ويا عُربَ الحمي حييتمُ عُربا
جزتم علي البان فاهتزت معاطفه وأرخت تدوح من أغصانها عذبا
عجبت كيف سكنتم من محبتكم قلبا خفوقاً من الأشواق مضطربا
وارحتماهُ لعينٍ كلما هجعت ألفت كراها بكفّ السهد منتهبا
في كلّ يوم أنادي رسم ربعكمُ ياربْعَ ليلي لقد هيجتَ لي طربا

ويرثي بعض العلماء كالكمال السيوطي المتوفي سنة ٨٥٥ هـ، فيقول :

ماتَ الكمالُ فقالوا ولّي خجا والجلالُ
فللعيون بكاءُ وللدموع انهمالُ
وفي فؤاديَ حزنٌ ولوعة لاتزالُ
لله علمٌ وحلمٌ دارته تلك الرمالُ
بكي الرشادُ عليه دماً وسُرَّ الضلالُ
قد لاح في الخير نقصٌ لّما مضي واختلالُ
وكيف لم نرَ نقصاً وقد تولّي الكمال
علومه راسخاتٌ تزول منها الجبالُ
بقبره العلم ثاوٍ والفضل والإفضال
فلا تزالُ عليه تهمي السحابُ الثقالُ

وهو رثاء سهل في لفظ جارٍ ، لم يتعمد المبالغة والتهويل ، ومعانيه قريبة تدور في فلك فضائل المرثي وصفاته باعتباره عالماً، فهو يشيد بعلمه ، ويستنزل الغيث علي قبره ، وهو معني متداول في الرثاء منذ الشعر الجاهلي .

---

(١) نظم العقيان : ص ٧٨

كما رثي الشيخ العلامة محيي الدين الكافيجي فقال (١) :

بكت علي الشيخ محيي الدين كافيجي عيوننا بدموع من دم المهج
كانت أساريرُ هذا الدهر من دُرَرٍ تزهي فبدّل ذاك الدرُّ بالسبج
فكم بَرا من سماح من مكارمه فقري وقوم بالإعطاء من عوج
يانور علم أراه اليوم منطفئاً وكانت الناس تمشي منه في سُرَجِ
فلو رأيت الفتاوي وهي باكيةٌ رأيتها من نجيع الدمع في لجج
ولو سرت بثناءٍ عنه ريح صبا لاستنشقوا من شذاها أطيب الأرج
ياوحشة العلم من فيه إذا اعتركتْ أبطاله فتوارتْ في دُجَي الرَّهج

ونعثر في شعره هنا وهناك تسجيلاً لبعض شكواه والظالمين كقوله :

ياربّ إن الظالمين بَغوا فلبغيهم في القلبِ تجريحُ
فاجعل بحقك جمع شملهم كرمَادٍ اشتدَّت به الريحُ

ويقول :

يارب أهلُ الظُّلْمِ لا يخشوّن من ذُنوبهم
فاطمسْ علي أموالِهم واشدُدْ علي قلوبهم

ويقول في انتصاف المظلوم :

لاغرو أن ينتصف الـ مظلومُ ممَّنْ ظلما
فالله جلَّ ذكرهُ كانَ بذَاكَ أعلما
فقال إن عاقبتموا فعاقبوا بمثل ما

ويبدو أن شعوره بالظلم وقسوة الحياة أحاطت به فلازمه شعور الشقاء، وهموم الحياة حتي في حمَّامه، فلم ينس وهو يذكر بلانه الذي يحك عن جسده أدرانه ذكر أحزانه. يقول :

(١) تاريخ ابن اياس ٤٥٢

أهواهُ كالبدرِ يزحزحُ عَـنْ جسمي وقلبي أقذاءً وأحزانـا
قد رقَّ لي ورثا مما أكابدهُ وماقسا قلبه - أفديه - بل لانا

وعمل الشهاب المنصوري في الخدم ، فجلس للتدريس ، وتولّي الخطابة في بعض المساجد ، كما تولي القضاء أو النيابة عن القضاة . وشغلته هذه الأعمال عن الشعر مما دعا بعض أصدقائه إلي عتابه في ترك الشعر لأنه كان مدعاة للتسلية والتسرية عن نفوسهم وهمومهم في مجالسهم ، وكانوا يلتمسونه عند الفراغ فيتنادرون به ، ويتعابثون ، وواجه المنصوري لوم أصدقائه باعتذاره عن التوقف عن قول الشعر بمناسبة ، وماتفرضه عليه من التعب والانشغال فيقول في رده علي الشريف السيوطي (١) :

نعم كانَ لي ميلٌ إلي الشعرِ برهةً وأبكارُ أفكاري مالهنَّ بُعولُ
فشعَّبَ مني فكرتي عبءُ منصبٍ تحملتُهُ في كاهليَّ ثقيلُ
وفصل قضايا في تفاصيل أمرها فصولٌ، وكم عند الخصوم فصولُ
ومجلسُ إملاءٍ، وخطبةُ جمعةٍ ودرسٌ، وتعليلٌ له ودليلُ
حديثٌ ، وتفسيرٌ ، وفقهٌ قوامها عقولٌ تعني فهمها وتقولُ
لمستنبطاتِ الفقه مستبطناتُها تزورُ ، فإن لم ينضبطن تزولُ
وطالبُ اسماع وفتيا وحاجةٍ وطالبُ علم في البحوث سئول
وكلّهُمُ يرجو نجاح مرادهِ ويَصْخَبُ إن أرجأته ويصولُ
وهذا إلي أوقاتِ نوم وراحةٍ وأكل وشرب يعتريه ذهولُ
وفي نفسٍ ترْويحُ نفسٍ أجمُّها وتأنيس هزلٍ هَزْلُهنَّ هزيلُ
وأمرُ معادي رحتُ فيه مفرطاً وأمرُ معاشي قد حواه وكيلُ
ولاتنسَ أبناء الرسائل إنَّهم متي عُوِّقوا نحو العقيق يميلوا
فهل لامرئٍ هذي تفاصيل أمره فراغٌ لنظم فارغ فيقولُ

(١) نظم العقيان : ص ٥٢

وأنّي تري من ليس بالشعر شاعـــراً تُطيعُ مفاعيلٌ لَهُ وفعـــــولُ
ولست الذي يرضي سلوك خلاف ما يـدلُّ عليه العقلُ وهو خليـــلُ
فأنظم مالو قاله الغيرُ مُســـــنداً لعاد وسيف الطرف منه كليلُ
فعذراً فما أخَّرتُ نظم جوابكـــــم لبُخْلٍ، ولكن ماإليه سبيـــــلُ
وقد صحَ قولي أن جسمي منحــــلٌ وجسم انتحالي للقريض نحيلُ

وندر وجود مثل هذه القصيدة في ديوان شاعر من العصر يسجل تفصيلات عمله وحياته علي تلك الصورة .

وأثرت أعمالُ الشاعر ، ووظيفته الوعظية ، ومنصبه القضائي في موضوعات شعره ومعانيه وتعبيراته ، فتراه كثيراً مايلقي بمواعظه في ثنايا أبياته ، كأن يقول مذكراً بمضار الخمر مثلاً (١) :

عـدِّ عن الراحِ وعن كرعهـــــا كم أغرقتْ عـينكَ في دمـعهـا
وكم أثارت بين أهل الصَّفـــــا حرْباً تواريَ الجوَّ من نقْعـهـا
عداوةُ الإخوانِ من شأنهـــــا وفقدُ عقلِ المرءِ من طبعهـا
قُربُ رضا الرحمن في بُعــــدِها ووصل عفـو الله في قطعهـا
وخُبْثُها أكبر من طيبهـــــا وضرها أكثر من نفعهـــــا

ويقول - مستعيناً ببعض لفظ القرآن وصوره - في موعظة وتذكير بالدنيا وآنيَّتها :

ألا إنّما الدنيا سرابٌ بقيعــــــةٍ وخلب برقٍ ، واعتراض سنات
فلا تأسَيَنْ منها علي فائتٍ مضـي ولا تفرحن منها بما هـــو آتِ

ويقول داعياً إلي الصفح والمغفرة :

إذا قـدرت فـاغـفــــرنْ وارْجُ ثـــواب المغـفـرة

---

(١) نظم العقيان : ص ٨١

فأحسن الغفران مـــــا يكون عند المقـــــدره

ويدعو إلي طلب علوم الدين فيقول :

لاتجنحنَّ لعلم لا ثوابَ لــــه واجنح لما فيه أجرٌ غير ممنـــونِ

إنَّ العلوم ثمارٌ فاجنْ أحسنها وأحسن العلم مايهدي إلي الدين

وإذا كان المنصوري يقصد علوم الدين المعروفة - وهو الغالب علي الظن - فإنه قد تعصب، لأن كل علم يهدي إلي الدين، والعلم الطبيعي لايقل ثوابه عن العلم الديني ، وكذلك علوم العقل التي تفتح عقل الإنسان وتخرجه من ظلمة الجهالة ، وجمود الفكر، وعلوم الفن والأدب التي ترقق من أحساسه وتصقل روحه، وتبني من ذوقه وتعلقه بالخير والجمال.

وبين جهامة العلم، وانشغال الشاعر بصرامة الجدّ ، وأعباء التحصيل والبحث عن لقمة العيش يجد متنفساً يفرخ فيه عن همّه ، فيلقي بالدعابة، واللهو الذي قد يخرج إلي حدّ المجون والعبث فيقول مثلاً متعابثاً :

إن بذلنا لنزيل مـــأكـــلاً وجَـــبَ الحقُّ وإن لم يأكـــل

كـالختـانين إذا مـا التـقـيـا وجـــب الغسل وإن لم يُنْزِلِ

وفي هذا التشبيه الذي لجأ إليه علي مجونه وبعده شاهد منه علي هذه الخلة العابثة التي تتواري بين خلاته وصفاته الجادة، ويمجن مرة أخري فيقول في فتاة :

جمحت عُجْباً فحاكتْ مُهـــرةً تهويَ السُّباقاً

ركبَ المشتـــاق رِدْفـــاً ناعـمـــاً منهـا وساقاً

ولاينسي في آخر البيت الثاني وفي قافيته أن يسوق عابثاً تلك التورية. ومن هذا العبث الشعري بالتورية قوله في عجوز (١) :

عـجـوزٌ جفَّ ملمسـهـا فـــلا مـاءٌ ولا مـرعي

إذا مـاقـيـل قـد هلـكتْ إذا هي حـــيـــةٌ تسـعَـي

---

(١) نظم العقيان : ص ٨٥

وتري المنصوري في شعره وإن أسَفَّ أحياناً، وجفَّ ماؤه، واضح الملامح، يكشف عن نفسه ، عن حياته ، وشغله ، وعن عصره ، وثقافته ، وأصحابه ، وشيوخه من العلماء والمحدثين والشعراء .

وتلتمس شخصه في شعره ، وتري في مرآته نماذج لأساليب العصر، ولغته، واستعانة الشعراء بلفظ القرآن الكريم ، والأحاديث ، ولغة الشعر القديم وتعبيراته، وإن ضعفت الصياغة وانحلت عقد أبنيته ، بما نراه من تجاوز لقواعد بناء الجمل القياسية، وتسلل بعض التعبيرات والأبنية والألفاظ الدارجة من لغة العصر، ولكن ذلك شاهد بأن شعر الفقهاء والعلماء بحكم صلتهم بالنصوص الدينية حافظوا إلي حد ما علي مستوي التعبير التقليدي ، وراعوا ذلك علي قدر إمكاناتهم . ومن هؤلاء المنصوري وأمثاله .

وقد اهتم العلماء بالمنصوري واعتبروه شاعر القرن التاسع، ولم يفرد السيوطي لغيره من الشعراء ماأفرده له من الصفحات ، ولااختار لغيره ما اختاره له من نماذج شعره في عديد من الموضوعات في كتابه نظم العقيان، ولعل مما زكاه عند السيوطي صلته بوالده وبعض أقاربه وبلدياته .

ومهما يكن الأمر فإن المنصوري كان مصوراً كما قلت لنفسه وعصره فيما وصلنا من شعره. وقد عاش حتي نيف علي الثمانين ، وترك ديواناً ضخماً جمع فيه حصيلة وافرة مما نظم .

ومن شواعر العصر

الشاعرة فاطمة بنت القاضي كمال الدين محمود بن شيريز
ولدت سنة ٨٥٥ هـ

ولدت ونشأت بالقاهرة وتعلمت الكتابة وتزوجت من رجلين من علْيَةْ القوم. ولها نظم وحسن فهم. وحجت مراراً وجاورت.

ومن نظمها قصيدة كتبتها إلي السخاوي مطلعها :

قفا واسمعا مني حديث أحبتي   فأوصاف معناهم عن الحسن جلّتِ

وكتبت إلي قاضي مكة قصيدة مطلعها :

يابدر تمَّ أزال الشكَّ عـــن رائيَ   أنعم بقرب حبيبٍ فيك عن رائي

ولها مكاتبات إلي جماعة من الأدباء والأعيان والأكابر

ومن ذلك أن الشهاب المنصوري كتب إلي الزين سالم ببيتين هما :

أيا سيداً قد أحسن الخالق اسمه   وجملَهُ ، والله بالخـــلق عالـمُ

أعن بيد فيها أيادٍ لسائـــــلٍ   ولاتَـــخْشَ حسداً فإنك سالمُ

فقالت في هذا المعني ارتجالاً :

أيا سيداً عم الخلائقُ بـــــــرُّهُ   وإحـــسانه فرضٌ تضاعف لازمُ

أعن سـائلاً ياتيك والدمع سائل   ولاتخش من سوءٍ فإنك سـالمُ

وكان ذلك بحضرة جماعة من الأدباء، ففضلوا مقالته علي ماقال الشهاب واعترف الشهاب بذلك .

واستمرت علي نظم الشعر، ومدح أرباب الرتب حتي ماتت سنة ٩٤١ هـ بالقاهرة ودفنت بالقرافة .

شعراء التصوف

واستمر في هذا العصر الاتجاه الصوفي في الشعر علي اختلاف درجاته فمن الشعراء من أخذ بالتصوف في شعره علي طريقة صوفية العصر السابق، كما لاحظنا أمثال محمد بن إسرائيل، وتقي الدين السروجي وابن العفيف التلمساني والخيمي ، وغيرهم .

وهؤلاء المذكورون كابن أبي حجلة التلمساني، الذي ذكرنا أنه سار علي طريقة ابن الفارض وتأثر به في شعره تأثراً واضحاً.

ومنهم كذلك النواجي ، وعز الدين أبو البركات، وسعد الدين بن عربي وابن وفا الشاذلي .

إلاً أن منهم كابن وفا من استغرق التصوف معظم شعره .

وممن تأثر بالاتجاه الصوفي في الشعر، وَأَلَمَّ بمعاني الصوفيه، معظم شعراء العصر .

وقد كان التصوف كما أشرنا ظاهرة بارزه في الحياة الدينية في العصر المملوكي كله بدولتيه . وكان لابن عربي وابن الفارض خاصة أثر واضح في عقائد العلماء والمفكرين فضلاً عن فن الأدباء والشعراء .

وترد أشارات كثيرة في مراجع العصر إلي أثر هذين الشاعرين الكبيرين، وما دار حولهما من الجدل بين مؤيد ومعارض . وقد مر بنا القول عند الحديث عن الفقيه العراقي موقفه ومعارضته اتجاه الصوفية والحملة عليهم .

ونكتفي هاهنا بعرض نماذج من الشعر الصوفي ، فقد كان في معظمه قليل الجودة . ولعل من أبرز علماء الصوفية وشعرائهم العالم الأديب الشاعر شمس الدين النواجي .

النواجـــي

شمس الدين بن محمد بن حسن بن عثمان النواجي (توفي سنة ٨٥٩ هـ)(١) ينسب الي نواج بالقرب من المحلة بمحافظة الغربية.

شعره :

ومعظم شعره في الغزل، يطبعه هذا الطابع الصوفي، الذي غلب علي شعراء الصوفية عامة، من حيث المعاني ، والميل إلي استخداء بديع اللفظ والمعني، واستخدام معاني الغزل والخمر في الموضوعات الصوفية ومعانيها. وشعره لايرتفع إلي درجة سابقيه، وإن كان أحسن من كثير ممن ادعوا النظم في عصره ولم يبلغوا فيه مبلغاً كابن وفا وغيره.

وهو وابن أبي حجلة التلمساني قريبان في مستوي الشعر.

ومن شعره قوله :

حيِّ المنازلَ ذاتِ الشيـــــح والأرجِ ... وانشد فؤاد مشُوق للدّيار شـــجِ

وعج عليّ لُبانات سلع والنقافعسي ... نقضي لبانات صبٌّ بالهوي لهـجَ

وعدٌ عن قاعة الوعْسَاء إن بهـــا ... آرامَ سـرب تصيد الأُسْدَ بالغَنَـجَ

من كلّ من فتكتْ أسيافُ مُقْلَتَهـــا ... فينا وصيغت لها الأغمادُ بالمهجَ

مريضة الجفن إن أودَتْ بعاشِقهـــا ... فما علي طرفها الوسنانِ من حَرَجَ

ومنه قوله يردد نفس ابن الفارض :

بعيشك ياحادي ترفّقْ بمهجتـــــي ... وكررْ علي سَمْعِي حديث أحبتـــي

فذكرهم راحي وروحي وراحَتـــــي ... وحاني وألحاني وكأسي وحضرتي

أعد - يارعاك الله طيب حديثـــهم ... بأعذب ألحان وأطيب نغمـــةِ

ومل بي إلي تلعات سلع وحاجر وعرّج علي وادي طُوَي والثّنيّة
ولاتنْس حيَّ العامريَّة إنهــا تلاحظنا بالعنين في كل لحْظة
بروحي من بانت ، فبان تجـلُّدي وَوَلّتْ حياتي عندها حين ولّت

ويقول :

أطاع غرامَهُ وعصَي اللّواحي فزادَ نواحَه بين النّواحي
وأسكره الغرامُ بلا مُدام فراح معربداً من غير راح
أأصحابي ، وما أحلاه عنَدي دعاءٌ باسمكم بين الملاح
بحقِّ جَمَالِكُمْ لاتُبعِدُوني فمالي عن حماكم من بَراحَ
هبُوا أنيَ أسأت وقد عُرِفْتُمْ بحسن العفو ياعَرب البطاح
فجودوا باللقا كرماً وجوداً فإنَّ العُرْب تُعرف بالسَّماحِ

وهكذا نجد النواجي يدور في كثير من معاني شعراء الصوفية السابقين ، وقد يستخدم كثيراً من لفظهم وقوالبهم التعبيرية .

والحق أنه قد أصبح للشعر الصوفي قاموسٌ ، وصبغ الصوفية أشعار غيرهم كذلك بصبغتهم لرقة أشعارهم ، وتفوقها وجداناً وعاطفة.

ولم ينس النواجي موضوعاً هاماً من موضوعات الشعر الصوفي هو المديح النبوي، فقد وجه بعض قصائده إليه من مثل قصيدته الميمية التي يقول فيها (١):

عللوه بطيبةٍ وبرامَةْ وعريب النَّقا وحيَّ تهامَةْ
يارَعي الله جيرةً خيموا بالمنْحني من ضلوعه المستهامَةْ
قد حَمَوْا في الحِمي عقيلةَ خِدْرْ قتلت بالحاظ غزْلانَ رَامَةْ
كلما رام هواهَا خلاصاً وَجَدَ الوجْد خلفهُ وأمَامَهْ

(١) الكشكول : ص / ٢٩٧

إلي أن يقول :

فعلامَ البعادُ والصَّد والهجرُ وحتَّي مَتَي الجفا والملامَةْ

فعدُوه بزورةٍ من خيال في منامٍ عَساهُ يقضي مرامَهْ

عَمْرُكَ الله سائق الظعْنِ رفقاً بمسير فلا طيقُ دوامَهْ

وحنانيك خَلِّ قلباً عليلاً بحماهُم عَسَي يري أعلامَهْ

كلُّ عامٍ يُرومُ منهم وصالاً فعَسي أن يكون ذا العامُ عامَهْ

وقد اختار له أصحاب المختارات مجموعات ومقطوعات من شعره، ومنها مقطعات في موضوعات جارية، يصوغها في بيتين أو أكثر تلفُّها الكناية والتورية، أو اللغز من مثل قوله في عوَّاد :

فُتنتُ بحسن عوَّادٍ بديع مَليح الشَّكلِ معشوقِ الشَّمايلْ

يُحرِّكَ عودَهُ فينا بلطفٍ فيقتلنا بأطرافِ الأناملْ

ويقول ملغزاً في ابن سعيد :

ما اسم لعبدٍ إن تزلْ عَيْنَهُ يَعُدْ في الحالِ لنا سيِّدا

عليه فرض الصوم لكنه إذا مضي الربْعَ له عيَّدا

وأعجب ابن اياس ببعض مقطعات تظهر فيها صنعة بديعية متأخرة عرفت بالاكتفاء تتمثل في القافية من مثل قوله :

خليليَّ هذا ربع عزةَ فاسعيا إليه. وإن سالت به أدمعي طوفا«ن»

فجفني جفا طيب المنام وجفنُها جَفَاني، فيالله من شرك الأجْفَا «ن»

إذ نلاحظ أن كلمة القافية يصح فيها حرف الفاء والألف للرويّ أو الفاء والألف والنون، فأصل الكلمة وفق السياق كاملة بالنون فإذا اكتفي القارئ أو المنشد بالوقوف عند الفاء والمدّ بالألف تمّ المعني والوزن، ولهذا سمي الاكتفاء، ويبدو أن

---

(١) البدر الطالع : ٢ / ١٥٦

النواجي اهتم بهذا اللون فجمع منه مجموعاً في مصنف سمّاه « الشفاء في بديع الاكتفاء »(١).

ومن هذا الاكتفاء قوله كذلك :

ياضيفَ بيتِ الله نِلْتَ المنى   منذ تحصَّنْتَ بأمِّ القُرا «ن»

لَبِّ بحجٍّ واعتمار وقلْ   لله ماأسعد هذا القِرا «ن»

فالقافية فيها جناس بين قُرَان وهو الكتاب الكريم ، والقران، وهو قران الحج بالعمرة، واكتفي في البيت الأول دون النون فأصبحت القاف والراء الممدودة أيضاً وتعني الزاد ويصبح المعني مختلفاً في البيتين باختلاف القافية عند الاكتفاء. وهذا ضربٌ من اللعب اللفظي الذي أسرف فيه المتأخرون فصيَّروا الشعر مسلاةً ، وملهاةً يقطعون بها الوقت ويتلذذون بما يلعبون فيه ويعبثون . وهذا اللون من البديع ضربٌ من الزخرف الشكليّ، الذي لازم أذواق العصر في كل فنونهم فأسرفوا في زخارف الشكل وتبدي ذلك في لباسهم، وأدوات معيشتهم ، وزخرف مساكنهم وعباداتهم، وكتبهم ومصاحفهم ، بل وفيما يتكلفونه من تصنع في أحوال معاشهم في مجالسهم ومقاماتهم .

وكان النواجي درس الحديث وتعمق فيه - وكان علم الحديث في العصر من أجلّ العلوم ومقدماً علي غيره - فقد أخذ علي كبار شيوخه كالعلامة ابن حجر. ورافقه ومدحه بقوله :

أيا قاضي القضاة ومن نداهُ   يوثرُ بالأحاديث الصحاح

وحقك ما قصدت حِمَاكَ إلاَّ   لآخذ عنك أخبار السَّمَاح

فأروي عن يديك حديث وهبٍ   وأسند عن عطا بن أبي رباح

ونلاحظ توظيفه لمصطلح الحديث في معاني المديح عن طريق التورية والإشارة والتلميح باستغلال لفظ المصطلح ورجال الحديث واشتراكها الدلالي مع الفاظ المنح والعطاء والكرم وما إلي ذلك من مترادفات .

ولايقتصر توظيفه للفظ الحديث في معاني المديح ، بل يوظفه في معاني الغزل

كأن يقول :

إذا شهِدَت محاسِنُه بأنـي   سلوتُ، وذاك شئٌ لايكونُ

أقول حديث جَفْنِكَ فيه ضعفٌ   براويه ، وعطفك فيه لينُ

ويقول :

يامن حديث غرامي في محبتهم   مسلسلٌ، فؤادي منه معلولُ

روت جفونكم أني قتلتُ بها   فيالهُ خبراً يرويه مكحولُ

وللباحث في علوم الدلالة زاد لاينفذ العصرفي لنظ العصر . فقد أدخل الشعراء والأدباء والمؤلفون كثيراً من الدلالات اللفظية غير التقليدية مما يعدُّ تحولاً كبيراً في لغة الأدب الإنشائي والشعر خاصة .

علي بن وفا (ت ٨٠٧ هـ)

هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن وفا

الشيخ الواعظ ، الصالح ، الأديب الأستاذ المعروف بسيدي علي بن رفا الإسكندري الأصل المالكي الشاذلي، صاحب النظم الفائق، والألحان المونقة الحسنة والحزب المعروف.

ولد بالقاهرة سنة ٧٥٩ هـ، في حياة والده الشيخ الصوفي محمد بن محمد ابن وفا، ومات والده وهو صغير، فكلفه هو وأخوه أحمد وصيهما شمس الدين أحمد الزيلعي فأدبهما، وفقههما، فكان علي هذا أحسن حال، وأجمل طريقة، فلما بلغ سبع عشرة سنة جلس مكان أبيه، وعمل الميعاد ، وشاع ذكره، وبعد صيته، وانتشر أتباعه .

وذكر بمزيد من اليقظة وجودة الذهن، والترقي في الأدب والوعظ .

قال ابن حجر (١): « وحصل له أتباع، وأحدث ذكراً بألحان وأوزان يجمع الناس عليه. وكان له نظم كثير، واقتدار علي جلب الخلق، مع خِفَّة ظاهرة » .

وكانت معظم إقامته بالروضة علي النيل .

وذكر ابن حجر مرة أخري في معجمه أنه اشتغل بالأدب والعلوم، وتجرد مدة وانقطع، ثم تكلم علي الناس، ورتب لأصحابه أذكاراً وتلاحين مطبوعة استمال بها قلوب العوام، ونظم ونثر، وكان أصحابه يتغالون في محبته وفي تعظيمه، ويفرطون في ذلك .

وقال في الدرر الكامنة عن والده إنه أنشأ قصائد علي طريق ابن الفارض وغيره من الاتحادية، ونشأ ابنه علي طريقته فاشتهر في عصرنا كاشتهار أبيه ثم أخوه أحمد من بعده، ثم ذريتهم، وأتباعهم فيهم غلو مفرط .

---

(١) إنباء الغمر : ٥ / ٢٥٥

وقال المقريزي إنه كان جميل الطريقة، مهاباً معظماً. صاحب كلام بديع ونظم جيد، وتعددت أتباعه وأصحابه، ودانوا بحبه، واعتقدوا رؤيته عبادة، وتبعوه في أقواله وأفعاله، وبالغوا في ذلك مبالغة زائدة، وسمَّوا ميعاده المشهد، وبذلوا له رغائب أموالهم، هذا مع تحجبه وتحجب أخيه التحجب الكثير إلا عند عمل الميعاد، أو البروز لقبر أبيهم، أو تنقلهما إلي الأماكن بحيث نالا من الحظ ما لم يرتق إليه من هو في طريقهم حتي مات بمنزله في الروضه في يوم الثلاثاء ثاني عشر ذي الحجة سنة سبع وثمانين، ودفن عند أبيه بالقرافة.

قال : ولم أر قط في جنازة من الخفر مارأيت في جنازته، وأصحابه أمامه يذكرون الله بطريقة تلين لها قلوب الجفاة ».

وقال غيره : « كان فقيهاً عارفاً بفنون من العلم ، بارعاً في التصوف حسن الكلام فيه، يعجب الصوفية غائبة، مستحضراً للتفسير. بل له تفسير ونظم جيد. وديوانه متداول بالأيدي. وجيد شعره أكثر من رديئه.

وأما نظمه في التلاحين والرقائق، وتركيزه للأنغام فغاية لاتدرك، وتلامذته يغالون فيه إلي حد يفوق الوصف ».

وقال ابن حجر : « وأحدث ذكراً بألحان وأوزان. تجمع الناس إليه، وكان له نظم كثير واقتدار علي جلب الخلق مع خفة ظاهرة ».

وابن حجر شيخ فقيه سني، لايميل إلي مذهب المتصوفة ، فهو من أصحاب الحديث والسنة، لذلك نجد في ترجمته لعلي الوفائي وبعض من ذهب مذهبه تحاملاً ونقداً ، وكان معاصراً له ، رآه كما ذكر مرتين . يقول عن إحداهما « اجتمعت به مرة في دعوة ، فأنكرت علي أصحابه إيماءهم إلي جهته بالسجود فتَلاَ هو، وهو في وسط السماع يدور : « فأينما تولوا فثم وجه الله» فنادي من كان حاضراً من الطلبة : كفرت . كفرت . فترك المجلس وخرج هو وأصحابه »(١).

والطلبة الذي صاحوا به لاشك من أصحاب الحديث أو من أهل السنة الذين لايعتقدون في آراء الصوفية، ويعادونهم.

---

(١) إنباء الغمر : ٥ / ٢٥٦

ومما ذكره ابن حجر والمقريزي وغيره من المؤرخين المعاصرين يتضح أن الرجل كان ينظم الشعر الصوفي علي طريقة والده الذي اقتدي بابن الفارض، وكان ينظمه للنشيد، وكان منه القصيد والمقطعات الخفيفة، ويبدو أنه كان يقوم بتلحينها وانشادها في أوقات السماع التي يعقدها لمريديه للذكر والإنشاد.

وكان يتوسط هو الحلقة ويرقص رقص الصوفية وهو يذكر وينشد ولعل هذا ماجعل ابن حجر ينعته بالخفة الظاهرة.

ويعلق أحد الصوفية علي قول ابن حجر بقوله : « هذه أحوال ربانية لم يطلع عليها إلا من أطلعه الله تعالي ، فيظن الرائي أنها خفة، وإنما هي واردات ».

قال ابن حجر : «وله من التصانيف : «الباعث علي الخلاص في أحوال الخلاص» و «الكوثر المترْعْ في الأبحر الأربع». وشعره ينعق بالاتحاد المفضي إلي الإلحاد، وكذا نظم والده».

ويتهمه ابن حجر بأنه في آخر أيامه نصب في داره منبراً وصار يصلي الجمعة هو ومن يصاحبه فيه مع أنه مالكي المذهب يري أن الجمعة لاتصح في البلد ولو كبر إلا في المسجد العتيق من البلد .

قال: وله ديوان شعر وموشحات وفصول ومواعظ. ومن شعره :

أنا مكسور وأنتم أهل جبر   فارحموني فعسي يجبر كسري
ياكرام الحيّ ياأهل العطا   انظروا لي واسمعوا قصة فقري

ولم يكن ابن حجر من علماء الحديث وحده الذي حمل علي ابن وفا وهاجمه ، بل نجد الحافظ زين الدين العراقي يؤلف كتاباً يرد به علي كتابه «الباعث علي الخلاص» فيسميه العراقي «الباعث علي الخلاص من حوادث القصاص»(١).

ولعلي بن وفا ديوان منه نسخ مخطوطة في بعض المكتبات ودار الكتب. وجمع له صاحب روض الآداب جملة من شعره وشعر ابن أخيه أبي الفضل بن وفا. كما

(١) ذكرنا في حديثنا عن العراقي ان ابن وفا رد علي العراقي علي خلاف هذه الرواية

جمع له النواجي قصائد في «تأهيل الغريب». كقوله :

هل من يبشرني بيوم لقاء — أعطيه من فرط السرور ردائي
لو لم أكن عبداً لكنت وهبته — روحي، وتلك هدية الفقراء
موتي علي دين المحبة يافتي — عيش جديد طاب فيه بقائي
تُلقي بهم سبب الحياة بروحهم — ياحبذا منيتي وهنائي
ياحبذا طرحي علي أبوابهم — وقد انطوي في بسطهم معنائي
وحياتهم إن متّ فيهم مخلصاً — فلأملأنّ الكون بالسّراء
ولأمنحنّ العارفين جميعهم — بمسرتي ومحبتي وولائي
حتي تقول الكائنات بأسرها — إن اللقاء يزيد كل شقاء
ذهب الخفا، وجب الوفا حصل الصفا — ثبت العطاء، وزال كلُّ غطاء
فاطرب وطب، واحضر وغب، لاتحتجب حضر الحبيب وغاب كل سواء
بشراك قد حصل الصفا بعد الجفا — فلك نهنا أبداً بغير عناء

وقال :

رح إلي الراح علي رغم الضّحا — ولحا انه عليها من لحي
خمرة الحبِّ التي كاساتُها — لُمسُها بدّل حزني فرحا
أنجم طاف بها بدر الدُّجي — اخجلت بهْجَتُها شمس الضُّحي
راحة الأرواح في راحته — تنتفي نهمَّ وتبقي الفرحا
أيُّها اللائمُ فيها خَلِّني — إنَّ عُذري في هواها وضحا
لاتلومنَّ مُعَنَّي إن بكي — أو تغنَّي أو شكا أو فضحا
إنما العشق زناد قادحٌ — وله حَرَّانُ قلبي قدحاً
فاطّرح قلبك من هذا العنا — واطّرح لومك مَعْ من طرحا

وقال :

بشراك قد رفع البُرْدا هذا المحجبُ قد بدا
مابين قلبك والهدي شيءٌ سوى أن تشهدا
ولقد رأيت عواذلي لما رأوه سجَّدا
سكري حياري ينشدون والله ما هذا سُدَي
وممنع الحاظه روحي لعينيه فِدَي
في كل عضو منه قدْ جمع الجمال المفردا
هزَّ المعاطف فازدري بالغصن اسكره الندي
وسقي التوردُ خدَّه ماءَ الحياة فعربدا
لحظ برقة غزله أسر الغزال الأغيدا
أوحي بسحر جفُونه بين الصحاح فبرَّدا ؟
لو كان يُورَدُ ثغرهُ بالطرف لم يَشْكُ الصَّدا
ياعاذلي في عشقِهِ مالي براح إنْ بَدا
أنا عبده أبداً علي رغم الحوادثِ والعِدا

وقال:

حلفت لوعتي بنار الخدود بسوَي الرشف مالها من خُمودِ
وعلي الحال أقسم الصبر أني لست أحلو بغير شهد الشهودِ
ياأُهَيْلَ الغرام إني غريب قتلت فيَّ لوعتي وصدودي
وحياة الغرام إن لم تداووا جُرح قلبي ففيكُمُ وجودي
ويسحُّ الآمال منكم غِزَالُ جالَ بالطرفِ في قلوب الأسودِ
جعل الحسن لحظه في دلالٍ يتهادي مابين بيض وسودِ

كعبةٌ في الجمال حجّتْ إليها ... من أماني الفؤاد خير الوفودِ

لو رأته شمس الضحي إذ تجلي ... مثل بدر الدُجي هوت للسجودِ

فسلامٌ علي حماه سلامٌ ... تَلْقَ دار السلام فيها خلودي

ياحبيبي أنتجز بوصلك وعدي ... إن في الوصل قطع قلب الحسودِ

قد عهدناَ الوفاء منك ولكن ... حاسدي قد أشاع نقض عهودي

جد حبيبي فإن قلبي أضحي ... طائراً بين قاهر وودُودِ

كلما قال عزة بحياتي ... إذهبي، قال لطفةً بي عودي

ليت شعري مالك المراحم كلاً ... ارحم العبْدَ رحمة المعبودِ

فشفيعي إليك أنت وحسبي ... بشفيعي ومنتهي مقصودي

وقال :

حذاراً من ظبا الوادي حذاراً ... فقد غدتْ الأسودُ لها أساري

وإيَّاك الحِمَي فيه مهاةٌ ... تَصيدُ القلبَ قسراً واختيارا

بمغناطيس ناظرها استطالتْ ... علي جذْب القلوب لها اقتسارا

إذا استقبلت ماضي مُقْلَتَيْهَا ... دعا في الحال قلبُك فاستطارا

فتاة كالغزالة لو تبدَّتْ ... لجنح الليل لم يبْرحْ نهارا

بعذراء المحاسنِ قد أقامت ... لنا أعذار من خلع العذارا

فيالله قلبي في هواهَا ... بها عن جسمي المضْنَي تواري

فني فيها فعاش بها هنيئاً ... خليقاً في الوري لم يخش عارا

لقد اضحت لهذا القلب قلباً ... وقد أمسي لنا سكناً وجارا

فطوفوا حول هذا البيت تحظوا ... برؤية وجهها فيه جهارا

وقال :

نعم هو محبوبي إن تباعد أو دنا ... ومعشوق قلبي إن تلطف أو سَطا

أنا المخلصُ المغبوط في الحق لاترى لشيطان سلطانٍ عليَّ تسلُّطا
غفولٌ عن الشكوي إذا ماتعيَّنت ولكنني في الحبِّ أهدي من القطا
رويدك يالاحي فقد غلبَ الهوي وهذا الذي أهواه قد كشف الغطا
وقد قام عذرُ الصمت في طلعة الذي دنا بجمال للملاحة أسقَطا
حبيبٌ يضيق القول عن وصف حسنه بكل كمالٍ لم يزل واسع العطا

وقال :

وحق الوفا لاأشتكي لوعة الجفا لغير حبيبي حُرمةً وتحفُّظا
ولاأسمعُ العُذَّالَ إلا مجاحدي وإني بغير الشكر لنْ أتلفظا
ولاعشت إلا راضياً فرحاً به ولو مات حسادي عليه تَغَيُّظا
أراهُ وقد نامت عيون حواسدي ومن عشق البدر المنير تيقظا
نعم هو محبوبي علي كل حالةٍ تعطفَ لطفاً أو تجنَّي وأعلظا
مدي الدهر مالي غير ظلِّ جنابه ولَوْ أن قلبي من محبته لظي

وقال :

طمَّعتُ قلبي بالسلوّ فما طمِعْ وعذلْتُهُ ظُلماً عليك فما سَمِعْ
ودعوته لسَّوي هواك فلم يجبُ وأمرته بالصبر عنك فلم يُطِعْ
هذا هو القلبُ الذي لاأرتاع من سطوات سلطان الغرام ولاجزعْ
قد أوقَدتْ تلكَ العيونُ لحربه نارَ الخدود فخاضها كالمستمِعْ
ياحبذا قلبي بوجهك مغرماً قد واصل الصبَّ الذي لاينقطعْ
خلع الجمال عليه خِلعَةُ عشقه لما رآه علي خلاعته طبعْ
إن يمنعوا رؤياك نادي دمعه هذا هو الصبُّ الذي لايمتنعْ
سر الصبابة غَيْرةٌ، ومذلةٌ لكن وأنت علي السرائر مطلع
فارحم وعُدْ، واسمع وجُدْ واعطف علي صَبٍّ صَبا لصنيع لطف ممتنع

وإذا ماقسنا هذا الشعر لعلي بن وفا بمقاييس الشعر التقليدية وجدناه يتدني عن مستوي الشعراء المجيدين بتجاوزاته العروضية واللغوية وابنيته وتراكيبه ، ومعانية العفوية ، وربما رفعه لدي مريديه من الصوفية وعند بعض المعجبين به من معاصريه مافيه من ملاءمته للغة العصر وصياغاته ولما يشيع فيه من تراكيب وألفاظ من العامية السائدة التي تستهوي الجموع وترضي الذوق الشعبي . كذلك تعمده دغدغة الحس الديني بما يلجأ إليه من استخدام ألفاظ قرآنية . أو إشارات أو تلميحات من الكتاب والسنة ويرفع من وجدان السامعين إنشاده . ومـاتدور بعض معانيه حول الوَجْد وطلب القربي من الله والمحبة والشوق مما يُلهبُ مشاعر العامة ، وبخاصة إذا صاحبها الرقص والغناء بما يهيء النفوس إلي ضروب من النشوة يتغافَلُ فيها العقل أو يغفل ، ويهيم الفردُ في حالة مما يدعونه الوجد، والجذب .

وهي حالات يبلغها المنتشي بالطرب والموسيقي والمنتشي بالخمر إذا سكر تذهلُهُ عن واقعه ، لذا تري هؤلاء المنشدين من الصوفية يتحدثون دائماً عن سكر الوجد، وخمر الحب ، وإذا كانت النفس قد تُكْتسبُ حالة من الحالات بالإيحاء . فلعلها تُكْسبُ نشوة السكر هذه من شعر الصوفية وأحاديث الكؤوس والخمر المتلألئة ونورها ونشوتها إيحاءٌ فيحصل لها مع النغم والإيقاع الراقص مايتحدثون عنه .

فأما الشخص العادي إذا ماقرأ هذا الشعر فإنه لايجد له في نفسه صدىً وقد يضيق به وبغرابة تعبيراته وألفاظه ، وضعف لغته وهلهلة بنائه وإيقاعه .

علي أن ابن وفا ،وأباه محمداً قد اتبعا ابن الفارض في معانيه وصياغاته ولكن شتان، فابن الفارض شاعرٌ، وهو يمزج شاعريته بالمعاني الصوفية أما علي بن وفا وأبوه فهما أقرب إلي الناظمين ، وقدر الشاعرية في أشعارهما ضئيل لايسمو إلي مستوي شعر ابن الفارض الذي تحس بالشاعرية في ثنايا شعره تلهب عاطفتك، وتمتع ذوقك دون أن تتعرف علي معانيه الصوفية .

أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن وفا

وهو بن أخ الشاعر علي بن محمد بن وفا الشاذلي
وقد مات أبو الفضل غرقاً بالنيل سنة ٨١٣ هـ
وله شعر جيد إلي الغاية كما يقول ابن العماد في الشذرات (١).

ومن شعره قال :

وَأميلُ عِطْفي إلي أعطاف هيفـــاءِ وجداً، واظمَا لو أصْبُو للميـــاءِ
من ثغرها اسكرت عقلي بخمر هوًى في صمتها ملكت قلبي وأعضائي
أبدت بمقلتها سمراءَ قد قتلـــت بما ادارته مِن كأسٍ وصهبـــاء
بأي معجبة من ذا وذاك أتـــت بالماء في النار أم بالنار في الماء
تجمعت لي معاشيق الأنام بهـــا اللحظ هندي و ذي الأجْفَانُ كحلاء
ألهو بليلي وسُعدي والربابِ معـــاً وليس قصدي منها غير اسمـــاء

وتمضي القصيدة علي هذا النحو من مهلهل المعني واللفظ ، وهو في هذا النمط يحاول أن يجري في ذيل المتقدمين من شعراء الصوفية في القرن الماضي الثامن والذي قبله من أمثال الخيَمي والعفيف التلمساني ، وابن اسرائيل وابن الفارض ، ولكن أني له اللحاق بهم وقد قعدت به أداته ، واختلت المعاني في مخيلته ، فاضطربت صوره وتعبيراته . وهو يتبع عمه علياً في كثير من تعبيراته وألفاظه .

---

(١) ١٠ ، ص: ٩٧ ، ص : ١٠٦

المراجـــع

١ - ابن حجة الحموي . دراسة للدكتور محمد الربداوي، طبع دار قتيبه ١٩٦٦م .

٢ - ابن إياس - دراسات وبحوث. بإشراف د. أحمد عزت عبد الكريم. طبع هيئة الكتاب ١٩٣٣م .

٣ - إغاثة الأمة بكشف الغمة لتقي الدين المقريزي .

٤ - إنباء الغمر بانباء العمر لابن حجر العسقلاني .

٥ - انباء الهصر بأنباء العصر للصيرفي تحقيق لدكتور حسن حبشي. طبع القاهرة ١٩٧٠م .

٦ - بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس .

٧ - البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع للشوكاني

٨ - بغية الوعاة للسيوطي .

٩ - تاريخ دولة المماليك لوليم موير. ترجمة محمود عابدين وسليم حسن - طبع القاهرة ١٩٤٧م .

١٠- تأهيل الغريب - مخطوط - للنواجي .

١١- تاريخ الناصر للشجاعي - طبع المعهد الألماني بالقاهرة ١٩٧٨م .

١٢- التاريخ عند المسلمين لروزنتال .

١٣- تاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا طبع بغداد ١٩٦٣م .

١٤- التِّبْر المسْبُوك للسخاوي .

١٥- التيسير والاعتبار لمحمد بن خليل الأسدي بتحقيق للدكتور عبد القادر أحمد - طبع دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٦٧م .

١٦- التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل اللـه العمري - طبع بمصر ١٩١٢م
١٧- توشيع التوشيح للصفدي تحقيق البير حبيب - طبع ببيروت ١٩٦٦م .
١٨- ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي - طبع مصر ١٣٠٠ هـ .
١٩- الجامع المختصر في التاريخ لعلي بن أنجب .
٢٠- جيش التوشيح للسان الدين بن الخطيب، تحقيق هلال ناجي - طبع تونس ١٩٦٨م .
٢١- الحالي والعاطل لصفي الدين الحلي . تحقيق ولهلم هوزباخ - طبع ويسبادن ١٩٥٥م .
٢٢- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي. جزآن - طبع مصر ١٣٢٧ هـ .
٢٣- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي. لعبد اللطيف حمزة - طبع مصر ١٩٤٧ م .
٢٤- حياة الحيوان الكبري للدميري .
٢٥- خزانة الأدب لابن حجة الحموي - طبع مصر ١٣٠٤ هـ .
٢٦- الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية. بتحقيق وليم برينر - طبع جامعة كاليفورنيا ١٩٦٢ م .
٢٧- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . لابن حجر العسقلاني - مصر ١٩٤٧ م .
٢٨- ديوان الصبابة لابن أبي حجلة - طبع حجر . وبتحقيق الدكتور محمد زغلول طبع منشأة المعارف ١٩٨٧م .
٢٩- ديوان ابن حجر العسقلاني - طبع حيدر آباد بالهند ١٩٦٢ م .
٣٠- ديوان برهان الدين القيراطي . مخطوط مصوز عن دار الكتب المصرية .
٣١- ذيل رفع الإصر للسخاوي .

٣٢- رفع الإصر عن قضاة مصر للقاضي ابن حجر. تحقيق د. حامد عبد المجيد - طبع مصر ١٩٦١.

٣٣- روض الآداب للشهاب الحجازي مخطوط مصور عن دار الكتب .

٣٤- ذيل مرآة الزمان .

٣٥- الريحانة ورشف طلا الحانة

٣٦- الزهرة لابن داود الظاهري جـ ٢ - طبع بغداد ١٩٥٧م .

٣٧- سكردان السلطان لابن أبي حجلة التلمساني - طبع في ذيل المخلاة للعاملي .

٣٨- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي . تحقيق نعيم محمد شلتوت - طبع الكاتب العربي بمصر ١٩٦٧م .

٣٩- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي - طبع بالقاهرة ١٣٢٦ هـ .

٤٠- سيرة القاهرة لستانلي لانبول . مترجم .

٤١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي - طبع مصر ١٣٥١ هـ .

٤٢- صفحات لم تنشر من ابن إياس ، بتحقيق د. حسن حبشي .

٤٣- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي - طبع دار الكتب بالقاهرة.

٤٤- طبقات المفسرين للداودي .

٤٥- الطرق الصوفية في مصر - للدكتور عامر النجار. طبع دار المعارف بمصر ١٩٩٠م .

٤٦- عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم - طبع القاهرة١٩٤٧ م.

٤٧- فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، بتحقيق الدكتور احسان عباس - طبع ببيروت .

٤٨- فنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن - طبع دار الكتب بمصر ١٩٤٧م

٤٩- الكشكول لبهاء الدين العاملي جزآن - طبع الحلبي ١٩٦١م .

٥٠- مرآة الزمان ليوسف بن قزاوغلي - طبع الهند .

٥١- مطالع البدور من منازل السرور للغزولي .

٥٢- معيد النعم ومبيد النقم للسبكي - طبع لندن ١٩٠٨م .

٥٣- المخلاة لبهاء الدين العاملي .

٥٤- المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي .

٥٥- معالم القربة في أحكام الحسبة لابن الأخوة. تحقيق روين ليوي - كبردج ١٩٣٧م .

٥٦- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون بتحقيق محمد مصطفي - طبع القاهرة ١٩٦٢م .

٥٧- المماليك في مصر لأنور زقلمة - طبع القاهرة ١٩٣٠م .

٥٨- المنهل الصافي لابن تغري بردي - طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٦م .

٥٩- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري جـ ٦ بتحقيق د. أحمد زكي باشا ١٩٢٤م .

٦٠- المعيار في فن الأشعار لمحمد بن أحمد الأندلسي - مخطوطة مصورة عن دار الكتب المصرية رقم ٦١١٤ أدب .

٦١- نظم العقيان في أعيان للسيوطي، تحقيق فيليب حتي - نيويورك ١٩٢٧م .

٦٢- نظم دولة المماليك للدكتور عبد المنعم ماجد - طبع الأنجلو ١٩٧١م .

الفهـــرس